

لجنة التأليف والترجمة والنشر

اغناطيوس يوليانوس كراتشكوفسكى

تاريخ

الأدب الجغرافي العربي

نقله إلى اللغة العربية

صلاح الدين عثمان هاشم

قام بمراجعته

إيفور بليانف

القسم الأول

اختارته

الأكاديمية القبطية

في

جامعة الدول العربية

هذه ترجمة كتاب

IGNATI IULIANOVICH KRACHKOVSKI

ISTORIA
ARABSKOI
GEOGRAFICHESKOI
LITERATURY

MOSKOVA — LENINGRAD
1957

محتويات الكتاب

القسم الأول

الصفحة

مقدمة المترجم	١
مقدمة الناشر	٨
مقدمة المؤلف	١٤
مدخل	١٧
١ عرض عام	١٧
٢ تاريخ دراسة الموضوع . المؤلفات ذات الطابع العام . هدف هذا الكتاب	٢٥
الفصل الأول : الجغرافيا عند العرب قبل ظهور المصنفات الجغرافية الأولى	٤٠
الفصل الثاني : بداية الجغرافيا الرياضية عند العرب	٦٩
الفصل الثالث : جغرافيو المدرسة اليونانية والزيجات الكبرى	٩٨
الخوارزمي (ص ٩٨) ؛ سهراب (ص ١٠٣) ؛ يعقوب الكندي (ص ١٠٥) ؛ البتاني (ص ١٠٥) ؛ ابن يونس الصديقي (ص ١١٠) ؛ إبراهيم الزرقالي (ص ١١١) ؛ الخازني (ص ١١٢) ؛ المراكشي (ص ١١٢) ؛ نصير الدين الطوسي (ص ١١٣) ؛ محمود الشيرازي (ص ١١٥) ؛ ألوغ بيك (ص ١١٦) ؛ علي القوشجي (ص ١١٦) .	
الفصل الرابع : الجغرافيون اللغويون ورحالو القرن التاسع	١٢٤
مؤرج السدوسي ، أبو حنيفة الدينوري (ص ١٢٤) ؛ النضر بن شميل ، أبو عبيد (ص ١٢٥ - ١٢٦) ؛ هشام بن الكلبي (ص ١٢٦) ؛ الأصمعي ، سعدان بن المبارك (ص ١٢٧) ؛ عرام بن الأصمعي (ص ١٢٧) ؛ ابن لغزه الأصفهاني ، وكيع القاضي ، الجاحظ (ص ١٢٨) ؛ المروزي ، أحمد السرخسي (ص ١٣١) ؛ إبراهيم بن المهدى (ص ١٣٢) ؛ البطال (ص ١٣٣) ؛ محمد بن موسى ، مسلم الجرمي (ص ١٣٣ -	

الصفحة

(١٣٤) ؛ هارون بن يحيى (ص ١٣٥) ؛ يحيى بن الحكم البكرى الملقب بالغازل (ص ١٣٥) ؛ المقررون (ص ١٣٦) ؛ قصص التجار عن البلاد الشرقية (ص ١٣٨) ؛ خط سير تميم في بلاد الصين (ص ١٣٨) ؛ سلام الترجان (ص ١٣٩ - ١٤٠) ؛ « التاجر سليمان » (ص ١٤١ - ١٤٢) ؛ ابن وهب ، أبو زيد السيرافي (ص ١٤٢) ؛ القصص والطرق البحرية (ص ١٤٢ - ١٤٥) .

الفصل الخامس : المصنفات العامة في الجغرافيا في القرن التاسع . الجغرافيا الإقليمية في

القرنين التاسع والعاشر ... ' ١٥٥

ابن خردادبه (ص ١٥٥ - ١٥٨) ؛ اليعقوبي (ص ١٥٨ - ١٦١) ؛ البلاذري (ص ١٦١) ؛ ابن الفقيه (ص ١٦٢) ؛ ابن رسته (ص ١٦٤) ؛ قدامة بن جعفر (ص ١٦٥ - ١٦٦) ؛ مؤرخو المدن - مكة ، بغداد ، دمشق ، بخارا (الأزرق ، الفاهقي ، أحمد طيفور ، الخطيب البغدادي ، النرشقي) (ص ١٦٧ - ١٦٨) ؛ ابن عبد الحكم ، الكندي (١٦٨ - ١٦٩) ؛ ابن زولاق ، محمد الوراق ، أحمد الرازي (١٦٩) ؛ الهمداني (١٧٠ - ١٧٢) .

الفصل السادس : المسعودي والرحالة الذين زاروا الأصبغاق الشمالية في القرن العاشر ١٧٧

المسعودي (ص ١٧٧ - ١٨٥) ؛ ابن وصيف شاه (ص ١٨٥) ؛ ابن فضال (ص ١٨٦ - ١٨٧) ؛ أبو دلف (ص ١٨٨ - ١٩٠) ؛ إبراهيم بن يعقوب (ص ١٩٠) ؛ الأسواني (ص ١٩٢) .

الفصل السابع : المدرسة الكلاسيكية لجغرافي القرن العاشر ... ١٩٧

البلخي (ص ١٩٨) ؛ الإصطخرى (ص ١٩٩) ؛ ابن حوقل (ص ٢٠٠) ؛ الخارطاط (ص ٢٠٥ - ٢٠٨) ؛ المقدسي (ص ٢٠٨ - ٢١٥) .

الفصل الثامن : جغرافيو القرن العاشر الآخرون ... ٣١٩

البيهقي (ص ٢١٩ - ٢٢٣) ؛ « حدود العالم » (ص ٢٢٣) ؛ مطهر بن طاهر المقدسي (ص ٢٢٤) ، اخوان الصفا (ص ٢٢٦) ؛ إسحاق بن حسين (ص ٢٢٩) ؛ المهلبى (ص ٢٣٠) ؛ ابن القاص (ص ٢٣٠) ؛ الفهرست (ص ٢٣٢) ؛ أبو عبد الله محمد الخوارزمي (ص ٢٣٣) ؛ الشافعي (ص ٢٣٥) ؛ التنوخي (ص ٢٣٦) ؛ هواشير (ص ٢٣٦) .

(٧)

الصفحة

الفصل التاسع : البيروني وجغرافيو القرن الحادى عشر بالمشرق ... ٢٤٥

البيرونى (ص ٢٤٥ - ٢٥٨) ؛ الكردىزى (ص ٢٥٨) ؛ ناصر خسرو (ص ٢٥٩) ؛
ابن بطالان (ص ٢٦١) ؛ محمود الكاشغرى (ص ٢٦٢) ؛ المروزى (ص ٢٦٣) .

الفصل العاشر : جغرافيو القرن الحادى عشر والثانى عشر بالمغرب ... ٢٧٣

ابن عبد البر ، العذرى (ص ٢٧٣) ؛ البكرى (ص ٢٧٥) ؛ الزهرى (ص ٢٨٠) ؛
الإدريسى (ص ٢٨١ - ٢٩٥) ؛ أبو حامد الفرنطى (ص ٢٩٥ - ٢٩٨) ؛ ابن العربى
(ص ٢٩٩) ؛ ابن جبير (ص ٢٩٩ - ٣٠٢) ؛ « كتاب الاستبصار » (ص ٣٠٢) ؛
ابن مسائق (ص ٣٠٣) .

الفصل الحادى عشر : جغرافيو القرن الثانى عشر بالمشرق ... ٣١٦

الخرق (ص ٣١٦) ؛ الزنجشبرى (ص ٣١٧) ؛ السمعانى (ص ٣١٨) ؛ الهروى
(ص ٣٢٠) ، الاسكندرى ، الأصفهائى ، الخازمى (ص ٣٢٢ - ٣٢٣) ؛ ابن البلخى
(ص ٣٢٤) ؛ أحمد طوسى (ص ٣٢٤) ؛ محمد بكران (ص ٣٢٦) ؛ محمد عوفى
(ص ٣٢٦) .

الفصل الثانى عشر : ياقوت ومؤلفو النصف الأول للقرن الثالث عشر ... ٣٣٥

ياقوت (ص ٣٣٥ - ٣٤٤) ، عبد الطيف (ص ٣٤٤) ؛ النباقى (ص ٣٤٨) ؛
عبد الواحد المراكشى (ص ٣٤٨) ، النابلسى (ص ٣٤٩) ؛ ابن الجاور (ص ٣٥٠) .

الفصل الثالث عشر : النصف الثانى من القرن الثالث عشر ... ٣٥٦

ابن سيمد (٣٥٦) ؛ زكريا القزوينى (ص ٣٥٩) ؛ العبدى (ص ٣٦٧) ؛ النشريسى ،
الطيسى (٣٦٨ - ٣٦٩) ؛ ابن شداد (ص ٣٦٩) ؛ الجوينى (ص ٣٧١) ؛ ابن العبرى
(ص ٣٧٢) ؛ برصوما (ص ٣٧٤) .

الفصل الرابع عشر : القرن الرابع عشر ... ٣٨٢

محمد بن رشيد (ص ٣٨٢) ؛ التجانى (ص ٣٨٣) ؛ الصفدى (ص ٣٨٤) ؛ ابن المنوج
(ص ٣٨٥) ؛ ابن الجيعان (ص ٣٨٥) ؛ الدمشقى (ص ٣٨٦) ؛ الحرانى ، أبو الفدا
(ص ٣٨٨) ؛ رشيد الدين (ص ٣٩٥) ، حمد الله قزوينى (ص ٣٩٦) ؛ محمد بن
يحيى (٣٩٨) ؛ الحارطة الصينية (٣٩٨) .

(ح)

الصفحة

الفصل الخامس عشر : موسوعات عصر الماليك . أسفار ابن بطوطة ... ٤٠٥

الوطواط (ص ٤٠٦) ؛ التويرى (ص ٤٠٨) ؛ العمرى (ص ٤١٠) ؛ القلقشندي
(ص ٤١٥) ؛ ابن بطوطة (ص ٤٢١ - ٤٣٣) .

الفصل السادس عشر : ابن خلدون والجغرافيسا في المغرب في القرنين الخامس عشر

والسادس عشر ... ٤٣٩

ابن خلدون (ص ٤٣٩) ؛ عبد الياسط (ص ٤٤٥) ؛ الحميري (ص ٤٤٧) ؛ ليون
الإفريقي (ص ٤٥٠) ؛ الصفاسي (ص ٤٥٥) ؛ التونسي (ص ٤٥٨) ؛ التمجروقي
(ص ٤٦٠) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المترجم

- ١ -

لم يعد اسم اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى مجهولاً في العالم العربي المعاصر ؛ غير أن الكثيرين من العرب المحدثين ممن عرفوه مؤرخاً للأدب العربي القديم والحديث يجهلون اهتمامه بتاريخ الجغرافيا عند العرب . وفي الواقع أن معظم أبحاث هذا العلامة تدور في مجالات ثلاث هي : الشعر العربي ، وأدب النصارى العرب ، وتاريخ الأدب العربي المعاصر . بيد أن هذا لا يمنع اعتباره متخصصاً في الحضارة الإسلامية بجمعها ، فقد أسهم في كل فرع من فروعها بأبحاثه العديدة التي بلغ عدد المطبوع منها وحده أربعائة وثمان وخسين . وعندما وافاه أجله المحتوم في ٢٤ يناير ١٩٥١ عن ثمانية وستين عاماً فقد الاتحاد السوفيتي في شخصه عالماً فذاً وأكبر مستعرب روسي لعهدده . أما تاريخ حياته إلى أن نال الشهرة كعالم كبير فليس أفضل من أن نسوقه بألفاظه هو . وقد كتب هذه النبرة باللغة العربية وظهرت بمجلة الحُجُج العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٧ (المجلد السابع ص ١٢٢ - ١٢٦) ، وهي لا تخلو من الطرافة . قال :

« ولدت في ٤ آذار (١٦/٤ مارس) سنة ١٨٨٣ في ويلنا (Vilna) عاصمة ليتوانية (Lithuania) القديمة ، وكان والدي رئيساً لمدرسة المعلمين فيها . ولكن لم يمض من عمري سنتان حتى ارتحلت عائلتي إلى بلاد ما وراء النهر ، وعين والدي رئيساً لمدرسة المعلمين في تاشكند (Tashkent) ، وبعد مدة وجيزة عين ناظراً عاماً للمدارس في آسيا الوسطى . وابتدأت أذكر نفسي طفلاً صغيراً في تاشكند وأول لغة تكلمتها لغة أوزبكية لأن حاضنتي كانت أوزبكية الأصل . وكانت تأثراتي الأولى في صغري بما وقعت عيني عليه من المساجد والأسواق الشرقية وتنوع الأمم والطوائف واختلاف الألبسة . وكان لهذه التأثيرات وقع شديد في نفسي أيام طفولتي . وأكبر ظني أني غدوت ميالا إلى الشرق وإن كنت غير مدرك هذا الميل الغريزي »

وفي سنة ١٨٨٨ رجع والدي إلى ويلنا وصار مديراً للمكتبة العمومية ورئيساً في لجنة البحث عن الآثار التاريخية القديمة ، ولم يزل عاملاً فيها إلى أن فاجأته المنية رحمه الله في سنة ١٩٠٣ . وكنت في

صغرى ضعيف الصحة تتناوبى الأمراض ، ولذلك كنت مع أمى إلى سنة ١٨٩٢ فى ملك صغير كان لنا فى ولاية ويلنا وفيه كانت خزانة الكتب الكبيرة فى أنواع متنوعة فى العلم بجمعها جدى وأبى وقد ضاعت فى الحرب العالمية سنة ١٩١٥ مع كل ملك لنا . وكنت أتعلم القراءة فى هذه الكتب وقرأت كثيراً من المؤرخين والقصاصين فى اللغة الروسية . كنت أصغر أولاد أبى وأمى ولذلك نشأت بعيداً عن العشير والأتراب وربما صار هذا سبباً لحبى الوحدة وسوء الظن بالعالم والسويداء التى تعذبني أحياناً حتى الآن .

وفى سنة ١٨٩٣ دخلت المدرسة الإعدادية (Gymnasium) فى ويلنا ، وأكملت دروسها سنة ١٩٠١ . وكانت مدرستنا من أشهر المدارس فى ولايتها من حيث تاريخها وترتيبها . قامت على أساس الكلية البولندية التى ألغيت سنة ١٨٣٩ على أثر الثورة البولندية على روسية . وأصبحت مكتبة الكلية مكتبة عامة ، وبقي قسم منها فى مكتبة المدرسة ولذلك رأيت فيها بعض كتب المشرقيات كمؤلفات العلامة دى ساسى (De Sacy) . وقد حاولت فى الصف الأخير أن أتعلم اللغة العربية من كتابه فى الصرف والنحو المشهور ولم يتيسر لى ذلك لضخامة الكتاب وعدم المرشد ، فخرج من كليتنا وفى مدرستنا عدد ليس بقليل من علماء المشرقيات المشهورين فى روسية مثل سنكوفسكى (Senkovski) المعلم الأول للغة العربية فى كلية لنغراد من سنة ١٨٢٠ إلى سنة ١٨٤٥ وثورايف (Turaev) عضو أكاديمية العلوم ومؤسس الأبحاث فى قدماء المصريين فى روسية المتوفى سنة ١٩٢١ . وقوتوتش (Kotovic) أستاذ اللغة المغولية فى كلية لوف (Lvov) من بلاد بولندية الآن .

وكنت أهفو أيام الطلب إلى علوم اللغات والآداب لاسيما اللغات « الميتة » اللاتينية واليونانية . ومما كان يلذنى ويشوقنى تعلم أغانى هوميروس ، والروايات التمثيلية التى كتبها شعراء اليونان فكنت أستظهرها وأرجعها . وكذلك كنت أحب علم التاريخ والإنشاء ، وكنت أتمرن فى نظم الشعر ولكن لم أظفر منه بطائل . أما الرياضيات والطبيعات فلم تتق نفسى إليها وإن كنت غير قاصر فيها ، وأحرزت قصب السبق بين أقرانى ونلت نوط الذهب عقبى المدرسة .

ولم أتجاوز السادسة عشرة من عمرى حتى قويت أُميالى وتعينت غرائزى وصرت أفكر فيما أجعله غرض حياتى ، وقد رأيت بعد بحث طويل أن العلم يجذبني إليه بقوة سحرية ، وأن الشرق يكون ميدان أفكارى . ولاغربة فقد زرت الشرق فى طفولتى وكان أبدأ يتماثل نصب عيني . وكان لى مثال آخر فى شخص أبى فإنى كنت أراه مكباً على الكتب والأوراق فى الليل والنهار يبحث عن ماضى الزمان ورجاله .

وفى سنة ١٩٠١ دخلت قسم اللغات الشرقية فى جامعة لنغراد مدفوعاً بعامل الميل وهوى

النفس انضمت إلى سلك تلاميذ فرع لغات الشرق الإسلامى فصرفت أربع سنوات فى دراسة اللغة العربية والفارسية والتركية والتتارية وبعض اللغات السامية كالعبرانية ولا سيما الحبشية القديمة ، ودرست هذه الأخيرة على وطنى العلامة توراييف ، ولطالما فكرت أن أمضى فيها وأتعمق لكن اللغة العربية غلبت ضررتها وجذبتنى جملة إليها . وكنت أدرس تاريخ الشرق الإسلامى برياسة العلامة برتولد (Bartold) الذى ترجمت بعض تأليفه إلى اللغة التركية مؤخراً . وله التأثير المهم فى حياتى العلمية فإنه بأسلوبه السيد المتين وانتقاده المدقق أطلعنى على أسرار فلسفة التاريخ . وكذلك درست علم اللغات العام على المعلم ميليورانسكى (Melioranski) المنتقل إلى رحمة ربه سنة ١٩٠٦ وعلم تاريخ الآداب العامة على العلامة اسكندر فيسيلوفسكى (Veselovski) ، وهو من أكابر علماء العالم بأسره فى هذا الفن . وكان له فى نفسى تأثير قوى كتأثير برتولد فى التاريخ ، وغدوت من ذلك الوقت أفكر فى تطبيق أسلوبه التشبيهى على تاريخ آداب اللغة العربية ، وأرجو أن أكون بلغت شيئاً من ذلك فى مؤلفاتى عن العربيات .

أما العلوم العربية فدرستها على الأستاذ ميدنيكوف (Mednikov) مؤرخ فلسطين المشهور المتوفى سنة ١٩١٨ الذى أثنى على تأليفه الكونت كايثانى (Caetani) من أعضاء المجمع العلمى العربى . أما عملى فى العربية فهو العلامة فيكتور فون روزن (Victor von Rosen) عضو أكاديمية العلوم الذى طارت شهرته فى بلاد الغرب والشرق (راجع المشرق سنة ١٩٠٨ ص ١٧١ - ١٧٣ ، والبشير عدد ١٨٤٥ للسنة ذاتها) . وكنت أيضاً أختلف إلى بعض أولاد العرب الساكنين فى روسية كفضل الله صروف الدمشقى المتوفى سنة ١٩٠٣ وأنطون خشاب الطرابلسى آخذ منهما قليلاً من اللغة العربية الدارجة . ولقد أنجزت دروسى فى الكلية سنة ١٩٠٥ نائلاً مدالية الذهب مكافأة لتأليفى عن خلافة المهدي العباسى آخذاً عن المصادر العربية كالطبرى وابن الأثير والعينى والمسعودى وغيرهم . وبعد انتهاء دروسى فى الجامعة كنت أواصل دروسى تحت أنظار البارون روزن الموما إليه خلال سنتين . وفى أواخر سنة ١٩٠٧ قدمت الفحص لنيل رتبة الماجستروس فى الآداب العربية . وبعد أشهر قليلة توفى أستاذى البارون روزن وكانت وفاته ضربة هائلة على ، شوست صحفى وحركت المرة فى ، ولا غرو فى أن كنت آخر تلاميذه وكان يسمينى بلطفه المعهود بنيامينه الصغير .

وفى صيف تلك السنة نفسها أرسلتنى نظارة المعارف وجامعة بطرسبرج إلى الشرق العربى لتعلم اللغة العربية الدارجة والتعرف إلى علماء العربيات والنظر فى عوائد أبناء الشرق وآدابها . وقد قضيت سنتين بعيداً عن الروسية زرت خلالها مدن سورية وفلسطين ومصر وتوغلت فى ربي لبنان وغاباته ومروج الحليل وصحارى مصر أزور حيناً المكاتب المشهورة وحيناً أجلس أمام العلماء المكرمين ، وتارة أختلف إلى المدارس الكبيرة كالكلية اليسوعية فى بيروت والجامع الأزهر والجامعة المصرية فى

مصر وزرت في سياحاتي مكتبة الملك الظاهر في دمشق والمكتبة الخالدية في القدس ومكتبة الموارنة في حلب والمكتبة الخديوية في القاهرة وغيرها مما تسنى لي الدخول والاشتغال فيه وجمعت المواد العديدة وكتبت بعض المقالات والانتقادات والأشعار المنشورة في الجرائد والمجلات العربية والروسية : وتعرفت خلال إقامتي في الشرق العربي إلى كثير من علماء العرب ، وأدبائهم وصحافهم ولا أنسى لطفكم وعنايتكم مدى الدهر . وكان هذا اللطف العربي المشهور من الأسباب التي جذبتني إلى الشرق جذبة لا أخلص منها مادمت حياً . تعرفت إلى الكثيرين من العلماء الذين صاروا من أعضاء المجمع العلمي المكرمين فيما بعد . ففي القاهرة عرفت جرجي زيدان الذي اخترعته المنية سنة ١٩١٤ وأحمد زكي باشا عضو المجمع العربي الحالي ، والأستاذ نالينو الإيطالي (Carlo Alphonso Nallino) ، وفي فلسطين السيد خليل السكاكيني والشاعر الفاضل إسعاف النشاشيبي ، وفي بيروت حضرت دروساً للأب العلامة لويس شيخو ، وفي دمشق زرت إدارة مجلة المقتبس الغراء . واستفدت في هاتين السنتين أكثر مما استفدت طول حياتي . ولا أزال أرجو أن يرزقني الله رؤية تلك البلاد المحبوبة ومسامرة أعيان علمائها مرة ثانية ، تم الله أمنيته بالخير فهو السميع الحبيب .

وبعد رجوعي إلى الروسية عينت في صيف ١٩١٠ مديراً لمكتبة فرع اللغات الشرقية في كلية للنغراد ، وفي خريف هذه السنة صرت معلماً ثانياً للعربيات فيها وفي سنة ١٩١٤ سافرت إلى أوروبا لدرس بعض المخطوطات في مكاتبها المشهورة مثل ليبسك وهالة ولا سيما ليدن من بلاد هولندا التي طارت شهرتها في الدنيا بسبب مجموعتها في الكتب . وقد اغترف منها كثير من علماء المشرقيات في أوروبا . وعينت سنة ١٩١٧ معلماً أولاً للعربيات في المدرسة المذكورة ، ولم أزل أجتهد في هذه الوظيفة حتى الآن . على قدر الإمكان في تقلبات الزمان . وقد أصاب الدهر المستعربين غيرة في لنغراد فمات الأستاذ الأول ميدنيكوف سنة ١٩١٨ وتوفي الأديب كوزمين (Kuzmin) أحد تلاميذي سنة ١٩٢١ وقد كان مدة سنتين معلماً ثانياً في جامعتنا . وعين صديقي الفاضل الأستاذ شميدت (Schmidt) سنة ١٩٢٠ مديراً للمدرسة اللغات الشرقية في تاشكند من بلاد ما وراء النهر وبقيت إلى الآن أدأب وحدي في التعليم .

في سنة ١٩٢١ انتخبت عضواً عاملاً في أكاديمية العلوم الروسية في قسم التاريخ واللغات فجلست في مجلس كان فارغاً بوفاة أستاذي البارون روزن سنة ١٩٠٨ . وفي السنة التالية انتخبت كاتماً لأسرار القسم المذكور . وفي سنة ١٩٢٣ انتخبت عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي في دمشق ، وكان ذلك أكبر شرف نلتته مدة عمري وصار هذا التشريف مساعداً لي ومشجعاً في أحوالنا الصعبة . ورأيت فيه تقديراً أنفاخر به لأتعبني في التعليم والبحث والتأليف منذ عشرين سنة .

أما مؤلفاتي العلمية التي بدأت بكتابتها من سنة ١٩٠٤ فجلتها إن لم أقل كلها في آداب العرب

من بحث وترجمة وشرح وانتقاد ، وكتاب ومقالة ومحاضرة وملاحظة وعددها يربو على المائتين ولذلك لا يمكن وصفها بتدقيق . وقد طبع فهرستها سنة ١٩٢١ وقت انتخابي عضواً في أكاديمية العلوم الروسية وتكلم في تقدير علمي ثلاثة من أعضاء الأكاديمية الأخصائيين في علوم المشرقيات ، وقد طبع تقريرهم مع الفهرست المذكور ولذلك اكتفيت بالإشارة إليه . ودوائر أبحاثي ثلاث : الأولى منها تاريخ الشعر العربي ونقده منذ قديم الزمان إلى أيامنا هذه ، والثانية آداب اللغة العربية بين نصارى العرب ، والثالثة تاريخ آداب اللغة العربية منذ نهضتها الأخيرة في القرن التاسع عشر . وهذا الموضوع الأخير مما أفنخر به فإني أول من كتب بالروسية فيه ، وقل من كتب عنها من المستشرقين في أوروبا . ولذلك قرظ مؤلفاتي تقريراً حسناً المرحوم مارتين هارتمان (Martin Hartmann) الذي كان مطلعاً على أحوال العرب الأدبية بمشاهداته الشخصية والإقامة بين أظهرهم .

ورجائي الآن أن أوصل أبحاثي في هذه الدوائر الثلاث وأن يتيسر لي طبع ما تراكم لدي من الآثار الأدبية والأبحاث والمقالات . فهذه أمنيته الوحيدة والرجاء أن يبلغني تعالى سؤلتي وإن مع العسر يسراً وكل ضيق فإلى فرج قريب * .

هذا وقد استمر كراتشكوفسكى يوالى نشاطه العلمي بالتدريس في الجامعة وبأكاديمية العلوم السوفيتية ناشراً أبحاثه العديدة القيمة في دراسة الإسلام والحضارة العربية ومتمتعاً باحترام وتقدير الدوائر العملية في العالم بأجمعه . كما لن ينسى له مواطنوه وتلامذته ما أبداه من شجاعة وإنكار للذات أثناء حصار الألمان لمدينة لينينغراد في الحرب الأخيرة . وإذا كان المجال لا يتسع للكلام على مؤلفاته العديدة فإنه لا يسعني في هذا الصدد إلا أن ألفت النظر إلى كتابين من كتبه المتأخرة نالا شهرة عالمية واسعة ، أحدهما هو « بين المخطوطات العربية » (١٩٤٥) Nad Arabiskimi Rukopisiami الذي ترجم إلى عدة لغات ، والآخر « من تاريخ الاستعراب الروسى » (١٩٥٠) Ocherki po istorii Russkoi Arabistiki * . وقد وافت المنية المستعرب الكبير في الرابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٥١ .

وتقديراً لجهوده العلمي وخدمته الكبرى للعلم السوفيتي فقد قرر مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي بتاريخ ٥ أبريل ١٩٥١ ، وبريزيديوم أكاديمية العلوم السوفيتية بتاريخ ١٣ أبريل من نفس العام ، طبع « منتخبات آثار الأكاديمي أ . ي . كراتشكوفسكى » Izbrannye Sochinenia Krachkovskogo ، فظهرت في ستة أجزاء في الفترة بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٦٠ ، وأشرف على نشرها نخبة من كبار علماء الاستشراق السوفيتي من تلامذة العلامة الكبير وزملائه .

* أثرت إيراد النص كما كتبه المؤلف نفسه دون إحداث أية تغييرات فيه لإعطاء فكرة عن أسلوبه في الكتابة بالعربية ، فقط أضفت صورة الأعلام بالحروف اللاتينية بين قوسين ليسهل نطقها . (المترجم)

* * * لجأت على طول الكتاب إلى كتابة الألفاظ الروسية بالحروف اللاتينية ليسهل فهمها على القارئ . (المترجم)

ومن أهم آثاره التي ظهرت في هذه المجموعة هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته العربية إلى القراء ، أعنى « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، الذى أعجلت الوفاة المؤلف من أن يتمه . وهو يكون الجزء الرابع من « منتخبات آثار كراتشكوفسكى » ويرى النور لأول مرة في هذه الطبعة التي ظهرت في عام ١٩٥٧ ، أى بعد أكثر من ستة أعوام من وفاة المؤلف :

— ٢ —

شغل الاهتمام بالجغرافيا العربية مكانة مرموقة في النشاط العلمى لكراتشكوفسكى ، خاصة في العشرين عاماً الأخيرة من حياته . وقد اهتم كراتشكوفسكى بالجغرافيا عامة منذ سنى حياته العلمية الأولى فانتخب عضواً في الجمعية الجغرافية الروسية منذ عام ١٩٠٩ ، وأصبح نائباً لرئيسها في عام ١٩٣٩ واستمر يشغل هذا المنصب إلى عام ١٩٤٥ . هذا الاهتمام بالجغرافيا إلى جانب معرفته العميقة بالأدب العربى وبالحضارة الإسلامية جعلت منه أنسب شخص للقيام بذلك العمل الجبار ، وهو كتابة تاريخ علم الجغرافيا في الإسلام .

وقد أحس الدارسون دائماً بمسئولية الحاجة إلى مؤلف تركيبى (synthetic) ضخم يسد ذلك النقص ، خاصة وأن كتاب رينو Renaud قد طال عليه العهد ولم يعد ينى بمطالب البحث المعاصر ، أضف إلى هذا أن المقالات والأبحاث المتفرقة لكبار المستشرقين الذين اهتموا بالجغرافيا الإسلامية مثل نالينو Nailino ومينورسكى Minorsky ومجيك Mzik وهونجمان Honigmann الخ لم يكن من شأنها أن تغنى عن دراسة جامعة تتناول جميع أطراف الموضوع .

لكل هذا فقد كانت الدوائر العلمية في الاتحاد السوفيتى تنتظر بفارغ الصبر إتمام كراتشكوفسكى لسفره الضخم الذى أخذ في تأليفه أعواماً طويلة . وزاد إشفاق الجميع على مصير الكتاب عندما اخترمت المنية المستعرب الكبير قبل أن يرى الكتاب النور . بيد أن اهتمام الدوائر العلمية في الاتحاد السوفيتى قد كلل بالنجاح فخرج الكتاب في طبعة قشبية في عام ١٩٥٧ . وأثناء وجودى بموسكو حدثنى كثيراً عن هذا الكتاب المستشرقان المرحوم زاخودر Zachoder والأستاذ بلياييف Beliaev ، فكنت أنتظر على أحر من الجمر ظهور الجزء الرابع من « منتخبات آثار كراتشكوفسكى » الذى يضم بين دفتيه هذا الأثر العلمى الهام .

وماكدت أنتهى من قراءته حتى خرجت بنتيجة مؤداها أن هذه هى فعلا الدراسة التى كان يترقبها الجميع لتسد النقص الكبير في عالم الاستعراب والدراسات العربية .

وهنا صح منى العزم على نقله إلى العربية حتى لا يحرم أبناؤها من التعرف على جانب هام من التراث الإسلامى : ولأول وهلة اصطدمت بعقبات هائلة ، إذ إلى جانب وعورة أسلوب الكتاب

فإنه يعتمد على مصادر ودراسات لا يحصيها العد ولم يكن بمقدورى أن أرجع إليها حيث كنت أقيم . ورغمما عن هذا فقد استخرت الله وأخذت فى ترجمة الكتاب ، واغتنت فرصة زيارتى للقاهرة مرتين فى عامى ١٩٥٩ و ١٩٦١ فراجعت النصوص التى أوردتها المؤلف وصححت بعض الأوهام . أما الترجمة فقد توخيت فيها الدقة التامة والتمسك بالنص ، ربما على حساب الأسلوب أحياناً ، إذ كان كل جهدى موجهاً إلى نقل ألفاظ المستعرب الكبير كما هى ؛ ولم أحدث فيه أية تغييرات سواء بالحذف أو الزيادة . ورغبة فى توضيح اللفظ العربى المترجم فقد وضعت إلى جانبه فى حالات قليلة ما يعادله بالإنجليزية أو الفرنسية . أما الأسماء الأعجمية فقد زودتها بأشكالها بالحروف اللاتينية إلى جانب الشكل العربى ، كما اقتصررت فى تعليقى على حالات نادرة . وإلى جانب هذا فقد بينت أرقام صفحات المتن الروسى على هامش هذه الترجمة لتسهيل المراجعة على من يبتغى ذلك . وبعد فأرجو أن يجد القارئ العربى فى هذا الكتاب ضالته المنشودة وأن يكون فاتحة عهد جديد فى نقل مؤلفات المستعرب الكبير إلى لغة الضاد . والله المستعان .

صلاح عثمان هاشم

الخرطوم ١٩٦١

مقدمة الناشر

3 يتضمن الجزء الرابع من « منتخبات آثار الأكاديمي ا. ي. كراتشكوفسكى » بحث هذا العلامة في تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، وهو يرى النور لأول مرة بظهور هذا الجزء . ولم يطبع منه قبل ذلك سوى فصول متفرقة (هى الأول والثانى والثالث والتاسع والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون) ظهرت إما كاملة أو مبتورة على هيئة مقالات مستقلة فى نشرات أكاديمية العلوم السوفيتية المختلفة ولكن بدون الإشارات المفصلة إلى المراجع كما هو الحال مع هذه الطبعة .

ومسودة الكتاب محفوظة فى أرشيف كراتشكوفسكى فى نسختين ، إحداهما بخط يده والأخرى صورة طبق الأصل منها منقولة بالآلة الكاتبة . وقد تناول المؤلف النسخة الثانية أى المطبوعة بالآلة الكاتبة بيد التصحيح وضبط الأعلام وأجرى قلمه فى حالات معينة بإضافات وتعديلات تتعلق فى الغالب بالمراجع . وقد يقتصر المتن أحياناً على ذكر اسم بحاثه أو آخر دون الإشارة إلى بحثه أو مؤلفه أو الموضوع منه الذى يشير إليه مؤلفناه .

وسوى هذا فقد حفظت لنا بين مخلفات العلامة الكبير مجموعة البطاقات المختصة بهذا الكتاب وهى تحتوى على ثبت المراجع التى استعان بها فى بحثه . وقد تضم البطاقات إلى جانب ذلك عرضاً وجيزاً للمادة ، وهى ليست مرقمة أو مرتبة حسب حروف المعجم .

وقد استغرق تدوين الكتاب الفترة بين عامى ١٩٣٨ و ١٩٤٥ مع بعض التوقف أثناء الحرب وأثناء حصار لينينغراد . غير أن اهتمام كراتشكوفسكى بدراسة الأدب الجغرافى العربى بدأ منذ الأيام الأولى لنشاطه العلمى ، فنراه منذ عام ١٩٠٩ وذلك أثناء رحلته العلمية إلى الشرق العربى يستمع إلى محاضرات فى تاريخ الفلك عند العرب كان يلقيها بالجامعة المصرية وباللغة العربية^(١) المستشرق الإيطالى الشهير كارلو الفونسو نالينو C.A. Nallino | (١٨٦٢ - ١٩٣٨) أكبر متخصص فى تاريخ الفلك والجغرافيا الرياضية عند العرب . وقد أفاد المؤلف كثيراً من أبحاثه فى مصنفه هذا .

وبدأ كراتشكوفسكى فى إلقاء محاضرات بالمعهد الشرقى بجامعة بطرسبورغ عقب رجوعه من الشرق تناول فيها مختلف نواحي اللغة ، والحضارة العربية . ومن بين المحاضرات التى ألقاها فى الجامعة فى الفترة ما بين عامى ١٩١٠ و ١٩١٧ تجتذب الانتباه بوجه خاص محاضراته بعنوان « نظرة إلى الأدب الجغرافى العربى مع مطالعة نصوص مختارة منه »^(٢) Obzor Arabskoi geograficheskoi Literatury s chteniem izbrannykh otryvkov وهو عين الموضوع الذى عالج به بالتالى فى العام الدراسى ١٩٣٥ - ١٩٣٦ بعنوان « أدب التاريخ والجغرافيا عند العرب » - Arabskia Istoriko - geograficheskia Literatura.^(٣)

وقد رجع كراتشكوفسكى فى تحضير دروسه هذه إلى أهم المؤلفات التى ظهرت فى الموضوع^(٤) كما قام بعمل ترجمات للمقتطفات التى انتقاها بنفسه من النصوص العربية ليسهل فهمها على تلامذته : وقد ضمن المؤلف هذه الترجمات كتابه هذا لإعطاء فكرة عن أسلوب ومنهج كل مؤلف على حدة . وهكذا عن تلك المحاضرات فى الأدب الجغرافى العربى التى ألقاها الأكاديمى كراتشكوفسكى بالجامعة ولد هذا الكتاب وترعرع على مدى نيف وأربعين عاماً كان يتعهده خلالها بالزيادة ويتناوله بيد التعديل معتمداً فى ذلك على ما يجد من مواد واكتشافات طالما لعب هو نفسه دوراً فعالاً فى إمالة اللثام عنها .

ويبدو جلياً من مقدمة المؤلف لكتابه ، وهى التى فرغ من تحريرها عقب تدوينه للفصل الثالث والعشرين ، أنه كان يود متابعة تأريخه للأدب الجغرافى العربى إلى أيامنا هذه ، إلا أنه لم يظهر فى الواقع بعد المقدمة سوى فصل واحد هو الفصل الرابع والعشرون الذى يعالج القرن الثامن عشر فى حين كانت فكرة المؤلف الأساسية هى أن يضيف إلى ذلك فصلين أو ثلاثة يسوق فيها الكلام على العصر الحديث . ولكن لم يقدر له تحقيق هذه الأمنية إذ عاجلته المنية فى الرابع والعشرون من شهر يناير عام ١٩٥١ . وهذا يوضح لنا السبب فى أن الكتاب ينقصه القسم الخاص بالقرن التاسع عشر كما ينقصه أيضاً الفصل الختامى الذى كان سيعرض فيه المؤلف الاستقراءات العامة التى يمكن استخلاصها من الكتاب فى مجموعه .

لقد حظى تاريخ الأدب الجغرافى العربى بدراسات عامة وأبحاث خاصة ليست بالقليلة ، ابتداء من المصنف الكلاسيكى للمستشرق الفرنسى رينو Renaud . وفى العشرات الأولى من هذا القرن نما هذا المجهود بشكل ملحوظ [بفضل الأبحاث الممتازة لبارتولد ومينورسكى وكرامرس Kramers⁵ وروسكا Ruska وفيران Ferrand وغيرهم من كبار المتخصصين فى ميدان الجغرافيا التاريخية عند العرب . غير أن مصنف كراتشكوفسكى يحتل مكانة ممتازة بين جميع هذه المؤلفات .

نال كراتشكوفسكى الشهرة فى الدوائر العملية كمتعرب واسع الأفق متعدد النواحي تناول جميع أطراف الحضارة العربية بالدرس والاستقصاء واهتم بجميع مظاهرها الكبيرة والصغيرة ، ابتداء من دراساته العميقة عن المتنبي وأبى العلاء إلى جمعه الحكايات الشعبية من بلدة الناصرة . وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن حضارة شعب ما إنما تتألف من جميع تلك العناصر المختلفة وأنه يجب لفهمها تحديد مكانة كل ظاهرة فى التطور العام لتلك الحضارة وتبيان الروابط العضوية التى تجمع بينها . لذا فقد رأى فى الأدب الجغرافى بالذات عنصراً أساسياً فى الأدب العربى يجب معالجته من وجهة نظر تاريخ الأدب العربى والحضارة العربية ؛ ومدلول « الحضارة العربية » لديه واسع للغاية وهو قد استعمله للتعبير عن جميع أوجه النشاط الثقافى لشعوب الشرق الأدنى فلم يقتصر على العرب وحدهم بل أدخل شعوب آسيا الوسطى والقوقاز كما أدخل الإيرانيين والأتراك والسريانيين وغيرهم^(٥) .

ويؤكد المؤلف أكثر من مرة خلال الكتاب وفي المقدمة أن المنهج الذي اتبعه هو المنهج الفيلولوجي (Philological) وأنه ليس من غرضه كتابة تاريخ علم الجغرافيا أو تاريخ الاستكشافات الجغرافية عند العرب . وهو يولى نصيباً متعادلاً من الاهتمام لكل من أدب الدوائر العلمية والأدب الشعبي حتى إنه لم يهمل قصص الرحلات التي تحمل طابعاً أدبياً صرفاً بل وأسطورياً . ورغم أن هذا فلا يخلو الأمر من حالات تطرق فيها المؤلف إلى الكلام على تاريخ الجغرافيا العلمية والاستكشافات الجغرافية العربية فقدم لنا لوحة رائعة لهذا الفرع من العلوم عند العرب وبين الدور الخطير الذي لعبه في تطوير علم الجغرافيا جنباً إلى جنب مع الفرس والترك الذين ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بالثقافة العربية . ويبدو هذا واضحاً غاية الوضوح عند كلام المؤلف على شخصيات مثل الخوارزمي وألوغ بيك (الفصل الثالث) والبروني (الفصل التاسع) وأحمد بن ماجد دليل قاسكو داغاما (الفصل العشرون) الذي كشف كراتشكوفسكى عن ثلاثة من مصنفاته في معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية^(٦) ، أو مثل پيرى ريس وغيرهم من ممثلي الجغرافيا العلمية الكثيرين .

ويقدم المؤلف عرضاً منظماً للأدب الجغرافي ابتداء من ظهور التصورات الجغرافية الأولى عند العرب التي نلتقى بها في أقدم آثار الشعر الجاهلي وفي القرآن ، ثم يتتبع ميلاد الجغرافيا الرياضية عند العرب معتمداً في ذلك على المصادر الأصلية وعلى الدراسات الحديثة ويبحث مسألة علاقتها بالعلم اليوناني والهندي ؛ وإلى هذا فحصر مفضل ميلاد بقية فروع الجغرافيا الأخرى، مثل الجغرافيا الوصفية والرحلات والجغرافيا البحرية والجغرافيا العامة والإقليمية الخ مع ذكر مراكزها ومدارسها واتجاهاتها وأنماطها المختلفة .

وهو في خلال ذلك يترجم لمعظم الشخصيات الكبيرة وأصحاب الأصالة ويوضح الروابط والمؤثرات التي تركت أثرها عليهم . ونتيجة لتحليله الدقيق لعدد هائل من مصنفات ما يزيد على ستين مؤلفاً فقد استطاع كراتشكوفسكى أن يحدد درجة الثقة التي تتمتع بها مادتهم ومدى أهمية تلك المادة كمصدر لدراسة الجغرافيا التاريخية للأقطار التي تكلموا عنها . ويحتوى الكتاب إلى جانب هذا على ثبت بالمراجع يكاد يستغرق جميع المادة المتعلقة بهذا الموضوع ابتداء من العصور الوسطى إلى أيامنا هذه مع تقدير نقدي للمتون التي نشرت والأبحاث العلمية التي عملت حولها ؛ وينطبق هذا القول أيضاً على الفصلين التاسع عشر* والحادي والعشرين المفردين للأدب الجغرافي الفارسي والتركي الذي يعالجه المؤلف بالقدر الذي يتلاءم مع ارتباطه بالأدب العربي .

إن هذا الأثر العظيم الذي ألفه كراتشكوفسكى قريباً من نهاية نشاطه العلمى ليقف فريداً في ميدان الاستعراب العلمى لما يتصف به من سعة المادة سواء فيما يتعلق بالمصادر الأولى أو الأبحاث

* في المتن الروسى ورد السادس عشر سهواً بدلا من التاسع عشر . (المترجم)

العملية ، ومن المتوقع أن يصبح نموذجاً يُحتذى في عمل دراسات تركيبية من هذا الصنف تتناول الفروع المختلفة لتاريخ الأدب العربي .

وبعد فيمكننا أن نستخلص النتائج الآتية من دراسة هذا الكتاب :

- (١) اعتماداً على مادة علمية ضخمة استطاع المؤلف ، دون سائر من سبقوه ، أن يؤكد مكانة الحضارة العربية في تاريخ البشرية والدور المرموق الذي لعبه علم الجغرافيا العربي في هذا الميدان .
- (٢) لقد حالف التوفيق المؤلف إلى أقصى الحدود في أن يدل على أن ممثلي حضارات آسيا الوسطى (تركستان) والقوقاز وإيران وتركيا وغيرها من الأقطار الإسلامية قد أسهموا في تشييد هذه الحضارة وأنه قد برز من بينهم علماء كبار في ميدان الجغرافيا العربية .

(٣) وأخيراً يتبين لنا أن المؤلف قد انتهج منهجاً علمياً دقيقاً إذ أن دراسته العميقة لجميع الآثار الكبرى في الأدب الجغرافي قد أثبتت أنه من الممكن استخراج مادة واقعية تساعد إلى حد ما في دراسة المسائل المتعلقة لا بالجغرافيا التاريخية وحدها بل أيضاً بعلم الآثار وعلم الأجناس الخ ، وذلك من أكثر المصادر إغراباً وخيلاً ، أى كتب «العجائب» Mirabilia . بيد أن أهمية كتاب كراتشكوفسكى لا تقف عند هذا الحد بل تتجاوزه إلى ما أبعد من ذلك ، فهو قد كشف النقاب عن مسائل عديدة يجب أن يعنى العلم السوفيتي ببحثها وإيجاد الحلول لها . ونأمل أن يكون في نشر هذا الكتاب حافزاً قوياً إلى ظهور أبحاث عديدة تتناول نقاطه المختلفة .

ومنذ أن فرغ المؤلف من كتابه هذا ظهر عدد من الأبحاث العلمية تتناول موضوعات شتى ، من ذلك ظهور طبعة جديدة لمتن الغرناطي من عمل دوبلر Dubler (٧)، وظهور الترجمة الفرنسية لتاريخ دمشق لابن القلانسي (٨) ، ومقالات عباس العزاوي عن علي ريس وتاريخ الفلك في العراق (٩) ، ودراسة عمر فروخ لابن خلدون (١٠) الخ . ولم يكن في مقدور المؤلف بالطبع أن يطلع عليها جميعها ، وكان من الممكن في حالات معينة أن تعاون في استكمال الفصول الخاصة بذلك في الكتاب . بيد أن الاستقراءات الأساسية التي يمكن استخلاصها من الكتاب لم تتأثر في جوهرها بظهور تلك الدراسات .

وتعتمد هذه الطبعة على النسخة الأصلية المطبوعة بالآلة الكاتبة ، وروجعت على نسخة المؤلف المكتوبة بخط يده وضمت إليها مجموعة البطاقات التي خلفها المؤلف والتي تحتوي على بعض الزيادات ؛ وقد بذل الناشرون جهدهم في جمع هذه البطاقات وترتيبها وفقاً لحروف المعجم . وتم طبع المتن دون إحداث أية تغييرات ، وفي مواضع متفرقة منه فقط استبدلت بعض ألفاظ بأخرى أو أعيدت صياغتها ابتغاء المزيد من الوضوح . هذا وقد نقلت الحواشي الموجودة في أسفل الصفحات والتي تشير إلى المراجع عن مخطوطة المؤلف بحذافيرها وتمت مراجعتها على ضوء البطاقات ؛ كما استكمل

الناشرون الحواشي الناقصة والمفقودة ولكنهم خشية إثقال المتن لم يجدوا ضرورة إلى الإشارة إلى تلك الزيادات* . ولنفس السبب احتفظ الناشرون ما أمكن بالاختصارات (Abbreviations) التي استعملها المؤلف أو استعاضوا عنها || بأخرى من عندهم إن لم يجدوها . وأضيف إلى الكتاب فهرس بالمراجع يحوى ثبناً بالاختصارات وثبناً بأسماء الكتب التي رجع إليها المؤلف ، ثم يلي هذا فهارس أسماء الأعلام والأسماء الجغرافية والأثنوغرافية ، فأسماء المصادر من شرقية وغربية ، وأخيراً يأتي فهرس الموضوعات والمصطلحات . وآخر فهرس موجود بالكتاب هو فهرس الصور والرسومات التي انتقتها من أجل الكتاب السيدة ف . ا . كراتشكوفسكايا ؛ وقد عملت على اختيار النماذج من المخطوطات الموجودة بالاتحاد السوفيتي

أما الألفاظ والمصطلحات العربية التي نقلها المؤلف كما هي ووضعها جنباً إلى جنب مع ترجمتها الروسية فقد ضبطت بالحروف الروسية (Transcription) وفقاً للطريقة التي انتهجها كراتشكوفسكى نفسه في كتابة الألفاظ العربية بالحروف الروسية (١١) . .

هذا وقد قام بإعداد هذا الجزء الرابع من « منتخبات آثار الأكاديمي كراتشكوفسكى » وتبليته للطبع ف . ا . كراتشكوفسكايا** و . ا . ا . ميخايلوفا A. A. Mikhailova يعاونهما ف . ا . بلياييف V. A. Beliaev و . ا . ا . بيكوف A. A. Bekov ول . ز . بيسارييفسكى L. Z. Pisarevski ، وجميعهم من المتخصصين في الدراسات العربية والإسلامية . أما الصور والرسوم البالغ عددها خمساً وتسعين والتي قامت بانتقاها ف . ا . كراتشكوفسكايا فتشمل إلى جانب صورة المؤلف نماذج من مخطوطات الكتب التي تحدث عنها المؤلف في صلب كتابه (وهى مأخوذة من مجموعة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية ، ومن مجموعة جامعة لينينجراد ومجموعة مكتبة م . ي . سالتيكوف - شيدرين M. E. Saltykov-Shchedrin الخ) كما تشمل أيضاً صوراً لنباتات وحيوانات ومناظر طبيعية وأجهزة فلكية وأجرام سماوية† الخ .

وقد قام بالتقاط الصور مؤسسة « لافوكى » LAFOKI وس . غ . غاسيلوف S. G. Gasilov ومعمل تصوير جامعة لينينجراد . أما الفهارس فقد قام بإعدادها س . ن . سكاوف S. N. Sokolov و . ا . ب . جريازنييفسكى P. A. Griaznevich .

غ . تسرتيلي

G. Tsereteli

* رأينا من الأفضل جمع الحواشي المتعلقة بكل فصل ووضعها في آخره بدلاً من تركها في أسفل كل صفحة كما فعل الناشرون . (المترجم)

** زوج المؤلف وهى عالمة سوفيتية ذات شهرة عالمية في ميدان النقوش الإسلامية ولا تزال على قيد الحياة . (المترجم)

† جميع هذه الصور لا تمثل شيئاً ذا أهمية بالنسبة للقارئ الشرقى ، لذا فقد طوينا عنها كشفاً . (المترجم)

حواشي مقدمة الناشر

— cf : Ignati Iulianovich Krachkovski, Materialy K biobibliografii utchenykh (١) SSSR, M—L, 1949, P. 7

(٢) شرحه ص ١٦٢

(٣) شرحه ص ١٦٢

(٤) منال ذلك أنه في المنهج الدراسي ١٩١٥ - ١٩١٦ لمعهد اللغات الشرقية بجامعة بتروغراد ذكر المراجع الآتية لدراسة الأدب الجغرافي العربي :

1 — M. Reinaud, Géographie d'Aboulféda, T. I, Paris, 1848.

2 — L. M. Devic, Coup d'oeil sur La Littérature géographique arabe au Moyen age, Paris, 1882.

3 — Carl Brockelmann, GAL, Berlin 1898 — 1902.

أما النصوص فمن كتاب دي خوييه :

De Geoje, Selections from Arabic Geographical Literature, Leiden, 1907.

(٥) تعرض كراتشكوفسكى لهذا بالتفصيل منذ عام ١٩١٢ وذلك في نقده لبحث تومانسكى :

A. G. Tumanski, «Arabski lazzyk i Kavkazovedenie» (Mir Islama, I, 1912, p. 237),

— Arabskia Literatura, Literatura Vostoka, Sbornik Statei, 1919, p. 24.

— Arabskia Poezia, Vostok, 4, 1929, p. 97.

(٦) راجع كراتشكوفسكى « بين المخطوطات العربية » ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٥ ، ص ٧٦ ، ٧٨ (بالروسية)

— Abu Hamid el Granadino y su relación de Viaje por tierras Eurasiaticas, (٧) Por César E. Dubler, Madrid, 1953.

— Damas de 1075 à 1154 par Roger Le Tourneau, Damas, 1952. (٨)

ونقده بلخضر الحسنى ، مجلة المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٤ - ١٢٥

(٩) عباس الزاوي ، مجلة المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٤ ، ص ٨٩ - ١٠٣

(١٠) عمر فروخ ، مجلة المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٤ ، ص ٦٧ - ٧٦ و ٢٠٣ - ٢١٤

(١١) كراتشكوفسكى ، أبو الفرج الوأواء الدمشقي ، بطرسبرغ ١٩١٤ ، ص ١٠ (بالروسية) : وأيضا بحثه :

حكاييتان عربيتان من الناصرة ، منشورات الجمعية الفلسطينية الروسية ، لينينغراد ١٩٢٦ ، ص ٢٨ - ٤١ .

راجع الجزء الأول من « منتخبات آثار كراتشكوفسكى » موسكو - لينينغراد ١٩٥٥ ، ص ٧ - ٨ .

مقدمة المؤلف

9 إن هذا المصنف الذى أخذ أعواماً طويلة ليقف على قدميه إنما يعتمد فى الأصل على مواد المحاضرات التى ألقيتها بجامعة بطرسبرغ ثم بجامعة لينينغراد فى فترات متباعدة ابتداء من عام ١٩١٠ . وليست الغاية الأساسية منه تقديم عرض عام لتاريخ الجغرافيا بقدر ما قصد به عرض تاريخ الأنماط الأدبية المرتبطة بعلم الجغرافيا فى صورة أو أخرى ؛ وهو يهدف إلى جانب هذا تبيان الخطوط العريضة لتطور هذه الأنماط ابتداء من الإيماءات الأولى فى الشعر الجاهلى حتى أيامنا هذه .

والكتاب يقدم فى آن واحد نصيباً متكافئاً لكل من الأدب العلمى والأدب الشعبى ، ويجهد فى أن يلم بأطراف الجغرافيا الرياضية والوصفية كما جهد فى الإحاطة بالجغرافيا العامة والإقليمية ، وهو لا يهمل قصص الرحلات حتى تلك التى تحمل طابعاً أدبياً صرفاً بل وأسطورياً .

وبالرغم من أننا لم نهمل عند فحصنا للآثار الأدبية علاقتها بعلم الجغرافيا وتاريخ الاكتشافات الجغرافية ، وبالرغم أيضاً من أن العرض العام قد سار على ضوء التطور العام للثقافة العربية إلا أن المنهج الذى اتبع هو المنهج الفيلولوجى الذى يهدف قبل كل شئء توضيح طبيعة الظواهر الأدبية وتطورها . وهو بهذا يقف فريداً فى هذا الميدان ، وقد تدنو منه من حيث الفكرة العامة أقسام متفرقة من كتاب رينو Renaud الذى جاوز عمره قرناً من الزمان تجمعت خلاله مادة غزيرة وتقدم فيه منهج البحث فى الفيلولوجيا العربية . وقد دعت الحاجة لتوضيح دور الأدب الجغرافى العربى فى تأثيره على الشرق والغرب إلى أن أفرد فصلين مستقلين للأدب الجغرافى الفارسى والتركى ، واهتم بمعالجة الأمثلة البارزة لانتقال التراث الثقافى فى ميدان الجغرافيا إلى أوروبا الغربية .

وبالرغم من أن تبييض الكتاب قد بدأ قبل الحرب الوطنية* ، إلا أن العمل فيه قد سار بنسبة أسرع أثناء حصار لينينغراد عام ١٩٤١ - ١٩٤٢ . وكنت قد فرغت قبل الحرب من تدوين سبعة فصول فقط إلى جانب الفصلين اللذين تشتمل عليهما المقدمة . وتضم هذه الفصول التسعة الأولى الفترة من القرن السادس إلى القرن الثانى عشر وتحتوى على نحو اثنى عشرة ملزمة طباعية . وفى أثناء الحرب ، وذلك ابتداء من يوليو ١٩٤١ إلى لحظة مغادرتى مدينة لينينغراد فى آخر يوليو ١٩٤٢ أضيفت إلى هذه الفصول التسعة أربعة عشر فصلاً أخرى ، وبهذا توقف الكتاب عند الفصل الثالث والعشرين المفرد لمعالجة القرن السابع عشر والذى يرد فيه الكلام فيما يرد على رحلة مكاريوس

* يطلق اسم الحرب الوطنية فى الاتحاد السوفيتى على الكفاح العنيف فى الجبهة الشرقية أثناء الحرب العالمية الثانية بين الألمان والسوفيت . (المترجم)

الأنطاكي إلى روسيا في عهد الكسي ميخايلوفتش . كما وقد تم أيضاً إعداد مواد الفصل الرابع والعشرين الذي يبحث في الآثار الأدبية | في ميدان الجغرافيا في القرن الثامن عشر . وهكذا قفز عدد الصفحات المعدة للطباعة إلى أربعين ملزمة طباعية .

ولإتمام هذا الكتاب ، وهو أمر لا يتسنى إلا بليينغراد ، يتحتم إلقاء ضوء على العصر الحديث (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) * ، الذي يحتاج في أغلب الظن إلى ثلاثة أو أربعة فصول أخرى . ولا تزال محتاجة إلى إكمال الملاحظات وثبت المراجع الذي سيرد في آخر الكتاب حينما يكتمل عقده . فإذا أمكن تنفيذه هذه الكفرة الأصلية بالصورة المرجوة لها فإن هذا الفرع من فروع الثقافة الإسلامية يكون قد حظى إذاً لأول مرة بدراسة واسعة تناول جميع المادة المدونة . ولم يقصد بالكتاب المستعربون وحدهم بل قُصِدَ به كذلك مؤرخو الأدب والجغرافيون ومؤرخو الحضارة عامة .

١. ي . كراتسكوفسكى

موسكو في ١٠ / ١٠ / ١٩٤٣

مدخل

١ - عرض عام

ان المكانة المرموقة التي تشغلها الحضارة العربية في تاريخ البشرية لأمر مسلم به من الجميع في 15 عصرنا هذا ؛ وقد وضح بجلاء في الخمسين عاماً الأخيرة فضل العرب في تطوير جميع تلك العلوم التي اشتقت لنفسها طرقاً ومسالك جديدة في العصور الوسطى ولا زالت حية إلى أيامنا هذه - أعنى علوم الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا والحيولوجيا . أما فيما يتعلق بالأدب الفنى العالمى فإن العرب قد أسهموا فيه بنصيب وافر يمثل جزءاً أساسياً من التراث العام للبشرية ، كما امتد تأثيرهم كذلك إلى عدد كبير من المصنفات والفنون الأدبية التي نشأت في بيئات غير عربية :

وبالطبع ليس في وسع جميع الفنون المختلفة للأدب العربى الحافل أن تدعى لنفسها مكانة واحدة من حيث القيمة ومن حيث الأهمية العلمية ؛ وإذا كان بعضها مثل علم اللغة والعلوم الشرعية يمثل موضوعاً للدراسات المتخصصة ، الأمر الذى لا يمنع بالطبع من أهمية استقراءاتهم في حالات معينة بالنسبة للنواحى العريضة في تاريخ الحضارة ، إلا أن عدداً من فروع الأدب العربى قد اكتسب أهمية تجاوزت بكثير حدود اختصاصاته الضيقة . ولعل هذا يصدق قبل كل شئ على الأدب التاريخى والجغرافى العربى الذى اعترف العلماء به منذ عهد بعيد بأنه المصدر الأساسى والموثوق به في دراسة ماضى العالم الإسلامى ، إذ تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافى فحسب ، بل أيضاً لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخى الأدب والعلم والدين ، وللعوين وعلماء الطبيعة . ولا يقتصر محيط الأدب الجغرافى العربى على البلاد العربية وحدها بل يمدنا بمعلومات من الدرجة الأولى عن جميع البلاد التي بلغها العرب أو التي تجمعت لديهم معلومات عنها ، وذلك بنفس الصورة المتنوعة التي وصفوا بها بلاد الإسلام . وقد يحدث أحياناً أن تمثل المادة الجغرافية العربية إما المصدر الوحيد أو الأهم لتاريخ حقبة معينة لقطر ما . فمثلاً فيما يتعلق بتاريخ إيران في عهد الساسانيين - وهو نفس العصر الذى تمثله تلك الآثار البديعة المحفوظة لدينا بمتحف الارميتاج Ermitage بـلننغراد - نجد أن المادة الأساسية قد حفظها لنا المؤلفون العرب . لذا فليس من الغرابة في شئ إذا صرحنا بأن هذا الأدب يوشك أن يكون المعين الأول الذى يردده | مختلف المتخصصين من غير المستعربين وأن يصل الاهتمام به إلى 16 درجة عالية . هذا الاهتمام يبرره الغنى الهائل لهذا الأدب ؛ ولتكوين فكرة عن ضخامته نذكر مثلاً أن مؤرخ الأندلس الذى عاش في القرن السابع عشر وهو المقرئ قد أورد أسماء مائتين وثمانين شخصاً

عندما أراد وضع قائمة بأسماء الأندلسيين اسين رحلوا إلى المشرق في طلب العلم وحده وليس بغرض التجارة أو الحج ، معترفاً رغمًا عن ذلك بأنه لم يستوعب كل الأسماء^(١) . ويزيد في الاهتمام بالأدب الجغرافي أحياناً طابعه الفني الحى ، ويكفى أن نتذكر في هذا الصدد مصنفات من طراز أسفار السندباد ، تلك القصص الجغرافية الفريدة في نوعها .

ويمكن بوجه عام تمييز اتجاهين أساسيين في الأدب الجغرافي العربى ، فهو من ناحية يولى وجهه شطر العلوم ، أعنى العلوم الدقيقة وذلك بالمعنى الذى نفهمه حالياً إذا ما أردنا تحديد علم الجغرافيا ؛ ومن ناحية أخرى فهو يولى وجهه شطر الأدب الفنى بالغاً ببعض آثاره في هذا المجال ذروة الإبداع . وقد أدرك العرب أنفسهم هذا الطابع المزدوج لعلم الجغرافيا وبينوه بدقة في تصنيفهم للعلوم . وهم قبل أن يتوصلوا إلى وضع التصنيف على أسس منطقية صارمة ، بل وقبل أن يتعرفوا على نظام التصنيف الثلاثى Trivium (النحو والبيان والجدل) والرباعى Quadrivium (الحساب والهندسة والفلك والموسيقى)^(٢) الذى ساد بالتالى في أوروبا الوسيطة ، أقول قبل هذا قسم العرب العلوم من وجهة نظرهم الخاصة معتمدين في ذلك على سير تطورها التاريخى . ففي العهد الإسلامى قسمت العلوم إلى « العلوم القديمة » و « العلوم الحديثة »^(٣) . فالمجموعة الأولى (وهى اللغة والكلام والفقه والتاريخ) أرجعوا نشأتها إلى العصر الأموى ، أما الثانية (وهى الفلك والرياضة والطب والفلسفة) فإلى العصر العباسى . وقد ضموا الجغرافيا إلى العلوم الدقيقة ، أقرب ما يكون إلى الفلك . وهم لم يتنكبوا الصواب في ذلك ، ففي الواقع نشأت الجغرافيا الرياضية والفلكية بين ظهرانين في نهاية القرن الثامن أوبداية التاسع الميلادى نتيجة لتعرفهم واتصالهم بالعلوم الهندية أولاً ثم اليونانية بعد ذلك حيث طغت في الأخيرة على جميع المؤثرات شخصية بطليموس Ptolemaeus* بمصنفاته الفلكية الجغرافية . ومنذ ذلك الوقت سار تطور الجغرافيا العلمية عند العرب من غير توقف إلى العصور المتوسطة الأخيرة ، محتفظة على الدوام بصلتها بتقاليد المصنفات الأولى في هذا الميدان .

وفي موازاة هذا الاتجاه وجد اتجاه آخر تشكل معه في وقت واحد ، بل وربما تشكل قبله تبعاً لبعض المصادر ، أعنى منهج الجغرافيا الوصفية التى يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً قصص الرحلات . وهو من بعض الوجوه ، خاصة في بداية ظهوره ، يرتبط بعلوم الشريعة وباللغة ثم بالأدب الفنى ، الأمر الذى لم يحل بالطبع دون تشبعه بين آونة وأخرى بالجغرافيا العلمية . ولكن يجب الاعتراف بأن المنهج الثانى ، أى منهج الجغرافيا الوصفية ، هو الذى يسترعى النظر بغزارة مادته وهو الذى يغلب على الأدب الجغرافى العربى ويسبغ عليه طابعه المميز ويعطيه شكله الخاص به مما يصعب إيجاد مثيل له في آداب الأمم الأخرى . وهذا الطابع المتنوع ، أقول بل هذا التلون في الأدب الجغرافى العربى ،

* هذه هى الطريقة الصحيحة لكتابة هذا الاسم ، أى أن تسبق الميم الياء لا العكس . (المترجم)

يضحى أكثر فهماً لنا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار العوامل العديدة التي عاونت على انبعائه وظهوره .
 لقد أدى اتساع رقعة أراضى الخلافة الإسلامية وتدعيم سلطانها في القرنين الثامن والتاسع إلى ظهور مهام إدارية عديدة خاصة في محيط الشئون المالية والخراج . وبالطبع كان بمقدور العرب الاستفادة من النظم السابقة لهم وهو ما حدث بالفعل ، ففي إيران استطاعوا الاستفادة من سجلات خسرو أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩) في مسح الأراضى ؛ وفي مصر نسجوا على منوال النظام البيروقراطى البيزنطى . بيد أن ظروف الأحوال الجديدة استلزمت بدورها جمع معلومات دقيقة محققة عن تقسيم الولايات وعن الأماكن المأهولة والمحاصيل الزراعية والصناعية وتقدير الخراج والضرائب عينية ونقدية . ولهذا الغرض ظهرت كتب خاصة هى « كتب الخراج » التى قصد بها فى أول الأمر لإرشاد عمال الخراج ولكنها لم تلبث أن أصبحت فى متناول أيدي الجميع . هذا وقد تطلبت المركزية فى النظام الإدارى الذى تجمعت خيوطه فى بغداد شق طرق جيدة للمواصلات واستيفاء معلومات دقيقة عن تلك الطرق مع تعداد المراحل ومنازل البريد وتحديد المسافات وظروف السفر . ومن أوائل المصنفات التى وصلت إلينا فى هذا كتاب وضعه عامل للبريد بإحدى ولايات الخلافة الهامة .

ثم إن مصالح الدولة ، التى أصبحت أكبر قوة عالمية لذلك العهد ، حالت دون اكتفائها بمعرفة أراضها وحدها ، بل كان من الضرورى أن تحصل على معلومات دقيقة عن الأقطار الأخرى خاصة المتاخمة لها . وقد ساعد على هذا الحرب والسلام معاً ، فالمعلومات قد أتت بها السفارات وأسرى الحرب العائدون إلى أوطانهم ؛ ولأحد هؤلاء ممن كانوا فى أسر البيزنطيين ندين بأول معلومات للعرب لا عن بيزنطة وحدها بل أيضاً عن جيرانها من الصقلية وغيرهم من سكان جنوبى روسيا .
 وقد اتخذت الرحلات طابعاً جم الحيوية والنشاط منذ القرون الأولى للخلافة ، وكما هو معلوم فإن من فروض الإسلام حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، أى إذا ساعدت الظروف وكانت الطرق مسلوكة . كما استخدمت التجارة الطرق البرية والبحرية على السواء وتأنتى من هذا ربط أقاليم أراضى الخلافة ببعضها البعض ، بل إن التجارة تجاوزت تلك الحدود فجذبت فى فلكها أواسط 18 أفريقيا وشمال شرقى أوروبا وجنوب شرق آسيا ؛ وهى التى ابتدعت تلك الشخصية الخالدة شخصية السندباد البحرى الذى ترتبط أسفاره بالأدب الجغرافى ارتباطاً أوثق مما كان يظن من قبل . وهكذا ساعد الدين والتجارة على توسيع مدى الأسفار ، كما ساعد فى هذا المضمار أيضاً التعليم ، فقد جاء فى الحديث الشريف « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، فأصبح الارتحال فى طلب العلم منذ القرن الأول للهجرة أشبه بالضرورة اللازمة لتكملة « دورة الدراسة » . ففي طلب العلم رحل الناس من الأندلس إلى بخارى ومن بغداد إلى قرطبة ، ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى مثال فقيه أندلسى من القرن الثانى عشر هو أسعد الخير الأنصارى الأندلسى (المتوفى عام ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) الذى نعت بالصفى لارتحاله إلى

تلك البلاد النائية^(٤) . كل هذا أدى لا إلى اتساع مدى المعلومات الجغرافية فحسب ، بل ترك في الوقت نفسه أثره على الأدب الجغرافي فظهرت أشتات من المصنفات يتناول بعضها أوصاف الطرق بطريقة جافة ويحفل البعض الآخر بالقصص الممتعة التي تسمو أحياناً إلى مرتبة الأدب الفني الصرف .

ولم يقف الدين عند فريضة الحج بل تطلب اهتماماً خاصاً بالجغرافيا الفلكية . فتحدد بداية الصوم ونهايته ومواقيت الصلوات الخمس استدعى معرفة جيدة بالفلك والرياضيات^(٥) . ولتحديد مواقيت الصلاة صنعت الساعات الشمسية الأفقية « البسيطة » التي استلزم تخطيطها معرفة دقيقة بنحط عرض المكان المعين ، كما وأن تحديد ظل المازولة في كل يوم استلزم عملية حسابية ودراية بالأمر^(٦) . وفي اللحظة التي يتجاوز فيها ظل العصر ظل منتصف النهار بمقدار « مقياس » (Granon) يبدأ ما يسمى بوقت العصر^(٧) . واختلفت القبلة فيما يتعلق بالصلاة أو ببناء المسجد من بلد إلى آخر وارتبط تحديدها بمعرفة خط طول وعرض (Geographical Coordinates) مكة والنقطة المعينة^(٨) .

ومن المسلم به أن تباين الظروف يؤدي إلى التنوع في الصور الأدبية ، هذا إذا تركنا جانباً الميل إلى البحث والاستقصاء مما يتأتى لجميع الشعوب والأجناس . وقد تردد صدى هذا التنوع في الأسماء العديدة التي أطلقها العرب على علم الجغرافيا . ففنياً يتعلق بالجغرافيا الفلكية ثبت في العادة اللفظ اليوناني 10 « جغرافيا » ، الذي ترجم أحياناً في صورة أقرب إلى الفهم هي « علم الأطوال والأغراض » أو « علم تقويم البلدان » . أما الجغرافيا الوصفية فقد أطلق عليها اسم « علم المسالك والممالك » ، وفي الحالات التي يدور فيها الكلام على مراحل الطرق بصورة خاصة أطلق عليها اسم « علم البرود » . وإذا غلب الجانب الكوزموغرافي (Cosmographic) — أى في وصف الكون — بما يصحبه من ميل واضح نحو العجائب والغرائب فقد استعملت تسمية « علم عجائب البلاد » .

وتاريخ نشأة الأنماط المختلفة للأدب الجغرافي ليس أقل دلالة من مصطلح التسميات على التنوع في البحث والأهداف . وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة عصور محددة في تاريخه ، فقبل القرن التاسع لم تكن هنالك مصنفات جغرافية قائمة بذاتها ، إنما تقابلنا من وقت لآخر معلومات جغرافية متناثرة حفظها لنا الأدب اللغوي فيما بعد أو تردد صداها في الرحلات الخيالية . وقد كان القرن التاسع بحق عصر الانبثاق ، إذ تم فيه من ناحية التعرف على مصنفات بطليموس وأدى هذا بدوره إلى ظهور الترجمات التي بدأت بها سلسلة الجغرافيا العلمية ، كما تشكلت فيه من ناحية أخرى الأنماط المتعددة للجغرافيا الوصفية . وقرب نهاية هذا القرن ظهرت المداخل الجغرافية التي وضع البعض منها لكتاب الدواوين والبعض الآخر للمشغولين بالأدب ، كذلك تنوعت أوصاف الرحلات فغلب على بعضها العنصر الواقعي بينما احتفظ البعض الآخر بالطابع القصصي . أما القرن العاشر فهو العصر الذي بلغ فيه الأدب الجغرافي أوجهه ، وذلك بظهور المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب بما تميزت به من اهتمامها

بوصف « المسالك والممالك » وصلتها الوثيقة « بأطلس الإسلام » الذى يمثل قمة الكارتوغرافيا (Cartography) عند العرب ، أى فن رسم المصورات الجغرافية أو الخارطات . هذا وقد اكتسب تبسيط المصنفات وتقريبها إلى الجمهور انتشاراً واسعاً وتزايد الاهتمام بالجانب الفنى نتيجة للمطالب المتزايدة لجمهور المثقفين ، كما تكيف تبعاً لهذا وصف الرحلات فأضحى أكثر تنوعاً فى منهجه . ويمكن القول بوجه عام بأن القرن العاشر قد عمل على تدعيم الأنماط والفنون المذكورة للمصنفات الجغرافية . ومنذ القرن الحادى عشر ، وعلى الأخص فى القرن الثانى عشر ، انضمت إليها شيئاً فشيئاً مصادر من نوع جديد - أعنى المعاجم الجغرافية والأوصاف العامة لجميع العالم سمائه وأرضه ؛ وهى ضروب من الكوزموغرافيا فريدة فى نوعها . وقد أفردت للجغرافيا مكانة بارزة فى الموسوعات التى صُنفت بمصر أيام المماليك بحيث تركت أحياناً أثرها على الكتاب بأجمعه . بهذا ينتهى الطور الخلاق فى الأدب الجغرافى العربى الذى أصابه العقم بعد ذلك فلم ينتج أى صور جديدة بل اكتفى بتقليد الأنماط السابقة فيما عدا بعض التعديلات فى مضمونها ليتفق مع مقنضيات كل عصر . ورغم هذا فإنه لم يتضاءل من ناحية الكم حتى فى عهد السيادة التركية على البلاد العربية .

لقد قدر العلم الأوروبى منذ البداية ميزات الأدب الجغرافى العربى ؛ وإذا ما حدث وأن وُجّه إلى المستعربين - شأنهم فى هذا شأن جميع المتخصصين - مهمة التحيز لموضوع دراستهم ، فإنه لمن الدلالة الخاصة فى هذا الصدد | مقارنة موقف الغربيين من المؤرخين العرب ، الذين كانوا فى كثير من 20 الأحيان جغرافيين أيضاً . فنجد بداية الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، أى عندما كان ذلك الأدب أبعد من أن يكون معروفاً فى حجمه الحالى ، كتب مؤرخ الحروب الصليبية پروتز (Prutz) يقول : « ليس فى وسع الأدب الأوروبى لذلك العهد أن يقدم مثلاً يفضّل مؤلفاتهم ، ويكفى فى هذا الشأن تصفح ما خلفه المؤرخون العرب ومقارنة ذلك بأحسن ما أنتجه فن التاريخ فى أوروبا ليبدو لأول وهلة ودون تردد أين يكمن الفهم والإحساس التاريخى والوعى السياسى والذوق فى الشكل والفن فى العرض »^(٩) . وسننتهى إلى نتيجة ليست بأقل طرافة من هذه إذا ما قارنا مجهود العرب فى مجال الجغرافيا العلمية بما خلفه السريان السابقون لهم والذين أقاموا أحياناً فى نفس المناطق التى احتلها العرب فيما بعد . فهؤلاء أيضاً قد نشأت الجغرافيا عندهم معتمدة على أساس المصنفات اليونانية التى عرفوها فى عهد سامبكر ، وبارديسان^(١٠) المتوفى حوالى عام ٢٢٢ من الميلاد يتحدث عن تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ، كما تمت حوالى عام ٥٥٥ م ترجمة كتاب بطليموس المعروف باسم « اسكاريفوس تيس أويكومينيس » (Σκαριφος της οἰκουμένης) الذى ربما لم يخل من تأثير على العرب . وقد أضيف إليه ذيل هام ولكن التطور لم يتعد ذلك^(١١) . بل إن أكبر كمية من المعلومات فى الجغرافيا الفلكية للعهد السابق للعرب والتى حفظها لنا فى القرن السابع يعقوب الرهاوى^(١٢) فى مصنفه « هيكساميرون » Hexameron] تكاد تعتمد أساساً على بطليموس وذلك إلى جانب الثقة المطلقة فى النظريات العلمية

اليونانية ؛ ومن الغريب أن هذا المؤلف قد اعتمد على المصادر اليونانية حتى فيما يتعلق بسوريا وبموطنه أرض الجزيرة الأمر الذي اضطر بحاجة قام بدراسة مصنفه من وجهة النظر الجغرافية الصرفة إلى الاعتراف في خاتمة بحثه بأنه « من العبث البحث في مصنفه عما من شأنه الإسهام في تاريخ علم الجغرافيا » . وقد أثبت أحد المتخصصين في الدراسات السريانية ، وذلك في بحث له عن نشأة الأدب الجغرافي بين ظهرائهم ، أنه من العسير القول بوجود مصنفات ذات أهمية في وصف البلدان والشعوب لدى السريان^(١٣) . وفي الواقع أن اللغة السريانية لم تحفظ لنا أى مصنف كبير في الجغرافيا ، هذا إذا أشحنا النظر عن كتاب « اسكاريفوس » الذي مر ذكره آنفاً وعن بعض المعلومات المتعلقة بتحديد الموقع الفلكي لمواضع مختلفة بهدف وضع مصور جغرافي . إن الجغرافيين العرب وحدهم هم الذين ذللوا الطريق لدراسة المادة الجغرافية الهائلة التي أورثها اليونان للعصور الوسطى . وليس أقل أمغزى من هذا أنه لم يصلنا عن العهد السابق للمصنفات الجغرافية العربية وصف واحد لرحلة ما باللغة السريانية بالرغم من أن محيط أسفارهم قد شمل القسطنطينية^{٢١} وبيت المقدس والإسكندرية^(١٤) . أما المصنفات السريانية المتأخرة في الجغرافيا فقد اعتمدت اعتماداً تاماً على العلم العربي ويمكن أن تمثل بعض الأهمية كجزء متمم له وذلك في تحليل فترات معينة من تاريخه^(١٥) .

ويمكن القول بأنه قد وضح حالياً لدى العلماء الأوروبيين بجلاء أن الأهمية الأساسية للأدب الجغرافي العربي تستند على ما أسهم به من مادة جغرافية جديدة لا على النظريات التي اعتنقها . ويجب منذ البداية ملاحظة الاتساع الهائل في مدى المعلومات الجغرافية لدى العرب عند مقارنة ذلك بما عرفه العالم القديم ، فقد عرف العرب أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شمالها ، وعرفوا النصف الجنوبي من آسيا كما عرفوا أفريقيا الشمالية إلى خط عرض ١٠ درجات شمالاً وساحل أفريقيا الشرقى إلى رأس كرينتس قرب مدار الجدى^(١٦) . وترك لنا العرب وصفاً مفصلاً لجميع البلدان من أسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب السند شرقاً مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة والمناطق المزروعة والصحارى وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة وأماكن وجود المعادن . ولم يجتذب اهتمامهم الجغرافيا الطبيعية أو الظروف المناخية فحسب بل أيضاً الحياة الاجتماعية والصناعة والزراعة واللغة والتعاليم الدينية . كما لم تقتصر معرفتهم على بلاد الإسلام وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان . ومعرفة الأخيرين بالبلاد الواقعة إلى الشرق من بحر قزوين كانت ناقصة ، كما لم تكن لديهم أية فكرة عن الساحل الشرقى لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية . هذا بينما عرف العرب طريق اليباس الذي يرتفع إلى أعلى نهر ارتيش ونهر ينسى ، وعرفوا سواحل آسيا إلى كوريا شمالاً . ولا يزال موضع شك معرفتهم المباشرة باليابان ولو أن ذكرها ظهر في الآونة الأخيرة على مصور جغرافي وضعه لغوى تركي ببغداد في القرن الحادى عشر ، ومن المحتمل أنه قد حصل على معلومات بشأنها

في آسيا الوسطى التي عرفها جيداً ؛ أما عن طريق البحر فن الثابت أن العرب لم يبلغوا اليابان . وفيما يتعلق بأفريقيا فإن أول مرة يظفر فيها جوف أفريقيا بوصف مفصل كان ذلك في مؤلفاتهم ؛ وقد استمرت معلوماتهم تمثل القول الفصل في هذا الصدد لحين ظهور المستكشفين الجغرافيين الأوروبيين في القرن التاسع عشر . هذا وقد أثبت البحث العلمي المعاصر أهمية المعلومات التي جمعوها حتى عن بلاد نائية مثل أرخبيل الملايو واسكنديناوه وجنوب شرق أوروبا .

والعيب الأساسي للأدب الجغرافي العربي هو في خضوعه للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل بالرغم من أن تجارب العرب العملية كثيراً ما أدت إلى استكمال تلك النظريات وتعديلها بل وحتى إلى صرف النظر عنها ؛ أضف إلى هذا أن نظرياتهم العلمية لم ترق إلى مستوى تجربتهم العملية . فهم على غرار اليونان قد ظنوا أن المعمور من الأرض هو ربعها فقط وذلك في النصف الشمالي منها وهو ما عرف باسم « الربع المعمور » ؛ كما اعتنقوا الرأي القائل باستحالة الحياة في البلاد الشديدة الحرارة أو القارسة البرودة^(١٧) . وإذا كان اعتناق اليونان أو أوروبا الوسيطة^(١٨) لهذه النظرية²² الأخيرة له ما يبرره في عدم إلمامهم بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء فإن العرب بفضل رحلاتهم البحرية قد عرفوا جيداً تلك الجهات من أفريقيا مثل زنجبار ومدغشقر حيث رأوا رأي العين عدداً من المراكز المأهولة ؛ وبالرغم من هذا فقد استمرت هذه النظرية العقيمة عائشة بين ظهرانيهم دون ما أدنى تعديل . وهذا الإصرار نفسه قد ظهر بوضوح في تمسكهم بالرأي القائل بوجود سلسلة جبلية تنتظم الأرض من الغرب إلى الشرق^(١٩) ، بالرغم من أن هذه الفكرة تتعارض تعارضاً تاماً مع ما شاهدوه من واقع الأحوال^(٢٠) . وتحت تأثير الأفكار المسيحية الأولى لم يكن من النادر أن تقابلنا لديهم الفكرة القائلة بأن الأنهار الكبرى تنبع من الفردوس على الرغم من أنه كثيراً ما كانت هذه الأنهار معروفة لديهم من منبعها إلى مصبها تقريباً^(٢١) .

وتمت تأثير عاق تقدم العلوم لوقت ما كان نظرية تقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم ، وهي أحزمة عريضة مرتبة من الجنوب إلى الشمال في موازاة خط الاستواء ومبتدئة منه على وجه التقريب^(٢٢) . هذا التقسيم وضعه اليونان على أساس الطول النسبي للنهار والليل أو ميل الشمس على خط الاستواء (باليونانية « كليما » Klima وجمعها « كليماتا » Kimata) ؛ وكانت عروض الأقاليم تتفاوت بحيث يختلف أطول أيام السنة بمقدار نصف ساعة من إقليم إلى آخر^(٢٣) . هذا وقد اكتسبت نظرية « الأقاليم » انتشاراً واسعاً سواء في الشرق العربي أو أوروبا الوسيطة ، غير أن الوحدة التامة في التقسيم لم تُراع ، كما وأن التباين في عروض الأقاليم بلغ حداً ملحوظاً نتيجة لعدم الاتفاق حول درجات العرض الفاصلة بين كل إقليم والذي يليه^(٢٤) . هذا البون الشاسع بين النظرية والواقع قد ترك أثره في الكارتوغرافيا العربية أيضاً ، فهي وإن تمكنت في القرن العاشر ، أي عصر ازدهار علم الجغرافيا ،

من أن تبرز إلى الوجود «أطلس الإسلام» الطريف المنظم ، إلا أنها عجزت بالتالي عن إنتاج ما يشبهه ولو على شكل مصورات جغرافية منفردة ، بحيث لم يجد اتساع أفق المعلومات الجغرافية إنعكاساً كافياً في المصورات الجغرافية المتأخرة التي كانت مجرد تقليد للنماذج السابقة بل وأحياناً تكراراً حرفياً لها . ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن الكارتوغرافيا لم تتمتع بالكثير من الأصالة حتى في أوروبا الوسيطة ولم يجر أى تصحيح في المصورات الجغرافية لتتفق مع المعلومات المعاصرة لها^(٢٥) .

وبالطبع لم يكن بمستطاع الأدب الجغرافي التخلص من العيوب المعهودة في الأدب العربي بأجمعه ،
23 فنبر فيه الزعة إلى الوصف الجامع الشامل بدلاً من العرض المفصل العميق للمناطق المعروفة على أساس الملاحظة المباشرة ؛ أضف إلى هذا أن المنهج النقدي لم يطبق دائماً على المصادر المكتوبة التي أفاد منها المؤلفون . هذا وقد غلب على الأدب العربي موقف معين من الإنتاج الأدبي للسلف يتفق أحياناً مع الفكرة المعاصرة للسرقة الأدبية (Plagiarism) . وإذا حدث وأن التقينا في عهد ازدهار الأدب الجغرافي في القرن العاشر بعدد من العلماء الباحثين ممن بلغوا مرتبة عالية في نقد مصادرهم بتطبيق مناهج في البحث ذات قيمة علمية حتى في أيامنا هذه ، فإنه قد تلاهم صنف آخر من العلماء شغل نفسه بنقل روايات المؤلفين المتقدمين دون الإشارة إلى أنها ترجع إلى عصر سابق لعصرهم بكثير . وقد ساق هذا عدداً من البحاثة المعاصرين إلى الخطأ . ولم يكن الدافع إلى هذا مبنياً على سوء النية ، ولو أن هذا العامل قد وجد أحياناً ؛ ذلك أن هذه الظاهرة قد شملت جميع ميادين الأدب ونشأت على وجه التقريب منذ بداية التأليف عند العرب . وقد أكد الجغرافي المقدسي (القرن العاشر) ولو بشيء من المبالغة ، وذلك في ملاحظاته النقدية عن السابقين له في مضمار الجغرافيا ، أن كتاب الجيهاى يضم بين دفتيه كتاب ابن خرداذبه وأن ابن الفقيه لا يختلف في شيء عن الجاحظ^(٢٦) وفيما بعد أصبح تضمين مصنفات الغير أو تضمين قطع منها في صلب المصنف قاعدة عامة . وفي الأحوال التي يورد فيها المؤلفون أسماء مصادرهم فإن هذا العيب يصبح فضيلة ، فكثيراً ما حفظت لنا نتيجة لذلك شذور ومقتطفات من مصنفات فقدت تماماً بالنسبة لنا ؛ ويكفى في هذا الصدد أن نشير إلى رحلة ابن فضلان التي اعتمد جميع من تفرغوا لدراساتها حتى الآونة الأخيرة على المقتطفات التي حفظها لنا ياقوت في «معجم البلدان» الذي تم تأليفه بعد رحلة ابن فضلان بثلاثة قرون . ومن المؤسف أن طريقة إيراد المصادر لم تكن الغالبة فأحياناً قد يورد المؤلف في بداية مصنفه ثبناً بأسماء المراجع التي أفاد منها دون أن يعنى في صواب الكتاب بالتمييز بين ما أخذه من غيره وما جمعه هو بنفسه أو يشير إلى أن بعض مادته يرجع إلى أزمنة سالفة . ويحتاج البحاثة إلى إعمال الحذر حتى لا يأخذ هذه التضمينات على أنها ألفاظ المؤلف نفسه أو أنها ترجع إلى العصر الذي عاش فيه^(٢٨) .

وإذا حاولنا حصر مزايا الأدب الجغرافي العربي وعيوبه فإنه يجب الاعتراف على أية حال

بأهميته العلمية القصوى والتنوع الكبير في فنونه وأنماطه . ففيه تقابلنا الرسالة العلمية في الفلك والرياضيات ، كما تقابلنا الكتب العملية التي وضعت من أجل عمال الدواوين وجمهرة المسافرين . وهو يقدم متعة ذهنية كبرى إذ نلتقي فيه بنماذج أدبية فنية رائعة ، صيغت بالسجع أحياناً . 24 والمصنفات الموضوعية من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة والإمتاع والحيوية من جهة أخرى ؛ وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم في فن القصص ؛ ولقد أثار هذا الأدب اهتماماً بالغاً بسبب تنوعه وغنى مادته ، فهو تارة علمي وتارة شعبي ، وهو طوراً واقعي وأسطوري على السواء ، تكن فيه المتعة كما تكن فيه الفائدة — لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها في أدب أى شعب معاصر للعرب . وقد أثبت البحث العلمي المعاصر أن مادة الأدب الجغرافي العربي أبعد من أن تكون قد استوفت حقها من الدراسة والاستقصاء حتى في أيامنا هذه ؛ بل الواقع أنها أخذت الآن فقط تدخل بعض الشيء في نطاق البحث العلمي المعاصر بصورة أوسع .

٢ — تاريخ دراسة الموضوع . المؤلفات ذات الطابع العام . هدف هذا الكتاب

مرت معرفة العلم الأوروبي بالجغرافيا العربية على أطوار مختلفة وبدرجات سرعة متفاوتة وخضعت لتغيرات وفقاً للمستوى العام للثقافة والحالة الاستعراب . وهنا أيضاً اختلف مصير كل من الجغرافيا الفلكية والجغرافيا الوصفية . فنذ القرن الحادى عشر بدأت في أسبانيا ترجمة المصنفات العربية في الفلك والرياضيات إلى اللغة اللاتينية ، وسرعان ما أصبحت أسماء الغوريثمي Algorithmi (أى الخوارزمي) والفراغانوس Alfraganus (أى الفرغانى) والباتغنيوس Albategnius (أى البتاني) معروفة لدى الجميع ، بل واشتهرت بهذه الصيغ أكثر مما بأسمائها الشرقية الأصلية . وقد أثبت البحث المعاصر أن هذه الترجمات ليست في مستوى يتفق ومطالب العلم الحديث ولكنها على أية حال قد ساعدت على تطور العلم في أوروبا الوسيطة ، وهى المسئولة عن تثبيت الشكل اللاتينى للمصطلحات العلمية العربية التي وجدت طريقها إلى عدد من العلوم ولا زالت مستعملة إلى الآن . وهذه الترجمات لم يكن بوسعها بالطبع إعطاء فكرة عن تطور العلم عند العرب كما لم تقدم صورة تامة عن مجهودات كل عالم في محيط علمه . ذلك أن الاهتمام بمثل هذه المسائل لم يكن قد نشأ بعد ، فضلاً عن أن البحث فيها لا يتأتى إلا بالتعرف على الأصول العربية نفسها . ومهما يكن من شيء فإن أوروبا قد تعرفت بفضل هذه الترجمات على الجغرافيا الفلكية عند العرب قبل زمن طويل من نشأة علم الاستعراب . والتأثير المباشر لمثل هذه المصنفات على تطور العلم الأوروبي قد بدأ مبكراً جداً ، وهو الآن أمر مؤكد متفق عليه من الجميع .

غير أن الأمر جد مختلف فيما يتعلق بالجغرافيا الوصفية ، فأوروبا المسيحية قد ترجمت عن طيب خاطر مؤلفات العرب في الرياضيات والفلك والكيمياء إلى اللغة اللاتينية ، إلا أن الاهتمام بالجغرافيا أو التاريخ كما هو الحال أيضاً مع الأدب في المدلول الخاص لهذا اللفظ قد انعدم تماماً (٢٨) . وحتى الآن لم يعثر على أى أثر لترجمات لمصنفات الجغرافيين والرحالة العرب في الفترة الأولى من 25 القرون الوسطى الأوروبية ، ويبدو أنه لم تمكن هناك معرفة مباشرة بهم بعكس الحال مع الفلكيين (٢٩) . إلا أن هذا لا يعنى أن موضوعات منفصلة ، خاصة من محيط القصص والجغرافيا الأسطورية لم تجد طريقها من العرب إلى أوروبا ؛ ويكفى في هذا الصدد أن نتذكر حكاية أسفار القديس براندان Brandan التي تضم بين دفتيها كمية وافرة من العناصر الشرقية (٣٠) . وواحدة من الحالات النادرة التي أثرت فيها النظريات الجغرافية العربية تأثيراً مباشراً على التفكير الأوربي في العصور الوسطى تمس محيط الكارتوغرافيا أكثر من غيره ؛ فارينو سانودو Marino Sanudo ، وهو إحدى الشخصيات الأوروبية النشطة في بداية القرن الرابع عشر ، قد زود مصنفه « كتاب الأرض المقدسة » Opus Terrae Sanctae (١٣٢١) بخارطة للعالم لتوضيح فكرته المبتكرة التي ترمي إلى محاصرة العالم الإسلامي حصاراً اقتصادياً (٣١) . وهذه الخارطة على هيئة دائرة مركزها أورشليم ومبين عليها بوضوح بحران كبيران متصلان بالبحر المحيط ، كما يظهر عليها ساحل أفريقيا ممتداً امتداداً بعيداً نحو الشرق (٣٢) . فهي إذن تكرر لجميع الخطوط الرئيسية المميزة لخارطة العالم في « أطلس الإسلام » ، مع اختلاف بسيط هو أن مركز الأخير ليس أورشليم بل مكة بالطبع . ومثل هذا الاتفاق أبعد من أن يكون من عمل الصدفة ، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن اهتمام سانودو بالشرق يميز احتمال معرفته بالمصادر العربية . وعلى أى فهذه الحالة فريدة في نوعها وتقف بمفردها دليلاً على فقدان الاهتمام في أوروبا بالجغرافيا الوصفية عند العرب عامة .

ولما بدأ العلم الأوروبي اتصاله المباشر بالأصول العربية أخذ الاهتمام بالجغرافيا الوصفية يعادل الاهتمام بالجغرافيا الفلكية . وكان بوستل Postell (٣٣) أول مستشرق يجتذبه الجغرافي العربي أبو الفدا ؛ كما أن أول ذكر لياقوت يرد في محاضرة بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٧٠٢ ليعقوب جيونوفيس Jacobus Gionovius (٣٤) . وفي عام ١٥٩٢ طبع بمطبعة المديتشي Medici المشهورة أول نص في الجغرافيا الوصفية ، وهو كتاب اكتسب بالتالي صيتاً عريضاً أعنى بذلك مصنف الجغرافي العربي المغربي المشهور الشريف الإدريسي الذي عاش في القرن الثاني عشر . وقد جانب التوفيق الناشر حين أعطى الكتاب عنواناً مضللاً هو « جغرافيا النوبي » * Geographia Nubiensis ، مما ساق بالتالي إلى غير

* أعتقد أن ألفاظ المؤلف هنا قد تسوق إلى اللبس إذ يفهم منها أن هذا العنوان الخاطئ للكتاب تحمله طبعة عام ١٥٩٢ لا ترجمة عام ١٦١٩ . راجع على أية حال كلامه عن الإدريسي في الفصل العاشر . (المترجم)

قليل من اللبس . هذه الطبعة التي تلتها الترجمة اللاتينية في عام ١٦١٩ كانت أعجز من أن تلبي مطالب المنهج العلمي الحديث ، غير أن صعوبة هذه المهمة ترجع بلاشك إلى أننا لا نمتلك إلى الآن طبعة علمية كاملة لكتاب الإدريسي . وقد حالف التوفيق بصورة أكبر طبع أول كتاب في الجغرافيا الفلكية وقد اضطلع بهذه المهمة العالم الهولندي الشهير | للقرن السابع عشر ياكوب غوليس Jacob Golius (١٥٩٦ - ١٦٦٧) ؛ فالطبعة التي قام بتحضيرها للجداول الفلكية للفرغاني (القرن التاسع) ، المشهور في أوروبا الوسيطة باسم الفرغانوس Alfragnus ، ظهرت مع ترجمتها اللاتينية في عام ١٦٦٩ أى بعد وفاته ، وكانت بحق فاتحة عهد جديد في هذا الباب . وبهذا وضعت أول لبنة في أساس دراسة الأدب الجغرافي اعتماداً على مصادره الأصلية ؛ وقد سار التقدم بصورة بطيئة ، ففي القرن الثامن عشر بأجمعه لم يتعرف العلم الأوروبي إلا على ثلاثة مؤلفين فقط من رجالات القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، اثنان منهم وهما أبو الفدا (توفي عام ١٣٣١) وابن الوردي (توفي عام ١٤٤٦) اهتما بالجغرافيا العامة ، أما الثالث وهو عبد اللطيف البغدادي (توفي عام ١٢٣١) فقد اشتهر بوصفه لمصر . وقد استمرت المعرفة في النمو بفضل ظهور المقتطفات والترجمات التي لا يمكن اعتبارها رغباً عن ذلك علمية بشكل كاف .

وفي بداية القرن التاسع عشر ظهر بحثان ممتازان في دراسة الأدب الجغرافي لا يزالان إلى اليوم محتفظين بقيمتيهما ، أحدهما ترجمة وصف مصر لعبد اللطيف البغدادي الذي مر ذكره للتو ، وهى من عمل المستشرق الفرنسى الكبير سلفستر دى ساسى Silvestre de Sacy (١٨١٠) ، والآخر ترجمة المستشرق الروسى فرين Frähn لرسالة ابن فضلان (١٨٢٣) . وكلا البحثين يمكن اعتبارهما حجر زاوية في بداية الدراسة العلمية للأدب الجغرافي العربى . وعند منتصف القرن التاسع عشر اشتدت الحاجة إلى مصنف عام يجمع شتات ما عرف حتى تلك اللحظة ، لذا فقد نال أهمية غير عادية كتاب رينو Renaud (١٨٤٨) الذى أراد به فى الأصل وضع مقدمة لطبعة علمية تامة لجغرافيا ابى الفدا ، ولكن البحث ما لبث أن استفاض وتجاوز حدود موضوعه . واتخذ صورة عرض عام مستقل لتطور العلم والأدب الجغرافي فى اللغات الثلاث الرئيسية للشرق الإسلامى . ويمثل الكتاب سفرأ فى أكثر من أربعائة وخمسين صفحة يتضح من خلالها معرفة المؤلف الجيدة بالجغرافيا الوصفية والفلكية ؛ ويستند المصنف على عدد من الأبحاث السابقة المستقلة للمؤلف نفسه ؛ وقد كتب بأسلوب شيق جذاب . وهو يمثل خطوة كبرى فى دراسة الموضوع ولم يأخذ مكانه إلى الآن مصنف من نوعه .

وفي النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحقق فى لحظة واحدة تقريباً مشروعان ضحكان أصبحا بالتالى قاعدة متينة لدراسة الأدب الجغرافي العربى اعتماداً على أشهر مؤلفيه بين القرنين العاشر والثالث عشر . فبين عامى ١٨٦٦ و ١٨٧٦ نشر فستنفلد Wüstenfeld المعجم الجغرافى لياقوت فى

سنة أجزاء ؛ وهو أهم مرجع جغرافي يتجه إليه البحاثة إلى أيامنا هذه ونموذج لما يجب أن يكون عليه أدب النقل (Compilation) في أدق معانيه . وفي ذات الوقت على وجه التقريب وذلك في سنة ١٨٧٠ بدأ العلامة الهولندي دى خويه De Goeje تنفيذ فكرته بنشر سلسلة « مكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum التي اكتمل عقدها بظهور الجزء الثامن في عام ١٨٩٤ ، وهي تتكون من تسع مجلدات كانت بالنسبة لعصرها أنموذجاً للنشر العلمي ، وتضم في صفحاتها مصنفات مؤلفي عهد ازدهار الأدب الجغرافي العربي في القرنين التاسع والعاشر (٣٥) .

هذا الجهود الذي قام به فستنفلد ودى خويه لم يستنفد بالطبع الذخيرة الأساسية للمصنفات الجغرافية العربية ولكنه كف للدارسين إمكانية الدراسة المنهجية المنظمة للآثار الأخرى التي لم تكن قد نشرت بعد ، وقدم مادة ضخمة لمختلف الأبحاث الجغرافية . وفي القرنين التاسع عشر والعشرين ظهر أسلوب جديد في دراسة المادة الجغرافية العربية يهتم بجمع المادة المتعلقة بكل قطر ودراستها دراسة نقدية . وبعض هذه الدراسات تجاوز أحياناً نطاق جزء واحد (مثل مؤلف أماري Amari عن صقلية ومدنيكوف Mednikov عن فلسطين وزايل Seippel عن الثورمان وفيران Ferrand عن الشرق الأقصى الخ) . أما الحديث عن الدراسات الضخمة والمؤلفات الكبرى التي ظهرت في نصف القرن الأخير ، بل في العشرة أعوام الأخيرة ، فيمكن أن يكون موضوع دراسة خاصة قائمة بذاتها . وفي متناول أيدينا الآن ترجمات علمية مثالية ودراسات عن المؤلفين المختلفين أو لقطع من مصنفاتهم ، مثل أبحاث توليو Tuulio عن الإدريسي (١٩٣٠) أو مينورسكي Minorsky عن النص الفارسي المجهول المؤلف (١٩٢٧) . وفي متناول أيدينا كذلك دراسات جدية لمختلف الموضوعات مثل أبحاث مجيك Mzik عن دور بطلميوس في الجغرافيا العربية (١٩١٥) أو هونغمان Honigmann عن نظرية الأقاليم السبعة (١٩٢٩) . وقد اتسع المجال بشكل خاص للأبحاث في تاريخ الحضارة المرتكزة أساساً على مادة جغرافية ، مثال ذلك مجموعة من الدراسات التحليلية الدقيقة لياكوب Jacob (١٨٨٦ وما بعدها) . كما وجدت قاعدة رصينة لدراسة تاريخ الكارتوغرافيا العربية منذ مؤلفات ليلول Lelewel (١٨٥٠ وما بعدها) ، ولم تلبث هذه الدراسة أن اكتملت وشملت جميع المادة التي أمكن العثور عليها وذلك في الطبقات الكبرى لميلر K. Miller (١٩٢٦ وما بعدها) ويوسف كمال (١٩٣٠ وما بعدها) . هذا وقد تابعت الدراسة سيرها قدماً فأصبحت المناهج أكثر دقة وارتفع المستوى المطلوب . وفي الآونة الحاضرة اشتدت الحاجة إلى إعادة طبع بعض أجزاء « مكتبة الجغرافيين العرب » مع الاستفادة من المادة التي تجمعت منذ ظهور الطبعة الأولى والعمل أيضاً على استيفاء المطالب العلمية المعاصرة :

هذه المادة الغنية الحافلة في مصادرها وفي الأبحاث التي كتبت فيها ، والتي تجمعت خلال نصف

القرن الأخير ، تطلبت وضع مؤلفات ومراجع مما يحتاج إليه المبتدئون كما يحتاج إليه المتخصصون في الفروع الأخرى للعلوم الذين يحتاجون إلى استقاء المادة اللازمة لهم من المصادر العربية . ولكن إذا كان الوضع لا بأس به كما رأينا فيما يتصل بالمصادر العامة فإنه لم يظهر مع الأسف منذ عهد رينو مؤلف عام يستعرض تطور الجغرافيا عند العرب ويقوم بحاجة المستعربين وغير المستعربين . والمؤلفات العامة الموجودة بين أيدينا تمثل في العادة ملخصات قصيرة أو مقالات تتوزعها الدوريات الجغرافية ، الغرض منها إبراز الخطوط العريضة لتطور الأدب الجغرافي مع الوقوف عند بعض المؤلفين . ويجب اعتبار تلك التي ظهرت في القرن التاسع عشر قد بليت وذلك نتيجة لظهور مواد جديدة .

وفي عام ١٨٤٢ حاول فستنفلد وضع موجز بيليوغرافي للأدب الجغرافي العربي معتمداً في ذلك اعتماداً كلياً على مؤلف القرن السابع عشر حاجي خليفة ، فأورد أسماء مائة وستة وعشرين مؤلفاً وهو رقم لا يمكن 29 اعتباره في الآونة الحاضرة وافياً بالغرض . وقد فقد كتاب فستنفلد هذا قيمته العلمية قبل وقت طويل من كتابه الآخر في أدب التاريخ عند العرب الذي فرغ من تأليفه في أواخر أيام حياته العلمية (١٨٨٢) . وبعد نحو عشرة أعوام من ظهور كتاب رينو ظهر في عام ١٨٥٨ بحث بعنوان « نظرة إلى الأدب الجغرافي عند الشعوب الإسلامية » Udsigt over de islamiske folks geographiske Kundskaber للعلامة الدنماركي ميرن Mehren الذي اشتهر فيما بعد كناشر ومترجم لكتاب الدمشقي في الكوزموغرافيا والمؤلفات ابن سينا . ونظراً لأن البحث قد كتب باللغة الدنماركية وظهر في صحيفة علمية محدودة الانتشار فقد ظل مجهولاً من القراء ؛ وهو أمر يؤسف له حقاً إذ أنه لم يخل في الكثير من الأحيان من بعض الأهمية ولا يزال ذا فائدة في بعض النواحي إلى أيامنا هذه رغم أن أنه يدين بالكثير لرينو . ويشمل ثبت أسماء الجغرافيين العرب الموجود في بداية البحث على أربعين اسماً فقط ، غير أن المؤلف يقدم تفاصيل وافية عنهم معتمداً في ذلك على المصادر الأصلية . وفي القسم الثاني من بحثه يعرض لتصورات العرب عن العالم ، وبالرغم من أن هذا القسم يدين بالكثير لكتاب رينو أيضاً إلا أنه يمتاز بعرض موجز بديع لنظرية شكل الأرض وتقسيمها الرياضي وحساب خط نصف النهار وتقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم الخ . وفي القسم الثالث يوضح نظرية العرب في تقسيم البحار على الأرض ؛ أما الفصل الأخير وهو بعنوان « أرض الوردك* » كما عرفها العرب « فلا يزال محتفظاً ببعض أهميته إلى أيامنا هذه .

ولم تكن محاولات وضع عرض عام للأدب الجغرافي العربي وفقاً على المستعربين اللغويين وحدهم بل أدلى فيه بدلائهم كذلك مؤرخو علم الجغرافيا . فالعالم الفرنسي المشهور لعهد ثقيان دي سان مارتان Vivien de Saint Martin نشر في عام ١٨٦٧ مقالا عن جغرافيا العصور الوسطى في المشرق من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر وذلك ضمن تاريخه العام للجغرافيا ، وهو مشروع لم يكتب

* الوردك أو الواريغ هم أهل الشمال « النورمان » . (المترجم)

له أن يتممه بالتالى . وقد استطاع هذا العالم أن يلقى فى تسعة فصول نظرة عاجلة إلى الأدب الجغرافى العربى الوصفى والفلكى على السواء ؛ وهذا المقال وإن تقادم عليه العهد فإنه يمثل بعض الطرافة لأنه يحوى رأى عالم جغرافى كبير فى قيمة العلم العربى . وفى السبعينيات من القرن الماضى عندما بدأ دى خويه فى نشر « مكتبة الجغرافيين العرب » دمج مقالا فى الجغرافيا عند العرب ظهر بالجملة الجغرافية الهولندية وكان موجهاً إلى القارئ العام (١٨٧٤) ؛ ولم يكتف دى خويه فى مقاله هذا بمعالجة الجغرافيا الفلكية بل أفرد نبذاً قصيرة للكلام على نحو عشرين من ممثلى الجغرافيا الوصفية إلى عهد أبى الفدا ؛ وهو يفصل بعض الشيء فى كلامه عن المقدسى ويلقى ضوءاً على دور المؤرخين فى تطوير الجغرافيا . ولنفس الأسباب اتى أحاطت ببحث ميرن فإنه لم يتعرف على مقال دى خويه إلا بعد محدود من الناس بحيث أصبح الآن نسباً منسياً . وفى مؤلف كريم Kremer « التاريخ الحضارى للشرق » Culturgeschichte des Orients ظفر الفصل الذى أفردده للجغرافيين بشهرة كبيرة ، شأنه فى هذا شأن بقية الكتاب (١٨٧٧) (٣٦) . وهو ككل كتابه قد صيغ أيضاً فى أسلوب يتميز بالكثير من الحيوية والمهارة وظل إلى بداية القرن العشرين خير عرض للموضوع من أجل | القارئ العام غير المتخصص . وثمة عرض آخر يمتاز بالفائدة والوضوح وهو مقال دثيك Devic (١٨٨٢) الذى يعتبر خبيراً بالأدب الجغرافى خاصة فيما يتعلق بشرق أفريقيا . وهو يورد ذكر ستة وثلاثين مؤلفاً مع نبذ صغيرة عنهم وبضع مقتطفات من مصنفات فجر الأدب الجغرافى . وكمدخل عام للموضوع فإن هذا المقال يمكن أن يمثل بعض الأهمية حتى فى الوقت الحاضر .

وفى السنوات التسعينات وذلك بمناسبة الانتهاء من طبع سلسلة « مكتبة الجغرافيين العرب » ظهرت بضع دراسات مفيدة عن فجر الأدب الجغرافى يجدر بنا أن نميز من بينها خاصة اثنتين ، إحداهما لنالينو (١٨٩٤) والأخرى لشقارتز Schwartz (٣٧) (١٨٩٧) . فالأولى مستهلة بملاحظات للجغرافى الإيطالى الشهير جيدو كورا Guido Cora يعبر فيها عن ضرورة ترجمة مصنفات هذه السلسلة ويرجو أن تتحقق هذه الأمنية يوماً ما ؛ وفى الواقع أن تنفيذ ذلك المشروع لم يبدأ إلا فى الآونة الأخيرة . ثم يقدم لنا نالينو خلاصة وافية لجميع أجزاء السلسلة مع تراجم المؤلفين ويشفع ذلك بثبت حافل للمراجع . أما شقارتز فإنه يبدى ملاحظات ذات طابع عام عن المؤلفين الذين تضمنتهم السلسلة ويفصل الكلام بشكل خاص على ابن خردادذه والمقدسى أكثر مما يفعل مع الإصطخرى .

: هذا وقد اضطرر نمو المادة وتطور العلم فى نصف القرن الأخير بسرعة هائلة مما دعى إلى اعتبار جميع الملخصات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر غير وافية بالغرض حتى ولو سطرها أقلام علماء كبار ؛ وهى تمثل الآن خطوة ليس إلا فى دراسة الموضوع . وفيما عدا ذلك فلا أهمية لها البتة باستثناء أقسام معينة منها ، بحيث يضحى من الأفضل أن يبدأ الدارس بالمؤلفات التى ظهرت فى العشرينيات

والثلاثينيات من هذا القرن والتي تأخذ في حسابها المادة التي ظهرت في الآونة الأخيرة . وعدد هذه الملخصات كبير وهي أحياناً يكمل بعضها البعض بصورة مرضية .

وقد أفرد المستعرب وعالم الرياضيات الفرنسي كاراً دى فو Carra de Vaux مائة صفحة للجغرافيين والرحالة العرب ، وذلك في الجزء الثاني من مؤلفه الذائع الصيت « مفكرو الإسلام » Les Penseurs de l'Islam الذى يقع في خمسة أجزاء (١٩٢١) (٣٨) . ولم يكن من هدف المؤلف جمع عدد هائل من الأسماء أو استيفاء جميع المراجع لذا فقد انتقى نحواً من خمسين شخصية لامعة وترجم لها ووصف اتجاهاتها العلمية . وتركز الميزة الكبرى للمؤلف في معرفته الجيدة بالعلوم الدقيقة عند العرب ، ومن ثم فهو يولى عناية خاصة للجغرافيا الفلكية . وهو يستعمل براءة الاقتباسات من المصادر العربية ويسوق عرضه بمهارة فائقة رغماً من بضعة أخطاء في التفاصيل أحياناً . كذلك لا يفتقر إلى الطرافة مقال العالم الهولندى كرامرس Kramers « الجغرافيا والتجارة » Geography and Commerce الذى ظهر في الكتاب الجماعى « تراث الإسلام » Legacy of Islam المطبوع بأكسفورد (١٩٣١) (٣٩) . وكرامرس من خيرة العارفين بالجغرافيا التاريخية واشتغل كثيراً بدراسة المصادر العربية ؛ وقد حالفه التوفيق فقدم صورة متكاملة الجوانب لدور الجغرافيا في التطور الثقافى للحضارة العربية وارتباطها 31 بالتوسع الاقتصادى للخلافة الإسلامية ؛ وهو مقال رصين يمكن الاعتماد عليه في سد النقص البين الذى يعانى منه عرض كارا دى فو . وتتمتع بنفس الدرجة من الطرافة محاضرة لكرامرس بعنوان « الأدب الجغرافى الإسلامى كظاهرة حضارية » Die Muhammedanische geographische Literatur als Kulturerscheinung ، وهى معروفة إلى يومنا هذا مع الأسف في ملخص شديد الإيجاز (١٩٣٤) (٤٠) . وثمة مقالان آخران يحملان طابعاً عاماً ولكن يتميزان بإيراد تفاصيل عديدة سواء عن المؤلفين أو عن مسائل منفردة . أحدهما بقلم رسكا Ruska (١٩٢٧) المعروف بأبحاثه في تاريخ العلوم الطبيعية عند العرب ؛ وكان الهدف الأول من مقاله هو الاستدراك على مقال شقارتز بأن يأخذ في حسابه تطور العلم في الثلاثين عاماً التى مرت على تاريخ ظهور الأخير ، ولكن ما لبث أن اتسع به الموضوع فخرج عن حدوده بشكل ملحوظ وتحول إلى عرض عام لتطور الجغرافيا عند العرب . كذلك أفرد اهتماماً كبيراً فيه لدور الشعوب المختلفة في بناء الحضارة العربية ولنشأة الجغرافيا على ضوء هذا ، وذلك في اتجاهها الفلكى والوصفى . وينصب القسم الأساسى للمقال على الجغرافيا الوصفية والرحلات بشكل خاص مع إفراد نبذة قصيرة لما يقرب من أربعين مؤلفاً ، غالباً ما صاحبها عرض لمحتويات كتبهم . وكان رسكا جد مصيب حين ضم إلى عرضه أسماء بعض العلماء الذين كتبوا بالفارسية وكانت لهم صلة مباشرة بالجغرافيا العربية (٤١) . أما المقال الثانى فهو لكرامرس الذى مر ذكره وقد ظهر في « ذيل دائرة المعارف الإسلامية » Supplement to the Encyclopaedia of Islam (١٩٣٤ - ١٩٣٦) (٤٢) : وهو إلى جانب عرضه

للاتجاهات الرئيسية في علم الجغرافيا العربية يورد تعداداً منظماً لأشهر الجغرافيين والرحالة في اللغات العربية والفارسية والتركية مع الإشارة إلى المراجع ؛ وقد أبرز بمهارة فائقة الخطوط المميزة والصفات الجوهرية للأدب الجغرافي في الإسلام . غير أن مقاله كما هو الشأن مع جميع مواد دوائر المعارف مقتضب للغاية ولكنه يصلح كمدخل جيد لدراسة تلك المادة الضخمة ، كما وأن ثبت المراجع الموجود في آخر المقال لما يعين على تلمس الطريق بين العدد الهائل من الدراسات حول هذا الموضوع . ويمثل مقال شوي Schoy ، وهو أحد المتخصصين في العلوم الدقيقة ، تكملة مفيدة لمقال روسكا وكراموس في بعض النقاط ؛ وقد ظهر هذا المقال في « المحلة الجغرافية » Geographical Review الأمريكية (١٩٢٤)^(١٣) وهو يفتقر على العموم إلى التناسق ؛ فالمؤلف يقف طويلاً عند بعض مسائل الجغرافيا الفلكية خاصة تحديد العرب لأطوال وعروض الأماكن المختلفة .

وإذا كانت جميع هذه المقالات التي مر ذكرها تصلح مدخلاً متيناً لدراسة الأدب الجغرافي العربي وتعطى صورة جلية عن اتجاهاته الرئيسية وعن كبار من صنفوا فيه إلا أن الأبحاث المفصلة العميقة عن المؤلفين ومصنفاتهم تقتضى الالتجاء إلى المراجع الضخمة التي لم يقصد بها المطالعة بل المراجعة . وأول ما ينصرف إليه الذهن في هذا الصدد هو « تاريخ الأدب العربي » Geschichte der Arabischen Literatur المشهور لبروكلمان Brockelmann (١٨٩٨ - ١٩٠٢) الذي بفضل بقية أجزائه المتممة (١٩٣٦ - ١٩٣٩) يسوق جماع المادة إلى الآونة الحاضرة تقريباً ويقدم معيناً لا ينضب من المراجع عن جميع المؤلفين ذوى الصلة الوثيقة بالجغرافيا^(١٤) . وفي حالات معينة تمثل تكملة مفيدة لبروكلمان المواد المتعلقة بالجغرافيا في « دائرة المعارف الإسلامية » Encyclopaedia of Islam^(١٥) ، وفي « المدخل في تاريخ العلم » Introduction to the History of Science لسارطون Sarton^(١٦) ، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن المرجع الأول ، أي « دائرة المعارف الإسلامية » ، بدأ في الظهور منذ عام ١٩٠٨ لذا فإن مواد الحروف الأولى منه قد فقدت قيمتها أحياناً ولم تعد ذات نفع كبير في الوقت الحاضر ، أضف إلى هذا أنها ليست متكافئة من حيث القيمة ولم تتعرض لتصحيح دقيق في « ذيل دائرة المعارف الإسلامية »* . أما مؤلف سارطون الضخم (١٩٢٧ - ١٩٣١) فإنه يقف عند نهاية القرن الثالث عشر ولكنه يشمل أنشط الفترات وأكثرها ابتداءً وإنتاجاً في تاريخ الحضارة العربية . وهو كتاب كبير النفع في توضيح ما بلغه العرب في مختلف نواحي العلوم بما في ذلك الجغرافيا ، وذلك في نطاق الإطار العام لتطور العلوم عند جميع الشعوب .

* بدأت دار بريل Brill بليدن في إخراج الطبعة الثانية المنقحة المعدلة من « دائرة المعارف الإسلامية » منذ عهد قصير ، وقد أعيدت صياغة عدد من المواد بما في ذلك المواد المتصلة بالجغرافيا . هذا كما أن عدداً من مواد الطبعة الأولى قد نصح وزيد في الترجمة التركيبية لدائرة المعارف الإسلامية التي لا تزال توالى الصدور على شكل ملزمات . (المترجم)

وإلى جانب هذه المراجع الأساسية التي مر ذكرها والتي تعالج الأدب الجغرافي بأجمعه توجد مراجع أخرى محدودة بمنطقة أو فترة معينة . وسأذكر من بينها أشهرها قاطبة وهو تحليل مؤلفات مؤرخي وجغرافي الأندلس Ensayo bio - bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo - espanoles للمستعرب الاسباني پونس بويغوس Pons Boigues (٤٧) . وبالرغم من أن هذا الكتاب قد رأى النور منذ عام ١٨٩٨ ، أى فى وقت واحد مع الجزء الأول « لتاريخ الأدب العربى » لبروكلمان ، إلا أنه يضم بين دفتيه مادة ذاخرة جعلته لا يزال متمتعاً فى بعض أقسامه بقيمته العلمية إلى الوقت الحاضر ؛ وأحياناً قد يكون من المفيد الرجوع إليه رغبة من وجود المرجعين الضمخين السالفي الذكر .

وقد اعترف العلم الحديث بأهمية الأدب الجغرافي فى الإطار العام للدراسات العربية ، وظهرت فى القرن العشرين مجموعتان من النصوص المنتخبة من ميدان الجغرافيا كمقدمة لتسهيل دراسة الموضوع لمن يودون الخوض فى مصادره الأصلية . ومن قبل كانت المنتخبات الجغرافية تحتل مكانها بين المنتخبات الأدبية العامة عند المبتدئين فى دراسة العربية ؛ أما وجود منتخبات خاصة فى فرع معين من فروع الأدب العربى فقد كان أمراً نادراً . وأولى هاتين المجموعتين من المنتخبات الجغرافية المستقلة قد نشرها فى أواخر أيام حياته الخبير الكبير فى هذا الفن دى خويه وذلك فى عام ١٩٠٧ (٤٨) ؛ وهى تحتوى على قطع ليست بالطويلة مأخوذة عن تسعة من الجغرافيين العرب ممن ينتمون إلى عهد ازدهار هذا الفن من الأدب . وقد قصد جامعها أن «يقدم للدارسين فكرة عن المادة التى يمكن استقائها من 33 المؤلفات الجغرافية فى الأدب العربى بغض النظر عن الجانب الرياضى» . ويصحب هذه المنتخبات مقدمة قصيرة باللغة الإنجليزية ونبد عن المؤلفين وتعليقات مقتضبة بالإنجليزية والألمانية أقرب ما تكون إلى نمط المعاجم . هذا وقد أدت هذه المجموعة غرضها بحق ، وهى ذات فائدة بينة فى التعرف على الأدب الجغرافي فى نصوصه الأصلية رغما من بعض الصعوبة التى تكتنف فهم مواضع معينة منها ، وهو أمر كان يجب على المؤلف أن يستدركه فيفصل فى الشرح أكثر من أجل المبتدئين . أما المجموعة الثانية من المنتخبات الجغرافية وهى التى نشرها منذ خمسة وعشرين عاماً المستعرب الفرنسى بلاشير Blachère (٤٩) فقد قامت على فكرة أوسع من تلك ، ولم يكن الغرض منها تقديم مجموعة من النصوص فحسب للمهتمين بدراسة اللغة العربية ولكن قصد منها أيضاً تقديم سرد موجز لتطور الأدب الجغرافي لدى العرب مع انتقاء المؤلفين والنصوص بطريقة تبدو معها اللوحة متكاملة ويستطيع القارئ بدوره أن يتتبع خلالها تطور الأنماط المختلفة للأدب الجغرافي . هذا وتشتمل المجموعة على أكثر من خمسين قطعة لنحو من خمسة وعشرين مؤلفاً ، ولم تستثن فيها الجغرافيا الفلكية كما هو الحال مع مجموعة دى خويه ولكن أفرد لها المكانة الثانية . وإلى جانب المقدمة العامة زودت كل فترة وكل مؤلف وكل نص

بالتعليقات المناسبة مع الإشارة إلى أهم المراجع ؛ ويصحب النص شروح موجزة ولكن وافية . وليس بالكتاب معجم خاص ولكن به فهرساً للأعلام الجغرافية مع إيراد معادلاتها الأوروبية ؛ كما وأن الناحية التدريسية لم تهمل فيه فقد أشير إلى كل قطعة بدرجتها من الصعوبة . وأن ما بذل في إخراج هذه المجموعة من عناية وجهد سواء في العدد الوافر من المختارات باللغة العربية أو في المقدمات الوافية باللغة الفرنسية لما يجعل منها بحق كتاباً دراسياً ممتازاً لا من أجل المبتدئين فحسب بل ومن أجل تاريخ الأدب الجغرافي بوجه عام .

ويحفل العلم الروسى بأبحاث عديدة في الأدب الجغرافي العربى احتل بعضها مكانة مرموقة في تاريخ العلم مثل أبحاث فرين Frähn وروزن Rosen وبارتولد Bartold . ولكن الاستشراق الروسى فقير بدرجة ملحوظة في محيط الدراسات العامة التى يمكن أن تصلح كقائمة أو كمرجع عام للدارسين . والقسم الذى أفردته جرجاس Girgas للجغرافيا في كتابه « عرض عام للأدب العربى » Ocherk Arabskoi Literatury (٥٠) ، والذى كان بالنسبة لزمانه (١٨٧٣) مجهوداً محموداً ، لم يعد ينى بمطالب العلم الحديث بتاتاً ؛ وقد احتل مكانه في عام ١٩١١ الفصل الغنى بمراجعته من كتاب كريمسكى Krymski في « تاريخ العرب والأدب العربى » Istoria Arabov i arabskoi Literatury (٥١) الذى يحتاج الآن إلى الكثير من الإضافات والتصحيحات . هذا وقد عرض بارتولد بما عهد فيه من الأناة والأصالة العلمية الخطوط الرئيسية لتطور الأدب الجغرافي العربى في كتابه « تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا » Istoria izuchenia Vostoka v Evrope i Rossii (١٩١١ و ١٩٢٥) (٥٢) ؛ ولا يسعنا إلا أن نعبر عن مزيد أسفنا لأن بارتولد لم يفرد لذلك أكثر من خمس صفحات . وفيما يتعلق بتاريخ الفترة الأولى للجغرافيا فثمة أهمية أساسية تنالها | الفصول المعقودة لذلك في المقدمة التى دمجها يراع بارتولد من أجل طبعته للمصنف الجغرافى باللغة الفارسية « حدود العالم » (١٩٣٠) (٥٣) . أما مقالى الذى نشر عام ١٩٣٧ (٥٤) فقد كان الغرض منه إعطاء صورة سريعة للأنماط المختلفة للأدب الجغرافى وتوضيح ذلك ببعض النماذج .

ونتيجة لانعدام مرجع عام باللغة الروسية يبين الصفات المميزة للمؤلفات المختلفة في الجغرافيا فن المفيد الرجوع إلى الدراسات الموجودة بين أيدينا والمفردة لمعالجة موضوعات معينة ؛ فمثلاً في مقدمة كتاب بتروفسكى Petrovski « الطرق العربية القديمة في آسيا الوسطى » Drevnie Arabskie Dorojniky po Sredneazitskim Mestnostiam (١٨٩٤) الذى اعتمد فيه على كتاب اشپرنجر Sprenger (١٨٦٤) العتيق فإنه توجد معلومات لا تخلو من فائدة للقارئ الروسى . ويمثل كتاب مدنيكوف Mednikov الضخم عن فلسطين (١٨٩٧ — ١٩٠٣) أهمية لا مثيل لها في دراسة الجغرافيا العربية فقد أورد فيه ترجمات لقطع مأخوذة من خمسة وعشرين جغرافياً ؛ وعلى الرغم من أن القطع كلها تتعلق

بجغرافيا فلسطين إلا أنها ذات أهمية خاصة بصفتها تساعد في تكوين فكرة جلية عن مناهج أولئك المؤلفين . وهذه الترجمات مصحوبة بمعلومات موجزة عن حياة المؤلفين وكتبهم ، كما وأن المؤلف أفرد جزءاً خاصاً لتحليل المادة الجغرافية عن فلسطين ، مما يمكن أن يكون له أهمية فيما يتعلق بالاستقراءات العامة في ميدان الجغرافيا العربية . وفي مقدمة كتابه المشهور عن تركستان (١٩٠٠ و ١٩٢٨) ، وذلك عند فحصه للمصادر العربية ، يقدم لنا بارتولد تحليلاً عميقاً لعدد كبير من الجغرافيين العرب .

وكان المستعربون الروس يبدؤون في العادة معرفتهم بالنصوص الأصلية للمصنفات الجغرافية العربية من كتاب « المختارات العربية » Arabskia Khrestomatia للمستشرقين جرجاس V. F. Girgas وروزن V. R. Rosen (١٨٧٥ - ١٨٧٦) وهي مأخوذة من مصنفات خمسة مؤلفين من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر . والمعجم الموجود في آخرها يجعل من هذه المختارات إلى أيامنا هذه كتاباً دراسياً مفيداً حتى فيما يتعلق بالجغرافيا العربية .

بهذا ينتهى عرضنا العام للدراسات الأساسية في ميدان الأدب الجغرافي العربي ، سواء في الغرب أو بين ظهرانينا . وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا الفرع من العلم يتمتع حالياً بكثير من العناية ليس فقط من جانب المستعربين أو المستشرقين عامة بل وأيضاً من جانب الجغرافيين ومؤرخي العلم بالمعنى الواسع لهذا اللفظ .

ولقد يبدو أن وضع مؤلف جامع في تاريخ الأدب الجغرافي العربي أمر يسير ، غير أن الدخول في محاولة مماثلة تكتشفه صعوبات عديدة . والدليل على ذلك أن آخر عرض واسع للموضوع يرجع إلى عام ١٨٤٨ وأنه منذ ذلك التاريخ لم تظهر سوى موجزات قصيرة تأخذ في العادة شكل مقالات . ويرجع هذا بالطبع إلى أسباب عديدة يتعلق بعضها بالمادة الموجودة تحت تصرف الباحثين ؛ فعدد كبير من الآثار معروف لدينا من عناوينه فقط ولم يكشف عنه إلى الآن . ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أن كتاب أبي زيد البلخي (المتوفى عام ٩٣٤) ، وهو يمثل أول حلقة في سلسلة مصنفات المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ، لم يعثر على أصله إلى الآن ؛ كذلك لم يعثر على أصل كتاب الجيهاني 35 في مجلدات عديدة وهو ينتمى إلى نفس العهد وأفاد منه كثيراً المؤلفون المتأخرون . أضف إلى هذا أن عدداً من المؤلفات الجغرافية لا يزال ينتظر النشر ولا يزال بعيداً عن متناول أيدي الباحثين . وقد كتب شوى منذ عام ١٩٢٤ يقول إنه من المستحيل كتابة تاريخ الجغرافيا الفلكية عند العرب نظراً لأن عدداً من المؤلفات لا يزال قابلاً إلى الآن بين مخطوطات مكتبات لم تفحص بعد . ونفس هذا الحكم يهدق على الجغرافيا الوصفية فأخبار ابن فضلان مثلاً عن رحلته إلى الروس (٩٢١ - ٩٢٢) لم تتداولها الأيدي إلا في الآونة الأخيرة على الرغم من أن قطعاً منها كانت موضوعاً للدراسة منذ أكثر من مائة عام . ويدفع ظهور مواد جديدة إلى إعادة فحص عدد من المسائل التي كانت تبدو إلى عهد قريب كأنها استوعبت

بحثاً وتقصيماً . وإذا أمكن القول بأن مجموعات المخطوطات في المكتبات الأوروبية والأمريكية قد تم فحصها إلا أن هذا القول لا ينطبق بأية حال على المجموعات الشرقية ؛ فقد برهنت الأعوام الأخيرة على أن مجموعات استنبول تبشر بالكثير في هذا الصدد إذ أن بعض المخطوطات التي تم الكشف عنها هناك قد دعى إلى إعادة النظر في نشر طبعة جديدة لأجزاء معينة من طبعة كلاسيكية مثل « مكتبة الجغرافيين العرب ».

ولإلى جانب الثغرات في المصادر فإنه لما يعوق استكمال الصورة العامة صعوبة تحديد المادة أو نسبتها إلى فن معين . والعالم العربي الوحيد الذي اجتهد في أن يفصل بين منهجى الجغرافيا والتاريخ كان عبد الواحد المراكشى من علماء القرن الثالث عشر الميلادى^(٥٥) ؛ غير أن هذه كانت حالة استثنائية إذ في الواقع أن فصل المنهجين كان أمراً عسيراً . وقد كان عدد من المؤلفين مؤرخاً وجغرافياً في آن واحد ؛ ويكفى أن نذكر في هذا الصدد المسعودى المشهور (توفى عام ٩٥٦) . وكثيراً ما تضمنت المؤلفات التاريخية مادة جغرافية ذات بال كما هو الحال مثلاً مع كتاب « فتوح البلدان » للبلاذرى (المتوفى عام ٨٩٢) . ومن الواضح أن مثل هذه المادة ومثل هؤلاء المؤلفين لا يمكن إغفالهم في عرض عام للجغرافيا ؛ ولكن هذا سيؤدى بدوره إلى اتساع الموضوع وتراعى أطرافه ؛ ونفس هذا القول يصدق على تلك المؤلفات التي تفرد أقساماً خاصة للجغرافيا مثل الموسوعات العديدة التي ألفت بمصر في عهد المماليك . ويضحي من العسير حل المشكلة إذا ما تبعثرت المادة الجغرافية ، وقد أبصرنا كيف أن المصنفات ذات الطابع القصصى أو الشعبي مثل « أسفار السندباد » يجب أن تحتل مكانها في مصنف عام يعرض لتطور الأدب الجغرافى ، إذ أنها تمثل نمطاً قائماً بذاته وتتميز بالطرافة . بيد أن جمع المادة الجغرافية المتناثرة في الفروع المختلفة للأدب العربى يكاد يكون أمراً مستحيلاً بل ولا يخدم أى غرض ؛ وكتاب فيران Ferrand الذى جمع فيه الروايات العربية عن الشرق الأقصى خير دليل على أنه يمكن استخراج هذه المادة من المجموعات الأدبية كما يمكن استخراجها أيضاً من المصنفات الفلسفية والنباتية ومن المعاجم | ومن المؤلفات الاقتصادية^(٥٦) . ولعله من الممكن أن يضاف إلى هذه القائمة الآثار الشعرية ، بل وربما جميع فنون الأدب الأخرى دون استثناء . ومن الجلى أن تحليل مادة من هذا النوع في عرض عام أمر غير مستطاع ؛ أضف إلى هذا أن هذه المصادر عندما تضم مادة جغرافية صرفة إنما تنضم إلى المصنفات الجغرافية نفسها لا إلى مصنف في تاريخ الجغرافيا . لكل هذا فإن كتابنا قد قصد به تقديم عرض عام للأدب الجغرافى العربى لاجمع المادة الجغرافية الموجودة في اللغة العربية . ويمكن أن يمثل بعض الاستثناء في هذا الصدد الفترة الأولى السابقة لظهور المصنفات الجغرافية المختلفة ، فهنا يجب دراسة المواد المبثرة والإشارات العديدة التي أخذت منذ ذلك العهد تحدد اتجاهات تطور فن جديد من الأدب سيظهر في القرن التالى لذلك . ويهدف كتابنا أساساً تحليل جميع آثار الجغرافيا الوصفية والرحلات ؛ أما الجغرافيا الفلكية فستعالج فقط بالقدر

الذى ترتبط فيه ارتباطاً وثيقاً بالجغرافيا الوصفية لا كفرع مستقل لأن هذا يتصل بالعلوم الدقيقة . كما وأن عرضاً عاماً كهذا يتطلب بعض الاتساع من ناحية اللغة ليفسح مجالا للآثار الجغرافية باللغتين الفارسية والتركية ؛ وفي خط تطوره الذى شمل اللغات الثلاث نلاحظ أحياناً أن بعض حلقاته قد حفظ لنا فى لغة مغايرة اللغة التى كتب بها الأصل ؛ فن المعروف مثلاً أن كتاب حاجى خليفة (القرن السابع عشر) بالتركية وهو « جهانما » يغلب أن يكون وضعه مؤلفه فى بادئ الأمر باللغة العربية . وبعض آثار الأدب الجغرافى المبكر باللغة الفارسية ، مثل المصنف المشهور « حدود العالم » (٩٨٢) الذى لم يعرف مؤلفه إلى الآن أو كتاب كردبىزى (حوالى عام ١٠٥٠) ، قد حفظ لنا خطوطاً هامة من تاريخ الأدب الجغرافى العربى بحيث يصبح ذلك التاريخ مبتوراً إذا أغضينا النظر عنها .

ويمكن القول بوجه عام أنه ليس من أغراض هذا الكتاب الإمام بكل أطراف الموضوع بحثاً واستيفاء إنما يهدف لتقديم لوحة عامة لتطور الأدب الجغرافى ولشخصياته وآثاره المختلفة وذلك على ضوء الاستقرارات التى وصل إليها البحث المعاصر ، كما يهدف أيضاً المساهمة فى تقديم العون اللازم كمرجع أولى بالنسبة للموضوعات المختلفة التى يعالج الكلام عليها .

حواشي المندخل

- Analectes sur l'histoire et la littérature des arabes d' Espagne, par (١)
Al-Makkari. Publiés par R. Dozy, G. Dugat, L. Krehl et W. Wright. T.I,
Leyde, 1856, p. 463-943 (Chap.V).
- Bartold, Kult. Mus., p. 35-36. (٢)
- (٣) عن التصنيفات المختلفة للعلوم راجع : حاجي خليفة ، المجلد الأول ص ٢٤ - ٤٣
- (٤) ياقوت ، المعجم ، ص ١٤٤٤ - ٢٣ - ٣٤٤٥
- Wiedemann und Frank (٥)
- Schoy, Geography, p. 259 (٦)
- Schoy, El, IV, p. 332 (٧)
- Schoy, Geography, p. 259 (٨)
- Schoy, El, II, p. 1063-1064.
- Prutz, p. 53-54. (٩)
- Honigmann, Die sieben Klimata p. 92-93 (١٠)
- Lund 168-174, 179-193. (١١)
- p. 1. 174-179. (١٢) شرحه
- Hjelt, chap. III, p. 19-31, خاصة p. 19,26,31.
- Lund, p. 165. (١٣)
- 1.162-166 (١٤) شرحه
- Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 112-113 (١٥)
- Peschel-Ruge, p. 131 (١٦)
- Reinaud, Introduction, p. CCXII (١٧)
- J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 354. (١٨)
- BGA, II, p. 108-111 (١٩) ابن حوقل
- G. K. Wright, Geogr. Lore, p.270.: عن تصورات أوروبا لهذه السلسلة الجبلية راجع : (٢٠)
- p. 72 (٢١) شرحه
- Reinaud, Introduction, p. CCXXIV. (٢٢)
- Mzik, OLZ, 34, 1931, p. 939. (٢٣)
- J. K. Wright, Geographical Lore, p. 242-243; رسوم هامة p. 454-455. (٢٤)
- J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 357. (٢٥)
- BGA, III, p. 241. (٢٦) المقدسي

- Ferrand, Relations, I, p. 3-5. (٢٧)
- Devic, Le Pays des Zendjs, p. 20-21. (٢٨)
- J. K. Wright, Geogr. Lore. p. 87. (٢٩)
- (٣٠) شرحه ص ٣٩٦ ، ملاحظة ٤٤
- Beazley III, p. 309-319, 549. (٣١) راجع عنه مفصلاً :
Atiya, The Crusade, p. 114-127.
P. 123 وأيضاً
وعن الخارطة
- Kramers, The Legacy, p. 92 . (٣٢) حيث توجد صورة خارطة سانودو لعام ١٣٢١ .
Kimble, p. 138 - 139. وأيضاً :
- Postell (٣٣)
- Jacobus Gionovius, De Geographiae origine progressu ac dulcedine, (٣٤)
Lugduni 1703, p. 16
Peschel - Ruge, p. 190.
- Cora e Nallino. (٣٥)
- Kremer, Culturgeschichte, II, p. 425 - 439 (٣٦)
- Schwarz, GZ, 1897 (٣٧)
- Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 1 - 101 (٣٨)
- Kramers, Legacy, p. 79 - 107. (٣٩)
- Kramers, ZDMG, 34, 1934 (٤٠)
- Ruska, GZ. (٤١)
- Kramers, EI, EB, p. 62 - 75. (٤٢)
- Schoy, Geography (٤٣)
- Brockelmann, GAL, I - II, SB, I - III (٤٤)
- EI, I - IV, - EB, (٤٥)
- Sarton, Introduction, I - II (٤٦)
- Pons Boigues (٤٧)
- De Goeje, Selections. (٤٨)
- Blachère, Extraits (٤٩)
- Girgas, Ocherk, p. 188 - 213 (٥٠)
- Krymski, Ist. arabov, p. 100 - 107 (٥١)
- Bartold, Ist. Izuch. Vostoka, p. 52-57 (٥٢)
- Bartold, حلود العالم , p. 6 - 21 (٥٣)
- Krachkovski, Arabskie Geografy, p. 738 - 765 (٥٤)
- (٥٥) عبد الواحد ص ٢٥٢ —
- Kramers, EI, EB, p. 63
- Ferrand, Relations (٥٦) I, p. 200; II, p. 469 (الابشهي المتوفى عام ١٤٤٦)
والجويري II, p. 603 - 606; II, p. 563; II, p. 234 - 296; I ابن البيطار
II, P.608 - 611).

الفصل الأول

الجغرافيا عند العرب قبل ظهور المصنفات الجغرافية الأولى

37

للاصول إلى معرفة التصورات الجغرافية في بلاد العرب قبل الإسلام نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتماد اعتماداً كلياً على معطيات طفيفة حفظها لنا العرب أنفسهم ، وهي تفتقر إلى التجانس في الكثير من الأحيان . وبالطبع فدور بلاد العرب الجنوبية في تاريخ الشرق القديم خاصة في محيط التجارة يسوقنا إلى الافتراض بأن العرب قد حصلوا على تجارب عملية مما يحتاج إليه التجار . وقد لعبت بلاد العرب دائماً دور الوسيط في التبادل التجاري بين الهند وأفريقيا الشرقية من ناحية وبلاد دجلة والفرات والإمبراطورية الرومانية من ناحية أخرى . ومن المحتمل أن المعلومات التي جمعها التجار العرب إبان رحلاتهم الطويلة قد تردد صداها فيما خلفوه من أوصاف الطرق المختلفة ، حيث يرد بالإضافة إلى ذكر الأماكن ذكر أهم الآبار وموارد المياه والجبال والقبائل التي يخترق الطريق أراضيها . وقد تبقت شذور من هذه المعلومات التي وصلتنا من السكان المحليين مباشرة في بعض مصنفات العالم الكلاسيكي القديم ، مثال ذلك « المحطات البارثية » (The Parthian Stations) Σταθμοί Παρθίων لأيزيدور الحركي Isidorus Characensis الذي عاش في القرن الأول للميلاد وهو من سواحل الخليج الفارسي وربما كان عربي الأصل* ؛ وقد ترك لنا وصفاً لطرق القوافل بين أنطاكية وحدود الهند^(١) . ومثال هذا على ما يبدو وصفان لجزيرة العرب ، خاصة فيما يتعلق بمدنها وقبائلها ، وهما لأورانيوس Uranius «Αραβία»^(٢) وغلاوكوس Glaucos «Αραβική Αρχαιολογία»^(٣) وقد حفظ لنا منهما شذور نزره^(٤) ؛ وقريباً من عهد جستينيان كانا لا يزالان في متناول أيدي اسطفان البيزنطي Stephan of Byzantium الذي كثيراً ما أفاد منهما في معجمه الجغرافي^(٥).

وجميع هذه المصنفات لا تعني كثيراً بالنسبة لموضوع دراستنا^(٦) ، ليس فقط لأنها لم تكتب بالعربية التي لم تكن قد ارتقت بعد إلى مصاف اللغات الأدبية ، بل لأنها ظهرت في محيط الحضارة الكلاسيكية القديمة ولم يفد العرب منها شيئاً ؛ وهي لم تعكس الوسط والفترة التاريخية التي بزغت فيها أولى مظاهر

* لا يعرف من أمر إيزيدور هذا شيء يذكر ، والظاهر أنه من مدينة Charax Sapsini وهي مدينة تجارية كانت تقع على فم الخليج الفارسي ويظن البعض أنها المحمرة ويرجح أنه عاش أيام أغسطس قيصر وربما أدرك القرن الأول الميلادي .
(المترجم)

الحضارة العربية ، تلك الحضارة التي ما لبثت أن ترعرعت سريعاً وأصبحت عنصراً أساسياً في حضارة البشرية جمعاء . ومن الأهمية بمكان أن ننفذ إلى ظروف الحياة البدوية في بلاد العرب الوسطى حيث بزغ فجر الشعر الجاهلي ، ذلك الشعر الذي أصبح بمضي الزمن أنموذجاً كلاسيكياً للشرق الأدنى بأجمعه ، ومن المهم أيضاً بالنسبة لنا أن نزيل النقاب ما أمكن عن التصورات الجغرافية في بعض مراكز الحضارة بالحجاز حيث ظهر الإسلام لأن هذا بدوره سيوضح لنا الكثير في نشأة أنماط الأدب الجغرافي التي ظهرت في وقت واحد مع جميع فنون الأدب العربي الأخرى .

ومن العسير أن نتوقع اتساعاً في المدارك الجغرافية بين بدو الجاهلية غير أن قوة ملاحظتهم للظواهر الطبيعية المحيطة بهم أمر بدهي مرده إلى طبيعة حياتهم نفسها . والبدو عادة يتمتعون بمعين لا ينضب من التجارب المباشرة في مجال الجغرافيا الفلكية . وترحالهم الدائم وسراهم بالليل ، حين يعتمد الإنسان على على الاهتداء بالقمر والنجوم الساطعة ، قد شحذ ذهنهم مبكراً لمراقبة جميع التغيرات التي تطرأ على القبة السماوية . وهم لم يعرفوا الاهتداء بالنجوم فحسب بل لأنهم بفضل طلوعها ومغيبها قد استطاعوا توقيت ساعات الليل . ويحتل القمر بالطبع المكانة الأولى لديهم ، وقد عبر الأديب ابن منظور (المتوفى عام ٧١١ هـ = ١٣١١) بمهارة فائقة عن علاقتهم بالقمر في ظروف حياتهم لذلك العهد فقال :

« أنسوا بالقمر لأنهم يجلسون فيه للسمر ، ويهديهم السبل في سري الليل والسفر ، ويزيل عنهم وحشة الغاسق ، وينم على المؤذى والطارق » (٧) . وهم في مراقبتهم لمسير القمر لاحظوا مبكراً علاقته بالمجموعة النجمية المتغيرة على التوالي وحددوا عدد منازلها بثمانية وعشرين منزلاً أطلقوا عليها اسم « منازل القمر » ، وأعطى لكل واحد منها اسم عربي خالص (٨) ، وترجع هذه الأسماء إلى أقصى زمن ترتفع إليه أشعارهم . وثمة ظاهرة فلكية هامة توصل إليها البدو والحضر على السواء فقد أمكنهم التنبؤ بحالة الطقس وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة نتيجة لخبرة طويلة الأمد بمراقبة طلوع ومغيب نجوم معينة ، أو ما يسمى « بالغروب الكوني للمنازل القمرية » (The Cosmic Setting of the Lunar Stations) (٩) ، وكان العرب يعرفون ذلك باسم النوء (الجمع أنواء) وقد لعب دوراً كبيراً في حياتهم : وشيئاً فشيئاً | تجمعت لدى العرب بشأن الأنواء معلومات مختلفة صاغوها كما هو ديدنهم في صور 39 مسجوعة ثبتت به على الدوام وتم تدوينها في وقت واحد مع الشعر الجاهلي على ما يبدو . وقد حفظت لنا أوصاف مختصرة لجميع الأنواء الثمانية والعشرين نسوق بعضاً منها من باب المثال لا الحصر (١٠) :

« إذا طلع الشرطان استوى الزمان وحضرت الأوطان وتهادى الجيران » :

« إذا طلع الدبران توقدت الحزآن وكرهت النيران واستعرت الذبان ويست الغدران ورمت

نفسها حيث شاء الصبيان » :

« إذا طلعت الحوزاء توقدت المعزاء وكندست الظباء وعرفت العلباء وطاب الخباء » .

وترتبط الأنواء بالظواهر الجوية ارتباطاً وثيقاً بحيث أصبحت الأخيرة تسمى أحياناً باسمها ، فلفظ « نوء » كثيراً ما يعنى المطر ، وفى الاستعمال المعاصر اتخذ معنى العاصفة (البحرية) . وأحياناً نسبت الظاهرة إلى النجوم مباشرة فقليل إن نجما ما يسبب المطر ، وهى فكرة اضط محمد إلى محاربتها بالتالى . ويحفظ لنا التراث العربى القديم مادة غزيرة عن الأنواء ليس فقط على شكل جدول يبين منازل القمر الثمانية والعشرين^(١١) بل أيضاً على هيئة تصورات عديدة مرتبطة بها ، سجعاً كان ذاك أم شعراً . لذا فليس من الغريب فى شئ أن انكب كبار العلماء فيما بعد على تأليف « كتب الأنواء » ، وقد عد أحد المتخصصين فى الفلك عند العرب أكثر من عشرين منها^(١٢) فى القرنين التاسع والعاشر وهدما ، ويرجع أحدها إلى واحد من أوائل الجغرافيين العرب وهو ابن خردادبه كما ندين بآخر إلى المؤرخ المعروف الدينورى . ونظام المنازل القمرية من أقدم تراث البشرية وهو معروف فى أقدم الروايات الصينية والهندية والعربية^(١٣) . وليس ثمت ما يدعو على الإطلاق إلى القول بأن مذهب العرب فى المنازل مستعار برمته من غيرهم . هذا وقد وجد طريقة إلى أوروبا فى العصور الوسطى مصور يبين منازل القمر العربية (Lunar Arabic Zodiac) ، كما بينت المنازل الثمانية والعشرين بمخادفها على بعض الاسطرلابات^(١٤) .

وبالطبع لم تقف معرفة البدو عند القمر وحده بل عرفوا جيداً الكواكب التى احتلت المكانة الأولى بينها الزهرة (Venus) وعطارد (Mercury)^(١٥) ، أما فيما يتعلق بالنجوم فقد عرفوا منها ما لا يقل عن مائتين وخمسين نجماً فى تسميتها العربية الخالصة * ، جمعها بعناية فائقة فى القرن العاشر⁴⁰ الفلكى عبد الرحمن الصوفى (توفى عام ٣٧٦ = ٩٧٦)^(١٦) . وتخلو نجوم السمات (Azimuth Stars) لديهم من أى تأثير يونانى ، إذ أن التأثير اليونانى لم يعدل فى المصطلحات الفلكية العربية إلا ابتداء من القرن التاسع^(١٧) . وقد ارتبط بهذه التسميات أحياناً أساطير فريدة فى نوعها^(١٨) . وفى مقابل هذا فإن عرب الجاهلية لم يعرفوا على ما يبدو أسماء البروج ، بل إن لفظ « برج » (وجمعه أبراج وبروج) الذى استعمل بالتالى فى ذلك المعنى كان يعنى لديهم مجرد « النجوم » .

فإذا ما تحولنا من السماء إلى الأرض فسيوضح لنا أن التصورات الجغرافية لدى عرب الجاهلية كانت نزره ولم تتعد حدود جزيرتهم ، وذلك وفقاً لمفهوم الكتاب المتأخرين ، أى إلى الفرات وجبال طوروس شمالاً . ومن نافلة القول أن نوكد غنى اللغة العربية القديمة فى كل ما يتعلق بالتربة وأخص مميزات الباطنية ، وبالعلمين النباتى والحيوانى أيضاً . فإذا ما تركنا هذا جانباً فإن المجال الوحيد الذى خلف فيه العرب مادة

* آخر ما ظهر فى هذا الموضوع بحثا P. Kunitzsch :

1 — Arabische Sternkunde in Europa, 1959

(المترجم)

2 — Untersuchungen zur Sternkunde der Araber, 1960.

وافرة يكاد يقتصر على مواضع الجزيرة العربية المختلفة . وقد وصلت إلينا هذه المادة في آثار فريدة ربما كانت الوحيدة من نوعها في الأدب العالمي ، وكما هو معروف فإن القلب الأساسي الذي صيغ فيه الشعر العربي هو القصيدة التي كان القسم الأول منها يفرد عادة لذكر المحبوب و« الأطلال » حيث كانت تنزل قبيلته وقبيلة الشاعر من وقت لآخر ؛ هذا القسم من القصيدة المعروف بالنسيب كثيراً ما ورد فيه ذكر لأكثر من موضع أو موضعين جغرافيين يمكن في أغلب الأحوال تحديد موقعها . فلبيد الذي أدرك محمداً وهو شيخ طاعن في السن يذكر في إحدى قصائده الأماكن المحيطة بالمدينة حين يقول (١٩) :

لهند بأعلام الأغمر رسوم إلى أحمـد كأنهن وشوم
فوقف فسألني فأكناف ضلّفع ترَبَّعُ فيها تارة وتقيم
بما قد تعل الوادين كليهما زنانير فيها مسكن فتدوم

41 ويعطى في موضع آخر وصفاً فريداً لمسير قافلتهـم في تجاه الخليج الفارسي فيقول (٢٠)

جاوزن فَلَجْجاً فَالْحَزْنَ يَدْلُجْنَ بالليل ومن رمل عالـج كُشْبَا
من بعدما جاوزت شقائق فالد هـناء فصُلب الصّمان والحُشْبَا

وهكذا نبصر في بداية قصيدة واحدة عدداً من أسماء المواضع ، وليس بذى أهمية أن تكون مواضع خاملة الذكر ؛ ومثل هذه الحالة ليست بحالة استثنائية بل تغلب أن تكون القاعدة المطردة . فها هو عبيد بن الأبرص ، وهو من شعراء القرن السادس أيضاً ، يتذكر المواضع التي هزم فيها أحد أمراء الغساسنة قبيلته فيقول : (٢١)

أفقر من أهله ملحوب فالقطيَّاتُ فالذَنُوبُ
فراكِسُ فثُعَلِبَات فذات فرقين فالقليـب
فغردة فقفا حـبر ليس بها منهم عريب

وحسان بن ثابت ، شاعر محمد فيما بعد ، يتذكر في أبيات له بعض المواضع التي أمضى فيها وقتاً طيباً في ضيافة آل جفنة فيقول (٢٢) :

لمن الدارُ أوحشت بمَعَنان بين أعلا اليرموك فالحمَّان
فالقريَّات من بتلاس فدارَ يثا فسكَّاء فالقصـور الدواني
فقفا جاسم فأودية الصفر مغنا قبایل وهجان

لقد حفظ لنا الشعر الجاهلي مادة لاتنضب من هذا القبيل ، وفي القرن التاسع عندما أخذ العلماء العرب يتبعون مآثر أسلافهم عرب الجاهلية كانت هذه المادة هي القاعدة المتينة التي قامت عليها الرسائل

العديدة التي لا تقع تحت حصر من طراز «كتاب مياه وجبال بلاد العرب» (٢٣) و«كتاب أسماء جبال تهامة ومكانها» (٢٤) ، وهي رسائل غلب عليها الطابع اللغوي أكثر من الطابع الجغرافي ولكنها مهدت الطريق شيئاً فشيئاً إل ظهور الأدب الجغرافي .

ولما أخذ الشعر يثبت في قوالبه التقليدية بعد ظهور الإسلام بدأ ذكر المواضع والأمكنة في النسيب يفقد أحياناً أساسه الواقعي في الحياة ويتحول إلى مجرد أسماء تجمع من هنا وهناك ، ربما كانت من صنع الخيلة أحياناً . غير أن الوضع لم يكن كذلك قبل ظهور الإسلام ، وقد أثبتت سلسلة من الأبحاث أن المادة «المكانية» (Toponymy) للشعر الجاهلي يمكن أن تسوق إلى نتائج طيبة لو أخضعت لدراسة دقيقة* . ويذكر فستنفلد Wüstenfeld ، وهو من الملمين بجغرافيا بلاد العرب ، وذلك في كتابه «البحرين واليمامة» Bahrein und Jemama (٢٥) أن : « وجود الأعلام الجغرافية عند الشعراء يمثل بالنسبة لأبحاثنا مادة لا تقدر بثمن ؛ وكثيراً ما يقدم شراحهم ، الذين استقى منهم مادته أمثال البكري وياقوت ، معلومات في غاية من الدقة لأنهم بذلوا مجهوداً كبيراً في جمعها وتحقيقتها وتجهشوا السفر إلى مواضع نائية ليتحققوا بأنفسهم من مواقع المواضع التي ذكرها الشعراء ويسألوا الأعراب عنها . وحينما تتفق معطيائهم فليس ثمة ما يدعونا إلى التشكك في صحتها » .

هذا ولم تتجاوز المدارك الجغرافية عند عرب الجاهلية حدود جزيرتهم إلا نادراً ، وقلما وجدت لديهم أفكار عامة في الجغرافيا . ويرد بالطبع في شعرهم ذكر الأنهار مثل دجلة والفرات ، والأقطار مثل العراق والشام ، والمدن مثل بعلبك ودمشق ، ولكن نادراً ما ارتبطت بهذه الأسماء أية تجارب واقعية . ونفس هذا يصدق على الشعوب المجاورة لهم باستثناء اليهود الذين قطنوا معهم في جزيرة العرب ، فكثيراً ما ورد لديهم ذكر الروم (البيزنطيين) والعجم (الفرس) . ويبدو أن ذكر الترك والكابليين في أواخر القرن السادس (٢٦) كان من قبيل المصادفة ؛ وهذان الاسمان يردان في المترادفات من قبيل الإتياع والمزاوجة لدى النابغة الذبياني والأعشى ، وهما شاعران عرفا بكثرة التسفار وبمعرفةهما الحيدة بدول الثغور في شمال الجزيرة العربية . والأول في قصيدة له يرثى فيها أحد أمراء الغساسنة يقول إنه قد بكته الغساسنة وبلادهم حوران والترك والفرس والكابليون ، ويجدر بنا بالطبع أن نبصر في اللفظ الأخير شيئاً مدخولاً . أما الأعشى فيذكر في وصف لأحد مجالسه الحميرية أنه كانت «تركض» حولهم الترك والكابليون** .

* ظهر في الآونة الأخيرة بحث باللغة الألمانية في هذا الموضوع هو :

U. Thilo, Die Ortsnamen in der altarabischen Poesie. 1959 . (المترجم)

** أبيات الأعشى هي :

ولقد شربت الخمر تر	كض حولنا ترك وكابل
كدم الذبيح غريبة	ما يعتق أهل بابل
باكرتها حولي ذرو	الأكال من بكر بن وائل

(المترجم)

وقد زار الأعشى أثناء تجواله فارس ولكن من العسير أن نحكم استناداً على هذا أنه يصور حادثاً وقع بالفعل . ولعله تحت تأثير هذه الأبيات الشهيرة للنابغة والأعشى كان ذكر الترك في الشعر القديم يرد على الدوام مقروناً باسم الكابليين .

هذا هو على وجه التقريب نوع المعلومات الجغرافية الموجود لدى بدو الجاهلية ولكن وجدت إلى جانب هذا مراكز حضارية بلغت درجة أرفع من الحضارة ويمكن أن تنشأ فيها تصورات جغرافية أوسع وأكثر تنوعاً . ولانقصد بهذا دولتي الغساسنة والخميين ، إذ أنهما دخلتا في محيط حضارتين متقدمتين هما البيزنطية والإيرانية ولم تخلقا مادة عربية يمكن أن تلمس موضوع دراستنا . أما فيما يتعلق بالمراكز الحضارية الكبرى في بلاد العرب نفسها حيث اختلط بالسكان الأصليين عدد من اليهود والنصارى فإنه يمكن الاعتماد اعتماداً تاماً على القرآن . والمعلومات الأساسية التي كانت تحت تصرف محمد لم تكن غريبة على الوسط الذي عاش فيه ، أعني وسط الحياة الحضارية في الحجاز . ومن الجلي أن محمداً 43 كان رجلاً أمياً ، وتكتسب هذه الحقيقة مغزى خطيراً لأنها تسوقنا إلى الافتراض بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التي حصل عليها محمد عن طريق السماع ، وهي تمثل نموذجاً عاماً لمستوى الثقافة العام في هذا المجال* .

وبالطبع فإن مدى هذه المعلومات والمسائل المتعلقة بها كان أوسع بكثير مما هو عليه الحال مع البدو كما تردد في أشعارهم . وهي في مجموعها لا تكشف عن صعوبات خاصة ولكن تتبع مظاهرها ومصادرها والملايسات التي أحاطت بظهورها أمر جد عسير لأن المؤثرات التي عملت في محمد وصقلت شخصيته متنوعة للغاية وأثرت فيه بطريق متعددة متضاربة وجميع ما يتصل بها يحتاج إلى بحث خاص قائم بذاته . ومثل هذه المهمة يستحيل تحقيقها في عرض عام كهذا ولهذا السبب اكتفيت بعرض موجز للتصورات الجغرافية في القرآن مولياً ما أمكن عناية خاصة للاتجاهات والنظريات التي كان لها تأثير ملحوظ في الأدب الجغرافي العربي في عصوره التالية .

والمادة الجغرافية في القرآن طفيفة على العموم ، أضف إلى هذا أنه لا يمكن اعتبارها دائماً انعكاساً للمادة عربية بحتة . وما جرت تسميته « بالتراث الأسطوري في الجغرافيا »^(٢٧) قليل جداً بينها ، غير أنه مما يزيد في صعوبة تحليل المادة بشكل خاص هو أن مغزى القصص الواردة في القرآن لم يكن على الدوام واضحاً حتى لمحمد نفسه^(٢٨) ، وهو قد التجأ عن قصد إلى العبارات الغامضة والأساليب المهمة كما يتضح في أكثر من موضع من القرآن . وبالعكس ما عليه الحال مع الشعر الجاهلي فإن القرآن يحفل بالكثير في تصوير السماء والأرض^(٢٩) .

* المؤلف في هذا الفصل آراء لا تتفق مع وجهة النظر الإسلامية ، ولكني أثرت إيرادها بنصها تمسكاً بالأمانة العلمية تاركاً لعلماء المسلمين فرصة الرد عليها . (المترجم)

ففيما يتعلق بالسما كذا ما تتكرر النظرية القديمة عن السموات السبع^(٣٠) المعروفة منذ عهد البابليين والتي عاشت إلى أيامنا هذه في تعبيرات لا شعورية مثل «كأنا في السماء السابع»^(٣١)، بل وحتى في استعمال صيغة الجمع «السموات» إلى جانب المفرد «السماء». والقول بسموات سبع يرد مراراً في القرآن (٢٧٢، ٤٦١٧، ٨٢٣، ١١٤١، ١٢٦٥، ٣٦٧)، ويشار إلى أنها قد شيدت فوق بعضها البعض طبقة طبقة («طباقاً»^(١٤٧١)) وبشكل متين («شداًداً»^(١٢٧٨)). وهى على شكل طرق («طرائق»^(١٧٢٣)) تسلكها الشمس والقمر كل يسبح في فلكه (٣٤٢١، ٤٠٣٦)؛ وقد أمكن الاستدلال على أن لفظ «فلك» نفسه بابلي الأصل على ما يظهر^(٣٢). وهذه السموات السبع تقف دون عمدة (٢١٣، ٩٣١)، معتمدة على 44 القدرة الإلهية | فحسب (٦٤٢٢)، غير أن صورتها مادية بشكل واضح، ففي أكثر من موضع يرد الكلام، ولو مجازاً، بإمكان سقوط قطع منها («كسف»^(٩٤١٧)، ١٨٧٢٦، ٩٣٤، ٤٤٥٢) وأنها قد شيدت بناءً أو سقفاً، («بناء»^(٢٠٢)).

وتتوكد في القرآن بشكل خاص أهمية النجوم كهاد في ظلمات الليل (٩٧٦، ١٦١٦) ولكن من بين النجوم نفسها لم يرد ذكر لنجم خلاف «الشعرى» Sirius^(٣٣) (٥٠٥٣). وكما هو الحال مع الشعر الجاهلي فإن البروج الاثنى عشر (The Signs of the Zodiac) المعروفة منذ أيام البابليين لم يرد لها ذكر في القرآن، ولفظ «البروج» نفسه^(٣٤) الذي بدئ في استعماله مأخوذاً من القرآن ورد في صيغة الجمع فقط وفي معناه الأوّل المعروف (٨٠٤)، كما أطلق أيضاً على النجوم عامة (١٦١٥، ٦٢٢٥، ١٨٥). ونتيجة لسوء فهم ما وجد الباحث في القرآن ذكراً للمجموعة الشمسية المعروفة «بالميزان»^(٦٥٥) (٣٥). وقد ألهمت النجوم المهاوية مشاعر العرب بشدة، وكما هو الحال مع عدد من الشعوب فقد اعتبرت أسلحة لحماية السماء من قوى الشر (٧٣٧، ٥٦٧، ٨٧٢) (٣٦). أما المهمة الأساسية للشمس والقمر فقد كانت في تحديد الوقت سواء اليومي أو السنوي (٩٦٦، ٥٩، ٧٣٩، ٤٥٥)؛ كما لوحظ الاختلاف أثناء الشتاء والصيف بين مواضع شروق الشمس ومواضع غروبها، هذا إذا أخذنا بتفسير الآيات الغامضة عن المشرقين والمغربين (٥٣٧، ١٦٥٥ - ١٧) (٣٧). وقد ورد ذكر القمر مرتين (٥١٠، ٣٩٣٦) أما تقسيم السنة إلى اثني عشر شهراً فقد اعتبر أمراً بديهياً معروفاً من الجميع (٣٦٩). ويلوح أن الاختلاف بين السنتين القمرية والشمسية كان معروفاً، الأمر الذي يشير إليه معنى «الشهر الكبيس» (أي المزدوج) في لفظ «النسيء»^(٣٨)، وهو لفظ لم يتضح معناه تماماً إلى الآن.

وإذا كانت نظرية السماوات تلعب الدور الرئيسي في التصورات القرآنية عن السماء، فإنه قد وجدت فيما يتعلق بالأرض نظريات ارتبط بها الأدب الجغرافي على مر تاريخه. وإحدى هذه الأفكار الرئيسية هي أن الأرض مسطح ثابت (٦٢٢٧، ٢٦٧٨ - ٧)، وهى فكرة سادت من قبل عند اليهود كما عرفها أيضاً اليونان في عهد هوميروس Homer وهزيود Hesiod والفلاسفة الأيونيين^(٣٩). وقد عبر القرآن

عن هذا عادة بمقارنات حسية مباشرة ، فالأرض تشبه « الفراش » (٢٠٢ ، ٨٥١) ، و « البساط » (١٨٧١) و « المهاد » (٦٧٨) ، و « المهد » (٩٤٣) . ومهما بدا الأمر غريباً فإن الحقيقة الواقعة هو أن هذه النظرية المنصوص عليها بصراحة في القرآن لم تتحول إلى مذهب علمي في الجغرافيا العربية . وإذا حدث وأن أشار إليها بعض المؤلفين في افتتاحيات كتبهم [التي يبدوونها عادة بحمد الله وشكره ، 45 كالإدريسي مثلاً (٤٠) ، فواقع الأحوال أن النظرية المضادة وهي نظرية استدارة الأرض أو كرويتها قد ثبتت وعم انتشارها منذ زمن مبكر بل إن فلكياً من الفلكيين الأوائل وهو الفرغاني (٤١) قد ساق بعض البراهين المتداولة في أيامنا هذه لإثبات كروية الأرض ، كاختلاف مواعيد طلوع نجم معين أو اختلاف الكسوف باختلاف الأماكن الخ . غير أن هذه التصورات لم تتميز بالوضوح التام ، فبعض وجهات النظر تنعكس فيها آراء المسيحيين الأوائل الذين تصوروا الأرض على هيئة نصف كرة أو درع أو قبة أو مربع .

ووفقاً لما جاء في القرآن فإن الجبال تخدم غرضاً خاصاً هو جعل الأرض تثبت في حال من التوازن كيلا تميد (١٥١٦ ، ٣٢٢١ ، ٩٣١) ؛ وهذه النظرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظرية القائلة بأن الأرض مسطحة وسابحة في الفضاء (٤٢) . والجبال بوجه عام قد ورد ذكرها في القرآن في أكثر من موضع وبينت أهميتها بالنسبة للأرض (٣١٣ ، ١٩١٥ ، ٦٢٢٧ ، ٩٤١ ، ٧٥٠ ، ٢٧٧) ؛ لهذا فحين ظهرت لدى العرب ، خاصة في أدب الأساطير والعجائب ، الفكرة التي يغلب على الظن أنها مأخوذة من التصورات الإيرانية ، وهي فكرة وجود سلسلة جبلية هي سلسلة جبال قاف المحيطة بالأرض ، وجدت محاولات لتفسيرها بواسطة الآيات القرآنية عن الجبال ؛ ولعله أيضاً تحت تأثير هذا برزت فكرة وجود سلسلة جبلية تحترق الأرض من حدها إلى الحد الآخر وترتبط جذورها بجبل قاف (٤٣) . والآية القرآنية الغامضة التي تنص على خلق سبع سموات وسبع أرضين (١٢٦٥) قد أدت بدورها إلى ظهور نظرية الأرض السبع (٤٤) ، التي استندت على التصورات الإيرانية عن السبع كشورات وأيضاً على المغزى السحري للرقم سبعة ، الأمر الذي لم يخل من تأثير على نظرية البحار كما سنرى (٤٥) .

ولعل النظرية القائلة بوجود بحرين تكاد تكون أعسر مشكلة في الأدب الجغرافي على الإطلاق ، وقد وردت الإشارة إليها أكثر من مرة في القرآن وأن هذين البحرين يفصل بينهما برزخ يمنع تمازجهما (٦٢٢٧ ، ١٩٥٥-٢٠) . وسرعان ما ظهرت الفكرة القائلة بأن المراد من هذا هو البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي بخليجه الذي يتمثل في البحر الأحمر ، وأن البرزخ المقصود هو برزخ السويس . ولعله تحت تأثير الرواية الإيرانية تحولت أيضاً هذه الفكرة إلى عقيدة ثابتة في الجغرافيا والكارتوغرافيا العربية (٤٦) [فحاول بعض الجغرافيين مثل المقدسي التلليل على صحتها (٤٧) . وقد أهملت في هذا الصدد ، 46 إن قصداً أم سهواً ، إشارة القرآن إلى أن أحد هذين البحرين « عذب » وأن الآخر « ملح » (١٣٣٥ ، ٥٥٢٥) .

وبارتولد في تحليله لهذه المسألة يلفت النظر إلى أن اللفظ الذي استعمله القرآن للتعبير عن عذب في مكان الآيتين هو « فرات » ، وأن لفظ « بحر » كان يقصد به العرب دائماً الأنهار الكبرى ، ثم يخرج من هذا بفرض مؤداه أن المراد بذلك نهر الفرات والخليج الفارسي وليس البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، خاصة وأن تلك معروفة للعرب معرفة مباشرة ؛ أما البرزخ فيجب اعتباره في هذه الحالة تلك المواضع الضحلة التي تعترض مجرى الفرات قبل أن يصب في الخليج الفارسي^(٤٨) . وهذا الفرض واه بالطبع ، لأن القرآن ينص صراحة على أن البرزخ يمنع البحرين من الامتزاج ، الأمر الذي لم يحدث مطلقاً بين الفرات والخليج الفارسي ؛ وفضلاً عن ذلك فإن مثل هذا التفسير يفترض في محمد معرفة كافية بجنوب العراق وهو فرض لا يتفق مع الرواية التاريخية . وثمة تفسير جديد للمستشرق فنسنك Wensinck ، فهو يلاحظ أن الآيات المتعلقة بهذين البحرين تفترض وجود محيط سماوي^(٤٩) ، وهي فكرة متداولة بين الساميين الغربيين Western Semites وعرفها محمد ولو بصورة مبهمة . بيد أن فنسنك لم ينصل في توضيح فرضه هذا حتى قيض له في الآونة الأخيرة عالم من كبار المتخصصين في تاريخ الجغرافيا عامة والجغرافيا عند العرب خاصة وهو مجيك Mzik^(٥٠) فدلل على صحته بما فيه الكفاية . وقد بنى مجيك تفسيره على آية في القرآن لم تكن قد اجتذبت حتى تلك اللحظة أنظار الباحثين في نظرية البحرين . ففي هذه الآية (٩١٨) يدور الكلام على « مجمع البحرين » حيث ذهب موسى باحثاً عن « الماء الحى » . ولقد وضح منذ عهد طويل أن القصة المرتبطة باسم موسى إنما مأخوذة من أسطورة الإسكندر ذي القرنين وأنها نسبت خطأ إلى موسى على ما يظهر . وقد اكتشفت محاولات تحديد هذا الموضوع آراء بلغت حد العجب ، فالمقدسى مثلاً يحدده بالمكان الذي بدأ منه الإسكندر تجواله وذلك عند منبع نهر دجلة^(٥١) . وكما أثبت مجيك فإن هذا الموضوع من القرآن من المواضع القليلة فيه التي انعكست فيها الجغرافيا الأسطورية^(٥٢) . ووفقاً لما جاء فيه فإن المحيط الأرضي يبدو مالحاً أما المحيط السماوي المرتبط بالعالم الآخر والذي يرسل الغيث إلى الأرض فهو عذب^(٥٣) ، وفي هذا ينعكس صدى قول سفر التكوين 47 (الإصحاح الأول ، الفقرة السادسة) في وجود فاصل بين الماء السماوي والماء الأرضي^(٥٤) . وهكذا فإن التصورات عن موقع « مجمع البحرين » بل وعن البحرين نفسيهما اللذين ورد ذكرهما في الآيات المشار إليها ، ترتبط ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً ومن العبث البحث عن تفسير لها في واقع الأحوال بالأرض^(٥٥) . ومما زاد في اللبس أكثر أن هذه المسألة لم تكن واضحة لمحمد نفسه وأن ألفاظه في عدد من المواضع تحمل طابع الغموض .

وفي موضع آخر من القرآن غلب فيه الجانب البلاغي دفع هذا إلى ظهور نظرية عن البحار السبعة لم تلبث أن انعكست في الأدب الجغرافي . ففي هذا الموضوع (٣٦٣١) ، وهو الذي يلي الكلام على قدرة الله ، جاء ما نصه : « ... ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر

ما نفدت كلمة الله . من الواضح جيداً أن الإشارة إلى البحار السبعة في هذه الآية ، التي تمثل بدورها ترجمة دقيقة لحكمة عبرية (٥٦) ، إنما ترد بطريقة رمزية ؛ وهكذا فهم المقدسي الأمر (٥٧) . بيد أن هذا لم يمنع بقية الجغرافيين ، بل وأحياناً العلماء الأوروبيين ، من الكلام عن سبعة بحار مختلفة في القرآن (٥٨) ؛ ولعلنا نجابه مرة أخرى تأثير المغزى السحري للرقم سبعة كما هو الشأن مع الأرضين السبع .

فإذا ما انتقلنا من النظريات الجغرافية الموجودة في القرآن ، أو القائمة على تعبيرات غير واضحة فيه ، إلى المادة الجغرافية الواقعية فإن القرآن يبدو أفقر بكثير من الشعر العربي خاصة فيما يتعلق بذكر الأماكن . ويمكن القول بأن القرآن يقتصر على إيراد نحو عشرة أسماء لمواقع جغرافية جميعها داخل حدود الجزيرة العربية . فإرد بالطبع ذكر مكة باسمها المعروف (٢٤٤٨) وباسمها الموقر «أم القرى» (٩٢٦ ، ٥٤٢) (٥٩) وباسمها المحلي «بكة» (٩٠٣) . أما المدينة التي يرد ذكرها مراراً ، فقد وردت أيضاً باسمها الجاهلي يثرب (١٣٣٣) (٦٠) . ومن الأماكن المرتبطة بسيرة محمد يرد ذكر بدر (١١٩٣) وحنين (٢٥٩) (٦١) فقط ؛ ومن أماكن العبادة الصفا والمروة (١٥٢٢) (٦٢) وعرفات (١٩٤٢) ؛ وطريقاً كان مصير الجودي الذي رسى عنده فلك نوح (٦١١) ، فمحمد بلاريب اعتبره في جزيرة العرب (٦٣) ولكن الجغرافيين نقلوه بالتالي إلى شمال أرض الجزيرة بل وحددوه بجبل أراوات . ومن الأماكن التي لعبت دوراً في تاريخ الأديان يرد ذكر سيناء (٢٩٥ ، ٢٠٢٠) (٦٤) ، ووادي طوى القريب منها (١٢٢٠ ، ١٦٧٩) (٦٥) . ومن مساكن الأمم البائدة يرد ذكر مواضع حقيقية وأخرى أسطورية مثل مدين (عشر مرات) (٦٦) والأليك (٧٨١٥ ، ١٧٦٢٦ ، ١٢٣٨ ، ١٣٥٠) (٦٧) والرس (٤٠٢٥ ، ١٢٥٠) (٦٨) والحجر (٨٠١٥) (٦٩) وإرم (٦٨٩) (٧٠) . وخارج حدود الجزيرة العربية ورد ذكر «الأرض المقدسة» فلسطين مرة واحدة (٢٤٥) ومصر (٧١) أربع مرات وذلك بصدد تاريخ يوسف وموسى (٨٧١٠ ، ٢١١٢ ، ١٠٠ ، ٥٠٤٣) ، ومرة واحدة ذكرت بابل (٩٦٢) (٧٢) . ولا يمكن ألا يسترعى الانتباه شح هذه المادة .

ولا يلبث الأفق أن يتسع بعض الشيء بذكر الشعوب المختلفة التي يرتبط باسمها أحياناً أسماء أتباع الديانات . وإذا كان القرآن قد استعمل في عهده المكي كلمة «عربي» لتحديد اللغة التي أنزل بها فإن لفظ «العرب» لم يظهر فيه إلا في العهد المدني (عشر مرات) (٧٣) . وليس للعرب الحضرة تسمية خاصة بهم ، أما القبائل فلم يرد لها ذكر في القرآن باستثناء قريش التي ورد ذكرها مرة واحدة فقط (١٠٦) (٧٤) . وإلى جانب اليهود والنصارى الذين ورد ذكرهم مراراً يرد بضع مرات ذكر الصابئة (٥٩٢ ، ٧٣٥ ، ١٧٢٢) (٧٥) ويرد مرة واحدة ذكر كل من الجوس - الفرس (١٧٢٢) (٧٦) والروم - البيزنطيين (١٣٠) (٧٧) . ومن القبائل البائدة في الجزيرة العربية ذكرت مراراً عاد (٧٨) وثمود (٧٩) ، وأقل من ذلك جاء ذكر سبأ (٢٢٧٧ ، ١٤٣٤) (٨٠) الذين لم يوضح القرآن بجلاء علاقتهم بقوم تبع (٣٦٤٤ ، ١٣٥٠) (٨١) .

وعند ذكر ذى القرنين في القرآن يرد الكلام على ياجوج ومأجوج (٦٦٢١ ، ٦٣١٨) الذين حبسهم الإسكندر وراء سد في نهاية الحد الشمالى الشرقى للأرض ليحمى العالم منهم ، والذين سيظهرون في آخر الزمان . وأخبار ياجوج ومأجوج ترجع إلى التوراة ولعها وصلت إلى محمد عن طريق الأساطير السريانية المتعلقة بالإسكندر^(٨٢) . وتحديد موطن هؤلاء الأقوام وموقع السد الذى يفصلهم عن بقية العالم | 49 قد شغل الجغرافيين العرب كثيراً وساق لا إلى ظهور أوهام وتخيلات غريبة فيما يتعلق بموضع إقامتهم فحسب بل وإلى رحلات واقعية للبحث عن السد نفسه . وكما هو معروف فإن ياجوج ومأجوج قد أحتملا مكانة ملحوظة في التصورات الجغرافية لأوروبا الوسيطة أيضاً ونشأ من جراء ذلك أدب غنى خاص بهما^(٨٣) .

وأخيراً إذا ما حاولنا المقارنة بين المادة الجغرافية في كل من الشعر الجاهلى والقرآن لخرجنا دون عناء بنتيجة مؤداها أن الشعر يزخر بالواقعية والصحة ، أما القرآن فالمادة الجغرافية فيه قليلة ولكنه في مقابل ذلك مفعم بالنظريات المأخوذ أغلبها من مصادر خارجية ، وهى نظريات لم يستطع العلم الجغرافى العربى أن يتحمل دائماً عبء تفسيرها .

وفي الأعوام العشرة الأولى للخلافة صادف اتساع المعلومات الجغرافية انعكاساً ضعيفاً في الأدب ، ومن المسلم به أن سيل الفتوحات العربية الجارف الذى حمل العرب بعيداً عن حدود جزيرتهم إلى مختلف الأقطار كان من شأنه أن يحدث تغييراً شاملاً في تصورهم للعالم ويؤدى بلاريب إلى اتساع أفقهم الجغرافى نتيجة للتجربة المباشرة . غير أنه يلاحظ بشكل واضح أن النظرية قد اختلفت منذ البداية عن التجربة الواقعية ، كما وأن هذه التجربة الواقعية نادراً ما وجدت طريقها إلى الوسط العلمى آنذاك . ولقد نشأ العلم وترعرع خاصة بالمدينة وكان حملته صحابة محمد والتابعين ، أما هدفه الأساسى فهو دراسة القرآن وتدوين جميع ما يمت بصلة إلى محمد وخلفائه الأولين . ومن الجلى أن مثل هذا العلم لن يفسح المجال لأي نوع من المعلومات الجغرافية التى تجمعت في الأوساط العسكرية والإدارية ؛ ومن ثم فقد سار اتساع الأفق الجغرافى في اتجاه مضاد تماماً إذ اقتصر على محاولات لتفسير وتأويل الإشارات الجغرافية الغامضة والنظريات التى أتى بها القرآن .

وتتوفر لدينا للحكم على هذا مادة هائلة من الأحاديث النبوية ، التى جمعت فيما بعد في عدد من المجموعات . والمتعمق في دراسة الحديث ، الذى ألقى عليه ضوءاً لأول مرة المستشرقان سنوك هرغرونجه Snouck Hurgronje وغولد زهر Goldziher ، لا يمكنه بالطبع اعتبار جميع الأحاديث صادرة عن محمد ؛ وعلى أية حال فهى تعكس جيداً وجهات النظر السائدة في القرن الأول من الهجرة . من تلك الأحاديث نعلم مثلاً كيف دخل محمد في نضال ضد تصورات الجاهلية القائلة بأن الأنواء والنجوم هى المسئولة عن تساقط المطر^(٨٤) ؛ غير أن الأسماء الجغرافية في الحديث نادرة الوجود كما هو الحال

مع القرآن ؛ ومن وقت لآخر يتسلسل ذكر الصين رمزاً للأبعد | قطر في العالم وذلك في الحديث المشهور 50 الذى يهيب بطلب العلم حتى في تلك البلاد النائية ؛ أو ذكر الهند وذلك في حديث يتنبأ بحملة عسكرية على تلك البلاد (٨٥) :

أما النمط الذى ازدهر فعلاً وانتعش فهو ما يسمى بالجغرافيا الأسطورية : وإذا لم يكن قد ورد في القرآن مثلاً أى ذكر لجبل قاف الذى يحيط بالأرض ، على الرغم من أن بعض رجال التفسير قد حاول أن يبصر إشارة إليه في الحرف الغامض ق في أول السورة الخمسين من القرآن ، إلا أن الحديث مفعم بوصف الجبل بل وبوصف المواضع دونه التى لا يمكن عبورها والتى تحيط بالأرض على طريق طوله أربعة أشهر (٨٦) ، وأيضاً للبلاد الواقعة خلفه (٨٧) . ولا يخلو من مغزى بالنسبة لعلم الجغرافيا أن هذه الأحاديث لم تمنع بالتالى محاولات تحديد مكان هذا الجبل في القوقاز . أما سد ياجوج (٨٨) فقد أمكن لمحمد بفضل ما تمتع به من نفاذ البصيرة (Clairvoyance) التى تعبر المسافات الشاسعة أن يبصر ما طراً عليه من تصدع (٨٩) . وقد كان الحديث الذى حفظ هذه الرواية موضع جدل شديد بين عدد من المستشرقين الأوروبيين وذلك فيما يتعلق بوصف طريقة العد على الأصابع (Dactylonomy) الواردة فيه (٩٠) . وإذا كان القرآن قد اكتفى بذكر الأرضين السبع (٩١) دونما أى تفصيل فإن الحديث ينسب إلى محمد تعداداً مفصلاً لها يعكس صدى التصورات اليهودية والإيرانية . وإليك ما يرويه ابن الفقيه في القرن التاسع في هذا الصدد .

« وسئل النبي صلعم عن الأرض سبع هى قال نعم والسموات سبع وقرأ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن فقال رجل فنعن على وجه الأرض الأولى قال نعم وفي الثانية خلق يطيعون ولا يعصون وفي الثالثة خلق وفي الرابعة صخرة ملساء والخامسة ضحضاح من الماء والسادسة سبجيل وعليها عرش إبليس والسابعة ثور والأرضون على قرن ثور والثور على سمكة والسمكة على الماء والماء على الهواء والهواء على الثرى والثرى منقطع فيه علم العلماء » (٩٢) .

ويلوح أن دور المؤثرات اليهودية في ظهور الأحاديث من هذا الصنف كان كبيراً للغاية . وإذا ما تقصينا الشخصيات المرتبط بها انتشار هذه الأحاديث لوجدنا في المكانة الأولى ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، أى على العموم رواة الأحاديث الأول المسئولين إلى حد كبير عن تسرب العناصر اليهودية إلى الحديث (٩٣) . وفي هذه الأحاديث تقابلنا الإجابة على مختلف المسائل المتعلقة بنشأة الكون 51 وشكله ، كالكلام على حجم الأرض وعن البحر المحيط (٩٤) ومنبع الأنهار من الفردوس (٩٥) وأعماق البحار والبحيرات وسلاسل الجبال (٩٦) . وطابع هذه الإجابات يمكن أخذ فكرة عنه من تحديد ابن عباس لطول الأرض وعرضها في أربعة آلاف فرسخ وسطحها في ست عشرة مليون فرسخاً مربعاً (٩٧) ؛ ويروى عن على أنه قال إن امتداد الأرض خمسمائة سنة المعمور منها مائة سنة فقط (٩٨) . ويمكن أن نضيف إلى هذا

التعليقات الجغرافية على الأساطير الأخرَويَّة (eschatological legends) الموجودة بالحديث والتي ترجع في معظمها إلى نفس أولئك الرواة الذين مر ذكرهم للتو . ففيها نلتقي بوصف دقيق للدجال (Antichrist) الذي يظهر في آخر الزمان^(٩٩) وللبلاد المرتبطة باسمه ، كما يرد أيضاً وصف الصراط^(١٠٠) الذي يؤدي إلى العالم الثاني ، ووصف الجنة^(١٠١) والنار^(١٠٢) . وهنا تطفئ الأسطورة على الجغرافيا تماماً ، ولكن لم يكن بوسع العلماء العرب أن يتجاهلوا هذا لأن معظم المصنفات قد وقعت تحت تأثيرها : وقد حدث بالطبع خلط بين التصورات الجغرافية المبنية على الواقع من جهة والحكايات والأساطير من جهة أخرى . ففي أقل من خمسين عاماً بعد وفاة محمد أخذ في الانتشار وصف تخطيطي فريد للمعمورة^١ ينسب إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فاتح مصر الشهير (توفي حوالى عام ٦٣ هـ - ٧٣ هـ = ٦٨٢ - ٦٩٢) جاء فيه^(١٠٣) :

« صورة الدنيا على خمسة أجزاء كـرأس الطير والجناحين والصدر والذنب فرأس الدنيا الصين وخلف الصين أمة يقال لها واق ووراء واق واق من الأمم ما لا يحصى لإلا الله والجناح الأيمن الهند وخلف الهند البحر وليس خلفه خلق والجناح الأيسر الخزر وخلف الخزر أمتان يقال لإحدهما منَشَك ومَشَك^(١٠٤) 52 وخلف مَشَك ومنَشَك يأجوج ومأجوج من الأمم ما لا يعلمها | إلا الله وصدر الدنيا مكة والحجاز والشام والعراق ومصر والذنب من ذات الحُجَام^(١٠٥) إلى المغرب وشرُّ ما في الطير الذنب » .

هذه الرواية قد راجت بشكل خاص في مصر طبعاً ورواها من المتقدمين ابن عبد الحكم ومن المتأخرين ابن وصيف شاه والمقرئزى وأبو المحاسن ، ورغماً من إغراقها في الخيال فيمكن استخراج تفاصيل ذات فائدة منها ، وقد استطاع فيران Ferrand استغلالها في تحديد موقع بلاد واق واق التي ظنها البعض خطأ اليابان^(١٠٦) . ولا ينفرد العرب في تصويرهم الأرض على شكل طائر إذ أن الفكرة قد وجدت لدى بعض الساميين الغربيين فقد تصوروا الأرض على هيئة طائر كوني (Cosmic) هائل^(١٠٧) . وقد انتقلت هذه الصورة بدورها من العرب إلى بعض رسائل المسلمين الصينيين^(١٠٨) . هذا وتمتزج الأفكار الواقعية بالأفكار الموجودة بالتوراة في وحدة غريبة حتى فيما يتعلق ببلاد العرب نفسها . مثال هذا قصة انتشار القبائل العربية التي تنسب إلى واحد من أحصب واضعي الأحاديث وهو ابن عباس (المتوفى حوالى عام ٦٨٧) والتي حفظت لنا في وصف جزيرة العرب للهَمْدَانِي وفي معجم البكري . وهي تعطي فكرة جيدة عن طابع هذه الأحاديث « الجغرافية » المبكرة التي تغلب الواقعية على موضوعها . ونصها :

« باب ما جاء عن ابن عباس رحمه الله تعالى في ذكر جزيرة العرب . أما حديث عبد الله بن عباس في جزيرة العرب فإنه ما نُقِلَ عن محمد بن السائب الكلبي عن ابن صالح عن ابن عباس من وجه وعن معاوية بن عَمِيرَةَ بن مِخْوَس الكندي أنه سَمِعَ عبد الله بن عباس بن عبد المطلب وسأله رجل عن ولد

نزار معد بن قال هم أربعة مضر وربيعة وإياد وأنمار فكثير أولاد معد بن عدنان بن أدَد ونَمَوًا وتلاحقوا ومنازلهم بمكة وما والاها من تهامة وانتشروا في ما يليهم من البلاد وتنافسوا في المنازل والمحال وأرض العرب يومئذ خاوية وليس فيها بتهامتها ونجدها وحجازها وعروضها كثير أحدٍ لإخرا بختنصر إياها وإجلاء أهلها إلا من كان اعتصم منهم بروؤوس الجبال وشعابها ولحق بالمواضع التي لا يقدر عليه فيها أحد متنكباً مسالك جنوده ومستنّ خيوله فاراً إليها منهم فاققسموا الغور غور تهامة بينهم على سبعة أقسام لكل قسم ما يليه من ظواهر الحجاز ونجد وتهائم اليمن لمنازلهم ومحالمهم ومسارح أنعامهم ومواشيهم وبلاد العرب كلها يومئذ على خمسة أقسام | في جزيرة مُطيفة أى مديرة وطوّف الجبل دَوْرُهُ ومنه الطواف 53 حول الكعبة وطوائف من الناس فرق من أطراف الناس ويروى مُطيفة من الطّوّق وهو مدار بالعنق من هـِجار فضه وغيره وهى جزيرة العرب التى صارت فى قسم من أنطق الله تعالى باللسان العربى حين تلبّلت الألسُن ببابل وفى زمان نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بنى نوح يوم قسّم فالخ بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح الأرض بين أولاد نوح عم سام وحام ويافث «(١٠٩)» .

أما الرحلات القليلة التى حفظت لنا أوصافها عن ذلك العهد فمشحونة بتفاصيل خرافية جعلت حوادث الرحلة الواقعية نفسها هدفاً للريبة حتى نسبت إلى القصص الشعبي . ومما تجدر الإشارة إليه أن اللون الغالب عليها بالذات ينتمى إلى العناصر الأخروية السائدة فى الجغرافيا الأسطورية . وسأقتصر فى هذا الصدد على إيراد مثالين يرتبط أولهما باسم شخصية غير مجهولة فى تاريخ الإسلام الأول وهو تميم الدارى الذى أقطعه محمد أرضاً قرب حبرون الخليل من أعمال فلسطين ؛ والوثيقة المنحولة المتعلقة بهذه القصة قد اهتم بها عدد من المؤرخين العرب . وتميم الدارى المتوفى حوالى عام ٤٤٠هـ = ٦٦١ أصله من نصارى فلسطين العرب ، وقد استقر بالمدينة فى حياة محمد واعتنق الإسلام . وكنصرانى سابق فمن المحتمل أنه قد ساعد على إدخال العناصر المسيحية فى الأحاديث المبكرة ، خاصة وأنه كان شخصياً من أوائل « القاصيين » أى رواة الحكايات الدينية (١١٠) . ففى إحدى قصصه يتحدث عن رحلة له ببحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) حيث قذفت به عاصفة هو وصحبه إلى جزيرة مهجورة رأوا فيها رأى العين الدجال (Antichrist) مقيداً ورأوا أيضاً الحساوسة (The Apocalyptic Monster) الذين سيظهرون فى آخر الزمان (١١١) .

هذه القصة الملفقة ترجع إلى عهد مبكر ، وعلى أية حال فإننا نلتقى بها بجميع تفاصيلها فى أقدم مجموعات الحديث . ومن الطريف أنه يمكن بدقة كبيرة تتبع التطور التاريخى لهذه الأسطورة التى نالت انتشاراً واسعاً فى العالم الإسلامى . وفيما بعد نسبت إلى العصر التالى لوفاة النبى واكتسبت شكلاً مغايراً لا يرد فيه أى ذكر لرحلة بحرية (١١٢) ، بل يقال إن الجن اختطف تيميا من منزله بالمدينة وطار به فوق بلاد عديدة غير معروفة تسكنها مخلوقات غريبة ، بحيث يبدو التقاؤه بالدجال والحساوسة حادثاً بين سلسلة من الحوادث ؛ وفى نهاية مطافه يصبحه أحد الملائكة على متن السحاب إلى منزله . وكانت زوجته | قد ظنته 54

في عداد الهالكين فتزوجت من غيره ، كما وأن جيرانه لم يصدقوا قصته ؛ وأنقذ الموقف الخليفة عمر الذي أكد بأن ما وقع لقيم كان قد تنبأ به محمد من قبل . والقصة في صورتها هذه تجمع بين موضوعين أسطوريين عالميين (universal) هما الرحلة إلى البلاد المسحورة ، وأوبة الشخص الذي اعتبر في عداد الأموات إلى عالم الأحياء . وقد نالت هذه القصة انتشاراً واسعاً ولا تزال حية إلى الآن على هيئة كتيبات شعبية كثيراً ما أعيد طبعها ، بل وعرفت أيضاً في ترجمات قديمة العهد بالتركية والملايوية والإسبانية . وتأثير المصنفات من هذا النوع قد انعكس في أساطير العصور الوسطى الأوروبية من طراز رحلة القديس براندان St. Brandan . ومن الطريف أن جغرافي القرن الرابع عشر المقدسي (توفي عام ٧٦٥ هـ = ١٣٦٤)^(١١٣) ويجب عدم الخلط بينه وبين سميح الرحالة المعروف للقرن العاشر - قد أفرد كتاباً قائماً بذاته لرحلة تميم الداري يتضح من عنوانه « إفحام الماري بأخبار تميم الداري » أنه رد على من تشككوا في حقيقة الرحلة^(١١٤).

أما الرحلة الثانية فكانت غايتها القسطنطينية وترتبط بشخصية تاريخية معروفة لنا جيداً ؛ كما يمكن تحديد زمن وقوعها بالكثير من الثقة بعام ٦٣٢ . وعلى الرغم من ذلك فهي ليست بأقل تلفيقاً من سابقتها . وتقرن هذه الرحلة باسم عبادة بن الصامت^(١١٥) أحد الأنصار من الخزرج ممن آمنوا بمحمد قبل هجرته من مكة ، وكان من أقرب المقربين إليه ومن رجالات بدر ؛ وقد لعب فيما بعد دوراً في فتح مصر وولى على حمص بالشام . وفي عام ٢٣ هـ غزا الروم مع معاوية وبلغ عمورية Amorium^(١١٦) . وقد توفي بالرملة عام ٣٤ هـ = ٦٥٤ عن اثنين وسبعين عاماً^(١١٧) .

أما رحلته فقد عرف عنها واقعتان فقط ، حفظ الأولى منهما ياقوت واعتمد عليه القزويني في روايته^(١١٨) ، وهي تتعلق بزيارته للرقم الذي يرقد فيه أهل الكهف على مقربة من القسطنطينية وقد شغل هذا الموضوع فيما بعد الأدب الجغرافي وتردد صداه فيه أكثر من مرة . والقصة معروفة جيداً وتوجد لها ترجمة في اللغتين الروسية والأوكرانية^(١١٩) . ويبدأ عبادة بن الصامت حكايته كالاتي :

« بعثني أبو بكر رضى الله عنه سنة استخلف إلى ملك الروم أدعوه إلى الإسلام أو آذنه بحرب ؛ قال فسرت حتى دخلت بلد الروم فلما دنوت إلى قسطنطينية لاح لنا جبل أحمر قيل إن فيه أصحاب الكهف والرقم ، ودفعنا فيه إلى دير وسألنا أهل الدير عنهم فأوقفونا على سرداب في الجبل ، فقلنا لهم إنا نريد أن ننظر إليهم ، فقالوا أعطونا شيئاً فوهبنا لهم ديناراً فدخلوا ودخلنا معهم في ذلك السرداب وكان عليه بابٌ حديد ففتحوه فأنتهينا إلى بيت عظيم محفور في الجبل فيه ثلاثة عشر رجلاً مضطجعين على ظهورهم كأنهم رقود وعلى كل واحد منهم جبة غبراء وكساء أغبر قد غطوا بها رؤوسهم إلى أرجلهم ، فلم ندر ما ثيابهم أمن صوف أو وبر أم غير ذلك إلا أنها كانت أصلب من الديباج وإذا هي تقعقع من الصفاقة والجودة ، ورأينا على أكثرهم خفافاً إلى أنصاف سوقهم وبعضهم منتعلين بنعال محصوفة ولحفافهم

ونعالهم من جودة الخرز ولين الجلود ما لم ير مثله ، فكشف عن وجوههم رجلاً بعد رجل فإذا بهم من ظهور الدم وصفاء الألوان كأفضل ما يكون للأحياء وإذا الشيب قد وخط بعضهم وبعضهم شبان سود الشعور وبعضهم موفورة شعورهم وبعضهم مطمومة وهم على زى المسلمين ، فانتبهنا إلى آخرهم فإذا هو مضروب الوجه بالسيف ، وكأنه في ذلك اليوم ضرب ، فسألنا أولئك الذين أدخلونا إليهم عن حالهم فأخبرونا أنهم يدخلون إليهم في كل يوم عيد لهم يجتمع أهل تلك البلاد من سائر المدن والقرى إلى باب هذا الكهف فنقيمهم أياماً من غير أن يمسه أحد فننفض جباهم وأكسياتهم من التراب ونقلم أظفارهم ونقص شواربهم ثم نضعهم بعد ذلك على هبتهم التي ترونها ، فسألناهم من هم وما أمرهم ومنذ كم هم بذلك المكان فذكروا أنهم يجدون في كتبهم أنهم بمكانهم ذلك من قبل مبعث المسيح عليه السلام بأربعمائة سنة وأنهم كانوا أنبياء بعثوا بعصر واحد وأنهم لا يعرفون من أمرهم شيئاً غير هذا ۝

55

أما الواقعة الثانية من قصة عبادة والتي حفظها لنا المؤرخ الشهير الدينوري فقد بقيت مهملة إلى الآن : ولعل مرد ذلك إلى أنها نسبت سهواً إلى عبد الله بن الصامت وليس إلى عبادة ؛ ومسئولية هذا السهو تقع في أغلب الاحتمال على النساخ لا على المؤرخ . ولإعطاء فكرة عن الأسطورة نورد القصة بهذا ألفها : « وذكر عن عبد الله بن الصامت قال وجهني أبوبكر رضه سنة استخلف إلى ملك الروم لأدعوه إلى الإسلام أو آذنه بحرب قال فسرت حتى أتيت القسطنطينية فأذن لنا عظيم الروم فدخلنا عليه فجلسنا ولم نسلم ثم سألنا عن أشياء من أمر الإسلام ثم صرفنا يومنا ذلك ثم دعا بنا يوماً آخر ودعا خادماً له فكلّمه بشيء فانطلق فأتاه بعتيده فيها بيوت كثيرة وعلى كل بيت باب صغير ففتح باباً منها فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة رجل أجمل ما يكون من الناس وجهاً مثل دائرة القمر ليلة البدر فقال أتعرفون هذا قلنا لا فقال هذا أبونا آدم عم ثم رده مكانه ، وفتح باباً آخر فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة شيخ جميل الوجه في وجهه تقطيب كهيئة الحزون المهموم فقال أتعرفون من هذا قلنا لا قال هذا نوح ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء على صورة نبيينا محمد صلعم وعلى جميع الأنبياء فلما نظرنا إليه بكينا فقال ما لكم فقلنا هذه صورة نبيينا محمد صلعم فقال أبديناكم أنها صورة نبيكم قلنا نعم هي صورة نبينا كأننا نراه حياً فطواها وردها وقال أما إنها آخر البيوت إلا أني أحببت أن أعلم ما عندهم ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه خرقة سوداء فيها صورة بيضاء أجمل ما يكون من الرجال وأشبههم بنبيينا محمد صلعم ثم قال وهذا إبراهيم ، ثم فتح بيتاً آخر فاستخرج صورة رجل آدم كهيئة الحزون المفكر ثم قال هذا موسى بن عمران ، ثم فتح بيتاً آخر فاستخرج صورة لرجل له ضفيران كأن وجهه دائرة القمر ثم قال وهذا داود ، ثم فتح بيتاً آخر فاستخرج صورة رجل جميل على فرس له جناحان ثم قال وهذا سليمان ۝ وهذه الريح تحملها ، ثم فتح بيتاً آخر فاستخرج صورة شاب جميل الوجه وفي يده عكازة وعليه مدّرة صوف ثم قال وهذا عيسى روح الله وكلمته ، ثم قال إن هذه الصورة وقعت إلى الإسكندر فتوارثها الملوك من بعده حتى أفضت إلى ۝ (١٢٠)

56

من الواضح تماماً أن الأمر يتعلق بحكاية ملفقة ، والدليل على ذلك ليس في تفاصيل الحكاية وحدها والظروف التاريخية المحيطة بها ، بل أيضاً في الموضوع نفسه وفي تاريخه الأدبي .

وهذه الحكاية نفسها توجد في شكل أوسع وبتفاصيل جديدة لدى جغرافي بداية القرن العاشر (حوالي عام ٩٠٠) ابن الفقيه (١٢١) ؛ وثمت رواية أخرى لهذه القصة انتقلت إلى الصين وحفظها لنا أبو زيد السيرافي أووصلت عن طريقه إلى المسعودي ، وهي على لسان ابن وهب من أهل النصف الثاني للقرن التاسع . ويتبادر إلى الذهن سؤال محير هو متى نشأت هذه القصة عن رحلة عبادة بن الصامت ؛ فالمستشرق الروسي كرىمىسكى Krymski يرى أنها لا تتجاوز بأية حال القرن العاشر (١٢٢) ، ولكنه في الترجمة الأوكرانية لبخته يؤكد دون تردد أنها ترجع إلى ما بعد القرن العاشر (١٢٣) ؛ غير أن وجود الرواية الثانية لدى ابن وهب والدينورى ولدى ابن الفقيه أيضاً ، وجميعهم من مؤلفي النصف الثاني من القرن التاسع ، يضطرنا إلى الرجوع القهقري بتاريخها واعتبارها مؤلفاً لا يتجاوز بحال منتصف القرن التاسع ؛ أما الرحلة إلى القسطنطينية في عهد أبي بكر فإنها بالطبع لم تحدث على الإطلاق . ومن نافلة القول أن نضيف أنه تقترن باسم عبادة أفاصيص خيالية أخرى ؛ من ذلك أن ابن إسحاق (١٢٤) يورد قصة تنسب إليه مؤداها أن محمداً بعث سرية إلى ساحل البحر فلما نفذت ذخيرتهم قذف لهم البحر بدابة هائلة تغذت عليها السرية عشرين يوماً ، وكان يمر تحت أحد أضلعها بعير براكبه .

وإلى جانب هذه الموضوعات الأسطورية والحكايات التي حفل بها أدب الحديث المبكر تجمعت فيه بالتدريج إلى جانب ذلك مادة جغرافية حقيقية ، خاصة فيما يتعلق بالفتوحات الإسلامية ؛ وبعض من هذه الأحاديث الأخيرة تردد صداه في الأدب الجغرافي بالتالي رغماً من أنه قليلاً ما احتوى على معلومات ذات أهمية ، ذلكم هو ما يسمى « بالفضائل » أى ذكر محاسن البلاد والشعوب . وفي العهود الأولى 57 اقتصر الاهتمام في الغالب على الأماكن المقدسة أو المقترنة بحياة محمد كالمدينة وبيت المقدس والشام ومصر واليمن ، ووفقاً لذلك صيغت مادة الأحاديث . فالشام مثلاً تحمى الملائكة وسيسقط عن سكانها حساب اليوم الآخر بفضل أربعين صالحاً (أبدال) ؛ وهي ملجأ من جميع أنواع الفتن وبها يهلك الدجال (١٢٥) . وشيئاً فشيئاً بدأت مادة هذه الفضائل تتخذ طابعاً دنيوياً فظهرت أماكن أخرى مثل البصرة وتلتها بقية المدن والبلاد المعروفة . وقد اتخذت الفضائل صيغة أقوال مأثورة تميزت بالإيجاز وبمناسبتها للمقام وغلب عليها طابع السجع . وفي هذه الصورة الأخيرة بدأ ينشرها ليس أهل الورع فحسب بل وأيضاً « الحكماء » أو « أهل البلاغة » مما جنح بها أحياناً للأسف الشديد نحو العناية باللفظ البليغ واللفتة البارعة على حساب الصحة والواقع .

وبالتدريج بدأت تأخذ مكانها إلى جانب الفضائل « المثالب » أيضاً . ومن المستحيل إغفال أوجه الشبه بين تطور هذا النمط الجديد من الأدب والطريق الذي سلكته المصنفات الأولى في الأنساب بما اتسمت

به من إيراد الفضائل والمثالب المتعلقة بالقبائل المختلفة . ويقرب بين النمطين أيضاً الصيغة الموجزة المسجوعة كما يتضح من القطعة التي تبقت عن النسابة ابن لسان الحُمَمر والتي ترجع إلى العصر الذي نحن بصددده (١٢٦) . هذا وقد ظهرت هذه الفضائل الدنيوية مبكراً ؛ فقد حفظ لنا المسعودي أنموذجاً منها يقترن باسم الخليفة عمر . وهو يبدأ بالطريقة الآتية :

« ذكر ذوو الرواية أن عمر بن الخطاب حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأرض كتب إلى بعض حكماء ذلك العصر إنا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوا الأرض ونسكن الأمصار فصنف لي (١٢٧) المدن وأهويتها ومساكنها وما يؤثره التربة والأهوية في سكانها » (١٢٨) .

وقد رد عليه « الحكيم » بوصف الشام ومصر والحجاز والعراق والحبال وخراسان وفارس والجزيرة ، وتوقف عن وصف الهند والصين وأرض الروم « فلا حاجة في وصفها لك لأنها شاسعة نائية وبلدان كفرة طاغية » . ومن المؤسف أن تجد طريقها إلى هذه الوثيقة الطريفة زيادات متأخرة ، بل لأنها لم تسلم أحياناً من داء التراصف والازدواج كما يتضح من وصف العراق . أما وصف مصر فيمكن أن يصلح كأنموذج في هذا الصدد (١٢٩) |

58

إن اعتبار هذا الوصف « للحكيم » المجهول كذباً صراحاً فيه شيء من التعسف ، خاصة وأن اهتمام عمر بالمسائل الجغرافية شهدت به الرواية التاريخية غير ذي مرة ؛ وقد كلف عمر سعد بن أبي وقاص بعد واقعة القادسية (حوالي عام ٦٣٦) أن يصف له المواضع المجاورة لها ؛ وقد حفظ لنا هذا الوصف ياقوت (١٣٠) . وثمة وصف مشابه لهذا يبعث به عمرو بن العاص إلى عمر عقب فتحه لمصر ؛ غير أن وصف مصر هذا لم يكشف عنه إلا عند المؤرخين المتأخرين من عصر المماليك (١٣١) .

ولقد استمرت الأوصاف من طراز « الفضائل » محتفظة بمكانتها حين ظهور الرسائل الجغرافية بالمعنى الصحيح . وأحد هذه الأوصاف مما يرجع إلى بداية القرن الثامن حفظه لنا المؤرخ الدينوري وهو يتعلق بالسويقات الأخيرة من حياة أيوب بن زيد إحدى الشخصيات التي اكتشفها الأسطورة في ذلك العهد ؛ وقد اشتهر باسم ابن القرية نسبة إلى جدته ؛ وكان بدوياً أمياً . ووقتاً ما تمتع ابن القرية بثقة الحجاج ولكن لم يلبث أن انحاز إلى أعدائه ، ثم وقع في قبضة الحجاج حوالي عام ٧٠٣ (١٣٢) . وقبل أن يأمر الحجاج بقتله بالقسوة المعهودة فيه ، سأله :

« فما تبقى من نعمتك قال ابن القرية ذهني حديد وجوابي عتيد قال كيف علمك بالأرض قال ليسألني الأمير عما أحب قال أخبرني عن الهند قال بحرهما دُرٌّ وجبلها ياقوت وشجرها عِطر قال أخبرني عن مكران قال ماؤها وشلّ وتمرها دَقْل وسهلها جبل ولصهاا بطل إن كثر الجيش بها جاعوا وإن قَلّوا ضاعوا قال فخراسان قال ماؤها جامد وعدوها جاهد بأسهم شديد وشهرهم عتيد وخيرهم بعيد قال فالمن قال

أرض العرب ومعدن الذهب قال فعثمان قال حرها شديد وصيدها موجود وأهلها عبيد قال فالبحران قال كُناسة بين مصرين وجنة بين بحرين قال فككة قال قوم ذوو جفاء ومن سببتهم الوفاء قال فالمدينة قال ذوو لطف وبرٍّ وخير وشر قال فالبصرة قال حرها فادح وماؤها مالح وفيضها سائح قال فالكوفة قال جنة بين حمّة وكنتّة العراق تحشد لها والشام يُدرّ عليها سفلت عن برد الشام وارتفعت عن حر الحجاز قال فالشام قال تلك عروس بين نسوة جلوس تُجلب إليها الأموال وفيها الضراغة الأبطال « (١٣٣) .

59 غير أن هذه الفصاحة لم تنقده من الموت ؛ ويروى أن الحجاج صاح بعد مقتله : « أى أدب فقدنا منك وأى كلام رصين سمعنا منك » . ذلك أن الحجاج نفسه كان مولعاً بأمثال تلك الأقوال البليغة الموجزة ؛ ويروى أنه أوصى واليه إلى أصفهان قبل رحيله قائلاً « قد وليتك بلدة حجرها الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران » (١٣٤) .

ومن غير الممكن بالطبع أن نبصر في هذه الصنعة الأدبية رواية حرفية « للفضائل » كما وجدت في العصر الأموي ، خاصة وأن ابن خلكان (١٣٥) قد حفظ لنا نفس هذه القصة في صورة مخالفة ، كما وأن وصف مكران لدى ياقوت ينسب إلى خلافة عثمان ويرد على لسان حكيم بن جبلة (١٣٦) (توفي عام ٣٧ هـ = ٦٥٧) وفي صورة مسجوعة أيضاً ، مما أسخط عليه الخليفة . أما ابن القرية فقد قلب له التاريخ ظهر الحين ، فالأصمعي اللغوي المعروف (توفي حوالي عام ٨١٣) يؤكد أن ابن القرية لم يوجد على الإطلاق شأنه في هذا شأن المحنون الشاعر (١٣٧) . ولا حاجة بالطبع إلى التطرف في النقد إلى هذه الدرجة (١٣٨) ، ولكن حتى إذا وافقنا الأصمعي في رأيه فإنه من المستحيل إنكار وجود نمط « الفضائل » الذي يكاد يكون أطرف محاولة في ذلك العصر لصياغة التصورات الجغرافية في قالب أدبي . وأحياناً يمكن الجزم بصورة قاطعة بأن بعض أمثلة « الفضائل » صحيحة الأصل وأنها ترجع فعلاً إلى العصر الذي تشير إليه المراجع وتحفظ بنفس القالب الذي صيغت فيه . وفيما يتعلق بوصف مكران بالذات فإنه يوجد تأكيد طريف في أبيات لأعشى همدان (١٣٩) ، ذلك الشاعر الذي وقع في أسر الديلم والذي قتله الحجاج عام ٨٣ هـ = ٧٠٢ . قال :

« وأنت تسير إلى مَكْران فقد شحط الزرد والمصدرُ
ولم تك من حاجتي مَكْران ولا الغزو فيها ولا المتجر
وخُبِرَتْ عنها ولم آتها فإزلت من ذكرها أذعر
بأن الكثير بها جائع وأن القليل بها مُقتر |
وأن لحى الناس من حرها تطول فتُجَلَمُ أو تُضْفَرُ
ويزعمُ من جاءها قبلنا بأننا سنُسْهِمُ أو نُنَحَرَ » (١٤٠)

ليس من العسير أن نبصر في البيت الذي يرد فيه القول « بأن الكثير بها جائع وأن القليل بها مقتر »

إشارة إلى ألفاظ ابن القرية « إن كثر الجيش بها جاعوا وإن قلو ضاعوا » . ومن ثم فإن تلك القطعة من « الفضائل » كانت ولا بد معروفة جيداً ومتداولة في عهد أعشى همدان ، أى في النصف الثاني من القرن السابع . لذا فإن احتمال ظهورها في عهد الخليفة عثمان لا يمكن اطراحه كلية . والعصر الأموي يحفل بعدد غير قليل من أمثلة هذا النوع من الوصف الأدبي . وفي مجلس للخليفة هشام (١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ = ٧٢٤ - ٧٤٣) يعطى خالد بن صفوان الخطيب المشهور وأحد بلغاء العرب (توفي عام ١٣٥ هـ = ٧٥٢)^(١٤١) وصفاً لموطنه البصرة حفظه لنا واحد من أقل الكتاب شهرة في النصف الأول من القرن العاشر وهو ابن القاص^(١٤٢) .

ويقترن باسم الحجاج أول ذكر معروف لدينا عن الخارطات عند العرب . ففي عام ٨٩ هـ = ٧٠٨ بعث الحجاج إلى قائده قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح بلاد ما وراء النهر ، وذلك عندما استبطأ حصاره لبخارى ليرسل إليه « صورة » المنطقة ؛ ويقال إنه قد بعث إليه بتعليماته الاستراتيجية عقب ذلك اعتماداً على تلك الخارطة^(١٤٣) . وفي الأصل العربي كما نرى تستعمل كلمة « صورة » التي حل محلها فيما بعد لفظ « مصور جغرافي »* . ورواية الطبري التي حفظت لنا هذه الواقعة^(١٤٤) ترتفع إلى مصدره الأساسي في فتح تركستان وهو المدائني (المتوفى حوالى عام ٢١٥ هـ = ٨٣٠) ، وأغلب الظن أنها تعكس حقيقة واقعة . ويغلب الخيال أكثر على القصة الثانية التي يوردها لنا ابن الفقيه . قال :

« وبعث الحجاج إلى وفد الديلم فدعاهم إلى أن يسلموا أو يقرؤا بالجزية فأبوا فأمر أن تصوّر له الديلم سهلها وجبلها وعقاربها وغياضها فصورت له فدعا من قبله من الديلم فقال إن بلادكم قد صوّرت لي فرأيت مَظْمَعاً فأقِرُّوا لي بما دعوتكم إليه قبل أن أغزيكم الجنود فأخرب البلاد وأقتل المقاتلة وأسبى الدرية فقالوا أرنا الصورة التي أطمعتك فيها وفي بلادنا ۞ فدعا بالصورة فنظروا فيها فقالوا قد صدقوك عن بلادنا 61 هذه صورتها غير أنهم لم يصوروا فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال وستعلم ذلك لو قد تكلفته فأغزاهم الجنود وعليهم محمد بن الحجاج فلم يصنعوا شيئاً وانصرفوا إلى قزوین »^(١٤٥) .

إن عنصر الخيال المحيط بهذه القصة يحول بيننا وبين الاعتقاد بأن المحاولات الأولى المستقلة للعرب في رسم المصورات الجغرافية قد ارتبطت باسم الحجاج عن طريق المصادفة وحده^(١٤٦) .

فإذا ما انتقلنا إلى الكلام عن الرحلات في العصر الأموي فإن أول ما نلاحظه هو أن معظم وقائعها ليس من السهل فصله عن الأساطير . وترتبط بعض هذه الرحلات ببزنطة ؛ وقد جاء في قصة رواها كاتب من عهد المهدي العباسي (١٥٨ هـ - ١٦٩ هـ = ٧٧٥ - ٧٨٥) أنه في عهد عبد الملك بن مروان

* يستعمل العرب للتعبير عن لفظ خارطة (Map) « المصور الجغرافي » ، بيد أن غلبة خارطة في استعمال الحديث اضطرنا إلى إثباتها في هذا الكتاب . وقد أخذ العرب عن الروم لفظ Carta (كارتا) بصيغة الجمع فقالوا قرطاس ؛ أما لفظ خارطة فقد عربه المصريون أيام محمد علي عن الفرنسية Carte . ولم يكن الجغرافيون العرب على اتفاق تام في استعمال مصطلح « المصور الجغرافي » ، فابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار يستعمل « لوح الرسم » بينما ورد في بعض نسخ نزهة المشتاق للإدريسي « لوح الترسيم » (راجع مقال أحمد زكي باشا الذي ظهر بمجلة المقتبس - الجزء السادس من المجلد الخامس ص ٣٨٧) . (المترجم)

(٦٥ هـ - ٨٦ هـ = ٦٨٥ - ٧٠٥) عاد إلى مصر أحد أهلها ممن كان في أسر البيزنطيين منذ عهد معاوية (٤١ هـ - ٦٠ هـ = ٦٦١* - ٦٨٠) ، وأنه روى تفاصيل عجيبة عن حال الأسرى المسلمين هناك ؛ غير أن الحكم على صحة هذه الوقائع يحتاج إلى فحص وتدقيق عميقين للتواريخ ولتفاصيل أخرى^(١٤٧). ويروى لنا المقدسي^(١٤٨) حكاية لشخص كان قد بُعث به مع رفيق له إلى « طاغية » (Tyrant) بزنطة عام ١٠٢ هـ = ٧٢٠ ، ومما يؤسف له أن قصتهما أيضاً تقتصر على وصف الرقيم وأهل الكهف . ولدينا من نفس الحقبة تقريباً رواية طريفة عن أول محاولة في الجغرافيا الإدارية والاقتصادية^(١٤٩) ، ففي عام ١٠٠ هـ = ٧١٩ بعث الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز إلى والي الأندلس السمع بن مالك الخولاني بأن « نَحْمِسُ ما غلب عليه من أرضها وعمقارها ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها » . وكان السمع إدارياً ماهراً ، وهو أول من جعل قرطبة عاصمة للبلاد واستمرت هكذا إلى القرن الحادى عشر^(١٥٠) ؛

62 وقد عني بتنظيمها وتجميلها وأعاد ترميم القنطرة الرومانية التي اعتبرت فيما بعد من عجائب الأندلس . وقد استشهد السمع بعد عامين من ذلك في غارة للعرب على جنوب فرنسا عند فتح أربونة Narbonne^(١٥١) . ومن العسير بالطبع أن نحدد نصيبه من التوفيق في تنفيذ رغبة الخليفة بوصف الأندلس . وفي أى صورة تم ذلك ، إذ لم يصل إلى أيدينا في الواقع أى أثر في هذا الصدد . وأغلب الظن أن فستنفلد^(١٥٢) لم يتنكب الصواب حينما وضع اسمه في أول قائمته الزمنية (chronological list) للجغرافيين العرب . وعلى العكس من هذا يقف رسكا Ruska موقف التشكك من القصة ومن استطاعة الوالى أن يشغل نفسه بالمسائل الجغرافية ولمّا يمض على فتح العرب للأندلس أكثر من عشرة أعوام^(١٥٣) . غير أنه توجد عوامل ليست في مصلحة التشكك هذا ، ففي الواقع أن اهتمام السمع بن مالك بالأبحاث الجغرافية قد تردد صداه لا في المصادر العربية وحدها بل وفي المصادر الغربية أيضاً . فالحوليات اللاتينية (Latin Annals) ، خاصة حوليات ايزيدور الباجى Isidorus Pacensis ، تؤكد لسبب ما اهتمامه بمسائل من هذا النوع ، كما تؤكد أيضاً اهتمامه بالاستطلاع والمراقبة في أرض الأندلس^(١٥٤) . ومن العسير بالطبع اعتبار هذا من محض الصدفة .

هذه خلاصة ما يتصل بالجغرافيا لدى العرب وما تردد صداه في آثارهم الأدبية إلى منتصف القرن الثامن . وهو مجهود إذا قيس وفقاً للمنهوم الجغرافى الدقيق لبدا ضئيلاً ؛ ولكنه من الناحية الأدبية يمثل أهمية كبرى . فمن خلال هذه الحقبة نبصر بوضوح ميلاد بعض الأنماط والصور التي بدأت تتشكل فيها بالتالى مصنفات جغرافية قائمة بذاتها ، وضعها في أغلب الأحوال علماء لغويون . وهم قد جهدوا قبل كل شئ في جمع وتنظيم تصورات عرب الجاهلية عن الأنواء وتدوين المادة الضخمة المتعلقة بالأماكن ؛ وهم المسئولون أيضاً عن إدخال نمط « الفضائل » في المؤلفات الجغرافية والتاريخية . وإلى هذا العصر

* في الكتاب وُجد سهواً عام ٦٣١ هـ بدلا من ٦٦١ هـ ، فوجب التنبيه . (المترجم)

بالذات ترجع أول إشارات ولو مبهمة عن ظهور مصورات جغرافية وعن الجغرافيا الوصفية في المجالين الإداري والاقتصادي . أما المعلومات العملية في ميدان الجغرافيا فقد زادت العناية بتنظيمها أيضاً ولكن لم يتبق لنا أى أثر من ذلك . كما وأن بريد الدولة الذى خضع لتنظيم جيد في العهد الأموى قد استدعى إعداد رسوم تخطيطية لختلف الطرق ؛ ومثل هذه الرسوم قد وجد بلاريب في دواوين الحكومة واستغلها بعض مؤلفي العصر العباسي في وضع مؤلفات في هذا الميدان وصلت إلينا . أما طرق البريد فقد نصبت على جانبها حجارة لتوضيح المسافات وهي ما يسمى بالأميال ؛ وكانت تبدأ من مركز الخلافة . وقد عثر على بعض هذه الحجارة بفلسطين وترجع إلى عهد عبد الملك بن مروان (أى قبل عام ٨٦ هـ = ٧٠٥)^(١٥٥) ؛ ومنذ عهد ليس ببعيد عثر على واحد منها قرب تفليس وأغلب الظن أنه يرتفع إلى نفس ذلك العصر^(١٥٦) .

63

وتنعدم الجغرافيا الفلكية تماماً في هذا العصر . وإذا حدث وأن وجدت فقد كان صدها ضئيلا وبين السريان وحدهم بحيث لم تصل إلى العرب . ومن المعلوم أن أسقف اليعاقبة ساويرس سبوكت Severus Sabokt ، وكان معاصراً لعمر وعثمان بل ولعاوية في الأعوام الأولى لخلافته ، قد وجد الوقت الكافي ليشغل بالفلك إلى جانب اشتغاله بمنطق أرسطو . ومن معاصري الخلفاء الأمويين الأوائل يعقوب الرهاوى (٦٤٠ - ٧٠٨) الذى نال الشهرة كعالم لغوى ومفسر ، وكان أول من حاول في اللغة السريانية إعطاء صورة متماسكة للتصورات العلمية في ذلك العصر عن العالم وأقسامه وظواهره وذلك أثناء تفسيره لأسطورة التوراة في خالق العالم ؛ وهو يورد في سياق عرضه مقتطفات من بطليموس^(١٥٧) . ولم يكن بمقدور السريان أن يصبحوا أساتذة للعرب في العصر الأموى بالرغم من أن هذا هو ما حدث فعلا في أقل من قرن بعد ذلك . لذا فليس من الغريب ألا نعثر على أى أثر للجغرافيا الفلكية بين العرب في ذلك العصر . ولكنها تندفع فجأة كسيل جارف في نهاية القرن الثامن ولا تكتفى بإبراز فرع جديد فحسب بل تحدث تحولا ملحوظاً في الفروع الأخرى التى تشكلت آنذاك . وهذه اللحظة بالذات هي التى يجب أن تعتبر بحق بداية الأدب الجغرافى العربى .

حواشي الفصل الأول

- (١) — Sarton, Introduction, I, p. 230
- (٢) — Müller, p. 523 — 526
- (٣) شرحه ص ٤٠٩ . عن حياتهما راجع : Christ - Schmidt, II, p. 401
- (٤) — Mzik, Ptolemaus und die Karten, p. 153
- (٥) — Conti Rossini, Chrestomathia, p. 35 — 37;
Sarton, Introduction, I, p. 433
- (٦) خلاصة كلام المؤلفين القدامى عن بلاد بلاد العرب الجنوبية يعطيه باللاتينية :
Conti Rossini, Chrestomathia, p. 1 — 37.
- (٧) نالينو ، الفلك ، ص ١١٢ (= Racc., p. 175 — 176)
- (٨) — Saussure, Commentaire p. 129 — 175
(Ferrand, Introduction : في كتاب :
- (٩) — Nallino, EI, I, p. 517
- (١٠) ابن قتيبة ، راجع شكرى الآلوسى ، الجزء الثالث ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .
- (١١) — Ruska, EI, III, p. 252
- (١٢) نالينو ، الفلك ، ص ١٢٨ — ١٣٣ (= Racc., p. 187 — 192)
- (١٣) — Ferrand, Introduction, p. 143 — 144, note 1
- (١٤) — Saussure, Commentaire, p. 143
- (١٥) — Nallino, Sun, Moon & Stars, p. 95 — Wellhausen, Reste 2, p. 210.
- (١٦) نالينو ، الفلك (= Racc., p. 107, 109)
- المعلوف ، مجلة المجمع العلمى العربى Samaha, Names, p. 7
- Jacob, Beduinenleben², p. 158 — 160 — Dvorac, p. 38 — 40
- (١٧) — Hess, راجع Saussure, p. 105, 107
- (١٨) راجع مثلاً ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ، ص ٨٧٠٤ و ص ٢٠٥٤٨ — ٢١
- ولدى البدو أيضاً : راجع Hess ص ١ — ٢ — نالينو ، الفلك ، ص ١٠٨ — ١٠٩ و ص ٣١٢ — ٣١٣
- (= Racc. p. 172 — 173, 315 — 316)
- (١٩) الخالدى No I, 1 — 3 = Huber — Brockelmann, p. V
- (٢٠) — Brockelmann, GAL, SBI, p. 403 الخالدى No XIX, 4 — 6 (p. 136 — 137)
- = Huber Brockelmann, p. XXXIX — XL.

- (٢١) (النصر ص ٥ ؛ الترجمة ص ١٨) — Lyall, No 1,1—3
- (٢٢) — Hirschfeld, p. 55, No CXXV, 1—3 :
راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ص ١٠٥ .
- (٢٣) — Brockelmann, GAL, SBI, p. 188, No 2b
(٢٤) شرحه ص ٤٠٣ .
- (٢٥) — Wüstenfeld, Bahrein und Jemâma, p. 174 (الطبعة المنفصلة ، ص ٢)
- (٢٦) — Kowalski, Korosi Czoma Archivum, II, 1926, p. 38—41 :
أنشدنا الرياشي :
- غلبت أمه أباه عليه فهو كالكايل أشبه خاله
(ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، الجزء الرابع ، ص ١٢٢)
- (٢٧) — Mzik, WZKM, XLV, p. 97
- (٢٨) شرحه ص ٩٩
- (٢٩) — Samaha
(= Racc., p. 170) (٣٠) نالينو ، الفلك ص ١٠٥
- (٣١) — Michelson, p. 616 - 617, No. 307
(= Racc., p. 170—171) (٣٢) نالينو ، الفلك ص ١٠٦
- (٣٣) — Samaha, Names, p. 6 — Horovitz, p. 119
(= Racc., p. 174, 315—316) (٣٤) نالينو ، الفلك ، ص ١١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢
- Hartner, El III, p. 577 ولكن راجع أيضاً :
- (٣٥) — Sablukov, p. 56
- (٣٦) — Dvorac, p 41 - 42
(= Racc. p. 153—169) (٣٧) نالينو ، الفلك ، ص ٨٤ — ١٠٤
- Moberg, An-nasi', El, III, p. 924—925 وأيضاً :
- (٣٨) — Hartner, Zaman, p. 1307—1308 : راجع :
- (٣٩) — Streck,Kaf, p. 658
- (٤٠) — Kramers, El, EB, p. 63
- (٤١) — Golius, p. II sui. = Mehren, Udsigt, p. 80—81
- (٤٢) — Wensinck, Navel, p, 4
- (٤٣) — Streck, Kâf, p. 658—659.
- وعن علاقة جبل قاف بالنظريات الإيرانية في نشأة العالم (البندهشن)
Aga Oghlu, p. 246—248 : راجع :

(٤٤) راجع مجموعة المنحولات (Apocrypha) المصرية :

Nau, Les Arabes chrétiens, p. 135.

ROC, XVII, p. 247

ويشير فيه إلى :

— Hirschberg, p. 86, Note 1

(٤٥) راجع آراء العبريين في هذا :

Reinaud, Introduction, p. CLXXVIII—CLXXX و

تارن أيضاً غريمه (Grimme, II, 47) الذي يرى في السبع أرضيين تقليداً للسبعة سموات ، لأن العبريين يعتقدون أن كل ما خلقه الله في أعلى جعل له مثيلاً في أسفل .

— Kramers, Legacy, p. 83—84 p. 47

(٤٦)

— BGA, III², p. 16

(٤٧)

— ZKV, I, 1925, p. 107-108

(٤٨)

— Wensinck, Ocean, p. 20, 37

(٤٩)

— Mzik, WZKM, XLV, p. 85-108

(٥٠)

p. 97-108

وخاصة

— BGA, III², p. 20-136

(٥١)

— Mzik, WZKM, XLV, p. 103

(٥٢)

p. 106-107 شرحه (٥٣)

p. 107 شرحه (٥٤)

p. 108 شرحه (٥٥)

— Ahreus, p. 132

(٥٦)

— BGA, III², p. 16 — Wensinck, Ocean, p. 24

(٥٧)

— Kramers, El, EB, p. 63

(٥٨)

— Horovitz, p. 141

(٥٩)

p. 137-138 شرحه (٦٠)

p. 108 شرحه (٦١)

p. 123 شرحه (٦٢)

— Streck, Djudi, p. 1106—Horovitz, p. 107-108

(٦٣)

— Horovitz, p. 123-125

(٦٤)

p. 125 شرحه (٦٥)

p. 138 شرحه (٦٦)

p. 93-94 شرحه (٦٧)

p. 94-95 شرحه (٦٨)

- p. 94 (٦٩) شرحه
- p. 89-90 (٧٠) شرحه
- p. 141 (٧١) شرحه وأيضا القرآن (٥٨٢) : مصراً
- (٧٢)
- Horovitz, p. 101
- p. 127 (٧٣) شرحه
- p. 131 (٧٤) شرحه
- p. 121 - 122 (٥٧) شرحه
- p. 137 (٧٦) شرحه
- p. 113 (٧٧) شرحه
- P. 125-127 (٧٨) شرحه
- P. 103-106 (٧٩) شرحه
- P. 115 (٨٠) شرحه
- P. 102-103 (٨١) شرحه
- Reinaud, Introduction, p. CCCXI-CCCXIV - (٨٢)
- Horovitz, p. 150-151—Wensinck, El, IV, p. 1236
- J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 72-74, 287-288 (٨٣)
- (=Racc. .p, 184-185) (٨٤) نالينو ، الفلك ، ص ١٢٤
- Wensinck, Handbook, p. 201
- Wensinck, Handbook, p. 99 (٨٥)
- Streck, (Kàl) p. 658, (٨٦) (مع ذكر المراجع)
- p. 659 (٨٧) شرحه
- (٨٨) راجع :
- Wensinck, Handbook, p. 263
- Wensinck, El, IV, p. 1235 (٨٩)
- Fischer, Beiträge, p, 15 (٩٠)
- Wensinck, Handbook, p. 66 (٩١)
- BGA, V, p. 3 (٩٢) ابن الفقيه
- Wensinck, Navel, p. 51 راجع :
- Hirschberg, p. 22- 23—Wensinck, Navel, p XII (٩٣) راجع :
- Carra de Vaux, El, I, p, 606-607 (٩٤)
- Nau, Les Arabes chrétiens, p. 135 (٩٥)
- (٩)

- مع الإشارة إلى ترجمة القرآن لسافاري Savary ص ٢١
- Barbier de Meynard, Al Macoudi, I, p. 203—Sprenger, Mohammed, II p, 946
- Kimble p. 185 راجع أيضاً :
- Kramers, El, EB p, 63 (٩٦)
- BGA, V, p. 4 (٩٧) ابن الفقيه :
- (٩٨) شرحه : p. 4 —
- BGA, VI, p. 93 مفصل أكثر ولكن يختلف عنه : ابن خردادبه
- Wensinck, Handbook, p. 50-51 (٩٩)
- P. 40. شرحه (١٠٠)
- p. 180-183. شرحه (١٠١)
- p. 96-97 شرحه (١٠٢)
- (١٠٣) يرويها في صيغة أخرى ابن عبد الحكم ، راجع p. 1 Torrey
- Brockelmann, GAL, I, p. 148 : No I; SBI, p. 227, وقارن :
- Carra de Vaux, Abrégé, p. 29 مع اشارة :
- BGA, V, p. 3-4 ابن الفقيه :
- (١٠٤) تردد مع مشك Meshek (عبرية)
- (١٠٥) قرب الامتكندرية راجع اليه قولي : BGA, VII, p. 342
- Ferrand, Le Wakwak. (١٠٦)
- Wensinck, Tree, p. 37. (١٠٧)
- Ferrand, Le Wakwak, p. 214-215. (١٠٨)
- De Goeje, Selections, p. 23-24 ; Brockelmann, GAL, SBI, p. 403 (١٠٩)
- Goldziher, Muh Studien, II, p. 161. (١١٠)
- Levi Della Vida, El, IV, p. 700-202.
- Sprenger, Mohammed, I, p. 460—Barbier de Meynard, AlMaçoudi, IV, (١١١)
- p. 28-29.
- Chauvin, VII p. 50-55 — Basset, Temîm, p. 3-26 (١١٢)
- Brockelmann, GAL, II, p. 130, No 4, SB, II, p. 162. (١١٣)
- (١١٤) حاجي خليفة ، I ، ص ٣٧١ رقم ١٠٠٨ : إفعام الممارى بأخبار تميم الدارى
- Basset, Temîm, p. 6.
- (١١٥) ابن سعد ، الثالث / الثاني ، ص ٩٣ - ٩٤
- Caetani, Chronographia, p. 364, 24 — Caetani, Annali, VI, p. 185.

- (١١٦) الطبري ، الأول ، ض ٢٧٩٨ ، والفهرس ص ٣٠٩
- (١١٧) ابن سعد ، الثالث / الثاني ، ص ٩٤
- (١١٨) ياقوت ، المعجم ، الثاني ، ص ٨٠٦ - ٨٠٧ - القزويني ، الأول ، ص ١٦١
- Krymski, Sem spiaschikh otrokov, p. 58-59. (١١٩)
- (١٢٠) الدينوري ، ص ٢١ - ٢٢.
- (١٢١) ابن الفقيه BGA, p. 140 - 143.
- Krymski, Sem spiaschikh otrokov, p. 3 (١٢٢)
- Krymski, Rozvidkip. 117. (١٢٣)
- Wüstenfeld, Ibn Ishak, p. 992. (١٢٤)
- وقراءات أخرى لدى الطبري ، الجزء الأول ، ص ١٦٠٥ - ١٦٠٦
- De Goeje, Brandan, p. 63 راجع الديري ، الجزء الثاني ، ص ١
- Wensinck, Handbook, p. 224. (١٢٥)
- Rosen, k Fihristu, p. 239-241. (١٢٦)
- (١٢٧) (في نص المسعودي بدل « لنا » توجد « لي »)
- Barbier de Meynard, Al-Maṣṣūdī, III, p. 123-130. (١٢٨)
- (١٢٩) شرحه ص ١٢٥ - ١٢٦
- (١٣٠) ياقوت ، المعجم ، الرابع ، ص ٨
- Description de l'Égypte, I, 581-582 — (١٣١)
- Nallino, Il Valore, p. 22.
- Perrier, p. 200-201. (١٣٢) ابن خلكان الأول ، ص ٢٣٦ - ٢٤٣
- (١٣٣) الدينوري ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦
- (١٣٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٩٤ : « قد وليتك بلدة حجرها الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران » .
- Les Couvents, p. 343 راجع حبيب الزيات :
- (١٣٥) ابن خلكان ، الجزء الأول ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠
- (١٣٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الرابع ، ص ٦١٣ . أبيات الأعشى . قراءة أخرى :
- صمر وقندابيل : ابن قتيبة ، العيون ، الجزء الثاني ، ص ١٩٩
- (١٣٧) (كتاب الأغاني ، الجزء الأول ، ص ١٧٦ و ١٦٩) = Rescher, Abriss, I, 2, p. 207.
- (١٣٨) عن ابن القرية راجع كاتاني (Caetani, Chronographia, p. 1015, No 34)
- Wensinck, A'scha, p. 496 (١٣٩)
- Brockelmann, GAL, I, p. 62, No 7; SB, I, p. 95
- Rescher, Abriss, I, p. 149-150.
- Geyer, p. 328, No 20 — Goutta, p. 15 (١٤٠)
- ياقوت ، المعجم ، الرابع ، ص ٦١٣ - البلاذري ، ص ٤٣٣ - ٥٣٤
- شيخو ، الحاني ، الخامس ، ص ١٨٣ - ١٨٤

- (١٤١) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الرابع ، ص ١٦٠ - ١٦٥ .
- (١٤٢) جرجس أفندي صفا ، ص ٤٤١ - ٤٤٢
- Wellhausen, Das arab. Reich, p. 271 (١٤٣)
- Périer, p. 235—Gibb, The Arab Conquests, p. 35.
- (١٤٤) الطبري الثاني ، ص ١١٩٩
- BGA, V, p. 283 (١٤٥) ابن الفقيه ،
- Beazley, I, p. 409 (١٤٦) من المحتمل أن ينزل معنى هذا بقوله :
- « The maps or representatrons drafted by provincial administrators were put under contribution » . (قبل العصر العباسي)
- (١٤٧) التنوخي ، « الفرج » ، الأول ص ١٣٨ - ١٤٧ : « روى نجيذ كاتب إبراهيم بن المهدي أن إبراهيم حدثه أن مُخْلِداً الطبري الكاتب للمهدي على ديوان الرسائل أخبره أنه كان في ديوان عبد الملك يتعلم . . . »
- (١٤٨) المقدسي ، BGA, III ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . راجع :
- Krymski, Sem spiaschikh otrokov, p. 26-27, no 21 . الطبعة الأوكرانية ص ١٢٧ .
- S. Vila, Atti, p. 545 — Dozy, Recherches, I, p. 76-78 — (١٤٩)
- Caetani, Chronographia, p. 1245,3 راجع عن المصادر :
- السمعاني ، ص ١٨٢ - ابن حيان موجود لدى : المقرئ ، الجزء الثاني ، ص ٨ ؛ وراجع أيضاً المقرئ الجزء الأول ص ١٤٥ - ابن عذاري ، الجزء الثاني ، ص ٢٥-٢٦ .
- Levi-Provençal, L'Espagne, p. 202-203 (١٥٠)
- Caetani, Chronographia, p. 1288,40 — Wellhausen, Das Arab. Reich, p. 213 (١٥١)
- Wüstenfeld, Erdbeschreibung, p. 2, No I (١٥٢)
- Ruska, GZ, 33, 1927, p. 524 (١٥٣)
- Meyer, III, p. 267, Note 2 وأيضاً قبله :
- Renaud, Invasion p. 16, Note I (١٥٤)
- Caetani, Chronographia, p. 1288, 40
- Simonet, Historia, p. 155-157
- RChr É Ar, I, p. 13-16, No 14-17 (١٥٥)
- Krachkovskia, EV, VI, p. 88-91, illustration, 16 (١٥٦)
- Mzik, Ptolemaeus, p. 158 and note 13 (١٥٧)

الفصل الثاني

بداية الجغرافيا الرياضية عند العرب^(١)

يرجع أصل الجغرافيا العلمية عند العرب إلى الفلكيين اليونان . فإذا ما تم الاتفاق على هذه الحقيقة 64 الثابتة وانتقلنا منها إلى تاريخ التطورات الأولى للعلم في قلبه العربي بلحاظها لأول وهلة عدد غير قليل من المشاكل المتعلقة التي ما تزال تفتقر إلى الحل حتى الآن . وسيتضح لنا منذ البداية أن التأثير اليوناني لم يكن هو السابق من الناحية الزمنية ، فقد تقدمه الهندي ثم الإيراني الذي يرتبط بدوره بالهندي . وإذا كان المذهب اليوناني قد أخذت كفته في الرجحان منذ بداية القرن التاسع ولم يلبث أن غلب عقب ذلك إلا أن المذهبين الأولين ظلّا مع ذلك محتفظين ببعض أهميتهما مدة لا تقل عن القرنين حتى في المناطق البعيدة جداً عن موطنيهما كالأندلس ، وظلت بعض النظريات المرتبطة بهما عالقة بالجغرافيا العربية 65 إلى عهد أبعد من ذلك . وقد أدى أحياناً تداخل التأثيرات وتشابكها إلى خلق صورة متضاربة الألوان أصبح من العسير تتبع سير التطور التاريخي خلالها .

وثمة سؤال آخر لا يزال يفتقر إلى إجابة شافية وهو لماذا ظهرت الجغرافيا العلمية عند العرب في العصر العباسي فقط ، وذلك في النصف الثاني من القرن الثامن ؟ ولماذا كان نقلها في أول الأمر من الإيرانيين غالباً على الرغم من أن الأمويين كانوا أقرب إلى المهدي القديم للحضارة الهلنستية (Hellenistic Civilization)* في أنطاكية والإسكندرية حيث لعب السريان في العادة دور الوسيط ، ويبدو مغريباً الفرض القائل بأن العباسيين في اتجاههم السياسي نحو إيران قد ارتبطوا بالثقافة الإيرانية أيضاً . وقد عرف بلاط الساسانيين المنجمين^(٢) بينما لا نسمع شيئاً عنهم بين العرب في العصر الأموي ، بلى إن لفظ « منجم » لا يقابلنا في الشعر قبل عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠^(٣) . ولعله ليس من محض الصدفة أن يلعب المنجمون دوراً ملحوظاً عند وضع الحجر الأساس لبناء بغداد عام ١٤٥ هـ = ٧٦٢ ، بل ويقال إن الخليفة المنصور استعان بمعرفة الطالع (horoscope) لاختيار موقع عاصمته الجديدة^(٤) . ويرد اسم اثنين من المنجمين في هذه المناسبة ، وكانا كما هو الحال في ذلك العصر فلكيين أيضاً وعلى معرفة

* العصر الهلنستي Hellenistic هو عصر انتشار الحضارة اليونانية في المشرق عقب فتوحات الإسكندر ؛ وقد أثرت هذه الحضارة في حضارة الشرق وتأثرت بها وأخرجت مزيجاً من الاثنين . وهذا اللفظ يستعمل في مقابل العصر الهليني Hellenic وهو عصر الحضارة اليونانية في بلاد اليونان نفسها ، أي قبل الغزو المقدوني . ويقول سارطون إنه « قد أحسن اختيار هذه العبارة إذ توحي بالهلينية بالإضافة إلى شيء آخر غريب عنها ، شيء مصري أو شرقي » . (المترجم)

تامة بالتراث العلمى لعصرهما . أحدهما هو نوبخت الذى انحدرت من صلبه دوحه إيرانية احتلت مكاناً مرموقاً فى ميدانى العلم والسياسة فى العصر العباسى^(٥) ، أما الآخر فهو ما شاء الله الذى وإن كان يهودياً إلا أنه ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالتراث الإيرانى^(٦) ، وسيرد بالتالى ذكر استعماله « لزيج الشاه » الذى يرجع أصله إلى العهد الساسانى . والتأثير الإيرانى يمكن تتبعه ليس فى الأسماء فحسب بل أيضاً فى المصطلحات التى وجدت طريقها إلى أوروبا الوسيطة بفضل الترجمات اللاتينية لمصنفات ما شاء الله الذى يرد اسمه باللاتينية على صورة Messahallath أو Messeallah^(٧) . ويمكن افتراض وجود علاقة بين هذا التراث الإيرانى والمدرسة الطبية الشهيرة لعهد الساسانيين بجنديسابور^(٨) التى وإن كان أطباؤها جلهم من المسيحيين إلا أن لغتهم كانت الفارسية .

ونادراً ما اتسمت المصنفات الفلكية الإيرانية التى وصلت العرب فى ذلك العصر بالأصالة ، فهى كانت عادة تعكس العلم الهندى الذى وجد طريقه أيضاً إلى العرب مباشرة . وتصور الرواية العربية هذه الصلة بالعلم الهندى على الطريقة الآتية : فقد كان من بين أعضاء السفارة الهندية إلى بلاط المنصور فى عام ١٥٤ هـ = ٧٧١ أو عام ١٥٦ هـ = ٧٧٣ عالم هندى هو مانكا Manka أو كانكا Kanka أحضر معه من الهند رسالة فى الفلك بجداولها أطلق عليها فى الترجمة العربية التى عملها الفزارى ويعقوب بن طارق اسم « كتاب السند هند »^(٩) . وكثير من جوانب هذه القصة غير واضح ابتداء من التردد فى الوقوف عند تاريخ محدد ، الأمر الذى يزيد فى تعقيد وجود رواية أخرى عن سفارة ثانية فى عام ١٦١ هـ = ٧٧٧ - ٧٧٨^(١٠) . غير أن أصل هذه الرسالة قد أمكن تحديده بكل ثقة وبدرجة كبرى من اليقين ألا وهو رسالة « براهما سفوطا سدانثا » Brahmasphutasiddhanta التى وضعها فى عام ٦٢٨ براهما غبثا Brahma Gupta^(١١) ، ولفظ « سيدانثا » قد تحول فى الوسط العربى تحت تأثير الاشتقاق الشعبى إلى « السند هند » الذى تنعكس فيه التسمية العربية لشطرى الهند ، أى الهند والسند . ومعنى « سيدانثا » فى الأصل هو « المعرفة والعلم والمذهب »^(١٢) ، ثم لم يلبث أن أطلق اصطلاحاً على كل مصنف فى الفلك . والرسالة تحوى مقدمة وجيزة أرفق بها عدد من الجداول الفلكية فى تحركات الأجرام السماوية وطلوع ومغيب البروج . وقد حسبت هذه الحركات على أساس دورات زمنية تضم آلاف السنين وهى ما تسمى بالكالبا Kalpa التى تقوم على فرض مؤداه أنه فى بداية العالم كانت الشمس والقمر والكواكب مجتمعة على خط واحد وأنها سترجع إلى نفس الوضع فى نهاية العالم^(١٣)

وقد ظلت هذه النظرية معروفة فى أوروبا لعهد طويل ، ولندكر بهذه المناسبة أنه قد وردت فى « الكوميديا الإلهية » لدانتي Dante الأبيات الآتية :

« كان الوقت لحظة الصباح الأولى ، وقد ارتفعت

الشمس محاطة بنفس تلك النجوم التى كانت

ثصحابها منذ الأزل ، عندما حرك الحب الإلهي
تلك الأشياء الحميلة لأول مرة» (١٤) .

والبرهان على ما بلغتة هذه النظرية من انتشار بين العرب يتضح من موضع في «كتاب الشعر
والشعر» لابن قتيبة (المتوفى عام ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) . فهو عند شرحه لبیت أبي نواس في وصف
الحر :

تُخَيَّرَت والنجوم وقف لم يتمكن بها المـدار

67

كتب يقول :

« يريد أن الحر تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين
خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة في برج ثم سيرها من هناك وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج
الذي ابتدأها فيه وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم . والهند تقول إنها في زمان نوح اجتمعت
في الحوت إلا يسيراً منها فهلك الخلق بالطوفان وبقى منهم بقدر ما بقي منها خارجاً عن الحوت . ولم أذكر
هذا لأنه عندي صحيح بل أردت به التنبيه على معنى البيت ونظر هذا الشاعر في هذا الفن» (١٥) :

وفيما بعد استعمل الفلكي أبو معشر حساب التوقيت الذي يبدأ من الطوفان ، لأن الطوفان حدث
في لحظة اقتران جميع الكواكب في نهاية دائرة البرج (١٦) .

ومن العسير التكهن بالصيغة التي اتخذها كتاب «السند هند» في الوسط العربي إذ أن نصه لم يحفظ
لنا ، ومن العسير كذلك التكهن بطبيعة الدور الذي قام به كلا المترجمين في هذا الصدد فالفزاري كان إلى
عهد غير بعيد ، وذلك لتضارب المعلومات حوله في المصادر الإسلامية ، يقصد به شخصان . وإحدى
أيادي نالينو Nallino العديدة على العلم هي إثبات اسمه الحقيقي (١٧) . وقد استعمل الفزاري في كتابه
الأسس والمناهج الهندية في الحساب لوضح جداول فلكية جديدة - زيج (١٨) . وقد حفظ لنا الفزاري
على العموم أصل المذهب الذي أطلق عليه في العلم العربي «مذهب السند هند» ولكنه أجرى فيه بالطبع
تعديلات وإضافات جوهرية وقام بتحويل حساب التوقيت الهندي إلى «سنى العرب» كما تقول المصادر ،
أي أنه استبدل بنظام الكلبا حساب السنين القمرية المستعمل لدى المسلمين (١٩) ، أما إضافاته فقد بدت
في الاتساع الملحوظ في المادة المتعلقة بأراضى الخلافة ؛ وفي القطعة من زيجة التي حفظها لنا المسعودي (٢٠)
والتي يرد فيها تعداد البلدان الإسلامية يلاحظ اهتمامه بالعامل التاريخي وهو شيء غريب على الهند تماماً ؛
فلديه يظهر لأول مرة الرباط بين التاريخ والجغرافيا (٢١) الذي أصبح بالتالي طابعاً مميزاً لجميع مصنفات
الأدب الجغرافي في اللغة العربية . ومادة هذه القطعة تشير إلى أنها دونت عقب عام ١٧٠ هـ = ٧٨٦ (٢٢)

68

بقليل ويلوح أنه إلى نفس تلك الحقبة ترجع الصيغة النهائية لزيج الفزاري .

إن نشاط الفزاري ومعاصريه كان بلا شك فاتحة عهد جديد في تطور الفلك والجغرافيا الرياضية

عند العرب ، وكان هو وما شاء الله الذى مر ذكره أول من وضع الأسطرلاب^(٢٣) بين العرب . وربما أفاد فى هذا من الرسالة السريانية لساويرس سبوكت التى ترجع إلى منتصف القرن السابع ، غير أنه من الصعب إصدار حكم فى هذا الصدد لأن آثار الفزارى لم تصل إلينا كما وأن آثار ما شاء الله فى نفس الموضوع معروفة لنا فى ترجمتها اللاتينية الوسيطة فقط . ويلاحظ أن الفزارى قد نظم قصيدة فى النجوم مفتتحاً بهذا سلسلة الشعر التعليمى الذى ازدهر بشدة فى العصور التالية .

وأقل من ذلك بكثير معرفتنا بمصنفات الداعية الثانى للمذهب الهندى وهو يعقوب بن طارق^(٢٤) معاصر الفزارى . واعتماداً على بعض الوقائع يمكن أن نفترض أن المعين الذى استقى منه مادته كان أوسع ولم يقتصر على رسالة إبراهيم غوبتا وحدها بل شمل عدداً من الآثار الأخرى . ولكن مصنفاته هو أيضاً مع الأسف الشديد لا يمكن الحكم عليها إلا من عناوينها ، ويبرز من بينها كتاب « تركيب الفلك » الذى يزعم أنه قد جمع بين دفتيه المعلومات التى استقاها من العلماء الهنود أعضاء السفارة الثانية إلى بلاط العباسيين فى عام ١٦١هـ = ٧٧٧ - ٧٧٨^(٢٥) ، أى بعد خلافة المنصور . أما قيمة مؤلفاته فيدل عليها ما لقيته من تقدير علماء مثل البيرونى^(٢٦) ، أو إبراهيم بن عزرا الذى عاش بعد ذلك بوقت طويل فى الأندلس النائية وفى إيطاليا .

هذا وقد ثبتت قواعد نظام « السند هند » فى الفلك العربى على أساس عدد من الرسائل الهندية فى عهد المنصور وبقي سائداً سيادة مطلقة حوالى الخمسين عاماً إلى عصر المأمون حين بدأ يزحه المذهب اليونانى^(٢٧) ؛ غير أنه لا يمكن القول بأية حال أنه قد اختفى مرة واحدة بأجمعه ، فأكبر رياضى عصر المأمون قاطبة وهو الخوارزمى الذى سيرد ذكره مراراً قد وضع جداوله الفلكية « السند هند الصغير » اعتماداً على النظام الهندى^(٢٨) . وقد استمر متداولاً على أية حال إلى آخر القرن الحادى عشر وأفاد منه بحاثه كبار مثل البيرونى^(٢٩) الذى كان إلى جانب الترجمات العربية يعرفه معرفة جيدة | فى مصادره الأصلية^(٣٠) . أما فى أراضى

الخلافة الغربية فقد استمر الاهتمام به زمناً أطول ، كما يظهر ذلك من مثال إبراهيم بن عزرا^(٣١) وغيره . وإحدى القواعد الجوهرية لهذا المذهب ظلت إلى حد ما مرتبطة بالمصنفات الجغرافية العربية على الدوام وامتد تأثيرها فى بعض المجالات على العلم الأوروبى إلى أيام كولومبس ، أعنى بذلك مسألة حساب خط الزوال أى خط منتصف النهار (meridional) من الشرق ، وأيضاً نقطة ابتداء ذلك الحساب . ذلك أنه قبل مجىء النظام اليونانى كانت الأطوال عند العرب تقاس ابتداء من خط منتصف النهار عند الأرين Arine أو « قبة الأرض » الموجودة فى مكان ما من الشرق . وفى القرن العشرين فقط أصبح من الممكن إلى حد ما استكناه جوهر هذه النظريات ونفض غبار الغموض الذى تراكم على ممر قرون طويلة ؛ وكانت أول محاولة فى هذا الصدد للمستشرق الفرنسى رينو Renaud^(٣٢) .

ووفقاً لنظرية العلماء الهنود فإن خطوط الطول يبدأ تعدادها من خط منتصف النهار الذى يمر بوسط المعمورة حيث توجد جزيرة لانكا Lanka التى عرفها العرب باسم سرنديب وتعرف حالياً باسم

سيلان والتي زعموا أنها تقع على خط الاستواء . والنقطة التي يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف النهار كانت تسمى عند العرب « قبة الأرض » أو « القبة » وهي تقع على أبعاد متساوية من الغرب والشرق والشمال والجنوب . ومن جزيرة لانكا أومن هذه « القبة » كان ابتداء حساب الأطوال الجغرافية عند الهنود^(٣٣) . وبحسب تصوراتهم فإن خط زوال لانكا كان يمر على مدينة أوجيني (اجين Ujaini الحالية من أعمال مالوه Malwa بالهند الوسطى) حيث كان يقوم مرصد مشهور^(٣٤) . وفي صورتها العربية تحولت أجين إلى أزين ، وهذا قريب من شكلها عند بطليموس وهو أزين Ozene ؛ ثم نتيجة لنقص معهود في الكتابة العربية تتحول أزين ببساطة إلى أرين Arine . أما الجزيرة نفسها فنظراً لعدم احتفاظها باسمها الهندي عند العرب فقد تمت زحزحتها سهواً في اتجاه الغرب مستمرة على خط الاستواء بحيث أصبحت حسب تصوراتهم تحتل مكاناً وسطاً بين الهند والحبشة^(٣٥) ؛ ونتيجة لكل هذا فقد ثبتت لدى العرب النظرية القائلة بأن حساب الأطوال وفقاً لمذهب الهند يبدأ من خط زوال الأرين ، وهذا بدوره جر إلى خلط مفعم بالنتائج بين « قبة الأرض » والأرين ، بل أدى إلى ظهور مصطلح « قبة الأرين » . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزته إلى اتخاذ لفظ أرين شيئاً فشيئاً لمعنى المركز على الإطلاق^(٣٦) ؛ وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) يعرف الجرجاني الأرين في معجمة المصطلحات « التعريفات » كالآتي :

70

« الأرين محل الاعتدال في الأشياء وهي نقطة في الأرض يستوى معها ارتفاع القطبين فلا يأخذ هناك الليل من النهار ولا النهار من الليل وقد نقل عرفاً إلى محل الاعتدال مطلقاً »^(٣٧) .

ولم يختلف حساب الأطوال ابتداء من الشرق اختفاء تاماً حتى بعد دخول المذهب اليوناني . ففي القرن العاشر أثبت الجغرافي وعالم الآثار المشهور الهمداني ، وأصله من جنوب جزيرة العرب ، أقول أثبت الهمداني في كتابه « صفة جزيرة العرب »^(٣٨) أطوال « مدن العرب المشهورة » بما في ذلك مكة والمدينة ابتداء « من الشرق » وأشار إلى أن مصادره هي الفزارى ومعاصر الفزارى المشهور حبش المروزي . وقد اهتم هونيمان Honigmann في الآونة الأخيرة بدراسة هذه المادة وحللها تحليلاً دقيقاً^(٣٩) .

ولم يكتف مذهب السند هند بإدخال مصطلح « قبة الأرض » والأرين في الجغرافيا العربية بل أدخل أيضاً عدداً من النظريات الأخرى ، أحياناً عن طريق الرواية الإيرانية مع زيادات مختلفة . ويروي البيروني أن بعض الجغرافيين قد حدد موقع جزيرة جمكوت Djamkut^(٤٠) على درجة ٩٠° إلى الشرق من جزيرة لانكا أي في نهاية المعمورة ، ويذكر أن اسمها عند الهنود هو ياما كوتي Yamakoti ، بالرغم من أن ذكرها لا يرد لديهم . وهكذا فإن جمكوت في الشرق تقابل « جزر السعادة » (الخالدات) عند بطليموس في المغرب^(٤١) . وفي أقصى المشرق على خط الاستواء وعلى بعد ١٨٠° درجة إلى الشرق من « جزر السعادة » و ٩٠° درجة إلى الشرق من « قبة الأرض » يضع البيروني بدلا من جمكوت قلعة كنكدز Kangdez

الأسطورية التي كما تزعم الرواية الإيرانية قد بناها الملك كيكافوس أو الملك جم في أقصى المشرق على خط الاستواء وعلى بعد ١٨٠ درجة إلى الشرق من «جزر الخالدات» و ٩٠ درجة من «قبة الأرين»^(٤٢) ! بل إن هذه القلعة قد ظهرت في نهاية القرن السادس عشر كأنها موجودة فعلاً وذلك في كتاب فارسي الجغرافيا هو «آئين أكبرى» الذي تم تصنيفه بالهند^(٤٣).

ومن الغريب بمكان أن نظرية «قبة الأرض» الموجودة بالأرين ربما وجدت طريقها إلى أوروبا ، بل وربما أدت هناك إلى ظهور نظريات كانت لها نتائج بعيدة المدى . ففي أثناء أسفاره بالشرق بين عامي ١١١٠ — ١١١٤ اعتنق اديلارد الباثي Adelard of Bath ، مترجم الجداول الفلكية للخوارزمي النظريات العربية الأساسية عن قبة الأرض والتقسيم المنظم لها ، ويلوح أنه أول من أدخل ذلك المصطلح إلى أوروبا في ترجمته اللاتينية لتلك الجداول حوالي عام ١١٢٦^(٤٤) ؛ وجاء في قوله «الأرين أو قبة الأرض تقع على خط الاستواء في النقطة التي تتلاشى عندها العروض ويمكن تحديد النقاط الرئيسية لأي مكان من خط زوال الأرين» . ونفس هذه الفكرة قد دعا إليها المترجم الشهير جيرارد الكريموني Gerard of Cremona (١١١٤ — ١١٨٧) وقد حملها على ما يبدو من طليطلة Toledo^(٤٥) . وفي القرن التالي لهذا اعتنقها عدد من كبار علماء القرون الوسطى الأوروبية مثل روجر باكون Roger Bacon والبرت الكبير Albertus Magnus^(٤٦) . وكانت التصورات عنها مهمة أحياناً ، ففي إحدى الخارطيات التي ترجع إلى عام ١٢٧٢ زحزجت الأرين صوب الشمال^(٤٧) .

وقد لعب بطرس ألياني Petrus de Aliaco أسقف كمبري Cambrai (١٣٣٠ — ١٤٢٠)^(٤٨) دوراً خطيراً بالنسبة للعلم الأوروبي والكشوف الجغرافية التالية ، خاصة بفضل رسالته «صورة العالم» Imago Mundi التي تم تصنيفها حوالي عام ١٤١٠ وتم طبعها حوالي عام ١٤٨٠ — ١٤٨٧^(٤٩) . وإذا كانت الرسالة في حد ذاتها لا تمثل أهمية كبرى من وجهة نظر الدراسات العربية ، إذ لا تتضمن في الواقع سوى يضيع مقتطفات من الترجمات اللاتينية لابن رشد وابن سينا وهالي Hali* والفرغاني^(٥٠) ، إلا أنه من الغريب ملاحظة أن نظرية الأرين تظهر فيها بحذافيرها في المتن وفي الخارطة على السواء^(٥١) . وأكثر غرابة من ذلك أن يعرفها خريستوفر كولومبس Christopher Columbus فقد حفظت لنا تعليقاته الشخصية على النسخة التي كان يمتلكها من كتاب «صورة العالم» Imago Mundi^(٥٢) . ومن

* نقل المستعرب الكبير هذا الاسم من كتاب نيوتن: Newton, Travels and Travellers in the Middle Ages, London 1926

وقد جاء في ذلك الكتاب في ص ٢٤ ما نصه :

* Many citations are given from Arab authors, Averroes, Hali, Alfragan, Avicenna and so on *

ولنني أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الشكل اللاتيني كان يراد به اسم العالم العربي علي بن رضوان (توفي عام ١٠٦٨ م) شارح «كتاب بالإوبعة» Tetrabiblos . لبطليموس . (المترجم)

هذا يتضح أن نظرية الأرين هي المسئولة بالذات عن ظهور نظرية الشكل الكمثرى للأرض عند كولومبس ،^{٥٣} ومؤداها أنه يوجد في نصف الكرة الغربي من الأرض وفي مواجهة « قبة الأرين » مركز آخر للأرض على موضع أكثر ارتفاعاً من رصيفه الموجود بالجهة الشرقية^(٥٤) . وهكذا فهما بدا الأمر غريباً اليوم فإن النظرية الجغرافية العربية قد لعبت دوراً ما في كشف العالم الحديد ، وليس بعيد أن يكون تأثير^{٥٥} هذه النظرية هو الذى دفع دانتى — الذى يدين بالكثير للتراث الإسلامى كما أثبت البحث الحديث — إلى وضع « المطهر » Purgatory على جبل في الجانب الغربى من نصف الكرة الجنوبي^(٥٦) ، كأنما يعكس بهذا التصورات المسيحية عن وجود الفردوس الأرضى في أقصى الشرق في مكان ما وراء البحار^(٥٥) . هذا ولم تختف نظرية قبة الأرين من الجغرافيا الأوروبية إلاّ عقب الرحلات الكبرى حول الكرة الأرضية^(٥٦) .

72

ولم تجد النظريات الفلكية والجغرافية الهندية طريقها إلى العرب مباشرة فحسب ، بل وصلتهم أحياناً في ثوبها الإيراني . ويتضح هذا بصورة جلية من بعض المصطلحات التى دخلت في الاستعمال العلمى لدى العرب مبكراً واستمرت باقية فيه ؛ وأحد هذه المصطلحات هو اللفظ الذى يطلق عادة على الجداول الفلكية أعني بذلك لفظ زيچ (وجمعه زيجات ، وزيجة ، وأزياج) ، وأصلها من الفارسية زيگ ، وبالهلوية زيک^(٥٧) ، ويقصد به السدى الذى تنسج فيه اللحمة ، ثم أطلق على الجداول العددية لمشابهة خطوطها الرأسية لخيوط السدى . وثمة تفسير آخر لمؤرخ العلوم الدقيقة عند العرب شوى Schoy وهو أن لفظ زيچ من الفارسية زه Zāh أو زيک Zik بمعنى الوتر والخيط الذى يستعمل في المقاس^(٥٨) ؛ غير أن هذا التفسير لم ينل القبول رغم أنه يجد بعض التعضيد في كلام للبيروني ، وذلك أثناء محاولته وضع ترجمة دقيقة للفظ اليونانى « قانون » $\chi\alpha\nu\acute{o}\nu$ ^(٥٩) . وقد أطلق لفظ زيچ عند العرب على أى مصنف فلكى بجداوله ، أما الجداول نفسها فقد حملت أحياناً الاسم العربى « جداول » (جمع جدول) Tables ، كما استعمل في نفس معنى جداول تقريباً اللفظ اليونانى « قانون » الذى وصل إلى العرب على ما يبدو في شكله السريانى .

وبعض البحاثة أراد أن يبصر آثار النفوذ الشرقى (الهندي-الإيراني) في أن الأوصاف الأولى^٤ للأقاليم السبعة ، التى ربما ساعد على اعتناق نظريتها التصورات الإيرانية عن السبع كشورات^(٦٠) ، توردها مناطق كل إقليم ابتداء من الشرق كما لدى الفرغانى مثلاً^(٦١) . ومن المستحيل بالطبع نفي هذا تماماً ، رغم أن نظرية الأقاليم السبعة لم تثبت لدى العرب في الواقع إلا بعد أن كانوا قد تعرفوا على النظريات اليونانية ، وربما حدث ذلك عن طريق السريان أيضاً^(٦٢) .

ومن بين المصنفات الفارسية لم يحدث تأثيراً كبيراً على العلم العربى إبان نشأته إلا مصنف واحد فقط ، لم يكن ذا قيمة كبيرة في حد ذاته لأنه يقوم على الأرصاد والجداول الهندية لا الفارسية ، وهو المعروف

عند العرب باسم «زيج الشاه» أو «زيج الشهريار» ومعناه زيح الملك^(٦٣). واصله البهلوي معروف باسم «زيك شتروآيار» (Zik-i Shatroayan) ويبدأ حساب توقيته ببداية ملك يزدجرد أى فى اليوم السادس عشر من شهر يونيو عام ٦٣٢ ، وهو يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان^(٦٤). وكما هو الحال دائماً فإنه من العسير الحكم على أصله الذى لم يصل إلينا ، ولكنه لعب دوراً خطيراً فى قلبه العربى^(٦٥) ، وقد أفاد منه كما رأينا ما شاء الله^(٦٦) كما وأن نظرياته لم تكن غريبة على محمد الخوارزمى^(٦٧) أكبر دعاة المذهب اليونانى . ولما ثبتت جذور المذهب الأخير بدأ يبطل استعمال «زيج الشهريار» ولكنه لم يختف تماماً وكثيراً ما اعتمد عليه الفلكى حبش المروزى^(٦٨) ، ونال انتشاراً واسعاً على يد أبى معشر البلخى (المتوفى عام ٢٧٢ هـ = ٨٨٦) الذى اشتهر فى أوروبا الوسيطة باسم Albumasar^(٦٩) ، وذلك بقصصه المنمقة فى تاريخ هذا الزيج وأهميته . وأبو معشر أصله من بلخ ، انصرف فى أول أمره إلى دراسة التوحيد والحديث ، ثم فكر فى أداء فريضة الحج . أما ما حدث له فى هذا الصدد فيرويه لنا ياقوت فى معجمه «إرشاد الأريب» قال :
 «كان بكر كر من نواحى القفص* ضيعة نفيسة لعلى بن يحيى بن المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب

عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبدولة فى ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شئ من النجوم فوصفت له الخزانة فضى ورآها فهاله أمرها فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها علم النجوم وأعرق فيه حتى الحذ وكان ذلك آخر ههده بالحج والدين والإسلام أيضاً»^(٧٠).

ومن بين المصنفات العديدة لأبى معشر هذا «زيج» يعتمد على خط نصف نهار قلعة سنجندز التى مر لهاكرها أى أنه يرتفع إلى الأرصاد الهندية فى قلبها الفارسى^(٧١) . وحتى القرن السابع عشر كان لدى حاجى خليفة فكرة واضحة عن هذا الزيج عندما كتب يقول^(٧٢) :

«زيج أبى معشر... وهو مجلد كبير ألفه على مذهب الفرس وأثنى على هذا المذهب وقال إن أهل الحساب من فارس وغيره أجمعوا على أن أصح الأدوار أدوار هذه الفرقة وكانوا يسمونها سنى العالم وأما أهل زماننا يسمونها سنى أهل فارس» .

ولعله بسبب هذه «الأدوار» قد أطلق على جداوله فى موضع آخر اسم «زيج الهزرات» أى «زيج الألوف»^(٧٣) حيث نبصر فى القسم الثانى من التركيب لفظاً فارسياً كذلك . وكان اهتمام أبى معشر بالأدوار الكونية (Cosmic Cycles) يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظريات المتعلقة بأدوار حياة العالم وبمسألة طول «السنة الكبرى» الذى حدده بطليموس كما حدده الهنود والعرب أيضاً بست وثلاثين

ألف سنة . ولجهود أبي معشر في هذا الصدد أهمية خاصة في تاريخ العلم البشرى ، وترجمة رسالته الكبرى « المدخل إلى علم أحكام النجوم » أو « المدخل الكبير » التي قام بها هرمان الدلماتي Hermann of Dalmatia حوالى عام ١١٤٠ (٧٤) قد ساعدت بشكل خاص على ترويض تلك النظريات في الغرب (٧٥) . هذا وقد شغلت مسائل التقويم (Chronology) وحساب الأزمنة ذهن أبي معشر بوجه عام فلم يحصر نفسه في نطاق العلم الهندى - الإيراني ؛ ونبصر من قطعة كبيرة تبقت من مؤلفه المفقود « الألوف » أنه كان يجهد في توضيح معنى « النسيء » الذى كان يعمل به عرب الجاهلية ، وهو شئ أشبه بالشهر الكبيس . ذلك أنه حتى في العصر الذى عاش فيه كان المعنى الحقيقى لهذا اللفظ قد نسى تماماً (٧٦) .

وأبو معشر هو آخر الدعاة الكبار للمذهب الإيراني ، بالرغم من أنه كمحمد الخوارزمى قد أخذ طرفاً في نشر المذهب اليونانى . غير أن المذهب الإيراني لم يهجر بعده بصورة نهائية (٧٧) ، ففي الأندلس مثلاً كانت الأطوال تقاس أحياناً إلى نهاية القرن الحادى عشر « بمذهب أهل الفرس » الذى كثيراً ما أشار إليه إلى جانب « مذهب الهند » مصنف « جداول طليطلة » The Tables of Toledo ومخترع الاسطرلاب المكمل أبو اسحق إبراهيم الزرقالى (٧٨) الذى اشتهر في أوروبا باسم (Arzachel) بفضل رسالته في الاسطرلاب .

ولعل « زيج الشاه » كان أكثر مصنفات المذهب الفلكى الإيراني انتشاراً في اللغة العربية ، بل وربما كان الوحيد من نوعه إذ لا علم لنا بوجود ترجمات لمصنفات أخرى ؛ ومن المحتمل أن الفرس لم تعرف في هذا الفن كتباً غيره . أما تلك المصنفات المنحولة ، خاصة في التنجيم (Astrology) ، والمنسوبة أحياناً إلى زردشت Zoroastra (٧٩) وبزرجمهر ، والتي وجدت انتشاراً واسعاً في الأدب العربى ، فليس لها أهمية جدية أضف إلى هذا أنها كثيراً ما ترجع إلى التراث اليونانى لا الإيراني رغم أن عناوينها تشير إلى العكس .

75

وقد أخذ المذهب اليونانى يضيق الخناق على المذهبين الآخرين في الجغرافيا الرياضية العربية منذ بداية القرن التاسع ، ويمكن القول بأنه قد أصبح بحق المذهب السائد منذ منتصف القرن التاسع . والمقاومة الضعيفة التي ظهرت من المذهبين الهندى والإيراني ترجع في جوهرها إلى أن أغلبية المصنفات التي تمت ترجمتها عنهما من قبل قد حملت طابعاً عملياً خالصاً واقتصرت على إيراد القواعد وشرح طريقة استعمال الجداول دون الاهتمام بسرد البراهين والأدلة (٨٠) ؛ فالفلكى المكتفى بها لم يكن بوسعها أن يرقى فوق مرتبة المحاكاة الصرفة والتقليد المحض إذا لم يتمرس في التحليل النظرى ويتمكن من الأسس ويتدرب تدريباً كافياً على الأرصاد الشخصية القائمة على الملاحظات الدقيقة على أمد طويل . وسرعان ما أحس العرب بحاجتهم إلى هذا المنهج عندما تعرفوا على مصنفات إقليدس Euclides وبطلميوس ؛ وليس أفضل في هذا الصدد من إيراد ألفاظ البتاني عن بطلميوس . قال :

« إذ كان قد تقصى ذلك من وجوهه ودل على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسى والعددى الذى لا تدفع صحته ولا يشك فى حقيقته فأمر بالحنة والاعتبار بعده وذكر أنه قد يجوز أن يُستدركَ عليه فى أرصاده على طول الزمان كما استدرك هو على إپرخُس (Hipparchus) وغيره من نظرائه لجلالة الصناعة ولأنها سمائية جسيمة لاتدرك إلا بالتقريب » (٨١) .

ويبدو جلياً أن شمول التراث الهلنستى واتساع مداه واستيعابه المنظم لدى العرب ، هو الطابع المميز فى تاريخ نفوذ العلم اليونانى إلى العرب لدى مقارنته بالهندى والإيرانى . ففيما يتعلق بالتراث الهندى والإيرانى نلتقى بمصنفات منفردة تدين بظهورها لمجهودات فردية ، وذلك بعكس التراث اليونانى الذى بدأ العمل فيه بطريقة منظمة . فنذ عهد هارون الرشيد (١٧٠ هـ = ٧٨٦ - ١٩٣ هـ = ٨٠٩) تم إنشاء « خزانة الحكمة » أو « بيت الحكمة » وهى أشبه بأكاديمية للترجمة ملحقه بها مكتبتها الخاصة ، وقد أضفى 76 المأمون (١٩٨ هـ = ٨١٣ - ٢١٨ هـ = ٨٢٣) على المؤسسة طابعاً رسمياً حينما أمدّها بهيئة علمية خاصة وبعث من أجلها البعث إلى بزنطة لجلب المخطوطات اليونانية . ولم تلبث بغداد أن أضحت مركزاً لحركة الترجمة العلمية وشارك فى هذا ممثلو جميع الطوائف الدينية من مختلف أصقاع الخلافة . وقد بلغ النشاط فى الترجمة درجة عالية حتى لم تكن لتتقضى عشر سنوات أو عشرون دون أن تظهر للكتاب الواحد ثلاث أو أربع ترجمات . وفى زمن قصير انتشرت بين العرب مؤلفات ابقراط Hippocrates وجالينوس Galenus وأرسطو وإقليدس وأرخميدس ومنيلوس Menelaus وأبولونيوس Appollonius ومارينوس الصورى Marinus of Tyre ، وهى تمثل فى مجموعها القاعدة الأساسية للعلم اليونانى (٨٢) . ولم يلبث أن احتل مكانة خاصة فى هذه المجموعة اللامعة من الأسماء شخص بطليموس* الذى بدأ به عهد جديد فى تاريخ الفلك والجغرافيا عند العرب . أما تبيان أهمية مؤلفاته بالنسبة للعلم العربى بصورة مفصلة متكاملة فأمر يحتاج إلى بحث خاص يتطلب بدوره الكثير من البحث والتقصى . وقد تجمعت فى خلال العشرين عاماً الأخيرة مادة كبيرة وتعددت الأبحاث بصورة ملحوظة ، ولكنه رغمًا من أن التواريخ قد تكون واضحة أحياناً إلا أن استنباط علاقة الترجمات المختلفة بعضها ببعض ودور كل منها لا يزال يقوم إلى الآن على أسس واهية .

ويمكن القول على وجه التحديد بأن الاهتمام الأساسى قد تركز حول مصنفيه الكبيرين وهما رسالته فى الفلك وتقع فى ثلاث عشر كتاباً مجداولها (ἡ μεγάλη σύνταξις μαθηματικῆ) أى « الجامع » (« المدخل إلى الجغرافيا » (ἡ γεωγραφικὴ ὑπόληψις) المعروف عادة باسم « جغرافيا » . والأول

* كلاوديوس بطليموس Claudius Ptolemaius الذى عرفته العرب باسم بطليموس القلوذى فلكى مصر عاش فى مصر الرومانية . وأفضل ما يوجد فى العربية للتعريف به وبآثاره هو القسم المفرد له فى كتاب سارطون « العلم القديم والمدينة الحديثة » الذى عرب وطبع بالقاهرة منذ عهد غير بعيد . (المترجم)

منهما قد أخذ في شكله العربي اسم « المجسطى » Almadjisti (أحياناً بكسر الميم « المجسطى » Almidjisti) وفيما بعد دخل أوربا الوسيطة في صورة المجسط Almagest^(٨٣) وهذه التسمية تعطينا بلا شك صيغة التفضيل (Superlative) في اللغة اليونانية μέγιστη (أى « الأعظم ») . وقد أطلقت على المصنف علامة على الاحترام والتقدير الذى فاز به ، وهكذا فهم العرب الأمر^(٨٤) . ولعل التسمية ترتفع إلى المترجمين العرب إذ لم تقابل إلى الآن في المصادر اليونانية ؛ وقد أ طرح الآن رأى القائل بأن التسمية مركبة من اللفظين μεγάλη σύνταξις على طريقة النحت^(٨٥) .

ومنذ عام ١٩٢٨ لاحظ أحد الباحثين بالكثير من الاكتئاب أنه « لا يوجد شيء أكثر خلطاً ولا اضطراباً من مسألة الترجمات العربية لكتاب المجسطى لبطلميوس »^(٨٦) ويرجع هذا الاضطراب إلى أن معظم هذه الترجمات كما هي العادة لم تصل إلينا بل عرفت فقط من بعض الإشارات والشذرات المأخوذة عنها ، فضلا عن أن الترجمات المصلحة المختلفة التى نما عددها على مر الزمن قد طغت في بعض الأحيان على الأصل تماماً وقضت على إمكانية الحكم عليه . ويصدق هذا القول على الترجمة الأولى المعروفة باسم « النقل القديم » وهى التى عملت ليحيى بن برمك^(٨٧) (توفى عام ١٩٠ هـ = ٨٠٥) ، أى قبل عام ١٨٧ هـ = ٨٠٣ دون شك ، وهو عام نكبة البرامكة . وهناك أساس للقول بأن هذه الترجمة تمت عن السريانية^(٨٨) ، وهى كانت ما تزال في أيدي الفلكيين الأوائل مثل البتاني والصوفي^(٨٩) غير أنها بإجماع الآراء لم تكن ذات قيمة كبرى . وتفوقها الترجمة التى عملت في عصر المأمون والتى قام بها الحجاج بن يوسف* حوالى عام ٢١٢ هـ = ٨٢٧ - ٨٢٨ ، وحفظت لنا في بضعة مخطوطات لا تمثل الأصل دائماً^(٩٠) ، ويبدو أنها هى أيضاً قد نقلت عن السريانية^(٩١) . ولم يقف الجهد عند هذا فقد شارك في ترجمة المجسطى عالم يمكن اعتباره أكبر مترجمي القرن التاسع قاطبة وهو حنين بن إسحق (حوالى عام ١٩٤ هـ = ٨١٠ - ٢٦٠ هـ = ٨٧٣)^(٩٢) ، وقد صلح ترجمته بالتالى الفلكى الشهير ثابت بن قرة الصابى الحرانى (٢١٩ هـ = ٨٣٤ - ٢٨٨ هـ = ٩٠١) الذى سنلتقى به عند الكلام على مصنفات بطلميوس فى الجغرافيا . والعلاقة بين ترجمتى حنين وثابت غير واضحة إذ أن ثابتاً نفسه قد نسب إليه عدد من المؤلفات الشخصية حول المجسطى^(٩٣) . ومهما يكن من شيء فإن هذا الوضع يقف دليلاً على ما بلغته حركة الترجمة من حيوية وانتظام ابتداء من عصر المأمون ، ويؤكد الاهتمام العميق بكتاب المجسطى الذى ترك أثراً محموداً فى تقدم الفلك والرياضيات^(٩٤) لا بين العرب وحدهم بل وفى أوروبا الوسيطة . ومن فضل القول أن نضيف أن الترجمات العربية لعبت أيضاً دورها فى أوروبا الوسيطة ، فأولى ترجمات المجسطى العربية إلى اللاتينية قام بها جيرارد الكريمنى منذ عام ١١٧٥^(٩٥) .

* هو الحجاج بن يوسف بن مطر الذى عاش فى عهد الرشيد والمأمون بين حوالى عام ١٧٠ هـ = ٧٨٦ و ٢٢٠ هـ = ٨٣٥ ، وهو مترجم أصول إقليدس فى الهندسة . (المترجم)

وكان بطليموس على الأصح فلكياً ورياضياً أكثر منه جغرافياً^(٩٦) ، ومن ثم فإن رسالته في الجغرافيا تمثل في جوهرها جداول فلكية لعروض وأطوال النقاط الرئيسية المسكونة في العالم . ويعتبرها أحد كبار البحاثة المعاصرين « مقدمة لوضع مصور جغرافي » وليست « بجغرافيا » وذلك وفقاً لمفهوم الجغرافيا الذي تطور فيما بعد . ووفقاً^{||} لرأيه فإن هدف بطليموس كان المعاونة في رسم صورة الأرض لا وصفها^(٩٧) . ويرجع الفضل في ظهور « جغرافيا » بطليموس في قالب عربي إلى المترجمين والفلكيين أيضاً ولكن اهتم بها اهتماماً جدياً كذلك ممثلو الجغرافيا الوصفية . أما تاريخ الرسالة في العالم العربي فنستطيع تتبعه بصورة أفضل بكثير عما هو الحال مع « المحسّطى » وذلك بفضل الترجمة العربية المصاحبة التي حفظت لنا والتي تم نشرها منذ زمن غير بعيد . ولكن حتى فيما يتعلق بهذا أيضاً يجب تكرار القول بأنه لا يزال يوجد عدد من النقاط الغامضة ، على الرغم من بحث هونيمان Honigmann الممتاز الذي ظهر عام ١٩٢٩ والذي بين فيه الخطوط الرئيسية لتاريخ هذه المسألة . وتذكر المصادر العربية ما لا يقل عن ثلاث ترجمات مختلفة لهذه الرسالة ، ترتبط جميعها بأسماء لامعة ؛ إحداها عملت للكندى (توفى حوالى عام ٢٦٠هـ = ٨٧٤) الفيلسوف المقرب من بلاط العباسيين ، أو ربما عملها بنفسه^(٩٨) ، والزعم الأخير موضع للشك خاصة إذا ما علمنا أن الترجمة وصفت بأنها « رديئة » . أما الترجمة الجيدة فهي من عمل ثابت بن قرة (توفى عام ٢٨٨هـ = ٩٠١)^(٩٩) ، وثمة ترجمة ثالثة يشير إليها ابن خردادبه (بين ٢٣٢هـ = ٨٤٦ و ٢٧٢هـ = ٨٨٥) وذلك في ألفاظ توحى بأنها من عمله هو . فهو يقول « فوجدت بطليموس قد أبان الحدود وأوضح الحجة في صفتها بلغة أعجمية فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة »^(١٠٠) . وكما دلل نولدكه Nöldeke^(١٠١) فإن الاتجاه الأدبي لابن خردادبه والمركز الذي كان يشغله في الإدارة يقف ضد الزعم القائل بأنه كان يستطيع الترجمة عن اليونانية أو السريانية ، ولعل الأمر يتعلق بتنقيح أسلوب الترجمة « الرديئة » التي مر القول عليها والتي عملت من أجل الكندى . أما ثابت بن قرة فهو من صابئة حرّان بالجزيرة وينتمى إلى مدرسة حرّان العلمية التي حفظت لنا التراث اليوناني بعناية أدق مما فعلت بغداد . ومن العسير القول بأنه ترجم رسالة بطليموس دون إحداث أى تغيير فيها ، بل المحتمل أنه قد أجرى تعديلات في النص ليكون أكثر قبولا وفائدة للعرب المعاصرين له^(١٠٢) . وجميع هذه الترجمات لرسالة بطليموس في الجغرافيا ترد بعناوين مختلفة مضطربة ، الأمر الذي يزيد في تعقيد المسألة^(١٠٣) . غير أنه لحسن الحظ وصلتنا ترجمة مصلحة معدلة لعلها من أقدم الترجمات وهي لأكبر رياضي وفلكي في النصف الأول من القرن التاسع هو محمد بن موسى الخوارزمي ، ويمكن اعتبارها^{||} في الوقت ذاته أول رسالة أصيلة في الجغرافيا الرياضية عند العرب وشاملة لجميع العالم المعروف لهم ، وسيرد الكلام عليها في حينه بالتفصيل .

ومما يزيد في تعقيد مسألة الترجمات العربية لبطليموس أن العرب باستثناء الأثرين اللذين مر ذكرهما ، قد عرفوا لبطليموس مصنفات أخرى . وطريقة الاقتباس دون الإشارة إلى المصادر أدت إلى خلق صورة

شديدة الاضطراب والخلط ، وقد قام هونغان بدور ما في تبديد بعض هذا الخلط . وثمة أهمية جوهرية بالنسبة لنا تمثلها تلك المصنفات التي ظهرت لها ترجمات مستقلة في العالم العربي ويمكن تتبع آثارها في مؤلفات الجغرافيين بالمعنى الواسع للفظ أى خارج دائرة الاختصاص الضيقة . وليس من المستطاع الجزم بانتماء جميع هذه المصنفات إلى الأدب الجغرافى ، مثال ذلك كتاب بطليموس فى التنجيم «كتاب الأربعة» Τετραβιβλος أو quadripartitum ^(١٠٤) الذى يحتوى على أربع مقالات فى تأثير النجوم على مصير العالم ، وهو بمثابة ذيل للمجسطى وترجع الترجمة الأولى له إلى عهد المنصور وتنسب إلى أبى يحيى ابن البطريق (توفى حوالى عام ٨٠٠) والد المترجم المشهور ^(١٠٥) ، وأخرى أحدث منها تنهى إلى العصر الذهبى فى خلافة المأمون ، ويقوم بدور المترجم حنين بن إسحق وثابت بن قره . كما وأن الكتاب قد شرح أكثر من مرة ^(١٠٦) ولكنه لم يطبع إلى الآن فى صورة تامة . وقد ضمن الجغرافى وعالم الآثار المشهور الهمدانى قطعة كبيرة منه فى «الجغرافيا التنجيمية» فى كتابه فى وصف جزيرة العرب ^(١٠٧) .

وقد اكتسب صينياً واسعاً ترجمة «الجداول الفلكية المبسطة» Πρόχειροι Κανόνες المستخرجة من «المجسطى» والتي ترتبط أحياناً «بجدول المدن الكبرى» ^(١٠٨) Επισήμιον ηόλεων κανόνες ؛ ولا تزال غير واضحة تماماً صلة هذه المصنفات ببعضها البعض حتى فى المحيط اليونانى . وكما وضح منذ عهد غير بعيد فإن المصنف الأخير يمثل كتاباً مستقلاً ^(١٠٩) ، بينما لا يرجع تأليف «الجداول الفلكية المبسطة» إلى بطليموس بقدر ما يرجع إلى ثاون Theon الشارح المشهور للقرن الرابع ^(١١٠) . ومهما يكن من شىء فإن هذه الجداول هى المسئولة بالذات عن ظهور ذلك المصنف الذى عرف فى العالم العربى باسم «زيج بطليموس» والذى لا علاقة له البتة بالمجسطى ^(١١١) . ويبدو أن معرفة العرب بهذا الزيج منذ عهد الرشيد 81 كانت عن طريق السريان ^(١١٢) ؛ وأغلب الظن أنه قد قام بدوره فى تثبيت لفظ «زيج» ^(١١٣) وانتشاره فى العالم الإسلامى بصورة نهائية ، بحيث استمر يتمتع بتداول واسع على مدى تاريخ الجغرافيا الرياضية عند العرب وبقي كذلك فى عهد ورثتهم الفرس والترك .

ولا تزال مستعصية على الحل مسألة أصل كتاب آخر تعزوه العرب دون أى مبرر إلى بطليموس وهو «كتاب الملحمة» ، ولا يقصد بالملحمة هنا المعركة بل «النبؤات» وذلك لعلاقته بالتنجيم ^(١١٤) . وهذا الكتاب هو المصدر الأساسى لياقوت فى معجمه الجغرافى دون جميع الزيجات الأخرى وعليه بنى تحديده لأطوال وعروض المدن واستخرج منه وقائع تنجيمية مختلفة ^(١١٥) . وقد بلغت استشهادات ياقوت به السبعين تقريباً ^(١١٦) ، جمعها هونغان بدرجة متفاوت قرباً وبعداً عن الكمال . والمقارنة التى أجراها بينه وبين بقية المصادر جعلته يفترض أنه على صلة ما بالترجمة «الردية» التى كانت تحت تصرف الكندى ^(١١٧) والمختلفة تمام الاختلاف عن الترجمة المصلحة للخوارزمى ^(١١٨) ؛ وهى كالأخيرة تضم عناصر بطليموسية وأخرى عربية . وليس من الممكن توضيح طبيعة العلاقة الزمنية بين «كتاب الملحمة» وكتاب

الخوارزمي ، وقد لوحظ أنه رغمًا عن الطابع التنجيمي الغالب عليه فهو يعطى أحياناً تحديدات عن بطلميوس أدق من تلك التي يعطيها الخوارزمي^(١١٩).

ويقصد ياقوت في معجمه « بكتاب الملحمة » مصنفًا معينًا يرتفع إلى تراث علمي ذي مفهوم مستقل . ويحيى استعمال الكلمة عادة في صيغة الجمع « كتاب (أو أبواب) الملحمة » ويقصد به في الأدب العربي التعبير عن جميع ضروب التنبؤات التي ازدهرت في العالم الإسلامي ، خاصة التنبؤات ذات الطابع الأخرى أى المتعلقة بالعالم الآخر والتي نشأت في محيط لا علاقة له البتة ببطلميوس . وهذه التنبؤات ظهرت في بادئ الأمر في مجموعة الأحاديث الصحيحة وفي أدب التريخ والتريخ ، وقد وجدت لها تربة صالحة في الدوائر الشيعية ولم يكن من النادر نسبتها إلى أئمتهم^(١٢٠) . والذي دفعنا إلى هذا الاستطراد من الحديث على الجغرافيا الرياضية إلى الحديث عن أدب الملحمة التوافق في التسمية وخوف الخلط مع

82 « كتاب الملحمة » المنسوب لبطلميوس .

وقد أدى التاريخ المعقد للترجمات العربية لبطلميوس إلى ضرب من الازدواج في الجغرافيا الرياضية العربية يرتبط باسمه ويقوم أساساً على سؤال مؤداه إلى أى مصدر بالذات ترتفع الرواية العلمية لهذه الترجمات ، هل إلى « المدخل إلى الجغرافيا » لبطلميوس أم إلى « الجداول المبسطة » لثاؤن ؟ ومما يزيد في غموض هذه الصورة ما علق بهذه المصادر من شوائب مختلفة . بيد أن كل ذلك لا يحول دون الاعتراف بالدور الرئيسى الذى لعبته مصنفات بطلميوس في تطوير الأدب الجغرافى العربى ، وقد اقترنت باسمه على الأقل ثلاثة مصنفات أخرى جرى تداولها في العالم العربى . فليس غريباً إذن إزاء هذا الاستيعاب الشامل للتراث اليونانى في ميدان الجغرافيا أن يتقهقر إلى الصف الثانى التأثير الهندى والإيرانى الذى كان سائداً من قبل .

غير أن الأمر لم يقف عند حد الاستيعاب الأدبى ، سواء بالترجمة أو التعديل ، بل تعداه إلى ما وراء ذلك . وقد كان البتاني مصيباً في قوله إن بطلميوس قد دعى إلى « الحنة والاعتبار بعده » . ففي هذا العصر بالذات بدأ العرب فعلاً يجمعون بين الاستيعاب النظرى للعلم اليونانى والتطبيق العملى لنظرياته في أبحاثهم المستقلة ، الأمر الذى تجاوزت أهميته نطاق عصرهم بكثير . فقد وصلوا إلى حساب خط منتصف النهار وضبطوا العروض والأطوال الجغرافية ووضعوا جداولهم الفلكية المستقلة على أساس المراجعة النقدية لنتائج السابقين لهم في هذا المضمار ، ورسوموا خرائط لا تقل جودة عن النماذج اليونانية . ويخلو وصفهم لهذه الخرائط من ذلك العنصر الأسطورى الذى دفعنا من قبل إلى التشكك في إمكان وجود خرائط إسلامية في العهد السابق لهذا .

وقد أحس العرب في أنفسهم النضج التام لإعادة تجربة اراتوستينيس Eratosthenes في تحديد مقاس درجة من خط منتصف النهار ، دفعهم إلى هذا جرأة معهودة لدى جميع ممثلى الحضارات

الفتية^(١٢١). وبغض النظر عن النتائج التي توصلوا إليها فإن المحاولة في حد ذاتها جديرة بالإكبار خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أنه لم تجر منذ أقدم العصور سوى ثلاث تجارب مستقلة لقياس الأرض – إحداها لإيراتوستينيس والثانية لبطلميوس والثالثة للعرب ، وأن جميع معلومات أوروبا الوسيطة في هذا الصدد إنما تعتمد عليها اعتماداً كلياً^(١٢٢). وقد اختيرت لهذا القياس المفازة الواقعة بين تدمر والرقعة على الفرات ووادي أرض الجزيرة قرب سنجار بين درجتى عرض 35° و 36° شمالاً^(١٢٣). وانقسمت اللجنة المكلفة بذلك العمل ، وذلك بعد اجتماعها في النقطة المركزية ، إلى فرقتين اتجهت إحداها جنوباً على خط منتصف النهار على بعد درجة واحدة ، بينما اتجهت الفرقة الأخرى على نفس المسافة ولكن صوب الشمال . ثم رجعتا إلى نقطة البداية وأجروا مقارنة بين النتائج التي توصلوا إليها ثم استخلصوا النتيجة النهائية . وقد أجريت هذه التجربة عام ٨٢٧ واتسمت الروايات عنها بطابع يسوده الاضطراب من ناحية | 83 والخيال من ناحية أخرى . ويروى ابن يونس ، وهو من فلاكي أواخر القرن العاشر ، أن إحدى الفرقتين قد حددت مقاس الدرجة بسبعة وخمسين ميلاً بينما حددته الأخرى بستة وخمسين ميلاً وربع الميل ، وأنه حين عرضت النتائج على المأمون أخذ بالرقم المتوسط وهو ستة وخمسون ميلاً وثلاثاً الميل^(١٢٤). وأغلب الظن أن هذه التفاصيل لا تخلو من العنصر القصصى ، ولكن تجدر بنا الإشارة إلى أن بعض الفلكيين ممن كانوا على علم بطريقة القياس هذه قد توصلوا إلى نتائج مكنت العلم المعاصر من حساب المعادل المترى (Metric Concordance) لمقاسات المأمون . هذا وعقب المحاولة الفاشلة لجوردان Jordan في أواخر الثمانينيات من القرن السابق وذلك اعتماداً على الترجمات اللاتينية للمصنفات العربية ، أجرى المستعرب نالينو Nallino في عام ١٨٩٢ فحصاً عميقاً لجميع الروايات المختلفة عن المقاييس العربية لخط منتصف النهار بدقة فائقة حتى أن عالم الرياضيات شوى Schoy لم يأخذ عليه في عام ١٩٢٧ سوى فروق ضئيلة^(١٢٥) . وقد وضح من هذه القياسات أن الميل العربي كان يساوى أربعة آلاف ما يسمى « بالذراع السوداء » التي ارتبطت باسمها كما هو الشأن دائماً أسطورة ما . وهذه الذراع السوداء كانت أقل من نصف المتر قليلاً (٤٩٣٣ مترًا لدى نالينو و٤٩٣٢ مترًا لدى شوى)^(١٢٦). وقد نشأ الخطأ في حساب العلماء السابقين لهما من اتخاذهم ذراع « مقياس النيل » Nilometer المشهور بالقاهرة كوحدة للقياس . وهو يتجاوز نصف المتر بقليل (٥٤٠ مترًا لدى شوى)^(١٢٧) ولذا فإن الميل العربي المستعمل هنا يقرب طوله من كيلومترين (١٩٧٣ مترًا عند نالينو أو ١٩٧٢ مترًا عند شوى)^(١٢٨) . ودرجة خط منتصف النهار مقدارها عند نالينو ٦٧ر١١٨١٤ مترًا^(١٢٩) وعند شوى ٩ر١١٧٢٠ مترًا^(١٣٠). فإذا عرفنا أن أكثر المقاسات انتشاراً في القرن التاسع عشر وهو مقاس بيسيل Bessel قد قدر الدرجة بمقدار ١١٠٩٣٨ مترًا^(١٣١) ظهر لنا جلياً أن الخطأ في مقياس العرب يقل عن الكيلومتر ، مما يمكن أن نرجعه في يسر إلى النقص في الأجهزة المستعملة في القرن التاسع . إن هذه المحاولة الجريئة لمقاس الأرض تقف في حد ذاتها دليلاً

على ما بلغته الحضارة العربية من تقدم علمي كبير وسريع الخطى ، مما جعلها تحتل بحق مكانة مرموقة في تاريخ الجغرافيا والرياضيات (١٣٢). ومما يؤكد الأهمية التاريخية لهذا الحادث أن القياس التالي للأرض بعد 84 العرب لم يتم إلا في أوائل القرنين السادس عشر والسابع عشر (فرنل Fernel وسنليوس Snellius) (١٣٣).

كان الحساب المأموني لدرجة خط منتصف النهار أصبح القياسات لعهد وأعمها انتشاراً ، غير أن العرب عرفت أيضاً غيره من القياسات وصلتهم عن اليونان والسراني واستمر بعض العلماء يستعملها من حين لآخر . ويمكن أن يرد أصل هذه الحسابات إلى أن علماء السرياني والعرب لم تكن لديهم فكرة واضحة عن حقيقة المقاييس التي استعملها اليونان عند إجراء تلك القياسات وخير مثال لهذا هو حساب بطليموس للدرجة بمقدار ستة وستين ميلا وثلاثي الميل (١٣٤) ، وذلك على أساس القياسات التي أجريت في أرض الجزيرة بين حران وآمد والتي يتحدث عنها ياقوت في مقدمة معجمه الجغرافي (١٣٥). وقد كان تحديد الدرجة بمقدار خمسة وسبعين ميلا (١٣٦) ، وهو التحديد الذي أخذ غالباً عن السرياني ، أقل دقة واستعمالاً من سابقه رغماً من أنه ظهر في عدد من المؤلفات الجغرافية ووجد عند فلكي كبير كالبتاني (١٣٧) . هذا وقد ارتبطت مقاسات الطول المستعملة في الحياة اليومية بالقياس الأول ، وإذا حدث وان تراوحت مقاسات الذراع نظراً لتعدد أنواعه فإن الميل قد استمر ثابتاً ، على الأقل في المعاملات الرسمية (١٣٨) ؛ كما استمر ثابتاً أيضاً الفرسنج وهو يساوي ثلاثة أميال ، أي ستة كيلومترات بالتقريب (١٣٩) .

ويفضل الترجمات اللاتينية للمصنفات العربية وجد طريقه إلى أوروبا التحديد المأموني للدرجة بستة وخمسين ميلا وثلاثي الميل . ونتيجة لذلك فقد تكرر ما وقع للسرياني والعرب مع اليونان ، ذلك أن العلماء الأوروبيين للقرنين الرابع عشر والخامس عشر لم يلتفتوا إلى الاختلاف بين الأميال العربية وأمياهم ، الأمر الذي نشأت عنه أخطاء جسيمة أعان أحدها على اكتشاف كولومبس للأميركا ، فهو قد احتسب الدرجة بمقدار ستة وخمسين ميلا إيطالياً وثلاثي الميل ، في حين كان الميل الإيطالي في واقع الأمر يقل عن الميل العربي بمقدار ثلاثمائة وأربعة وثمانين متراً . وعلى ذلك فالدرجة الواحدة في حساب كولومبس تقل بمقدار اثنين وعشرين كيلومتراً عن الدرجة العربية ، وبالتالي كان تقدير المسافة بين سواحل أوروبا الغربية وسواحل آسيا الشرقية أقل بكثير عن الواقع ، ولعل كولومبس لو علم بحقيقة الأمر منذ البداية لما أقدم على ركوب المحيط على سفنه الصغيرة التي لم يكن بوسعها حمل المؤن اللازمة لمثل هذه المهمة (١٤٠) .

وحساب درجة نصف النهار لا يعتبر الحدث الأهم لعصر المأمون ، ولكن يمكن اعتباره حدثاً 85 فريداً فقط ، إذ أن النشاط سار قدماً ونحطى منتظمة في محيط الفلك والجغرافيا الرياضية . ففي خلافة المأمون تم إنشاء مرصدين أحدهما ببغداد بحى الشماسية والآخر على جبل قاسيون عند دمشق ؛ وقد تركز مجهود المرصدين في تحقيق جميع معطيات المحسطة تحقيقاً علمياً (١٤١) ، وساق هذا إلى تحديد الموقع الجغرافي

لجميع النقاط الهامة من جديد . أما فيما يتعلق بخط نصف النهار الابتدائي فإن الآراء كما أسلفنا لم تتفق على نقطة واحدة ، فالفلكيون العرب بدأوا حسابهم إما على نمط اليونان ابتداء من أقصى الغرب متجهين صوب الشرق إلى درجة 180° من « المعمورة » ، أو قاسوا 90° درجة إلى الشرق وإلى الغرب من خط منتصف النهار المركزي الذي يمتد « قبة الأرين » في مركز الأرض على خط الاستواء^(١٤٢). بيد أن هذا لم يمنعهم من بلوغ درجة عالية من الدقة في حسابهم مما يمكن استنباطه من بعض الأمثلة . فالفلكيون أبناء موسى بن شاكر قد قاسوا عرض محلة باب الطاق ببغداد بثلاث وثلاثين درجة وعشرين دقيقة شمالاً ، وهو ما ينطبق تماماً على واقع الحال . كما ضبط الماهاني (توفي حوالي ٢٦٠ هـ = ٨٧٤ - ٢٧٠ هـ = ٨٨٤) عرض مدينة سامرا بأربع وثلاثين درجة واثني عشر دقيقة شمالاً ، بينما يشير التحديد المعاصر لأوبنهم Oppenheim إلى 34° درجة و ١١ دقيقة و ٥٠ ثانية شمالاً^(١٤٣). أما البيروني فإنه قاس فرق الطول بين بغداد وغزنة في 24° درجة و ٢٠ دقيقة وذلك بطريقة تنم عن ذكاء وافر توصل إليها بنفسه ، هذا بينما أثبتت الملاحظة المعاصرة أن الفرق يبلغ 23° درجة و ٥٠ دقيقة^(١٤٤) . ومما يقدم مثالا طريفاً للتصحيحات التي أجراها العرب في قياسات الأطوال التي أخذت قبلهم هو اختزالهم التدريجي لطول البحر الأبيض المتوسط ، فاليونان وفقاً لبطلميوس قدروا طولها باثنين وستين درجة ، اختزلها محمد الخوارزمي إلى 52° درجة وتلاه الزرقالي في « جداول طليطلة »^(١٤٥) فاخترها إلى 42° درجة أي ما يعادل طولها الحقيقي بالتقريب^(١٤٦). وقد استمر هذا التراث في حفظ الحساب الدقيق إلى نهاية عصر الابتداء العلمي « العربي » في الشرق ، فالوغي بيك يحدد عرض مرصده بسمرقند في 39° درجة و ٣٧ دقيقة شمالاً ، صححها الفلكي الروسي استروفه Struve إلى 39° درجة ، و ٢٨ دقيقة و ٥٠ ثانية أي بفرق يقل عن دقيقة^(١٤٧) .

وتقرير فلكي عصر المأمون في تحديد المواقع الجغرافية يرجع أساساً إلى الأرصاد التي أجريت ببغداد عام ٢١٤ هـ = ٨٢٩ وبدمشق عام ٢١٧ هـ = ٨٣٢^(١٤٨) ، ويعرف هذا التقرير باسم « الزيج المأموني الممتحن » وهو وإن لم يصلنا في صورته الأصلية إلا أن أثره كان بليغاً كما يتضح من المصنفات الماثلة لمعاصريه الخوارزمي والفرغاني . ومن الطريف ملاحظة أنه لا يخلو من رد فعل معين ضد التأثير المطلق⁸⁶ للعلم اليوناني ، فهو خلو تماماً من أية أسماء من أسماء العالم الكلاسيكي كما وأن القليل من الأسماء الأعجمية الواردة فيه إنما يرتفع إلى مصدر سرياني^(١٤٩). والمادة الرئيسية للحكم على « الزيج المأموني » تستقي أساساً من الرسالة الشهيرة لأحمد بن محمد بن كثير الفرغاني « كتاب الحركات السماوية وجوامع علم النجوم » - وهي واحدة من أولى المصنفات العربية في الفلك وتكاد تكون أكثرها شهرة في أوروبا الوسيطة . ورغم أن هذا فإن اضطراباً بالغاً يسود المعلومات عن المؤلف ، ولم يقتصر هذا على الجهل بتاريخ وفاته بل تعداه إلى أنه لم يتضح حتى الآن هل يقصد بهذا الاسم شخص واحد أم شخصان مختلفان ، وأيهما

يرتبط باسمه لإصلاح مقياس النيل . والأمر الذى لا يتطرق إليه الشك هو أن الفرغانى قد عاش فى النصف الأول من القرن التاسع وأن آخر ذكر له يرجع إلى عام ٢٤٧ هـ = ٦٦١ (١٥٠). وفى رسالته هذه يعطى الفرغانى موجزاً للمبادئ الأولية فى النلك معتمداً على النظرية اليونانية فى الأساس ، دون أن يورد أية قواعد هندسية معقدة . ويهمنى فى هذا الصدد أنه أرفق برسالته هذه جدولاً يبين الأماكن الهامة موزعة وفقاً للأقاليم السبعة من الشرق إلى الغرب مع تحديد مواقعها الجغرافية ؛ وهذا الجدول كما أثبت البحث يمثل اقتباساً للفصول الخاصة بذلك فى « الزيج المأمونى » مما يسهل الحكم على الأخير إلى حد ما (١٥١) . وبفضل الفرغانى أخذ الغرب فكرة مبكرة عن « الزيج المأمونى » فقد ترجمت رسالة الفرغانى مرتين إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، كما ترجمت فى القرن الثالث عشر إلى لغات أوروبية أخرى ، وقد تمتعت بانتشار واسع وكانت معروفة جيداً لدانتي (١٥٢) ، وتعتبر الترجمة اللاتينية التى طبعت بفرارا Ferrara عام ١٤٩٣ من أوائل ما عرفه فن الطباعة فى أوروبا (١٥٣) . وفضلاً عن ذلك فإن الفرغانى يعتبر أول فلكي عربى تعرف عليه العالم الأوروبى فى متنه الأصلى وذلك بفضل الطبعة الممتازة بالنسبة لعصرها والترجمة اللاتينية الجديدة للمستعرب والرياضى الهولندى يعقوب غوليوس Jacob Golius فى عام ١٦٦٩ . هذا وقد استمر صيته حياً فى أوروبا كنجم إلى القرن الثامن عشر .

وإلى جانب « الزيج المأمونى » والترجمات العديدة المعدلة لمصنفات بطليموس يقدم لنا هذا العصر المبكر لازدهار العلوم العربية أثراً ممتازاً من الآثار الجغرافية هو ما يسمى « الصورة (أى الخارطة) المأمونية » ؛ وبالطبع لم تحفظ لنا منها آثار أو بقايا مباشرة . غير أنه فى الوقت الذى أحاط بذكر | 87 خارطات العصر الأموى من حين لآخر أساطير وخرافات لا تستند على أساس من الواقع فإن معلوماتنا عن خارطة المأمون صحيحة بدرجة تسمح لنا بتكوين فكرة ما عنها ، وهى ترتبط كما هو متوقع بخارطات بطليموس وبخارطات مارينوس الصورى التى لم تصل إلينا . وقد رأى كل هذا بعينى رأسه المسعودى فى القرن العاشر ووصفه فى مصنفه الأخير الذى يعرض فيه بعض الشئ لنشاط حياته العام ، فقال : « ورأيت هذه الأقاليم مصورة فى غير كتاب بأنواع الأصباغ وأحسن ما رأيت من ذلك فى كتاب جغرافيا لمارينوس وتفسير جغرافيا قطع الأرض (١٥٤) وفى الصورة المأمونية التى عملت للمأمون واجتمع على صنعها عدة من حكماء أهل عصره صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك وهى أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرهما » (١٥٥) .

ومن العسير علينا بالطبع استكناه الطريقة الفنية التى اتبعت فى عمل الخارطة المأمونية ، ولكن هناك ما يحملنا على الافتراض بأنها تتلخص فى مصور جغرافى موضحة عليه « أسماء الأقطار والمدن المعروفة فى كل إقليم » طبقاً للتسم المائل من « زيج المأمون » . وفيها تم نهائياً استبدال الأسماء الكلاسيكية بأسماء عربية ،

غير أن حدود « المعمورة » والأقاليم قد حفظت لنا على الطريقة اليونانية ، أما الأطوال فقد حسبت على ما يبدو على أساس المذهب الإيراني ابتداء من المشرق كرد فعل ضد الاتجاه الغربي للعلم ، وأربما كان ذلك أكثر ملاءمة لطريقة الكتابة العربية من اليمين إلى اليسار^(١٥٦) . وبالطبع فإن إعادة تصوير هذه الخارطة بخدافيرها أمر مستحيل^(١٥٧) بالرغم من أن بعض الفلكيين قد أفادوا منها بطريقة منتظمة وحفظوا لنا مجموعة من الحقائق عنها^(١٥٨) ؛ ولا يزال الكثير من الغموض يكتنف طبيعة الأسس التي رسمت عليها . وبالرغم من أن المسعودي يؤكد أن الأرض قد صورت فيها وفقاً لمذهب بطليموس إلا أن الزهري الجغرافي الأندلسي للقرن السادس — إذا صح ما زعمه في مقدمة مصنفه « كتاب الجغرافيا »^(١٥٩) من أنه قد رأى الخارطة المأمونية — يعطى وصفاً مغايراً تمام المغيرة . وطبقاً لما جاء في قوله فقد كانت مقسمة إلى سبعة أقاليم ستة منها تحيط بالسابع الموجود في الوسط . وهذه الطريقة أكثر مطابقة للتقسيم الإيراني للأرض إلى كشورات كما وصفه البيروني في « كتاب التفهيم »^(١٦٠) ؛ وإذا ما أخذنا في حسابنا الميول 88 الإيرانية للمأمون وللدوائر المحيطة به فيجب ألا يدهشنا هذا في شيء . بيد أن أقوال الزهري تقف فريدة في بابها بشكل يمنعنا من تغليبها على إجماع الآراء في الجانب الآخر . وثمة نقطة لا يرقى الشك إليها وهي أن فكرة صنع خارطة للعالم من أجل المأمون لم تخل من تأثير فكرة اعتبارها رمزاً للسيادة العالمية وذلك على نهج إيران القديمة ، فقد حفظت روايات عديدة عن آثار مماثلة عملت من قبل للأكاسرة الساسانيين . وقد اعتبر كبار الحكام هذا وفقاً عليهم وحدهم لا يشاركونهم فيه أحد ، كما سنرى من مثال السامانيين بخراسان والنورمان بصقلية^(١٦١) .

ومهما كانت طبيعة الحل الذي سنجده للمشكلة المتعلقة بخارطة المأمون فإنه يمكن القول على أية حال وبدرجة كبيرة من اليقين أن فن الكارتوغرافيا (أى رسم المصورات الجغرافية) العربي قد ارتبط منذ البداية باسم بطليموس بنفس القدر الذي ارتبطت به الجغرافيا الرياضية . وقد حفظ لنا العرب وورثهم ذكرى بطليموس إلى نهاية العصور الوسطى حفظاً فاق بكثير ما فعلته أوروبا الوسيطة في هذا المضمار رغماً من أنها تدّين له بالكثير أيضاً . وقد نسيت خارطته تماماً في الغرب وكانت خارطة الإدريسي حوالى عام ١١٥٤ هى الأثر الوحيد الهام في الكارتوغرافيا الأوروبية قبل القرن الرابع عشر الذى يتمثل فيه التراث البطليموسى^(١٦٢) . وعرف كتابه المجسطى جيداً في أوروبا منذ القرن الثانى عشر وذلك بفضل الترجمة اللاتينية المنقولة عن العربية^(١٦٣) ، ولكن « جغرافيا » لم يكتشف في أوروبا للمرة الأولى إلا في بداية القرن الخامس عشر^(١٦٤) . ومن الطريف ملاحظة أنه يمكن تحديد تاريخ الكشف عن « جغرافيا » بطليموس بالكثير من الدقة ؛ فبطرس الآيى المار ذكره والذى يرجع الفضل إلى كتابه « صورة العالم » في اطلاع كولومبس على نظريات العرب في الأرين ، قد استعمل عند تأليفه له حوالى عام ١٤١٠ كتاب « المجسطى » وحده ، ولم يكن له أدنى علم بكتاب « جغرافيا » لبطليموس^(١٦٥) . ولكن لا نلبث أن نراه

بعد ثلاثة أعوام فقط من ذلك يضع كتابه « الجامع في الجغرافيا » *Compendium Geographiae* ويلخص فيه « جغرافيا » بطلميوس ؛ ثم طبع الأخير بأجمعه في ترجمة لاتينية في عام ١٤٧٨ (١٦٦). وفي تلك الآونة بالذات عملت له ترجمتان جديدتان من اليونانية إلى العربية (١٦٧) في الدولة العثمانية في عهد محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١) نشرهما بالقاهرة (١٩٢٩) في طبعة مصورة (facsimile) الأمير يوسف كمال (١٦٨) ، المعروف بنشره لعدد من الآثار الجغرافية . وفي بداية القرن السادس عشر عندما رسم الملاحة التركي پيرى ريس خارطة العالم معتمداً على أربع عشرة خارطة كانت موجودة تحت تصرفه ، وُجد من بينها ثمانى خارطات بطلميوسية (١٦٩) ؛ وهذا المثال يقدم صورة حية للأوضاع الثقافية في تلك الحقبة التي بدأت فيها السيادة تتحول من الشرق إلى الغرب . وقد أتم الأتراك ما بدأت به العرب في مضمار الجغرافيا وعرضوا خلاصة ما قام به أسلافهم في هذا الميدان . أما بطلميوس ومترجموه العرب فقد قدرهم الأتراك حق قدرهم ولكن الأمر الذى يلفت النظر حقاً هو أن تصوراتهم للجغرافيا كعلم لم يختلف كثيراً عما كان عليه الوضع أيام المأمون . ولا يخلو من الفائدة والتوجيه في هذا الصدد تلك الخلاصة التي يقدمها لنا في القرن السادس عشر حاجى خليفة في سفره الضخم في أسماء المؤلفين والكتب « كشف الظنون » ، ذلكم المرجع القيم الذى سرجع إليه أكثر من مرة في المسائل المتعلقة بالأدب الجغرافى . ففي تعريفه لعلم الجغرافيا كتب حاجى خليفة يقول :

« علم جغرافيا . وهى كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض ويقال جغراويا بالواو على الأصل وهو علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض وعروض البلدان الواقعة فيها وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها إلى غير ذلك من أحوال الربع كذا في مفتاح السعادة (١٧٠) . قال الشيخ داود (١٧١) في تذكرته جغرافيا علم بأحوال الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار وما يختلف حال السكان باختلافه انتهى . وهو الصواب لشموله على غير السبعة وجغرافيا عكسهم لم ينقل له في العربية لفظ مخصوص وأول من صنف فيه بطلميوس القلوذى فإنه صنف كتابه المعروف بجغرافيا أيضاً بعد ما صنف المحسطنى وذكر أن عدد المدن أربعة آلاف وخمسمائة وثلاثون مدينة في عصره وسماها مدينة مدينة وأن عدد جبال الدنيا مائتا جبل ونيّف وذكر مقدارها وما فيها من المعادن والجواهر وذكر البحار أيضاً وما فيها من الجزائر والحيوانات وخواصها وذكر أقطار الأرض وما فيها من الخلائق على صورهم وأخلاقهم وما يأكلون وما يشربون وما في كل سقع مما ليس في الآخر غيره من الأرزاق والتحف والأمتعة فصار أصلاً يرجع إليه من صنف بعده ولكن اندرس كثير مما ذكره وتغير أسماؤه وخبره فانسد باب الانتفاع منه . وقد عربوه في عهد المأمون ولم يوجد الآن تعريبه » (١٧٢) .

إن ألفاظ حاجى خليفة هذه لتدل على إدراكه العميق للأهمية الكبرى لآثار بطلميوس في تاريخ الجغرافيا العربية طوال المدة ما بين القرنين الثامن والسابع عشر . ويمكننا أن نقرر بيقين تام أن التراث

اليوناني كان ذا أثر جوهري في ابتداء الجغرافيا الرياضية عند العرب ولكنه كما أبصرنا لم يطرد التراث الهندي الإيراني نهائياً . بل إن التجديد المأموني بنتائج الفذة يجب اعتباره إلى حد ما رد فعل ضد السيادة المطلقة للنموذج اليوناني . وعلى العموم فقد عرفت الجغرافيا العربية على الدوام ازدواجاً معيناً نشأ من غلبة أحد مصنفين على الآخر ، إما « المدخل إلى الجغرافيا » لبطلميوس ، أو « الجداول المبسطة » المنسوبة إليه ، والتي يرجح أنها من عمل ثاون . ويتمثل هذا الازدواج بوضوح كبير في الاختلاف الذي يمكن ملاحظته بين « الجداول المأمونية » ، التي يمكن أن يضم إليها رسالة الفرغاني وبين « صورة الأرض » للخوارزمي (١٧٣) . وإذا أمكن القول بأن التأثير اليوناني على الجغرافيا العربية هو المسئول عن ظهور أربعة آثار فذة في الفترة الأولى من تاريخ ذلك العلم عند العرب ، وهي « خارطة المأمون » و« كتاب الملحمة » المنحول و« صورة الأرض » للخوارزمي وترجمة « جغرافيا » من عمل ثابت بن قرة ، فإن الأول من بينها فقط هو الذي يطابق في جوهرة « الجداول المبسطة » لثاون ، بينما ترجع الثلاثة الباقية بأكملها إلى جغرافيا لبطلميوس في ترجمتها السابقة للترجمة العربية ، ومع تغيرات جوهريّة في مضمون الكتاب وتبويبه على ما يلوح . أما في كتاب الملحمة فنلمس محاولة للتوفيق بين العناصر البطلميوسية والعربية (١٧٤) ، كما نلمس في « صورة الأرض » محاولة للتوفيق بين خارطة المأمون وخارطات لبطلميوس (١٧٥) .

هذا وسيبقى أبداً عدد كبير من مسائل تاريخ الفترة الأولى للجغرافيا العلمية عند العرب غامضاً بالنسبة لنا ، ذلك أن الآثار العربية الأولى في هذا الميدان لم تصلنا ولا يمكن الحكم عليها إلا من خلال الاقتباسات المضطربة والإشارات العابرة التي قام بها علماء لم يكن بمقدورهم أن يعملوا حساباً لمطالب العصر الحديث . وهذا بدوره يدفعنا إلى الإمعان في تقديرنا للأثر الوحيد الذي خلفه لنا هذا العصر ، أعني الترجمة المصلحة للجغرافيا لبطلميوس لمحمد الخوارزمي التي يمكن اعتبارها أول مصنف عربي في الجغرافيا نعرفه معرفة مباشرة .

خوإشى الفصل الثأنى

(١) (أضيفت إلى الفصل الثأنى المكأوب بالآلة الكأآبة الألفاظ الآآية :

. « الكأمة الآى أقمت بها مأأصرق الآى ألقآتها بأألمعية أأفأرافية لأأأأ السوفآى فى ٢٣ آونآو ١٩٤٠ » :

« أأأو أن أوصأ سلفاً أن أهه المأأصرة عن بءاية أأفأافا الرأأأية عند العرب لا أأأل بأأاً قائماً بذآته ، فهى فصل من مؤأف أضأ فى أأرآأ الأأب أأفأافى العربى . وقء أأأمت المأءة لءى بأأرآأ على شكل أروس ألقآتها على طلبة أألمعة ابتءاءاً من عام ١٩١٠ . كأنت أأأل فى بءآتها ملاحظأ ذآ طأبع عام أأألق بمصنفأ المؤلفآن الآى أأرأ نصوصاً مأأارة منها فى البرنامأ الأراسى . وشآئاً فشآئاً أأأمت لءى مذكأرأ فى أأرآأ الأأب أأفأافى العربى أأآها على أأمأق أأأر من مرة بآن عامى ١٩١٠ ، ١٩٣٦ .

« وقء عأألت الموضوع كففأو لوبى فأأملت أهق بآأى ذى بءء أن أعرض للأأب أأفأافى من أأر أن أأأول الأأرآأ لعلم أأفأافا عند العرب أولأأرآأ الاستكشأفأ أأفأافية العربى ، بآء أن أأأع أهه المآآآن أأرآأ ببعضها البعض أأأاطاً وثآقاً أأأل من العبأ مأأولة وضع فوأصل اصطناعىة بآئها . أأر أن الأساس الذى اعأمت علىه هو عرض مآ أسمى بأأفأافا الوصفىة والأرأأل ، وفقط عنءما استكملت المأأأصرأ فى شكل كأأأ أأأأمت فى أأر الأمر بضرورة العناىة بأأفأافا الرأأأية الآى لم أأأم لها فى أول الأمر . وهذآ نشأ لءى فصلأن أأآآآن لا أأء من نفسى المأءرة أأأمة لمعأأتهما ؛ أأءها أأرآء أن أقرأه علىكم الآوم فى هذآ الوسط العلمى أأى أأون على أأقة بأننى لم أأرأأب هفوأ كبرىة » .

(٢) نأالآنو ، الفلك ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ (= Racc., p. 29)

— Ruska, GZ, p. 521

(٣) الطبرى فى كأأب :

— Nöldeke, Geschichte des Perser, p. 85-86, 304-305

Christensen, p. 391

(٤) نأالآنو ، الفلك ، ص ١٤٤ - ١٤٥ (= Racc., p. 200)

(٥) نأالآنو ، الفلك ، ص ١٤٤ - ١٤٧ (= Racc., p. 199-202)

Massignon, Nawbakhti, p. 958-959

(٦) أأرأه

(٧) نأالآنو ، الفلك ، ص ١٤٦ - ١٤٧ (= Racc., p. 201-202)

Brockelmann, GAL, I, p. 249, No. Ia; SB,I,p. 391-392, No. Ic —

عن أور مؤلفأ مآ أأاء الله فى أوروبأ الوسىطة أأأع مأأأل : Shangin

Catalogus, T. XII, p. 210-216 ;

«the seven springs», p. 235-242 ;

Epistola Messallah, p. 707-718.

— Eberman, p. 61

(٨)

— Clark, p. 366 ; (= Racc., p. 203).

(٩) أأأع نأالآنو ، الفلك ، ص ١٤٩ :

- Nallino, Sun, Moon & stars; p. 95 (١٠)
- Nallino, El, p. 517 (١١)
- (= Racc, p. 204-205) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٠ - ١٥١ (١٢)
- Nallino, El, I, p. 517 : " auf demselben Längengrad in (١٣)
Konjunktion"
- (= Racc., p, 205) نالينو ، الفلك ، ص ١٥١ (١٤)
- (١٤) دانقي ، الجحيم ، الجزء الأول
- (= Racc , p. 205, not 2) (١٥) ابن قتيبة ، ص ٥٤ . راجع : نالينو ، الفلك ، ص ١٥١ الحاشية هـ
- Plessner, Tarikh ,p. 247 (١٦)
- (= Racc. p. 209-214) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٦ - ١٦٢ (١٧)
- Brockelmann, GAL, SBI. p. 391, No Ia
- (= Racc', p. 204) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٠ (١٨)
- Nallino, Sun, Moon & Stars, p. 95
- (= Racc. p. 213-214) نالينو ، الفلك ، ص ١٦٢ - ١٦٣ (١٩)
- Barbier de Meynard, Al-Maḡoudi, IV, b. 37-40 (٢٠)
- Kramers, El, EB, p. 63 (٢١)
- (= Racc., p. 212) نالينو ، الفلك ، ص ١٦٠ (٢٢)
- Sarton, Introduction, I, p. 530-531 نالينو ، الفلك ، ص ١٤٧ - ١٤٨ (٢٣)
- (= Racc., p. 202-203)
- Sarton, Introduction, I, p. 530 (٢٤)
- Nallino Sun, Moon & Stars, p. 59 (٢٥)
- (= Racc., p. 215-223) نالينو ، الفلك ، ص ١٦٤ - ١٧٣ (٢٦)
- (= Racc., p. 204, 223-224) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٠ ، ١٧٤ (٢٧)
- (= Racc., p. 224) نالينو ، الفلك ، ص ١٧٤ - ١٧٥ (٢٨)
- Nallino, Sun, Moon & Stars, p. 95 (٢٩)
- (= Racc., p. 225) نالينو ، الفلك ، ص : ١٧٥ (٣٠)
- (= Racc., p. 225-226) نالينو الفلك ، ص ١٧٦ - ١٧٧ (٣١)
- Reinaud, Introduction, p CCCXXXV - CCLY. (٣٢)
- يقدم مينورسكي Minorsky تحليلاً وافياً لجميع الآراء المعاصرة حول هذه المسألة :
- Hudud, p. 188-190, No 13; p. 245-246, No 18-24, p. 335-336, No 60
- Kramers, Legacy, p. 93 (٣٣)
- Nallino, Al-Battani, p. 165 (٣٤)

- (٣٥) شرحه
- (٣٦) يوجد تحليل عميق للمادة في هذا الموضوع على أساس نظرية الخرق لدى :
- Ferrand, Notes, 202, p 17 20
- (= Racc., p. 208, note 3) (٣٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٤ - ١٥٥ ، ملاحظة ٤
وعلى بن محمد الجرجاني ، ص ١٦
- D. H. Müller, Al-Hamadani, I, p. 44-46 (٣٨)
- (= Racc. p. 213) (٣٩) ذكره لدى : نالينو ، الفلك ، ص ١٦٢
- Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 139-140 وتحليله لدى :
- Honigmann, p. 122, note 2 — Hudud, p. 188 190, No 13 (٤٠)
- Ferrand, Relations, II, p. 612, note 4 = Same, Notes, p 8, note 2 (٤١)
- (= Racc., p. 234) (٤٢) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٧ - ١٨٨
- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 140, note 3 (٤٣)
- J. K. Wright, Notes, p. 95 (٤٤)
- Beazley, I, p. 403-404 (٤٥)
- Kramers, Legacy, p. 93-94 (٤٦)
- Taylor, p. 65-67 (٤٧)
- Newton, p. 13 (٤٨)
- Kimble, p. 208-212 (٤٩) شرحه ص ١٤ - ١٥
- Newton, p. 14 (٥٠)
- Kramers, Legacy p. 94; — photo and Translation : Newton, Frontispiece (٥١)
- Newton, p. 15 — Kimble, p. 218 — Sarton, Introduction, II, p 958 — (٥٢)
J. K. Wright, Geogr Lore p. 459-460, No 2 — Kretschmer, p. 259 260
- Newton, p. 16-18 — Beazly, I, p. 405 (٥٣)
- Kimble p. 184, 243-244 (٥٤)
- Kimble, p 184 — Wensinck, Tree, p. 5 (٥٥)
- Reinaud, Introduction, p. CCXXXV (٥٦)
- (= Racc., p. 120) (٥٧) نالينو ، الفلك ، ص ٤٢
- Honigmann Die sieben Klimata, p. 117
- Schoy, Kibla, p. 1061 (٥٨)
- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 117-118 (٥٩)
- Kramers El, EB, p. 64 (٦٠)
- (٦١) الفرغاني ، ص ٣٢

- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 112 (٦٢)
 (= Racc., p. 233) ص ١٨٥ - ١٨٦ (٦٣) نالينو ، الفلك ،
 Nallino, Sun, Moon and Stars, p. 95 — (= Racc. p. 252) ص ٢١٠
 — Honigmann Die sieben Klimata, p. 117-118 (٦٤)
 (= Racc., p. 229.233) ص ١٨١ - ١٨٦ (٦٥) نالينو ، الفلك ،
 Nallino, Sun, Moon and Stars, 95 (Racc., p. 233) ص ١٨٥ (٦٦) نالينو ، الفلك ،
 (= Racc., p. 235) ص ١٨٧ (٦٧) نالينو ، الفلك ،
 (= Racc., p. 235) ص ١٨٨ (٦٨) نالينو ، الفلك ،
 — Reinaud, Introduction p. LIV - LV - Brockelmann, GAL, I, p. 221 — 222, (٦٩)
 No 6; SBI, p. 394-395 — Brockelmann GAL 2, I, p. 250-251 — Suter, Abu
 Mashar, p. 105-106 — Sarton, Introduction, I, p. 568-569 — Shengin,
 Grecheskii Perevod Abu Mashara, No 10-11, p. 907-916
 (٧٠) ياقوت ، الإرشاد الجزء الخامس ، ص ٤٦٧ .
 (٧١) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٧ - ١٨٨ (= Racc., p. 229- 235)
 (٧٢) حاجي خليفة ، الجزء الثالث ، ص ٥٥٨ - ٥٥٩
 — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 141 (٧٣)
 — Sarton, Introduction, II, 173 (٧٤)
 — J. K. Wright, Geogr, Lore, p. 82 (٧٥)
 R. Wright, p. 13-14 عن الأدوار الكونية في العالم القديم راجع :
 ولدى العرب راجع ص ١٤ - ١٥ ، ٨٢ - ٨٣
 (٧٦) نالينو ، الفلك ، ص ٨٧ - ٩٠ (=Racc., p, 155-158)
 (٧٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٨ Nallino, Sun, Moon and stars, p. 95
 — Brockelmann, GAL , I, p. 472, No 3; SBI, 862 (٧٨)
 Sarton, Introduction, I, p. 758-759
 (٧٩) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ، ٢١٠ - ٢١١
 (= Racc., p. 234-235, 251-253)
 (٨٠) شرحه ، ص ٢١٤ (= Racc., P. 254)
 — Nallino, Al - Battani, III, p. 7 (٨١) نالينو الفلك ، ص ٢١٥ الترجمة ، الجزء الأول ، ص ٥
 (= Racc., p. 256)
 Nallino, Il Valore, p. 23 (٨٢)
 — Suter, Almagest, p. 320 (٨٣)
 (= Racc., p. 261-262) ص ٢٢٢ - ٢٢٣ (٨٤) نالينو الفلك ،

- (= Racc., p. 262-263) (٨٥) راجع : نالينو الفلك ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤
- Suter, Almagest, p. 329; راجع : Brockolmann, GAL, I, p. 203, note 2;
SBI p. 363
- Tallgren, Survivance, II, p. 213, 19 (٨٦)
- Zettersteen, EI, IV, p. 1245 (٨٧)
- (= Racc., p. 262-264) (٨٨) نالينو ، الفلك ، ص ٢٢٤ - ٢٢٦
- Tallgren, Survivance, p. 210-211
- Tallgren, Survivance, p. 214 (٨٩)
- Brockelmann, GAL, I, p. 203, No I, SBI, p. 363 — Tkatsch, p. 70 (٩٠)
- Nallino, EI, I, p. 518 — Nallino, Tracce di opere greche, p. 346
- Mieli, p. 85, note 3 (٩١)
- Nallino, EI, I, p. 518 (٩٢)
- Wiedemann, Beiträge, LXIV, p. 213 (٩٣)
- Sartori, Introduction, I, p. 273 (٩٤)
- (٩٥) شرحه ، ص ٧٤
- Schoy, Geography, p. 257 (٩٦)
- (٩٧) نقد مجيک Mzik لدى :
- GJ, XCIII, 1939, No 3, March, p. 252
- Honigmann, Die sieben Klimata p. 113 (٩٨)
- (٩٩) شرحه ، ص ١٥٦
- (١٠٠) ابن خردادبه ، BGA, VI ، ص ٣
- Mzik, Afrika, p. V, note 2 (١٠١)
- Mzik BAH und G, III, P. XXIX راجع عن الخوارزمي وسهراب :
- Nallino, Le Tabelle, p. 153 (١٠٢)
- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 115-116 (١٠٣)
- Sartori, Introduction, I, p. 277, No 19 — Honigmann, Die sieben (١٠٤)
Klimata, p. 113
- (= Racc., p. 256-257, 201) (١٠٥) نالينو الفلك ، ص ٢١٦ - ٢١٧ ، ٢٤٦
- Mieli, p. 69
- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 116 (١٠٦)
- D. H. Müller, Al - Hamdani, p. 28-44 (١٠٧)

- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 116, No 4 (١٠٨)
- Roberto, Catalogue, III, p. 142-146, No 522 (١٠٩)
- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 120-121 (١١٠)
- (١١١) شرحه ، ص ١١٧
- (١١٢) شرحه
- (١١٣) شرحه ، ص ١٢١
- (١١٤) شرحه ، ص ١٢٥ ، ١٣٣
- (١١٥) شرحه ، ص ١٢٥
- (١١٦) شرحه ، ص ١٢٦ - ١٣٠
- (١١٧) شرحه ، ص ١٣٣ ، ١٥٥
- (١١٨) شرحه ، ص ١٣٤ ، ١٥٥
- (١١٩) شرحه ، ص ١٥٥
- Macdonald, Malahim, p. 204-205 — Macdonald, Djafr p. 1037 (١٢٠)
- Nallino, Il Valore p 24 (١٢١)
- Taylor, p. 67-68 (١٢٢) تحليله لدى :
- Nallino, Il Valore, p. 35 — Nallino, Al - Battani, I, p. 164-165 (١٢٣)
- Schoy Erdmessungen, p. 438-439 (١٢٤)
- (١٢٥) نظرية ديكوردمانش مفعمة بالتخيلات راجع :
- (Decourdemanche, JA, 11 Série, I, 1913, p. 427-444)
- Nallino, Il Valore, p. 116— Schoy, Erdmessungen, p. 441,443 (١٢٦)
- Schoy, Erdmessungen, p. 443 (١٢٧)
- Nallino, Il Valore, p. 121 — Schoy, Erdm., p. 444-445 (١٢٨)
- Nallino Il Valore, p 117 — Schoy, Erdm., p. 441 (١٢٩)
- Nallino, Il Valore, p 117 — Schoy, Erdm., p. 442 — Globus, 1938, 330 (١٣٠)
- 110960 m.
- Nollino, Il Valore, p 117 (١٣١)
- (= Racc., p. 305) (١٣٢) نالينو الفلك ٢٩٣ - ٢٩٤
- Nallino Il Valore, p, 24-27 (١٣٣)
- (١٣٤) ياقوت ، المعجم الجزء الأول ، ص ١٧
- Nallino, Il Valore, p. 50-53 (١٣٥)
- Nallino, Al - Battani, p. 164-165 (١٣٦)

- Nallino, Il Valore, p. 120 (١٣٧)
- Wiedemann, AGNT, I, p. 66, note 3 (١٣٨)
- (Nallino, Il Valore, p. 105 - 117) مع الإشارة إلى نالينو
- (= Racc., p. 305) (١٣٩) نالينو ، الفلك ، ص ٢٩٣
- Nallino, EI, I, p. 518 (١٤٠)
- Schoy, Geography, p. 263-264 (١٤١)
- (١٤٢) شرحه ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .
- Kimble, p. 65 (١٤٣)
- (١٤٤) شرحه ، ص ٦٣
- Wright, Notes, p. 86 (١٤٥)
- Schoy, Geography, p. 269 (١٤٦)
- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 123 (١٤٧)
- (١٤٨) شرحه ، ص ١٥٦
- Suter, EI, II, p. 69-70 — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 136 — (١٤٩)
- Sarton, Introduction, I, p. 567 — Brockelmann, GAL, I, p. 221, No 2;
- SBI, p. 392 — 393. (= Racc., p. 119) (١٥٠) نالينو ، الفلك ، ص ٤٠
- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 136, 154, 165 (١٥٠)
- Sarton, Introduction, I, p. 567 — Sarton, Osiris, V, p. 106 (١٥١)
- Sarton, Osiris V, 141 (١٥٢) الصورة في :
- Dozy, Supplément II, p. 371 (١٥٣) تفسيره قطع الأرض ، راجع :
- ولكن راجع أيضا : حدود العالم ، ص ٩
- (١٥٤) المسعودي ، BGA, VIII ، ص ٣٣ - راجع :
- Nallino, Al-Huwarizmi, p. 13, note 4 (= Racc., p. 473)
- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 155 (١٥٥)
- (١٥٦) شرحه ، ص ١٤٣
- Reinaud, Introduction p. CCXC (١٥٧)
- (١٥٨) الشواهد لدى نالينو (Nallino, Al-Huwarizmi, p. 13 = Racc., p. 474)
- (Bartold, Hudud p, 8, note 6) الذي يوجد لديه سيمون مؤلفاً ، راجع :
- (١٥٩) نظرية الكشورات وفقاً للمصادر الفارسية يعرضها بالتفصيل بلوشيه
- (Blochet, L'Étude, b. 5-10)
- Kramers, EI EB, p. 64-54 (١٦٠)
- Kimble, p. 188 (١٦١)

- (١٦٢) — Kimble, p. 215
حوالى عام ١١٦٠ بصقلية عملت ترجمة من الإغريقية . مباشرة ولكنها بقيت غير معروفة على العكس من
ترجمة ديار : راجع : Amari (Nallino) , III, p. 673, note I
- (١٦٣) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 114
- (١٦٤) — Newton, p. 14
Youssouf Kamal, Monumenta Cartografica, IV, Fasc. III p. 1353 - 1359
- (١٦٥) — Newton, p. 4 — Kimble, p. 215
- (١٦٦) — Ritter, DI, XIX, 1930, p. 52-53
Youssouf Kamal, Monumenta Cartografica : راجع (١٦٧)
- (١٦٨) Bräunlich p. 19
- (١٦٩) توفى طاشكبرى زاده عام ١٥٦١
- (١٧٠) توفى داود الأنطاكي عام ١٠٠٨ هـ = ١٥٩٠ -
- Brockelmann, GAL, II, p. 364, No 3
- (١٧١) حاجى خليفة ، المقدمة ، الجزء الثانى ، ص ٦٠١ - ٦٠٣ ، رقم ٤١٣٠ -
توجد ترجمة موجزة لدى : Schoy, Geography. p. 258
- أما الترجمة الكاملة فوجودة لدى : Mzik, ptolemaeus, p. 156-157, note 7
- (١٧٢) Honigmann, Die sieben Klimata, p. 165
- (١٧٣) شرحه ، ص ١٥٥ - ١٥٦
- (١٧٤) شرحه

الفصل الثالث

جغرافيو المدرسة اليونانية والزيجات الكبرى

91 إن مصنف الخوارزمي في الجغرافيا وإن اعتبر فاتحة عهد جديد في ميدانه الخاص به ، إلا أنه يجب ألا يعزب عن البال أن شهرة الخوارزمي التي طبقت الآفاق لا تقوم على هذا الكتاب . وقد اكتسب الخوارزمي بالفعل صيتاً عريضاً فدخل اسمه في مصطلح علمي معروف لجميع تلامذة المدارس الذين لم يهتموا بالطبع بمعرفة أصل ذلك المصطلح . وهذه الشهرة لم تأت اعتباطاً ؛ وقد أطلق سارطون Sarton في مقدمته لتاريخ العلم اسم « عصر الخوارزمي » على النصف الأول من القرن التاسع لأنه « أكبر رياضي عصره وواحد من أكبر رياضي جميع العصور على الإطلاق إذا أخذنا في حسابنا اختلاف الظروف^(١) » . وكانت رسالته في الحساب هي سبب وصول اسمه إلى أوروبا ، فهي أول أثر من نوعه يعرف العرب والغرب بمنهج الحساب الهندي . وهذه الرسالة مفقودة الأصل إلا أن ترجمتها اللاتينية للقرن الثاني عشر محفوظة في مخطوطة فريدة بكمبريدج بعنوان : Algorithmi de numero Indorum « الغوريثمي في حساب الهند » ، ونشرت في منتصف القرن الماضي . وهي تبدأ بالصيغة الآتية : Dixit Algorithmi « قال الغوريثمي » ؛ ومن هذا يتبين جيداً أن اللفظ مستعمل كنسبة ، أي اسم علم ؛ ولكنه سرعان ما اتخذ في شكله اللاتيني Algorithmus « الغوريثموس » معنى جديداً للحساب بالأرقام العربية وحل محل الطريقة القديمة « للمعداد » (Abacus) اليوناني الروماني . ولم يلبث أصل الاسم أن نسي سريعاً وظهر عدد من الاشتقاقات الخيالية ، فتارة ينسب إلى فيلسوف ما يدعى « الغوس » Alqus ، أو من ربط أداة التعريف العربية « أل » باللفظ اليوناني « أريثموس » ἀριθμός الخ . أما الاسم الحقيقي فقد توصل إليه قبل طبع مخطوطة كمبريدج ، ولكن هذا لم يحل دون صيرورته إلى الأبد مصطلحاً على ضرب معين من الحساب ، رغماً من أن هذه التسمية تقوم على سوء فهم محض^(٢) .

92 وإذا كان اسم الخوارزمي قد ظل إلى الآن رمزاً لمصطلح في الرياضيات فيوجد فرع آخر منها قد ثبتت عليه إلى أيامنا التسمية التي أطلقها عليه الخوارزمي . فرسالته « كتاب المختصر في حساب الجبرو | المقابلة » الموجودة أيضاً في مخطوطة فريدة هي التي يرجع إليها الفضل ليس فقط في خلق لفظ الجبر Algebra بمعناه الحديث بل وأيضاً في بزوغ فجر جديد في ميدان الرياضيات ، الأمر الذي لا ينفي بالطبع وجود سابقين له في هذا المضمار^(٣) ممن يتحتم البحث عنهم في بابل القديمة كما يتضح من أبحاث غاندز C. Gandz ؛ ذلك أنه من المستحيل ، اعتماداً على هذه الرسالة ، القول بأن الخوارزمي هو الذي اخترع حساب الجبر ،

فإن تجربته هذه تستند على منهج المدرسة البابلية أو الإيرانية . ولكن فضله الأكبر يعود إلى أنه قد وضع في اللحظة المناسبة مصنفاً فريداً في بابها كان له الأثر المباشر في تعميم الخبر على ممر القرون^(٤) .

وقد كان للجداول الفلكية للخوارزمي حظ مماثل أيضاً في تأثيرها البعيد المدى ، وهي ترتبط في جوهرها على ما يبدو بترجمة « السند هند » للفراري التي شغل الخوارزمي كثيراً بدراساتها وعمل منها نسخة مصلحة . وكشأن أي مصنف يحمل اسم الزيج فإن جداول الخوارزمي قد احتوت على مقدمة فلكية وافية هي بمثابة نظرية في الفلك قائمة بذاتها^(٥) . ويقف دليلاً على علاقة جداول الخوارزمي بالتراث الهندي الإيراني أن خط منتصف النهار الابتدائي يبدأ فيها عند الأرين وأن حساب الوقت فيها يسير وفقاً لتقويم يزجرد . هذا وقد أعاد الفلكي الأندلسي مسلمة المجرطي (حوالى عام ٣٩٨ هـ = ١٠٠٧) صياغة هذه الجداول ولكنه استعمل التقويم الهجري وجعل نقطة الابتداء خط منتصف النهار المار بقرطبة . ولم تصل إلينا هذه الجداول ، كما لم تصلنا الجداول المصلحة للمجرطي ، ولكن حفظت الترجمة اللاتينية للأخيرة بقلم اديلارد الباثي Adelard of Bath الى عملت عام ١١٢٦ . وهذا الوضع يؤدي بلاريب إلى تعقيد مشكلة العلاقة بين كتاب الخوارزمي وتنقيحه للمجرطي ؛ وعلى أية حال فإنه يمكن القول بالكثير من الثقة إن الجداول الفلكية للخوارزمي في صورتها الجديدة للمجرطي كانت أساساً للمؤلفات الفلكية المتأخرة في أوروبا الغربية^(٦) .

ورغما عن الأهمية البالغة لمؤلفات الخوارزمي فإن المعلومات عن شخصه شحيحة للغاية . ونتيجة لسهو معين في كتاب بروكلمان^(٧) فقد نفذت إلى الاستعراب الروسي فكرة مفادها أن الخوارزمي مؤلف الجغرافيا شخص عاش في القرن الحادي عشر وأنه لا علاقة له بالرياضي الفلكي الذي عاش في القرن التاسع^(٨) ؛ ومرد هذا الخطأ إلى أن تاريخ تدوين المخطوطة قد أخذ على أنه تاريخ تأليف الكتاب . ولا يعرف عن سيرة الخوارزمي بالتحديد سوى أنه كان ينتمي إلى دائرة فلكي المأمون وأنه كان وثيق الصلة « بدار الحكمة » المشهورة وأخذ طرفاً على ما يبدو في التجارب العلمية المرتبطة في بعض جوانبها بقياس محيط الأرض . وقد ورد آخر ذكر له مقترناً بـ « بوفاة الخليفة الواثق عام ٢٣٢ هـ = ٨٤٧ »^(٩) ، 93 ويلوح أنه قد توفي عقب ذلك بقليل . وقليل من الإمام بمؤلفاته الرئيسية سيعاون في توضيح الصورة النهائية التي صاغ فيها الخوارزمي مصنفه الجغرافي المتعلق بمدار هذا البحث .

يطابق على هذا المصنف اسم « صورة الأرض » وهي الترجمة المعهودة في ذلك العصر للفظ « جغرافيا » اليوناني^(١٠) ؛ ولكن الكتاب قد حمل فيما يظهر عدة أسماء ، فمثلاً يذكره أبو الفدا في القرن الرابع باسم « رسم الربع المعمور »^(١١) ؛ وتم تأليفه عقب وفاة المأمون بين عامي ٢٢١ = ٨٣٦ هـ و ٢٣٢ هـ = ٨٤٧ كما أثبت ذلك بارتولد Bartold^(١٢) . وقد حالف التوفيق فرين Frähn فدلل بالكثير من قوة الحدس ، وذلك قبل اكتشاف المخطوطة ؛ على أن القطع الجوهرة المؤلف التي يوردها أبو الفدا إنما ترجع إلى هذا المصنف

لذلك الرياضى النابه^(١٣) . وعلى هذا الأساس قام بدراستها المؤرخ البولندى ليليويل Lelewel وخرج بنتيجة غريبة مؤداها أن كتاب الخوارزمي يمثل ترجمة لرسالة وضعها باليونانية حوالى عام ٧٥٠ مؤلف لإغريق عاش في أرض الإسلام وعرف كيف يفيد من المصادر الإسلامية^(١٤) . ولكن نظرية ليليويل هذه قد انهارت من أساسها بالكشف عن المخطوطة التى وكدت صحة ما ذهب إليه فرين^(١٥) . وقد لاقى مصنف الخوارزمي هذا نفس المصير الذى لاقته مصنفاته الأخرى ، فهو معروف لنا حتى الآن فى نسخة واحدة فقط موجودة بمكتبة استراسبورج ، ورغما من حالتها السيئة^(١٦) فهى ترجع إلى رمضان من عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧^(١٧) ، أى إلى ما بعد قرنين فقط من تاريخ تأليف الكتاب ؛ وقد عثر عليها بالقاهرة فى أكتوبر ١٨٧٨ المستعرب المعروف ب. اسبتا B. Spitta الذى كان آنذاك مديراً لدار الكتب الخديوية ، وانتقلت بعد وفاته (١٨٨٣) إلى مكتبة استراسبورج . وكان أول من لفت الأنظار إليها اسبتا نفسه وذلك فى مقالتين نشرهما عام ١٨٧٩ و ١٨٨٢^(١٨) ، وأصبحت منذ ذلك الحين موضوعاً لأبحاث عديدة . وأول بحث جدى حولها ظهر عام ١٨٩٥^(١٩) بقلم نالينو ؛ وتلاه ابتداء من ٩٤ عام ١٩١٥ عدد من الأبحاث الخاصة | بقلم مجيك Mzik وهونيمان Honigmann (١٩٢٩) ؛ وفى عام ١٩٢٦ ظهرت طبعة كاملة لهذا الكتاب قام بتحضيرها مجيك ، غير أن الترجمة التى وعد بها لم تر النور بعد . ولعلها لن تراه إذا حكمنا من ألفاظ مجيك نفسه فى واحد من أبحاثه الأخيرة (١٩٣٦) ، وذلك لما يلزم هذه المهمة من مشقة وعسر . ويبدو أن مجيك قد توصل إلى نتيجة صحيحة مؤداها استحالة تنفيذ مثل هذا العمل قبل التمهيد له بتحليل عميق وفحص دقيق للأقسام المختلفة للكتاب^(٢٠) . وعلى الرغم من جميع الأبحاث الجادة العميقة^(٢١) فإن عدداً من المسائل المتعلقة بجغرافيا الخوارزمي لا تزال مستعصية على الحل .

ونظراً لغلبة الفلك والرياضة على الخوارزمي فقد وضع كتابه فى الجغرافيا على هيئة زيج ، أى جداول فلكية . والكتاب ليس بترجمة ولكنه ترتيب لمادة بطليموس على هيئة جداول مع إضافات واسعة من ميدان الجغرافيا العربية وطائفة من التعديلات الأخرى . وليس بالمخطوطة مقدمة على الإطلاق ولو أنها وجدت قطعاً بالأصل . وتبدأ الجداول بعد البسملة مباشرة على هيئة عمودين فى كل صفحة مع تبيان المواقع الجغرافية للأماكن الكبرى التى يصل عددها إلى خمسمائة وسبعة وثلاثين موضعاً . وهى موزعة على الأقاليم المختلفة بحسب الابتعاد التدريجى من خط الزوال الابتدائى الذى يمر كما هو الحال عند بطليموس « بجزر السعادة » (الخالدات) فى أقصى الغرب من أفريقيا^(٢٢) . ويتلو جدول المدن جدول الجبال وعددها مائتان وتسعون ، ثم يلى ذلك وصف البحار فالجزر : ويشمل القسم الأخير منها ، وهو أوسعها ، وصفاً للأنهار فى كل إقليم^(٢٣) .

ويبدو جلياً من كل هذا أن تبويب الخوارزمي للمادة يختلف اختلافاً بيناً عن نهج بطليموس فى كتابه

« المدخل إلى الجغرافيا » . وباستثناء المقالة الأولى لبطلميوس التي تحتوي إلى جانب القواعد الأساسية للكارتوغرافيا نقداً لمارينوس الصوري ، وكذلك المقالة الثامنة التي تعالج الطول النسبي لليوم في مواقع مختلفة والتي تقدم جدولاً للأربع وتسعين « أبرشية » *Επαρχία* (eparchy) (أى ولاية) الموجودة بالمعمورة ، أقول باستثناء تينك المقالتين فإن المقالات الباقية وهى من الثانية إلى السابعة ، قد تم توزيعها لدى الخوارزمى بطريقة مغايرة تمام المغايرة لطريقة بطلميوس ، فبطلميوس يعدد جبال وأنهار ومدن كل منطقة بينما يوزعها الخوارزمى على الأقاليم ويفحص كل ظاهرة على حدة . هذا ويبلغ عدد المناطق عند بطلميوس إحدى وعشرين منطقة ، بينما يبلغ عدد الأقاليم عند الخوارزمى سبعة ؛ وقل أن اتفاقاً على تحديد الأبعاد الجغرافية للأماكن المختلفة^(٢٤) . كل هذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل دلالة واضحة على أن « صورة الأرض » للخوارزمى أبعد من أن تكون ترجمة حرفية لبطلميوس ، بل هى مسودة مصلحة تصليحاً جوهرياً لكتاب « المدخل إلى الجغرافيا » . وأكثر من هذا يجب أيضاً رفض القول الذى نادى به البعض من أن « صورة الأرض » ليست سوى قطعة من الجداول الفلكية للخوارزمى ؛ ذلك أن واقع الأحوال يؤكد أن « صورة الأرض » مصنف قائم بذاته وأن علاقته بالجدول الفلكية أشبه بالعلاقة التى بين 95 « الجسطى » و« المدخل إلى الجغرافيا » عند بطلميوس^(٢٥) .

هذا ويستوعب النظر بصورة خاصة تقسيم الخوارزمى للأقاليم السبعة حسب درجات العرض ، وهو تقسيم يختلف عن كل التقاسيم الأخرى المعروفة لدى العرب ويعتمد أساساً كما أثبت البحث الحديث على حسابات العلماء اليونان . وإذا كان مارينوس الصورى قد اعتبر خطوط ايراثوثينيس Eratosthenes هى الحدود الجنوبية لأقاليمه فإن الخوارزمى جعلها الشمالية ، بينما نقل الحد الجنوبي للإقليم الأول الموجود على خط عرض ١٦° درجة و ٢٧ دقيقة شمالاً (مدينة مروه Meroe) إلى خط الاستواء واعتبر الحد الجنوبي للمعمور من الأرض هو خط عرض ١٦° درجة و ٢٥ دقيقة جنوباً ، كما هو الحال عند بطلميوس . ومن المستحيل تخطيط الخوارزمى فى هذا فتقسيمه منتظم ونقله الأقاليم صوب الجنوب قد أجراه عن قصد ربما دفعه إليه أن سبعين من المدن الكبرى التى أوردتها تقع جنوبى الحد الشمالى للإقليم وفقاً لتقسيمه هو . ولعله لا يخلو من مغزى بالنسبة للجغرافيا العربية بأسرها أن الخوارزمى لم يجد من يخلفه أو يسلك سبيله فى هذا التقسيم سوى سهراب الذى عاش فى النصف الأول من القرن العاشر فهو يعتمد على الخوارزمى اعتماداً كلياً . وبالرغم من أن العرب قد كشفوا فى القرن التالى للخوارزمى عن وجود نقاط عديدة مأهولة على الساحل الشرقى لأفريقيا وفى الهند وجنوب شرق آسيا فإن النظرية القائلة باستحالة السكنى فى الإقليم الحار قد برهنت على أنها أقوى من الملاحظة العملية المباشرة ، إذ حافظ جميع الفلكيين والجغرافيين المتأخرين دون استثناء على التقسيم القديم للأقاليم^(٢٦) . وإذا كان تقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم قد حظى ببعض الأهمية فى الجغرافيا القديمة لدى الأوائل فإنه قد أصبح قاعدة أساسية مقبولة من الجميع فى

المصنفات الفلكية بل والجغرافية عند العرب . هذا وقد أهملت إلى حد كبير القاعدة الهندسية التي بُنى عليها التقسيم وتفاوتت الحدود الفاصلة بين الأقاليم من وقت لآخر . ولم يخل الأمر من وجود آراء غريبة في هذا الصدد أحياناً^(١٧) كزعم المسعودي بأن جميع المدن الكبرى في إقليم واحد تقع على خط عرض واحد^(٢٨).

وإذا كان الخوارزمي قد أبدى الكثير من الجرأة العلمية في تقسيمه الجديد للأقاليم فإنه قد أظهر أيضاً الكثير من الأصالة والابتكار في خارطاته التي تختلف اختلافاً تاماً عن الخارطات المعروفة لنا من العهود التالية . وتقوم أهميتها قبل كل شيء على أنها تمثل أقدم ما وصل إلى أيدينا من آثار الكارتوغرافيا العربية ، ولكننا بكل أسف نفتقر إلى الوقائع والمعطيات الضرورية لنتمكن من الحكم عليها . ولدينا من المبررات ما يجعلنا نفترض أن رسالة « صورة الأرض » إنما تمثل شرحاً فقط لخريطة رسمت على طريقة بطليموس^(٢٩) ، وهذه الخريطة للأسف الشديد لم تصل إلينا ، فخطوطة استراسبورج تحتوي 96 على أربع خارطات فقط تمثل في الغالب نماذج متناثرة ويغلب عليها أحياناً طابع الصدفة المحضة . وإحدى هذه الخارطات تستهدف إلى جانب ذلك هدفاً نظرياً هو تصوير خطوط السواحل بغرض توضيح المصطلحات التي يستعملها العلماء . ولا يخلو من مغزى أن بعضها لا يزال مستعصياً على الفهم إلى الآن رغماً من المجهودات المشتركة في هذا الصدد^(٣٠) . وتقدم خارطة « جزيرة الجوهر » والجمال المحيطة بها مثالا طريفاً من ميدان الجغرافيا الأسطورية . وهذه الجزيرة يطلق عليها عادة اسم « جزيرة الياقوت » ، وكانت مثبتة منذ عهد بطليموس على خط الاستواء في أقصى الشرق^(٣١) ؛ وتستند الروايات عنها في الواقع على معلومات حقيقية عن جزيرة سيلان ولكن يطغى عليها لدى الخوارزمي تأثير الرواية العربية لأسطورة الإسكندر التي نالت انتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي آنذاك كما بين مجييك^(٣٢) . أما الأهمية الكبرى فتتألف من نزاع خارطته للنيل التي يتضح منها أن مجراه كان معروفاً جيداً في ذلك الوقت ؛ ويتفق رسم هذه الخريطة مع المذهب القديم في الجغرافيا الفلكية^(٣٣) ويقف دليلاً على ذلك أن حدود الأقاليم السبعة قد بينت عليها بوضوح . كما تمثل أهمية جوهرية بالنسبة لنا آخر خارطة لديه وهي المبين عليها بحر مايبوتيس Maeotis ، أي بحر آزوف Azov الحالي ، فهي على نقيض الخارطات السابقة تجعل الشمال في أعلاها أي كما هو الأمر حالياً ، بينما يحتل الجنوب أعلى الخارطات الأخرى وهي الطريقة المتبعة في الكارتوغرافيا للعربية . أما خارطة العالم التي لم تخل منها فيما بعد أية نسخة من نسخ « أطلس العالم » للمدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب فلا أثر لها البتة عند الخوارزمي . وبيان خطوط الطول والعرض يمثل عنصراً هاماً لإعادة رسم هذه الخريطة ، غير أن المحاولات التي قام بها مجييك خلال دراسته العنيفة الطويلة لأفريقيا وجنوب شرق آسيا^(٣٤) وشرقي أوروبا قد أثبتت أنه من العسر تنفيذ هذه المهمة ما لم تتوفر مادة علمية جديدة^(٣٥) .

وكما هو الشأن مع جميع الترجمات العربية لكتاب بطليموس فإنه أيضاً فيما يتعلق بكتاب الخوارزمي

لسنا على ثقة تامة أى نص استعمل أهو اليونان أم السرياني ؟ إن نالينو يرى أن كتابه لا يمثل ترجمة لبطلميوس بل يستهدف توضيح الخارطة التي أخذت عن المتن اليوناني لكتاب « جغرافيا » مباشرة ، لا عن المتن اليوناني السرياني . ويمكن في كثير من الأحيان تفسير الاختلاف مع بطلميوس في أن مادته تعتمد 97 على الخارطة ولم يأخذها عن « جغرافيا » . وقد وكدت أبحاث مجيك فرض نالينو القائل بأن الرسالة إنما تعتمد أساساً على الخارطة ، ولكنه يعتقد أن الخارطة نفسها تستند على النص السرياني^(٣٦) . أما هو نغان فيرى في كتاب الخوارزمي محاولة للمزج جهد المستطاع بين « الخارطة المأمونية » وخارطة بطلميوس ، وأن تلك المحاولة لم يكتب لها التوفيق التام^(٣٧) . والأسماء الجغرافية القديمة لاتزال كثيرة لدى الخوارزمي ولكنها ما لبثت أن أخذت في الاختفاء من الجغرافيا الوصفية حتى أصبحت نسياً منسياً في عهد ياقوت في القرن الثالث عشر . وقد قام الخوارزمي نفسه بمحاولة لمقارنتها بالأسماء المستعملة في عصره فأورد من وقت لآخر بعض التسميات الجغرافية الفارسية^(٣٨) . هذا ويمكن القول بصفة عامة أن الخوارزمي قد أبدى في مؤلفه هذا نفس الأصالة والابتكار اللذان ظهرا في مؤلفاته الرياضية ، كما يجب أيضاً الاعتراف تبعاً لنالينو^(٣٩) وبارتولد^(٤٠) بأنه لا يوجد شعب أوروبي واحد يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن مقارنته بهذا الكتاب الذي يعتبر أقدم أثر في الجغرافيا العربية . وقد لعب كتاب « صورة الأرض » دوراً محدوداً في أوروبا الوسيطة لدى المقارنة بمؤلفات الخوارزمي الأخرى ، غير أن بعض مادته فيما يتعلق بالعروض والأطوال قد وجدت طريقها إلى « جداول طليطلة » للزرقالي في القرن الحادي عشر . وهذه الأخيرة قد ترجمت إلى اللاتينية وتمتعت بصيت عريض في القرن الثاني عشر وما بعده^(٤١) .

أما تأثير الكتاب على العلم العربي فقد كان هائلاً . ففي النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وجد مصنف آخر يكمله ويقرب منه اقتراباً شديداً بحيث يضحى من الممكن اعتباره مسودة أخرى للخوارزمي . ولا يزال يحيط باسم مؤلفه الكثير من الغموض والإبهام ؛ وفي مخطوطة المصنف الفريدة الموجودة بالمتحف البريطاني ، وهي مخطوطة جيدة ترجع إلى عام ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ ، يدعو المؤلف نفسه في المقدمة باقتضاب « أفقر الوري سهراب » . ومثل هذا الأمر نادر الحدوث بين المؤلفين العرب ، فضلاً عن أن الاسم يبدو أجنياً مما يدفع إلى الاشتباه في أنه ربما قصد به التضييل أو أنه اسم مستعار . بيد أن المتن واضح بصورة جعلت الكتاب يثبت على اسم هذا المؤلف في الدوائر العلمية منذ أن أصدر مجيك طبعة كاملة له في عام ١٩٣٠^(٤٢) . وإلى ما قبل هذا التاريخ ساد خلط كبير حول اسم المؤلف لاتزال آثاره ملموسة إلى أيامنا هذه ، فالبعض قد أطلق عليه اسم ابن سراييون^(٤٣) خالطين 98 بينه وبين الطبيب المعروف لذلك العصر^(٤٤) ، بينما دعاه البعض الآخر أبا الحسن بن الهلول^(٤٥) . ولا يزال الشك يعتبر عنوان الكتاب نفسه وهو « كتاب عجائب الأقاليم السبعة » الذي يرتفع إلى المخطوطة ذلك أن الكتاب لا يوجد به أى ذكر للعجائب . وربما كان مجيك محقاً في قوله . إن اسم الكتاب هو ببساطة « كتاب الأقاليم السبعة » .

أما تاريخ تأليفه فيمكن تحديده وفقاً للاستقراء الداخلي لمادته بين عامي ٢٨٩ هـ = ٩٠٢ و ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ ، أى قبل دخول البويهيين بغداد . ويكشف المؤلف عن معرفة جيدة بالعراق بحيث لا يرقى الشك إلى أنه عاش بها ؛ وكان معاصراً لأبي زيد البلخي مؤسس المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ولكنه يمثل اتجاهاً مخالفاً كل المخالفة للمذهب تلك المدرسة ، فمصنفه استمرار للمذهب اليوناني في الجغرافيا ولو بطريقة تخالف بعض الشيء طريقة « صورة الأرض » للخوارزمي . وتزودنا مقدمته بتفاصيل جوهريّة تساعد في وضع خارطة مسطحة مربعة (Plattcarte) اعتماداً على مادة الكتاب نفسه ؛ وهذا بدوره قد دفع مجيئك إلى الافتراض بأنه ربما وجدت مثل هذه المقدمة في كتاب الخوارزمي أيضاً ولكنها مفقودة في مخطوطة استراسبورج . أما تبويب المادة لدى سهراب فيختلف بعض الشيء عما هو عليه الحال مع « صورة الأرض » ، ففي البداية يرد تعداد المدن وأقسام الأقاليم المختلفة ، ثم يلي هذا وصف البحار والجزر وتعداد الجبال (بحسب الأقاليم أيضاً) وبعد ذلك المنابع والأنهار ، وفي الخاتمة توزع هذه الظواهر على الأقاليم المختلفة . ومن هذا يتضح أن هذه التقسيمات هي نفس تقسيمات الخوارزمي ولكن تخالفها في التسلسل ، والسبب الذي دعى إلى هذا غير واضح لنا . وأحياناً قد يختلف التوزيع حتى في داخل الأقسام نفسها كما هو الحال مثلاً مع مدن الأقاليم الثالث والرابع والخامس . ويمكن القول بصفة عامة بأن الاختلاف بين الاثنين فيما يتعلق بالمادة المستقاة من المصادر اليونانية طفيف للغاية ويتمثل بوجه خاص في تشويه بعض الأسماء اليونانية والطمس الذي أصاب بعض الأرقام ؛ بيد أن هذا لم يحل بالطبع دون وجود قراءات لدى سهراب تفضل أحياناً قراءات الخوارزمي . وعلى وجه العموم ففي الأقسام التي يقربان فيها من بعضهما البعض يضحى من غير الممكن كما يقول مجيئك لإعداد طبعة علمية للكتاب الأول بدون الاعتماد على مخطوطة الثاني .

وتتمثل الأهمية الرئيسية لكتاب سهراب في اتساع المادة المستقاة من المصادر العربية ، ويبدو أن غرضه كان إضافة مادة جديدة إلى ما جمعه الخوارزمي قبل قرن من ذلك ، فيجعل بهذا مصنفه أقرب إلى حاجة معاصريه ، ويصدق هذا قبل كل شيء على الأقسام عن الجبال وعن الأنهار خاصة . ووصف المؤلف لشبكة | قنوات بغداد واف بصورة استرعت أنظار لوسترانج Le Strange منذ التسعينيات من القرن الماضي وزوده بمادة جوهريّة في وضع وصفه التخطيطي لأرض السواد وقتذاك^(٤٦) . هذا وقد حمل وصفه لدلتا النيل المستشرق غست Quest إلى القول بأن سهراب قد عرف مصر معرفة مباشرة وأنه من أهلها^(٤٧) ؛ وكما بين مجيئك فإن مثل هذا الزعم لم يكن ليصدر إلا نتيجة للجهل بمصدر سهراب الرئيسي وهو الخوارزمي^(٤٨) . ولا يخلو من طرافة في آخر الأمر ملاحظة أن لغة سهراب أكثر « استعراباً » وأن أسلوبه يحافظ على مستوى النثر العلمي المعتاد بينما يلاحظ في أسلوب الخوارزمي وعورة في اللغة ، وفي هذا دليل على أن أسلوب نثر الرسائل العلمية في عصره لم يكن قد أوفى بعد على الغاية^(٤٩) .

ولم يقف تأثير الخوارزمي عند سهراب وحده بل تعداه إلى غيره ، ولو أنه يجب الاعتراف بأنه من العسير أحياناً إدراك تأثير مصنف بعينه بقدر الإحساس بتأثير الاتجاه العام الذي يستهدف عرض المادة الجغرافية على هيئة جداول ، وهو ذلك الاتجاه الذي يستمد مادته من نفس المصادر اليونانية التي ترتفع إليها « صورة الأرض » . ولقد ارتبط هذا الاتجاه فيما بعد بالفلك أكثر منه بالجغرافيا الوصفية التي بدأت في الظهور آنذاك ؛ ومن ثم فلنا الحق كل الحق في أن نغفل بعض الشيء سير التتابع التاريخي ونقتصر أنفسنا فيما يلي من هذا الفصل على الكلام على المصنفات الكبرى في ميدان الجغرافيا الفلكية دونما حاجة إلى الكلام عنها مرة ثانية عند معالجة العصور التي تنتمي إليها .

وقبل الدخول في هذا يجدر بنا أن نقدم نبذة موجزة عن معاصر الخوارزمي الأصغر وهو « فيلسوف العرب » الشهير يعقوب الكندي (المتوفى حوالى عام ٢٦٠ هـ = ٨٧٤)^(٥٠) . ويرتبط بهذا الاسم كما ذكرنا من قبل واحدة من أولى ترجمات جغرافيا بطليموس ؛ وأغلب الظن أن تأثيرها قد ظهر في تأليفه لكتابه « رسم المعمور من الأرض » الذي يشير إليه المسعودي^(٥١) والذي لا نعلم عنه شيئاً للأسف . وتتل أهمية كبرى رسالته « في البحار والمد والجزر » كما يدعوها المسعودي ؛ وقد استعملها الأخير في الفصل الذى أفرده للمحيط الهندي^(٥٢) ويرجع الفضل في تعريف العلم الأوروبي بها إلى بحثين للعلامة قيدمان Wiedemann^(٥٣) . وبالرغم من أن نظرية الكندي في المد والجزر تستند على أفكار خاطئة إلا أنه من الطريف ملاحظة أنه قد اعتمد على الملاحظة والتجربة العلمية ليثبت صحتها^(٥٤) . هذا وسنلتقي بأحد 100 تلامذته عند الكلام على تاريخ التطورات الأولى في محيط الجغرافيا الوصفية .

وقد استمر اسم الزيج مطلقاً على الجداول الفلكية التي امتدت حياتها خلال عدد من الآثار الجديدة حتى اختتمت بجداول ألوغ بيك Ulugh Bek ، وهي جميعها بالتقريب تعطينا أطوال وعروض المواضع الجغرافية موزعة على الأقاليم السبعة . ويحتل المكان الأول من بينها زيج البتاني (حوالى ٢٤٤ هـ - ٣١٧ هـ = ٨٥٢ - ٩٢٩)^(٥٥) الذى عاش بعد قرن من الخوارزمي تقريباً . والبتاني لا ينتسب إلى المدرسة البغدادية بقدر ما ينتسب إلى مدرسة صابئة حرّان ؛ ومن فضل القول التحدث عن مكانته في تاريخ العلم البشرى ، ودليل هذا ذبوع صيته في أوروبا الوسيطة تحت اسم Albategnius وأيضاً الاهتمام الكبير الذى أبداه نحوه رجيومنتانس Regiomontanus (١٤٣٦ - ١٤٧٦)^(٥٦) بصدد حساب المثلثات الكروية (Spheric Trigonometry) ، كما وأن ملاحظاته عن الكسوف قد أفاد منها فائدة كبيرة دنتورن Dentorn حتى في وقت متأخر كعام ١٧٤٩^(٥٧) . وقد أمضى البتاني حياته بأسرها تقريباً يرصد الأجرام السماوية بمِرْصد الرقة ، من عام ٢٦٤ هـ = ٨٧٧ إلى عام ٣٠٦ هـ = ٩١٨^(٥٨) . ورغماً من أنه اعتبر نفسه مسلماً إلا أنه كان أقرب في أصله إلى صابئة حرّان الذين برز منهم في ذلك العهد عدد من كبار العلماء يكفي أن نشير من بينهم إلى ثابت بن قرة الذى مر ذكره .

وترتبط باسم البتاني تصليحات لبعض آثار بطليموس نخص منها كتابه « المقالات الأربع » (٥٩) ؛ غير أنه لم يصلنا من بين جميع مصنفات البتاني سوى الجداول الفلكية المعروفة باسم « الزيج الصابئ » وتحتوي مقدمة وافية في أكثر من ستين فصلاً تعالج جميع مسائل الفلك ؛ وقد ذاع صيتها في أوروبا بعد أن ترجمها إلى اللاتينية في عام ١١٤٠ أفلاطون التيفولى Plato of Tivoli . ولقد أبصرنا من قبل سعة إدراك البتاني في تقديره لمكانة بطليموس في تاريخ الفلك العربى ، وسنقتصر الآن على تلك المواضيع من زيجه التى تتعلق بالجغرافيا فى معناها الضيق .

ويمثل أهمية خاصة فى هذا الصدد الفصل السادس من المقدمة الذى يعطى وصفاً عاماً للأرض ويخص بالتفصيل البحار . وكما لاحظ نالينو فإن مادة هذا الفصل بأجمعه ترتفع إلى بطليموس فى روايته اليونانية السريانية التى جرت فيها يد التعديل بصورة جوهرية (٦٠) . ويجب أن نلاحظ أن وصفه للبحار والجزر الموجودة بها قد أضحى بفضل ترجمة أفلاطون التيفولى معروفاً لأوروبا منذ عهد مبكر وأن جميع التصورات التى انتشرت فى الغرب عن المحيط الهندى مثلاً إلى عهد الكشف الجغرافية الكبرى إنما ترجع إلى البتاني (٦١) ؛ ومن الملاحظ أن المادة الجغرافية فى أوروبا المعاصرة لا يمكن مقارنتها بأية حال مع مادة البتاني من حيث القيمة العلمية (٦٢) . وقد اجتذب هذا الفصل أنظار العلماء الأوروبيين منذ أن كان الكتاب معروفاً فى مخطوطته الوحيدة بالأسكوريال فترجمه رينو (٦٣) ومرن (٦٤) قبل ظهور الطبعة العلمية لنالينو؛ وهو ذو أهمية خاصة بالنسبة للأدب الجغرافى العربى إذ يقدم لنا أتم وصف للعالم عرفته العصور السابقة مأخوذ عن جغرافى المدرسة اليونانية . وقد أفاد منه ممثلو الجغرافيا الوصفية من معاصرى البتاني كما توجد شذرات منه لدى ابن رسته والمسعودى وقدامة والجيهانى مأخوذة عن مصادر أخرى ولكن تكرر المادة حرفياً بحيث لا يمكن إنكار أثر البتاني عليها . ونصه كالاتى :

« وأما مواضع الأرض المعلومة والبلدان المسكونة فى الطول والعرض فقد أوضحنا بالقياس الذى قد ذكره بطليموس ووافقه عليه غيره من القدماء أن الأرض مستديرة وأن مركزها فى وسط الفلك والهواء محيط بها من كل الجهات وأنها عند فلك البروج مثل منزلة النقطة قلّة . وأما عمرانها فإنهم أخذوا حدوده من الجزائر العامرة التى تسمى الخالدات التى فى بحر أوقياس الغربى (٦٥) وهى ست جزائر عامرة إلى أقصى عمران الصين فوجدوا ذلك اثنتى عشرة ساعة فعلموا أن الشمس إذا غابت فى أقصى عمران الصين كان أول طلوعها على أول الجزائر العامرة المذكورة أنها فى بحر أوقيانس الغربى وإذا غابت فى هذه الجزائر صار أول طلوعها على أقصى عمران الصين وذلك نصف دائرة الأرض وهو طول العمران الذى وقف عليه ومقداره من الأميال ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة ميل من الأميال التى عملوا عليها فى مباحة الأرض ثم نظروا فى العرض فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية الشمال ينتهى إلى جزيرة ثولى التى فى برطانية حيث يكون طول النهار الأطول عشرين ساعة . وذكرنا أن خط

الاستواء من الأرض يقطع من المشرق إلى المغرب فيما بين الهند والحبش في جزيرة هناك من ناحية الجنوب من معدل النهار فتعترض هنالك وتحد ما بين الشمال والجنوب . والخط الذى يقطع هذا الخط من ناحية الشمال إلى ناحية الجنوب في النصف مما بين هذه الجزائر المذكورة أنها في بحر أوقيانوس وأقصى عمران الصين وهو قبة الأرض المعروفة بما وصفنا وموضعها موضع التقاطع . والعرض من خط الاستواء 102 إلى جزيرة ثولى يكون قريباً من ستين جزءاً وذلك سدس دائرة الأرض فإذا ضرب هذا السدس الذى هو مقدار العرض في النصف الذى هو مقدار الطول كان ما يظهر من العمران من ناحية الشمال مقدار نصف سدس الأرض وهو جزء من اثني عشر جزءاً . وقد روى بحر الهند وقالوا ان طوله يُعَدُّ من المغرب إلى المشرق من أقصى الحبش إلى أقصى الهند ثمانية آلاف ميل وعرضه ألفان وسبعائة ميل ويجاوز من جزيرة استواء الليل والنهار إلى ناحية الجنوب ألفاً وتسعمائة ميل وله خليج بأرض الحبش يمدّ إلى ناحية البربر يسمى الخليج البربرى وطوله خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة ميل . وخليج آخر يخرج نحو أرض أيلّة وهو بحر القلزم طوله ألف وأربعمائة ميل وعرض طريقه الذى يسمى البحر الأخضر (٦٦) مائتا ميل وعرضه في الأصل سبعمائة ميل . وخليج آخر يخرج نحو أرض فارس يسمى الخليج الفارسى وهو بحر البصرة طوله ألف وأربعمائة ميل وعرضه في الأصل خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة وخمسون ميلاً . ويكون بين هذين الخليجين أعنى خليج أيلّة وخليج فارس أرض الحجاز واليمن ويكون ما بين هذين الخليجين ألفاً وخمسمائة ميل . ويخرج منه أيضاً خليج آخر إلى أقصى أرض الهند عند تمامه يسمى الخليج الأخضر طوله ألف وخمسمائة ميل . وفي هذا البحر كله أعنى بحر الهند والصين من الجزائر العامرة وغيرها ألف وثلثمائة وسبعون جزيرة منها جزيرة في أقصىها عند بلد الصين تسمى طبرستان وهى سرديب يحيط بها ثلاثة آلاف ميل مقابل الهند من ناحية المشرق وفيها جبال عظام وأنهار كثيرة منها يخرج الياقوت الأحمر ولون السماء وحولها تسع وخمسون جزيرة عامرة فيها مدن وقرى كثيرة . فأما بحر أوقيانوس الغربى الذى يدعى المحيط فإنه لا يعرف منه إلا ناحية المغرب والشمال من أقصى أرض الحبش إلى برطانية وهو بحر لا تجرى فيه السفن والست الجزائر التى فيه مقابل أرض الحبش هى الجزائر العامرة وتسمى أيضاً جزائر السعداء . وجزيرة أخرى مقابل الأندلس تسمى غديرة عند الخليج وهذا الخليج يخرج منه وعرض موضعه الذى يخرج منه سبعة أميال هو بين الأندلس وطنجة يُسمى سبطا يخرج إلى بحر الروم وفيه أيضاً من ناحية الشمال جزائر برطانية وهى اثنتا عشرة جزيرة ثم يبعد عن العمران فلا يعرف 103 أحد كيف هو ولا ما فيه . وأما بحر الروم ومصر فإنه يخرج من عند الخليج الذى يخرج من بحر أوقيانوس الغربى عند الجزيرة التى تسمى غديرة مقابل الأندلس إلى صور وصيداء من ناحية المشرق وطوله خمسة آلاف ميل وعرضه في مكان ستمائة ميل وفي مكان سبعمائة ميل وفي مكان ثمانى مائة ميل وفيه خليج واحد يخرج إلى ناحية الشمال قريباً من رومية طوله خمسمائة ميل يسمى بحر أذريس وخليج آخر يخرج

نحو أرض نربونة طوله مائتا ميل . وفي هذا البحر كله من الجزائر مائة واثنان وستون جزيرة عامرة منها خمس عظام إحداها جزيرة قرنس يحيط بها مائتا ميل وسرّدانية يحيط بها ثلاثمائة ميل وقُبُرس يحيط بها ثلاثمائة وخمسون ميلا وصِقِلَاسِيَّة يحيط بها خمسمائة ميل وإقْرِيطِش يحيط بها ثلاثمائة ميل . وبحر بُنطُس يمد من لاذقة إلى القسطنطينية العظمى طوله ألف وستون ميلا وعرضه ثلاثمائة ميل يدخل فيه النهر الذي يسمى طَنْتَايَس ومجراه من ناحية الشمال من البحيرة التي تسمى مايُطُس وهو بحر ضخم وإن كان يسمى بحيرة طوله من المشرق إلى المغرب ثلاثمائة ميل وعرضه مائة ميل وعند القسطنطينية ينفجر منه خليج يجرى كأنه نهر ويصب في بحر مصر وعرضه عند القسطنطينية قدر ثلاثة أميال والقسطنطينية عليه . وبحر جُرجان وهو بحر الباب طوله من المغرب إلى المشرق ثمان مائة ميل وعرضه ستائة ميل وفيه جزيرتان قبالة جرجان كانتا فيما مضى عامرتين وهذه المواضع العامرة من موضوع بحر الأرض المعروف والله بذلك أعلم .

وقد قُسمت الأرض بثلاثة أقسام الأول منها من البحر الأخضر من ناحية الشمال والخليج الذي يخرج من بنطس إلى البحر الأكبر وما بين بحيرة مايطس إلى بنطس فصارت حدود هذه الناحية من المغرب والشمال البحر الغربي وهو أوقيانوس ومن ناحية الجنوب بحر مصر والروم ومن ناحية المشرق طنايس وبحيرة مايطس وصارت هذه الأرض شبه الجزيرة وسموها أورو في . والقسم الثاني من ناحية الجنوب من بحر مصر إلى بحر الحبش وحدود هذه الناحية من المغرب البحر الأخضر ومن الشمال بحر مصر والروم ومن المشرق العريش ومن الجنوب بحر الحبش ويسمى هذا القسم لوبيا . والقسم الثالث جميع ما بقي من عمران الأرض إلى أقصى ذلك وحدوده من المغرب طنايس والنهر والخليج والعريش وأيلة ومن الجنوب بحر اليمن والهند ومن المشرق أقصى عمران الصين من ناحية المشرق والصين نفسها ويسمى هذا القسم 104 أشيا الكبرى . فهذه الثلاثة الأقسام قد جمعت الأقاليم والكُور وسائر البلدان العامرة . وأما ما لا يُعرف |

عمرانه ولا خرابه فهو أحد عشر جزءاً من اثني عشر جزءاً وأما الجزء الذي فيه العمران المعروف من موضع خط الاستواء ففيه البحور والمفاوز . فإن قال قائل هل في هذه الأحد عشر جزءاً نبات وحيوان وعمران كان القول فيه من جهة القياس والرأى وأما ما كان من عمران الأرض قبلنا فإنه لا يجوز الحدّ والأفراق التي ذكرنا وأما الذي وراء ذلك فإنه لم يُبحرْه أحد إلينا ولكن الرأى والظن يقع على ما لا ينكره أحد من ذوى المعرفة على جهة القياس أن الشمس والقمر والكواكب تجرى عندنا فيكون بحركتها وقربها وبعدها صيف وشتاء ونبات وحيوان وعمران وما يعرفه كل أحد فإن كانت الشمس تطلع على كل مكان من دائرة الأرض الباقية والكواكب مثل ما عندنا فيمكن أن يكون هنالك نبات وحيوان وبحور وجبال مثل ما عندنا وينبغي أن يكون كذلك . وتكون حصّة الدرجة الواحدة من هذه الأميال المذكورة قريباً من خمسة وستين ميلا وهو مسيرة يومين بالتقريب والله أعلم . فأما طول المدن وعرضها على ما رُسمَ في كتاب صورة الأرض فإن مواضعها من الطول الذي هو مسافة ما بين المغرب والمشرق فإنهم ابتدأوا

به من الجزائر العامرة التي في بحر أوقيانوس الغربي إلى ناحية المشرق على حسب ما وجدوا أوقات كسوفات القمر خاصة بتقدم بعضها بعضاً في البلدان فعلموا بذلك أن انتصاف النهار في كل بلد يتقدم انتصاف النهار في غيره من ناحية المغرب بأجزاء من أزمان معدل النهار يكون مقدارها مقدار أزمان ما بين الكسوف في البلدين ومن ذلك ما أخذوه من الأخبار ممن يسلك الطرق بالتقريب . وأما عروض المدن فإنهم أخذوها من قبل قياس الشمس في أوقات انتصاف النهار في البلدان فعرفوا بعدها وقربها من نقطة سمت الرؤوس على نحو ما بينا فيما تقدم من هذا الكتاب فعلموا بعد كل بلد عن خط الاستواء وهو مسافة ما بين الجنوب والشمال ورسموا تحت كل مدينة بعدها عن الجزائر الخالدات في الطول وعن خط الاستواء في العرض بالتقريب وقد أثبتنا ذلك على الرسم الذي وجدناه في كتاب صورة الأرض المعروف وذكر أوساط البلدان والكور المعلومة أيضاً ذكراً مفرداً كما فعل بطليموس وهي أربعة وتسعون بلداً . وقد يوجد في هذا الكتاب خلل في الأطوال والعروض وسنعيد ذكر ما يحتاج إليه من ذلك فيما يستأنف من كتابنا هذا * (٦٧) .

وبالطبع فهذا الفصل لا يستغرق جميع المادة الجغرافية الموجودة في زيغ البتاني . وجدول الأقاليم 105 لديه يتفق بالتقريب مع الفرغاني ولكنه يختلف مع الخوارزمي بالطبع ، لأن هذا الأخير كما بينا من قبل يقف فريداً في هذا الصدد ؛ والبتاني لا يضع هذا الفصل في القسم الجغرافي من زيجه بل بين الجداول المفردة للأجرام السماوية . ولا تخلو من الأهمية أيضاً جداوله الجغرافية التي لسبب ما لم تجد مكانها في الترجمة اللاتينية لأفلاطون التيفولي ولذا فلم تصبح في متناول أيدي العلماء إلا في منتصف التسعينيات من القرن الماضي وذلك في الترجمة الكبرى لنالينو التي سبقت ظهور الطبعة الكاملة للكتاب . وهي تعطى ثبناً بأسماء مائتين وثلاثة وسبعين موضعاً موزعة على مجموعتين مع تبيان العروض والأطوال (٦٨) . ولأول وهلة قد يظن أن البتاني كان يستهدف تنمية الخوارزمي لأنه يورد في القائمة الأولى الأربع وتسعين ولاية «eparchies» للمعمورة الواردة في المقالة الثامنة من كتاب بطليموس والتي لم تجد مكانها في «صورة الأرض» للخوارزمي . وفي كِلَيْ جَدُولِيهِ ، كما في مقدمة زيجه أيضاً ، يورد البتاني في الواقع ذكر مصدر واحد فقط بعنوان «كتاب صورة الأرض» . غير أنه من المستحيل أن يبصر في هذا كتاب الخوارزمي وذلك لأسباب عديدة من بينها ، ولو أنه ليس أهمها ، أن الترجمة اللاتينية لأفلاطون التيفولي القائمة على الأصل العربي لكتاب البتاني تضيف بعد هذا العنوان «المعروف باسم جغافيا» . وكما أثبت نالينو فالكلام يدور هنا في الواقع حول الترجمة المصاحبة لبطليموس التي عملها

* إن شرح هذه القطعة يحتاج إلى بحث خاص ، ولكن تسميلاً لفهمها نذكر أنه يقصد بالبربر والخليج البربري بلاد الصومال ، أما سبطا فهي سبتة (Ceuta) . وبحر أدريس هو البحر الأدرياتيكي ، أما جزيرة قرنس فهي كورسيكا ، وأما لاذقة فهي بلاد اللاذ . ونهر طانائس يقصد به الدون الحالي ، أما بحيرة مايطس فهي بحر آزوف . ويريد ببحر جرجان بحر قزوين وبالباب مر در بند . (المترجم)

ثابت بن قرة^(٦٩) ؛ وهذا ليس بغريب فثابت من مواطني البتاني فضلاً عن أن الأخير قد تحاشى ، عن قصد في أغلب الظن ، الاستفادة من النتائج العلمية التي وصل إليها فلكيو المأمون ، هذا إذا اعتمدنا في حكمنا على عدم وجود أية مقتطفات من مصنفاتهم في كتابه^(٧٠) . وهو لا ينبس ببنت شفة عن المقاسات التي أجراها أولئك لخط منتصف النهار ، ولكن من ناحية أخرى فإن صاحب الترجمة المصلحة لبطلميوس كان على علم بمصنف الخوارزمي فقد استعار منه بعض المعطيات^(٧١) ، كما كان على علم أيضاً بالترجمات السريانية لبطلميوس^(٧٢) .

وكما أبصرنا من قبل فجميع المسائل المتعلقة بالتاريخ المبكر للجغرافيا الرياضية عند العرب يحيط بها الكثير من الغموض واللبس ؛ وهذا الحكم يصدق بدوره على مصادر البتاني . غير أن مصنفاته تمتاز على المصنفات الأخرى التي بين أيدينا الآن بوجود طبعة علمية لأحدها . إذ الواقع يثبت أنه لا توجد 106 رسالة فلكية واحدة | عن العصر الأول تتمتع بطبعة علمية نموذجية مع ترجمة وتعليقات ضافية كما هو الحال مع « الزيج الصابي » في الأجزاء الثلاثة الكبرى لنالينو (١٨٩٩ - ١٩٠٧) . وتعتبر تعليقات نالينو بحق موسوعة لا مثيل لها لكل من يريد الخوض في مسائل الفلك والجغرافيا الرياضية عند العرب .

وبعد قرن بالتقريب من البتاني وفي مصر الفاطمية ظهر مؤلف في الفلك على هيئة جداول تتمتع بنفس المكانة الممتازة التي تتمتع بها زيج البتاني . وهو من عمل ابن يونس الذي على النقيض من البتاني حفظ لنا تفاصيل الوصف الهام لحساب خط منتصف النهار الذي تم في عهد المأمون . وكما هو الحال مع فلكيو المأمون فإن ابن يونس ، واسمه أبو الحسن على الصدفي^(٧٣) ، كان أيضاً فلكياً للبلاط ؛ وقد بدأ عمله في وضع الجداول حوالي عام ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ على جبل المقطم بالقاهرة في المرصد الذي ضمّ فيما بعد إلى « دارالحكمة » التي أنشأها الخليفة الفاطمي الحاكم واستمرت من عام ١٠٠٥ إلى آخر عهد الفاطميين في عام ١١٧١^(٧٤) ؛ وهي تقدم لنا مثيلاً للمنظمة المعروفة في عهد هارون الرشيد والمأمون . أما الجداول فقد أتمها ابن يونس قبل قليل من وفاته (في عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩) وأخذت عنوان « الزيج الحاكمي الكبير » نسبة إلى الخليفة الفاطمي لذلك العهد وهو الحاكم بأمر الله . وقد حفظ لنا الكتاب في عدة مخطوطات غير كاملة ، نشر شذوراً منها وترجمات كوسان دي پرسيفال Caussin de Percival ، ويحمل كتابه تاريخ العام الثاني عشر للجمهورية الفرنسية (١٨٠٣ - ١٨٠٤) . وقد قام المستعرب وعالم الرياضيات شوي Schoy بالكثير في دراسة نظرياته في العشرينيات من هذا القرن^(٧٥) وبين ما قام به ابن يونس لا في ميدان الفلك وحده بل أيضاً في حساب المثلثات الكروي (spheric trigonometry) حيث يجتذب الأنظار بشكل خاص قاعدة رياضية كشف عنها ابن يونس . ولا شك أن ابن يونس يعتبر أكبر الفلكيين العرب قاطبة بعد البتاني .

وتسبق الجداول مقدمة قصيرة تمتاز بالطرافة وتعرض بإيجاز لجميع تلك الأغراض العملية التي تستخدم الفلك والجغرافيا الرياضية في مجال الشعائر الإسلامية . قال :

«... ولما كان للكواكب ارتباط بالشرع^(٧٦) في معرفة أوقات الصلوات وطلوع الفجر الذي يحرم به على الصائم الطعام والشراب وهو آخر أوقات الفجر وكذلك مغيب الشفق الذي هو أول أوقات العشا الآخرة وانقضا الإيمان والندور^{||} والمعرفة بأوقات الكسوف للتأهب لصلاته والنوجه إلى الكعبة 107 لكل مصل وأوایل الشهور معرفة بعض الأيام إذا وقع فيه شك وأوان الزرع ولقاح الشجر وجنى الثمر ومعرفة سمت مكان ما من مكان والاهتدا عند الضلال وكان رصد أصحاب الممتحن قد بعد عمره وكان عليه من الخلل ما وجد في أرصاد من تقدمهم من أهل العلم والبطش مثل ارشميدس وابرخس وبطلميوس وغيرهم أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين أبو على المنصور الإمام الحاكم بأمر الله صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأنبيائه الأكرمين بتجديد رصد الكواكب السريعة السير وبعض البطيئة^(٧٧) .

كما تحتوى الجداول نفسها على مقدمة تبسط ما يحتاج إليه عملياً في الرصد والحساب وكيفية استعمال الجداول سواء من الناحية الفلكية بمعناها الضيق أو من ناحية التوقيت وحساب المثلثات . والمهمة الأساسية لجداوله هي تصحيح الأرصاد السابقة ، فحصل بهذا على نتائج جديدة ؛ والأمر الذي يهنا بصورة خاصة ، أى من وجهة النظر الجغرافية البحتة ، هو تحديد مواقع مائتين وسبع وسبعين مدينة وهو رقم لا يختلف كثيراً عن الرقم الوارد في الجداول الجغرافية للبتاني السالف ذكرها :

وفي كلامنا على بداية الجغرافيا الفلكية عند العرب أشرنا إلى الدور الهام الذي قام به الزرقالى كوسيط بين الشرق والغرب ، كما وقفنا بعض الشيء عند «جداول طليطلة» التى لعب الزرقالى دوراً رئيسياً في وضعها . وأبو إسحق إبراهيم بن يحيى الزرقالى ، الذى اشتهر في الدوائر العلمية بنسبته «الزرقالى» وفى أوروبا الوسيطة باسم Arzachel (عاش حوالى عام ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ - ٤٨٠ هـ = ١٠٨٧^(٧٨)) كان في بادئ أمره على أغاب الظن نقاشاً ، وتكمن هذه الحقيقة في أنه لقب أيضاً بالنقاش . وكان يعمل في تخضير الآلات الفلكية الدقيقة فاخترع اسطرلاباً جديداً بلغ حد الكمال ، ولم يلبث أن صار أكبر راصد لعصره . ومسقط رأسه قرطبة ولكنه أمضى حياته بأجمعها تقريباً بطليطلة التى كانت آنذاك المركز الثقافى لأسبانيا . ورسائله في الاسطرلاب المسماة «صفيحة الزرقالى» (في الترجمة اللاتينية Saphaea Arzachelis) كان لها تأثير لا نظير له على كافة العلم الأوروبى ، وترجمت في ذلك الوقت إلى لغات عديدة كالعبرية واللاتينية والقشتالية^{||} والإيطالية^(٧٩) . وقد لعبت نفس هذا الدور أيضاً «جداول 108 طليطلة» الفلكية التى شارك في وضعها الزرقالى مشاركة فعالة وعمل لها شرحاً خاصاً بها ؛ ولم يعثر على الأصل العربى لها إلى الآن غير أن الترجمة اللاتينية لجيرارد الكريمونى Gerard of Cremona في القرن الثانى عشر معروفة في أكثر من خمس عشرة مخطوطة ، الأمر الذى يدل على سعة انتشار الكتاب . وقد كان لهذه الجداول أثر كبير في النشاط العلمى للفوننس «العالم» في القرن الثالث عشر ؛ وأفرد لها ريجيومنتانوس Regiomontanus رسالة خاصة ، كما وأن كوبرنيكوس Copernicus بنقل

عنها كما فعل مع البتاني تماماً^(٨٠) ، وفي الأعوام الأخيرة قام العالم الإسباني خوسيه مياس فاليكروسا Jose M. Millás y Vaillicrosa بأبحاث عديدة تبين جميع أوجه النشاط العلمي للزرقي . ومما يصور أهمية نشاطه بالنسبة للجغرافيا أنه استغل الترحات العربية لبطلميوس بما في ذلك كتاب الخوارزمي أيضاً^(٨١) ؛ ومن بين أعماله العلمية حسابه لطول البحر الأبيض المتوسط إلى ما يقرب من الواقع وذلك في ٤٢° درجة ، هذا بعد أن تم اختزال القياس البطلميوسي من ٦٢° درجة إلى ٥٤° درجة بواسطة فلكي المأمون^(٨٢) .

وبالطبع فلم تلعب جميع الزيجات في تاريخ العلم العالمي دوراً مماثل الدور الذي لعبته جداول البتاني أو الزرقي ، ولكن حتى تلك التي لا تجتذب الأنظار كثيراً قد تمثل أحياناً بعض الأهمية بالنسبة لنا لصلتها بالعلم الروسي . ففي نهاية الخمسينيات من القرن الماضي عرّف خانيكوف Khanikoff الدوائر العلمية لأول مرة بالخطوط الفريدة التي كان يمتلكها وقتئذ وهي كتاب « ميزان الحكمة » لمؤلف يدعى الخازني وذلك بنشره لمقتطفات منها في مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية Journal of the American Oriental society^(٨٣) . وسرعان ما اجتذب الكتاب الأنظار وتم الاعتراف به كأثر بارز في ميدان الميكانيكا والفيزياء والهيدروستاتيكا (Hydrostatics) * كما اتضح أنه يمثل خطوة إلى الأمام في دراسة الوزن النوعي التي بدأها البيروني . وقد ظهر في الآونة الأخيرة عدد من الدراسات عن هذا المصنف ، كما أن العمل يسير قدماً في تحضير طبعة علمية كاملة له تأخذ في حسابها إلى جانب مخطوطتنا المخطوطات التي تم الكشف عنها في الهند منذ ذلك الوقت^(٨٤) .

أما عن المؤلف نفسه فقد تجمعت الحقائق ببطء شديد ، وشيئاً فشيئاً بدأ يتضح أنه كان عبداً رومياً (بزنطياً) عاش بمدينة مرو وأعتقه سيده ووفر له تعليماً جيداً ، كما اتضح أيضاً أن له مصنفاً آخر يهمننا بصورة خاصة في ميداننا هذا وهو « الزيج السنجرى »^[المعتبر] ؛ وهذه الجداول محفوظة في مخطوطة فريدة بالفاتيكان ندين بمعرفتنا بها إلى المستشرق نالينو^(٨٥) . وقد عملت الجداول بمرو حوالي عام ٥٢٠هـ =

١١٢٦ على أساس أرصاد ترجع في الغالب إلى عام ٥٠٩هـ = ١١١٥ - ١١١٦ وتعتمد على خط عرض 111 مرو الذي حدد بسبع وثلاثين درجة وأربعين دقيقة^(٨٦) . ومن الطريف أن الخازني يورد فيها حسابات تقوم على الأدوار الكونية (Cosmic Cycles) لاسدهانتا وأدوار « الألوف » لأبي معشر^(٨٧) ، وهذا برهان آخر على أن المذهب الهندي - الإيراني كان لا يزال متمتعاً ببعض الحيوية . أما الجداول فقد أخذت اسمها من اسم السلطان سنجر آخر السلاجقة الكبار (٥١١هـ - ٥٥٢هـ = ١١١٨ - ١١٥٧) الذي نشط الخازني في عصره ورفع جداوله إليه .

وفي القرن الثالث عشر ينتقل بنا إلى أفريقيا الشمالية الفلكي أبو علي حسن المراكشي (توفي حوالي

* أي علم توازن السوائل الساكنة وضغطها (القاموس العصري) . (المترجم)

عام ٦٦٠ هـ = ١٢٦٢) (٨٨) الذي يمثل بعض الأهمية بالنسبة للجغرافيا أيضاً لأنه سافر كثيراً فزار الأندلس وعرف شمال إفريقيا من المحيط الأطلنطي إلى النيل . ومصنفه الأساسي هو « جامع المبادئ والغايات إلى علم الميقات » ؛ وفي القسم الأول منه يعالج مبادئ تلك العلوم التي يقوم عليها الفلك وهي الكوزموغرافيا (وصف الكون) والتوقيت وفن صنع الساعات الشمسية أي المزاويل Gnomonics ؛ أما القسم الثاني فقد أفرد بصورة خاصة لصناعة أجهزة الرصد وطريقة العمل بها . وهو يقدم لنا كشفاً بأسماء مائتين وأربعين نجماً رصدت عام ٦٢٢ هـ = ١٢٢٥ - ١٢٢٦ ، هذا إلى جانب جداول العروض والأطوال المائة وخمسة وثلاثين موضعاً جغرافياً حقق منها بنفسه أربعة وثلاثين (٨٩) . ومن الطريف اتخاذ الأرين خطأً للابتداء ، وهو مذهب يرجع إلى التراث السابق لعهد المأمون . وقد أكمل تأليف هذا المصنف في عام ٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ ، وهو كغيره من الآثار الفلكية قد تعرف عليه العلم المعاصر قبل تعرفه على الآثار الجغرافية وأضحى جزء كبير منه في متناول الأيدي في ترجمة فرنسية من عمل العالمين الفرنسيين سيديو Sédillot الأب والابن (١٨٣٤ - ١٨٣٥ ، والتمة عام ١٨٤٢) . وكما لاحظ رينو (٩٠) فإنه من المستحيل بالطبع إنكار أن المراكشي كان تجريبياً أكثر منه عالماً وأنه يقف في المستوى العلمي دون ابن يونس بكثير ، إلا أن مصنفه يمثل خطوة هامة في ميدان الجغرافيا الرياضية ولا يزال وصفه لأجهزة الرصد فريداً في نوعه إلى اليوم .

- وفي العصر الذي كان يقوم فيه المراكشي بأرصاده الفلكية في المغرب حدث بالشرق تحول كبير نتيجة لاستيلاء المغول على بغداد وقضائهم نهائياً على الخلافة العباسية . وهذا العهد الذي صحبه القضاء على عدد من آثار الحضارة استطاع رغم ذلك أن ينتج أثراً ممتازاً في ميدان الفن الذي نعالجه الآن ، أعني بذلك « الزيج الإيلخاني » ؛ كما استطاع أن ينشئ منظمة واصلت بجدارة النشاط العلمي « لدار الحكمة » المأمونية والحاكمية ، أعني بذلك مرصد مراغة الشهير . وكل من الجداول الفلكية | والمرصد يرتبطان 112 باسم واحد من أكبر علماء الإسلام قاطبة وهو نصير الدين الطوسي (٥٩٧ هـ - ٦٧٢ هـ = ١٢٠١ - ١٢٧٤) (٩١) ويكتب اسمه في العلم الأوروبي أحياناً على هيئة ناصر الدين ، ولكن هذا كما أثبت نالينو (٩٢) يستند على محض خطأ إذ أن اسمه في الواقع هو نصير الدين ليس غير . وقد كان نصير الدين يجيد اللغتين العربية والفارسية ويكتب بهما ، ويمكن اعتباره ممثلاً للثقافتين العربية والفارسية على السواء . وفي مؤلفاته العلمية سار بالطبع على منوال المذهب العربية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتراث الأوائل . وقد مكنته مهارته السياسية الفائقة من أن يحتفظ بحياته | في الظروف القاسية التي مرت بها إيران في منتصف القرن 113 الثالث عشر ، بل وأن يزاول نشاطه العلمي كذلك ؛ وحدث له أن أمضى فترة ليست بالقصيرة محتجزاً في قلعة الاسماعيلية بالموت Alamut ، وما لبث أن وقع في قبضة هولاء وولكنه عرف كيف يحتفظ بنفسه لديه معتمداً في ذلك على ما يظهر على سمعته كمنجم ؛ وكان في معية هولاء عند

استيلائه على بغداد : وقد حاله التوفيه في العام التالي لذلك (٦٥٧ هـ = ١٢٥٩) فأقنعه ببناء مرصد كبير بمراغة بأذربيجان حيث كان يوجد بلاط المغول .

وقد تم تزويد المرصد بأفضل أجهزة الرصد لذلك الحين حفظ لنا وصفها تلامذة الطوسي وزملاؤه فقدّموا بذلك مادة لأبحاث قام بها بعض المتخصصين من الأوروبيين . واشترك نصير الدين أحياناً في حملات المغول العسكرية ليجمع المخطوطات لمكتبة المرصد التي ضمت أربعائة ألف مجلد ؛ وهو رقم مبالغ فيه كما يحدث عادة في أمثال هذه الحالات . وكان من بين أمناء هذه المكتبة يوماً ما المؤرخ المعروف ابن الفوطي الذي كان وقع أسيراً في يد المغول فأنتقذه نصير الدين . وأعد المرصد خيراً لإعداد ليس في الأجهزة والآلات والكتب فحسب بل وأيضاً في العدد الضخم من العلماء حيث وجد إلى جانب تلامذة الطوسي أبنائه أيضاً ؛ وثمة روايات عن مشاركة علماء صينيين في أعمال الرصد بهذا المرصد وهو أمر ليس مستبعد بالنسبة لدولة المغول . بيد أن المرصد لم يدم أكثر من جيلين ولم يسمع عنه شيء بعد النصف الأول من القرن الرابع عشر^(٩٣) ؛ ولا تزال خرابته ماثلة إلى أيامنا هذه بمراغة^(٩٤) .

وكان نصير الدين الطوسي دائرة معارف بمعنى الكلمة ، فقد شمل نشاطه العلمي جميع العلوم سواء الإسلامية الصرفة أو العلوم الدقيقة . ويستوعب النظر ما قاله عنه في عام وفاته العالم السرياني المعروف ابن العبري ، وكان يعرفه معرفة جيدة ، بل واشتغل هو نفسه بالتدريس بعض الوقت بمراغة : قال : « وفي هذا التاريخ توفي خواجه نصير الدين الطوسي الفيلسوف صاحب الرصد بمدينة مراغة حكيم عظيم الشأن في جميع فنون الحكمة . واجتمع إليه في الرصد جماعة من الفضلاء المهندسين . وكان تحت حكمه جميع الأوقاف في جميع البلاد التي تحت حكم المغول . وله تصانيف كثيرة منطقيات وطبيعيات وإلهيات وأوقليدس ومجسطي . وله كتاب أخلاق فارسي في غاية ما يكون من الحسن جمع فيه جميع نصوص أفلاطون وأرسطو في الحكمة العملية . وكان يقوى آراء المتقدمين ويحل شكوك المتأخرين المؤخذات التي قد أوردوا في مصنفاتهم »^(٩٥) .

114

أما في محيط العلوم الدقيقة فندين له بتصليحات عديدة لمؤلفات جميع علماء الأوائل تقريباً من عرفهم العرب ، وقد استمر الشرق الإسلامي يستخدم هذه الترجمات المصلحة لنصير الدين الطوسي إلى أيامنا هذه . من ذلك أنه أعد مسودة جديدة للمجسطي طغت على جميع الترجمات السابقة تقريباً . أما أرصاده لوضع جداول فلكية فقد بدأها في سن متقدم من عمره وهو سن الستين ؛ ومع ذلك فقد وفق في إتمامها خلال اثني عشر عاماً وذلك حوالي عام ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ رغباً من أنه يقرر في مقدمة الجداول أن دورة الأرصاد الفلكية لا تتم في أقل من ثلاثين سنة^(٩٦) . وقد شارك في وضع هذه الجداول فلكيون آخرون واستند حسابها على أساس خط منتصف النهار الذي يمر بمراغة ، وأطلق عليها اسم « الزيج الايلخاني » نسبة إلى اللقب الذي كان يحمله حكام إيران المغول . والكتاب مرتب على أربع مقالات الأولى في التقاويم المختلفة.

والثانية فى حركات الكواكب والثالثة فى تحديد الأوقات والرابعة فى حسابات تنجيمية مختلفة . هذه الجداول وإن لم تشتمل دائماً على إحصادات أصيلة إلا أنها اكتسبت صيتاً واسعاً فى الشرق الأدنى واستمرت مستعملة حتى إلى ما بعد ظهور جداول ألوغ بيك ، بل إنها نفذت إلى الصين وسيطرت سيطرة مطلقة على علم الفلك هناك . وقد اعتمد أحد علماء سمرقند ممن عاشوا بالصين على جداول نصير الدين الطوسى فى وضع تقويم خاص لأحد أحفاد جنكيزخان فى عام ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ (٩٧) ، واستمر تأثيرها فى الصين إلى ما بعد زوال دولة المغول بها فى القرن الرابع عشر حتى طغت عليها فى القرن السابع عشر مؤلفات الجزويت الغربيين الذين اشتد نشاطهم فى ذلك الوقت (٩٨) .

وأغلب الظن أن « الجداول الایلخانية » قد وضعت أصلاً بالفارسية ولكن يُعرف عدد كبير من مسوداتها باللغة العربية ، بل وعدد من المسودات المصاحبة والشروح (٩٩) . ويرجع الفضل لأحد تلك الشروح وهو لمحمود شاه قلجى فى تعريف أوروبا بهذه الجداول ، إذ نشر مقتطفات من هذا الشرح مع ترجمة المستشرق والفلكى الإنجليزى جون غريفز John Greaves سنة ١٦٤٨ - ١٦٥٠ (١٠٠) . وكما هو الشأن مع بقية الزيجات فإن كمية المادة الجغرافية الخالصة فيه لا يستهان بها رغماً من أنها تقتصر بشكل خاص على إيراد الأطوال والعروض (١٠١) . وينسب إلى نصير الدين الطوسى مصنف خاص فى الجغرافيا **باللغة الفارسية** ترتفع تسميته إلى المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب هو « صورة الأقاليم » 115 الذى يحوم الشك حول صحة نسبته إليه والذى لا يمثل فى واقع الأمر سوى ترجمة فارسية لكتاب الاصطخرى على ما يبدو (١٠٢) .

ويجب أن نخص بالذكر من بين تلامذة الطوسى ومعاونيه العديدين قطب الدين مسعود الشيرازى (٦٣٤ هـ - ٧١٠ هـ = ١٢٣٦ - ١٣١١) (١٠٣) الذى تجاوزت مواهبه العلمية حدود الجغرافيا الرياضية بكثير ، فهو كنصير الدين الطوسى كان جامعاً لصنوف المعارف مما حدا بأبى الفدا إلى أن يلقبه « بالمتفنن » (١٠٤) ، وهو قد فات نصير الدين فى بعض النواحي وأبدى أصالة أكثر منه . ويرى فيه بارتولد « فلكياً عظيماً بحث عن طرق جديدة فى الفلك » (١٠٥) ، بينما اعتبره سارطون Sarton من كبار علماء الفرس عامة (١٠٦) . والذى يهمننا بصورة خاصة اثنان من مصنفاته ارتباطاً وثيقاً ببعضهما البعض ، أحدهما « نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك » الذى فرغ من تأليفه عام ٦٨٠ هـ = ١٢٨١ ، والآخر « التحفة الشاهية فى علم الهيئة » الذى يرجع إلى عام ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ ، وهو يمثل إلى حد كبير مسودة مصالحة للمصنف الأول . و« نهاية الإدراك » ليس مصنفًا فلكيًا بالمعنى الدقيق للفظ بل يعالج بصورة منظمة مسائل الكوزمولوجيا والجيودوسيا والمترولوجيا والميكانيكا والبصريات (١٠٧) . وثيدمان الذى اهتم كثيراً بدراسة هذا الأثر يعتبره أفضل عرض للفلك (الكوزموغرافيا) باللغة العربية يخلو من الرياضيات (١٠٨) . ويمثل بعض الطرافة فحصه لموضوع شكل الأرض وموضعها وحركتها (١٠٩) وحجمها (١١٠) . وهو أكثر

ميلا إلى نفي الحركة عنها^(١١١). وفي القسم الجغرافي يعرض وصفاً مفصلاً للبحار والأقاليم مأخوذ كما هي العادة عن الفلكيين ولكن أكثر استيفاءً ، بحيث يقدم لنا في أحوال عديدة مادة تكفي لوضع خارطة . وتوجد لديه أحياناً معلومات هامة عن بلاد كالهند وجاوه^(١١٢) ، كما وأن معرفته بالمغرب لا بأس بها .

116 وعندما دخل الخان أرغون في علاقات دبلوماسية مع فرنسا والبابوية تمكن قطب الدين من أن يريه في عام ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ خارطة لبحر المغرب وسواحله مبين عليها بدقة مواقع مدن آسيا الصغرى كذلك^(١١٣)؛ والشيرازي لم يظفر إلى هذه اللحظة بالاهتمام والتقدير اللائقين به في الأوساط العلمية ولم ير النور حتى الآن أي من مصنفاته التي ذكرناها ؛ أما معرفتنا بنظرياته فنحن مدينون بها إلى فيدمان الذي أوضح في كثير من أبحاثه المتناثرة^(١١٤) آراء الشيرازي حول عدد من المسائل العلمية .

أما آخر الزيجات الذي يكتمل به عقد هذه السلسلة من الآثار فيقترب باسم حفيد تيمورلنك وهو ألوغ بيك (٧٩٦ هـ = ٨٥٣ هـ = ١٣٩٣ - ١٤٤٩)^(١١٥) ؛ وقد بين بارتولد في بحث مفصل مكانة هذا الأمير في التاريخ والعلم* . وكان محباً للفلك خبيراً فيه فقد شيد على غرار إيلخانات إيران مرصداً هائلاً بسمرقند في سنة ٨٣٢ هـ = ١٤٢٨ ، ظهرت أطلاله في حفريات عام ١٩٠٨ ولكن للأسف ليس بصورة تمكننا من الحكم على البناء بأجمعه ؛ ورغماً من ذلك فإن ربع الدائرة (Quadrant) في الجزء المتبقي منه لا يزال يحدث تأثيراً قوياً في نفس من يراه^(١١٦) . وفي هذا المرصد كان ألوغ بيك يعمل مع عدد من العلماء بعضهم من آسيا الصغرى والبعض الآخر من إيران ، وظهرت آثار هذا النشاط في جداول النجوم المعروفة باسم « زيج سلطاني جديد » أو بالاختصار « زيج ألوغ بيك » ، التي تم وضع معظمها حوالي عام ٨٤١ هـ = ١٤٣٧ . وأغلب الظن أنها وضعت أصلاً بالفارسية ولكن ظهرت معها في وقت واحد بالتقريب الترجمتان العربية والتركية وأعقبهما عدد من الشروح والتفحيحات . وترتيب هذا الزيج يكاد يطابق ترتيب الزيج الإيلخاني ، فيل المقدمة الطويلة المقالة الأولى في معرفة التقاويم ، بينما تبحث المقالة الثانية في معرفة الأوقات ، أما الثلاثة ففي حركات الكواكب ، ثم الرابعة في مواقع النجوم الثابتة . وبالطبع فزيج ألوغ بيك استمرار للتراث العلمي العربي في مجرى من مجاريه ، فهو لم يكشف عن شيء جديد البتة . وقد أصبحت عمليات الرصد في العصور التالية لذلك إلى العصر الحديث عسيرة التنفيذ في الشرق الأدنى ، لذا فإن زيج ألوغ بيك يمثل الكلمة الأخيرة في فلك العصور الوسطى بل والدرجة القصوى التي بلغها علم الفلك قبل اختراع المنظار المقرَّب (التلسكوب)^(١١٧) .

117 أما مرصد ألوغ بيك فقد كان أقصر عمراً حتى من مرصد مراغة ، وأغلب الظن أن عمره لم يتجاوز حياة مؤسسة فأضحى منذ القرن السادس عشر خرائب وأطلالا^(١١٨) . هذا وكان من أكبر معاوني ألوغ بيك في مرصده ومن واضعي الزيج على بن محمد القوشجي (توفي عام ٨٧٩ هـ = ١٤٧٤) الذي

* ظهرت بالاتحاد السوفيتي دراسة لعلامة أوزبكي يتناول فيها بالبحث نشاط ألوغ بيك كاملاً . (المترجم)

اضطر إلى مغادرة سمرقند ووجد الملاذ بعد تجوال طويل لدى السلطان العثماني محمد (الثاني) الفاتح بالقسطنطينية حيث أصبح المسئول الأول عن انتشار المعارف الفلكية والجغرافية في الدولة العثمانية فقد تُرجم إلى اللغة التركية عدد من مؤلفاته العربية والفارسية^(١١٩). ولعله ليس من محض الصدفة أن ترجمت جغرافيا بطليموس إلى العربية مرة أخرى في عهد ذلك السلطان.

أما زيج ألوغ بيك فقد تجاوز عمره عمر المرصد بقرون عديدة وكان يستعمله «الموقتون» في البلاد الإسلامية إلى عهد قريب، كما وأن أوروبا قد عرفت في القرن السابع عشر في وقت واحد مع نصير الدين الطوسي بفضل دراسات غريفيز Greaves (١٦٤٨، ١٦٥٢) وهيد Heyd (١٦٦٥). وقد ترجم مقدمة الحدودال سيديو Sédillot (١٨٤٧، ١٨٥٣) أما فهرس النجوم فقد نشره في طبعة علمية بول كنوبل Paul Knobl عام ١٩١٧^(١٢٠).

وزيج ألوغ بيك يهتم سلسلة تلك المصنفات الفلكية التي اقتفت أثر علماء عصر المأمون والتي لا تخلو من الأهمية بالنسبة للجغرافيا الوصفية رغمًا من اقتصرها على تحديد أطوال وعروض البلاد والمدن. وليس من السهل حصر عدد من يمثلون هذا الاتجاه بصورة كاملة منتظمة، بل إنه لا يوجد ما يدعو إلى ذلك لأننا في الواقع عاجلنا جميع الآثار الكبرى التي كانت فاتحة عهد جديد بالنسبة لعصورها: وباستثناء حالات معينة فإنه لا توجد خارطات للمادة الجغرافية التي تحتويها، فالفلكيون أنفسهم لم يحاولوا القيام بذلك كما وأن معظم الجغرافيين لم تكن لهم دراية بمسائل الفلك. والاستثناء الوحيد المثمر كما أبصرنا يمثله في النصف الأول من القرن العاشر سهراب الذي حفظ لنا نفس النظام الموجود لدى الخوارزمي ولكنه اهتم كثيراً بإيراد المادة العربية المعاصرة له^(١٢١)، ولا يتطرق الشك إلى صلته بالرياضيات من جهة وبالجغرافيا الوصفية من جهة أخرى. وهذا الموضوع الأخير، أعني الجغرافيا الوصفية، هو الذي سننتقل الآن إلى معالجة ظروف نشأته في الخلافة العباسية.

مواشى الفصل الثالث

- (١) — Sarton, Introduction, I, p. 563
- (٢) — Suter, El, I, p. 290-291
- (٣) — Mieli, p. 82
- (٤) — Mieli, p. 84-85 — Gandz, Osiris, V, p. 319-391
- (٥) — Wiedemann, El, II, p. 979
- (٦) — Suter, Al-Huwarizmi, p. VIII-IX
- (٧) — Brockelmann, OAL, I, P. 225
- (٨) — Krymski, Ist. Arabov, I, p. 104, 110
- (٩) — Nallino, Al-Huwarizmi, p. 9
- (= Racc., p. 224, note 2) نالينو ، الفلك ، ص ١٧٤ ، ملاحظة ٢
- (١٠) حدود العالم ، ص ٩
- (١١) — Nallino, Al-Huwarizmi, p. 18-19
- (١٢) حدود العالم ، ص ٨
- (١٣) — Nallino, Al-Huwarizmi p. 12
- (١٤) — Lelewel, I, p. 21-29; Epilogue p. 47-60
- (١٥) — Nallino Al-Huwarizmi, p. 18-19 — Mzik, Afrika, p. V-VI ; :
Honigmann, Die sieben Klimata, p. 115 ولكن راجع :
- (١٦) — Mzik, BAH und G., III, p. VII-IX
- (١٧) — Nallino, Al-Huwarizmi, p. 14
- (١٨) شرحه
- (١٩) ملخص باللغة الفرنسية : C. Nallino, Al-Khuwarizmi
- (٢٠) — Mzik, Osteuropa, p. 163-164
- (٢١) راجع عنها : Sarton, E. Wiedeman, Al-Khwarizmi, II, p. 978-979 — Introduction, I, p. 563-564 — Mieli, p. 79-81 — حدود العالم p. 8-9
- (٢٢) — Honigmann, Die sieben Klimata, p. 138-139
- (٢٣) — Nallino, Al-Huwarizmi, p. 15-17
- (٢٤) شرحه ، ص ١٧ - ١٨

- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 160 - 191, note 3; against Suter, (٢٥)
Al - Khwarizmi
- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 161 - 162 (٢٦)
- Kramers, El, EB, I, p. 64 (٢٧)
- (٢٨) المسعودى ، التنبيه ، BGA, VIII ص ٤٤
- J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 393 — Mzik, Ptolemaeus, p. 162-163 (٢٩)
- Mzik, Afrika, p. XI, note 1 — Mzik, BAH und G, III, p. 162 (٣٠)
- Ferrand, Relations, I, p. 115; II, p. 347, 595 (٣١)
- Mzik, Parageographische, p. 194 - 198 (٣٢)
- Kramers, Al - Nil, p. 990 (٣٣)
- Mzik, Parageographische شرحه (٣٤)
- (٣٥) راجع أيضاً : Ferrand, Relations, II, p. 590 - 595
- Mzik, Afrika, p. VI - VII — Mzik, Ptolemaeus, p. 164. — J. K. Wright, (٣٦)
Geogr. Lore, p. 393
- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 156 (٣٧)
- (٣٨) حدود العالم ، ص ٨
- Nallino, Al - Huwarizmi, p. 53 (٣٩)
- (٤٠) حدود العالم ، ص ٧
- J. K. Wright, Geographical Lore, p. 392 (٤١)
- Mzik, BAH und G, I, p. X-XI; V. 1930 — Brockelmann, GAL, SBI, (٤٢)
p. 406, No 6 — Mioli p. 114, 117, note 2
- Le Strange, Ibn Serapion, p. 1 - 76, 255-315 — Guest, Delta — Sartou, (٤٣)
Introduction, I, p. 635 — Brockelmann, GAL, I, p. 227, No 6 — Huart,
Littérature. p. 297
- Ferrand, Relations, I, p. 112-113 (٤٤)
- Seippel, p. 132 - 125 (٤٥)
- Le Strange, Ibn Serapion, p. 1 - 76, 255 - 315, 739 — Baghdad, p. 586, (٤٦)
587, 592
- Guest, Delta, p. 305 (٤٧)
- Mzik, BAH und G, p. 140 - 141 (٤٨)
- (٤٩) شرحه ، ص ١٠ ؛ والجزء الثالث ص ٢٩ - ٣٠ .

- (٥٠) - Brockelmann, GAL I, p. 209-210, No 2; SBI, p. 372-374 — Reinaud, Introduction, p. LIV — CCCII Sarton, Introduction, I, p. 595—560
- (٥١) المسعودي ، التنبيه VIII ، BGA, VIII ص ٢٥ — حدود العالم ، ص ٩
- Brockelmann, GAL, SBI p. 374, X
- (٥٢) المسعودي التنبيه VIII ، BGA, VIII ص ٥١
- (٥٣) — Brockelmann, GAL, SBI, p. 373, IV, physik, I
- (٥٤) — De Boer, Al Kindi, p. 1096
- (٥٥) — Sarton, Introduction I, p. 602—603 — Brockelmann, GAL, I. p. 222 No 8. SBI, p. 337 — Mieli, p. 83, 88
- (٥٦) — Nallino, Al — Battani, El p. 709
- (٥٧) Mieli, p. 88 و شرحه
- (٥٨) — Nallino, Al — Battani, El, p. 709
- Nallino, Al — Battani, I, p. VIII — IX
- (٥٩) هكذا في : EI, I, p. 709 ؛ ولكن راجع : Brockelmann, GAL, SBI p. 397 ، وفقاً لنالينو (Nallino Al-Battani, I, p. XX,—XXIII) .
- (٦٠) — J. K, Wright, Geogr Lore, p. 393 note 7
- (٦١) شرحه ، ص ٢٨٠ — ٢٨١
- (٦٢) شرحه ، ص ٩٦
- (٦٣) — Reinaud, Introduction p. CCLXXXIII — CCXC
- (٦٤) — Mehren, Udsigt, p. 13 — 18
- (٦٥) هي جزر السعادة في الطرف الغربي لأفريقيا في المحيط الأطلنطي .
- (٦٦) كما يفترض نالينو (Nallino, Al-Battani, I, p. 175 — 177) فإن المقصود بالبحر الأخضر هنا هو ذلك الجزء من البحر الأحمر الذي هلك فيه فرعون عند مطاردته للبرانيين ؛ وقد نشأت التسمية من ترجمة غير دقيقة لاسم سرياني . ويخالفه في هذا دي خويه (De Goeje, II (?) p. XXIII — XXIV) . أما مجيئك (Mzik, Parageog p. 186, Note 21.) فيرى في البحر الأخضر التسمية المعتادة للمحيط الهندي والمحيط المتصل به (شرحه ، ص ١٨٨ — ١٨٩) .
- (٦٧) — Nallino, Al-Battani Text III p. 25. — Translation, I, p. 17 — 20, Commen-
-tary, I p. 164 — 177. — Reinaud, Introduction, p. CCLXXXIII — CCXC;
Text, p. CDLXI — CDLXIV — Mehren' Udsigt, p. 13 — 18 — Reconstr-
-uction of map : Reinaud, Introduction, p. CCLXXXII, No 1.
- (٦٨) عن طريقته في حساب خطوط العرض راجع : Schoy, Polhöhenbestimmungen : p. 16 — 19.

- Nallino, Le Tabelle, p. 162 — 163 — Nallino, Al — Battani I, p. XLII (٦٩)
- Nallino, Le Tabelle p. 163. Note 10 (٧٠)
- Nallino, Al — Battani, I, p. XLII
- J. K. Wright, Geogr Lore, p. 393, Note 7 (٧١)
- Honigmann, Die Sieber Klimata, p. 111 — 135 (٧٢)
- Reinaud, Introduction, p. XCIII — XCIV — Brockelmann. GAL, I, p. 224. (٧٣)
- No 14 SBI, p. 400 — 401 — Suter, Ibn Yunus, p. 456 — Sarton,
Introduction, I, p. 716 — 717 — Mieli p. 109, 212
- Sarton, Introduction, I, p. 717 (٧٤)
- Sarton, Introduction I. p. 717 (٧٥) : راجع :
- Schoy, Polhöhenbestimmungen, p. 19 — 21 تحديد العرض لدى :
- Reinaud, Introduction, p. XCIV (٧٦)
- Reinaud, Introduction, p. XCIV — XCV (٧٧)
- Reinaud, Notices sur les Dictionnaires p. 76.
- Brockelmann, GAL I, p. 472—473, No 3, SBI, p. 862 نالينو ، الفلك p. 170, (٧٨)
- 176, 188, 235 — 286 (= Racc. p. 221, 225, 235, 272)
- Sarton, Introduction, I, p. 758 — 759 — Carra de Vaux, Les Penseurs,
II, p. 227 — 230 — Mieli, p. 184 — 187
- Carra de Vaux, Les penseurs II, p. 229 - 230 (٧٩)
- (٨٠) شرحه ، ص ٢٣٠
- J. K Wright, Geogr Lore, p. 79, 394 (٨١)
- Mehren, Udsigt, p. 27 - 28 (٨٢)
- Khanikoff, JAOS, VI, p. 1 - 128 ; p. 1 - 78; (٨٣) المتن والترجمة
- زيادة المحرر 107 - 128 وزيادة المؤلف 79 - 107
- Brockelmann, GAL, I, p. 494, No I; SBI, p. 902 — Sarton, Introduction, (٨٤)
- II, p. 216 - 217 — Wiedemann Al-khazini, p. 1006 - 1007
- Mieli, p. 154 - 155 — Suter, Mathematiker, p. 122, No 296, p. 226
- Nallino, Al - Battani I, p. LXVII, p. 161, 269 - 271. 279 - 281 (٨٥)
- (٨٦) شرحه ، ص ٦٧
- (٨٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٧٩ (= Racc., p. 227 - 228)

- Reinaud, Introduction, p. CXXXVIC— XXXV 111 — Brockelmann, (٨٨)
GAL, I, p. 473 - 474, No 7; SBI, p. 866 — Sarton Introduction,
II, p. 621 - 622 — Kramers, EI, EB, p. 64, 71 — Mieli, p. 210 - 211
- Schoy, Polhöhenbestimmungen, p. 21 - 33 : (٨٩)
عن طريقة ملاحظته للعروض راجع :
- Reinaud, Introduction, p. CXXXVII, (٩٠)
- Brockelmann, GAL, I, p. 508-512 No 8; SBI, p. 924-933 — Ruska, (٩١)
Al-Tusi, p. 1063 — Sarton Introduction. II, p. 1001 — 1013
- Reinaud, Introduction, p. CXXXV 111. —CXLI — Carra de Vaux,
Les penseurs, II, p. 222 - 225 — Strothmann, Die Zwölfer schia
— Mieli, p. 150 - 154 — Wiedemann, Beiträge, LXXV' p. 363 - 379
— Wiedemann, Al - Tusi, p. 289 - 316 — Browne, Literary History,
II, p. 484 - 485; III, p. 17 - 18
- Nallino, OM, VIII, p. 43-44 (= Racc., II, 1940, p. 463) (٩٢)
- Schwartz, Iran, VIII, p. 1019; IX, p. 1403 - 1404, note 2, 3 : راجع أيضاً عنه : (٩٣)
- Minorsky, Maragha, p. 288 (٩٤)
- Browne, Lit History, III, p. 18 : ص ٥٠٠ - ٥٠١ : راجع : (٩٥)
- Reinaud, Introduction p. CXXXIX— CXL (٩٦)
- Schefer, Notice, p. 24 - 26 — Brockelmann, GAL, SBII. p. 297, No I, C (٩٧)
Blochet, Catalogue, p. 169, No 6039
- Bartold, Kult, Mus., p. 85 (٩٨)
- Brockelmann, GAL, I, p. 511, No 45: SBII, p. 298 (٩٩)
- (١٠٠) Greaves — شرحه ، ص ٥١١ - ٥١٢ —
- Ferrand, Relations, II, p. 357 - 358 (١٠١)
- Miller, I, p. 22, No 22 — Sarton, Introduction, II, p. 1009, No 17 (١٠٢)
Mzik, Abbildungen p. 149 بالتفصيل في كتاب :
- G. Melgunof : ومع وصف الخارطة لدى :
- Brockelmann, GAL, II p. 211 - 212, No I, SB II, p. 296 - 297 (١٠٣)
— Wiedemann, Kutb - al Din. p. 1252 - 1253 — Sarton, Introduction,
II, p. 1017 - 1020 — Mieli p. 151, 154 note 8 — Reinaud, Introduction,
p. CXLI — Honigmann, Die Sieben Klimata p. 162 - 163, 167
- Wiedemann, Kutb - aldin, p. 1252 (١٠٤)

- Bartold, Kult. Mus., p. 82 (١٠٥)
- Sarton, Introduction, II, p. 1017 (١٠٦)
- (١٠٧) شرحه ، ص ١٠١٨
- Wiedemann, Kutb - aldin, p. 1252 (١٠٨)
- Wiedemann AGNT, III p. 395 - 422 (١٠٩)
- (١١٠) شرحه ، ص ٢٥٠ - ٢٥٣
- (١١١) شرحه ، ص ٤٣١ - ٤١٧
- Ferrand, Relations II p. 612 - 613 (١١٢)
- Bloch, L'Étude, p. 4 : رشيد الدين لدى : (١١٣)
- A 236^a مخطوطة طشقند ، رقم
- Sarton, Introduction, II, p. 1020 — (١١٤) ذكرها لدى :
- Wiedemann, Kutb - aldin, p. 1252 - 1253
- Brockelmann, GAL, II, p. 212 - 213, No 3; SB II, p. 298 — Bouvat, (١١٥)
- p. 1077 - 1078 — Mieli, p. 263, 266 - 267 — Carra de Vaux, Les,
- Penseurs II, p. 225 - 226 — Bartold, Ulughbek, p. 107 - 111
- Bartold, Kult. Mus. p. 94 - 96
- Bartold, Kult. Mus., p. 95 (١١٦) الصورة لدى :
- (١١٧) شرحه ، ص ٩٤
- (١١٨) شرحه ، ص ٩٥
- Brockelmann, GAL, II, p. 234 - 235, No 4; SB II, p. 326 - 330 (١١٩)
- Bel, EI, I, p. 304
- Brockelmann, GAL, SB II, p. 298 (١٢٠)
- Kramers, EI, EB p. 64 (١٢١)

الفصل الرابع

الجغرافيون اللغويون ورحالو القرن التاسع

118 في القرن التاسع ظهرت لدى العرب جغرافيتهم الرياضية ؛ وقرب منتصف ذلك القرن بدأت تتشكل الجغرافيا الوصفية ببطء ملحوظ في أول الأمر كأنما كانت تتحسس الاتجاهات التي ستسلكها في تطورها التالي ؛ ذلك أنها لم تجد أمامها نماذج معدّة لتسير وفقاً لها . وهذا الميدان لم يشغل به ممثلو العلوم الدقيقة بقدر ما اشتغل به اللغويون الذين أخضعوا المادة لمطالبهم . ومن العسير علينا أن نحكم على المحاولات الأولى في هذا المجال ، ذلك أنه لم يحفظ لنا في معظم الأحوال من المصنفات إلا أسماؤها فحسب . وفي بداية النصف الثاني للقرن التاسع فقط بدأت تظهر مصنفات قائمة بذاتها ولكنها لم تعرف إلا في روايات أو موجزات بأقلام بعض المتأخرين :

وقد سبق لنا الحديث عن بعض الأنماط الأولى في صياغة المادة الجغرافية بواسطة اللغويين ، أعنى ما يعرف « بكتب الأنواء » التي ضمنها اللغويون جميع صنوف الملاحظات عن الطقس وظواهر الطبيعة الأخرى مصحوبة بتعليقات لغوية وغير لغوية . وقد ربط العرب الأقدمون الأنواء بحركات المنازل القمرية وأورثوها الخلف في أغلب الأحيان على هيئة سطور قصيرة مسجوعة يكثر فيها غريب اللغة حتى احتاجت منذ القرن التاسع إلى الشرح والتوضيح . وقل أن وجد عالم لغوى من المتخصصين في العهد الجاهلي لم ير من اللازم أن يظهر علمه بالأنواء في هيئة رسالة خاصة . وتبدأ سلسلة هذه الرسائل في الأنواء في الحد الفاصل بين القرنين الثامن والتاسع بمؤرخ السدوسي (توفي عام ١٩٥ هـ = ٨١٠)^(١) أحد المقربين إلى المأمون عندما كان الأخير والياً على خراسان ؛ وتمضى السلسلة هكذا متصلة الحلقات على امتداد القرنين التاسع والعاشر ؛ ويمكن أن نكون فكرة عنها من خلال الاقتباسات العديدة الموجودة غالباً في المعاجم العربية . ولعل أبعداً صيتاً على الإطلاق مصنف لأبي حنيفة الدينوري (توفي عام ٢٨٢ هـ = ٨٩٥) المعروف لنا على الأخص كهوئرخ . وأحد الأمثلة الفريدة لكتب الأنواء يقدمه لنا « تقويم قرطبة » The Calendar of Cordova المشهور لعام ٩٦١ هـ ؛ وهو بالطبع ليس مصنفاً لغوياً بل مرشداً لصغار المزارعين ؛ يقدم لهم معلومات لا في الزراعة فحسب بل وفي الفلك والطقس . ولإعطاء فكرة عن الأساس الذي يستند عليه يكفي أن نذكر فقط تقسيمه للعام إلى ثمانية وعشرين منزلاً قمرياً ؛ كما وأن العنوان الذي اتخذته باللاتينية وهو Liber Anoe

ليس من العسير أن يتعرف فيه القارئ على اللفظ العربي أنواء* (٢) :

والفلكيون المتخصصون الذين أفردوا للمنازل القمرية رسائل خاصة قد وقفوا (٣) من مصنفات اللغويين موقف التشكك الذي له ما يبرره ، والفلكي الشهير عبد الرحمن الصوفي (توفي عام ٣٧٦ هـ = ٩٨٦) كتب يقول بصدد مصنف الدينوري السالف الذكر ، وذلك بعد قرن منه :

« ووجدنا في الأنواء كتباً كثيرة أتمها وأكملها في فنه كتاب أبي حنيفة الدينوري فإنه يدل على معرفة تامة بالأخبار الواردة عن العرب في ذلك وأشعارها وأسماعها فوق معرفة غيره ممن ألفوا الكتب في هذا الفن . ولا أدري كيف كان معرفته بالكواكب على مذهب العرب عياناً فإنه يحكى عن ابن الأعرابي وابن كُناسة وغيرهما أشياء كثيرة من أمر الكواكب تدل على قلة معرفتهم بها وأن أبا حنيفة أيضاً لو عرف الكواكب لم يسند الخطأ إليهم » (٤) .

ولقد طغى الاهتمام اللغوي على المنهج الواقعي في جميع الأحوال المماثلة تقريباً ؛ غير أن مقدار المسادة كان من الضخامة بحيث كشف عن نواح أخرى للصورة . ففي بداية القرن التاسع وضع النضر بن شميل (توفي عام ٢٠٣ هـ = ٨١٨) (٥) ، وهو من أصحاب كتب الأنواء ، ما يشبه موسوعة قائمة بذاتها في الحياة البدوية بعنوان « كتاب الصفات » . وترتيب مادة هذا الكتاب معروف لنا ، رغماً من أن بعض عناوين محتوياته الداخلية قد أصابها الخلط والاضطراب . ويضعه ابن النديم وراق القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) المشهور كالأتي (٦) :

١ « كتاب الصفات وهو كتاب كبير ويحتوى على عدة كتب . . . الجزء الأول يحتوى على خلق الإنسان والحدود والكرم وصفات النساء . الجزء الثاني يحتوى على الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب والأمتعة . الجزء الثالث للإبل فقط : الجزء الرابع يحتوى على الغنم الطير الشمس القمر الليل النهار الألبان الكماة الآبار الحياض الأرضية الدلاصفة الحمراء الجزء الخامس يحتوى على الزرع الكرم العنب أسماء البقول الأشجار الرياح السحاب الأمطار » ١ .

120

يتضح من هذا أن تبويب مادة الكتاب يمكن اعتبارها نموذجاً للمؤلفات من هذا النوع ، فهو يحفل بمادة مختلطة تحوى أمشاجاً من الجغرافيا الطبيعية والاثنوغرافيا والجغرافيا الحيوية وغيرها تفتقر إلى الكثير من الترابط والانسجام من وجهة نظرنا الحديثة . ويمكن أن نفترض أن طريقتة في العرض تشبه إلى حد كبير مؤلفات اللغويين من نفس الصنف وتتلخص في سرد ألفاظ كل موضوع على حدة مع توضيحها بشواهد عديدة من أمثلة استعمالها في الشعر الجاهلي . ومن الجلي أن بعض أوجه الحياة البدوية التي ورد وصفها في المؤلفات التي من هذا النوع قد عولجت بتفصيل واف . وكتاب النضر هذا الذي لم يصلنا

* واجع في هذا الصدد : Le Calendrier de Cordue.' Publi-par R. Dozy. Nouvelle édition accompagnée d'une traduction française annotée par, Ch. Pellat. Leiden, 1961.

(المترجم)

قد نقل عنه كثيراً كما يزعم الوراقون معاصره الأصغر منه سنّاً أبو عبيدة (توفي عام ٢٢٣ هـ = ٨٣٧) الذى أمضى معظم سنى حياته كالنضر بخراسان^(٧). ويمثل معجمه «غريب المصنف» محاولة مبكرة لتوزيع المادة اللغوية حسب الأنواع^(٨)؛ وبالطبع فإن المادة الجغرافية لديه قد وردت على نفس الصورة التى كانت عند النضر.

أما فيما يتعلق بالجغرافيا الإقليمية (Regional) فقد انصرف اللغويون انصرافاً تاماً إلى جزيرة العرب. وقد لاحظت ياقوت بالكثير من الدقة، وذلك عند تحليله لمصادر معجمه، أن الكتب التى صنفت فى أسماء الأماكن صنفان «منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة... ومنها ما قصد به ذكر البوادي والقفار واقتصر على منازل العرب الواردة فى أخبارهم والأشعار»^(٩)، فأولئك «الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية» فهو ينسبهم إلى «طبقة أهل الأدب»^(١٠)، أى اللغويين كما أسميناهم فى هذه المناسبة؛ وقد التفتنا فيما بينهم بعدد غير قليل من الشخصيات المشهورة ولكن منهمجهم جميعاً فى التأليف يكاد يكون واحداً.

ويجب أن يحتل مكانة أولى فى هذا التراث الجغرافى اللغوى، وذلك ليس من ناحية الأسبقية الزمنية فحسب، المؤرخ المشهور هشام الكلبي (توفى حوالى عام ٢٠٦ هـ = ٨٢٠)^(١١) وهو خبير ممتاز بالجاهلية وصاحب «كتاب الأصنام» الذى يكاد يمثل إلى الآن المصدر الأساسى للتعريف بأديان عرب الجاهلية، وأيضاً كتاب كبير فى الأنساب هو «جمهرة الأنساب». والاعتراف به كحجة فى هذه الموضوعات يوكده بشكل قاطع قول ياقوت «ما تنازع العلماء فى شىء من أمور العرب إلا وكان قوله أقوى حجة وهو مع ذلك مظلوم وبالقوارص مكلوم»^(١٢). ومن بين العدد الضخم من مؤلفاته يذكر لنا ابن النديم عشرة منها فى الجغرافيا^(١٣)، فنبر من بينها «كتاب تسمية من بالحجاز من أحياء العرب» و«كتاب قسمة الأرضين» و«كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين». وإذا كانت هذه التسميات تتعلق بجزيرة العرب على نمط اللغويين فثمة أخرى على ما يظهر تعالج موضوعاً أوسع من ذلك وتبدى نواحي سبهم العلماء كثيراً بمعالجتها فيما بعد، فلديه «كتاب الأقاليم»، ثم «كتاب البلدان الصغير وكتاب البلدان الكبير». ومعرفتنا بجميع أوجه النشاط العلمى لابن الكلبي يجعل من العسير علينا أن نفترض أن مادة هذه الكتب قد تجاوزت نطاق الجزيرة العربية، غير أن عناوينها التى تذكرنا بالأدب التاريخى الجغرافى المتأخر تعطينا الحق فى افتراض ذلك. ونفس الحكم يصدق بصورة أقوى على عنوان كتابه الذى أورده ابن النديم وهو «كتاب العجائب الأربعة»، فهو يذكرنا بجميع صنوف كتب العجائب التى ازدهرت عقب ذلك بفترة طويلة. ومن المغرّى أن نفترض أن هذا الكتاب بالذات هو الذى نقل عنه الإدريسي كثيراً فى القرن الثانى عشر تحت اسمته المختصر «كتاب العجائب» مشيراً إلى اسم المؤلف على أنه حسن بن المنذر بدلاً من هشام أبى المنذر. فإذا كان الأمر كذلك فإن ابن الكلبي إذاً هو أول

مؤلف بالنسبة لعصره يكتب في موضوعات جغرافية عامة تتجاوز نطاق جزيرة العرب^(١٤) . ويؤكد هذا تلك الاقتباسات التي ينقلها عنه ياقوت مشيراً في العادة إلى «كتاب أنساب البلدان»^(١٥) ؛ وهو يقصد في أغلب الظن كتاب «اشتقاق البلدان»^(١٦) المذكور في مقدمته ، بل وربما أيضاً «كتاب البلدان» الوارد ذكره في «الفهرست» . وهذه الاقتباسات تمس بعض المدن خارج جزيرة العرب مثل الكوفة^(١٧) والرها^(١٨) والحرم^(١٩) قرب بغداد والنهروان^(٢٠) . والرأي الذي نودى به أخيراً وهو أن ابن الكلبي ألف رسالة عامة في الجغرافيا في «عشر مجلدات»^(٢١) يستند على محض وهم مرده إلى أن ابن النديم أورد أسماء عشرة من مؤلفاته .

ومهما يكن من شيء فابن الكلبي يمثل ظاهرة نادرة بين لغوي ذلك العهد بما اتصف به من اتساع الأفق ، ذلك أن أغلبهم قد اكتفى بوضع ملخصات لغوية عن بلاد العرب . وخير مثال لهذا الأصمعي المشهور (توفي حوالى عام ٢١٦ هـ = ٨٣١) الذي يدين له العلم بحفظ عدد من آثار الشعر الجاهلي ؛ 122 فبجانب مصنف له في الأنواء^(٢٢) له أيضاً رسالة ذات طابع عام هي «رسالة في صفة الأرض والسماء والنباتات»^(٢٤) . بيد أن ياقوت يعتبره المصدر الأساسى عن جزيرة العرب بفضل مصنفه «كتاب جزيرة العرب»^(٢٥) ؛ ويكفى أن نذكر أن اسمه ورد حوالى ثلاثمائة وخمسين مرة عند ياقوت^(٢٦) . وكانت له أيضاً رسائل تبحث موضوعات أخص من ذلك ، مثل «كتاب مياه العرب»^(٢٧) ؛ وقياساً على بقية مؤلفاته اللغوية الأخرى يمكننا أن نفترض بكل اطمئنان وثقة أن هذه أيضاً تمثل تعداداً لأسماء ومصطلحات مصحوبة بشروح موجزة وشواهد من الشعر . ويبدو أن رسالة تلميذه سمران بن المبارك «كتاب الأرضين والمياه والجبال والبحار»^(٢٨) قد سارت في نفس الاتجاه ولم تخرج مادتها عن نطاق جزيرة العرب . ومن بين العلماء اللغويين الذين سلكوا نفس ذلك الاتجاه نلتقى بشخصية طريفة لأعرابي أمي يدعى عرام بن الأصبغ ؛ وهو لما أبصر إقبال الناس على مثل هذه الموضوعات أملى في سن الشيخوخة (بعد عام ٢٣١ هـ = ٨٤٥) «كتاب أسماء جبال التهامية ومكانها»^(٢٩) معتمداً في ذلك على معرفته الجيدة بمواضع جزيرة العرب . وقد نال مصنفه انتشاراً وصيتاً واسعاً ورواه علماء مختلفون من بينهم السيرافي المعروف^(٣٠) (توفي حوالى عام ٣٦٨ هـ = ٩٧٩) الذي ندين له أيضاً بكتاب مستقل عن الجزيرة العربية هو «كتاب جزيرة العرب»^(٣١) . هذا وقد حفظت لنا من مصنف الأعرابي مقتطفات هامة في المعجمين الجغرافيين للبكرى وياقوت . والتحليل الدقيق الذي قامت به إلزا رايتيمير Else Reitemeyer^(٣٢) قد أثبت أن مصنف هذا الأعرابي كان يشمل مادة تخرج عن نطاق عنوانه ، فهو لم يقتصر على ذكر الجبال التي أولى اهتمامه من بينها لتلك الواقعة بين مكة والمدينة بل ذكر أيضاً المياه والنباتات الموجودة بها* .

* تحققت صحة هذه الفروض بالكشف عن رسالة عرام ونشرها . راجع في هذا مقدمة الأستاذ عبد السلام محمد هارون لطبعته المحققة لمخطوطة «كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما يثبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه لعرام بن الأصبغ السلمى» القاهرة ١٩٥٦ . (المترجم)

ومن المعهود في الأدب العربي تكرار أسماء الرسائل بحيث يضحى من العسير القول هل نحن أمام مصنف مستقل أم رواية جديدة لمصنف سابق . ويمثل بعض الأهمية مصنف لمعاصر الدينوري هو اللغوي ابن لغزى الأصفهاني (قبل عام ٢٨٢ هـ = ٨٩٥)^(٣٣) بعنوان « كتاب مياه وجبال وبلاد جزيرة العرب » . وكما هو متوقع فإن المعلومات الجغرافية كما يتضح من وصف المخطوطة الوحيدة المعروفة^(٣٤) لهذا الأثر يصبحها شواهد من الشعر القديم .

هذا النمط المتشابه للمصنفات الجغرافية للغويين المكرسة لحريرة العرب وحدها بدأ يطرأ عليه التغير منذ النصف الثاني للقرن التاسع فشكل مضمونه بلاداً وأقطاراً أخرى ، الأمر الذي ظهرت تباشيره عند ابن الكلبي كما مر بنا ؛ كما أخذت تتغير أيضاً العناوين وظهرت بالتدرج أنماط لم تلبث أن أصبحت الغالبة والمسيطرة بمرور الزمن . وأحياناً قد تكون المعلومات الموجودة بين أيدينا طفيفة للغاية ولكنها رغمًا من ذلك لا تخلو من بعض الفائدة ؛ فأحد لغوي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وهو وكيع القاضي الذي وضع رسالة في الأنواء^(٣٥) يقال عنه أيضاً « وله من الكتب . . . كتاب الطريق ويعرف أيضاً بالنواحي ويحتوي على أخبار البلدان ومسالك الطرق ولم يتمه »^(٣٦) . وهنا يتضح لنا من مضمون الكتاب بل ومن عنوانه ظهور اتجاه جديد في التأليف الجغرافي .

أما كبار العلماء فإنهم بالطبع لم يحصروا نشاطهم في حدود ضيقة كاللغويين ، فعالم كالحافظ (توفي عام ٢٥٥ هـ = ٨٦٩)^(٣٧) تنعكس في مادته الجغرافية شخصيته الأدبية الفريدة بما تمتاز به من سعة الأفق وتنوع الموضوعات التي يطرقها وملاحظاته الفنية الدقيقة ؛ ولكنه من جهة أخرى كما هو معهود فيه يفتقر إلى الترتيب ، هذا إلى جانب ميله المعروف إلى الإمتاع على حساب الفائدة . وتقدم لنا مؤلفات الحافظ العديدة في الأدب مادة جغرافية ضخمة ؛ ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى كتابه الكبير « كتاب الحيوان » الذي يحفل بالكثير في الجغرافيا الحيوانية والاثروبولوجيا والاثنو جغرافيا على الرغم من غلبة الموضوعات الأدبية عليه ؛ وقد أصبح من الممكن الآن بفضل العرض الموجز لمحتويات الكتاب الذي قام به آسين بلاسيوس Asin Palacios^(٣٨) أن يتخوض الباحث في خضمه المتضارب دون كبير عناء . أما مصنف الحافظ في الجغرافيا فلم يعثر عليه إلى الآن ومن ثم فليس من الممكن الحكم عليه

124 إلا بما نقله عنه الآخرون ؛ أضف إلى هذا أن عنوانه غير معروف لنا بالضبط ولعل أقربها إلى الصحة هو العنوان الذي يورده المسعودي وهو « كتاب الأمصار وعجائب البلدان »^(٣٩) . ويقابلنا أحياناً عنوان « كتاب البلدان »^(٤٠) و « كتاب الأمصار »^(٤١) ؛ أما الشذرة المحفوظة في إحدى مخطوطات المتحف البريطاني فتحمل اسم « كتاب الأوطان والبلدان »^(٤٢) وهو عنوان لا يقرب كثيراً من الواقع . ويتضح مما نقله عنه ياقوت أن الحافظ قد تابع إلى حد ما نمط ما يسمى بالفضائل أو الخصاص الذي ازدهر في العصر الأموي ، أي صفات ومحاسن الحواضر الكبرى ، حيث يدور الكلام أحياناً عن مواطنها أكثر مما يدور عن

البلاد نفسها . وفي هذه المقتطفات يتحدث الجاحظ عن أهل دمشق^(٤٣) وعن عجائب البصرة^(٤٤) ومساوئها^(٤٥) وعن مساوئ مصر^(٤٦) . ويؤكد هذا ويدعمه الاقتباسات العديدة الموجودة لدى جغرافي العهد الكلاسيكي ، مثال ذلك ما ينقله المقدسي عن طريق الرواية الشفوية عن الجاحظ في خصائص المدن العشرة الكبرى وهي بغداد والكوفة والبصرة والفسطاط والرى ونيسابور ومرو وبخ وسمرقند^(٤٧) ، ويسوقه هذا بدوره إلى أفراد فصل بأجمعه لخصائص الأقاليم المختلفة . وأحياناً قد يختلط بالمعلومات من هذا النوع ذكر مختلف أصناف العجائب التي تحولت بالتالي إلى نمط قائم بذاته من أنماط الأدب الجغرافي . وفي الفصل الذي أفردته للعجائب ينقل ابن خرداذبه عن الجاحظ خبراً عن الأهواز^(٤٨) كما يفعل هذا أيضاً ابن الفقيه^(٤٩) ؛ أما ابن حوقل فيروى حكاية أسطورية تتعلق بصخرة بهستون يذكر فيها على وجه التحديد أن مصدره « كتاب البلدان » للجاحظ^(٥٠) .

لا شك أن كتاب الجاحظ عالج الكلام عن بلاد خارج نطاق العالم الإسلامي ولكن لم يحفظ لنا مع الأسف عن هذا سوى إشارة واحدة جديرة بالثقة ، ولكن في مقابل هذا واسعة الانتشار وهي نظريته في أن نهري النيل والسند ينبعان من موضع واحد ؛ وهي نظرية ترتبط على ما يبدو بالنظرية اليهودية المسيحية القائلة بأن منابع الأنهار الكبرى موجودة بالفردوس^(٥١) . وقد كانت هذه النظرية سبباً في دهشة المسعودي ، الذي **مكنته أسفاره العديدة من التعرف على حقيقة الأمر ، بصورة جعلته يقف عندها 125** أكثر من مرة . ففي كتابه المبكر « مروج الذهب » كتب يقول :

« وقد ذكر الجاحظ أن نهر مهران السند من نيل مصر واستدل على ذلك بوجود التماسيح فيه . فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان وهو كتاب في نهاية الحسن وإن كان الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ولا تقرّ الممالك والأمصار ولم يعلم أن مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعلى السند »^(٥٢)

وفي موضع آخر من نفس كتابه هذا يكرر المسعودي هذه النظرية بإيجاز وذلك بصدد كلامه عن وجود التماسيح في مواضع أخرى^(٥٣) ؛ ويعود إليها مرة أخرى ويتفصيل أكثر في آخر كتبه « التنبيه والإشراف » حيث يقول :

« وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه في الأخبار عن الأمصار وعجائب البلدان أن مخرج مهران السند والنيل من موضع واحد واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما وكون التماسيح فيهما وأن سبيل زراعتهم في البلدين واحد ولا أدري كيف ذلك وقع له وقد توجد التماسيح في أكثر أخوار الهند . . وتلحق الناس وسائر الحيوانات منها الأذى على حسب ما يلحق أهل مصر وحيواناتهم »^(٥٤) .

وليس غريباً أن تفسح هذه النظرية المجال لعالم رزين كالبيروني ليصم الجاحظ بالبساطة والسطحية^(٥٥) . وعلى العموم فقد قدر الجغرافيون مصنف الجاحظ هذا حق قدره ، وقد رأينا كيف كان موقف المسعودي

منه زعمًا عن تخطيطه للجاحظ ؛ وقال عنه ابن حوقل « كتاب نفيس له في معرفة الأمصار »^(٥٦) ، أما المقدسي فقد أبدى بعض التشدد وذلك بقوله « وأما الجاحظ وابن خرداذبه^(٥٧) فإن كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منهما كبير فائدة » ، وعلى أية حال فإن تأثيره على الأجيال الأدبية التالية لا يرقى إليه الشك حتى أن ابن الفقيه مثلاً اعتبر مقلداً له^(٥٨) ، ويتضح هذا من ألفاظ المقدسي أيضاً « وإذا نظرت في كتاب ابن الفقيه فكأنما أنت ناظر في كتاب الجاحظ والزيح الأعظم »^(٥٩) . ومن وقت لآخر كانت تظهر مقتطفات من كتاب الجاحظ هذا في مجموعات أدبية بحثية ؛ وأحد كبار المعجبين بالجاحظ وهو الثعالبي (توفي عام ٥٢٩هـ = ١٠٣٨م) كان يعنى على ما يبدو هذا الكتاب عندما أشار إلى « خصائص البلدان » للجاحظ^(٦٠) . وقد تم الكشف في الآونة الأخيرة عن مصنف للجاحظ يقف دليلاً على اهتمامه الواسع بالجغرافيا ويمثل على وجه العموم أهمية كبرى بالنسبة للتاريخ الحضارى للعالم الإسلامى ، كما يمكن اعتباره أول محاولة للعرب في الجغرافيا الاقتصادية أو على الأصح جغرافيا الاستيراد (Import Geagrophy) . أعنى بذلك الرسالة الصغيرة الحجم المعروفة باسم « التبصر بالتجارة » التى عثر عليها بتونس العلامة العربى المعروف حسن حسنى عبد الوهاب ونشرها في مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق*^(٦١) . وبالرغم من أنه لم يرد أى ذكر لهذه الرسالة في ثبوت مصنفات الجاحظ^(٦٢) إلا أن صحة نسبتها إليه لا يتطرق إليها الشك ، سواء من ناحية الاستقراء الداخلى لمادتها أولاً ، لأن بعض العلماء نقل عنها كالثعالبي والنويرى في موسوعته الكبرى التى وضعها في عهد المالك^(٦٣) . وتنقسم الرسالة إلى بضعة أبواب تعالج السلع التجارية المختلفة وأسعارها ومزاياها والزائف منها ؛ وهنا يتناول البحث الكلام على الذهب والفضة والأحجار الكريمة ثم العطور والطيب والأنسجة والثياب . وأكثر الأبواب متعة هو « باب ما يجاب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والخوارى والأحجار وغير ذلك » ، حيث يعدد لنا الجاحظ أسماء السلع المستوردة من مختلف الأقطار ابتداء من الهند والصين ، أحياناً في شكل تعداد جاف وأحياناً بتفاصيل تختلف طولاً وقصراً . ويرد بالطبع ذكر للبلاد الشمالية كمخوارزم وبلاد الخزر وبلاد البلغار ؛ أما البابان الأخيران فيغلب عليهما طابع الارتجال ويحس منهما أنهما أضيفا مؤخرًا ؛ فالأول منهما أفرد لجوارح الطير مما يستعمل في الصيد والأخير لما يفضل من صفات الأشياء سواء بين الحيوان أو الناس ، وهو لا يخلو من الحكمة والموعظة . ويغلب على الرسالة طابع الإفادة العملية ويندر أن تلجأ إلى الاستطرادات الأدبية . وقد تستعصى في مواضع منها على الفهم نتيجة لمصطلحات غريبة أو غير مدروسة ولكن بعد التغلب على هذا فإن الرسالة تعتبر مصدرًا من المصادر الأساسية للتاريخ والجغرافيا الاقتصادية للعالم الإسلامى . وقد كان المؤلفون المتأخرون على إمام جيد بها ويتضح من المقارنات التى أجراها حسن حسنى عبد الوهاب أن

127 ابن الفقيه يدين أيضاً بقدر غير قليل لرسالة الجاحظ هذه .

طُبعت بالتالى على حدة فى القاهرة .. (المترجم)

إن التسلسل التاريخي لظهور المصنفات المختلفة لبعض أنماط الجغرافيا الوصفية لم يكن واضحاً على الدوام حتى للعرب أنفسهم في العهد المبكر. فصاحب كتاب «الفهرست» مثلاً يذكر أن أول من صنّف في «المسالك والممالك» هو الأديب أبوعباس جعفر بن أحمد المروزي^(٦٤)؛ وهذه الرواية يكررها ياقوت^(٦٥) بالرغم من أن ذلك الشخص قد توفي بالأهواز حوالي عام ٢٧٤ هـ = ٨٨٧ م أي عندما كان ابن خرداذبه قد فرغ من المسودة الأولى بل وربما من الثانية لكتابه الذي يحمل نفس العنوان^(٦٦). ولم يحفظ لنا التاريخ أية معلومات عن كتاب المروزي هذا أو عن مصنفات أخرى له، ومن المؤكد أنها لم تكتسب صيتاً ما أو ذبوعاً رغمًا عن إشارة ابن النديم التي تحمل طابع الاستحسان والإشادة. وقد تنسب إليه حكايات من وقت لآخر عند الجغرافيين المتأخرين، فابن الفقيه^(٦٧) يروى عنه أسطورة تتعلق بحجر المطر^(٦٨) كما ينقل عنه أيضاً روايات عديدة عن القبائل التركية؛ وهذه الروايات تسوق إلى الافتراض بأن آثار المروزي كانت تضم مادة قيمة بالنسبة لاتحادنا السوفييتي خاصة فيما يتعلق بجغرافيا آسيا الوسطى.

ويلي هذا من الناحية الزمنية في تثبيت نمط «المسالك والممالك» تلميذ الفيلسوف الكندي وصديقه أحمد بن محمد بن الطيب السرخسي (توفي عام ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م)^(٦٩) وهو يمثل نوعاً نادراً من الكتاب في ميدان الأدب العربي وذلك بجمعه على السواء بين الاهتمام بالفلسفة والعلوم الدقيقة من جهة والأدب الفني من جهة أخرى. ويمكن إرجاع اهتمامه بالأدب إلى اتصاله ببلاط الخليفة المعتضد الذي راح ضحية لسخطه عندما كان يشغل في آخر سني حياته وظيفة المحتسب ببغداد. وفي ميدان الأدب الجغرافي ينضم السرخسي من ناحية إلى المدرسة الرياضية الجغرافية ذات النزعة اليونانية وهذا بالطبع كان نتيجة لتأثير أستاذه عليه، ومن ناحية أخرى نراه يهتم بالجغرافيا الوصفية من طراز «المسالك والممالك»؛ فتوجد له في المجال الأول رسالة «في البحار والمياه والجبال»^(٧٠) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصنف مماثل لأستاذه مما جعل المسعودي يربط بينهما دائماً عند وصفه للبحار؛ ومن الجائز أنها نفس الرسالة التي يشار إليها أحياناً باسم «كتاب منفعة الجبال»^(٧١). ويذكر المسعودي^(٧٢) في موضع آخر أن السرخسي إلى جانب 128 ذلك «قد صنّف... كتاباً حسناً في المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها»؛ وهو معروف أيضاً باسم «كتاب المسالك والممالك»^(٧٣). وينقل ياقوت منه كثيراً خاصة فيما يتعلق بعصر المعتضد^(٧٤) الذي صحبه السرخسي في بعض أسفاره.

ولو كانت جميع هذه المصنفات التي ذكرناها موجودة وفي متناول أيدي العلماء لاختلفت كثيراً لوحة التسلسل التاريخي لنشأة الأنماط المختلفة للجغرافيا الوصفية. ولكن، وفي غير حاجة إلى دراسة القليل الذي حفظ لنا منها، فإنه من الممكن أن نقرر على أساس ما أوردناه من حقائق أن الجغرافيا الوصفية بدأت تتخذ منذ النصف الثاني للقرن التاسع أنماطاً ثابتة كما هو الحال مع الجغرافيا الرياضية التي سبقها بقليل. وفيها انفسح المجال للفلكيين والرياضيين بل للغويين بصورة خاصة، فهم الذين

وضموا كتب الأنواء والرسائل الجغرافية اللغوية عن جزيرة العرب . وقد اتسع شيئاً فشيئاً وصف المدن والأقطار المختلفة من طراز « الفضائل » أو « الخصائص » الذي يرجع إلى العصر الأموي ليصبح « كتب البلدان » ؛ وأحياناً تحت تأثير الموضوعات الأسطورية والرغبة في الإمتاع والتشويق ليتحول إلى « كتب العجائب » . وأخيراً دفعت الرغبة الملحة في تنظيم المادة ووصفها على هيئة طرق إلى ظهور كتب « المسالك والممالك » . وفيما بعد ستختفي من بين هذه المجموعة كتب « الأنواء » وحدها ، أما الأنماط الأربعة الأخرى فقد أبدت جميعها حيوية فياضة عاشت بها فترة طويلة من الزمن ولم تطرأ عليها سوى تغييرات طفيفة .

ولإلى جانب هذه الأنماط المذكورة للجغرافيا الرياضية والوصفية ثبتت في القرن التاسع أيضاً الصورة النهائية للقصص عن الرحلات وعن البلاد الأجنبية في جميع ألوانها وأنواعها ابتداء من الرحلات الأسطورية إلى أوصاف الطرق العملية والمراحل أو السرد الخاف للأسماء ؛ ولا يقل هذا الصنف عن سابقه من ناحية الكم حتى في الأزمنة الأولى . وقليل ما وصلتنا أوصاف مباشرة عن ذلك العهد إذ أن معظمها لم يحفظ منه شيء ؛ وفي كثير من الأحيان تقتصر مادتنا على فقرات يسيرة أو مجرد ذكر الموضوع 129 دون أية تفصيلات عنه . وهذا بدوره قد يشير أحياناً إلى اتساع مجال الرحلة ويمكننا من تكوين فكرة عن أنواع الرحلات المختلفة . وقد انتظمت الرحلات مناطق عديدة فلم تقتصر على المشرق وحده الذي ربط العرب به تاريخ طويل من العلاقات التجارية بل دخل في نطاقها الغرب أيضاً .

وابتداء من هذا العصر نلتقي بأخبار رحلات علمية فريدة في نوعها تستهدف في معظم الأحوال أغراضاً عملية . ويحفظ لنا الإدريسي^(٧٥) قصة مؤداها أن أخ الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ هـ - ١٩٣ هـ = ٧٨٦ - ٨٠٩) وهو إبراهيم بن المهدي (المتوفى عام ٢٢٤ هـ = ٨٣٩) روى في مصنفه « كتاب الطيبخ »^(٧٧) أن الخليفة بعث إلى اليمن أشخاصاً ليعرفوا من أين يأتي العنبر وأنهم في أثناء رحلتهم استقصوا أحوال سكان عدن وخاسك على ساحل المهرة^(٧٨) وغيرها من الأماكن المأهولة بجنوبي الجزيرة . وتحمل هذه القصة جميع علامات الصحة ، إذ أن أهمية العنبر الأشهب (الذي يجب التفريق بينه وبين العنبر الأصفر) كوسيلة للعلاج وكضرب من الطيب أمر جد معروف في ذلك العهد^(٧٩) ؛ وكان يحصل عليه غالباً من السواحل الشرقية لأفريقيا قبالة اليمن^(٨٠) ولعب دوراً ما في اقتصاديات الخلافة ويذكره ابن يوسف معاصر الرشيد المعروف كمورد هام للخراج يعادل اللؤلؤ^(٨١) .

وليس بمقدورنا أن نقف موقف الثقة التامة من جميع الروايات التي تقترن بشخصية هذا الخليفة ، أضف إلى هذا أن التاريخ الأدبي يدل على أنه كثيراً ما نسجت حول اسمه مختلف الموضوعات الأسطورية ؛ وقد لفت فرين ، واضع أسس الاستعراب الروسي خاصة في ميدان الجغرافيا ، الأنظار إلى الرواية الآتية الواردة في مصدر متأخر ، وذلك في كتابه الكلاسيكي عن ابن فضلان .

« وكانت للخلفاء العباسية جواسيس من الرجال والنساء وكان عبد الله الشهير بسيد غازي يتجسس الأخبار من بلاد الروم عشرين سنة وكان سألته هارون الرشيد عن عجائب الأمور فكان يخبره كما حكى الإمام الدمشقي في فضائل الجهاد » (٨٢).

- واستناداً إلى سمعة فرين العلمية ثبتت هذه القصة في الدوائر العلمية وتناقلها عدد من العلماء ابتداء من رينو (٨٣). ومن المؤكد أن العرب كانت لهم جاسوسيتهم المنظمة في ذلك العهد خاصة في آسيا الصغرى بالذات ؛ لكن هذه القصة التي لفت إليها الأنظار فرين لا تثبت عند التحييص ، فهي أولاً ترجع إلى 130 مصدر متأخر جداً لا يمكن اعتباره مصدراً موثقاً به فقد نقل فرين هذه القصة عن مخطوطة « رسالة الانتصار » (٨٤) التي يبدو أنها من عمل المؤرخ البوسنوي على دده (المتوفى عام ١١٠٧هـ = ١٥٩٨) (٨٥) من أواخر القرن السادس عشر الذي تستند شهرته أساساً على مصنف نقل له أصاب نجاحاً ملحوظاً في القرون الثلاثة الأخيرة ولكن قيمته التاريخية كما أثبت أحد المتخصصين في فن التاريخ لدى العثمانيين « لاتساوي شروى نقير » (٨٦) ؛ أضف إلى هذا أن ذكر اسم عبد الله سيدى غازي يدل على أننا أمام رواية أخرى للأسطورة المعروفة عن سيد البطال بطل الملحمة العربية - التركية . والشخصية التاريخية الواقعية التي صيغ حولها هذا الموضوع الأدبي ترجع إلى منتصف القرن الثامن وترتبط بحملات الأمويين العسكرية على آسيا الصغرى ، وقد لقي عبد الله البطال مصرعه في معركة ضد البيزنطيين عام ١٢٢ هـ = ٧٤٠ (٨٧) ، ولم تلبث أن زحزحت الفترة التي عاش فيها إلى نهاية القرن العاشر لتتفق مع تطور الملحمة ؛ ثم تم ربطه بشخصية الرشيد الأسطورية لدى على دده حيث يظهر البطل في دور لا تسنده أية وقائع تاريخية صحيحة . ولعله ليس من محض الصدفة أن تقترن باسم حفيد الرشيد وهو الخليفة الواثق (٢٢٧ هـ - ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ - ٨٤٧) سلسلة من الرحلات والبحوث الخاصة بالجغرافيا ، بالرغم من أن الباعث إليها في بعض الأحيان كان مجرد عوامل خيالية بحتة . واثان منها قد أخذ فيهما طرفاً بأمر من الخليفة الواثق رياضى شهير هو محمد بن موسى (توفي عام ٢٥٩ هـ = ٨٧٣) (٨٨). ولا يوجد ميل في الآونة الحاضرة لبُصَر في هذا اسم الفلكي المشهور محمد بن موسى الخوارزمي (٨٩) ناشر بطليموس المعروف لنا جيداً ؛ وكان البعض قد نادى بهذا الرأي من قبل . أما الرحلة الأولى فقد توجهت بعد الحصول على موافقة إمبراطور بيزنطة إلى آسيا الصغرى لفحص كهف الرقيم بين عمورية Amorium ونيقية Nicaea . ومما هو جدير بالملاحظة أن محمد بن موسى رفض أن يرى في الحثث المخططة أهل الكهف الوارد ذكرهم في القرآن . والظاهر أن قصة الرحلة قد نالت بعض الانتشار حتى أثناء حياته ، إذ يرويها لنا ابن خرداذبه (٩٠) بألفاظ المؤلف نفسه ، وهي موجودة في ترجمة روسية (٩١) ؛ كما يرويها لنا أيضاً السرخسى وبألفاظ المؤلف كذلك ، وروايته موجودة لدى المسعودي (٩٢) . ويميل علماء الزنطيات المعاصرون إلى اعتبار هذه الرحلة واقعة تاريخية صحيحة (٩٣) . أما الرحلة الثانية التي شارك فيها محمد بن موسى بأمر الخليفة 131

فقد بعث بها إلى طرخان حاكم الخزر^(٩٤) وهي ترتبط برحلة سلام الترحان المشهورة إلى سد يأجوج ومأجوج التي سيأتى ذكرها بالتفصيل عند الكلام على الرحلات إلى شرقى العالم الإسلامى .

ومن أهم الحوادث التي ساعدت على توسيع مدارك العرب عن أقطار الغرب فى عهد الواثق كان بلاشك حادث افتتاح مسلم بن أبى مسلم الحرّمى^(٩٥) من أسر البيزنطيين . ولسنا على بينة من حقيقة اسمه إذ يمكن قراءته الحرّمى كما حدث أحياناً ، أو بصيغ أخرى . أما عن شخصه فلا يعرف سوى هذه القصة المتعلقة بإطلاق سراحه والتي حفظها لنا المسعودى ، وهي تمثل أهمية ليست بالضيئلة :

« الفداء الثالث فداء خاقان فى خلافة الواثق باللامس فى المحرم سنة ٢٣١ (الموافق سبتمبر ٨٤٥) ... وفيه خرج مسلم بن أبى مسلم الحرّمى وكان ذا مغل فى الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ومن جاورهم من الممالك من برجان والإبر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم وحضر هذا الفداء مع خاقان رجل يكنى أبارملة من قبل أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة يمتحن الأسارى وقت المفاداة فن قال منهم بخلق التلاوة ونفى الرؤية فودى به وأحسن إليه ومن أبى ترك بأرض الروم فاختار جماعة من الأسارى الرجوع إلى أرض النصرانية على القول بذلك وأبى مسلم الانقياد إلى ذلك فنالته محن ومهانة إلى أن تخلص »^(٩٦) .

ولا تخلو التفصيلات الأخيرة من طرافة بالنسبة للتاريخ الفكرى للخلافة ، فهي دليل على أن المذهب العقلى للمعتزلة كان لا يزال سائداً إلى ذلك العهد ومتمتعاً بنفس القبول الذى تمتع به فيما بعد مذهب أهل السنة^(٩٧) . غير أن الأهمية الجوهرية بالنسبة لنا فى هذه القصة هو القول بوجود مصنفات للجرمى ؛ وبالطبع لو كان قد تبقى لنا شيء منها لاستطعنا بلا ريب أن نصدر الحكم على كثير من المسائل المتصلة

132 بتطور المعلومات الجغرافية عند العرب ، إلا أننا مع الأسف لانعرف فى الحقيقة من جميع مصنفاته سوى

شذرة واحدة لا يعتور الشك صحة نسبتها إلى الجرمى وهي المتعلقة بتعداد الولايات البيزنطية (Themata)* وما يرتبط بذلك من وصف نظم تلك الدولة . وقد حفظ لنا هذه القطعة ابن خرداذبه ويرجع تاريخها إلى عام ٨٨٥ هـ^(٩٨) . وأغلب الظن أن المعلومات التي يوردها قدامة^(٩٩) عن بزنطة ترجع إلى الجرمى خاصة وأنه توجد من بينها إشارات إلى أوقات الإغارة على آسيا الصغرى^(١٠٠) الأمر الذى نوه إليه المسعودى عند كلامه على مصنفات الجرمى . ومسألة الخزم بوجود مقتطفات وشذرات لدى المؤلفين المتأخرين نقلوها عن مصادر قديمة مفقودة أو مجهولة العناوين من أصعب المسائل وأعسرها ؛ وقد أحسن بعض العلماء ، خاصة ماركفارت Markwart ، بميل شديد إلى أن ينسبوا إلى مسلم الجرمى جميع ما أورده الجغرافيون العرب بصدد الموضوعات التي ذكرها المسعودى عند كلامه على الجرمى^(١٠١) . والأمر الوحيد

* أو البنود كما يسميها العرب . - (المترجم)

الذى لا يتطرق إليه الشك هو أن مصنفاته كانت مصدرراً هاماً للغاية في معرفة العرب بالدولة البيزنطية بل وتقدم لنا لأول مرة معلومات مباشرة ومفصلة عن الصقلية وجيرانهم . ويمكن أن نقرر وفقاً لرأى بارتولد أن مادته قد تناقلها جميع الجغرافيين المتأخرين حتى القرن الثالث عشر في جميع العالم الإسلامي (١٠٢) دون أن يشيروا إلى مصدرها . ويظهر أن تسمية البحر الأسود ببحر الخزر ترجع إليه ؛ وهو قد عرف الصقلية كجيران لمقدونيا من ناحية الغرب وميز عنهم البرجان أو بلغار الطونة كجيران لتراتقيا من ناحية الغرب ولقدونيا من ناحية الشمال .

وبعد نصف قرن تقريباً من مسلم الجرمي وذلك في حوالى عام ٢٨٨ هـ = ٩٠٠ وجد في أسر البيزنطيين هارون بن يحيى الذى حفظ لنا حقائق هامة خاصة وصفه القيم للقسطنطينية في ذلك العهد . ويبدو أن محيط معلوماته كان أضيق بعض الشيء من محيط مسلم الجرمي ؛ ولكن مما يزيد في أهمية روايته أنه قد حفظ لنا قطعة كبيرة منها الجغرافى ابن رسته (١٠٣)، كما توجد مقتطفات منها لدى القزويني (١٠٤) . وكان هارون بن يحيى قد وقع في أسر قراصنة من أهل أطلاليه Attaleia بآسيا الصغرى وذلك قرب عسقلان بفلسطين فساقوه بحراً وبراً إلى القسطنطينية وامتدت إقامته بعض الوقت زار خلاله رومه عن طريق سلانيك كما زار أيضاً أرض الصقلية والبندقية ؛ وفي رومة حصل على معلوماته عن برغنديا والفرنجة وبريطانيا . وينصب الجزء الأساسى من روايته على وصف القسطنطينية ، وقد لفت النظر إليه حتى قبل طبع 133 كتاب ابن رسته المستشرق الروسى روزن Rosen فنشر النص مع ترجمة روسية منذ عام ١٨٧٩ (١٠٥) وكتب عنه مقالاً في عام ١٨٨٧ (١٠٦) . وفي القرن العشرين أخضع ماركفارت (١٠٧) الرواية جميعها لفحص دقيق ، كما أن علماء البيزنطيات وجهوا اهتمامهم في الأعوام الأخيرة إلى وصفه للقسطنطينية (١٠٨) . هذا وقد ظهرت أبحاث عديدة واختلافات في وجهات النظر حول الفترة التي يرجع إليها وصفه هذا ، فالبعض يميل إلى نسبته إلى عام ٩١٢ (١٠٩) ، هو فرض بعيد الاحتمال (١١٠) . ومما يلفت النظر أنه إذا كان وصفه للقسطنطينية لا يخلو من معلومات هامة طريفة تقوم على الملاحظة المباشرة فإن وصفه لرومة على عكس ذلك يقتصر على إيراد « العجائب » Mirabilia ويمثل رواية نقلية ترتفع إلى مصادر مسيحية شرقية ، على أغلب الظن سريانية ؛ وهذا الحكم يصدق على رواية بقية الجغرافيين العرب عن رومة (١١١) . وقد لعبت السفارات إلى جانب الأسرى دوراً ملحوظاً في توسيع نطاق المعلومات الجغرافية ؛ ولم تكن أخبار هذه السفارات حتى في القرن التاسع نفسه شيئاً نادراً ولكن فيما يتعلق بالمغرب الإسلامى يجب أن ننحس بالعناية شخصية حفظت لنا عنها معلومات جمة تلكم هي شخصية يحيى بن الحكم البكرى (١٥٣ هـ - ٢٥٠ هـ = ٧٧٠ - ٨٦٤) الملقب بالغزال لحاله والذى لعب دور الدبلوماسى مرتين . وهو شاعر فنان وعلى معرفة بعدد من اللغات ، وكان أمير قرطبة عبد الرحمن الثانى قد وجهه إلى بلاد الشمال ، إلى جتلانند Jutland على ما يبدو ، لمفاوضة النورمان الذين أغاروا قبل ذلك بقليل في

عام ٨٤٤ على الأندلس ونهبوا اشبيلية . ويلوح أنه قد زار قبل هذا القسطنطينية ضمن سفارة أوفدت لعقد معاهدة صلح مع الإمبراطور تيوفيل . وقد حفظ لنا أخبار السفارة الأولى مؤرخ الأندلس في بداية القرن الثالث عشر ابن دحية (١١٢)، أما الثانية فيرونها لنا في القرن السابع عشر علامة المغرب المقرئ (١١٣)؛ غير أنه تم في الآونة الأخيرة العثور على معلومات لدى مؤلفين سابقين لهذا (١١٤) . وقد حفظ لنا إلى جانب التفاصيل عن الرحلة نفسها ، وهى تفاصيل تتسم بالاعتصاب والتشويش ، بعض شعر للغزال نفسه يمس جوانب من هذه الرحلة . ولا يخلو من طرافة في هذا الصدد مخاطبته اسيدات البلاط البيزنطى في شعر عربى رصين تُستشف من خلاله تلك العواطف الوجدانية الحياشة التى حفل بها شعر التروبادور Troubadours . وقد نادى أحد العلماء الفرنسيين منذ أمد غير طويل برأى مؤداه أن رحلة الغزال إلى 134 بزنطة هى الوحيدة التى حدثت فعلا بينما تستند رحلته إلى النورمان على محض اختلاق (١١٥) . بيد أنه من العسير الاتفاق مع هذا الرأى المتطرف لأن الرحلة فى واقع الأمر تحفل بتفاصيل واقعية ، بل إن شخصية الملك المذكور فى الرحلة والذى أجهد تحقيق اسمه العلماء وقتاً طويلاً قد تمكن أخيراً العلامة الترويجى زابيل Seippe' من إثبات شخصيته (١١٦) :

وقد اقتدى عرب المغرب بإخوتهم عرب المشرق فلم يقصروا اهتمامهم على المشرق وحده الذى ربطه بالعرب تاريخ طويل من العلاقات ، بل جاهدوا أيضاً فى التعرف على الغرب والكشف عن بلاده غير المعروفة لهم . وعرب الأندلس رغماً من خوفهم من المحيط الأطلنطى الذى اقترن فى أذهانهم « ببحر الظلمات » الرهيب قد قاموا بمحاولات عديدة للكشف فيه ؛ ولكن نظراً لأنه لم يصلنا عن هذه الاستكشافات خبر متواتر فقد استمر مجهولاً من العالم إلى أن أماط سره الأوروبيون . ويروى لنا المسعودى خبر إحدى تلك المغامرات فى عبارات موجزة مع الإشارة إلى مصنف له لم يصل إلينا :

« ويذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها فى كتابنا فى أخبار الزمان وفى أخبار من غرر وخاطر بنفسه ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه ومارأوا ولذ منهم رجل من أهل الأندلس يقال له خشخاش وكان من فتیان قرطبة وأحداشهم فججمع جماعة من أحداشها وركب بهم فى مراكب استعدّها فى هذا البحر المحيط فغاب فيه مدة ثم انشئ بغنائم واسعة وخبره مشهور عند أهل الأندلس » (١١٧)

ويمكن من الناحية الزمنية لإرجاع هذه المغامرة إلى القرن التاسع ، أما النقطة التى بلغوها فهى مجال للتخمين والافتراضات (١١٨) :

وقد حفظت لنا بتفصيل أكثر من هذا أخبار رحلة من لشبونة قام بها ثمانية شبان أبناء عمومة لقبوا « بالمغرورين » ، أى المخاطرين . ويروى لنا قصتهم بشكل مفصل الإدريسى (١١٩) وذلك بمناسبة كلامه عن لشبونة ، فقد كان يوجد بها درب يعرف باسمهم هذا (١٢٠) ؛ ويعيد القصة أبو حامد الغرناطى ،

- والعمرى (١٢١) . وجوهرها أن ثمانية إنخوة عزموا على «ركوب بحر الظلمات ليعرفوا» ما فيه وإلى أين انتهأوه » 135 فأبحروا مع الرياح الشرقية مدة أحد عشر يوماً إلى موضع صخري مخيف شديد الظلمة . ثم اتجهوا جنوباً مدة اثني عشر يوماً إلى أن بلغوا « جزيرة الغم » فأبحروا قطعان هائلة منها ؛ ثم توغلوا اثني عشر يوماً أخرى في نفس الاتجاه حتى بلغوا جزيرة أخرى فأسهرهم أهلها وكانوا ذوى بشرة حمراء وشعرهم قليل ناعم وطوال القامة . وعندما بدأ هبوب الرياح الغربية أُمرسيد الجزيرة بترحيلهم معصوبى الأعين إلى القارة التى بلغوها بعد إبحار ثلاثة أيام بلياليها . وهناك علموا من البربر أنهم بجنوبى مراكش على مسيرة شهرين من بلدهم ، وكان موضع نزولهم البقعة التى قامت بها فيما بعد ميناء آسفى Asfi .
- وواضح من هذا أن نقاطاً عديدة من هذه القصة تدخل فى محيط الأدب الشعبى « الفولكلور » (Folklore) العالمى للقرون الوسطى ؛ وقد استطاع دى خويه أثناء تحليله للأساطير الأوروبية المبكرة عن رحلة القديس براندان أن يكشف عن عدد من نقاط الشبه الطريفة بين القصتين ، مما يشير إلى مصدر مشترك (١٢٢) . وبالطبع فإن تحديد زمان ومكان رحلة « المغرورين » يفسح مجالاً واسعاً للتخمين والافتراضات (١٢٣) . ويبدو أن وصف الرحلة يرجع إلى القرن العاشر كما يرى دى خويه ، وذلك قبل إنشاء ميناء آسفى (١٢٤) . ويميل بيزلى Beazley إلى الاعتقاد بأن الجزيرة الأولى الوارد ذكرها فى الرحلة هى جزيرة ماديره Madeira أما الثانية فىرى فيها إحدى جزر الكنارى Canaries (١٢٥) . وبخلاف هذا فإن أى قول يتعلق بالرحلة لا يخرج عن حيز الافتراضات التى لا يدعمها الواقع ؛ ورغماً عن هذا فقد اعتقد المتخصصون فى جغرافيا العصور الوسطى أن هذه الرحلة ربما ساهمت فى الحث على الرحلات المتأخرة التى قام بها الملاحون الأوربيون فى المحيط الأطلنطى (١٢٦) . وقد لاقت تسمية هؤلاء الملاحين بالمغرورين ، أو « المغرورين » كما تروى أحياناً ، انتشاراً واسعاً ؛ ومما يدعم صحة اشتقاق اللفظ الثانى الاستعمالات العديدة التى وردت لدى المسعودى (١٢٧) ، مما لا يفسح المجال للأخذ برأى Metz فى أنه يجب قراءتها « المغرورين » أى الضاربين فى الغرب (١٢٨) .

- إن مغامرة هؤلاء « المغرورين » تخرج بعض الشيء عن الحدود الزمنية الموضوعية لهذا الفصل ولكنها من ناحية أخرى تكمل سلسلة المحاولات العربية للتجوال فى الغرب فى ذلك العهد . فإذا ما ولينا وجهنا شطر المشرق مرة أخرى أمكننا أن نقرر بكل ثقة أن الاهتمام الرئيسى للعرب قد انصب حقاً على البلاد الواقعة إلى الشرق من العالم الإسلامى وأن أفق معرفتهم الجغرافية بتلك النواحي قد اتسع بصورة ملحوظة . وهنا يقتصر الحال فى أول الأمر بالطبع على مجرد ذكر الرحلات المختلفة وقد يصحب 136 ذلك سرد لمراحل الطريق ، وشيئاً فشيئاً يقابلنا عدد من الروايات عن هذه الرحلات احتفظ بها مؤلفون متأخرون أو أعادوا صياغتها فى قالب جديد . أما فى القرن التاسع نفسه فلا نكاد نلتقى بوصف لرحلات يسرده الرحالون أنفسهم :

وفيما يتعلق بالتجارة عن طريق البحر مع الهند وأرخبيل الملايو والصين فإن العرب قد ساروا على التقاليد القديمة لمنطقة جنوب العراق وسواحل الخليج الفارسي في العصر الساساني . ويُروى أنه عندما سقطت ميناء الأبله قرب البصرة في يد العرب في خلافة عمر وجد بها المسلمون سفناً صينية^(١٢٩) . وواضح أن الفرس ظلوا حتى في عهد السيادة العربية أكثر العناصر جسارة في ركوب البحر ؛ ومن المعلوم منذ عهد طويل أن المستعمرة العربية الفارسية بميناء كانتون Canton بالصين بلغت حداً من القوة استطاعت معه في عام ٧٥٨ أن تضع يدها على المدينة ونهبها وتغادرها عن طريق البحر^(١٣٠) . وفي الآونة الأخيرة حالف التوفيق العلامة البولندي لفيتسكي Lcwicki فعثر على شواهد تثبت زيارة بعض العرب للصين في ذلك العهد^(١٣١) ، وذلك في تاريخ طائفة الإباضية من الخوارج ؛ ومصدر هذه الشواهد مصنف لأبي سفيان محبوب العبدى المتوفى في النصف الأول من القرن التاسع^(١٣٢) جاء فيه أن أحد شيوخ تلك الطائفة وهو أبو عبيدة عبد الله بن القاسم من أهل عمان كان عالماً كبيراً لعصره وتاجراً معروفاً اشتغل بتجارة المر . وكان قد سافر بتجارة له إلى الصين ؛ ولكن تاريخ الرحلة غير معروف لنا ولوأنه لاعتبارات شتى يمكن القول بأنها حدثت دون شك قبل نهب كانتون السالف الذكر في عام ٧٥٨^(١٣٣) . أما التاجر الإباضي الآخر فهو النضر بن ميمون الذي عاش بالبصرة على ما يظهر على حدود القرنين الثامن والتاسع ومن هناك سافر إلى الصين ؛ ولكن ليست لدينا أية تفاصيل عن رحلته هذه^(١٣٤) . وعلى أية حال فإنه يمكن اعتبار هؤلاء التجار الإباضيين بمثابة ممهدين للطريق للتاجر المعروف سليمان ولابن وهب اللذين سنلتقي بهما في رواية أبي زيد السيراقي التي دونت بعد قرن من ذلك .

يتضح لنا مما مر أن العرب قد جمعوا عن بلدان الشرق الأخرى مادة وجيزة منذ ذلك العهد المبكر السابق للقرن التاسع معتمدين في ذلك على روايات لشخصيات عربية ؛ ويروى لنا ابن رسته حقائق عن الهند ينقلها عن شخص غير معروف لنا يدعوه أبا عبد الله محمد بن إسحاق ، وكان قد أمضى عامين من حياته في قمار (أى خمر Khmer ، وهو الاسم القديم لكبوديا)^(١٣٥) وحدث هذا على أغلب الظن في بداية القرن التاسع^(١٣٦) . ويعتبره بارتولد المصدر الأساسي عن الهند لا بالنسبة لابن رسته وحده ، وهو الذى نقل عنه فقرات **معينة** ، بل أيضاً « بالنسبة لابن خردادبه وغيره من الجغرافيين العرب »^(١٣٧) . وهذا لا يعنى بالطبع أن مادتهم فيما يتعلق بتلك البلاد قد اقتصرت على أبي عبد الله وحده^(١٣٨) ، إذ يلوح أن مثل هذه الحالات لم تكن نادرة .

وإلى نفس هذا العهد المبكر ترجع أول معرفة للعرب بالطريق البرى الذى يخترق آسيا الوسطى إلى الصين ، وذلك اعتماداً على الوصف الذى يقدمه تيم بن بحر المطوعى . وكما يتبين من نسبه فإنه لم يكن تاجراً أو عالماً بل انتمى إلى فئة المتطوعة من جنود الثغور الإسلامية الذين كثر عددهم على تخوم الخلافة خاصة في آسيا الوسطى . وقد توجه تيم إلى خاقان الترك التغزغز بمهمة دبلوماسية على ما يظهر ؛ ويرجع

بارتولد تاريخ هذه الرحلة مع بعض التردد (١٣٩) إلى الفترة بين عامي ٧٦٠ و ٨٠٠ (١٤٠). وحفظ لنا ياقوت (١٤١) أهم قطعة من هذه الرحلة أمكن بواسطتها الاستدلال على شخصية المؤلف الذي ترجع إليه القطعتان المجهولتا المؤلف في معجم ياقوت وكتاب ابن خردادبه (١٤٢) ؛ وبهذا فإن الأخير هو أول جغرافي عربي يحفظ لنا وصف الطريق البري إلى الصين (١٤٣). ويمكن أيضاً تتبع أثر تميم عند بعض الجغرافيين مثل أبي دلف وقدامة (١٤٤) بل وحتى عند الإدريسي (١٤٥). و تميم هو أول عربي يمدنا بمعلومات عن التوغز تستند على معرفة مباشرة بهم في ديارهم (١٤٦)، وهو إلى جانب الأخبار الطريفة عنهم وعن غيرهم من القبائل التركية الأخرى يصف لنا عاصمة التوغز خايجو Kan-Chou قرب طرفان Turfan (١٤٧). وقد ورد لديه أيضاً ذكر لحجر المطر عند الترك ، الأمر الذي دفع ياقوت بهذه المناسبة إلى نقل الرواية الأكثر تفصيلاً والمأخوذة عن المروزي الذي مر ذكره (١٤٨). والفرض الذي نادى به ماركفارت وهو أن تيميا قد زار الأويغور على نهر الأورخون Oikhon قبل هجرتهم منه (١٤٩) قد ثبتت صحته في الآونة الأخيرة بعد الاطلاع على مخطوطة ابن الفقيه التي عثر عليها بمشهد ، فهي تورد لنا قصة تميم بصورة أوفى مما لدى ياقوت (١٥٠).

وباسم الخليفة الواثق (٢٢٧ هـ - ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ - ٨٤٧) الذي مر الكلام عليه كمشجع للرحلات تقترن الرحلة الشهيرة لسلام الترجمان إلى الأصبغ الشمالية . وتتخذ هذه الرحلة 138 بالسبب لوطنا السوفيتي أهمية خاصة ، فليس غريباً إذن أن يرجع الاهتمام بها بين طهرانينا إلى أكثر من قرنين فيكتب عن سلام الترجمان (Alsalem Altargjeman) واحد من أوائل الأكاديميين لدينا وهو باير Bayer وذلك في أول جزء من « التعليقات » (Commentaries) الأكاديمية (١٥١). ولم تتغير كثيراً نظرة الدوائر العامة فيما يتعلق بسلام في السبعين عاماً الأخيرة ؛ وإذا كان اشبرنجر Sprenger قد اعتبر الرحلة منذ عام ١٨٦٤ « تضليلاً مقصوداً » (١٥٢)، وهو موقف انضم إليه بالتالي غريغورييف Grigoriev (١٥٣) فإن مينورسكي Minorsky أيضاً ، وذلك في عام ١٩٣٧ ، يرى فيها « حكاية خرافية تنتشر فيها بضعة أسماء جغرافية » (١٥٤). إلا أنه لا يجب أن نهمل الآراء المعارضة لذلك ، فنذ عام ١٨٨٨ اعتبر دي خويه (١٥٥) الرحلة واقعة تاريخية لاشك فيها وأنها جديرة باهتمام العلماء ، وقد أيدته في هذا الرأي (١٥٦) خبير ثقة بالجغرافيا التاريخية هو توماشك Tomashek (١٥٧)، وفي الآونة الحاضرة يرى عالم البيزنطيات فاسيلييف Vasiliev أنه من الممكن القول بأن سلاماً « قد نقل إلى الخليفة الروايات المحلية التي سمعها في الأماكن التي زارها » (١٥٨)، ويلوح لي أن هذا الرأي الأخير لا يخلو من الوجهة رغماً من أن وصف الرحلة ، شأنه في هذا شأن جميع الآثار من هذا النوع ، لا يمكن اعتباره رسالة جغرافية بل مصنفاً أدبياً يحفل بعناصر ثقافية من جهة وانطباعات شخصية صيغت في قالب أدبي من جهة أخرى :

ويجب قبل كل شيء ملاحظة أن القصة قد وصلت إلينا في رواية جذيرة بالثقة ، فابن خرداذبه يرويها لنا بالفاظ سلام نفسه^(١٥٩) ويؤكد في آخر روايته^(١٦٠) أنه قد سمعها في بداية الأمر من سلام ثم أمليت عليه من التقرير الذي رفعه سلام إلى الخليفة^(١٦١) . ومما يدعم صحة هذه الرواية قول المقدسي عن ابن خرداذبه بصدد هذا : « لأنه كان وزير الخليفة وأقدر على ودائع علوم خزانة أمير المؤمنين » ، هذا إلى جانب أنه قد سمعها مباشرة من صاحبها^(١٦٢) . وقد نالت القصة انتشاراً واسعاً في الأدب الجغرافي العربي، ورواها 140 الجغرافيون المتقدمون والمتأخرون مع تفاوت في التفاصيل ، مثل ابن رسته^(١٦٣) وياقوت^(١٦٤) وأبي حامد **الفرناطى والإدريسى**^(١٦٥) والقزويني^(١٦٦) والنويري^(١٦٧) وغيرهم . وحفظ لنا الإدريسى بضعة تفاصيل منها وجدت على ما يظهر في المسودة الأصلية لابن خرداذبه^(١٦٨) التي لم تصل إلينا ، وسقطت من موجز كتابه الموجود بين أيدينا الآن .

وكان الدافع إلى إرسال هذه السفارة دافعاً خيالياً بحثاً كنفس الدافع الذي جعل الخليفة يبعث محمد بن موسى الفلكي ليستقصى خبر أهل الكهف . فقد تراءى للخليفة في المنام كأنما انفتح السد الذي بناه الإسكندر ذو القرنين ليحول دون تسرب يأجوج ومأجوج ؛ ولعل هذا الحلم المزعج قد سببته للخليفة الشائعات عن تحرك القبائل التركية في أواسط آسيا نتيجة لقضاء القرغيز على دولة الأويغور حوالى عام ٨٤٠ . هذا وإذا طرحنا جانباً كل التفاصيل نجد أن خط سير سلام^(١٦٩) قد اتجه شمالاً خلال أرمينيا وجورجيا (بلاد الكرج) إلى بلاد الخزر ، ثم اتجه من هناك شرقاً إلى بحر قزوين فوصل إلى بحيرة بلقاش Balkash وجنغاريا Zhungaria ، وعاد من هناك إلى سامرا بالعراق ماراً في طريقه على بخارى وخراسان . وهو بلا شك قد أبصر سد القوقاز المشهور عند دربند^(١٧٠) ؛ ومن ناحية أخرى فإن من الممكن جداً أن يكون قد بلغ سور الصين العظيم كما أثبت ذلك دى خويه^(١٧١) . ويمكن تفسير الخلط في وصفه للحائطين بأن عصر الخوارزمي ، معاصر سلام ، قد عرف روايتين عن سدى ذى القرنين إحداهما تضعه في الشرق والأخرى في الشمال^(١٧٢) . ومن المحتمل جداً أن سلاماً قد حاول إلى جانب تسجيل انطباعاته المباشرة أن يردد أيضاً وفي قالب أدبي الرواية الموجودة في القرآن^(١٧٣) عن سد يأجوج ومأجوج . ومن المستحيل بالطبع تحديد ميدان تجواله بالمنطقة الواقعة بين القريم والأورال كما فعل منذ عهد غير بعيد العالم الهنغارى زيتشى Zichy^(١٧٤) الذي أبصر في السد ممراً من ممرات جبال الأورال حصنته البلغار^(١٧٥) . وأحد كبار العلماء المحدثين وهو خبير في الجغرافيا التاريخية لأوروبا الشرقية وآسيا الوسطى يختتم كلامه عن سلام بقوله : « لا يوجد أدنى شك في أن سلاماً قام في حوالى عام ٨٤٢ - ٨٤٣ مرحلة عبر فيها القوقاز ، وأرض الخزر متجهاً صوب الشرق ، ثم مر في طريقه على برسخان وطراز (تالاس) وشرقند راجعاً إلى خراسان ؛ وهو قد أبصر بالفعل في هذه الرحلة **حائطاً** أو ممراً جبلياً يشبه الحائط »^(١٧٦) . وهذا يمكن القول بأن سلاماً قد ظفر أخيراً ببعض الثقة لدى الدوائر العلمية :

لقد حاول البعض أن يعتبر رحلة سلام أسطورة خيالية وكفى ، ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن مصادر الأساطير الجغرافية في الأدب العربي توجد في ميدان غير هذا ، فهي ترتبط بالأقاصيص والحكايات البحرية عن بلدان الشرق كالهند وأرخبيل الملايو وأوبدان الغرب خاصة سواحل أفريقيا الشرقية . وقد بدأت هذه الأقاصيص تزدهر في القرن التاسع في موانئ الخلافة كالبصرة وسيراف وعلى وجه خاص في العاصمة بغداد . ونادراً ما أودع القصاصون حكاياتهم بطون الأسفار ، فهي في الغالب وصلتنا بأقلام شخصيات أخرى كانت أحياناً من معاصريهم أو من ممثلي الأجيال التالية لهم .

ويبدأ سلسلة القصص المعروفين لنا « التاجر سليمان » الذي لا يعرف عنه أكثر من أن قصصه ترجع إلى حوالي عام ٢٣٧ هـ = ٨٥١ . وهو قد سافر مراراً بغرض التجارة إلى الهند والصين ؛ ويصف الطريق بدرجة من الدقة مكنت فبران Ferrand من أن يتبعه على الخارطات الحديثة (١٧٧) . وهو خير مثال للتجار العرب والفرس الذاهبين إلى الصين ، وقد أبحر من سيراف إلى مسقط على ساحل الجزيرة العربية ومن هناك إلى كلم على ساحل ملبار ، ثم ممر بمضيق تالك شمال جزيرة سيلان وعبر خليج البنغال فوصل إلى جزيرة لنجبالوس (إحدى جزر نيكوبار) . ثم تقدم إلى كسله بره على ساحل الملايو الغربي ومن هناك إلى جزيرة تيومن الواقعة إلى الجنوب الغربي من ملقا ، ومنها إلى رأس القديس يعقوب قرب سايجون ، ومن هناك إلى جزيرة هاينان فعبر المضيق الذي يفصلها عن أرض الصين ليصل إلى ميناء خانفو أو كانتون الحديثة بالصين . وكانت الرحلة البحرية من مسقط إلى الصين تستغرق أكثر من أربعة أشهر (١٧٨) . ولم يقتصر سليمان في وصفه على ذكر المراحل ، أو « البربلوس * Periplus كما تقول اليونان ، وتقدير المسافات بالأيام وأحياناً بالفراسخ بل ترك أيضاً وصفاً حياً للسواحل والبحر والموانئ المختلفة والمدن وسكانها والمحاصيل والمنتجات و سلع التجارة ؛ كما ثبت أن المعلومات التي أوردها عن كانتون تتميز بالتفصيل والدقة . ونظراً لعدم وجود أية معلومات عن سليمان نفسه فإن بعض كبار علماء الصينيات (Sinologists) مثل يول Yule ويليو Pelliot قد تشككوا في نسبة القصص إليه ، كما ظهر رأي آخر يقول بأن هذه القصص لعربي زار الهند ؛ ومن الملاحظ أنه لا ترد فيها إشارة إلى سليمان إلا مرة واحدة (١٧٩) . غير أن فبران (١٨٠) قد لفت الأنظار إلى أن ابن الفقيه ينسب القصص صراحة 142 إلى سليمان (١٨١) ولهذا فإن مسألة تأليفه لها لا يحوم حولها أدنى شك حتى بعد مرور خمسين عاماً على وفاته . وقد أضاف إلى القصص المنسوبة إلى سليمان ، وذلك بعد عشرين عاماً من هذا ، رحالة آخر هو ابن وهب (١٨٢) الذي يرجع نسبه إلى قریش وكان من الأعيان الأثرياء فلما سقطت البصرة في يد ثوار

* لفظ « بربلوس » Periplus معناها باليونانية دورة ملاحية (Circumnavigation) ، وقد أطلق اللفظ على رسائل في الملاحة يصف فيها اليونان سواحل البحار المختلفة . ومن أهم ما تبقى لنا منها هو « بربلوس البحر الأحمر » Periplus Mare Erythraeum الذي يرجع إلى القرن الأول الميلادي . (المترجم)

الزنج عام ٢٥٧ هـ = ٨٧٠ استقر رأيه على القيام برحلة طويلة من سيراك إلى الصين ؛ وقد نحالفه التوفيق فوصل إلى عاصمة الصين وكانت في ذلك الوقت خمدان Khumdan (أو سينانفو Sinanfu) ولوصفه أهمية خاصة إذ بعد قليل من ذلك في عام ٢٦٤ هـ = ٨٧٨ تم القضاء على المستعمرة العربية بكانتون نتيجة للحروب الداخلية فانقطعت بذلك الصلات المباشرة بين العرب والصين (١٨٣) وأصبحت آخر ميناء تصلها السفن العربية ميناء كله أوكله بره بشبه جزيرة الملايو (١٨٤) ؛ ولم يتجدد الاتصال بالصين إلا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر (١٨٥) .

وقصص سليمان وابن وهب قد دونها في بداية القرن العاشر أبو زيد الحسن السيراك (١٨٦) من أهل البصرة ، وهو الذي أعطاها شكلها المعروف لدينا الآن . والسيراك نفسه لم يكن رحالة ولا عالماً بل كان على ما يظهر من المغربين بأمثال هذه القصص التي كان من السهل جمع محصول وافر منها سواء في مسقط رأسه سيراك أو في البصرة . وقد التقى به المسعودي عام ٣٠٣ هـ = ٩١٦ ؛ ورغماً عن الخلط في الأسماء فإن جميع الدلائل تشير إلى أن المسعودي قد أخذ عنه رواية ابن وهب (١٨٧) .

ومسودة أبي زيد السيراك وصلتنا في مخطوطة فريدة موجودة بباريس أضاف إليها النساخ مقدمة لا علاقة لها البتة بمحتويات الكتاب ؛ وزاد المشكلة تعقيداً أن المخطوطة تحمل عنواناً غير مناسب على الإطلاق هو « سلسلة التواريخ » . وقد اجتذب هذا الأثر أنظار العلماء منذ عهد مبكر فظهرت له منذ عام ١٧١٨ ترجمة فرنسية لم تلبث أن أثارت الريبة لدى البعض والاشتباه في التدليس لدى آخرين . ويعود الفضل في دراسة هذه المجموعة من القصص إلى رينو ، كما درسها في القرن العشرين فيران* الذي يدين له العلم بوضع أساس متين لدراسة الرحلات البحرية التي قام بها العرب في بحر المشرق .

وقد سارت هذه القصص البحرية في سلسلة متصلة الحلقات فأبرزت لنا في فرع من فروعها « أسفار

143 السندباد » التي طبقت شهرتها الآفاق والتي وجدت كمجموعة مستقلة قائمة بذاتها قبل أن تدخل ضمن مجموعة « ألف ليلة وليلة » الضخمة (١٨٨) ، وقد أثبت العلم أخيراً أنه من الخطأ اعتبارها محض أسطورة خرافية تدور حوادثها خارج حدود الزمان والمكان ؛ إذ استبان من أبحاث رينو ودي خويه وفيران أن « أسفار السندباد » انبعثت في نفس الوسط الذي نشأت فيه قصص التاجر سليمان وفي نفس مواضعها أيضاً أي سيراك والبصرة وبغداد ، بل وفي نفس العصر تقريباً أي حوالي عام ٩٠٠ (١٨٩) . ويتفق فيران وكازانوفا Casanova في أنها ترتفع إلى زمن أبعد بكثير من زمن القصص الأخرى لأنه لا يرد فيها ذكر للصين (١٩٠) مما يستدل منه أن تلك البلاد إما كانت غير معروفة البتة أو كانت معروفة قليلاً في العصر الذي تشكلت فيه الصورة الأولى « لأسفار السندباد » (١٩١) ، ويرجع كازانوفا تاريخها بالتحديد إلى عصر الرشيد (١٩٢) ، أما مسرح حوادثها فهو الهند وأرخبيل الملايو ؛ وقد أمكن تحديد أماكن بعض حوادثها بالكثير من الدقة . هذا وكان لأسفار السندباد تأثير واضح على سير القديسين في أوائل العصور الوسطى

* آخر دراسة لهذه القصص قام بها المستشرق الفرنسي سوافيجيه O. Sauvaget (١٩٤٨) . (المترجم)

بأوروبا ، فأسطورة القديس براندان St. Brandan التي ترجع إلى أوائل القرن الحادى عشر (١٩٣) مدينة بالكثير فى بعض مواضعها لهذه القصص (١٩٤) ، كما يجب ألا ننسى أيضاً تأثير الرحلات البحرية على الأساطير الأخروية (eschatological) للمسيحية الأوروبية (١٩٥) .

وكما رأينا فإن القصص البحرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببلاد الشرق كالهند والصين ، ولكن يمكن أن يضم إلى هذه الأقطار أيضاً سواحل أفريقيا الشرقية خاصة بلاد الزنج المشهورة ، وهى تنطبق بوجه التقريب على زنجبار الحالية . ويشغل مكاناً مرموقاً فى هذه السلسلة كتاب تم تأليفه بعد ذلك بقليل فى حوالى عام ٣٤٢ هـ = ٩٥٣ ، أعنى مجموعة « عجائب الهند » لبرزج بن شهریار وهو ربان من رامهرمز على الخليج الفارسى ؛ وليس لدينا أية معلومات عنه بخلاف ما تقدمه لنا قصصه نفسها ؛ ويجب ألا ينظر فيه إلى المؤلف بقدر ما ينظر فيه إلى القاص الرئيسى الذى دونت الحكايات من ألفاظه إذ يأخذ طرفاً فيها قاصون آخرون من الربانة والنواخذة والتجار الذين ينتمون خاصة إلى الفترة ٢٨٨ هـ - ٣٤٢ هـ = ٩٠٠ - ٩٥٣ ؛ وبعض قصص هذه المجموعة ترجع إلى نهاية القرن العاشر وفقاً لرأى فيران (١٩٦) .

والكلام فى هذه المجموعة لا يدور حول قصة واحدة متماسكة الأطراف كما هو الحال مع كتاب أبى زيد السيراني ولكنه يتناول مجموعة من القصص المتفرقة التي تختلف طولاً وقصراً فتتراوح بين عشر 144 صفحات وبضعة أسطر ؛ كما تتميز مادتها أيضاً بالتنوع فتارة يقابلنا وصف قصير لنبات أو سمك أو عجائب ، وطوراً وصف لحادث فى البر أو البحر قد يتحول إلى قصة مغامرات أو دراما أخلاقية معروضة بالكثير من المهارة الفنية . ويحس من هذا العرض العام للقصص أنها لشخص يتمتع بأسلوب حى سلس ويجيد الفن القصصى ويعرضه أحياناً بطريقة وجدانية مؤثرة ، ومن ثم فهى تمثل مصنفأ أدبياً ممتازاً لا يقل قيمة عن أفضل مواضع « أسفار السندباد » بل ويفوقها أحياناً . هذا وقد أصبح كتاب « عجائب الهند » فى متناول الأيدى فى طبعة فاخرة منذ الثمانينيات من القرن الماضى .

لقد عاش نمط القصص البحرية فى الأدب العربى قروناً طويلة ولكنه لم ينتج لنا آثاراً ممتازة كالتى مر بنا الكلام عليها . أما مجموعة الحكايات المعروفة باسم « مائة ليلة وليلة » (١٩٧) فإنها لم تدون قبل النصف الثانى من القرن الرابع عشر ولكنها ربما عرفت منذ القرن العاشر (١٩٨) ؛ ورغم أن أنه يثبت من قراءتها معرفتها « بألف ليلة وليلة » إلا أنها لا تعتمد عليها فى مادتها (١٩٩) . وتوجد بهذه المجموعة حكاية عن جزيرة الكافور (٢٠٠) تصف الرحلة البحرية إلى الصين ويرد فيها الكلام عن عاصمتها خمدان (٢٠١) ، وهى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحكاية ابن وهب (٢٠٢) ؛ أما مصادرها فتتنظم مجالا عريضاً يصل إلى كوزموغرافيا ابن الوردى فى القرن الرابع عشر (٢٠٣) . وسنرى كيف أن مسار هذا التطور للقصص البحرية على مر القرون سيؤدى بنا فى القرن الخامس عشر إلى مرشدات الملاحة للربانة العرب المشهورين فى المحيط الهندى الذين كان كان من بينهم ربان فاسكو دى غاما .

وفي الفترة التاريخية التي نعالجها في هذا الفصل كان الطريق البحري إلى الصين يعتبر أسهل الطرق المؤدية إلى تلك البلاد من أماكن نائية كسمرقند . ويحكى لنا المسعودي^(٢٠٤) أن أحد « التجار من أهل سمرقند من بلاد ما وراء النهر خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى أتى العراق فحمل من جهازها وانحدر إلى البصرة وركب البحر حتى أتى بلاد عمان وركب إلى كيلّة وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك... ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة في مراكب الصينيين إلى مدينة خانقوا وهي مرسى المراكب ». وبسبب إساءة لحقته عند جمع المكوس فقد سافر هذا التاجر إلى خمدان^(٢٠٥) شاكياً فظفر باستخلاص حقوقه^(٢٠٦) . وهكذا فإن الطريق الذي سلكه هذا السمرقندي يتفق بوجه عام مع الطريق الذي سافر به التاجر سليمان أو ابن وهب ؛ ومن المؤكد أن هذه الرحلة من آسيا الوسطى إلى الصين لم تكن الوحيدة من نوعها .

145

ولا يوجد ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الطريق البحري قد طغى على الطريق البري نهائياً في ذلك العصر ، فالمسعودي يحكى كذلك :

« وقد رأيت يبلغ شيخاً جميلاً ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مراراً كثيرة ولم يركب البحر قط وقد رأيت عدة من الناس ممن سلك من بلاد الصغد على جبال النوشادر إلى أرض التبت والصين^(٢٠٧) . وهذا الطريق الأخير تعرفه المصادر الصينية أيضاً^(٢٠٨) . ومن العسير أن نحدد بالدقة أى طريق سلكه إلى الصين بعد قليل من ذلك الراهب النجرائي الذي التقى به في عام ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ صاحب كتاب « الفهرست » وحفظ لنا عدداً من حكاياته بلسانه ؛ وهو يبدأ فصلاً من كتابه بالطريقة الآتية :

« مذاهب أهل الصين وشيء من أخبارهم : ما حكاها لي الراهب النجرائي الوارد من بلد الصين في سنة سبع وسبعين وثلثمائة هذا الرجل من أهل نجران أنفذه الحائليق منذ نحو سبع سنين إلى بلد الصين وأنفذ معه خمسة أناس من النصاري ممن يقوم بأمر الدين فعاد من الجماعة هذا الراهب وآخر بعد ست سنوات فلقيته بدار الروم وراء البيعة فرأيت رجلاً شاباً حسن الهيئة قليل الكلام إلا أن يسئل فسألته عما خرج فيه وما السبب في إبطائه طول هذه المدة فذكر أموراً لحقته في الطريق عاقته وأن النصاري الذين كانوا ببلد الصين فسنيوا وهلكوا بأسباب وأنه لم يبق في جميع البلاد إلا رجل واحد وذكر أنه كان لهم بيعة خربت قال فلما لم أر من أقوم لهم بدينهم عدت في أقل من المدة التي مضيت فيها فمن حكاياته قال إن المسافات في البحر قد اختلفت وفسد أمر البحر وقل أهل الخبرة به وظهر فيه آفات وخوف وجزائر قطعت المسافات إلا أن الذي يسلم على الغرر يسلك »^(٢٠٩) .

والملاحظات الأخيرة التي يمكن أن يحس منها أنها ثمرة تجربة شخصية تدفع إلى الاعتقاد بأن الرحلة قد تمت على أية حال بطريق البحر .

إن حكايات الراهب النجرائي مقتضبة في الواقع ولكنها تبلغ حد الطرافة^(٢١٠) بالنسبة للتاريخ الحضاري

لذلك العصر وبالنسبة للأوضاع السائدة في الصين آنذاك . وقد اجتذبت منذ القرن السابع أنظار المستشرق غوليوس ، كما يبدو ذلك في تعليقاته على رسالة الفرغاني^(٢١١) ؛ وكانت معرفة العلماء بالجغرافيا العربية آنذاك في مستوى جعل الشك وعدم التصديق يسيطران بالرواية إلى ما بعد قرن من ذلك التاريخ ؛¹⁴⁶ ولكن لم يلبث أن وكدها رينو^(٢١٢) وترجمها فيران في القرن العشرين ترجمة علمية ضمنها صفحات مؤلفه عن الشرق الأقصى^(٢١٣) . ولقد صاغ صاحب « الفهرست » قصة الراهب النجرائي بألفاظ عادت بالغرم عليه هو نفسه ، فقد حدث أن ناشر « الفهرست » وهو المستشرق فليجل Flügel قد أخذ خطأ « دار الروم » ، وهو أحد أحياء بغداد ، على أنه عاصمة الدولة البيزنطية وبنى على أساس هذا نظرية واهية مؤداها أن ابن النديم زار القسطنطينية عام ٩٨٧ والتقى بالراهب النجرائي قريباً من آيا صوفيا . وقد كشف عن هذا الخطأ في بحث مفصل المستعرب الروسي روزن^(٢١٤) ، ولكنه لا يزال مع الأسف الشديد يتسلل من آونة لأخرى إلى العلم الأوروبي إلى أيامنا هذه^(٢١٥) .

لقد كان القرن التاسع فاتحة عهد جديد في تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ليس فقط لأن عدداً من الأنماط الجديدة قد رأى النور لأول مرة بل أيضاً لظهور رسائل ذات طابع عام وصلت إلينا في صيغ مختلفة : وبمقدورنا الحكم على تلك المصنفات لا من مجرد ذكر عناوينها أو من المقتطفات التي حفظت لنا منها في آثار متأخرة بل من أصولها الأولى التي ربما وجدت في روايات ترجع إلى فترة تتلو بكثير تاريخ تأليفها .

محواشي الفصل الرابع

- (١) — Brockelmann, GAL, I, p. 102, No 6; SBI, p. 160
(= Racc., p. 188) ناليئو ، الفلك ، ص ١٢٨
- (٢) — Krachkovski, Arabsk. Kult V Ispanii, p. 18 — Reinaud, Introduction, p. XC — XCII — Dozy, Le Calendrier
(٣) ناليئو ، الفلك ، ص ١٣٤ - ١٣٦ (= Racc., p. 192-194)
- Motylinski — Griffini, RSTOR, I, p. 423-438; 607-608
- (٤) — Schjellerup, p. 32 = (= Racc., p. 190) ناليئو ، الفلك ص ١٣١
- (٥) — Brockelmann, GAL, I, p. 102, No 7; SBI, p. 161
أما عن هجرته من البصرة - (= Racc., p. 188) ناليئو ، الفلك ، ص ٢٨ ، رقم ٢
بحسب ألفاظ أبي عبيدة (توفي عام ٢١٠ هـ = ٨٢٥) فراجع : ابن خلكان ، الجزء الثالث ، ص ٥٤٩ = اليافعي الجزء الثاني ، ص ٨
- (٦) الفهرست ، الجزء الأول ، ص ٥٢ = ابن خلكان ، الجزء الثالث ، ص ٥٥٣ - ٥٥٤
Reinaud, Introduction p. LI — Flügel, — Gram Schulen, p. 60
- (٧) — Brockelmann, GAL, I, p. 106-107, No 14; SBI, p. 166-167
- (٨) — Gottschalk, p. 284-285
- (٩) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٩ - ٧
- (١٠) شرحه ص ٧
- (١١) — Brockelmann, GAL, I, p. 138-140, No I; SBI p. 211-212
Brockelmann, EI, II, p. 737-738
- (١٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثاني ، ص ١٥٨
- (١٣) الفهرست ، الجزء الأول ، ص ٩٧
- (١٤) — Kramers, EI, EB, p. 63
- (١٥) — Heer, p. 5
- (١٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧
- (١٧) شرحه ، الجزء الثاني ، ص ٦٥٢
- (١٨) شرحه ، ص ٨٧٦
- (١٩) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ٤٤١
- (٢٠) شرحه ، ص ٨٤٧

- Mieli, p. 81, note 6 bis (٢١)
- Brockelmann, GAL, I, p. 104-105; No 11; SBI, p. 163-165 (٢٢)
- Haffner, EI, I, p. 509
- (٢٣) ناليثو ، الفلك ، ص ١٢٩ ، رقم ٥
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 164, No 10 (٢٤)
- (٢٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ص ٧ .
- Heer, p. 26, a (٢٦)
- Haffner, Quellenwerke, p. 69 No 45 (٢٧)
- Flügel, Gram, Schulen, p. 156. (٢٨) الفهرست ، ص ٧١
- Bevan, I, p. XI : ناشر « النقائض » :
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 175 (٢٩)
- (٣٠) شرحه ، ولكن ريتيمير Reitemeyer تتخذ موقفاً مخالفاً
- (٣١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ — Heer, p. 27 - 28
- Reitemeyer, p. 247 - 254 (٣٢)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 188, No 2 b (٣٣)
- Cheikho, Catalogue Raisonné, p. 112-113, No 184 (٣٤)
- (٣٥) ناليثو ، الفلك ، ص ١٣٢ ، رقم ١٤ (= Racc, p.190)
- (٣٦) الفهرست ، ص ١١٤
- Brockelmann. GAL, p. 152 - 153 No 2; SBI, p. 239 - 247 — Al-Djähiz, (٣٧)
- p. 1043-1044 — Sarton, Introduction I, p. 597 — Rescher, Abriss,
- II, p. 274 - 296 — Reinaud, Introduction, p. LII - LIII, CCCXCII
- Asin Palacios, Libro de los Animales (٣٨)
- (٣٩) المسعودي ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٠٦
- (٤٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء السادس ، ص ٧٧
- (٤١) حاجي خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥٢ رقم ٩٩٠٤ (بحسب المسعودي)
- Rieu, Supplément, No 1129, 15 الورقة 199-219 — Brockelmann, GAL, SBI, (٤٢)
- p, 244, No 59;
- وأيضاً في دار الكتب المصرية ، أدب ، ١٨٤٤ ، الورقة ١٣٩ - ١٥٣ (نسخة من مخطوطة ٤٠٣ هـ)
- فصل من صدر كتاب في
- (٤٣) ياقوت ، المعجم الجزء الثاني ، ص ٥٩٣
- (٤٤) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٦٥١

- (٤٥) شرحه ، الجزء الثاني ، ص ٧٩٢
- (٤٦) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ٥٥٢
- (٤٧) المقدسي ، BGA, III ، ص ٣٣ (توجد تسعة فقط)
- (٤٨) ابن خردادبه ، BGA, VI ، ص ١٧٠
- (٤٩) ابن الفقيه ، BGA, V ، ص ١١٦
- (٥٠) ابن حرقل ، BGA, II ، ص ٢٦٦
- (٥١) Kramers, Al - Nil, p, 991 — راجع : Krymski, Istoria Arabov, I, p. 101, note
- (٥٢) المسعودي ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧
- (٥٣) شرحه ، الجزء الثاني ، ص ٥٢ - ٥٣
- (٥٤) Carra de Vaux, Maçoudi, p. 82 - 83 ، الترجمة لدى BGA, VIII ، ص ٥٥
- (٥٥) Sachau, Alberunis India, المتن : p. 100; الترجمة : p. 204 راجع : Rozen, ZVO, III, p. 160 بسلامة قلبه
- (٥٦) ابن حوقل ، BGA, II ، ص ٢٦٦
- (٥٧) المقدسي ، BGA, III ، ص ٤ - ٥ ؛ راجع ص ٥ ، الملاحظة
- (٥٨) Al - Djahiz, p. 1044
- (٥٩) المقدسي ، BGA, III ، ص ٢٤١
- (٦٠) المقصود «ثمار القلوب» ، ص ٤١١ ، ٤٣٨ ؛ راجع : عبد الوهاب : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الثاني عشر ، ص ٣٢٤
- (٦١) شرحه ، ص ٣٢١ - ٣٢٥ (مقدمة الناشر) ، ص ٣٢٦ - ٣٥١ (المتن) ، ص ٣٥٢ - ٣٥٥ (مقارنته مع ابن الفقيه) . تعليقات لغوية للكرمل ، المجلد الثالث عشر ، ص ٢٨٧ - ٢٩٥
- (٦٢) Brockelmann, GAL, SBI, p. 244 No 54
- (٦٣) عبد الوهاب ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد الثاني عشر ، ص ٣٢٤
- (٦٤) الفهرست ، ص ١٥٠ - 193 Girgas
- (٦٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثاني ، ص ٤٠٥
- (٦٦) حدود العالم ، ٩ - ١٠ Kramers, El, EB, p. 65
- (٦٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠ - ٨٤٣ (تختلف الأسماء بمض الشيء)
- راجع : BGA, V, p. 329 - 330
- (٦٨) يرد الكلام عن حجر المطر لدى تميم بن بحر ؛ راجع : ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠ . وعنه عامة راجع : Grigoriev, Abu Dulaf, p, 31 — Rohr - Sauer, p. 50
- (٦٩) الفهرست ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ Brockelmann GAL, I, p. 210 No 3; SBI, p. 375
- Sarton, Introduction I, p. 597

- (٧٠) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ص ٢٧٥ — Reinaud, Introduction p. LIV, CCCII
- (٧١) الفهرست ص ٢٦٢
- (٧٢) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٧٥
- (٧٣) الفهرست ، ص ٢٦٢ — حاجى خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥٠٩ ، رقم ١١٨٧٠ — حدود العالم ، ص ١١ — Kramers, EI, EB, p. 65
- Heer, p. 17 - 18 (٧٤)
- Jaubert, I, p. 64 (٧٥)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 223 (٧٦)
- (٧٧) وكتاب الطبيب Jaubert, I, p. 94 — ولكن راجع : الفهرست ، ص ١١٦
- (٧٨) عن بلدة خاسك ، راجع Schleifer ، ص ٣٠٥
- Ruska, EI, I, p. 363 - 364 (٧٩)
- Devic, Les pays des Zendjs, p. 188 - 194 — Storbeck, p. 67-68 (٨٠)
- Riedel, p. 257 , 261 (٨١)
- Frähn, Ibn-Foszlān, p. XXV (٨٢)
- Reinaud, Introduction, p. LII (٨٣)
- (٨٤) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية ، راجع : الورقة ١/١٣٦ (Rosen, Notices sommaires, p. 144 - 145, No 194)
- Brockelmann, GAL, II, p. 427, No 6; SB, II, p. 635 (٨٥)
- Babinger, GOW, p. 119 - 120 No 102 (٨٦)
- Battal p. 709; Wittek, p. 336 - 337 : قارن (٨٧)
- Brockelmann, GAL, I, p. 216, No 2; SBI, p. 382 (٨٨)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 382 No 1 (٨٩)
- (٩٠) ابن خرداذبه ، BGA, VI ، ص ١٠٦ - ١٠٧ — الترجمة ص ٧٨ - ٧٩
- Krymski, Sem spiaschikh otrokov, p. 6-7 (٩١)
- (٩٢) المسعودى ، المروج ، الجزء الثانى ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨
- Vasiliev, Byzance, I, p. 8-9 note (٩٣)
- (٩٤) المقدسى ، BGA, III, ص ٣٦٢
- Brockelmann GAL, SBI, p. 404 (٩٥)
- (٩٦) المسعودى BGA, VIII ، ص ١٩٠ - ١٩١ ؛ الترجمة لدى :
- Carra de Vaux, Maçoudi p. 257 - 258 — Vasiliev, Byzance, p. 336 ;
- Cf p. 203 - 204

- (٩٧) Goldziher, Vorlesungen, Zweite Auflage, p. 115 (الترجمة غير دقيقة)
- Wensinck, Mihna, p. 551 شواهد أخرى يسوقها :
- (٩٨) ابن خردادبه ، BGA, VI ، ص ١٠٥ - ١١٣ ؛ الترجمة ص ٧٧ - ٨٦
- (٩٩) شرحه ، ص ٢٥٥ - ٢٥٩ ؛ الترجمة ص ١٩٦ - ١٩٩
- (١٠٠) شرحه ، ص ٢٦٩
- (١٠١) حدود العالم ص ٤١٩ ، ٤٢٢ - ٤٢٣ الخ : راجع - Markwart, Streifzüge, p. 28 etc
- (١٠٢) (حضرها للطبع وعلق عليها كوفالفسكى) V. V. Bartold, SV, I,
- (١٠٣) ابن رسته ، BGA, VII ، ص ١١٩ - ١٣٢
- (١٠٤) القزويني ، الجزء الثاني ، ص ٣٩٧ - ٣٩٩ ، ٤٠٦ - ٤٠٧
- (١٠٥) Krachkovski, Opis, p. 1332, No 29; 1336, No 47
- (١٠٦) Rozen, ZVO, II, p. IV
- (١٠٧) Markwart, Streifzüge, p. 206 - 207
- (١٠٨) Hudud, p. 419, note 2 راجع عن هذا :
- (١٠٩) Honigmann, Die Ostgrenze, p. 41 قارن :
- (١١٠) Hudud, p. 419 note 2
- (١١١) Guidi L' Europa Occidentale p. 269 — Guidi Roma p. 7
- (١١٢) Fabricius — Jacob, Arabische Berichte, p. 37 - 42
- (١١٣) Vasiliev, Byzance I, p. 186 - 187
- (١١٤) Byzantion, XII, p. 1 - 24
- (١١٥) شرحه ، ص ١٠ - ١٦
- (١١٦) Seippel, II, p. X — Nansen, Nebelheim, II, p. 149 note وأيضاً :
- (١١٧) المسعودي ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩
- (١١٨) Beazley, I, p. 465 — Sarton, Introduction, II, p. 1062
- (١١٩) Levi - Provençal, La péninsule آخر نشرة لنص الإدريسي لدى :
- النص ص ١٦ - ١٨ = الترجمة ص ٢٣ - ٢٤ : الترجمة القديمة :
- Jaubert, II, p. 26 - 29; ed. Dozy—De Goeje, p. 184 - 185 (المتن) p. 223 - 225
- (ترجمة) — Carra de Vaux, Les Penseurs, II (الترجمة) p. 47 - 49
- (١٢٠) Lévi - Provençal, La Péninsule (المتن) p. 16 - 17
- (١٢١) شرحه ، ص ٢٣ ، ملاحظة ٢
- (١٢٢) De Goeje, Brandan, p. 56 - 59

- (١٢٣) التاريخ راجع : Hennig, II, p. 329 - 335
- (١٢٤) — De Goeje, Brandan, p. 59 - 65
- (١٢٥) — Beazley, III, p. 532 - 533, note 2 — Sarton, Introduction, II, p. 1062
- (١٢٦) — Beazley, III, p. 533
- (١٢٧) المسمودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٥٨ : « أخبار من غرروخاطر بنفسه » ؛ وأيضاً ص ٣٢٧ : « وليس يكاد يقطع من عمان بحر الهند في تيرماه إلا مركب مفرر حولته يسيرة » .
- (١٢٨) — Mez, p. 476, note 2
- (١٢٩) الدينورى ، ص ١٢٣ ؛ قارن : Lewicki, RO, XI, p. 176. 180
- (١٣٠) — Mez, p. 480 (اعتقاداً على : Chau Ju Kua, p. 14 Sui) — Lewicki, RO, XI, p. 176, 180
- (١٣١) — Lewicki, RO, XI, p. 173 - 186
- (١٣٢) شرحه ، ص ١٧٧ - ١٧٨
- (١٣٣) شرحه ، ص ١٧٩ - ١٨١
- (١٣٤) شرحه ، ص ١٨١ - ١٨٢
- (١٣٥) ابن رسته ، BGA, VII ، ص ١٣٢
- (١٣٦) — Hudud, p. 236
- (١٣٧) حدود العالم ، ص ١٩
- (١٣٨) قارن : Hudud p. 236
- (١٣٩) — Barthold Toghuzghuz, p. 873
- (١٤٠) — Barthold, Vorlesungen, p. 54
- (١٤١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠
- (١٤٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الرابع ، ص ٨٢٣ =
- (١٤٣) — Barthold. Vorlesungen, p. 54
- (١٤٤) — Hudud, p. 268
- (١٤٥) شرحه ، ص ٢٦٩
- (١٤٦) شرحه ، ص ٢٦٨ - حدود العالم ، ص ١٠
- (١٤٧) حدود العالم ، ص ١٩
- (١٤٨) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠ - ٨٤٢
- (١٤٩) — Markwart, Streifzüge, p. 81
- (١٥٠) ابن الفقيه ، مخطوطة مشهد ، ص ١٦٩ - ١٧٠
- Hudud, p. 481 — Validov IRAN, p. 241 - 242
- ~ Bayer, Sallam p. 438 - 442 (١٥١)

- Sprenger, Reiserouten p. XV (١٥٢)
- Grigoriev, Abu Dulaf, p. 23 (١٥٣)
- Hudud, p. 225 (١٥٤)
- De Goeje, De Muur, p. 103 - 109 (على حدة ص ١٧ - ٢٣) (١٥٥)
- De Goeje, De Muur, 116, p. 30 (١٥٦)
- Tomaschek, WZKM, III, p. 103 - 108 (١٥٧)
- Vasiliev, Byzance I, p. 9, note 2 (١٥٨)
- (١٥٩) ابن خردادبة ، BOA, VI ، ص ١٦٢
- (١٦٠) شرحه ، ص ١٧٠
- (١٦١) شرحه (الترجمة) ، ص ١٢٤ - ١٣١ -
- Wilson, p. 20 - 25 — De Goeje, De Muur, p. 103 - 109, p. 17 - 23
- (١٦٢) المقدسى ، BOA, III ، ص ٣٦٢ - ٣٦٥
- (١٦٣) ابن رسته ، BOA, VII ، ص ١٤٩
- (١٦٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ، ص ٥٦ - ٥٨
- Jaubert, II, p. 416 - 420 (١٦٥)
- (١٦٦) القزويني ، الجزء الثاني ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ - ترجمة كارادى ثو
- (Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 43 - 47)
- (١٦٧) النويرى ، الجزء الأول ، ٣٧٤ - ٣٧٦
- Zichy, p. 191 (١٦٨)
- Barthold, Kirgizen, p. 1101 — Markwart, Streifzüge, p. 89 - 90 (١٦٩)
- Y. N. Marr, p. 11 - 13 (١٧٠) عن توضيح لفظ في وصفه راجع :
- Markwart, Streifzüge, p. 86 — Tomaschek, WZKM, III p. 108 : راجع (١٧١)
- Mzik, Parageographische, p. 186, note (١٧٢)
- (١٧٣) القرآن ، ٩٦٢١
- Zichy, p. 194 - 200 — Hudud, p. 225 note I : راجع (١٧٤)
- Zichy, p. 200 (١٧٥)
- Ibn Fadlan, p. 197 - 198 (١٧٦)
- Ferrand, Sulayman p. 18 (: راجع Sarton, Introduction, I, p. 572 — (١٧٧)
- Sarton, Isis, VI p. 146) — Sauvaget, Relation de la chine
- Ferrand, Sulayman, p. 18 - 19 (١٧٨)
- Pelliot, p. 401-402 (١٧٩)

- Ferrand, Notes, p. 21-35 (١٨٠)
- (١٨١) ابن الفقيه ، BGA, V ، ص ١١ - ١٣
- Reinaud, Introduction, p. CCCXCIV — CCCXCV, CCCXCIX — Hudud, (١٨٢)
p. 224 and index: Ibn Wahb
- Reinaud, Introduction, p. LXXIV, CCCXCIX (١٨٣)
- Mez, p. 481 (١٨٤)
- — Reinaud, Introduction p. LXXIV — LXXV (١٨٥)
- Hirth — Rockhill, Chau Ju - Kua, p. 0165 (١٨٦) بارتولد في نقده لكتاب
- (١٨٧) المسعودي ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٣١٢ - ٣٢٠ ، ٣٢١ - ٣٢٤
- (١٨٨) يعتقد كازانوفا Casanova (p. 125) أنه « من المستحيل فصلها عن ألف ليلة وليلة » .
- De Goeje, Brandan, p. 65 (١٨٩)
- Casanova, p. 119 (١٩٠)
- Ferrand, Relations, II, p. 564 (١٩١)
- Casanova p. 121 (١٩٢)
- De Goeje, Brandan, p. 65, 75; (١٩٣)
- وبراندان نفسه يرجع إلى القرن السادس (شرحه ص ٤٣)
- (١٩٤) شرحه ، ص ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣
- Asin Palacios, La eschatologia p. 264 (١٩٥)
- Ferrand, Relations, II, p. 565 (١٩٦)
- Ferrand, Note, p. 309, 318 (١٩٧) شرحه ، ص ٥٦٤ و
- Gaudefroy — Demombynes, Les cents et une nuits, p. 351 (١٩٨)
- Ferrand, Note, p. 309 (١٩٩)
- Gaudefroy — Demombynes, Les cents et une nuits, p. 68-77 (٢٠٠)
- Ferrand, Relations, II, p. 570-573 (٢٠١)
- Ferrand, Note p. 310-316 (٢٠٢)
- (٢٠٣) شرحه ، ص ٣١٨
- (٢٠٤) المسعودي ، مروج الذهب ، الجزء الأول ، ص ٣٠٧ - ٣١٢
- (٢٠٥) صحح هذا الإسم المشوه في الأصل العلامة مينورسكي Minorsky (Hudud, p. 224)
- (٢٠٦) لدى هارتمان (Hartmann, China, p. 877)
- (٢٠٧) المسعودي ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٣٤٩
- Mez, p. 467 (٢٠٨)

- (٢٠٩) الفهرست ، ص ٣٤٩
- (٢١٠) شرحه ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠
- Golius Notae, p. 76 (٢١١)
- Reinaud, Introduction, p. CLl — CLIII (٢١٢)
- Ferrand Relation, I, p. 129-131 (٢١٣)
- Rozen, ZVO, IV, p. 401-404 (٢١٤)
- Fück, ZDMG, 84, p. 117 and note 5 (٢١٥)
- ولكنه يصححها في مقاله في دائرة المعارف الإسلامية (EI, III, p. 873) مع الإشارة إلى روزن .

الفصل الخامس

المصنفات العامة في الجغرافيا في القرن التاسع

الجغرافيا الإقليمية في القرنين التاسع والعاشر

يعتبر ابن خردادبه عادة أول مؤلف يصلنا عنه مصنف في الجغرافيا الوصفية . وكما تبين لنا منذ برهة فإن هذا القول ليس صحيحاً كل الصحة ، فقد وجدت مصنفات أخرى مماثلة ترجع إلى تلك الفترة بل وإلى فترة سابقة عليها ؛ وهذه المصنفات الأخيرة معروفة لنا لا من أسماؤها فحسب بل ومن مقتطفات وقطع كبيرة حفظها لنا المؤلفون المتأخرون . غير أن ذلك القول يمكن اعتباره صادقاً بمعنى أننا نلتقي لدى ابن خردادبه بأول مصنف كامل على الرغم من أنه وصل إلينا في رواية ملخصة عملت في عصور متأخرة ولا تمثل المسودة الأصلية للمؤلف ؛ بيد أن هذا لا يمنعنا من الحكم على محتويات المصنف . ويلوح أن هذا المصنف الذي كان يحمل العنوان التقليدي «كتاب المسالك والممالك» لم يكن بالنسبة للمؤلف سوى حدث ثانوي عابر في مجال نشاطه الأدبي ، لأنه لم يتحكم في ظهوره نزعتة الأدبية بل طبيعة المنصب الذي كان يشغله في الدولة .

وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خردادبه فارسي الأصل وكان جده مجوسياً كما هو واضح من الاسم الذي حمله المؤلف . وقد حاول بعض العلماء في الآونة الأخيرة تفصيل صيغة خردادبه^(١) وهي محاولة لا غناء فيها على الإطلاق إذ كلا الصيغتين من أسماء تمجيد الخالق ولها اشتقاق واضح في اللغة الفارسية الوسيطة . والصيغة الأولى للفظ وهي خردادبه معناها «خرداد أفضل»^(٢) ، أما الثانية وهي خردادبه فمعناها «خلفه خرد أفضل»^(٣) . وهكذا فإن كلا الإسمين صحيح وليس ثمة حاجة لاطراح الأول الذي ثبت على ممر السنين منذ أن تعرف العلم الأوروبي على المؤلف . وفي العصور المتأخرة استعمل في اللغة العربية لفظ خردادى لتسمية نوع من البلور الجبلي والأواني المصنوعة منه^(٤) . وكان والد المؤلف حاكماً على طبرستان جنوبى بحر قزوين في أوائل القرن التاسع وذاع صيته بسبب التوفيق الذي أحرزه في إخضاع 148 بعض مناطق الديلم التي لم تدخل ضمن أراضى الخلافة الإسلامية إلى زمانه . أما المؤلف فقد حصل على تعليم جيد وكان لوالده فضل كبير في دراسته الموسيقى فتتلمذ ردهاً من الزمن على المغنى والموسيقى المشهور إسحق الموصلى^(٥) ؛ غير أن مكانة أسرته حددت مستقبله بصورة جازمة فأصبح مقرباً من بلاط الخليفة المعتمد (٢٥٦ هـ - ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ - ٨٩٢) بسامرا ومن ندمائه أصحاب النفوذ ؛ وجميع مؤلفاته

البالغ عددها عشرة معروفة لنا من أسماؤها فقط ^(٦) ومن المقطعات الموجودة لدى المؤلفين المتأخرين أو الإشارات إليها في المراجع المختلفة . وجميعها على وجه التقريب تدور في محيط الأدب الخفيف والحياة المرحية ، وقد يلاحظ في بعضها وجود اتجاهات شعوبية إيرانية كما في كتابه « جمهرة أنساب الفرس » ؛ وبعضها يستهدف إمتاع الكبراء والأغنياء مثل « كتاب الشراب » و« كتاب الطبخ » ، وقد كشف أخيراً عن مخطوطة واحد منها هو كتاب « الملاحى والأسفار » ، وذلك ضمن مجموعة شخصية ^(٧) . وله فضلاً عن ذلك كتاب في « التاريخ » يعالج فيه كما ذكر المسعودي ^(٨) تاريخ الأمم قبل الإسلام ؛ وكما هو الشأن مع كل أديب في ذلك العصر فإن ثبت مؤلفاته لم يخل من « كتاب الأنواء » ، وقد وقفنا عنده فيما مر بنا من القول :

ويبدو أن مكانته في البلاط قد هيأت له شغل وظيفه هامة هي وظيفة صاحب البريد بنواحي الجبال بـإيران ؛ ومن المحتمل أن هذا الوضع هو الذى دفعه إلى تأليف كتاب جغرافى استجابة لطلب أحد العباسيين . ولا نعرف على وجه التحديد التاريخ الذى شغل فيه ابن خرداذبه هذا المركز ، ولكن يبدو أن تأليف الكتاب قد استغرق وقتاً طويلاً؛ ويرى دى خويه أن المسودة الأولى ترتفع إلى حوالى عام ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ ، أما الثانية فلا تتجاوز بحال عام ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ . ولا تزال المسألة إلى أيامنا هذه باقية دون حل نهائى ، فبعض العلماء لا يزال يعتقد أنه ليست هناك سوى مسودة واحدة تعود إلى التاريخ الأخير ^(٩) رغمًا من أن الأغلبية ترى رأى دى خويه ^(١٠) . وهذا الأخير يعتقد أن كلا المسودتين لم تصلا إلينا وأن الطبعة الحالية تمثل موجزاً متأخراً وجد في مخطوطتين فقط . كذلك لسنا على يقين من عام وفاة ابن خرداذبه، وإذا كان صحيحاً ما أورده حاجى خليفة ، معتمداً في ذلك على مصدر غير معروف لنا ، من أنه توفي حول عام ٣٠٠ هـ = ٩١٢ ^(١١) فإن ابن خرداذبه يكون بذلك قد عاش عمراً طويلاً لأنه ولد على ما يظهر حوالى عام ٢٠٥ هـ = ٨٢٠ .

أما قيمة كتابه « المسالك والممالك » فيمكن الحكم عليها من الاستشهادات التى سقناها فيما مر من الكتاب ؛ وستظهر محاسنه وعيوبه من خلال العرض العام لمحتوياته ^(١٢) . وهو يبدأ وفقاً للتقليد المعروف بالمعلومات المعهودة ¹⁴⁹ من محيط الجغرافيا الرياضية خاصة وصف شكل الأرض كما لدى بطليموس ^(١٣)؛ وقد بينا فيما سبق من الكلام كيف يجب أن نقف من ترجمة بطليموس التى نقل عنها ابن خرداذبه . وبعد فصل قصير عن اتجاه القبلة بالنسبة لكل بلد يكرس المؤلف قسماً كبيراً للكلام على سواد العراق فيذكر تقسيمه الإدارى وأنواع الضرائب التى تجبى منه ، مع إيراد ملاحظات عن تاريخها هنا وفي ¹⁵⁰ مواضع أخرى من الكتاب ؛ ويمكن على ضوء هذه التفاصيل وضع ميزانية الدولة الإسلامية لذلك العهد ، وأول من فعل ذلك المستشرق كريمر Kremer ^(١٤) . ويختتم ابن خرداذبه هذا القسم بتعداد الملوك القدماء من "لدى

افريدون معتمداً في ذلك على المصادر الفارسية فيذكر ملوك الفرس والروم والترك والصين ويذكر أحياناً ألقابهم التي يلاحظ من بينها « ملك الصقالب قناز »* (١٥) .

أما القسم الرئيسي من الكتاب فيشمل وصف الطرق ، وذلك بدرجات متفاوتة في التفصيل . فبدأ بالطرق التي تخرج من بغداد شمالاً إلى آسيا الوسطى وجنوباً إلى الهند ، ويصحب ذلك ملاحظات عابرة عن التقسيم الإداري والحراج مع استشهادات شعرية عند الكلام على الأمكنة أحياناً . ويمتاز بحيوية أكثر وصفه الطريق البحري إلى الهند والصين حيث يبدو واضحاً تأثير « القصص البحرية » التي مر الكلام عليها . وفي خلال هذا الوصف يبدو واضحاً اهتمامه بمحصولات البحار والخزر ، كما يذكر بالتفصيل كيفية الحصول على الكافور ويصف الفيل ووحيد القرن ويتحدث عن البوذية لدى ملك جاوه وعن الطبقات (Castes) في الهند (١٦) . أما فيما يتعلق بالغرب فإنه يصف الطريق إلى الأندلس ، ويسهب في وصف الطرق المؤدية إلى بزنطه مع إيراد تفاصيل ترجع إلى مسلم الجرمي كما بينا في حينه . أما وصفه المسهب لرومه والذي قام بدراسته المستشرق جويدي Guidi فيربط بالمصادر المسيحية الشرقية وليست له أهمية تذكر ، شأنه في هذا شأن جميع أوصاف رومه التي تركها لنا الجغرافيون العرب قبل الإدريسي (١٧) . ويصف طريق الشمال خلال أذربيجان والقوقاز كما يصف الطرق الخارجة من بغداد في اتجاه الجنوب الشرقي إلى مكة والمدينة وجنوب الجزيرة العربية ، فيذكر المنازل من البصرة وبغداد ومصر إلى مكة . ويختتم هذا القسم بالكلام على طريقين مهمين للغاية كان يسلكهما التجار اليهود من أوروبا إلى الهند والصين ، أحدهما يمر بالسويس والبحر الأحمر ، والآخر يمر بأنطاكية إلى الفرات . وليس أقل أهمية من ذلك وصفه لطريق التجار الروس إلى الجنوب وهو الذي يمر بنهرى الدون والفولجا ثم يعبر بحر قزوين متجهاً صوب الجنوب (١٨) ؛ وهو يحمل على الاعتقاد بأنه مدخول على الكتاب ولكن يبدو أنه قد وجد في المسودة الأصلية (١٩) ومنها وقع لابن الفقيه الذي يختلف مع متن ابن خرداذبه في شيء بسيط هو أنه يتحدث عن تجار الصقالبة وليس الروس (٢٠) . وقد أدى هذا الموضوع إلى ظهور أبحاث عديدة (٢١) وله ترجمة علمية باللغة الروسية (٢٢) .

ولم يقتصر كتاب ابن خرداذبه على وصف الطرق بل أتبع ذلك أقساماً عديدة تحمل على الاعتقاد بأنها زيادات متأخرة أضيفت بمرور الزمن ، كالحديث مثلاً عن تقسيم الأرض الذي يحفل بأخطاء عديدة ، وعن عجائب العالم وعن الأبنية المشهورة حيث يورد قصة عن فتح الأهرامات في عهد ابن طولون . وينضم إلى هذا القسم من كتابه الوصف المعروف لنا لرحلة سلام التبرجمان ، ويتلوه حكاية عن العجائب المختلفة والجبال والأنهار . وهنا وعلى حين فجأة تنتهي المخطوطة كأنما بدون خاتمة . ليس من العسير أن نبصر أن كتاب ابن خرداذبه يقوم على عنصرين متميزين كل التميز عن بعضهما

* بالروسية Kniaz أى الملك والأمير ؛ ومن المحتمل أن الصقالبة قد أخذوها عن الجرمان . (المترجم)

البعض ؛ فمن ناحية يقابلنا عرض جاف للمادة الرسمية ولكنه يمتاز بأهمية كبرى ، ومن ناحية أخرى نلتقي بمجموعة من الغرائب Mirabilia الجغرافية المختلفة : ولاتحس من جانب المؤلف أية محاولة لصهر هذه المادة وصيها في قالب متجانس ، فضلاً عن أن الكتاب يفتقر إلى الكثير من ناحية التبويب . وقد كان بمقدور المؤلف بلا شك الاطلاع على الوثائق الرسمية ، أى الأرشيف الحكومى ؛ ويشير إلى هذا المقدسى ، بل والمؤلف نفسه عند الكلام على مصادره . وقد كان لاهتمام المؤلف بالرحلات أن حفظت لنا مادة مفيدة خاصة فيما يتعلق بوصف الطرق في عهود مبكرة ، الأمر الذى سبق الكلام عليه في فصل آخر . ولاشك أن عدم التناسق في مادة هذا الكتاب هو المسئول عن التناقض في حكم الجغرافيين العرب المتأخرين عليه^(٢٣) ، غير أن تأثيره على الأدب الجغرافى التالى كان كبيراً جداً فأخذ عنه من المؤلفين المتقدمين اليعقوبى وابن رسته وابن حوقل والمقدسى والجهاني والمسعودى وذلك عن مخطوطة ثالثة هى أفضل المخطوطات جميعاً^(٢٤) . كما أن العناية به ظلت قوية حتى بين المتأخرين فعرفه الإدريسي وابن خلدون كما عرفه جيداً الجغرافيون الفرس ، سواء المتقدمون منهم مثل المؤلف المجهول لكتاب « حدود العالم » أو المتأخرون مثل حمد الله قزوینی وميرخوند وخوندمير . ولم يكن باستطاعة ابن خرداذبه أن يؤسس مدرسة جديدة ، غير أن المادة التى جمعها كانت بمثابة الأساس المتين بالنسبة لكثيرين . وقد عرف كتابه في الدوائر العلمية الأوروبية في مخطوطتين منذ الستينيات من القرن الماضى وأصبح في متناول الأيدى بفضل الطبعة العلمية التى استخدم في إخراجها مخطوطة ثالثة أفضل من المخطوطتين الأولتين وظهرت مع ترجمة فرنسية لدى خويه De Goeje في عام ١٨٨٩ . وقد اجتذب اهتمام العلماء الروس بصورة خاصة وصفة للطرق التى كان يسلكها الروس ، وقد ظهرت في السنوات السبعينيات من القرن الماضى^(٢٥) أبحاث هامة في هذا للمستشرقين كونيك Kunik وروزن Rosen ، كما ندين 151 بتحليل عام للكتاب للمؤرخ الكبير بارتولد^(٢٦) .

وإلى طبقة موظفى الدولة ينتمى معاصر لابن خرداذبه هو الجغرافى والمؤرخ اليعقوبى ، واسمه الكامل أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسى اليعقوبى ؛ ويرد اسمه في المصادر بصيغ مختلفة من هذا النسب الطويل فهو مرة أحمد الكاتب وأخرى أحمد بن يعقوب وتارة ابن واضح وطوراً اليعقوبى ؛ وجده الأعلى واضح كان من موالى الخليفة المنصور وشغل يوماً وظيفة الحاكم على أرمينيا ومصر ودفع حياته ثمناً لميوله الشيعية ؛ وقد ظلت هذه الميول الشيعية في الأسرة إلى عهد مؤلفنا . وكان جده ووالده أيضاً من كبار عمال البريد ، ولا يعرف على وجه التحديد ما إذا شغل اليعقوبى نفسه بعض المناصب الحكومية ولكن يمكن افتراض هذا من أسفاره العديدة . وعلى الرغم من أن مولده ببغداد إلا أنه غادرها مبكراً فعاش طويلاً بأرمينيا وخراسان وزار الهند وفلسطين وتمتع برعاية الطولونيين أثناء مقامه الطويل بمصر والمغرب . وكتابه في الجغرافيا بعنوان « كتاب البلدان » معروف إلى يومنا هذا

في مخطوطة فريدة كان قد جلبها من المشرق مخلينسكى A. Mukhlinski (١٨٠٨ - ١٨٧٧) (٢٧) الأستاذ بجامعة بطرسبرغ ، وهي الآن بميونخ . وثمة مخطوطة أخرى كان يمتلكها المستشرق ف . كرن F. Kern (١٨٧٤ - ١٩٢١) ودخلت منذ عهد غير بعيد إلى المكتبة الملكية البروسية (٢٨) ولكنها لم تدرس حتى الآن (٢٩) . ويرجع تاريخ تأليف الكتاب إلى حوالى سنة ٢٧٨ هـ = ٨٩١ أى قبل قليل من وفاة المؤلف على ما يظهر التى حدثت عام ٢٨٤ هـ = ٨٩٧ أو عام ٢٩٢ هـ = ٩٠٥ (٣٠) .

وقد بدأت ميول اليعقوبى تنكيف منذ عهد مبكر ولم تلبث أن اتخذت اتجاهًا واضحًا نحو الجغرافيا بالذات ، وهو يبين هذا بجلاء في مقدمة كتابه حيث يقول :

« إلى عنيت في عنفوان شبابي وعند احتيال سنى وحدة ذهني بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لأني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغربي فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره فإذا ذكر لي محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك في ... لدته ما هي وزرعه ما هو وساكنيه من هم من عرب أو عجم ... شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم ... ودياناتهم ومقالاتهم والغالين عليه والمنزا ... (٣١) مسافة ذلك البلد وما يقرب منه من البلدان والـ ... لرواحل ثم أثبت كل ما يخبرني به [من أثق بصدقه واستظهر بمسئلة قوم بعد قوم حتى سألت خلقاً كثيراً وعالمًا 152 من الناس في الموسم وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم وذكرت من فتح بلدًا وبلدًا وجند مصرًا ومصرًا من الخلفاء والأمراء ومبلغ خراجهم وما يرتفع من أمواله فلم أزل أكتب هذه الأخبار وأولف هذا الكتاب دهرًا طويلا وأضيف كل خبر إلى بلده وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندي معرفته وعلمت أنه لا يحيط المخلوق بالغاية ولا يبلغ البشر النهاية وليست شريعة لا بد من تمامها ولادين لا يكمل إلا بالإحاطة به وقد يقول أهل العلم في علم أهل الدين الذى هو الفقه مختصر كتاب فلان الفقيه ويقول أهل الآداب في كتب الآداب مثل اللغة والنحو والمغازى والأخبار والسير مختصر كتاب كذا فجعلنا هذا الكتاب مختصرًا لأخبار البلدان فإن وقف أحد من أخبار بلد مما ذكرنا على ما لم نضمه كتابنا هذا فلم نقصد أن يحيط بكل شيء وقد قال الحكيم ليس طلبة للعلم طمعاً في بلوغ قاصيته واستيلاء على نهايته ولكن معرفة ما لم يسع جهله ولا يحسن بالعقل خلفه وقد ذكرت أسماء الأمصار والأجناد والكور وما في كل مصر من المدن والأقاليم والطاسيج ومن يسكنه ويغلب عليه ويرأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر ومن فتحه من قادة جيوش الإسلام وتاريخ ذلك في سنته وأوقاته ومبلغ خراجهم وسهله وجبله وبره وبحره وهواءه في شدة حره وبرده ومياهه وشربه » (٣٢) .

هذا وقد وفي اليعقوبى بوعده فخرج الكتاب وفقاً لمقاله ، إذ التزم فيه المؤلف بدقة الخطة التى وضعها في تبويب مادته . غير أن العرض العام يخرج من حد التناسق بعض الشيء فقد أسهب المؤلف في وصف بغداد وسامرا بحيث أخذ ذلك ربع الكتاب تقريباً . وبعد الفراغ من وصفهما يستمر في قوله :

« وقد ذكرنا بغداد وسرّ من رأى وبدأنا بهما لأنهما مدينتا الملك. ودار الخلافة ووصفنا ابتداء أمر كل واحدة منهما فلندكر الآن سائر البلدان والمسافات فيما بين كل بلد وبلد ومدينة ومدينة على قسم أربعة حسب ما تقسم عليه أقطار الأرض بين المشرق والمغرب ومهب الجنوب وهو القبلة وهو مطلع سهيل الذى يسميه الحُسَّاب التَّيَمَّن ومهب الشمال وهو كرسى بنات نعش الذى يسميه الحُسَّاب الجدى ونصف كل بلد إلى الربع الذى هو منه والذى يتصل به وبالله التوفيق » (٣٢).

وقد التزم المؤلف فى جميع كتابه هذا المنهج فى الوصف أى حسب الجهات الأصلية الأربعة ، فالقطاع 153 الأول شمل الكلام على إيران وتركستان وأفغانستان مع فصول مفردة لحكام خراسان وسجستان ؛ والثانى يشمل غربى العراق وغربى وجنوبى الجزيرة العربية ؛ والثالث يشمل العراق الجنوبية والشرقية وشرقى الجزيرة العربية والهند والصين ؛ أما الرابع فيزنطة ومصر والنوبة وشمال أفريقيا . والقسمان الثالث والرابع من الكتاب مفقودان فى المخطوطة ؛ وثمة عشر صفحات من المخطوطة عبثت بها يد البلى بصورة ضاعت معها خاتمة وصفه للبصرة ووصفه لبلاد العرب الشرقية وخوزستان وفارس والهند وجميع الشمال وبداية الغرب (٣٤) .

ومن المستحيل إنكار النزعة التجديدية فى هذا التقسيم على أساس الولايات ؛ أما طرق المواصلات فقد نالت اهتماماً كافياً بالرغم من أن المراحل لم تضبط بالدقة التى التزمها ابن خرداذبه . واهتمام يعقوبى يتجه بالذات إلى الجانب الاحصائى الطوبوغرافى ، وهو يولى عناية كبرى للخراج ؛ ولكن كتابه يحفل أيضاً بمسائل الاثنوغرافيا والصناعة والفنون . وقد اعترف عدد من الباحثين بأمانة يعقوبى العلمية وتفردته بمعلومات وافية لا توجد فى المصادر الأخرى . ويمثل وصفه للخطط التاريخية لبغداد وسامراً أهمية منقطعة النظير ، كما يجب ملاحظة أنه ترك وصفاً لأفريقيا قبل انفصالها مباشرة عن بقية أراضى الخلافة على يد الفاطميين وأنه أورد أخباراً قيمة عن الأندلس من بينها خبر إغارة النورمان عليها فى سنة ٨٤٤ حيث ترد فى صدد ذلك عبارته التى اشتهرت بالتالى وهى « الذين يقال لهم الروس » ، مما أدى إلى اشتهار اسم يعقوبى فى الدوائر العلمية وظهور عدد من الأبحاث حول هذا . وأول من لفت الأنظار إلى ذلك فرين فى عام ١٨٣٨ (٣٥) اعتماداً على المخطوطة التى اكتشفها مخلينسكى قبل ذلك بقليل ؛ وقد جمع فرين بما عهد فيه من الدقة كل ما استطاع جمعه عن المؤلف وكتابته ؛ وفى نفس العام بين سنكوفسكى Senkovski بحميرة القراء أهمية الاكتشاف الذى قام به فرين وذلك فى مقال له بعنوان « أصل الروس » O Proiskhojdenii Russov (٣٦) . وبعد عشرة أعوام من هذا تمكن رينو استناداً على بحث فرين من تعريف الدوائر العلمية العريضة فى أوروبا بشخصية المؤلف وذلك فى مقدمته المشهورة فى الجغرافيا العربية (٣٧) . وقد أصبح المتن فى متناول الأيدى بفضل الطبقات الجزئية والترجمة بقلم دى خويه (١٨٦٠) وبينبول Juynboll (١٨٥٦) وتلى هذا أن ضمنه هر كفى Harkavi فى عرضه العام (١٨٧٠) (٣٨)

ورجع إليه كونيك مرة أخرى في مقال واف عالج فيه مسألة ذكره للروس^(٣٩). ولم تلبث أن ظهرت طبعة جديدة للكتاب بواسطة دي خويه (١٨٩٢) ، وتم تنويع كل هذا بظهور ترجمة نموذجية للكتاب بقلم فييت G. Wiet (١٩٣٧) تحتوي على تعليقات وافية .

أما من الناحية الأدبية فإن كتاب اليعقوبي يمتاز على كتاب ابن خرداذبه بصورة قاطعة رغمًا من أنه قصد به نفس الوسط من القراء الذين كتب من أجلهم ابن خرداذبه . وهو قليلا ما يكثرث للنظرية الجغرافية بل هدفه إعطاء لوحة عامة للبلدان لمن يريدون الإلمام السريع بها . وقراؤه ، باستثناء المطلعين والراغبين في المعرفة ، هم على ما يبدو موظفو الدولة العديدين الذين كانوا ينتغون تعريف أنفسهم ببلد أو آخر قبل الذهاب إليه . وهو ليس بعرض جاف للطرق على طراز ابن خرداذبه بل يقرب أكثر من النمط المتأخر « لكتاب المسالك والممالك » كما عرفته المدرسة الكلاسيكية في القرن العاشر ، أضف إلى هذا أن أسلوبه علمي مبسط وسهل المأخذ . ويحس في الكتاب نزعة المؤلف إلى التحليل العقلي ، ولا عجب فهو يخلو من أى أثر للعجائب Mirabilia التي افتتن بها المؤلفون الآخرون .^(٤٠) وقل أن تقابلنا اقتباسات أو نقل من كتاب اليعقوبي لدى المؤلفين المتأخرين ، غير أن القليل الذي وجد منها يرجع إلى أسماء معروفة في ميدان الجغرافيا مثل الإدريسي وياقوت وأبي الفداء ، ويعتبره الأخير مصدراً هاماً يمكن وثوق به . وبخلاف مصنفه الجغرافي هذا فقد وصلنا عن اليعقوبي أيضاً كتاب في التاريخ هو « تاريخ اليعقوبي » في جزئين ، وهو مصنف له مكانته في ميدان التاريخ أضف إلى هذا أنه يحفل بالمادة الجغرافية أو على الأصح الاثنوغرافية . وعلى أية حال فوفقاً لما جاء في المقدمة التي سقنا شذرة منها فيما سبق من الكلام فإن اليعقوبي يعتبر نفسه جغرافياً قبل كل شيء . هذا وقد كان مجال نشاطه الأدبي من السعة بحيث لم يكن غريباً عليه قرض الشعر ، وتنسب إليه في هذا الصدد أبيات قالها حين زيارته للطلوليين بمصر^(٤١).

وعلى النقيض من اليعقوبي فإنه يغلب عند البلاذري جانب التاريخ على جانب الجغرافيا ، بل إنه يحتل مكانة مرموقة في الميدان الأول لمحاولته تطبيق المنهج البراغمي (Pragmatic) فيه ؛ ويمكن اعتباره ليس جامعاً فحسب بل ومؤرخاً بمعنى الكلمة . ولقد حفظ لنا البلاذري مادة هامة في محيط الجغرافيا التاريخية يستحيل معها إغفال ذكر صاحبها في عرض للأدب الجغرافي . وكان البلاذري مقرباً أيضاً من بلاط الخلفاء كعاصريه الذين مر ذكرهما قبل قليل ، ولكن لا في مرتبة الموظف الكبير بل في مرتبة أكثر تواضعاً وهي التدريس ؛ وكان من تلامذته الشاعر والأديب الذي استخلف « ليوم واحد » عبد الله بن المعتز . وينجب أن نطرح القصة التي تحيط بأصل لقبه وهو أنه تسمى بذلك لأنه كان يفرط في أكل البلاذري حتى مات من جراء ذلك ، إذ ليس مألوفاً لدى العرب إضافة النسبة عقب وفاة صاحبها ، فضلاً عن أن جده قبله كان يحمل هذا اللقب^(٤٢) .

ويهمنا من الناحية الجغرافية مصنفه الأصغر «كتاب فتوح البلدان» وهو أشبه بتاريخ للفترة الأولى 156 للفتوحات الإسلامية ، ويمثل للأسف موجزاً للكتاب الأكبر . أما مضمونه فيشمل قصة كفاح محمد ضد أعدائه بعد هجرته إلى المدينة ، وحروب الردة ، وفتح الشام والجزيرة وأرمينيا ومصر والمغرب والعراق وفارس ، مع ذكر بعض الحوادث التالية لذلك . وتتركز قيمة الكتاب في أنه لا يمثل تاريخاً عسكرياً جافاً ؛ بل إن البلاذرى يورد بكل دقة الأخبار المحلية عن السكان والهجرات والأبنية الشهيرة . وهو يقدم لنا تفاصيل عديدة من مجال التاريخ الحضارى كسألة دخول اللغة العربية الدواوين ، وعن الحراج ، وعن مسائل السكة ، وتاريخ الكتابة العربية . وقليل ما يشير البلاذرى إلى مصادر مكتوبة ، ولعل هذا يفسر وجود عدد من الأخطاء التاريخية في صلب الكتاب . ولا يخلو من أهمية بالنسبة لنا في الاتحاد السوفيتى المادة التى يوردها عن أذربيجان وأرمينيا التى ترجمت إلى الروسية . وفى الأعوام الأخيرة أخذ يتحقق مشروع إصدار طبعة علمية لكتابه الكبير فى التاريخ الذى انتظرت الدوائر العلمية طويلاً صدوره ، وهو ذو قيمة كبرى فى ميدان التاريخ الإسلامى ولكنه يختلف فى تبويبه عن بقية المؤلفين* .

وقرب نهاية القرن التاسع كانت أنماط الأدب الجغرافى تقف متنوعة فى صورها ، فإلى جانب المصنفات التى وضعت من أجل الإداريين وعمال الدواوين نلتقى بكتاب جامع على منهج مؤلفات الجاحظ قصد به إمتاع المثقفين ذلكم هو «كتاب البلدان» لابن الفقيه الهمداني الذى تم تأليفه حوالى عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ . ولا نعلم عن المؤلف شيئاً ما ، وكل ما استطاع أن يذكره عنه صاحب «الفهرست» فى نهاية القرن العاشر أنه كان من أهل الأدب وأن اسمه أحمد^(٤٢) ، وأغلب الظن أنه من مدينة همدان Hamadan بإيران وكان خبيراً بالرواية والأدب وله كتاب آخر عن الشعراء معروف من عنوانه فقط . ومؤلفه الجغرافى كان فى الأصل ضخم الحجم يشتمل على خمسة أجزاء فى حوالى ألفى صفحة على ما يقال ، ولكنه معروف فقط فى مختصره الذى عمله على الشيزرى فى عام ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ ، أى بعد حوالى مائة عام من تاريخ تأليفه .

وينقل ياقوت عن المسودة الأصلية شذرات كبيرة ؛ أما المقدسى فيقف من الكتاب موقف الحذر حين يقول :

« ورأيت كتاباً صنفه ابن الفقيه الهمداني فى خمس مجلدات سلك طريقة أخرى ولم يذكر غير المدائن العظمى وأدخل فيه فنوناً من العلوم مرة يزهد فى الدنيا ودفعة يرغب فيها ووقتاً يبكى وساعة يضحك ويلهو وأما كتاب الأمصار للجاحظ فصغير وكتاب ابن الفقيه فى معناه غير أنه أكثر حشواً وحكايات

* يعنى المؤلف بذلك «أنساب الأشراف» وقد أخرجت دار المعارف بالقاهرة الجزء الأول منه ، ونرجو أن يحالفهم التوفيق فى إخراج بقية أجزاء هذا السفر الهام . (المترجم)

واحتجاً بأننا إنما أدخلنا خلال كتبنا ما أدخلنا ليتفرّج فيها الناظر إذا ملَّ وربما كنت أنظر في كتاب ابن الفقيه 158 فأقع في حكايات وفنون انشأ أين كنت من البلدان ولم أستحسن أنا هذا» (٤٣).

والحق إلى جانب المقدسى ، إذ أن ارتباط أسلوب ابن الفقيه بأسلوب الجاحظ أمر غير مشكوك فيه وغلبة هذا الأسلوب لديه شيء واضح للجميع ؛ وليس كتابه إذا حكمنا من مختصره مصنفًا جغرافيًا بالمعنى الدقيق للكلمة بل مجموعة أدبية عن بلاد العالم الإسلامي تذخر بكمية كبيرة من الشعر والقصص . وهو عبارة عن نخبة مختارة من الطرائف الأدبية من أجل القارئ العام لا تمس الجغرافيا أو الأسماء الجغرافية إلا من بعيد . وبعض الأمثلة التي سقناها فيما مضى تصور بما فيه الكفاية ذوق ابن الفقيه الأدبي . ومصادر ابن الفقيه متنوعة بشكل كبير فجميع المؤلفين الذين مر ذكرهم على وجه التقريب وجدوا مكاناً في مصنفه وأحياناً في مقتطفات كبيرة كالجاحظ (٤٤) وابن خردادبه والتاجر . سليمان (٤٥) والبلاذري وربما الجياني أيضاً (٤٦) . والمقدسى محق أيضاً من ناحية أخرى وهي اتهامه لابن الفقيه بالافتقار إلى خطة يسير عليها في مؤلفه ، ويكفي لإثبات هذا أن نورد عناوين الفصول ورؤوس الموضوعات التي يعالجها في القسم الأول من كتابه : في خلق الأرض والبحار المحيطة بها وما فيها من العجائب ، الفرق بين الصين والهند ، مكة والكعبة ، الطائف ، المدينة ومسجدها ، فرق ما بين تهامة ونجد ، اليمامة ، والبحرين ، اليمن ، انقلاب الهزل إلى جد والجد إلى هزل ، في مدح التجوال ، مصر والنيل ، البلاد الواقعة إلى جنوبها (النوبة والحبش والبجة) ، المغرب ، المقدس ، دمشق ، العراق ، الروم ، مدح الآثار المشهورة وذمها ، الكوفة وقلعة الحورنق (مع مجموعة من الملاحظات التاريخية والاستشهادات) ، البصرة ، فارس ، أذربيجان ، أرمينيا الخ . ولإعطاء فكرة عن ميله إلى الحشو والاستطراد الذي أشار إليه المقدسى من قبل نذكر أنه عند الكلام على عين ماء قرب همدان وقع ابن الفقيه في ثلاثة استطرادات مختلفة أحدها عن الماء مع مدح الماء العذب والثاني محاورة بين منتصر للعراق وممجد لهمدان ومنقص من شأنهما والثالث في حب الأوطان . ويسوق الاستطراد الأخير إلى الاعتقاد بأن ابن الفقيه أصله من همدان .

ومنذ حوالي خمسة عشر عاماً اكتشفت بمدينة مشهد مخطوطة تحوى الجزء الثاني من المسودة الكبرى لكتاب ابن الفقيه ويبدأ على وجه التقريب بالكوفة . ولعل الدراسة والفحص الدقيق قد يسفران عن تفاصيل هامة فيه ، غير أن الفكرة العامة عن مصنفه ستستمر في الغالب على ما كانت عليه دون تبديل . 159 وإذا كان كتاب ابن الفقيه لا يرقى إلى مصاف عدد من مؤلفات معاصريه في ميدان الجغرافيا إلا أنه من وجهة نظر تاريخ الحضارة يقف أحياناً على مستوى أعلى إذ يقدم لنا لوحة معبرة للزراعات والاتجاهات الأدبية للمجتمع العربي المثقف في نهاية القرن التاسع (٤٧) . وابن الفقيه غير مجهول للمستشرقين الروس فهو إلى جانب ما يورده من معلومات عن تركستان والقوقاز (٤٨) يصف طريق سير التجار اليهود والروس ،

وقد نقل ذلك عن ابن خرداذبه . وهو موضوع دفع إلى ظهور عدد من الأبحاث من بينها بحث خاص لكونيك Kunik^(٤٩) ؛ ومن الممكن أن تلقى مخطوطة مشهد ضوءاً على بعض جوانب هذه المسئلة .

ومعروف بصورة أفضل من هذه للمؤرخين الروس الجغرافي الفارسي أبو علي بن رسته الذي كتب بعد عشر سنوات من ابن الفقيه وذلك بين عامي ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ و ٣٠٠ هـ = ٩١٣ . ويرى ماركفارت أن تاريخ تأليفه لكتابه يرجع إلى عام ٣١٠ هـ = ٩٢٣ ، ذلك لأنه يعتبر المصدر الأساسي لابن رسته كتاب الجياني في الجغرافيا الذي تم تأليفه بحسب رأى ماركفارت في حوالى ذلك الوقت^(٥٠) . ومن العسير بالطبع قبول هذا الرأى ، بل إن بارتولد يتشكك في صحة الزعم القائل بأن ابن رسته قد رجع إلى ابن فضلان في قصته عن الروس . ويلوح أن الرأى الأكثر قبولاً الآن هو أن الكتاب قد تم تأليفه بعد قليل من عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٣^(٥١) ، ويندر الآن وجود من يقول بإرجاع زمن تأليفه إلى عام ٩١٣ كما كان سائداً من قبل^(٥٢) . وتستند شهرة ابن رسته لدينا على كتاب خفولسون Chwolson العتيق (١٨٦٩) ^(٥٣) الذي أثبت على مدى طويل الصيغة الخاطئة لاسمه وهى ابن دسته ؛ وهذا الكتاب لم يوضح سوى جانب واحد من المادة المتعلقة بوصف الشعوب التى كانت تقطن الاتحاد السوفيتى والأصقاع المتاخمة له . أما المؤلف نفسه فلا نعرف عنه سوى القليل وهو أن أصله من أصلهان وأنه كان بالحجاز على ما يظهر في عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ . ولم يتبق لنا من موسوعته الضخمة «الأعلاق النفيسة» سوى الجزء السابع في الفلك والجغرافيا وهو موجود في مخطوطة فريدة^(٥٤) ؛ ويمكن أن يعتبر ابن رسته أستاذاً للكوزموغرافى القزوينى . وابن رسته يتوخى الحذر في كتابته كى لا يتهم بحرية الفكر فهو يعتمد على شواهد من القرآن لإثبات التنجيم ، وعرضه للجغرافيا الفلكية والرياضية واف جداً ويعتمد في ذلك على الفرغانى وأبى معشر المعروفين لنا جيداً ولكنه لا يخلو من تأثير عرض ابن خرداذبه^(٥٥) . أما الجغرافيا الطبيعية لديه فتبدأ بوصف مكة والكعبة مع تحديد الأبعاد بدقة متناهية ولكن وصفه يفتقر إلى الحيوية ؛ ويلي وصف المدينة قسم مكرس لجميع صنوف العجائب من العالمين النباتى والحيوانى وللمباني الشهيرة ، ثم يعقب هذا وصف البحار والأنهار والأقاليم السبعة بما فيها من المدن المشهورة . وفي وصفه للأقطار يفرد أهمية خاصة لإيران ولكنه لا يهمل الكلام على بلاد العرب الجنوبية ومدينة صنعاء والعراق ومدينة بغداد ومصر . وفيما يتعلق بالقسطنطينية يحدثنا عن موكب الإمبراطور المهيّب إلى آياصوفيا ، ثم يصف الكنيسة نفسها ويتحدث عن الساعة الموجودة بها والتي تنسب صنعائها إلى أبولون التيانى Apollo of Tean . وطبيعى أن تختلف قيمة كل قسم من كتابه عن الآخر ، ويظفر بأهمية خاصة كلامه عن صنعاء والإمبراطورية البيزنطية والهند الشرقية والصقالة والشعوب الأورالية الألتائية (Ouralo - Altaic) * ونواحى

* هى المجموعة اللغوية التى تضم الترك والمغول والتنفوس من ناحية ، والمجر والفينيين Finns وغيرهم من ناحية أخرى .
ويعمل علماء اللغة الآن إلى فصل هذين الفرعين عن بعضهما البعض . (المترجم)

مدينة أصفهان . كما لا يخلو من الأهمية أيضاً كلامه عن مكة والمدينة ووصفه للأنهار ولنواحي طبرستان ووصف الطرق الوارد في آخر الكتاب . ويلي هذا استطرادات يحس منها أنها إضافات عارضة ليس هناك ما يربطها على الدوام بالموضوعات الجغرافية ^(٥٦) .

أما من ناحية العرض والأسلوب فكتاب ابن رسته ينضم إلى ذلك النوع من المؤلفات المفضلة عند جمهرة القراء والتي قصد بها على ما يظهر كتبة الدواوين ، ولكن يتضح لديه الميل الأدبي أكثر مما لدى ابن خردادبه . وأحياناً يقتصر العرض على سرد الأسماء ، ولكن يحس لدى المؤلف الميل إلى القصص فتوجد لديه مثلاً قصة سلام الترجمان التي أسقطها الناشر لأنها تكرر النص المعروف لدى ابن خردادبه . وإذا كان ابن رسته فارسياً فقد كان قدامة بن جعفر أرامياً فهو ينتمى إلى أسرة مسيحية من عمال الدولة أقامت بالبصرة وكانت مقربة إلى العباسيين ؛ ولم يعتنق قدامة الإسلام إلا بعد إلحاح شديد من جانب الخليفة المكتنفي (٢٨٩ هـ = ٢٩٥ هـ = ٩٠٢ - ٩٠٨) ، وكان من جراء ذلك أن انفسح أمامه الطريق إلى المناصب العليا فشغل في أواخر أيام حياته منصب صاحب البريد . ولم يكن هذا هو الشبه الوحيد الذي يربطه بابن خردادبه بل إن جميع نشاطه وميوله الأدبية تذكرنا بذلك المؤلف ، فهو قد جمع بين العمل الإداري والاهتمام بالمسائل الأدبية البحتة وترك لنا بضعة مؤلفات . وفي إحدى هذه المؤلفات يقدم لنا نظرية جريئة في الشعر على طراز ما فعله ابن المعتز ، ينعكس فيها تأثير الفلسفة اليونانية التي من الجائز أن قدامة كان على معرفة بها وفقاً لتقاليد أسرته . وتاريخ وفاته غير معروف على وجه التحديد ويتأرجح بين عامي ٣١٠ هـ = ٩٢٢ و ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ ^(٥٧) ، ومن المحتمل أن يكون وسطاً بين هذين التاريخين .

وليس لقدامة مصنف جغرافي بالمعنى الدقيق بل لديه مدخل من أجل عمال الدولة هو « كتاب الخراج وصناعة » الكتابة . وليس في الاستطاعة الحكم عليه ككل ، وقد تم تأليفه على ما يبدو 161 حوالى عام ٣١٦ هـ = ٩٢٨ ^(٥٨) ، وكان يتكون من ثمانية أقسام لم يصلنا منها سوى أربعة فقط تمثل الجزء الثاني من الكتاب ، وقد نشر من بينها الشطر الذي يتعلق بالخراج . أضيف إلى هذا أن حالة المخطوطة لا تبعث كثيراً على الرضى فقد وجدت طريقها إليها من حين لآخر ملاحظات توضيحية أضافها إليها النساخ ^(٥٩) . والجزء الذي في متناول الأيدي الآن يذكر كثيراً بكتاب ابن خردادبه فقد انصب اهتمامه الأساسى على وصف طرق البريد والولايات مع إيراد معلومات هامة عن تقسيم الأراضي وجباية الخراج ؛ كما يوجد به استطراد في تاريخ الفتوحات الإسلامية يستند على البلاذرى . وترد في صلب العرض معلومات من محيط الجغرافيا الرياضية وأوصاف الجبال والأنهار والأقاليم السبعة كما يولى اهتماماً كبيراً لجيران العالم الإسلامى . وعلى العموم فن الأفضل اعتبار القسم المطبوع من كتاب قدامة بمثابة تمة هامة لابن خردادبه إذ كثيراً ما يساعد في تحقيق نقاط عديدة فيه لأنه يعتمد في أغلب الأحوال

على الوثائق الرسمية لذلك العهد . وقد وضحت أهميته الكبرى في هذا المجال من أبحاث العلامة اشبرنجر Springer (١٨٦٤) .

ومقدمة القسم المطبوع من كتابه تعطى فكرة جلية عن وجهة نظر المؤلف والغاية التي استهدفها والخطة التي سار عليها^(٦٠) ، وهي تسمح بتقدير دور البريد في الدولة العباسية ، وهو الغرض الرئيسي من كتابي ابن خرداذبه وقدامة .

« قال أبو الفرج يحتاج في البريد إلى ديوان يكون مفرداً به ويكون الكتب المنفذة من جميع النواحي مقصوداً بها صاحبه ليكون هو المنفذ لكل شيء منها إلى الموضع المرسوم بالنفوذ إليه ويتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة أو عمل جوامع لها ويكون إليه النظر في أمر الفُروانقين* والموقعين والمرتبين في السكك وتنجز أرزاقهم وتقليد أصحاب الخرائط في سائر الأمصار والذي يحتاج إليه في صاحب هذا الديوان هو أن يكون ثقة إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافي المتصفح وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ والرسوم التي يحتاج إليها من أمر الديوان هو ما يقارب الرسوم التي بينها في غيره مما يضبط به أعماله وأحواله فاما غير ذلك من أمر الطرق ومواضع السكك والمسالك إلى جميع النواحي فإننا لم نذكره ولا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه ما لا يحتاج في الرجوع فيه إلى غيره وما أن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة إلى شخصه وإنفاذ جيش يهمله أمره وغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه وجد عتيداً عنده ومضبوطاً قبيله ولم يحتاج إلى تكلف عمله والمسئلة عنه فينبغي أن نكون الآن نأخذ في ذكر ذلك وتعيينه بأسماء المواضع وذكر المنازل وعدد الأميال والفراسخ وغيره من وصف حال المنزل في مائه وخشونته وسهولته أو عمارته أو ما سوى ذلك من حاله ونبدأ بالطريق المأخوذ فيه من مدينة السلام إلى مكة وهو المنسك العظيم وبيت الله الأقدم ونأخذ بعد البلوغ إليه بذكر ما بعده من الطريق إلى اليمن ثم في سائر الجهات المقاربة له وتسميته إن شاء الله » .

162

في هذه المقدمة نبصر مرة أخرى كيف استحثت المطالب الدنيوية على تأليف الأوصاف الجغرافية التي انضمت إلى الجغرافيا الفلكية لتقدم لنا عرضاً عاماً شاملاً مترابط الحلقات ابتداء من القرن التاسع . وإلى جانب هذه المصنفات الجغرافية العامة فقد أسهم القرن التاسع في تدعيم الأشكال المختلفة للجغرافيا الإقليمية المحلية ؛ وهذه الأخيرة لم يكن في طوقها أن تدعى حق الانضواء تحت ما يمكن أن يعتبر عرضاً عاماً للأدب الجغرافي إذ كثيراً ما طغت فيها المادة التاريخية ، أو الأسطورية بتعبير أدق ، على الجغرافية . ولم يكن أمراً نادراً أن تتحول هذه المصنفات إلى مجموعات تعالج سير الشخصيات الكبرى التي اشتهرت في الأماكن والبلدان المختلفة ، هذا إلى أنه يمكن أن يلاحظ فيها تطور طراز « الفضائل » .

* من فرائق معرب بروائك الفارسية وهو البريد أو الذي يدل صاحب البريد على الطريق . (المترجم)

المعروف لنا جيداً ، أعنى بذلك ذكر مناقب الأماكن المختلفة استناداً إلى الأحاديث النبوية . ونادراً ما تكون المادة الجغرافية فيها سهلة المأخذ إذ يجب انتزاعها انتزاعاً من الروايات والأخبار التي قلَّ أن تمس المسائل التي نعالجها . وعلى أية حال فإنه يلاحظ في هذا الميدان ميلاد أشكال جديدة حية تتعلق بالقواعد الجغرافية العامة ، بل إنه أنتج لنا في القرن العاشر مصنفاً هاماً ؛ ومن العسير أن نستعرض جميع أمثله ونماذجه ولكن من الضروري أن نعطي فكرة عامة عن أشكاله المختلفة .

ومن الطبيعي أن يتجه اهتمام العلماء في ظروف ذلك العهد إلى « المدن المقدسة » ، كما اتجه اهتمام اللغويين من قبل إلى بلاد العرب . وولتقى في القرن التاسع بمؤلفين على الأقل كتباً في تاريخ مكة ، أحدهما هو الأزرقى (المتوفى عام ٢٤٤ هـ = ٨٥٨)^(٦١) والآخر الفاكهي (المتوفى حوالى عام ٢٧٢ هـ = ٨٨٥)^(٦٢) ، وينحدر الأول من أسرة تنسب إلى آل غسان وتربطها الرواية بالحديث النبوى . وهذا النوع من المصنفات في تواريخ المدن انبعث نتيجة لاهتمام المسلمين بالأماكن المقدسة وحاجتهم إلى مصنف يكون أشبه بدليل جغرافى للتعريف بنواحيها ووصف الشعائر الدينية المرتبطة بهذا . وقد أسبغت عليها الأساطير القديمة التي ترجع إلى التوراة والتلمود طابعاً مميزاً فهي تتكون غالباً من مقدمة يابها وصف الكعبة وتاريخها المتأخر ووصف الأبنية المحيطة بها ، ثم يعقب هذا تعداد الدروب والأحياء بمكة مع ذكر عدد كبير من الأسماء ؛ أما المادة الجغرافية فضئيلة للغاية ولكنها ذات قيمة كبرى بالنسبة لتاريخ نشأة مكة ونموها^(٦٣) . وقد تعاقب بعد الأزرقى عدد من المؤلفين كانوا متهممين لعمله وتمتعت مؤلفاتهم بالشهرة عند الجمهور إلى الآونة الأخيرة . ويرجع الفضل في إلاماننا بهذا الفرع من الأدب إلى أبحاث فستفلد الذى نشر « أخبار مكة » في أربعة أجزاء (١٨٥٧ - ١٨٦) ختمها بآخر ممثل لهذا النمط الجغرافى وهو النهروالى من أهل القرن السادس عشر (توفى عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢)^(٦٤)

والطابع الغالب على تواريخ المدن هو أن تحتوى المقدمة على الجانب الجغرافى الذى يعطى وصفاً طبوغرافياً للمدينة ، بينما تتحكم في بقية مادة الكتاب السير ، أى تراجم حياة المشاهير من أهل تلك المدينة . ومن العسير الحزم هل وجدت مثل هذه المقدمة عند أول مؤرخ لبغداد وهو أحمد بن أبى طاهر طيفور (توفى عام ٢٨٠ هـ = ٨٩٣)^(٦٥) ، إذ لم يعثر إلى الآن سوى على الجزء السادس من تاريخه وهو يحوى مادة تاريخية صرفة . ومثل هذه المقدمة موجودة عند خلفه المشهور الخطيب البغدادى (توفى عام ٤٦٣ هـ = ١٠٧١)^(٦٦) الذى يقدم لنا في « تاريخ بغداد » تراجم لنحو من ثلاثين وثمانمائة وسبعة آلاف شخص في أربعة عشر جزءاً . وهذه المقدمة تمثل بالتقريب جميع المادة الجغرافية للكتاب ، وقد بينت أهميتها بالنسبة لتاريخ تخطيط المدينة الترجمة الفرنسية التى قام بها سلمون Salmon (١٩٠٤) . واستخراج المادة الجغرافية من هذا النوع من المصنفات لا يمثل على الدوام جهداً يسيراً ، ويصدق هذا بصورة خاصة على أضخم مصنف من هذا النوع في الأدب العربى ، أعنى « تاريخ دمشق » في ثمانى عشر

مجلداً لابن عساكر (توفي عام ٥٧١ هـ = ١١٧٦) ، خاصة وأنه يوجد في طبعة لا تبعث كثيراً على الرضى : .

هذا النوع من تاريخ المدن الذى يتضح فيه الميل إلى وصف خططها قد نال انتشاراً واسعاً في الأدب العربى بحيث لا تكاد توجد مدينة كبرى في العالم العربى إلا ولها مؤرخها من هذا النوع . وبعض هذه المؤلفات يمثل أحياناً أهمية خاصة من وجهة نظر الجغرافيا التاريخية في أوسع مدلولها ويصدق هذا بصورة خاصة على « تاريخ بخارى » للرشخى (توفي عام ٣٤٨ هـ = ٩٥٩) (٦٧) . وقد كتب هذا المصنف بأسلوب لا يخلو من الصنعة ، وقدمه مؤلفه إلى نوح بن نصر الساماني حوالى عام ٩٤٣ ثم ترجم إلى الفارسية في القرن الثانى عشر ، وهى التى وصلتنا وذلك في صورة معدلة ترجع إلى أمانة متأخرة . هذا وقد قدر مؤرخو تركستان قيمته منذ عهد طويل وأخضعوه لدراسة منظمة ، وفي الحقيقة أن التنقيحات والاختصارات والزيادات التى لحقت بهذا الكتاب (٦٨) تبرر بالكاد نسبته إلى الرشخى ، ولكن بالرغم من هذا الشكل الذى آل إليه أخيراً فإنه يحتفظ بالكثير من أخبار بلاد ما وراء النهر قبل الإسلام وفي فترة الفتوحات العربية . كما لا تخلو من قيمة المعلومات ذات الطابع الجغرافى التى يوردها عن المناطق المأهولة حول بخارا والمباني والمحاصيل وأساليب الحياة المتخلقة عن العهد السابق لدخول الإسلام إلى تركستان (٦٩) .

ويتميز بنفس هذه الدرجة من الطرافة كتاب مفقود هو « التاريخ في أخبار ولاية خراسان » لعلى السلامى الذى يرجع تأليفه إلى حوالى عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ ، وقد أفاد منه كثيراً المؤرخون المتأخرون مثل كردبىزى وابن خلكان ، وعلى الأخص ابن الأثير الذى كان هذا الكتاب يمثل بالنسبة له المصدر الأساسى لتاريخ خراسان وبلاد ما وراء النهر إلى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . ويتضح مما نقلوه عنه أنه كان كتاباً حافلاً بشئى صور الحياة اليومية والمعلومات الجغرافية .

وقد اكتسب الأدب الجغرافى - الطبوغرافى انتشاراً واسعاً خاصة في مصر ، حيث يمكننا أن نتبع منذ النصف الثانى للقرن التاسع ميلاد نوع فريد مستقل من المصنفات من الطراز المعروف باسم « الخطط » ، أى وصف الأحياء والنواحي . وقد استمر هذا النمط في سيل لا ينقطع ، بل ليس من العسير أن نبين آثار مولده لدى أول مؤرخ لمصر وهو ابن عبد الحكم (توفي عام ٢٥٧ هـ = ٨٧١) (٧٠) في كتابه « فتوح مصر » ؛ وهو يقع في خمسة أبواب يفرد الثالث منها لوصف خطط القسطنطينية والإسكندرية ؛ وقد ورد في الشطرين الأولين من هذا الباب لفظ « خطة » . ويعوز المؤلف الكثير من الموهبة النقدية ، ومع ذلك فيجب تقدير كتابه بوصفه أول مؤلف يصل إلينا من هذا النوع . وأوضح دليل على قيمته أن المؤرخين المتأخرين قد أفادوا منه كثيراً ، ولا يقتصر هذا على المصريين وحدهم من أمثال المقرئى والسيوطى بل تعداه إلى غير المصريين مثل ياقوت : ويرى المقرئى أن أول من ألف في هذا الباب هو محمد بن يوسف الكندى (توفي عام ٢٥٠ هـ = ٩٦١) صاحب كتاب « تاريخ ولاية مصر وقضاها » (٧١) ،

لإذ يبدو أنه وضع مصنفاً بعنوان «الخطط»^(٧٢) لم يصل إلينا ، كما أن ابنه عمر بن محمد الكندي وضع رسالة بعنوان «فضائل مصر»^(٧٣) سار فيها على نمط النهج القديم للمؤلفين الأوائل من العصر الأموي ؛ وفي الوقت نفسه جمع مؤرخ العهد الفاطمي ابن زولاق (توفي عام ٣٨٧ هـ = ٩٩٧) ^(٧٤) مجموعة من الفضائل من هذا النوع اعتماداً على الأحاديث النبوية ؛ وهو أيضاً ممن اهتموا بخطط مصر. هذا وقد استمرت الرواية الأدبية في مصر متواترة أكثر مما في غيرها من البلاد العربية الأخرى لذا فإن جميع الأنماط الأدبية التي تميزت ولو بقليل من الحيوية وجدت من يتممها ويسير فيها من رجالات الأجيال التالية . وفي القرن الحادي عشر وضع المؤرخ المعروف القضاعي (توفي عام ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢) ^(٧٥) مصنفه «المختار في ذكر الخطط والآثار» ، وهو مصنف اجتذب أيضاً أنظار ياقوت والمتريزي مرات عديدة . وفي القرن الثاني عشر وضع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز (المتوفى عام ٥٢٩ هـ = ١١٣٤) ^(٧٦) ، وهو طبيب وشاعر وفلكي وعالم بالطبيعات أصله من الأندلس ، كتاباً بعنوان «الرسالة المصرية» قدم فيه من ناحية تراجم لسير المشاهير ومن ناحية أخرى وصفاً طبوغرافياً ؛ وهو معروف بدوره جيداً للمؤلفين اللذين مر ذكرهما .

هذا وقد شقت الجغرافيا الإقليمية لنفسها طريقاً إلى المغرب ، ويمكن أن نشير في خلال القرن العاشر إلى محمد بن يوسف الوراق (توفي عام ٣٦٣ هـ = ٩٧٣) الذي عاش في القيروان وقرطبة وأفرد لوصف المغرب كتاباً يحمل العنوان المعهود لنا «كتاب المسالك والممالك» ^(٧٧) . ولم يصلنا هذا الكتاب ولكن البكري يدين له لا بعنوان كتابه فحسب بل بمقتطفات عديدة كما يتضح ذلك من نقوله عنه ^(٧٨) . وأول من أدخل نمط الجغرافيا الإقليمية إلى الأندلس مؤرخها الكبير أحمد بن محمد الرازي التاريخي (توفي عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥) ^(٧٩) المشهور في أوروبا باسم Elmore Elrasis ، والذي حفظ لنا مصنفه التاريخي في ترجمة قشتالية ترجع إلى عهد متأخر ونقلت بدورها عن ترجمة برتغالية مفقودة* . وتشير جميع المصادر إلى أنه وضع كتاباً كبيراً في طرق الأندلس ومرافئها ومدنها الكبرى والأجناد العربية الستة التي نزلتها بعد الفتح . وبالرغم من أن استعمال مصنف مر بترجمتين أمر معقد فإن كتاب الرازي مصدر هام جداً لمعرفة الأحوال الجغرافية في الأندلس على عهد عبد الرحمن الثالث ، أي عهد ازدهار خلافة قرطبة ^(٨٠) . ويبدو أنه وضع أيضاً مصنفاً خاصاً بقرطبة هو «كتاب في وصف قرطبة» على طراز كتاب ابن طيفور في وصف بغداد ؛ وترد فيه تفصيلات عن شوارعها وقصور الأعيان بها ^(٨١) .

* عثر على الترجمة البرتغالية وتم نشرها منذ وقت غير بعيد ، كما تم العثور على شذور من كتاب الرازي لدى بعض المؤلفين المغاربة . راجع عن حياة الرازي مادة الرازي في دائرة المعارف الإسلامية بقلم ليث بروفسنر ، واستدرك عليها بالرجوع إلى كتاب الدكتور حسين مؤنس «فجر الأندلس» ، (ص ٥٦١ وما يليها ، القاهرة ١٩٥٩) ، ومقال الدكتور لطفي عبد البديع الذي ظهر بمجلة معهد المخطوطات العربية ، الجزء الثاني من المجلد الأول ص ٢٧٢ وما يليها ، القاهرة ١٩٥٥ . وأخيراً وليس آخراً المقال الوافي للدكتور حسين مؤنس بعنوان «الجغرافية والجغرافيون في الأندلس من البداية إلى الحجاز» (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٥٩ - ١٩٦٠) . (المترجم)

وليس في وسعنا إحصاء جميع المؤلفات العربية في الجغرافيا الإقليمية التي ظهرت في العصور التالية لذلك ؛ وقد ظل الوصف التاريخي الطوبوغرافي من أهم الأنماط التي افتتن بها المسلمون إلى أيامنا هذه لاني الأدب العربي وحده بل وفي الأدبين الفارسي والتركي أيضاً .

ومن بين المجموعة الضخمة لمصنفات هذا الأدب التي ترجع إلى القرن العاشر يجب أن نفرد مكانة خاصة لمصنف يقف فريداً في نوعه هو « صفة جزيرة العرب » للهمداني الذي يعتبره اشبرنجر Sprenger^(٨٢) إلى جانب كتاب المقدسي أقيم ما أنتجه العرب في الجغرافيا. ولم يكن هذا المؤلف معروفاً للعلم الأوروبي قبل السنوات التسعينيات من القرن الماضي ، بل إن معلوماتنا عنه لا تزال ضئيلة للغاية إلى الآن ؛ وهذا أمر قد حدث مراراً لعدد من كبار الكتاب العرب ممن جروا على أنفسهم ريبة أهل السنة في الأجيال التالية . هذا ومما زاد في تعقيد المسألة وفي جهل المؤلفين المتأخرين به أن اسمه ورد في أشكال مختلفة ، فهو الحسن بن أحمد الهمداني ، وتدل النسبة على أنه من قبيلة همدان المعروفة في جنوب الجزيرة العربية . وقد جرت النسبة إلى الخلط بينه وبين ابن الفقيه الهمداني الذي مر ذكره والذي أخذ نسبته من مدينة همدان بإيران* ؛ وقد وقع ضحية هذا اللبس علماء كبار منذ منتصف القرن الماضي^(٨٣) . ومما ساعد على زيادة الغموض أنه كان يشار إليه أحياناً باسم جده ابن أبي الدمين ، كما لقب أيضاً بابن الحائك الذي أطلقه عليه فيما يظهر خصومه . ولا يعرف عن تاريخ حياته سوى أنه ولد ونشأ بصنعاء وزار مكة وتوفي عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ بسجن صنعاء الذي كان سبب الزجّ به فيه كما تزعم الرواية قصيدة هزلية في حق رسول الله ؛ ولكن الراجح أن يكون السبب في ذلك دسائس أعدائه ضده .

وفي مصنفاته ترتسم أمام ناظرينا شخصية فذة لوطنى متحمس وعالم متعدد النواحي وشاعر : وقد مرت بنا الإشارة عرضاً إلى معرفته الواسعة في محيط الجغرافيا الفلكية ؛ وهو لم يكن جغرافياً فحسب بل وخبيراً كبيراً بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية نفسها ، خاصة آثارها القديمة (Archaeology) ، وهو أمر نادر بين العرب . ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أنه استطاع فك رموز الكتابة العربية القديمة في جنوب الجزيرة^(٨٤) ؛ ويقف مصنفه « الإكليل » الذي يقع في عشرة أجزاء دليلاً ساطعاً على سعة معارفه ، فقد أفرغ فيه جماع معرفته بالأنساب والتاريخ والآثار بل وحتى بأدب الحميريين سكان جنوب الجزيرة في القدم . ولم يكتف في كتابه بعرض المادة الأسطورية التي تجمعت في الأدب العربي بعد الإسلام بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد وذلك على ضوء دراسته المباشرة للنقوش التاريخية ؛ وإلى عهد قريب لم يعرف من كتابه هذا سوى الجزئين الثامن والعاشر وذلك بفضل أبحاث مولر Müller الذي يرجع الفضل إليه في التعريف بالهمداني في القرن التاسع عشر. وقد نشر وترجم الآن الجزء الثامن بفضل مجهودات العلماء العرب ببغداد وأمريكا^(٨٥) ؛ أما الجزآن الأول والثاني فقد كشف عنهما منذ وقت

غير بعيد برلين المستشرق السويدي لوفجرين Löfgren ؛ وعثر على الجزء التاسع بمكتبة البارودي ببيروت^(٨٦) . وهكذا لم يعد ثمة مجال في الوقت الحاضر لتلك الفروض المتشائمة من جانب درنهورج Derenbourg الذي أصر على أن المؤلف لم يتم من الكتاب سوى الجزئين الثامن والعاشر فقط^(٨٧) . أما فيما يتعلق بالكشف عن الأجزاء الباقية فقد راجت إشاعة قوية عن وجود نسخة كاملة بمكتبة الإمام بصنعاء^(٨٨) وأجزاء متفرقة باستنبول^(٨٩) وفي جنوب الجزيرة العربية^(٩٠) بل وفي أماكن نائية مثل جاوه^(٩١) .

ولاشك أنه قد اتضح مما اقتبسناه عن الهمداني فيما مر من هذا الكتاب أن « وصف جزيرة العرب » لا يمكن ضمه بأية حال إلى ذلك النوع من المؤلفات الجغرافية اللغوية المفردة لجزيرة العرب والتي سبق وعالجنا الكلام عليها فيما مر من الكتاب . والهمداني كان بلا شك على علم تام بالمادة الجغرافية اللغوية التي عرفها المؤلفون السابقون له في القرن التاسع ، كما كان أيضاً على معرفة تامة بالجغرافيا الفلكية الرياضية ؛ ويمكن تتبع كلا الاتجاهين بوضوح في كتابه . ومن المستحيل بالطبع القول بأنه وفق في المزج بينهما في وحدة تامة منسجمة ، كما من العسير أيضاً القول بأن الهمداني قد نفذ خطته الأولى بحذافيرها . ومن الواضح أن وصفه لليمن يعتمد على الملاحظة الشخصية مع الإفادة بالطبع من المادة الأدبية التي خلفها السابقون ؛ أما وصف بقية الجزيرة العربية فيعتمد فيه أساساً على الرحالة والحجاج الذاهبين إلى مكة كما يعتمد أيضاً بدرجة كبيرة على مادة الجغرافيين اللغويين المتخصصين في جزيرة العرب ؛ بل إنه قد يسوق أحياناً شواهد من مصادر غير معروفة لغيره من المؤلفين .

170

وللهمداني معرفة جيدة ببطلميوس ، وهو يبدأ كتابه بمقدمة رياضية جغرافية وافية يورد فيها ذكر المذاهب المختلفة لتحديد الأطوال والعروض كما يورد فيها أيضاً وصفاً عاماً لمناطق الأرض بحسب توزيعها على الأقاليم السبعة . أما القسم الأساسي من كتابه فقد كرسه لوصف جزيرة العرب ، وهو ينقسم إلى خمسة أبواب رئيسية في وصف تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن . ووصفه بالطبع لا يسير دواماً على نسق واحد أو يتبع خطة محددة فهو يكثر من إعادة الكلام على المناطق التي ذكرها من قبل . وبينما تحتل اليمن مكان الصدارة في كتابه نجد حضرموت لا تظفر منه إلا بالإشارة الطفيفة والذكر العابر ؛ وبصدد اليمن نراه يفصل في الكلام على مساكن قبيلته همدان . وهو يكشف دائماً عن معرفة لا تجارى بالآثار والنقوش القديمة التي حاول أحياناً أن يفك رموزها ؛ كما تبدو جليلة للعيان معرفته الجيدة بالرواية السماعية والأدبية فهو مثلاً يعرف جيداً تقسيم اليمن قبل الإسلام إلى « مخاليف » (جمع « مخلاف » أي ناحية) . وفي خلال كلامه عن اليمن يعود القهقري من وقت لآخر إلى ذكر حقائق ذات طابع تكميلي عن شمال الجزيرة العربية ولكنه على أية حال ينحتم كلامه باليمن ويفرد قسماً خاصاً لذكر عجائبها أو على

الأصح خصائصها التي لا يشاركها فيها بلد آخر. ونفس هذا الطابع الفريد تحمله مجموعة الأشعار «الجغرافية» التي استخرجها من دواوين الشعراء الأقدمين والوارد فيها ذكر الأسماء الجغرافية المختلفة ، وتضاف إليها أرجوزة جغرافية طويلة تقع في خمس قصائد ومائة وسبعة وعشرين بيتاً هي أشبه بملحق للكتاب يصف فيها صاحبها أحمد بن عيسى الرّداعى طريق الحج في بلاد العرب .

لقد تملك الهمداني ناصية المادة الأدبية بأكملها ؛ ولم تكن مقدرته في الملاحظة المباشرة بأقل من ذلك في شيء . ولا يزال كتابه محتفظاً إلى أيامنا هذه بقيمته العلمية ؛ وقد أشار الرحالة مالتزان Maltzan المعروف بتجواله في الجزيرة العربية إلى أنه كثيراً ما يساعد في دراسة الجغرافيا المعاصرة لجزيرة العرب (٩٠). أما في مجال الجغرافيا الإقليمية فإن كتاب الهمداني يمتاز على جميع مصنفات القرنين التاسع والعاشر ولا يبرزه في القرن العاشر إلا أثر واحد ذلكم هو كتاب « الهند » للبديوي العظيم .

حواشي الفصل الخامس

- (١) — Kramers EI,EB, p. 65 — Brockelmann, GAL, SBL, p. 404 etc No 2
- (٢) قارن : « هبة الشمس الجميلة » Barbier de Meynard, Livre des routes, p. 9, notel
- (٣) توضيح فريمان A. A. Freimann
- (٤) أخطأ Metz في قوله إن ابن خرداذبه معناها « الكوب » Mez, Renaiss., p. 264
راجع توضيح زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ٤٤ ، ملاحظة ٢ ، ص ٤٥ .
- (٥) عن ابن خرداذبه كموسيقى ، راجع : Farmer, p. 169-170 and sui
- (٦) الفهرست ، ص ١٤٩
- (٧) حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٣٧٨ ، ملاحظة ٢
- (٨) المسعودي ، المروج ، الجزء الأول ، ص ١٣ ؛ الثاني ، ص ٢٧
- (٩) — Markwart, Streifzüge, p. 390
- (١٠) حدود العالم ، ص ١٠
- (١١) حاجي خليفة ، الجزء الثاني ، ص ١٠١ ، رقم ٢٠٨٦
- (١٢) — Ruska, GZ, p. 524-528
- (١٣) — Blachère, p. 22-24; kimble p. 50-51 : يقتطف منها
- (١٤) — Kremer, Culturgeschichte, I, p. 268-269
- (١٥) راجع : Kpymski, Narisi, p. 131
- (١٦) — Ferrand, Relations, I, p. 21-23
- (١٧) — Florilegium, p. 267-269
- (١٨) الترجمة لدى رينو : — Reinaud, Introduction, p. LVIII - LIX
- (١٩) راجع : Rozen, ZVO, IV, p. 452
- (٢٠) — Bartold, SV, I, 1940
- (٢١) — De Goeje, Russes - Normands, p. 39-40 — Hennig, II, p. 208-214, 356-360
- (٢٢) — Kunik - Rozen, II, p. 128-131
- (٢٣) جمعها دي خويه (De Goeje, BGA, VI, p. XII - XIII)
- (٢٤) راجع عنها : Rozen, ZVO, I, 1886, p. 225-226
- (٢٥) راجع : — Kunik - Rozen, II, p. 119-138
- (٢٦) حدود العالم ، ص ٩ - ١١
- (٢٧) راجع عنه : — Kotwicz i Kotwiczowna, Coll. Orient, No 8

- (٢٨) Brockelmann, GAL, SBI, p. 405, No 3
- (٢٩) في آخر زيارة له لألمانيا نقل عنها المستشرق الروسي بارتولد شذرات محفوظة الآن في أوراقه بأرشيف أكاديمية العلوم السوفيتية .
- (٣٠) Brockelmann, GAL, SBI, p. 405 No 3
- (٣١) النقاط المتتابعة تشير إلى طمس في المخطوطة .
- (٣٢) اليعقوبي ، BGA, VII ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ (قارن : Blachère, p. 117 - 118)
الترجمة لدى : Wiet, Jakubi, 1 - 3 (قارن : Mez, p. 265)
- (٣٣) اليعقوبي : BGA, VII ص ٢٦٨ - ٢٦٩ = Wiet, p. 64
- (٣٤) شرحه ، ص ٣٢٣ ، ملاحظة د
- (٣٥) Frähn, Beleg, p. 131 - 147
- (٣٦) Senkovski, Sobr. Soch., VI, p. 149 - 168
= Bibl dlia, Ch, XXIX, 1838, p. 45 - 58)
- (٣٧) Reinaud, Introduction, p. LXI
- (٣٨) Jarkavi, Skazania, p. 59 - 71
- (٣٩) Lunik — Rozen, II, p. 151 - 174
- (٤٠) راجع مسألة صحة نسبتها إليه ، مع تحليل المتبق منها لدى :
2. M. Hassan, Les Tulunides, p. 271 - 273
- (٤١) Brockelmann, GAL SBI, p. 216, No 3
- (٤٢) الفهرست ، ص ١٥٤
- (٤٣) المقدمي ، BGA, III ، ص ٥ - الاختلاف في المخطوطات لا يؤثر في الفكرة الأساسية .
- (٤٤) الجاحظ ، ص ٢٩٦ ، راجع : Van Vloten, Naturphilosoph, p. 43, note 4
- (٤٥) Ferrand, Relations I, p. 3 - 5
- وخاصة : Ferrand, Note, p. 309, and 318
- (٤٦) يرفض دي خويه (De Goeje, BGA, V, p XI) الفكرة على عكس « الفهرست » (ص ١٥٤) .
- (٤٧) راجع : Sprenger, Reiserouten' p XVII - XVII
- (٤٨) Saraulov
- (٤٩) Lunik Rozen, II, p. 138 - 151
- (٥٠) Markwart, Streifzüge, p. 26
- (٥١) Bartold SV, I, 1940
- (٥٢) Hudud, p. 168, بحسب مقال : Umniakov, Compendium, p. 1139, note 5
- (٥٣) Chwolson

- (٥٤) يضيف بروكلمان مخطوطة بكامبردج ، لا علم لنا بها (Brockelmann, GAL, SBI p. 406, No 5)
- Blachère, p. 34 - 44 (٥٥)
- Nallino, Il Valore (= Nallino, Cosmos, Ser. II. V. XII, p. 58, (٥٦) راجع :
note 26)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 406, No 8 — (٥٧) سوء فهم لدى :
- Nallino, Il Valore, p. 56 — Hudud, p. 168 (٥٨)
- Hudud, p. 291, note 3 (٥٩)
- (٦٠) قدامة بن جعفر ، BGA, VI ، ص ١٨٤ - ١٨٥ (المتن) ؛ ص ١٤٤ - ١٤٥ (الترجمة) —
Blachère p. 55 - 57
- Brockelmann, GAL, I. p. 137, No 1; SBI, p. 209 (٦١)
- (٦٢) شرحه ، رقم ٢
- Ruska, GZ, p. 590 (٦٣)
- Brockelmann, GAL, II, p. 381 - 382, No 3; SBII, p. 514 - 515 (٦٤)
- Brockelmann, GAL I, p. 138, No 5; SBI, p. 210 (٦٥)
- Marçais, EI, II p. 997 - 998 — Brockelmann, GAL, I p. 329 No 1; SBI. (٦٦)
p. 562 - 564
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 211. No 6 — Krymski Istoria Persii, (٦٧)
1909, p. 6 - 7 وشرحه 1914, p. 191 - 192 — Bartold, Iran, p. 70
- Markwart, Wehrot, p. 160-161 (٦٨)
- Minorsky, Narshakhi, p. 914 (٦٩)
- Brockelmann, GAL, I, p. 148, No 1; SBI, p. 227 - 228 — Sarton, (٧٠)
Introduction, I, p. 616 — Torrey, EI, II, p. 375 - 376
- Brockelmann, GAL, I, p. 149, No 4; SBI, p. 229 - 230 (٧١)
- Guest, GMS, XIX, p. 9 (3) (٧٢)
- Brockelmann GAL, SBI, p. 230, No 4 A (٧٣)
- Brockelmann, GAL, I, p. 149, No 6; SBI, p. 230 (٧٤)
- Brockelmann, GAL, I, p. 343, No 3; SBI, p. 584 - 585 (٧٥)
- Brockelmann, GAL, I, p. 486-487, No 14; SBI, p. 889 (٧٦)
- Kramers, EI, EB, p. 67 — (٧٧) المقرئ ، الجزء الثاني ، ص ١١٢ الخ
- Pons Biogues, p. 80-81, No 39 — Brockelmann, GAL, SBI, p. 233,
No 4 A — Lévi-Provençal, Fés p. 41
- Brunschwig, p. 151 - 152 (٧٨)

- Brockelmann GAL, I, p. 150, No 2; SBI, p. 231 – Pons Boigues, p. (٧٩)
62-66, No 23
- Lévi – Provençal, Al-Rāzi p. 1228 (٨٠)
- Pons-Boigues, p. 63, No 3 = (٨١) المقرئ ، الجزء الثاني ، ص ١١٨
- Sprenger, Reiserouten, p. XVIII (٨٢)
- Löfgren, Hamdani Fund, p. 3 note 1 (٨٣)
- Müller, Südarabische Studien p. 33 (٨٤)
- Arendonk, Al-Hamadani p. 87 (٨٥)
- (٨٦) عيسى أسكندر المملوف ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد الخامس ، ١٩٢٥ ، ص ٣٢ .
- Derenbourg - Schefer, p. 18. – Löfgren, Hamdani—Fund, p. 8 note 1 (٨٧)
- (٨٨) أمين الريحاني ، ملوك ، الجزء الأول ، ص ٤٤
- (٨٩) شكيب أرسلان ، ص ٤٣٩ – ٤٤٤
- (٩٠) الإكليل ، الجزء الثامن :
- Krenkow L'A, IX, p. 291 - 202;
- I and VI شرحه ، p. 626 - 627
- (٩١) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد الحادى عشر ، ١٩٩١ ، ص ٤٤٠ – ٤٤١
- Müller, Das Buch der Arabischen Halbinsel, p. 299 (٩٢)

الفصل السادس

المسعودى والرحالة الذين زاروا الأصقاع الشمالية فى القرن العاشر

يعتبر القرن العاشر من الناحية السياسية عصر الاضمحلال النهائى للخلافة الإسلامية ، ولكن من 171 ناحية أخرى يعتبر أيضاً عصر ازدهار الحضارة العربية أو « النهضة الإسلامية » Renaissance of Islam كما حلى لأحد المستشرقين أن يسميه (Metz) . وفى القرن العاشر كذلك بلغ الأدب الجغرافى العربى أوجه فى مجال تطوره الخلاق كحركة مستقلة قائمة بذاتها . وهو يذخر بمصنفات هامة فى محيط الجغرافيا الإقليمية ، غير أن الإنتاج الأدبى فيه لم يقف عند هذا الحد فقد تم فى هذا القرن أيضاً تشكيل ما يسمى « بالمدرسة الكلاسيكية » للجغرافيا العربية ، كما شهد أيضاً ميلاد أكثر آثار الكارتوغرافيا العربية أصالة وهو « أطلس الإسلام » . وقد بلغ عدد الرحالة فى هذا القرن حداً كبيراً ، غير أن المهم بالنسبة لنا هو أن بعضهم قد جالوا فى بعض أصقاع اتحادنا السوفيتى أو الأصقاع المتاخمة لها . وفى هذا العصر بالذات نفذت الجغرافيا إلى الأنماط الأدبية المقاربة لها وأفرد لها مكاناً فى دوائر المعارف وفى المصنفات الببليوغرافية وفى معاجم المصطلحات ، كما ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالموضوعات الأدبية والعرض الأدبى . وإلى جانب كل هذا يقدم لنا القرن العاشر شخصيات كبرى ذات جوانب متعددة ليست هى شخصيات جغرافية بالمفهوم الضيق للفظ .

ويحتل المكانة الأولى بينهم دون منازع المسعودى * « أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة فى القرن العاشر » ، على حد قول واحد من أفضل المتخصصين فى هذا الفرع من الأدب فى عصرنا^(١) . غير أن آراء العلماء حوله أبعد من أن تتسم بطابع الإجماع ، فخبير آخر بالجغرافيا العربية — لا يخلو فى الحقيقة من بعض الميل إلى التناقض — يرى فى أسلوبه « قرابة ورحماً مع أسلوب الصحافة الحديثة » ، وفى شخصه « أنموذج المراسلين الصحفيين المعاصرين الذين يذرعون الأرض »^(٢) . هذا الحكم يقف دليلاً آخر على عدم جدوى أمثال هذه المقارنات المبالغ فيها بين القديم والحديث ، ولا يزال أفضل منهج لمعرفة شخص ما أو إلقاء ضوء على حياته هو التحليل الدقيق للظروف التى عاش فيها .

والمسعودى عربى صرف يرتفع نسبه إلى الصحابى مسعود ؛ وقد ولد على ما يظهر | ببغداد فى بداية 172 القرن العاشر وأحاط إحاطة تامة بكل التراث الأدبى لعصره وبمختلف نواحي العلوم . غير أن ميدانه

* فى يناير من عام ١٩٥٨ أقيمت احتفالات بجامعة عليكرة بالهند بمناسبة مرور ألف عام على المسعودى وصدر بهذه المناسبة كتاب بعنوان : Al-Masudi Millenary Commemoration Volume, 1960 يحوى عدداً من الأبحاث الجيدة عنه . (المترجم)

الحقيقى فيما يبدو كان الرحلات الواسعة والاتصال المباشر بممثلى مختلف الطبقات ؛ وقد شملت رحلاته جميع البلدان من الهند إلى المحيط الأطلنطى ومن البحر الأحمر إلى بحر قزوين ، ومن المحتمل أن يكون قد زار الصين وأرخييل الملايو . وكثيراً ما ثبتت فى مصنفاته تاريخ زيارته لمواقع معينة ، وهو أمر وإن لم يمكننا من تتبع خطاه إلا أنه على أية حال يعطى فكرة عن تجواله الواسع العريض .

ولعل شخصية المسعودى ككاتب يمكن أن تكون أكثر جلاء لو أن مؤلفاته الكبرى لم تمسها يد الضياع ، ونخص منها بالذكر كتابيه الكبيرين « أخبار الزمان » الذى يقع فى ثلاثين جزءاً والذى بدأ تأليفه فى عام ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ ، و« الكتاب الأوسط » . غير أن هذه المؤلفات مع الأسف لم تعرف إلا من خلال اقتباسات ضئيلة ليست بذات أهمية ، فضلاً عن أن الشك يعتور صحة نسبتها إليه^(٣) . وهكذا فمن بين جميع مؤلفاته العديدة المعروفة لدينا بأسمائها نستطيع إعطاء فكرة عن نشاطه العلمى اعتماداً على اثنين منها فقط أحدهما هو « مروج الذهب ومعادن الجوهر »^(٤) ، وهو أكثر مؤلفاته التاريخية الثلاثية إيجازاً ؛ وآخر يعكس مادة جغرافية بالمعنى الصحيح وهو كتاب « التنبيه والإشراف » . وكلاهما يقف مثالا حياً لصعوبة الفصل بين المؤلفات التاريخية والجغرافية . وقد تم تأليف الأخير منهما فى عام وفاة المسعودى ، وهو يقدم لنا فيه خلاصة وافية لمعارفه وتحليلاً لكل مؤلفاته ؛ ومقدمته تعطى فكرة محددة عن الخلط فى التوبيخ وعن الوفرة فى مادة كتبه التى لم تصلنا .

» ذكر الغرض من هذا الكتاب . قال أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى أما بعد فلما لما صنفنا كتابنا الأكبر فى أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة وشفعناه بالكتاب الأوسط فى معناه ثم قفونا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر فى تحف الإشراف من الملوك وأهل الدرايات ثم أتينا ذلك بكتاب فنون المعارف وما جرى فى الدهور السوالف وأتبعناه بكتاب الاستذكار لما جرى فى سالف الأعصار | ذكرنا فى هذه الكتب الأخبار عن بدء العالم والخلق وتفرقهم على الأرض والممالك والبر والبحر والقرون البائدة والأمم الخالية الدائرة الأكابر كالهند والصين والكلدانين وهم السريانيون والعرب والفرس واليونانيون والروم وغيرهم وتاريخ الأزمان الماضية والأجيال الخالية والأنبياء وذكر قصصهم وسير الملوك وسياساتهم ومساكن الأمم وتباينها فى عاداتها واختلافها فى آرائها وصفة بحار العالم وابتدائها وانتهائها واتصال بعضها ببعض وما لا يتصل منها وما يظهر فيه المد والجزر وما لا يظهر ومقاديرها فى الطول والعرض وما يتشعب من كل بحر من الخلجان ويصب إليه من كبار الأنهار وما فيها من الجزائر العظام وما كان من الأرض برّاً فصار بحراً وبحراً فصار برّاً على مرور الزمان وكروار الدهور وما قاله حكماء الأمم فى كيفية شبابها وهرمها وعلل جميع ذلك والأنهار الكبار ومبادئها ومصائبها ومقادير مسافاتها على وجه الأرض من ابتدائها إلى انتهائها والأخبار عن شكل الأرض وهبتها وما قالته حكماء الأمم من الفلاسفة وغيرهم فى قسمتها والربع المسكون منها وحدبها وأنجادها وأغوارها

وتنازع الناس في كيفية ثباتها وتأثيرات الكواكب في سكاها واختلاف صورهم وألوانهم وأخلاقهم ووصف الأقاليم السبعة وأطوالها وعروضها وعامرها وغامرها ومقادير ذلك ومجاري الأفلاك وهيأتها واختلاف حركاتها وأبعاد الكواكب وأجرامها واتصالها وانفصالها وكيفية مسيرها وتنقلها في أفلاكها ومضاداتها إياها في حركاتها ووجوه تأثيراتها في عالم الكون والفساد التي بها قوام الأكوان وهل أفعالها على المماسّة أم على المباينة عن إرادة وقصد أم غير ذلك وكيف ذلك ومما سببه وهل حركات الأفلاك والنجوم جميعاً طباع أم اختيار وهل للفلك علة طباعية فاعلة في الأشياء المعلولة التي هو مشتمل عليها ومحيط بها والنواحي والآفاق من الشرق والغرب والشمال والجنوب وما على ظهر الأرض من عجيب البنيان وما قاله الناس في مقدار عمر العالم ومبدأه وغايته ومنتهاه وعلة طول الأعمار وقصرها وآداب الرئاسة وضروب أقسام السياسة المدنية المملوكية منها والعامية مما يلزم الملك في سياسة نفسه ورعيته ووجوه أقسام السياسة الدينية وعدد أجزائها ولأية علة لا بد للملك من دين كما لا بد للدين من ملك ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه ولم وجب ذلك وماسببه وكيف تدخل الآفات على الملك وتزول **الدول** وتبيد الشرائع والملك 174 والآفات التي تحدث في نفس الملك والدين والآفات الخارجة المعترضة لذلك وتحصين الدين والملك وكيف يعالج كل واحد منهما بصاحبه إذا اعتل من نفسه أو من عارض يعرض له وما نية ذلك العلاج وكيفية وإمارات إقبال الدول وسياسة البلدان والأديان والجيوش على طبقاتهم ووجوه الحيل والمكايد في الحروب ظاهراً وباطناً وغير ذلك من أخبار العالم وعجائبه ، وأخبار نبينا صلعم ومولده وما ظهر في العالم من الآيات والكوائن والأحداث المنذرات بظهوره قبل مولده من أخبار الكهان وغيرهم وما أظهر الله سبحانه على يديه من الدلائل والعلامات والجرائع المعجزات ومنشأه ومبعثه وهجرته ومغازيه وسراياه وسواربه ومناسره إلى وفاته والخلفاء بعده والملوك والغرر من أخبارهم وما كان من الكوائن والأحداث والفتوح في أيامهم وأخبار وزرائهم وكتابهم إلى خلافة المطيع . وذكرنا من كان في كل عصر من حملة الأخبار ونقل السيرة والآثار وطبقاتهم من عصر الصحابة والتابعين ومن بعدهم من فقهاء الأمصار وغيرهم من ذوى الآراء والنحل والمذاهب والجدل بين فرق أهل الصلاة ومن مات منهم سنة سنة إلى هذا الوقت المؤرخ ، وذكرنا في كتاب منظم الأعلام في أصول الأحكام وكتاب نظم الأدلة في أصول الملة وكتاب المسائل والعلل في المذهب والملل تنازع المتفقيين في مقدمات أصول الدين والحوادث التي اختلفت فيها آراؤهم وما يذهب إليه من القول بالظاهر وإبطال القياس والرأى والاستحسان في الأحكام إذ كان الله جل وعز قد أكمل الدين وأوضح السبيل وبين للمكلفين ما ييغون في آياته المنزلة وسنن رسوله المفضلة التي زجرهم بها عن التقليد ونهاهم عن تجاوز ما فيها من التحديد وما اتصل بذلك من الكلام في الفتوى والأحكام العقلية منها والسمعية وغير ذلك من فنون العلوم وضروب الأخبار مما لم تأت الترجمة على وصفه ولا انتظمت ذكره رأينا أن نتبع ذلك بكتاب سابع مختصر نترجمه بكتاب التنبيه

والإشراف وهو التالى لكتاب الاستذكار لما جرى في سالف الإعصار نودعه لُمنعاً من ذكر الأفلاك
 175 وهياتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وكيفية أفعالها والبيان على قسمة الأزمنة وفصول السنة
 وما لكل فصل من المنازل والتنازع في المبتدأ به منها والاستقصات وغير ذلك والرياح ومهابها وأفعالها
 وتأثيراتها والأرض وشكلها وما قيل في مقدار مساحتها وعامرها وغامرها والنواحي والآفاق وما يغلب
 عليها وتأثيراتها في سكانها وما اتصل بذلك وذكر الأقاليم السبعة وقسمتها وحدودها وما قيل في طولها
 وعرضها وقسمة الأقاليم على الكواكب السبعة الخمسة واليبرين ووصف الإقليم الرابع وتفضيله على
 سائر الأقاليم وما خُصَّ به ساكنوه من الفضائل التي يابنوا بها سكان غيره منها وما اتصل بذلك من الكلام
 في عروض البلدان وأطوالها والأهوية وتأثيراتها وغير ذلك وذكر البحار وأعدادها وما قيل في أطوالها
 وأعراضها واتصالها وانفصالها ومصبات عظام الأنهار إليها وما يحيط بها من الممالك وغير ذلك من أحوالها
 وذكر الأمم السبع في سالف الأزمان ولغاتهم وآرائهم ومواضع مساكنهم وما باتت به كل أمة من غيرها
 وما اتصل بذلك ثم تتبع ذلك بتسمية ملوك الفرس الأولى والطوائف والساسانية على طبقاتهم وأعدادهم
 ومقدار ما ملكوا من السنين وملوك اليونانيين وأعدادهم ومقدار ملكهم وملوك الروم على طبقاتهم من
 الخلفاء وهم الصابثون والمتنصرة وعدتهم وجملة ما ملكوا من السنين وما كان من الكوائن
 والأحداث العظام الديانية والملوكية في أيامهم وصفة بنودهم وحدودها ومقاديرها وما يتصل منها
 بالخليج وبحرى الروم والخزر وما اتصل بذلك من اللع المنبهة على ما تقدم من تأليفنا فيما سلف
 من كتبنا وذكر الأقدية بين المسلمين والروم إلى هذا الوقت وتواريخ الأمم وجامع تأريخ العالم والأنبياء
 والملوك من آدم إلى نبينا محمد صلعم وحصر ذلك وما اتصل به ومعرفة سنى الأمم الشمسية والقمرية
 وشهورها وكبسها ونسبها وغير ذلك من أحوالها وما اتصل بذلك من التنبيهات على ما تقدم بجمعه
 وتأليفه وذكر مولد النبى صلعم ومبعثه وهجرته وعدد غزواته وسراياه وسواربه وكتابه ووفاته
 والخلفاء بعده والملوك وأخلاقهم وكتابتهم ووزرائهم وقضائهم وحجابهم ونقوش خواتيمهم وما كان
 من الحوادث العظيمة الديانية والملوكية في أيامهم وحصر تواريخهم إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٤٥
 للهجرة في خلافة المطيع منبهين بذلك على ما قدّمنا ذكره من كتبنا ، وإنما اقتصرنا في كتابنا هذا على ذكر
 هذه الممالك لعظم ملك ملوك الفرس وتقادم أمرهم واتصال ملكهم وما كانوا عليه من حسن السياسة
 176 وانتظام التدبير وعماره البلاد والرأفة بالعباد وانقياد كثير من ملوك العالم إلى طاعتهم وحملهم لإيهم الإتاوة
 والخراج وأنهم ملكوا الإقليم الرابع وهو لإقليم بابل أوسط الأرض وأشرف الأقاليم وأن مملكتي اليونانيين
 والروم تتلوان مملكة فارس في العظم والعزّ ولما خُصّصوا به من أنواع الحكم والفلسفة والمهن العجيبة
 والصنائع البديعة ولأن مملكة الروم إلى وقتنا هذا ثابتة الرسوم منسقة التدبير وإن كان اليونانيون قد دخلوا
 في جملة الروم منذ احتلوا على ملكهم كدخول الكلدانيين وهم السربانيون سكان العراق في جملة الفرس

﴿الأولى لغلبتهم عليهم فأحببنا أن لا نخلى كتابنا هذا من ذكرهم وإن كنا قد ذكرنا سائر الممالك التي على وجه الأرض وما أزيل منها ودثر وما هو باق إلى هذا الوقت وأخبار ملوكهم وسياساتهم وسائر أحوالهم فيما تميناها من كتبنا على أننا نعتذر من سهو إن عرض في تصنيفنا مما لا يسلم منه من لحقته غفلة الإنسانية وسهوة البشرية ثم ما دُفِعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار وتواتر الأسفار طوراً مشرقين وطوراً مغربين كما قال أبو تمام :

خليفةُ الحِضرِ مَنْ يَتَرَبَّعُ على وطن في بلدة فظهور العيس أوطاني
بالشام قـومـى وبغدادُ الهوى وأنا بالشرقين وبالفسطاط إخواني
وكقوله أيضاً :

فغربت حتى لم أجِدَ ذكراً مَشْرِق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا
خطوب إذا لاقيتُهنَّ رددنني جريحاً كأني قد لقيت الكتاببا

ونحن آخذون فيما به وعدنا وله قصدنا وبالله نستعين وإياه نسأل التوفيق والتسديد» (٥).

والآيات الأخيرة لأبي تمام التي يختم بها المسعودي مقدمته تدل دلالة واضحة على مبلغ اهتمامه بالعرض الأدبي الذي يحتل أحياناً بالنسبة له المكانة الأولى . ولم يكن المسعودي بالطبع عالماً بحاجة على غرار البيروني ولا متخصصاً في الجغرافيا أو التاريخ بل كان أديباً قبل كل شيء وناشراً للمعارف على منهج الجاحظ أو ابن الفقيه مع ميل أكثر نحو الجدلية ونحو الأسلوب القصصي . فهو قاصٌّ ماهر ، وفي كتابه الذي يغلب عليه التاريخ وهو «مروج الذهب» يقابلنا أفضل تصوير للحياة الاجتماعية والثقافية في عصر الخلافة ، فليس غريباً إذن أن يفتتن به في السنوات السبعينيات من القرن الماضي شخص عرف بتقديره لهذا النوع من العرض التاريخي وهو المؤرخ الفرنسي ارنست رينان Ernest Renan (٦) . وقد أعاد المسعودي تنقيح كتابه هذا مرتين الأولى حوالي عام ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ والثانية حوالي عام ٣٤٥ = ٩٥٦ ، وفي هذا الكتاب فصول يغلب عليها الطابع الجغرافي وقد تتحول أحياناً إلى استطرادات مطولة ، مثال ذلك ما كتبه عن البحار والأنهار ، وقبائل العرب والكرد والترك والبلغار ، وعن دور العبادة عند جميع شعوب العالم خاصة في القوقاز . وطريقة ملاحظاته عن هجرات القبائل وعن الهند وعن الزنج ؛ والفصل الذي أفردَه للصقالبة أضحى منذ أكثر من مائة عام موضوعاً لبحث مستقل قام به شارمو Charmoy (٧) (١٨٣٤) ولبحث آخر لماركفارت (٨) في أوائل القرن العشرين . وعلى الرغم من تقدم النقد العلمي فلا يزال عدد من مشاكل هذا الفصل في حاجة إلى الحل . ومنذ عهد غير بعيد ظهر رأي جديد يقول بأن دولة الدَّيْرَة التي ذكرها المسعودي (٩) إنما هي إمارة كييف Kiev وأنه يجب أن نبصر في هذا اللفظ اسم دير Dir الذي حكم في وقت واحد مع أسكولد Askold (١٠) . ولا تقل قيمة عن هذا رواية المسعودي عن حملات الروس يعد عام ٩١٢ - ٩١٣ على سواحل بحر قزوين الجنوبية إذ لا يفصله عن حوادثها أكثر من "عشرة أعوام" (١١)

أما مصنفه الأخير «كتاب التنبيه» فقد اكتسب عن جدارة حق الانضمام إلى «مكتبة الجغرافيين العرب» Bibliotheca Geographorum Arabicorum على الرغم من أنه ليس مصنفًا جغرافيًا بمعنى الكلمة ولا تشغل الموضوعات الجغرافية فيه حيزاً كبيراً. وهي تتركز بصفة عامة في أول الكتاب على هيئة مقدمة تعطى عرضاً عاماً للجغرافيا الفلكية والطبيعية، يلخص فيها المؤلف نظريات القرن العاشر في خطوطها الجوهرية المعروفة ويفرد مكانة خاصة لنظرية الرياح حيث يقول:

«وأن الشمس إذا كان مسيرها في الميل الشمالى عن معدّل النهار حى الهواء في ناحية الشمال وبرد الهواء الجنوبي فيجب من ذلك أن ينقبض الهواء الجنوبي ويحتاج إلى موضع أصغر ويتسع الهواء الشمالى ويحتاج إلى موضع أوسع إذ لا فراغ في العالم فبالواجب أن تكون أكثر رياح الصيف عند من هو في ناحية الشمال شمالية لأن الهواء من عندهم يتحرك إلى ناحية الجنوب إذ ليس الريح شيئاً غير حركة الهواء وتموجه وكذلك يجب أن تكون أكثر رياح الشتاء جنوبية لتحرك الهواء إلى ناحية الشمال لمسير الشمس في الشتاء في الميل الجنوبي» (١٢).

ويلى هذا وصف لصناعات مصر وتجارتها ومحاصيلها، وهذا بدوره يسوق المؤلف إلى محاولة لتفسير المميزات النفسانية حسب تأثير المناخ على الناس. ولا يخلو من بعض الطرافة في هذا الصدد حكمه على أهل الشمال:

«وأما أهل الربع الشمالى وهم الذين بعدت الشمس عن شمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والإفرنجية ومن جاورهم من الأمم فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فغلب على نواحيهم البرد وتبادلت أفهامهم وثقلت ألسنتهم وابتضت ألوانهم حتى أفرطت فخرجت من ألبياض إلى الزرقة ورقت جلودهم وغلظت لحومهم وازرقت أعينهم أيضاً فلم تخرج من طبع ألوانهم وسببت شعورهم وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب ولم يكن في مذاهبهم متانة وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجهالة والبهايمية وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد إلى الشمال» (١٣).

أما الجغرافيا الوصفية فتعرض بالطريقة المعروفة لنا جيداً أى على أساس الأقاليم السبعة مع تفصيل أكثر في وصف الإقليم الرابع الذى تقع فيه العراق. ويرد القول عرضاً عن عجائب الإسكندرية التى شغلت الناس منذ العصور القديمة وعن زلزال عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥. أما وصف البحار والأنهار فيصعبه وصف موجز للأقطار التى تجرى فيها أو تمسها مع استطرادات شتى كالحديث عن موقع بحيرة أرميه وبراكين فارس، كما يستوفى القول في فصل خاص عن البلاد الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقى من بحر قزوين. وفي القسم الاثنوغرافى من الكتاب يقسم الشعوب إلى سبعة مجموعات هى الفرس، ويليهم الكلدانيون الذين يضم إليهم العرب واليهود، ثم سكان أوروبا (اليونان والبيزنطيون والصقالبة والفرنجة)،

ثم الليبيون والأفارقة عامة ، وبلى هذا الترك ، فسكان الهند والسند وأخيراً الصينيون ومعهم الكوريون . ومن الغريب أن توجد لديه فكرة وحدة الشعوب السامية وذلك قبل عهد طويل من ظهورها كنظرية علمية في أوروبا ؛ ولكن لا توجد لديه تسمية جامعة خاصة بهم . أما باقى الكتاب وهو ما يقرب من أربعة أخماسه فيغلب عليه الطابع التاريخي . وإن اتساع أفق المسعودى ليظهر بجلاء أيضاً في مصنفه هذا وهو لا يقتصر على تاريخ العرب وحدهم بل يولى اهتماماً كبيراً لتاريخ إيران القديمة ولوصف المقاطعات البيزنطية بل ولتاريخ الكنيسة المسيحية .

179

ومن المستحيل إنكار ما يمتاز به المسعودى من تنوع النشاط العلمى وما يتصف به من موضوعية فى الحكم على ما يتعلق بالشعوب والأديان ؛ فهو يسأل باهتمام ممثلى مختلف العقائد ويفحص بانتباه فائق كتبهم ويتعرف جيداً على آدابهم ، وكان موقفه محايداً إزاء النصارى واليهود والصابئة . وفى أثناء تحرك القرامطة على بغداد اطلع المسعودى على تعاليمهم وكتبهم بل وحادث دعاةهم الذين رفضوا تعاليم أهل السنة وأخذوا على عاتقهم تفنيدها دون معرفة جيدة بها^(١٤) . وإن تعدد نواحي اهتمامه لدهش حقاً فهو يجمع بشغف المعلومات عن اقتران البحر الأسود ببحر قزوين كما يجمعها أيضاً حول موضوع : هل يمكن لوحيد القرن أن يمتد سبعة أعوام فى بطن أمه ؟ وفى الإسكندرية يبحث بالكثير من الاهتمام انهيار منارة فاروس Pharos المشهورة فى زلزال عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ ؛ وفى سجستان يورد أول خبر معروف عن طواحين الهواء^(١٥) ؛ وفى المنصورة بالهند يراقب حياة ثمانين فيلاً ملكياً . ولأنه لما يدعو إلى الدهشة تمكنه من جمع وتحليل كل هذه المادة الضخمة .

غير أن منهجه فى التبويب لا يرقى إلى المستوى المطلوب فقد كان من الصعب عليه أن يأخذ نفسه باتباع منطق صارم سواء فى التفكير أو التعبير . وقد كان يزاوئ عمله بعجلة فائقة بحيث أضحي من العسير عليه أن يكون دائماً فى حالة تسمح له بتحليل المادة المتنوعة التى جمعها من مختلف المصادر عن شعوب نائية . وقد أبان دوزى Dozy فيما يتعلق بالأندلس أنه لم يكن واضحاً بالنسبة للمسعودى أحياناً الفرق بين أسماء الأعلام والأسماء العامة^(١٦) . ومهما يكن من شئ فإن المسعودى يقف على قمة المعارف الجغرافية لعصره وكان دائماً يتطلع إلى الحصول على أحدث المعلومات عن البلاد التى لم يزرها بنفسه . وطريقته فى التأليف تعتمد على العرض الأدبى لا على الإسناد ؛ ومن ثم فإنه نادراً ما يشير إلى مصادره . وما من شك فى أن مجال اطلاعه وقراءته كان واسعاً ، ولكن هذا لا يبدو لنا جليلاً ، سواء عن قصد أو غير قصد ، خاصة فى معطياته الأثنوغرافية ، وهو شئ يعتبر بالنسبة لنا خسارة لا تعوض . وهو يشير بإيجاز إلى السابقين له فى مضمار الجغرافيا وفى حدود معلوماتنا عنهم ، فنلتقى عنده بأسماء الممثلين الرئيسيين لنمط المسالك والممالك^(١٧) كالسرخسى والجيهانى الذى لم يصلنا مصنفه وابن خرداذبه المعروف لنا جيداً . وهنا يظهر لنا بجلاء سعة أفق المسعودى فهو لا يخشى أن يذكر أسماء الشخصيات التى كانت

معمّونة في عصره ، فثلاً يشير في خاتمة تعداده للجغرافيين إلى كتاب « النواحي والآفاق » الذي يروى « الأخبار عن البلدان وكثير من عجائب ما في البر والبحر » . ومؤلفه هو محمد^(١٨) بن أحمد بن النجم الذي اشتهر باسم ابن أبي عون الكاتب^(١٩) وهو أحد أتباع الزنديق المعروف الشافعي وقد أعد ما سويّاً في عام ٣٢٢هـ = ٩٣٤م^(٢٠) ؛ ولعل هذه الظروف هي التي دفعت مؤلف كتاب « الفهرست » ، على نحو ما فعل بعض معاصريه من المؤرخين ، إلى أن يصفه بأنه « ناقص العقل »^(٢١) ؛ وكان كتابه معروفاً لياقوت في القرن الثالث عشر^(٢٢) . ويختتم المسعودي كلامه عن السابقين له باستطراد طريف يتحدث فيه عن أهمية المؤلفات القديمة والحديثة^(٢٣) ؛ وتنعكس فيه بمهارة الخصومات الأدبية التي كانت تهرز مختلف الدوائر الاجتماعية في ذلك العصر . قال :

« فكل استفرغ وسعه وبذل مجهوده وقد يدرك الواحد منهم ما لا يدركه الآخر وقد ذكرنا في كتابنا هذا وما سلف قبله من كتبنا التي هذا سابعها أخبار العالم وعجائبه ولم نخله من دلائل تعصدها وبراهين توتدها عقلاً وخبراً وغير ذلك مما استفاد واشتهر وشاهد من الشعر على حسب الشيء المذكور وحاجته إلى ذلك ونحن وإن كان عصرنا متأخراً عن عصر من كان قبلنا من المؤلفين وأيامنا بعيدة عن أيامهم فلنرجو أن لا نقصر عنهم في تصنيف نقصده وغرض نأمله وإن كان لهم سبق الابتداء فلنا فضيلة الاقتداء وقد تشترك الخواطر وتتفق الضمائر وربما كان الآخر أحسن تأليفاً وأتقن تصنيفاً لحكمة التجارب وخشية التبع والاحتراس من مواقع الخطأ ومن ها هنا صارت العلوم نامية غير متناهية لوجود الآخر ما لا يجده الأول وذلك إلى غير غاية محصورة ولانهاية محدودة وقد أخبر الله عز وجل بذلك فقال وفوق كل ذي علم عليم^(٢٤) . على أن من شيع كثير من الناس الإطراء للمتقدمين وتعظيم كتب السالفين ومدح الماضي وذم الباقي وإن كان في كتب المحدثين ما هو أعظم فائدة وأكثر عائدة وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسباع تصغي إليه ولا الإرادات تيمّم نحوه ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة ثم ينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ومن قد طارت أسماؤهم من المصنفين فيقبلون على كتبها ويسارعون إلى نسخها لا لشيء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ولئلا يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ومنافسته على المناقب التي يخص بها ويعنى بتشبيدها وهذه طائفة لا يعبا بها كبار الناس وإنما العمل على ذوى النظر والتأمل الذين أعطوا كل شيء حقه من العدل ووفوه قسطه من الحق فلم يرفعوا المتقدم إذ كان ناقصاً ولم ينقصوا المتأخر إذ كان زائداً فلمثل هؤلاء تُصنّف الكتب وتدوّن العلوم » .

أما ذوق المسعودي الأدبي فيتضح بجلاء من حكمه على الجاحظ في كتابه « مروج الذهب » قال^(٢٥) :

« وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب إلا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدى ما شمع وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدى الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ووصفها أحسن

وصف ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ وكان إذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع خرج من جدّ إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريقة وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه بين المنشور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبلغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين وكتاب البخلاء وسائر كتبه في نهاية الكمال . ونحن نعلم جيداً أنه رغمًا عن هذا الإعجاب فإن المسعودى لم يأخذ مصادره الأدبية على علاقتها بل وقف منها موقف الناقد ، وقد أبصرنا من قبل كيف فحص باهتمام شديد رواية الجاحظ عن السند والنيل وكيف كان يقارن المادة المكتوبة بالمعطيات الواقعية في وصفه للطرق المختلفة ذكراً في كثير من الأحيان أين ومتى التقى بالمسافرين ، المشهور منهم والمغمور ، فن أولئك يذكر صاحب وصف طريق الهند والصين أبا زيد السيرافي . ومما يكفر عن افتقار مصنفاته إلى التنظيم والتبويب أنه لا يتبع اتباعاً أعمى المنهج التأليفي السائد في الجغرافيا العلمية آنذاك ، بل يفرد مجالاً واسعاً للمعلومات الجغرافية المأخوذة مباشرة من الرحالين والتجار ، ولم يكن من النادر أن تتجه عواطفه نحو الأخيرين . وهو يلفت النظر 182 إلى التباين بين النظرية الموجودة في الكتب والملاحظات الواقعية فيها يتعلق بامتداد المحيط الهندي^(٢٦) . أما الجغرافيا الفلكية فإنه لم يشعر نحوها بميل كبير ، وقد مر بنا فيما سبق رأيه الغريب القائل بأن جميع المدن الكبرى لإقليم ما تقع على خط عرض واحد^(٢٧) .

ولم يكن بمقدور مصنفات المسعودى أن تظفر بانتشار واسع بسبب ضخامة حجمها ، غير أن الصغرى من بينها نالت صيتاً يعادل الصيت الذي ناله اتمه ومنهجه في التأليف : ولعل هذا يفسر لنا لماذا نسبت إليه أكثر من مرة مصنفات منحولة كان أكبرها شهرة « كتاب أخبار الزمان وعجائب البلدان » أو مختصر العجائب والغرائب المعروف في عدد كبير من المخطوطات خاصة بالمكتبة الأهلية بباريس *Bibliothèque Nationale* ، وهي التي قام بفحصها كارا دى فو^(٢٨) . وينقسم الكتاب إلى قسمين غير متساوين ، أولهما وهو الأصغر يبحث في خلق العالم وعجائب الأمم القديمة ، وهنا يفرد مكاناً خاصاً للأساطير المتعلقة ببحر الهند والتي ترتبط بعض الارتباط بكتاب « عجائب الهند » ؛ أما القسم الثاني والأكبر فيعالج التاريخ الأسطوري القديم لمصر ؛ وهو لا يعتمد فيه على المصادر اليونانية أو الروايات الهيروغليفية . وفي بعض المخطوطات ينسب هذا الكتاب إلى المسعودى^(٢٩) ولكن يستحيل عقلاً أن يكون من تأليفه سواء من ناحية الموضوع أو الشكل ؛ أضف إلى هذا أن المسعودى لا يذكره في تبت مؤلفاته وأن تلك الفصول من « مروج الذهب » التي يرد فيها الكلام عن مصر لا تذكر في شيء بكتاب « مختصر العجائب »^(٣٠) سواء من ناحية العرض أو الترتيب . ويزيد في تعقيد المسألة المحيطة بشخصية مؤلف الكتاب عامل آخر هو وجود مقتطفات منه في خطط المقرئى منسوبة إلى إبراهيم بن وصيف شاه^(٣١) ، وهو مؤلف معروف عاش في بداية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) واشتهر بتاريخ له عن مصر يحمل شطره

الأول طابعاً أسطورياً كالذى فى « مختصر العجائب » ويصل إلى عام ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ فى بعض مخطوطاته ، وقد يمتد أحياناً إلى عام ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ وما يليه . وهذا الكتاب تمثله مسودات مختلفة تحمل عناوين متباينة^(٣٣) ، وتوجد ترجمة تركية معروفة لمختصره تحمل عنوان « جواهر البحور ووقائع الأمور »^(٣٤) تمتد روايتها إلى القرن السادس عشر . وبتحليله لمخطوطة لينغراد يبين دورن أنه فيما يتعلق بمعالجته لتاريخ مصر القديمة فإنه يمثل أثراً من آثار « العصبية » القبطية^(٣٥) . ورغماً عن التشابه فى الموضوعات فإن « مختصر العجائب » لا يمكن أن يكون من تأليف ابن وصيف شاه لأن التواريخ الموجودة فيه لا تتجاوز القرن العاشر ، ويصبح من المريب أن يقف ابن وصيف شاه عند هذا العصر إذا كان الكتاب قد خرج فعلاً من يده^(٣٦) . والأرجح أنه يمثل مسودة لأحد مصادره فقط أو أنه يمثل مسودة أولية لكتاب جرت فيه يد ابن وصيف شاه بالتعديل . وقد عرف هذا المصنف مبكراً فى أوروبا وترجمه إلى الفرنسية فاتييه Vattier منذ عام ١٦٦٦ معتمداً على مخطوطة فقدت بالتالى ونسبه إلى شخص ثالث من نسج خياله^(٣٧) . وكل هذا يقف برهاناً على ما أحاط بروايات هذا الكتاب ومسوداته المختلفة من اللبس والتعقيد . وتمثل الترجمة العلمية التى قام بها كارا دى فو (١٨٩٨) أهمية بالغة سواء فى محيط التاريخ الأدبى أو الفولكلور Folklore ؛ أما القول بأن « مختصر العجائب » من تأليف المسعودى فهو قول لا يستند على أساس من الواقع^(٣٨) .

ورحلات المسعودى كما رأينا تشمل ميداناً واسعاً ووجدت انعكاساً كبيراً فى مؤلفاته ، ولكن رغمًا عن هذا فقد دخل اسمه فى التاريخ لا كرحالة بل ككاتب . وعلى العكس من هذا برز فى عصره عدد من الرحالين ممن زاروا الأصقاع القريبة من الاتحاد السوفيتى ونالوا شهرة واسعة بفضل أوصاف الرحلات التى خلفوها رغمًا من أن أحدهم تمتع ببعض الصيت كشاعر أيضاً .

ويحتل ابن فضالان المكانة الأولى بينهم سواء من الناحية الزمنية أو الأهمية الذاتية وذلك بسبب رسالته المشهورة التى تجدد الاهتمام بها فى الأعوام الأخيرة بنفس الدرجة التى تمتعت بها لأول مرة منذ مائة وعشرين عاماً . وهذا الأثر بلا شك جدير بهذا الاهتمام خاصة فى الآونة الحاضرة بعد أن أصبح لأول مرة فى متناول أيدي الجميع فى طبعة كاملة تقريباً .

وفيه نجد أثراً طريفاً بالنسبة لعصره فهو يقدم لنا صورة حية للظروف السياسية فى العالم الإسلامى والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المتاخمة لها فى آسيا الوسطى أو الأصقاع النائية التى كانت تمثل أطراف العالم المتمدن آنذاك مثل حوض الفولجا . ونحفل الرسالة بمادة اثنوغرافية قيمة جداً ومتنوعة بصورة فريدة ، وهى تمس عدداً من القبائل التركية البدوية^(٣٩) القاطنة آسيا الوسطى وعدداً من الشعوب التى كانت تلعب آنذاك دوراً أساسياً فى تاريخ أوروبا الشرقية كالبلغار والروس والخزر . كما لا يمكن إنكار قيمتها الأدبية وأسلوبها القصصى السلس ولغتها الحية المصورة التى لا تخلو بين آونة وأخرى من بعض الدعاية التى ربما لم تكن مقصودة .

وقد تم إعداد هذه السفارة كطلب بلغار الثوبلجا الذين أرسلوا رسولا إلى عاصمة الخلافة يرجون العون ضد ضغط الخزر عليهم من الجنوب وأن يُنفذ إليهم من يفقههم في الدين ويعرفهم بشعائر الإسلام الذي اعتنقوه منذ عهد غير طويل ، وقد أرسلت إليهم سفارة تحت رئاسة سوسن الرسى كان من أفرادها أحمد بن فضلان كفقيه ذى خبرة ؛ وعلى الرغم من عدم وجود أية معلومات عنه إلا أنه يحاول دائماً في « الرسالة » أن ينسب إلى نفسه الدور الرئيسى. هذا وقد غادرت السفارة بغداد في الحادى عشر من صفر عام ٣٠٩ هـ = ٢١ يونيو ٩٢١ ووصلت إلى بلغار في الثامن عشر من المحرم عام ٣١٠ هـ = ١٢ مايو ٩٢٢ ؛ وقد مرت في طريقها بهمدان والرى ونيسابور ومرو وبخارى ، حيث التقى ابن فضلان في سبتمبر من عام ٩٢١ بوزير السامانيين والعالم الجغرافى الشهير الجيهانى (٣٧) . ثم ساروا مع نهر جيحون إلى خوارزم عند بحر آرال وعبروا صحراء أوست أورت ثم نهر يايق فوصلوا إلى حوض الثوبلجا . أما تأريخ وخط سير الرجعة فليس معروفاً لدينا إذ أن خاتمة « الرسالة » قد امتدت إليها يد الضياع .

ومن الطبيعى أن يكون علماء الشمال هم أول من سبق إلى لفت أنظار الدوائر العلمية في أوروبا إلى ابن فضلان ؛ وقد حدث ذلك في الدنمارك وروسيا . وظلت رحلته معروفة لمدة طويلة عن ياقوت وحده الذى حفظ لنا جزءاً كبيراً منها في معجمه الجغرافى ؛ ثم أفرد لها المستشرق الروسى فرين Frähn بحثاً رائعاً كان أشبه ببراعة الاستهلال في تأريخ الاستعراب الروسى واستمر ثمانين عاماً تقريباً لا يزه شىء بل وحفز إلى ظهور عدد من الأبحاث بأقلام ممثلى مختلف الاتجاهات العلمية ، احتل من بينها مكانة مرموقة أبحاث روزن وبارتولد . وقد أدى الكشف عن مخطوطة مشهد في السنوات العشرينيات من هذا القرن إلى اتساع المادة عن ابن فضلان بشكل ملحوظ ، وإذا صرفنا النظر عن خاتمها المفقودة فإن هذه المخطوطة الأخيرة تمكننا لأول مرة من الحكم على الرسالة في صورتها الكاملة . ولم تلبث دراسة ابن فضلان أن دخلت في طور جديد بفضل البحث الذى قام به كوفاليفسكى A. P. Kovalevski (١٩٣٩) (٣٨) ؛ ومن المستحيل بالطبع إلزام بأن جميع المسائل المتعلقة بتمن الرسالة قد حلت نهائياً ، بيد أن وجود مخطوطة مشهد سيمنع على أية حال من تكرار مثل تلك الأخطاء التى تسربت إلى مؤلفات هنج Hennig الذى ينسب دائماً إلى ابن فضلان روايات المؤلف الفارسى عوفى الذى عاش في أوائل القرن الثالث عشر* (٣٩) .

وعلى الرغم من ندرة المعلومات عن شخص ابن فضلان إلا أنه لم يبق هنالك أدنى ريب حول صحة 186 نسبة الرسالة إليه . وإذا كان البعض قد أبدى ارتياحه من وقت لآخر بشأنها ، كما فعل عالم الآثار اسبتزن Spitzin ، فإن ذلك يمس في العادة بعض التفاصيل ولا يثبت على محك النقد الدقيق . ويختلف الأمر بالنسبة لرحلة أخرى خرجت من عاصمة السامانيين بخارى متجهة صوب الشرق والجنوب وهى تنسب

* نشر أحد العلماء السوريين طبعة جديدة لرحلة ابن فضلان بدشق عام ١٩٥٩ ؛ كما وأن كوفاليفسكى أخرج بحثاً جديداً حول موضوع الرسالة . (المترجم)

إلى أبي دلف الينبعى الخزرجى . ورغمما عن وجرد بعض المعلومات عن المؤلف إلا أن الرحلة نفسها كانت هدفاً للريبة والشكوك . وكما أن المؤلف قد عرف بكنيته فقد عرف أيضاً باسمه ميسعر بن المهلهل ، وهى أسماء واسعة الانتشار فى وسط الجزيرة العربية منذ أقدم العصور إلى أيامنا هذه وتشير إلى أصاه العربى الصريح ؛ أما نسبة « الينبعى » و« الخزرجى » فتؤكد علاقته بميناء ينبع على البحر الأحمر وقبيلة الخزرج بالمدينة ؛ ويبدو أنه أحد الأدباء العديدين الذين مكنتهم وحدة الحضارة الإسلامية فى ذلك العصر من القيام برحلات عريضة . ويظهر أن الأقدار قد بعثت به كشاعر مداح متجول إلى بلاط نصر الثانى ابن أحمد السامانى (٣٠١ هـ = ٣٣١ هـ - ٩١٤ - ٩٤٣) ، وهو نفس الحاكم الذى سافر ابن فضلان فى عهده إلى البلغار . وفى أواخر أيام حكمه وصلت إلى بخارى سفارة من الصين حوالى عام ٣٣١ هـ = ٩٤٢ فاعتنم أبو دلف الفرصة وصحبها فى طريق العودة فعبّر تركستان الغربية وتركستان الشرقية Sinkiang والتبت ودخل الصين عن طريق غير معروف^(٤٠) ، ثم غادرها إلى الهند ومن هناك رجع إلى بلاد الإسلام عن طريق سبستان . وملتقى به عقب ذلك فى بلاط الوزير البوسى الأديب المشهور صاحب اسماعيل بن عباد (توفى عام ٣٨٥ هـ - ٩٥٥) ، وهناك وضع « القصيدة الساسانية » الغربية . وهى فى لغة ومكائد الشطار والصعاليك الذين اتخذوا لأنفسهم فى ذلك العصر اسم « الساسانيين » الرفيع* . وفى نفس تلك الأعوام وضع رسالته الثانية فى وصف مشاهد أذربيجان وأرمينيا وإيران مما سيأتى الكلام عنه فى موضعه . وربما كان صاحب بن عباد هو الذى شجعه على وضعها ، إلا أن أبا دلف أهدى النسخة الأولى منها إلى أولئك الذين سبقت أيديهم عليه من قبل فى ما وراء النهر والذين لم يقطع صلاته بهم فيما يبدو ، أعنى السامانيين .

ولم يكن وصف رحلة أبي دلف معروفاً معرفة مباشرة حتى الآونة الأخيرة . وإحدى الخدمات العديدة التى طوق بها ياقوت أعناق العلماء هى حفظه لشذرات كبيرة منه ، كما تقل منه أيضاً معاصره الأصغر الكوزموغرافى القزوينى الذى يفتقر إلى الدقة كما هو ديدنه دائماً . وفى وقت واحد انصرف إلى دراسة الرسالة كل من فستفلد (١٨٤٢) وشلوزر Schlözer (١٨٤٤) . وقام الأخير بطبعها وترجمتها 188 إلى الألمانية ، مما أعتبر مجهوداً محموداً بالنسبة لذلك العصر ؛ وشارك فى ذلك المستشرق فرين مشاركة فعالة . هذا ويرجع أول بحث جدى عن أبي دلف إلى العلامة الروسى غريغوريف V. V. Grigoriev (١٨٧٢) ، كما يعتبر البحث الذى قام به المستشرق روزن^(٤١) ، وهو لما يزل طالباً بعد ، خطوة إلى الأمام فى دراسة الموضوع . غير أن النتائج التى خرج بها غريغوريف لاتبعث على الاطمئنان ، فهو يجد عند أبي دلف « خلطاً لا مثيل له فى العرض »^(٤٢) ويعتقد أن « القصة لا تقوم على أساس من

* عن استعمال تلك الفئة لاسم « ساسان » الرفيع راجع مقال كرامرس Kramers فى دائرة المعارف الإسلامية واستدرك عليه بتعليق الإمام الشيخ محمد عبده فى شرحه لمقامات الهمداني (المقامة الساسانية) . (المترجم)

ذات طابع خاص وعام . فقد وضح أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال^(٥٤) ، إذ ثبت مثلاً صحة المعلومات التي أوردها عن وإلى سجستان في ذلك العهد ، وكان العلماء يرفضون الاعتراف بصحتها منذ أيام غريغورييف^(٥٤) . وبعض التفاصيل المتعلقة بزيارته للصين وجدت تأكيداً في وصف السفارة المتأخرة التي بعث بها شاهرخ^(٥٥) إلى تلك البلاد ، كما تم الاعتراف بدقة ملاحظة أبي دلف في محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية . وفيما عدا هذا فيمكن القول الآن وبصفة قاطعة أنه قد ثبت أن روايته لا تمثل يوميات أو وصفاً للطريق بل تم تدوينها من الذاكرة وبعد مدة طويلة من حدوث الرحلة على ما يظهر ومع عدم مراعاة التسلسل التاريخي حين الكلام على زيارته للقبائل والأماكن المختلفة ؛ وإلى جانب ما شاهدته بعين رأسه أضاف أبودلف غير قليل مما سمع ولم يفرّق بين الاثنين^(٥٦) . والخلاصة أنه لا توجد أدلة قاطعة تثبت أن الوصف لم يعتمد على رحلة واقعية أو أنه لم يكن سوى مجموعة من القصص المنسوبة إلى أبي دلف * (٥٧) .

هذا وقد وصل الرحالة العرب إلى أوروبا لا من ناحية المشرق وحده بل من المغرب كذلك . ولدينا 190 في ذلك أثر ممتاز هو مصنف إبراهيم بن يعقوب الذي حفظ لنا جزءاً منه الجغرافي والأديب الأندلسي للقرن الحادي عشر البكري ، وأيضاً كوزموغرافي القرن الثالث عشر القزويني . وإبراهيم بن يعقوب عالم أندلسي يهودي كان يشتغل بتجارة الرقيق وقد جال في جنوب ألمانيا في عام ٩٦٥ وقابل الإمبراطور أوتو Otto في مجد برج Magdeburg^(٥٨) وحفظ لنا معلومات واسعة عن إمارات الصقالبة في أوروبا الوسطى في ذلك العصر ، ويحدثنا عن أربعة منها هي بلغاريا وبولندا والتشك وإمارة ناكون الأبدريتي Nakon of Obdorites . كما يورد تفاصيل وافية عن بعض المدن الساحلية أو القريبة من الساحل بفرنسا وهولندا وألمانيا ، ومن الطبيعي أن يجتذب مصدر هام فريد في نوعه كهذا اهتماماً خاصاً من جانب العلماء الألمان والسلاف الذين ندين لهم قبل غيرهم بأبحاث كثيرة ومتنوعة عن إبراهيم .

وبجميع هذه الأبحاث تعتمد على كتاب كونيك وروزن (١٨٧٨ - ١٩٠٣) ، الذي بقي إلى الآن أفضل بحث في هذا الموضوع . ويشمل الجزء الأول^(٥٩) من هذا البحث نص وترجمة جميع ما حفظه لنا البكري من رواية إبراهيم في كتابه « المسالك والممالك » ، وذلك اعتماداً على المخطوطتين المعروفتين آنذاك (إحداهما للمستشرق الإسباني غايانغوس Gayangos والأخرى موجودة بالقسطنطينية) . وتمثل الأبحاث العديدة التي قام بها جورج ياكوب G. Jacob ابتداء من عام ١٨٨٩ خطوة إلى الأمام في دراستها ، وكذلك أبحاث فستبرج F. Vestberg التي ترجع إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين . والميزة الكبرى لياكوب ، إلى جانب تحليله العميق للمادة ، هي دراسته المنظمة لما حفظه لنا القزويني عن إبراهيم وإفادته من مخطوطة جديدة للبكري كشف عنها لاندبرج Landberg .

* ظهرت طبعتان للرسالة الثانية لأبي دلف في الآونة الأخيرة ، إحداهما لمينورسكي (القاهرة ١٩٥٥) والأخرى لمستشرقين سوفييتين هما بلغاكوف وخالدوف (موسكو ١٩٦٠) . (المترجم)

هذا وقد أدت المقارنة بين القزويني والبكري إلى ظهور فكرة معقدة لدى ياكوب عن وجود شخصيتين عربيتين زارتا ألمانيا ، وهو ما يسمى بفرض (hypothesis) « إبراهيم - الطرطوشي » الذي أصر عليه ياكوب أكثر من مرة خلال اثنين وأربعين عاماً (٦٠) ، رغمًا عن أنه قد جر أحياناً إلى اعتراضات شديدة بسبب غرابته ومجافاته للواقع . وجوهر فكرة ياكوب يمكن إيجازه فيما يلي (٦١) :

في وقت واحد بالتقريب وعلى حدة وجه الحكام العرب سفارتين إلى بلاط أوتو الأول ، إحداهما بعث بها الفاطميون من شمال أفريقيا بطريق البحر إلى إيطاليا فجنوب ألمانيا . أما الثانية وهي سفارة خليفة قرطبة فقد بدأت سيرها من أسبانيا وسارت في محاذاة الأطلنطي وبحر الشمال مارة في طريقها على بوردو وروان وأوترخت ، ثم عبرت شلزيغ إلى بادربورن وسست وفلدا إلى ماينز . وقد اشترك في هاتين الرحلتين شخصيتان تركت كل منهما وصفاً لرحلاتها ، ويحمل كل منهما اسم إبراهيم بطريق الصدفة . فالسفارة التي خرجت من أفريقيا صاحبها إبراهيم بن يعقوب وهو يهودي مغربي ، بينما صاحب سفارة قرطبة إبراهيم بن أحمد الطرطوشي . وقد استقبل أوتو الأول كلا السفارتين في عام ٩٦٥ بمجدبرج واستمع كلا الرجلين إلى حديث الإمبراطور عن أقطار أوروبا الوسطى . وعند عودتهما دون كل منهما انطباعاته وما سمعه عن الإمبراطور . وعلى هذا الأساس يمكن تفسير اتفاقهما في تفاصيل القصة .

ورغمًا عما يحيط بهذا الفرض من التكلف والصنعة فإنه يقوم على أساس الاختلاف في أسمى الرجلين كما ورد في الشذور المتبقاة والتي باستثناء هذا تتفق في فحواها . والبكري يدعوه عادة إبراهيم بن يعقوب ، بينما يدعوه القزويني بالطرطوشي ، ولكن يرد لديه مرة في صورة « إبراهيم بن أحمد » . ومن هذه الصورة الأخيرة يتضح أنه مسلم وليس يهودياً ، الأمر الذي لا يرتقي إليه الشك فيما يتعلق بمصدر البكري (٦٢) . هذه المسألة المعقدة قد حلها العالم البولندي كوفالسكي Kowaleski فوضع بذلك حداً نهائياً « لفرض » ياكوب (٦٣) .

فعلى مدى الأعوام الطويلة التي قضاها كوفالسكي في تحضير طبعة جديدة لرسالة إبراهيم بن يعقوب (٦٤) أمكنه أن يفيد كثيراً من مخطوطة اكتاب البكري كان قد تم الكشف عنها حديثاً في مراكش ؛ وقد وضع أن هذه المخطوطة ليست في الواقع بذات قيمة كبيرة وأنها لا تخلو من العيوب ، فضلاً عن أنه ينقصها القسم من رواية إبراهيم الخاص بالصقابة . إلا أنها في مقابل هذا تحمل الاسم الكامل للرحالة على شكل « إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي » (٦٥) بحيث أصبح من اليسير إثبات أن الاسمين السابقين إنما هما في حقيقتهما لشخص واحد . ومما يؤكد صحة هذا أنه قد تم في الأعوام الأخيرة نشر عدد من الآثار الهامة في محيط الأدب العربي الأندلسي التاريخي منه والجغرافي ، وأنه في أحد هذه الآثار وهو من تأليف عبد المنعم الحميري ، أحد رجالات القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، نلتقي بذات الوصف لمدينة لورقة Lorca بأسبانيا الذي ينسبه القزويني إلى إبراهيم بن أحمد الطرطوشي مع اختلاف جوهري . هو أن

اسم أحمد هذا لا وجود له في رواية الحميري ، ومن ثم فإنه يجب أن يؤخذ ذلك بوصفه سهواً إمّا من القزويني نفسه أو من أحد النساخ . وبهذا يزول اللبس والغموض الذي أحاط بتحديد شخصية المؤلف : وما يدعم هذا أن المخطوطة المراكشية الجديدة للبكري التي تنقصها رواية إبراهيم عن الصقالبة قد وردت بها في مقابل ذلك عدة مقتطفات في وصف الأندلس غير موجودة بالمخطوطات الأخرى ويظهر فيها اسم إبراهيم بن يعقوب بصفته حجة ثقة في مسائل أسبانيا النصرانية ، كما ترد فيها أيضاً إشارة عابرة إلى محادثة له مع « قيصر الروم » (٦٦) . ولا شك أن المقصود بهذا هو الإمبراطور أوتو الذي وردت الإشارة إليه في القطعة المعروفة لنا عن الصقالبة (٦٧) .

بذا يمكن القول بأنه قد ثبت بصفة قاطعة أنه قد عاش في القرن العاشر رحالة عالم من الأندلس يدعى إبراهيم بن يعقوب اليهودي الطرطوشي نسبة إلى طرطوشة Tortosa بالأندلس ؛ وهو لم يكن تاجراً فحسب كما كان يظن عنه إلى الآن ، بل كان من المحبين لاقتناء الكتب وخبيراً ماهراً بأنحاء أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلاد الصقالبة الغربيين (٦٨) كما كان شخصاً مثقفاً دقيق الملاحظة يستطيع قراءة النقود الكوفية ويعرف عن نصر بن أحمد الساماني وشمس قند النائية والتوابل التي تجلب من الهند (٦٩) . أما وصف رحلته فلم يبق منه سوى شذرات عرفت منها الأقسام الخاصة بألمانيا والصقالبة وهي التي حفظها لنا العذري والبكري والقزويني ، وانتقلت منهم إلى مؤلفين متأخرين مثل ابن سعيد الغرناطي وأبي الفداء والدمشقي وإلى الكاتبين التركيين سباهي زاده والباكوي . ويبدو أن وصفه للأندلس الذي أماطت عنه اللثام المخطوطة المراكشية للبكري ووجد أيضاً لدى القزويني والحميري كان واسع الانتشار ؛ ومن الممكن أيضاً أن ترجع إليه شذور عديدة في نفس تلك الموضوعات عند المؤلفين الذين ذكرناهم ولكن لا توجد إشارة إلى مصدرها .

ومن الخطأ الاعتقاد بأن رحلات العرب في القرن العاشر قد اقتصررت على الشرق والشمال ؛ وسيرد الحديث عن الرحلات إلى الغرب في الفصل القادم عند الكلام على ابن حوقل . وهناك احتمال بأن يكون الجنوب قد اجتذب أيضاً بعض الاهتمام ولكن لم يصل إلينا عن ذلك إلا النزر اليسير ؛ وتمثل أهمية جوهريّة في هذا الصدد رحلة ابن سليم الأسواني (٧٠) إلى بلاد النوبة حوالي عام ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ ؛ وكان قد بعث به القائد الفاطمي جواهر الصقلي إلى ملك النوبة في مهمة دبلوماسية ووضع كتاباً بعنوان « كتاب أخبار النوبة والمُقرّة وعلوّه والبحج والنيل » . وفيه وصف دقيق لكل النواحي التي رآها ولسكانها وقد حفظت لنا شذرات منه لدى المقرئزي (٧١) وابن إياس (٧٢) ؛ ويمتاز وصفه للنيل بالكثير من الدقة على الرغم من أنه يخضع أحياناً لتأثير الرواية المنقولة التي تستر وراء الملاحظة المباشرة . ويوشك هذا الوصف أن يكون هو الوصف الوحيد في الأدب العربي للعصور الوسطى الذي يبين لنا المدى الذي وصلت إليه معرفة العرب بالبحري الأعلى للنيل ، ولم يكن لروايته أي تأثير على المصنفات الجغرافية التالية فوصف الإدريسي

- مثلاً | لـجـرى النـيل الأهلـى يـدل دلالـة واضـحة علـى مـدى النـقص الـذى كان يعانـيه ذلـك المـؤلف فـى المـصادـر 193 الـموجـودة تـحت يـده والـتى لم تـكن إـلى جانـب هـذا واضـحة لـه علـى الدوام (٧٣) .
- ومن الثابت أن ابن سليم الأسوانى لم يكن المثال الفريد للكاتب المغدور الذى أسدل عليه النسيان ستاره فى الأدب الجغرافى للقرن العاشر ، فإلى جانب كبار المؤلفين المعروفين لدينا جيداً والذين مر الكلام عليهم أو سيمر ، يوجد عدد غير قليل من الكتاب المجهولين الذين لم يعرف المسنمون عنهم لسبب ما سوى القليل ؛ وفوق ذلك فإن هناك ثلة لم تصل إلينا مؤلفاتهم أو أنها لا تزال فى طى المجهول . وعلى أية حال فإنه رغم افتقارنا إلى المادة فى صورتها التامة فيمكننا أن نقرر بكل اطمئنان أن القرن العاشر هو عصر الازدهار الخلاق للأدب الجغرافى العربى . وإنه لما يسترعى النظر حقاً ليس هو العدد الكبير من الكتاب المبرزين فحسب، بل هو ظهور حركة جديدة يمكن أن يطلق عليها بجدارة اسم «المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية» ، وقد استمرت هذه الحركة لمدة نصف قرن من الزمان تخرج مجموعة من المصنفات يسودها طابع الوحدة والانسجام .

حواشي الفصل السادس

- (١) Kramers, El, EB, p. 67
- (٢) Markwart, Streifzüge, p. XXXV
- (٣) Brockelmann, GAL, I, p, 143-145 No 6, SBI, p. 220-221
- (٤) لا يزال العنوان يترجم أحيانا إلى الآن في اللغات الأوروبية : «golden meadows»
بالرغم من أن جيلدمايستر Gildemeister قد بين منذ عام ١٨٤٤ خطأ ذلك
(Gildemeister WZKM, V, p. 202-204)
- (٥) المسعودي ، BGA, VIII ، ص ٢ - ٧
- (٦) Renan, Mélanges d'histoire p. 253-275
- (٧) Charmoy, Relations de Masoudy
- (٨) Markwart, Streifzüge, p. 95-160
- (٩) المسعودي ، المروج ، الجزء الثالث ، ص ٣٤ .
- Markwart, Streifzüge, p. 145
- (١٠) Kvalen, Norwegian Settlements, p. 23 — Kvalen, Det norske gurdariki, II, 1, p. 33, 44; Mzik, WZKM, 46, 1939, p. 317 قارن ؛
- (١١) Bartold, SV, I, 1940
- (١٢) المسعودي ، Nallino, Cosmos, XII, p. 60 = BGA. VIII, p. 12, Carra de Vaux, Maçoudi, p. 17-18
- (١٣) المسعودي Nallino Cosmos XII = BGA, VIII p. 23-24
= Carra de Vaux, Maçoudi p. 38-36
- (١٤) المسعودي ، BGA, VIII, p. 384 ص ٣٨٤ و ص ٣٩٦
- (١٥) Sarton, Introduction. I, p. 638
- (١٦) Dozy, Recherches, I³, p. 168-170
- (١٧) المسعودي ، BGA, VIII ، ص ٧٥
- (١٨) يوجد اختلاف حول الاسم : الفهرست ، ص ١٤٧ : ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الأول ص ٢٩٦ .
حيث يوجد : إبراهيم بن محمد الخ .
- (١٩) المسعودي ، BGA, VIII ، ص ٧٥
- (٢٠) شرحه ، ص ٣٩٧ - ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الأول ص ٢٩٧ ؛
- راجع : Bartold, IAN, 1918 p. 790
- (٢١) الفهرست ، ص ١٤٧
- (٢٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ = ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الأول ص ٢٩٧ .

- (٢٣) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٧٥ - ٧٧ ، Carra de Vaux, Maçoudi, p. 110-111
- (٢٤) القرآن ، ٧٦١٢
- (٢٥) المسعودى ، المروج ، الجزء الثامن ، ص ٣٤ - ٣٥
- (٢٦) Kramers, Legacy, p. 87
- (٢٧) شرحه ، ص ٨٨
- (٢٨) Carra de Vaux, L'Abrégé
- (٢٩) شرحه ، ص XXX
- (٣٠) شرحه ، ص XXXIII
- (٣١) شرحه ، ص XXXI
- (٣٢) شرحه XXXIII — p. 335-336, No 5 ; p. — Broekelmann, GAL, I, p. 335-336, No 5 ; p. — XXXIII SBI, p. 574-575
- (٣٣) Rosen, Netices Sommaires, p. 167-173, No 220
- (٣٤) Carra de Vaux, L'Abrégé, p. XXXIV
- (٣٥) راجع : Brockelmann, GAL, SBII, p. 1026, No 7 ; Carra de Vaux, L'Abrégé p. XXVIII and XXXI
- (٣٦) يذكر أصل الموجز تحت هذا العنوان حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ١٥٠ و ٦٤١ ، رقم ٤٢٧٢ : الترجمة التركىة بقلم يوسف بن نعمة الله الذى لا نعرف عنه كثيراً ؛ راجع :
- Babinger GOW p. 121 No 105
- (٣٧) Validi, Ibn Fadlan, p. 6 — M. J. Haschimi, Biruni p. 21, note 2
- (٣٨) [راجع طبعته الجديدة بخار كوف ، ١٩٥٦] A. P. Kovalevski
- (٣٩) Hennig, II, p. 215-220, خاصة p. 216, 218, 221, 222
- (٤٠) Rohr-Sauer, p. 61
- (٤١) Krachkovski Dopolnenia p. 271, 8A
- (٤٢) Grigoriev, Abu Dulaf, p. 3
- (٤٣) شرحه ، ص ١٩
- (٤٤) Grigoriev, Trudy, I, p. XXXIX, No 22, LVII
- (٤٥) Markwart, Streifzüge p. 74-75
- (٤٦) Barthold, Sandabil, p. 158
- (٤٧) Hudud, p. 225
- (٤٨) شرحه ، ص ٣٠٦
- (٤٩) الفهرست ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ٣٥٠ - ٣٥١
- (٥٠) Ferrand, Relations I, p. 132-134

- Ruska, GZ, XXXIII, p. 591 (٥١)
- Rohr - Sauer (٥٢)
- (٥٣) شرحه ، ص ٤١
- (٥٤) شرحه ، ص ٤٢ - ٤٥
- (٥٥) شرحه ، ص ٥٧
- (٥٦) شرحه ، ص ٥٦ ، ٥٩ ، ٧٠ - ٧١
- (٥٧) شرحه ٧١
- Jacob, Studien, IV, p. 136 = Henngi (٥٨)
- Kunik, Rozen (٥٩)
- Jacob, Studien, IV, p. 127 - 150 — Jacob, Arab. Berichte, (٦٠)
- p. 11 - 18
- Kowalski, Z hadan, p. 134 (٦١)
- (٦٢) شرحه ، ص ١٣٥
- (٦٣) شرحه ، ص ١٣٣ - ١٣٧
- Kowalski, Z jazdy, III - VI, 1934, p. 63 - 64 (٦٤)
- Kowalski, Z hadan, p. 135 (٦٥)
- Lévi - Provençal, La Péninsule, p. 206 - 207 تاريخ ٣٠٥ هـ = ٩١٧ عريضة للشك (٦٦)
- Kowalski, Z hadan, p. 136 (٦٧)
- (٦٨) شرحه ، ص ١٣٧
- Jacob, Studien, II, p. 52 (٦٩)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 410, No 12 (٧٠)
- Guest, El - Maqrissi, p. 109, 115 — Quatremère, « Khitat » Al - Makrizi, (٧١)
- Journal des Savants 1856, p. 327
- Arnold, Chrestomathia, p. 54, X (٧٢)
- Kramers, Al - Nil, p. 992 (٧٣)

الفصل السابع

المدرسة الكلاسيكية لجغرافي القرن العاشر

لعل الاهتمام الواسع بالموضوعات الجغرافية في القرن العاشر يتضح بصورة أكثر جلاء من سلسلة 194 المصنفات التي تعكس طراز « المسالك والممالك ». وهذا النمط من المصنفات الجغرافية يرجع في الأصل إلى وصف للعالم الإسلامي وضعه رجل أصله من بلخ وأخذ عنه وأضاف إليه عالم من ولاية فارس بإيران ؛ وعلى هذا الأخير اعتمد رحالة أصله من بغداد ولكنه عاش طويلاً في شمال أفريقيا^(١) فصحيحه واستدرك عليه . وترتبط حلقات هذه السلسلة ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً ، ويندرج فيها من ناحية أو أخرى عدد من المصنفات الماثلة ؛ وهي لا تنفصل عن سلسلة الخارطات المرتبطة بها ابتداء من أول أثر معروف لنا وتخضع لنظام دقيق لم تجر فيه يد التبديل . ومن الطبيعي أن يكون تأثير هذه المجموعة الأصلية كبيراً جداً ؛ ويوجد مبرر كاف لأن يطلق على ممثليها الذين يرتبطون فيما بينهم ارتباطاً وثيقاً اسم « المدرسة الكلاسيكية » للجغرافيا الإسلامية . كما يستحق أن يطلق على تلك السلسلة من الخارطات التي تستند عليها أساساً هذه المصنفات اسم « أطلس الإسلام » الذي يمثل أوج ما بلغته الكارتوغرافيا Cartography (فن رسم الخارطات الجغرافية) عند العرب^(٢) .

ولا تزال غير واضحة المعالم إلى الآن في جميع تفاصيلها علاقة الحلقات الأساسية الثلاث ببعضها البعض ، على الرغم من أن دراستها قد سارت قدماً إلى الآونة الأخيرة . وفي بداية السنوات السبعينات من القرن الماضي كتب دى خويه يقول « لعله لم يعرف خلط على الإطلاق أشد من الخلط الذي يرتبط بأسماء الجغرافيين العرب الثلاثة : أبي زيد البلخي والإصطخرى وابن حوقل »^(٣) . ومن الطبيعي أن يرجع الفضل الأكبر في بدء دراسة هذه المسألة إلى دى خويه نفسه ، فهو الذي بطبعه للكتابين المعروفين لنا من هذه المجموعة ، وذلك اعتماداً على المخطوطات المعروفة لعصره ، بدأ السلسلة المشهورة « مكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum ؛ كما وأنه حاول في بحث خاص له أن يلقي ضوءاً على طبيعة العلاقة بين المؤلفين الثلاثة . وقد اتسعت المادة دون انقطاع خلال السبعين عاماً التي انقضت منذ ظهور ذلك البحث ١١ وبرز في الآونة الأخيرة جانب منهجي هام لم يكن قد وضح تماماً 195 حينما نشر دى خويه سلسلته تلك ، ذلك هو وجوب دراسة المتن والخارطات جنباً إلى جنب عند مؤلفي هذه السلسلة دون أن يفصل بينهما فاصل لأن المؤلفين أنفسهم لم يفصلوا بين الاثنين : وقد أبدى نشاطاً

فعلا في هذا الصدد مواطن لدى خويه من المعاصرين لنا ، أعنى بهذا كرامرس Kramers الذى ندين له في الأعوام الأخيرة نمجهد جبار في إلقاء ضوء على هذه المسألة التي ما تزال على الرغم من كل ذلك مستعصبة على الحل .

ومما يزيد في وعورة المسألة قلة المعلومات عن المؤلفين أنفسهم . فالمؤلف الأول ، أى الذى لم يصلنا كتابه بطريقة مباشرة ، هو الوحيد الذى توجد لدينا عنه بعض المعلومات الصحيحة . وعلى النقيض من ذلك الوضع مع المؤلفين الآخرين اللذين وصل إلينا مصنفاهما ، فإنه لم يمكن العثور إلى الآن على أية أخبار عنهما في المصادر الموجودة بين أيدينا . والمصنف الذى تبدأ به هذه السلسلة ندين به إلى عالم معروف لعصره هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي الذى ولد حوالى عام ٢٣٥ هـ = ٨٥٠ بإحدى قرى بلخ وبدأ نشاطه كعلم ثم اضطره الاهتمام بدراسة العلوم الشرعية إلى القيام برحلة إلى بغداد مركز الحضارة آنذاك فأقام بها ثمانى سنوات أدى في خلالها على ما يبدو فريضة الحج ؛ ولم تلبث ميوله أن اتخذت اتجاهاً مغايراً لما كان عليه الحال في شبابه فقد وقع تحت تأثير الفيلسوف المعروف الكندى (توفى بعد عام ٢٥٦ هـ = ٨٧٠) وأصبح من أئزم تلامذته به . وهكذا مر البلخي على نفس المدرسة التي مر بها السرخسى من قبل ، وهو أحد مؤلفي المصنفات الجغرافية المعروفين لنا . وعند رجوعه إلى بلخ لم يغادرها مرة أخرى واشتغل خاصة بمسائل الفلك والفلسفة كأستاذ الكندى وضعف لديه الاهتمام بعلوم الشريعة ، بل ثار الشك حيناً في صحة عقيدته . وقد حدث أن قامت بينه وبين الجيهانى الجغرافى وزير السامانيين علاقة وطيدة حتى نصحه الأخير بالهجرة إلى بخارى ولكنه امتنع . وشغل البلخي فترة من الزمن وظيفة كاتب لأمير بلخ أحمد بن سهل (حوالى عام ٣٠٧ هـ = ٩١٩ - ٩٢٠) الذى لم يحكم لوقت طويل ؛ وكان البلخي بوجه عام يعتبر نفسه عالماً وأديباً من المشتغلين بالتأليف ؛ وارتبط اسمه بما يقرب من ستين مصنفًا لانعرف منها إلا أسماءها ، أو وجدت في مخطوطات نادرة لم تفحص بعد . أما المصنف الضخم «كتاب البدء والتاريخ» الذى نسبته ناشره الأوروبى في بداية الطبعة إلى البلخي نتيجة لسهوه ساقته إليه بعض المصادر فقد وضح بالتالى أنه من وضع مؤلف عاش في آخر القرن العاشر هو مطهر بن طاهر المقدسى .

وفي شيخوخته وذلك حوالى عام ٣٠٨ هـ - ٣٠٩ هـ = ٩٢٠ - ٩٢١ وضع البلخي مصنفه في الجغرافيا الذى تختلف أسماؤه باختلاف المصادر ، فهو مرة «صور الأقاليم» وحيناً «أشكال البلاد» وتارة «تقويم البلدان» ؛ وهذا التباين في العنوان يدل على أن الكتاب لم يكن فيما يبدو معروفاً في صورته الأصلية حتى في العهد القريب من عهد المؤلف . وهو يمثل شيئاً أشبه بالأطلس مصححاً ببعض التوضيحات ، ويمكن الحكم عليه من ألفاظ المقدسى الذى عاش بعد ذلك بنحو نصف قرن والذى لا تزال ألفاظه هذه مصدرنا الأساسى للتعريف بكتاب البلخي :

«وأما أبو زيد البلخي فإنه قصد بكتابه الأمثلة وصورة الأرض بعدما قسمها على عشرين جزءاً

ثم شرح كل مثال واختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة ولا أوضح الأمور النافعة في التفصيل والترتيب وترك كثيراً من أمّهات المدن فلم يذكرها وما دوّخ البلدان ولا وطي الأعمال ألا ترى أن صاحب خراسان استدعاه إلى حضرته ليستعين به فلما بلغ جيّجون كتب إليه إن كنت استدعيتني لما بلغك من صائب رأيي فإن رأيي يمنعني من عبور هذا النهر ، فلما قرأ كتابه أمره بالخروج إلى بلخ ^(٤).

ومن العسير بالطبع استخلاص أية تفصيلات من مثل هذا التحليل الموجز ؛ ويمكن فقط الإحاطة قليلاً أو كثيراً بالشكل العام لكتاب البلخي من خلال التعديلات المتأخرة التي أدخلت عليه والتي يكتنف تاريخها غموض شديد . ومن الملاحظات التي أبدتها المقدسي في مواضع أخرى يمكن الوصول إلى أن أصل كتاب البلخي كان نادراً حتى في عصره ^(٥) ؛ وعلى الرغم من معرفة ياقوت بوجوده إلا أنه يقتصر على الإشارة إلى الإصطخرى وحده تقريباً ، ولعله قد وجدت في يده مسودة واحدة للكتاب ^(٦) فاعتبر أجزاء متفرقة منها فقط قديمة وترجع إلى البلخي . وقد ثبت بعد الفحص الدقيق أن بعض المخطوطات التي نسبت في فهرس المخطوطات أو حتى في الأصل إلى البلخي إنما تمثل في الحقيقة مسودات لمصنف الإصطخرى أو ابن حوقل ^(٧) .

وتوجد مادة غزيرة في متناول اليد للحكم على المصنفين الأخيرين . فإلى جانب المخطوطات الفريدة التي اعتمد عليها دى خويه في إعداد طبعته فقد شهدت الأعوام الأخيرة الكشف على ما لا يقل عن اثنتي عشرة مخطوطة ^(٨) باستنبول وحدها ، بعضها قديم جداً ؛ وكلها تؤكد ازدياد الحاجة إلى طبعة جديدة للأجزاء الأولى من « مكتبة الجغرافيين العرب » . وعلى النقيض من وفرة المادة فيما يتعلق بالمخطوطات فإن معلوماتنا عن المؤلفين لا تزال شحيحة كما كان عليه الحال من قبل ، وعلى أية حال فأقل كثيراً مما هو الشأن مع البلخي . هذا ويمكن أن نستنبط من اسم الأول منهما وهو أبو إسحق الفارسي الإصطخرى أنه من إيران الوسطى ؛ ويتضح من مطالعة كتابه ^(٩) أنه قد سافر كثيراً فزار بلاد ما وراء النهر 197 وإيران وجزيرة العرب والشام ومصر . وقد عنون كتابه على الطريقة القديمة « كتاب المسالك والممالك » وأنهى أول مسودة له وأبو زيد البلخي على قيد الحياة وذلك حوالى عام ٣١٨ هـ - ٣٢١ هـ = ٩٣٠ - ٩٣٣ ،^{١٠} غير أن كتابه قد انتشر في الشرق بوجه خاص على هيئة طوامير ترتفع إلى المسودة التي عملت حوالى عام ٣٤٠ هـ = ٩٥٠* .

والإصطخرى كغيره من جغرافيين هذه المدرسة يقتصر على وصف العالم الإسلامى وحده مقسماً إياه إلى عشرين إقليماً ، لا بالمعنى المعروف لنا عن الأقاليم كأحزمة عريضة تضم عدداً من درجات العرض (Klimata) ، بل كمنطق جغرافية واسعة أو ولايات (Regions) . وبلى الكلام العام عن « الربع المعمور » وأبعاده وعن البحار وصف جزيرة العرب وبحر فارس (مع المحيط الهندي) والمغرب (مع

* ظهرت طبعة جديدة لكتاب الإصطخرى بالقاهرة منذ وقت قصير . (المترجم)

الأندلس وصقلية) ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق وإيران الجنوبية والهند وإيران الوسطى والشمالية (مع أرمينيا وأذربيجان وبحر الخزر) ، ويختتم كلامه بوصف بلاد ما وراء النهر^(٩) . ويورد الإصطخرى عن كل قطر معلومات عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ويروى تفاصيل متفرقة عن الحاصلات والتجارة والصناعة وعن الأجناس . ومعظم التفاصيل تتعلق بالبلاد التي زارها ولكن قد يحدث أحياناً أن يكون للأوصاف الموجزة أهمية خاصة ، وقد لاحظ أماري Amari مثلاً أنه « يذكر القليل عن صقلية ولكن ما أورده جوهرى للغاية »^(١٠) ؛ ويصدق هذا القول على ما ذكره عن جزيرة القلّال بالبحر الأبيض المتوسط وهي ليست بعيدة عن سواحل فرانسوا والمرجح أنها جزيرة فراكسينيتيم Fraxinetum ، وقد احتلها العرب بين عامي ٨٨٩ و ٩٧٢^(١١) . ومعلوماته عن الصقلية رغم تناثرها وقلتها لا تخلو من بعض القيمة . ويمكن القول بأن المحاولة التي قام بها هركني Harkavi لجمع شتات هذه المادة ومقارنتها ببعضها البعض ، وذلك قبل ظهور طبعة دى خويه ، قد غنى عليها الزمن ؛ وعلى النقيض من هذا لا تزال تتمتع ببعض الأهمية مقالة المستشرق التشيكي دفورجاك Dvorak (١٨٨٩) رغمًا من افتقارها إلى التحليل الضروري . وقد وضعت رواية الإصطخرى عن الخزر أمام المؤرخين صعوبات جمة إذ أنه جمع فيها دون فائدة تذكر بين روايتين مختلفتين كما حاول أن يثبت ذلك العلامة الهنغاري كموشكو Kmoshko (١٩٢١)^(١٢) . غير أن هذه المشكلة قد حلت بعض الشيء عقب العثور على النص الأكمل لابن فضلان حيث اتضح أن القسم الخاص بالخزر الذي ينسبه ياقوت إلى ابن فضلان إنما هو في الواقع للإصطخرى .

وكان لكتاب الإصطخرى تأثير كبير لم يقف عند حد الأدب العربي وحده ، فلكتاب عدد من الترجمات الفارسية ترتفع في العادة إلى المسودة الأولى للكتاب مما دعا إلى ظهور الرأى القائل بأن الإصطخرى قد كتب في الأصل باللغة الفارسية^(١٣) . ويمتد هذا التأثير من الناحية الزمنية إلى وقت طويل ، فعندما حصلت مكتبة شاهرخ في القرن الخامس عشر على الأصل العربي للإصطخرى حفز ذلك حافظ آبرو إلى وضع مصنفه الجغرافي^(١٤) ؛ أما الترجمة التركية للإصطخرى فترجع إلى عهد السلطان محمد الثالث في حوالى عام ١٥٩٦^(١٥) .

وأما في الوسط العربي فقد أكمل عمل الإصطخرى معاصره الأصغر منه سنّاً أبو القاسم ابن حوقل الذي نعرف عنه إلى حد ما أكثر من سابقه . ومن اسمه يمكن أن ندرك أنه من مدينة نصيبين بالجزيرة ، كما يتضح من خلال ألفاظه أنه بدأ تجواله من بغداد في رمضان عام ٣٣١ هـ = مايو ٩٤٣^(١٦) متخذاً التجارة مهنة له ، ولكنه ربما كان في الحقيقة داعياً سياسياً . وقد انتظم تجواله أفريقيا الشمالية والأندلس ، وزار نابلي وبالبرمو وعرف عن كتب العراق وإيران وجزءاً من الهند . وقد ظهر الاهتمام بالجغرافيا لديه مبكراً ، ومما حفزه إلى ذلك مقابله للإصطخرى عام ٣٤٠ هـ = ٩٥١ - ٩٥٢ التي يرويها فيما يلي :

« وكان أكثر ما حدثني على هذا الكتاب وتأليفه على هذه الصورة أني كنت في حالة الحداثة شغفًا بأخبار البلدان والوقوف على حال الأمصار كثير الاستعلام والاستخبار لسافرة النواحي ووكلاء التجار وقرّاء الكتب المؤلفة فيها وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقًا وإخاله بما أسأله عنه خبيراً فأجده عالماً عند إعادة الخبر الذي اعتقد فيه صدقه وقد حفظت نسخته وتأمّلت طرقه ووصفه وأكثر ذلك باطلا وأرى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلاً ثم أعاوده الخبر الذي ألتسه منه والذكر ليسمع الذي استوصفته وأطالع معه ما صدر مع غيره في ذلك بعد رؤية وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية فتناظر الأقوال وتتناقش الحكايات وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحسه في نفسي بالقوة على الأسفار وركوب الأخطار ومحبة تصوير المدن وكيفية مواقع الأمصار وتجاور الأقاليم والأصقاع . وكان لا يفارقي كتاب ابن خرداذبه وكتاب الجيهاني وتذكرة أبي الفرج قدامة بن جعفر وإذا الكتابان الأولان قد لزماني أن أستغفر الله من حملهما واشتغالي بهما عن ما يلزمني من توخي العلوم النافعة والسنن الواجبة (١٧) ولقيت أبا إسحاق الفارسي وقد صور هذه الصورة لأرض الهند فخلطها وصور فارس فجودها وكنت قد صورت أذربيجان التي في هذه الصفة فأستحسنها والجزيرة فاستجدها وأخرج التي لمصر فاسدة وللمغرب أكثرها خطأ وقال قد نظرت في مولدك وأثرك وأنا أسألك لإصلاح كتابي هذا حيث ضللت فأصلحت منه غير شكل وعزوته إليه ثم رأيت أن أنفرد بهذا الكتاب وإصلاحه وتصويره أجمعه وإيضاحه من غير أن ألم بتذكرة 199 أبي الفرج وإن كانت حقاً بأجمعها وصدقاً من سائر جهاتها وقد كان يجب أن أذكر منها طرفاً في هذا الكتاب لكن استقبحت الاستكثار بما تعب فيه سوى ونصب فيه غيري » (١٨) .

وتحت تأثير هذه الظروف تم تأليف كتاب ابن حوقل ، وهو أيضاً يحيط بمسوداته الكثير من اللبس ، ويحمل في العادة عنوان « كتاب المسالك والممالك » بالرغم من أنه قد حفظت لنا أحياناً تسمية أخرى ترتبط بالحلقة الأساسية لهذه السلسلة وهي « كتاب صورة الأرض » . وقد رفع ابن حوقل المسودة الأولى من مصنفه إلى سيف الدولة الحمداني (توفي عام ٣٥٦ هـ = ٩٦٧) ، وترجع المسودة الثانية إلى حوالى عام ٣٦٧ هـ = ٩٧٧ (١٩) . وتمثل خطوه إلى الأمام بالنسبة للطبعة الأولى (editio princeps) لدى خويه تلك الطبعة الثانية التي نشرها كرامرس Kramers لأقدم مخطوطة لابن حوقل وهي مخطوطة استنبول التي يرجع تاريخها إلى عام ٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ أى بعد مائة عام من تأليف الكتاب . ويميل كرامرس إلى القول بوجود ثلاث مسودات للكتاب مع فوارق يسيرة بين الأولى والثالثة (٢٠) .

والدراسة المباشرة لهذا الأثر تؤكد صحة ما ذكره ابن حوقل في قصته عن مقابلته للاصطخرى ، فلدى مقارنته مع كتاب الأخير نجد أن يد التغيير والتبديل قد مست بصورة كبيرة الأقسام المفردة لمصر وأفريقيا وأسبانيا وصقلية كما أنه أجرى تعديلاً أساسياً في الأقسام الخاصة بالعراق وأرمينيا وما وراء النهر ، بينما تركت الأقسام المتعلقة بإيران بالذات دون أدنى تغيير . وقد ترسم ابن حوقل خطى السابقين

له في تنظيم كتابه ، ولكن مادة الكتاب نفسها معروضة عرضاً دقيقاً مفصلاً مع توضيح لبعض النقاط الجوهرية . ويمكن تطبيق قوله في هذا الصدد على بقية مصنفات « المدرسة الكلاسيكية » للجغرافيين العرب . قال :

« وقد فصلت بلاد الإسلام إقليماً إقليماً وصقعةً وصقعةً وكورةً وكورةً لكل عمل وبدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليماً واحداً لأن الكعبة فيها ومكة أم القرى وهى واسطة هذه الأقاليم عندى ، وأتبت ديار العرب بعد أن رسمت فيها جميع ما تشتمل عليه من الجبال والرمال والطرق وما يجاورها من الأنهار المنصبة إلى بحر فارس بفارس لأنه يحتف بأكثر ديارها وشكلت عطفه عليها ولأن بحر فارس يعطف من جزيرة مسقط مغرباً إلى مكة وإلى القلزم عن خمسين فرسخاً من عُمان ويدعى ذلك الموضع رأس الجمجمة ثم ذكرت المغرب ورسمته في وجهين وبدأت بشكل ما حاز منه أرض مصر إلى المهدية والقيروان وما في براريها من المدن وإن قلت وأعقبها بباقي صورته من القيروان والمهدية إلى أرض طنجة وازيلي ورسمت على بحره مدنه الساحلية وشكلت طريقه إلى جميع أنحاءها وكيفيتها مغربه ومشرقه في سائر جهاتها ، ثم ذكرت مصر في شكلين حسب ما جرى رسم المغرب به وبطول العمل المرتب فيهما عن حال مدنها ومواقعها على المياه الحارية في أرضها وما كان برسمها في البعد عن المياه وخططت جبالها ومياهها بخلجانها وشعبها واتصال بعضها ببعض وانفصالها إلى البحر على حياها وما يصب من ماء الفيوم إلى بحيرة أقي وتنهت ، ثم صورت الشام وأجناده وجباله ومياهه من أنهاره وبحره وما على ساحله من المدن وبحيرة طبرية وبحيرة زعروته بنى إسرائيل وموقعه من ظاهر الشام ، ثم بحر الروم وكيفيته في ذاته وشكله في نفسه وما عليه من الجانب الشرقى للروم من المدن والأعمال المحاذية لبلد المغرب وذكرت ما بقلورية للروم من المدن والأنكبردة والزنفة المعروفة ببليوتس والخليج الخارج من بحر الروم إلى الحجاز المحيط على القسطنطينية ومياه بلد الروم وأكابر أنهاره ومدنه وكنت استوفيت صورة الأندلس في أشكال المغرب فلم أعده شيئاً منها وقد رسمت في هذا البحر الجزائر المسكونة ومادعت الحاجة إلى ذكره إذ كان مسكوناً مشهوراً ، ثم ذكرت الجزيرة المشهورة المعروفة بديار ربيعة ومُضَر وبكر وكيفية دجلة والفرات عليها واشتمالها على حدودها إلى ذكر جبالها وسائر طرقها وأحوالها ، وأعقبها بصورة العراق ومياهها وبطائنها وانصباب مياهها إلى البحر وما يُفَرَّغُ وإليها من أنهارها وذكرت خوزستان على حدودها وأنهارها وما اقتضته صورتها وحالها وقنيتها بصورة فارس على تصور جميع أنهارها وبحيراتها ومواقع مدنها وصورة برها وبحرها وسهلها وجبلها وسائر طرقها وسبلها ، ثم صورت بلاد السند ومدنها وطرقها وسبلها وما يصاقبه من بلاد الهند والإسلام ، ثم تلوتها بصورة أذربيجان وشكلت ما فيها من الجبال والطرق والأنهار العذبة كالرَّسِّ والكُرِّ إلى أن رسمت بحيرة خلط وبحيرة كبودان وكلتاهما متصلتين بشيء من البحار وأثبت فيها جبال القبق ، ثم صورت الجبال وأعمالها ومواقع بلدانها على ما هى به وما انحدر منها بدخول بعض

مفازة خراسان وفارس على حدودها وذكرتُ إليها صورة الجبل والديلم وطبرستان وما يليها من بحر الخزر وبعض سبله إذ لم أحط علماً بكليته وأتبعها بصورة بحيرة طبرستان وجزيرتها ومصب ما إليها من المياه وما يصاحبها من الجبال وكية ما للإسلام منها وحدودها ما لغيره من أقطارها وشكلت المفازة التي بين فارس وخراسان وجميع ما فيها من الطرق إلى النواحي المجاورة لها والمضافة إلى حدودها وما يليها من أعمال سجستان على ما يجاورها من بلاد الغور وجبالها ٥ ومصب مياهها إلى بحيرة زَرَه وصورت خراسان وما في 201 ضمنها من طخارستان وجبال الباميان وطوس وقوهستان بجميع مياهها الجارية وجبالها المشهورة ورمالها وطرقها المعروفة ، ثم صورت نهر جيحون وما وراءه من أعمال بخارى وسمرقند وأشروسنه واسبيجاب والشاش وخوارزم إلى جميع ما يشتمل عليه من المياه ويحيط به من الطرق والمسالك .

فهذه جميع الأرض عامرها وغامرها وهي مقسومة على الممالك وعماد ممالك الأرض أربع فأعمرها وأكثرها خيراً وأحسنها استقامة في السياسة وتقديم العمارات ووفور الحبايات مملكة إيران شهر وقطبها إقليم بابل وهي مملكة فارس ؛ وكان حد هذه المملكة في أيام العجم معلوماً فلما جاء الإسلام أخذت من كل مملكة بنصيب فأخذت من مملكة الروم الشام ومصر والمغرب والأندلس وأخذت من مملكة الصين ما وراء النهر وانضمت إليها هذه الممالك العظيمة ، ومملكة الروم يدخل فيها حدود الصقالبة ومن جاورهم من الروس والسريز واللان والأرمن ومن دان بالنصرانية ومملكة الصين يدخل فيها سائر بلدان الأتراك وبعض التبت ومن دان بدين أهل الأوثان منهم ومملكة الهند يدخل فيها السند وقشмир وطرف من التبت ومن دان بدينهم ، ولم أذكر بلدان السودان في المغرب والبلج و الزنج ومن أعراضهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء هؤلاء من هذه الخصال ولاحظ لهم في شيء من ذلك فيستحقون به أفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك ، غير أن بعض السودان المقاربين هذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحكم ويقاربون أهل هذه الممالك كالنوبة والحبشة فإنهم نصارى يرتسمون مذاهب الروم وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة لأن أرض النوبة مصابة أرض مصر والحبشة على بحر القلزم وبينهما وبين أرض مصر مفاوز معمورة فيها معادن الذهب ويتصلون بمصر والشام من طريق بحر القلزم ، فهذه الممالك المعروفة ولما زادت مملكة الإسلام بما اجتمع إليها من طرائف هذه الممالك المذكورة شرفت وعظمت ٥ (٢١) .

من هذا يتضح أن ابن حوقل ، شأنه في هذا شأن بقية ممثلي المدرسة الكلاسيكية ، قد حصر اهتمامه على وجه التقريب في وصف « دار الإسلام » خاصة إيران ؛ ولكنه كان يتجاوز في حالات معينة بالطبع نطاق العالم الإسلامي ، فمثلاً لا يخلو من بعض القيمة روايته عن هزيمة الروس للبغاار والخرز (٢٢) حوالى عام ٥٣٥٨ = ٩٦٩ ٥ حين كان المؤلف نفسه آنذاك بجران . وهذا الحادث يتفق مع حملة اسقياوسلاف 202 Sviatoslav أمير كييف Kiev على الخزر عام ٩٦٥ (٢٣) ؛ وقد ظهر في الآونة الأخيرة رأى يقرن

هذا الحادث بحملة هارالد إيركسون Haralde Eriksson ملك النرويج^(٢٤) . وإذا تركنا جانباً نقاط التشابه العديدة فإنه يجب الاعتراف بأن ابن حوقل هو الخبير الأول من بين جغرافيين هذه المدرسة في شتوتن المغرب^(٢٥) ؛ ويتضح هذا بصورة أقوى من خلال المخطوطة التي نشرها كرامرس وذلك لدى المقارنة بطبعة دي خويه ، ففيها يرد وصف مفصل لمنطقة البجة وتاريخهم وإريتريا Eritrea^(٢٦) مع ذكر أسماء ما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر ؛ ويصف الواحات ثم يورد وصفاً مفصلاً للغاية لموقع صقلية^(٢٧) . وروايته عنها تمثل أهمية خاصة كما أثبت ذلك منذ منتصف القرن الماضي المستشرق أماري Amari^(٢٨) أكبر خبير بهذه البلاد والذي قدم لنا تحليلاً دقيقاً لهذه المادة^(٢٩) . وكثيراً ما انعكست المصالح التجارية لابن حوقل في تضاعيف كتابه ؛ وتقدم المادة التي جمعها لوحة طريفة لحضارة العالم الإسلامي في ذلك العهد . فهو قد التقى مثلاً في سجلماسة بجنوبي مراكش بتجار عراقيين من أهل البصرة والكوفة المقيمين هناك ، ويمكن الحكم على مدى اتساع معاملاتهم التجارية من أنه قد أبصر صكاً بدين على أحد سكان واحة أودغشت بداخل أفريقيا قيمته اثنان وأربعون ألف دينار^(٣٠) .

وتبرز الميول السياسية لابن حوقل من وقت لآخر جلية للعيان ، ومن الطريف في هذا الشأن موقفه من أمويي الأندلس فهو يقدم لنا في مصنفه صورة من أدق الصور للأندلس في العصر الأموي . ويرى دوزي Dozy في ابن حوقل جاسوساً للفاطميين بلاريب^(٣١) ؛ غير أن ليثي بروفنسال Levi-Provençal وهو أحد كبار الخبراء المعاصرين عن أسبانيا الإسلامية لا يرى فيه هذا الرأي القاطع إنما هو في رأيه على أية حال من عملاء العباسيين أو الفاطميين . والأسباب التي دفعت إلى هذه التهمة تبدو من طيات كتابه إذ يمكن إبطار عواطفه الفاطمية في أنه كان من أوائل من قدموا معلومات وفيرة عن قرامطة البحرين الذين عرفهم فيما يبدو جيداً وعن كشب^(٣٢) . وفوق ذلك فإن ابن حوقل قد عاش طويلاً بقرطبة 204 في عهد عبد الرحمن الثالث أي عهد ازدهار خلافة الأمويين بالأندلس ؛ وهو يورد معلومات وافية عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالأندلس ويبين المحاصيل المصدرة إلى المغرب وإلى مصر . وله معرفة جيدة بتجارة الرقيق الأوروبي التي كان يقوم بها تجار منقطعون لها ، لا في الأندلس وحدها بل في جميع بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط . ويقدم ابن حوقل صورة سلبية عن شجاعة أهل الأندلس وعن نظامهم الحربي والإداري مبدئياً دهشته لعجزه عن إدراك السر في احتفاظهم باستقلالهم حتى ذلك الوقت دون أن يخضعوا لحاكم من حكام المشرق الإسلامي ؛ ويمكن أن يؤخذ قوله بأنه يرى ذلك أمراً سهلاً بمثابة إيعاز للفاطميين أو العباسيين بالتدخل^(٣٣) . غير أن ابن حوقل على أية حال لا ينفي الجانب الإيجابي للحضارة الأندلسية فهو يعترف بأن الخزانة العامة كانت عامرة بصورة لا يمكن مقارنتها في المشرق إلا بالحمدانيين في حلب ، أما عاصمتهم الزاهية فيدعوها ببغداد الثانية ويصف بالتفصيل جمال مدينة الزهراء ورونتق حي الرصافة^(٣٤) .

فليس غريباً أن يكتسب كتاب ابن حوقل في المغرب صيتاً أوسع مما اكتسبه في المشرق ، خاصة في الأندلس . ويبدو أنه لم تنقل إلى الفارسية سوى مسودة الإصطخرى وحده^(٣٥) ، ولكن في مقابل هذا فقد عرف منذ منتصف القرن الثاني عشر مختصر ابن حوقل المعمول في الأندلس والذي يوجد في مخطوطة بباريس ويحوى إضافات كثيرة ترجع إلى عهد الشخص الذي اختصره وذلك في الفترة بين عامي ٥٣٤ هـ = ١١٣٩ و ٥٨٠ هـ = ١١٨٤^(٣٦) . وقد أضيفت إلى الأطلس المرفق بهذا المختصر خارطة للنيل مأخوذة من خارطة كتاب الخوارزمي^(٣٧) مع زيادة مناسبة في المتن . وفي القرن الثالث عشر هاجم المؤرخ والجغرافي الأندلسي المشهور ابن سعيد (توفي عام ٦٨٥ هـ = ١٢٦٨ أو ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤) آراء ابن حوقل في أخلاق عرب الأندلس مهاجمة عنيفة^(٣٨) ، ولعل هذا ما حفزه إلى أن يكمل كتاب ابن حوقل فيما يتعلق بالأبواب الثلاثة التي أفردتها للأندلس وصقلية وأسبانيا الغربية^(٣٩) .

ويقدم ابن حوقل مثالا حياً لمحاولة المدرسة الكلاسيكية في الجغرافيا أن تقصر موضوعها على « دار الإسلام » ، وهو يبين ذلك في قوله :

« ومملكة الإسلام في حيننا هذا ووقتنا فإن طولها من حد فرغانة حتى يقطع خراسان والحبال والعراق وديار العرب إلى سواحل اليمن فهو نحو خمسة أشهر^(٤٠) وعرضها من بلد الروم حتى يقطع الشام والجزيرة والعراق وفارس وكرمان إلى أرض المنصورة على شط بحر فارس نحو أربعة أشهر وإنما تركت في ذكر طول الإسلام حد المغرب إلى الأندلس لأنه كالكم في الثوب وليس في شرقي المغرب ولا في غربيه إسلام لأنك إذا جاوزت مصر في أرض المغرب كان جنوبي المغرب بلاد السودان وشماله بحر الروم ثم أرض الروم ، ولو صلح أن يُجعل طول الإسلام من فرغانة إلى أرض المغرب والأندلس لكان مسيرة ثلثمائة مرحلة^(٤١) .

إن محاولة قصر المادة على « بلاد الإسلام »^(٤٢) مع إهمال الأقطار الواقعة خارجها تعتبر من أبرز مميزات المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية ؛ وبالطبع فقد حاول الكتاب المعروفون لنا جيداً من أمثال ابن خردادبه واليعقوبي وابن الفقيه وابن رسته ثم المسعودي إعطاء وصف منتظم لتخطيط العالم الإسلامي ونظامه الإداري مع الاهتمام خاصة بوصف طرق المواصلات إلا أنه لم يكن من منهجهم الاقتصار على البلاد الإسلامية وحدها بل تكلموا عن البلدان غير الإسلامية كذلك ابتداء من الشرق الأقصى إلى الإمبراطورية البيزنطية ؛ كما وأنهم أولوا نفس القدر من الاهتمام لقصص العجائب بجميع أنواعها^(٤٣) . أما المدرسة الكلاسيكية وإن كانت أكثر تشدداً في أسلوبها وأكثر تمسكاً بالمنهج العلمي إلا أنها في مقابل ذلك كانت أميل إلى تضيق أفقها الجغرافي بعض الشيء .

والطابع الثاني الأكثر تمييزاً لهذه المدرسة هو الدور الذي لعبته فيها الخارطات . وقد سبق أن نوهنا في حينه وذلك بصدد الكلام على أول رسالة في هذه السلسلة وهي مصنف أبي زيد البلخي أنه يمكن

من بعض النواحي اعتبارها أيضاً توضيحاً فحسب لمجموعة الخارطات . ومن المعلوم أن خارطات هذه الحلقة تسير جميعها على نمط واحد وتتشابه تمام التشابه لأنها في الواقع ليست سوى مجموعة معدلة لخارطات « أطلس الإسلام » ، أما المصنفات الجغرافية العربية من عمل العصور التالية لذلك فإنها باستثناء الإدريسي لا تضم سوى خارطات منفردة مستقلة عن بعضها البعض . وهذا بالطبع لا يعني أن الخارطات المنفردة لم تعرف في هذا العصر أيضاً ، بل لأنها في الواقع كانت معروفة للعرب قبل ذلك . وقد مر بنا الكلام على 206 خارطة الديلم التي عملت **للحجاج بن يوسف الثقفي** ، كما توجد أيضاً معلومات مهمة عن خارطة البطيخة ، وهي منطقة المستنقعات قرب البصرة ، رفعت وفقاً لرواية البلاذري^(٤٤) إلى الخليفة المنصور فيما يتعلق بتقسيم الأراضي^(٤٥) . ويذكر صاحب « الفهرست »^(٤٦) أن الفلكي المشهور ثابت بن قرة (توفي عام ٢٨٨ هـ = ٩٠١) نسب لنفسه رسماً للأرض (« صفة الدنيا ») من صنع حراني آخر ، وقد أبصر مؤلفنا هذا الرسم بعيني رأسه على نسيج ديبقي* خام قد لون بألوان ثبتت بالشمع . وهناك رواية مماثلة لهذه مؤداها أنه لما نُهبت خزانة الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ هـ = ٤٨٧ هـ - ١٠٣٦ هـ = ١٠٩٤) وجدت خارطة كانت قد طرزت على نسيج تستري** في عام ٣٥٣ هـ = ٩٦٤ للمعز لدين الله الفاطمي وبُيِّنَ عليها مختلف البلدان والجبال والبحار والأنهار والمدن والطرق وطرزت أسماؤها بالذهب والفضة والحريز وكانت تقدر على ما يقال باثنين وعشرين ألف دينار^(٤٧) . ومن العسير بالطبع التكهن بما كانت عليه هذه الخارطات وما هو نوعها ، غير أنه ليس بمستبعد أن تكون من صنع أيد محلية . وعلى النقيض من هذا فإنه يقترن بالتراث العلمي التأليفي خارطات معروفة لنا في نماذج محدودة وذلك في الترجمة المصلحة لبطلميوس التي عملها محمد الخوارزمي ، وهي التي عاجلنا الكلام عليها بالتفصيل في حينه ؛ وقد افترض العلماء بالطبع أن خارطاته تسير إلى حد ما وفقاً لمنهج بطلميوس الذي لا يمثله في الوسط العربي المتأخر سوى الإدريسي .

وخارطات المدرسة الكلاسيكية لا علاقة لها البتة بهذه النماذج البطلميوسية إذ هي تمثل « أطلس الإسلام » الذي يعتبر نسيج وحده والذي يحوى دائماً وفي نظام لا يتغير إحدى وعشرين خارطة تتتابع بالصور الآتية : أولاهن « خارطة العالم المستديرة » ، تليها خارطات جزيرة العرب وبحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم ، ثم أربع عشرة خارطة تمثل الأجزاء الوسطى والشرقية للعالم الإسلامي (الجزيرة والعراق وخوزستان وفارس وكرمان والسند وأرمينيا ومعها ارّان وأذربيجان أيضاً والجبال وكيلان ومعها طبرستان وبحر الخزر وصحراء فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر)^(٤٨) . ومما يؤكد صحة الرأي القائل بأن هذا الأطلس إيراني الأصل أن كل مقاطعة إيرانية تظهر فيه بخارطة مستقلة ، في الوقت

* ديبقي بلد بمصر بين الفرما وتنيس خربت الآن ، وكانت تشتهر بصناعة الثياب . (المترجم)

** تستر أو شستر بلد بإيران . (المترجم)

الذى خرج فيه الغرب بعدد أقل من الخارطات تنتظم مساحات جغرافية أكثر اتساعاً من رصيفتها الإيرانية . والغرض الأساسى من الأطلس هو تصوير «العالم الإسلامى» بالذات وذلك وفقاً لمفهوم هذا اللفظ عند الإصطخرى وابن حوقل كما اتضح من الشذرة التى أوردناها منذ قليل^(٤٩) .

208

ولا يزال الغموض يكتنف الظروف التى أحاطت بظهور «أطلس الإسلام» ، ويميل اشبرنجر Sprenger^(٥٠) ونالينو Nallimo^(٥١) ، وذلك استناداً إلى إشارة مهمة وردت بكتاب «الفهرست»^(٥٢) ، إلى الاعتقاد بأن أبا زيد البلخى قد اعتمد فى الأصل على الخارطات التى وصفها الفلكى أبو جعفر الخازن . غير أن هذا الفرض لا يكاد ينهض على أساس ، فالخازن قد توفى على ما يبدو بعد عام ٣٥٠ هـ - ٩٦١^(٥٣) أبى أنه كان أصغر سنّاً من البلخى بكثير ، أضف إلى هذا أنه لا توجد أية علاقة بين الخارطات نفسها وبين الجغرافيا الفلكية ، تماماً كما هو الشأن مع متنّى الإصطخرى^(٥٤) وابن حوقل^(٥٥) ؛ هذا إلى جانب خلوها من أى أثر للتقسيم إلى سبعة أقاليم المأخوذ عن جغرافى المدرسة الرياضية ، بل إن لفظ «إقليم» نفسه يستعمل فى هذا الصدد للدلالة على المنطقة الجغرافية (Region) التى تصورها الخارطة . وجميع خارطات هذه المجموعة مستقلة كل واحدة عن الأخريات ولا يمكن وصلها ببعضها البعض لتكوين خارطة عامة ، كما وأنه لا يوجد فيها أى أثر لخطوط الطول والعرض . ومما يؤكد مرة أخرى انعدام الصلة بينها وبين الجغرافيا الفلكية هو أنه لا علاقة لها بالذات بخارطات الخوارزمى ؛ وربما كانت الفكرة الأساسية التى قامت عليها هى تصوير طرق المواصلات .

ويسوقنا نظام توزيع هذه الخارطات إلى الافتراض بأنها ترجع فى أصلها إلى «أطلس إيران» القديم ولكن جرت فيه يد التعديل بصورة طفيفة ليتفق مع حاضر العالم الإسلامى آنذاك ، ثم أضيفت خارطة العالم والبحرين إلى خارطات المقاطعات الإيرانية الأصلية ؛ وربما ارتبطت خارطة العالم هذه بالخارطة «المأمونية» التى سبق الكلام عليها . أما بقية الخارطات فهى تمثل إما خارطات المقاطعات القديمة للدولة الساسانية وإما خارطات لمقاطعات كانت تخضع حيناً من الدهر لتلك الدولة على نحو ما ، مثل بلاد العرب وأرمينيا وسواحل بحر قزوين وما وراء النهر وربما السند أيضاً . أما الشام وفلسطين فقد كانتا بالطبع من أراضي الدولة الرومانية الشرقية ولكن نظراً لأنهما كانتا تمثلان معبراً أساسياً للمواصلات يربط إيران بالغرب وبالبحر الأبيض المتوسط فقد نالتا أهمية خاصة بالنسبة للساسانيين . من هذا يتضح أن الأطلس قد وضع فى الأصل من أجل الإمبراطورية الساسانية القديمة ولم تمسه يد التعديل والتحويل إلا قليلاً ليتفق مع حاجة المسلمين فى القرن العاشر^(٥٦) . وقد لوحظ أن تقسيم الأقطار المختلفة إلى

209

مقاطعات يتفق مع الطريقة التى اتبعها البلاذرى عند الكلام على فتوحها^(٥٧) .

أما الخارطات نفسها فيمكن القول على وجه العموم بأنها تدل على معرفة بالحقائق الجغرافية أدق مما كان عليه الحال فى أوروبا لذلك العهد ، الأمر الذى يمكن الحكم عليه من خارطة الراهب الإسباني

للقرون الثامن بياتوس Beatus^(٥٨) . ويلاحظ أن الخارطات العربية خلو من صور الناس والحيوانات التي كانت تحفل بها الخارطات الأوروبية التي وضعت في العصور الوسطى ، ولكن في مقابل هذا بدا واضحاً في « أطلس الإسلام » بوجه خاص ، وفي خارطة العالم المستديرة بالذات ، الجنوح إلى تصوير السواحل والأنهار تصويراً هندسياً ؛ ففي بعض خارطات الإصطخرى مثلاً يصور البحر الأبيض المتوسط في شكل كروى أو إهليلجى تقريباً^(٥٩) . وخارطة العالم المشار إليها قد نالت انتشاراً واسعاً في الأدب الجغرافى المتأخر ويمكن التعرف عليها دون صعوبة تذكر خلال جميع الرسوم التي نقلها القزويني وابن الوردي في القرنين الثالث عشر والخامس عشر وكذلك في خارطات الإدريسي المستديرة التي تنتمي إلى مدرسة أخرى ؛ بل وربما تعتمد عليها أيضاً الخارطة المستديرة الطريفة لمخطوطة كتاب محمود الكاشغري الموجودة باستنبول ، وهو مؤلف من رجالات النصف الثاني للقرن الثاني عشر^(٦٠)

وهناك احتمال كبير في أن يكون العرب قد عرفوا في العصر الذي وضع فيه « أطلس الإسلام » خارطات من أصل آخر لا ترتبط به ويتردد ذكرها حيناً بعد حين في مصادر مختلفة . فالمقدسى الذي سيرد الكلام عليه بعد قليل يذكر عرضاً أنه أبصر في بعض مكنتات الأمراء والأفراد^(٦١) ما لا يقل عن أربع خارطات . ومن العسير الحكم من هذه الملاحظات المتناثرة على أصل هذه الخارطات وصفها وتأثيرها على الخارطات التالية ، أما غيما يتعلق « بأطلس الإسلام » فإنه توجد لدينا مادة وفيرة ، وبالرغم من أن تفاصيل كثيرة قد بقيت خافية علينا إلا أننا نستطيع بكل اطمئنان أن نعهده الخطوة الثانية والأهم في تاريخ الكارتوغرافيا العربية . أما الخطوة الثالثة والأخيرة فتمثلها خارطات الإدريسي المشهور .

وكما هو الشأن مع الخارطات فإنه يحيط بمتن مصنفات المدرسة الكلاسيكية عدد من المشاكل المتعلقة ؛ والأمر الذي لا يتطرق إليه الشك هو أن توزيع المادة الجغرافية فيها يعتمد اعتماداً تاماً على الخارطات ويخضع بصفة عامة لمنهج صارم محدد ؛ فيبدأ وصف كل منطقة بالكلام على المدن والأنهار فالجبال فالسكان ، ويعقب ذلك وصف طرق المواصلات . ومثل هذا الترتيب ملائم للغاية لأنه يفسح المجال لضم أية كمية من المادة الجديدة المأخوذة عن الرحالين وعن الوثائق الرسمية أو التي تجمعت بنتيجة لنمو 210 المادة التاريخية || أو الموجودة في مظان أخرى . ولعل فيما زاده ابن حوقل على الأقسام المتعلقة بأفريقيا وأسبانيا ما ينهض مثلاً حياً لهذا^(٦٢) .

وآخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية هو المُقَدَّسى الذي يعتبره اشبرنجر « أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة »^(٦٣) . وإذا شاب هذا رأى بعض المبالغة من جانب عالم كان من أوائل من بحثوا في هذا الموضوع ، وهو الذي اكتشف أول مخطوطة لمصنف المقدسى ، إلا أنه يمكن أن نسلم دون تحفظ برأى العالم المعاصر كرامرس Kramers الذي يرى في المؤلف أكثر الجغرافيين العرب إصالة وفي المصنف نفسه واحداً من أكثر المصنفات الجغرافية في الأدب العربى قيمة^(٦٤) . وفي تحليله للكتاب يستدرك اشبرنجر

على نفسه بالكثير من الصواب فيقول «ولا أعنى بذلك أن كتابه في الجغرافيا يفوق المؤلفات الحديثة في هذا الفن ، إذ يعوزه من أجل ذلك تجربة الأجيال التالية . ولكن من المحتمل أنه لم يسبقه شخص في اتساع مجال أسفاره وعمق ملاحظاته وإخضاعه المادة التي جمعها لصياغة منظمة » (٦٥) .

ولعل اسمه في حاجة إلى بعض التوضيح ، فهو كمعظم المؤلفين العرب غير معروف باسمه الكامل الذي يرد على صفحة العنوان بإحدى مخطوطات كتابه (٦٦) وهو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي البشاري ؛ ولكنه اشتهر في الغالب بإحدى نسبتيه الأخيرتين . والأولى منهما ترتبط بالاسم الذي أطلقه العرب على أورشليم التي إلى جانب «القدس» تدعى أيضاً «بيت المقدس» أو «بيت المقدس» ، هذه الصيغة الأخيرة هي التي يتمسك بها اللغويون المتشددون (٦٧) ولا تزال تحتفظ بها إلى يومنا هذا إحدى الأسر العربية الكبرى وهي أسرة المقدسي (ينطقه العامة غالباً بضم الميم) ؛ غير أن صيغة المقدسي واسعة الانتشار كذلك ؛ ولعل المؤلف نفسه يشير إلى هذه الصيغة الأخيرة في قطعة شعرية يختم بها كتابه حيث يُجرى لعباً بالألفاظ حول تعبير «حكمة مقدسة» (٦٨) .

وياقوت في القرن الثالث عشر كان يدعوه في معظم الأحوال بنسبته البشاري وأحياناً بأسمائه الأخرى مثل ابن البناء مثلاً :

والاسم الأخير يرتبط بتاريخ حياته ، فقد ولد المقدسي في عام ٣٣٥ هـ = ٩٤٦ - ٩٤٧ ببيت المقدس وكان حفيداً لبناء اشتهر ببناؤه لميناء عكا في عهد أحمد بن طولون ؛ وتنعكس في كتاب حفيده نفسه بين آونة وأخرى ميوله المعجارية التي ربما ورثها عن جده . أما أسرة أمه فتنتسب إلى قرية بيتر من أعمال 211 قومس على مقربة من حدود خراسان وقد يسرت له عوامل النسب والقربة التعرف على نصف العالم الإسلامي ، ودفعه ولعه بالأسفار إلى زيارة جميع أنحائه باستثناء الأندلس والسند وربما سجنستان أيضاً . ويلاحظ أنه قد زار صقلية كما أثبت ذلك أماري Amari الذي حلل روايته عن تلك الجزيرة (٦٩) ؛ أما معلوماته عن الأندلس فقد نقلها كما يذكر هو نفسه عن حاجين التقى بهما في مكة عام ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ (٧٠) . ولكن معلوماته عنها كما بين دوزي Dozy (٧١) يسودها بعض الاضطراب وتفتقر إلى الكثير من الوضوح . ويلاحظ منها أن المؤلف لعدم معرفته المباشرة بتلك البلاد لم يكن يوسعه أن يفهم دائماً ما يروي له ؛ وزغماً عن هذا فإن روايته هذه مفيدة بل وقيمة جداً في بعض الأحيان .

ونتيجة لرحلاته الواسعة واستفهاماته العديدة ونشاطه الجهم في محيط الأدب والكارتوغرافيا فقد استطاع المقدسي وهو في سن الأربعين أن يضع كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» . ويبدو أن الكتاب قد وجد في مسودتين ترتفع إحداهما وفقاً لألفاظ المؤلف نفسه إلى عام ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ - ٩٨٦ (٧٢) ، أما الثانية وهي التي استعملها ياقوت فقد أكلت بعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ وذلك في عام ٣٧٨ هـ = ٩٨٨ - ٩٨٩ (٧٣) . ولا يخلو من مغزى بالنسبة للأوضاع السياسية في ذلك العهد أنه رفع المسودة الأولى

إلى آل سامان بينما قدم الثانية إلى الفاطميين . والمسودتان ثنعاكسان بوضوح تام في المخطوطتين المعروفتين لدى الدوائر العلمية واللتين ترتكز عليهما الطبعة العلمية الموجودة بين أيدينا الآن^(٧٤) . وغير معروف عام وفاة المؤلف على وجه التحديد ولكن من الراجح أن المقدسى توفي في أواخر القرن العاشر وذلك حوالى عام ٣٩٠ هـ = ١٠٠٠ .

وفي أحد فصول مقدمته الطويلة كما وأيضاً في استطرادات ذات طابع شخصي في صلب الكتاب يحدثنا المقدسى عن منهجه في التأليف . ولانملك إلا الاعتراف بأنه قد أبدى في هذا الصدد الكثير من التمهيص والتدقيق في المنهج . قال : « اعلم أننى أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية وتحريت جهدى الصواب واستعنت بفهم أولى الألباب وسألت الله عز اسمه أن يجنبني الخطأ والزلل ويبلغنى الرجاء والأمل فأعلى قواعده وأرصفت بنيانه ما شاهدته وعقلته وعرفته وعلقته وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان ومن قواعده أيضاً وأركانه وما استعنت به على تبيانه سؤال ذوى العقول من الناس ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال في الأطراف التى بعدت عنها 212 ولم يتقدر إلى الوصول إليها فما وقع عليه اتفاقهم أثبتته وما اختلفوا فيه نبذته وما لم يكن له بدء من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلى أسندته إلى الذى ذكره أو قلت زعموا ووشحته بفضول* وجدتها في خزائن الملوك .

وكل من سبقنا إلى هذا العلم لم يسلك الطريق التى قصدتها ولاطلب الفوائد التى أردتها ... فهذا ما وقع إلينا من المصنفات في هذا الباب بعد البحث والطلب وتقليب الخزائن والكتب وقد اجتهدنا في أن لا نذكر شيئاً قد سطره ولا نشرح أمراً قد أو روده إلا عند الضرورة لئلا نهضس حقوقهم ولا نسرق من تصانيفهم مع أنه لايعرف فضل كتابنا هذا إلا من نظر في كتبهم أودوخ البلدان^(٧٥) وكان من أهل العلم والفطنة . ثم لى لا أبرئ نفسى من الزلل ولا كتابى من الخلل ولا أسلمه من الزيادة والنقصان ولا أفلته من الطعن على كل حال »^(٧٦) .

يتضح جلياً من هذا القول أن المقدسى يقف موقف الناقد بل والمتعسف أحياناً من السابقين له في هذا المضمار ؛ وهو يؤكد أكثر من مرة فضل كتابه على كتب الآخرين دون أن يبذل جهداً في إخفاء فخره واعتداده به . وفي استطراد له في وسط الكتاب ، وذلك في الفصل المفرد للمغرب ، كتب يقول : « فإن قال قائل إنك تركت كثيراً من العجائب في هذا الإقليم لم تذكرها قيل له إنما تركنا ما ذكره من قبلنا في تصانيفهم ومن مفاخر كتابنا الإعراض عما ذكره غيرنا وأوحش شيء في كتبهم ضد ما ذكرنا ألا ترى أنك إذا نظرت إلى كتاب الجيهانى وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خردادبه وبناءه عليه وإذا نظرت في كتاب ابن الفقيه فكأنما أنت ناظر في كتاب الجاحظ والزيج الأعظم وإذا نظرت في كتابنا

* يفضل كراتشكوفسكى قراءتها فصول ، وهكذا يترجمها . (المترجم)

وجدته نسيح* وحده يثما في نظمه (٧٧) ولو وجدنا رخصة في ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به ولكن لما بلغنا الله تعالى أقاصي الإسلام وأرانا أسبابه وأهملنا قسمته وجب أن ننهي ذلك إلى كافة المسلمين ألا ترى إلى قوله تعالى قل سِيرُوا في الأرض أفلم يسيروا في الأرض فينظروا وفيما يذكر عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر» (٧٨) .

وينضم كتاب المقدسي إلى السلسلة التي بدأها أبو زيد البلخي ، ويمكن اعتباره آخر ممثل للمدرسة الكلاسيكية الإسلامية بالمعنى الدقيق . وتنعكس صلته بهذه المدرسة في الخارطات أكثر مما في المتن نفسه ؛ وخارطاته تعيد إلى الذكرة الطابع البدائي لخارطات الإصطخرى ويلاحظ فيها تقدم المعلومات الجغرافية الذي ينعكس بوضوح في الكتاب نفسه . أما تقسيم المناطق عنده — ويطلق عليها كذلك اسم أقاليم — فيختلف بعض الشيء عما عليه الحال في «أطلس الإسلام» ، ولكن الفرق بين المشرق والمغرب واضح جداً لديه . وهو يمس أحياناً معطيات الجغرافيا الفلكية ولكن مسأً رقيقاً (٧٩) ، كما وأنه يقصر وصفه على العالم الإسلامي شأنه في هذا شأن جميع ممثلي المدرسة الكلاسيكية ، واضعاً في اعتباره أمرين فحسب كما يقول هو نفسه :

« ولم نذكر إلا مملكة الإسلام حسب ولم نتكلف ممالك الكفار لأنها لم ندخلها ولم نر فائدة في ذكرها بل قد ذكرنا مواضع المسلمين منها » (٨٠) .

لهذا فلا نجد أية معلومات لديه عن أوروبا الشرقية أو سواحل البحر الأسود ؛ غير أن وجود المسلمين بتلك الأصقاع يضطره أحياناً إلى الكلام عن البلغار والخزر (٨١) .

والفصول الأولى من الكتاب التي بمثابة مدخل إليه طويلة بعض الشيء ولا تخلو من الأصالة عند المقارنة بكتب السابقين له ، إذا تنعكس فيها شخصيته واضحة للعيان (٨٢) ؛ ومنها يستدل على أنه قد أعاد النظر في المسودة بحيث يصبح من العسير تتبع الخطة في كتابه . ويلى المقدمة التي اقتبسنا منها عدة مرات في صلب كتابنا هذا وصف البحار والأنهار مع محاولة لربط وصف البحار كما هي العادة بنظرية مذهب البحرين . أما الفصل الذي يعقده للكلام على أسماء الأماكن (Торопоту) فيتناول فيه الحديث على المواضيع المختلفة التي يجمع بينها اسم واحد والموضع الواحد الذي يحمل عدة أسماء . ويلى هذا فصلان يحويان وصفاً موجزاً لخصائص «الأقاليم» المختلفة والمذاهب الإسلامية . ويعترض السرد العام حكايته المشهورة للمغامرات التي مرت عليه خلال أسفاره وتجوالاته والتي يعرض لنا فيها لوحة من أمتع اللوحات التي تصور حياة المسلمين في ذلك العهد رغمًا من أن عرضه لا يخلو من الزهو والفخر بالنفس .

وأول من لفت الأنظار إلى هذه الحكاية هو دى خويه (١٨٧٥) الذي ترجمها إلى الهولندية ترجمة كاملة بالتقريب . ومنذ ذلك الحين بدأت تتوالى ترجمات أقسام منها بقلم كريمر (Kremer) (١٨٧٧) ونالينو

* يفضل كراتشكوفسكى قراءتها «تسيح» كما ورد بالأصل . (المترجم)

214 Nallino (١٨٩٥) ومؤلف هذا الكتاب (١٩٣٧) وغيرهم . وقد ظهرت لها ترجمة كاملة بقلم رانكنغ Ranking وأزو Azoo (١٨٩٧) ثم أخيراً بقلم سوفاجيه Sauvaget (١٩٤٦) (٨٣) . وهذه الحكاية مكتوبة في لغة مسجوعة تحفل بالكثير من التعابير النادرة والإشارات المقتضبة لذا فإنها تمثل أنموذجاً طريفاً لأسلوب المقدسى ويبرز فيها ميله الواضح إلى السجع والنثر المقفى . وإن الصعوبات التي تعترض فهم هذه القطعة قد جعلت من ترجمتها أمراً عسيراً ولكن على أية حال ليس بالدرجة التي تقف حائلاً دون ترجمتها في الظروف المعاصرة . وإليك النص الكامل لها* :

« ذكر ما عاينت من الأسباب^(٨٤) . اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا في هذا الباب وإن كانت مختلفة غير أن أكثرها بل كلها سماع لهم ونحن فلم يبق لإقليم إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وقد عرفناه ، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر في الغيب فانتظم كتابنا هذا بثلاثة أقسام أحدها ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره ، وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمها ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم ولا مذكرو بلد إلا وقد شهدتهم ، حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب ولقد سُمِّيتُ بستة وثلاثين اسماً دُعيتُ وخوطبتُ بها مثل مقدسى وفلسطينى ومصرى ومغربى وخراسانى وسلمى ومقرئى وفقهه وصوفى وولى وعابد وزاهد وسيّاح وورّاق ومجلّد وتاجر ومذكّر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقى وبغدادى وشامى وحنيئى ومتوّدب وكريّ ومتقفّه ومتعلم وفرائضى وأستاذ ودانشومند وشيخ ونشاسته وراكب ورسول ، وذلك لاختلاف البلدان التي حللتها وكثرة المواضع التي دخلتها ، ثم إنه لم يبق شيء مما لحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة فقد تفقّهت وتأدّبت وثرهدت وتهيّدت وفقهت وأدّبت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر وأمت في المساجد وذكّرت في الجوامع واختلّفت إلى المدارس ودعوت في المحافل وتكلّمت في المجالس | وأكلت مع الصوفية الهرائس ومع الخانقائيين الثرائد ومع النواقي العصائد وطُردت في الليالي من المساجد وصحت في البرارى وتمت في الصحارى وصدقت في الورع زماناً وأكلت الحرام عياناً وصحبت عبّاد جبل لبنان وخالطت حيناً السلطان وملكت العبيد وحملت على رأسى بالزنبيل ، وأشرفت مراراً على الغرق وقُطع على قوافلنا الطرق وخدمتُ القضاة والكبراء وخاطبتُ السلاطين والوزراء وصاحبت في الطرق الغسّاق وبعث البضائع في الأسواق وسُجنت في الحبوس وأخذت على أنى جاسوس ، وعاينت حرب الروم في الشوانى وضرب النواقيس في الليالي ، وجلّدت المصاحف بالكبرى واشترت الماء بالغلّى وركبت الكنائس والحيول ومشيت في السهائم والثلوج ونزلت في عرصة في الملوك بين الأجلّة وسكنت بين الجهال

* يورد المؤلف ترجمة دقيقة لهذه القطعة باللغة الروسية ويشرح الألفاظ الصعبة في الهامش . أما نحن فنكتفى بالطبع بإيراد النص العربى كما هو دون إجراء تصحيحات فيه . (المترجم)

في محلة الحاكه ، وكم نلتُ العز والرفعة ودبّر في قتلى غير مرة وحججت وجاورت وغزوت ورابطت وشربت بمكة من السقاية السوق وأكلت الخبز والخلبان بالسوق ومن ضيافة إبراهيم الخليل وحمّيز عسقلان السبيل وكُسيتُ خلع الملوك وأمروا لي بالصلوات ، وعريت وافتقرت مرات وكاتبني السادات ووبخني الأشراف وعُرضت على الأوقاف وخضعت للأخلاف ، ورميت بالبدع واتهمت بالطمع وأقامني الأمراء والقضاة أميناً ودخلت في الوصايا وجُعلت وكيلا وامتحننت الطرّارين ورأيت دُول العيّارين واتبعتي الأزدلون | وعاندني الحاسدون وسعى بي إلى السلاطين ، ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية 216 ورأيت يوم الفوّارة وعيد برباره وبئر بُضاعة وقصر يعقوب وضياعه* . ومثل هذا كثير ، ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا أننا لم نصنفه جزافاً ولا رتبناه مجازاً ، ويميزه من غيره ، فكُم بين مَنْ قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضع على السماع . ولقد ذهب لي في هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم سوى ما دخل على من التقصير في أمور الشريعة ، ولم يبق رخصة مذهب إلا وقد استعملتها ، قد مسحت على القدمين وصليت بمُدْهَامَتَان ونفرت قبل الزوال وصليت الفريضة على الدواب ومع نجاسة فاحشة على الثياب وترك التسييح في الركوع والسجود وسجود السهو قبل التسليم ، وجمعت بين الصلوات وقصرتُ لا في سفر الطاعات ، غير أنني لم أخرج عن قول الفقهاء الأئمة ولم أؤخر صلاة عن وقتها بثّة ، وما سرت في جادة وبيني وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها إلا فارقت القافلة وانفتلت إليها لأنظرها قديماً ، وربما اكترت رجالا يصحبوني وجعلت مسيرى في الليل لأرجع إلى رفقائي مع لبضاعة المال والهلم .

هذه القطعة تذكّرنا بعض الشيء بالمقدمة المعروفة لليعقوبي ، ولكنها تمتاز عليها بحيوية أكثر في العرض ؛ وفي مدى بضعة قرون سنلتقي بآبن بطوطة الرحالة التي لم تكن مشاهداته بأقل مما شاهده المقدسي هذا إن لم يزد عليه ، بل إن تجواله انتظم مجالا أوسع . غير أن عرض آبن بطوطة قد ذهب بأجمعه في الرحلة ولا يوجد لديه أثر للحديث عن مصادره كما فعل المقدسي في بداية كتابه بمهارة وبراعة فائقتين | . 217

ولا تقف فصول المدخل عند هذا الحد ، فقد رجع المؤلف إلى الكلام على الأماكن المجهولة الموقع وتعداد المدن والنواحي (« الأمصار والقصبات ») والنقاط المأهولة بها . ويلى هذا الكلام على تقسيمه الأرض إلى الأقاليم السبعة المعروفة لنا ، وعلى موضع القبلة وامتداد « دولة الإسلام » . وجميع هذه الفصول الأولى من الكتاب تمثل ما يقرب من سدسه ، وفقط عند استيفاء الكلام فيها ينتقل بالقارئ إلى وصف البلاد الذي يخضع لتنظيم دقيق على طول صفحات الكتاب^{٢٧} . وعند وصفه لكل قطر يقسمه عادة إلى ثلاثة

* في هامش ص ٤٥ من المتن المطبوع لكتاب المقدسي جاء أن إحدى المخطوطات تقرأ بعد « قصر يعقوب وضياعه » ما يأتي : « والمهرجان والسند (والسند) والنيروز بعدن وعجبه وعيد الماوسرجه (الماوسرجه) » . وفي الترجمة الروسية أدخل المؤلف هذه الألفاظ في صلب المتن . (المترجم)

أقسام غير متساوية الحجم ، ففي القسم الأول يرد الكلام على أقسام المنطقة ومدنها والمواضع العامة منها ؛ أما القسم الثاني فيبحث في المناخ والزرع والطوائف واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والخراج ؛ هذا في حين يتناول القسم الثالث ذكر المسافات وطرق المواصلات^(٨٥) . وليس من العسير أن نلاحظ أن المقدسي قلَّ أن يولى اهتمامه للجغرافيا الطبيعية كأن يصف مثلاً الجبال والمياه إلخ ، ولكنه في مقابل ذلك يقدم لنا لأول مرة مجموعة هائلة من المعلومات عن التجارة والمعتقدات والعادات .

ويبدأ وصف المناطق المختلفة ، وذلك وفقاً للترتيب المشار إليه ، بجزيرة العرب فالعراق فأقور* فالشام فمصر فالمغرب فبادية الشام التي ينتهي بها القسم الأول . أما القسم الثاني فيبدأ بالمشرق الذي يقسمه المقدسي إلى بلاد الهياطلة وخراسان والديلم وأرمينيا ومعها أذربيجان والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند ومفازة فارس . وهكذا نجد أن الجزء الأساسي من كتابه إنما يسير حسب المنهج العام للمدرسة الكلاسيكية على الرغم من استطرادات المؤلف العديدة .

ولعل لغة المقدسي وأسلوبه ينتميان لا إلى أعسر أساليب هذه المدرسة فحسب بل إلى أعسر أساليب « مكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Aabicorum اطلاقاً . وإذا كان الاصطخري يتبع أسلوباً مبسطاً في كتابه ويمكن تفسير بعض الوعورة فيه بأن اللغة العربية لم تكن لغته الأصلية ، وأن ابن حوقل بدوره لا يخلو من آثار الصنعة والتكلف والميل إلى السجع فإن المقدسي قد أوفى على الغاية في هذا الباب ، إذ بالرغم من تملكه لخاصية اللغة نراه يلجأ إلى الصنعة المرهقة فيفسح المجال للسجع لا في بداية الكتاب وخاتمته فحسب بل وفي صلبه أيضاً ، ولداع أو لغير داع . ويحفل متن المقدسي بالألفاظ الصعبة القليلة الاستعمال لأنه كان يميل بعض الشيء إلى غريب اللغة . وهو يقول في خاتمة أحد الفصول الأولى :

218 « وسنتكم في كل إقليم بلسانهم ونناظر على طريقتهم ونضرب من أمثالهم لتعرف لغتهم ورسوم فقهاءهم ، فإن كنا في غير الأقاليم مثل هذه الأبواب تكلمنا بلغة الشام لأنها إقليمية الذي به نشأت . . . ألا ترى إلى بلاغتنا في إقليم المشرق لأنهم أصبح الناس عربية لأنهم تكلفوها تكلفاً وتعلموها تلقئاً ، ثم إلى ركابة كلامنا في مصر والمغرب وقبحه في ناحية البطائح لأنه لسان القوم »^(٨٦) .

ومن كتابه يتبين أن المقصود بهذا بالتأكيد ليس لغة الكلام التي لا يلتفت إليها الأدباء عادة ، إنما يعنى بالذات الاختلاف في استعمال الألفاظ الكتابية بين المناطق المختلفة .

ومن الواضح أن مثل هذا يصعب كثيراً من لغة المقدسي وأسلوبه ، ولعل هذا من الأسباب التي حالت دون ظهور ترجمة لكتابه إلى الآن ، شأنه في هذا شأن بقية ممثلي المدرسة الكلاسيكية . والترجمة

* أقور أو أثور منطقة شمال العراق ، أي الجزيرة Mesopotamia . (المترجم)

الإنجليزية التي بُدئت في الهند وقفت عند مصر ، أى فيما يمثل خمس الكتاب فقط . وفى السلسلة التي نظمها فيران Ferrand لترجمة مصنفات الجغرافيين العرب اقترح أن يعهد لوليم مارسيه Marçais بترجمة المقدسى ؛ وبالطبع فإن ذلك كان سيكون فتحاً جديداً فى دراسة المقدسى لأن مارسيه كان من بين معاصريه خير من يعرف النثر العربى القديم ؛ بيد أن الفكرة قبرت مع الأسف بوفاة فيران .

إن شخصية المقدسى لتختتم بجدارة المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية وسلسلة الجغرافيين الكبار للقرن العاشر ، غير أن شخصيته لا تتمتع بالكثير من الجاذبية والعطف ؛ فأسلوبه لا يخلو من التكلف فضلاً عن أن اعتداده الشديد بنفسه قد يحدث أحياناً بعض الضيق للقارئ . ولكن من غير المستطاع أن يغمطه إنسان نصيبه من الفهم والذكاء وألا يعترف له بالأصالة والطرافة وقوة الملاحظة ؛ لذا فيجب الاتفاق مع اشبرنجر وكرامرس فى اعتباره جغرافياً عظيماً وواحداً من كبار الكتاب العرب قاطبة .

حواشي الفصل السابع

- Bartold, Istorija izučenia Vostoka, 2 ed, p. 54 (١)
- Kramers, EI, EB, p. 66 (٢)
- De Goeje, ZDMG, 25, p. 42 (٣)
- (٤) المقدسي ، BGA, III ، ص ٤
- (٥) حدود العالم ، ص ١٣ - ١٤
- De Goeje, ZDMG, 25, p. 46 (٦)
- (٧) راجع : حدود العالم ، ص ١٧ والملاحظة ٣
- Ritter, DI, XIX, p. 55 - 56 (٨)
- Nallino Cosmos. XII, p. 46 (٩)
- Amari Bibl. ar. - sic. (versione) , I, p. XXIV (١٠)
- Hudud, p. 191 - 192, No 28 (١١)
- Kmoskó, p. 141 - 148 (١٢)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 408 (١٣)
- (١٤) حدود العالم ، ص ١٥
- Taeschner ZDMG, 77 (2), p. 39 - 40, note 3 (١٥)
- (١٦) ابن حوقل ، BGA II ، ص ٥ = BGA, II² ، ص ٣
- De Goeje, ZDMG, 25, p. 46 — Nallino, Cosmos, XII, p. 47 - 48 — (١٧)
- Kramers, AO, p. 18
- (١٨) ابن حوقل ، BGA, II ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦
- Kudrian, b. 84 - 85 (١٩)
- Kramers, AO, p. 17 — BGA, II² p. V (٢٠)
- BGA, II, p. 7 - 10 = BGA, II² , p. 5 - 10; (٢١)
- (الترجمة حسب طبعة كرامرس (Kramers, Ibn Haukal)
- BGA, II, p. 14 = BGA, II² , p. 15 — Kunik i Rozen, II, p. 171 - 172 (٢٢)
- Markwart, Streifzüge, p. 474 - 475 — Bartold Bulghar, p. 823 (٢٣)
- Kvalen, Dat norske Gurdariki, II, p. 3; (٢٤)
- Mzik, WZKM, XLVI, p. 317 ولكن راجع :
- Kramers AO, p. 18 (٢٥)
- Kramers, L'Érythrée, p. 573 - 574 (٢٦)
- Kramers BGA, II² p. VI (٢٧)
- Amari (Nallino) , I, p. 46 - 47, No 6 (٢٨)
- (٢٩) شرحه ، الجزء الثاني ، ص ٣٣٦ - ٣٥٤

- BGA, II, p. 42 = II², p. 61 = Kramers, Legacy, p. 102 (٣٠)
- Dozy, Hist. des Musulmans, III, p. 17, 21, 181 - 182 (٣١)
- Lewis, The Origins, of Ismailism. p. 99 (٣٢)
- (٣٣) رد على ابن حوقل في آرائه عن أخلاق الأندلسيين الجغرافي الأندلسي ابن سعيد في القرن الثالث عشر .
راجع : Moritz, Ibn Said
- Lévi - Provençal, La Civilization, p. 53 - 54 (٣٤)
- (٣٥) حدود العالم ، ص ١٥
- BGA, II², p. V (٣٦)
- Kramers EI, EB, p. 69 (٣٧)
- (٣٨) المقرئ ، الجزء الأول ، ص ١٣٠ - ١٣١
- (٣٩) المقرئ ، الجزء الأول ، ص ١٣٨ - ١٣٩ - و
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 408
- Kramers, Legacy, p. 80 - « four », but the text (٤٠)
- BGA, II, p. 16 = BGA, II², p. 17 : خمسة
- BGA, II, p. 16 = II², p. 16 - 17 — Kramers, Legacy, p. 80 (٤١)
- Kramers, Legacy, p. 85 (٤٢)
- (٤٣) شرحه ، ص ٨٥ - ٨٦
- (٤٤) البلاذري ، طبعة De Goeje ، ص ٣٧١ = طبعة القاهرة ، ١٩٠١ ، ص ٣٧٩ : فقدموا عليه
ومعهم صورة البطيخة .
- Kramers, EI, EB, p. 66 (٤٥)
- (٤٦) الفهرست ، ص ٢٨٥ : ورأيت هذه الصفة في ثياب دبيق خام بأصبغ وقد شمت الأصبغ .
- Quatremère, Mémoires géographiques II, p. 377 = (٤٧)
- Reinaud, Introduction, p. CCLXIII زكي محمد حسن ، ص ٥٣
- Kramers AO, p. 10 (٤٨)
- Kramers, EI, EB, p. 66 (٤٩)
- Sprenger, Reiserouten, p. XIII - XIV (٥٠)
- Nallino, Cosmos, XII, p. 46, note 2 (٥١)
- (٥٢) الفهرست ، ص ١٣٨
- Sufer, Mathematiker, p. 58, No 124 Sarton, Introduction p. 664 (٥٣)
- (٥٤) الاصطغري ، BGA, I ، ص ٣
- (٥٥) ابن حوقل ، BGA, II ، ص ٤
- Mzik, die Karten, p. 28 (٥٦)
- Kramers EI, EB, p. 66 (٥٧)
- Sarton, Introduction, I, p. 536; J. K. Wright, Geogr. Lore, 69 : الصورة لدى : (٥٨)
- Kramers Legacy, p. 87 (٥٩)
- Kramers, EI, EB, p. 67 (٦٠)

- (٦١) المقدسي ، BGA, III ، ص ١٠
- Kramers El, EB, p. 66 (٦٢)
- Sprenger, Reiserouten, p. XVIII : « ... der grösste Geograph den es je gegeben hat » (٦٣)
- Kramers, Al - Mukaddasi, p. 765 (٦٤)
- Sprenger, Reiserouten, p. XVIII = De Goeje, Eenige, p. 3 (٦٥)
- Kramers, Al - Mukaddasi, p. 765 (٦٦)
- Fischer, Al - Maqdisi, p. 404 - 410 (٦٧)
- Schwartz, Iran, II, p. VI : المقدسي ، BGA, III ، ص ٤٩٨ راجع : (٦٨)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 410, note 1
- Amari (Nallino), II, p. 354 - 363; (٦٩) عن زيارته لصقلية : ص ٣٥٦
- (٧٠) المقدسي ، BGA III ، ص ٢٢٣ ، ملاحظة ١ ؛ ص ٢٣٥
- Dozy, Recherches, I, p. 313 (٧١)
- (٧٢) المقدسي ، BGA, III² ، ص ٩
- (٧٣) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٦٥٣
- (٧٤) عن مخطوطة اياصوفيا ، وهي أصل مخطوطة ليدن ، راجع : Ritter, DI, XIX, p. 57
- (٧٥) راجع : Nallino, Cosmos, XII, p. 49 - 50
- (٧٦) المقدسي ، BGA, III² ، ص ٣ ، : ٥ - ٦
- Nallino, Cosmos, XII, p. 44 - 50 : « ... emergere sola ed unica nel suo genere » (٧٧)
- Nallino, Cosmos XII, p. 49 : المقدسي ، BGA, III ، ص ٢٤١ - راجع : (٧٨)
- Kramers, El, EB, p. 66 - 67 (٧٩)
- (٨٠) المقدسي ، BGA, III² ، ص ٩
- (٨١) شرحه ، ص ٣٦٠ = ٣٦١ - Markwart, Streifzüge, p. 3
- Kramers Al - Mukaddasi, p. 765 (٨٢)
- 1875 : De Goeje, Eenige, p. 2 - 3 : 1877 : Kremer, Culturgeschichte, II, (٨٣)
- p. 429 - 432; 1895 : Nallino, Cosmos XII, p. 50 - 51; 1897 : Ranking —
- Azoo p. 73 - 80; 1937 : Krachkovski, Arabskie Geografy, p. 746 - 747;
- Sauvaget, Hist. Arabes, translation of preface, p. 65 - 68, 68 - 69
- (٨٤) المقدسي ، BGA, III² ، ص ٤٣ - ٤٥
- Beliaev, MITT, I, p. 28 (٨٥) أكثر تفصيلا لدى :
- (٨٦) المقدسي ، BGA, III² ، ص ٣٢

الفصل الثامن

جغرافيو القرن العاشر الآخرون

إن المصنفات التي وضعها جغرافيو المدرسة الكلاسيكية لتعجز عن أن تستوعب جميع نتائج الأدب الجغرافي في القرن العاشر ، ولقد تبين لنا من خلال أحد الفصول السابقة أن عدد الرحالين الذين خلفوا آثار مدونة عن تجوالهم كان كبيراً جداً بحيث لا يضارعه كثرة إلا تلك المصنفات التي يصعب اعتبارها جزءاً من الأدب الجغرافي إما لأنه تعوزنا المادة اللازمة للحكم عليها أولاً لأنها تدخل في نطاق هذا الأدب بطريقة ما .

فن بين مصنفات النوع الأول يتمتع واحد منها بصيت واسع في الأدب الجغرافي القديم ولكنه غير معروف لنا حتى الآن بصورة مباشرة ، ومؤلفه هو وزير السامانيين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن نصر الجيهاني^(١) الذي مر بنا ذكره أكثر من مرة بوصفه راعياً ومشجعاً للدراسات الجغرافية وللرحالين . وقد طوقت رعايته حيناً من الدهر مؤسس المدرسة الكلاسيكية أبا زيد البلخي ، كما خرج على عهده أيضاً أبو دلف في أسفاره النائية ولعله قد رفع إليه الرسالتين اللتين وضعهما عن رحلته ، كما التقى به ابن فضلان خلال مروره ببخارى في رحلته إلى الأصقاع الشمالية . ومن الجلي أن منصبه كوزير قد ساعده في تأليف كتابه هذا الذي اعتمد فيه على المؤلفات السابقة له وعلى رصد كبير من الأسئلة والاستفهامات . ومصدرنا الأساسي للحكم على الطابع العام للكتاب هو المقدسي ؛ فقد كتب في مقدمته المعروفة لنا جيداً يقول :

« أما أبو عبد الله الجيهاني فإنه كان وزير أمير خراسان وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك إليها وارتفاع الحُسنس منها وقيام الظل فيها ليتوصل بذلك إلى فتوح البلدان ويعرف دخلها ويستقيم له علم النجوم ودوران الفلك ألا ترى كيف جعل العالم سبعة أقاليم وجعل لكل إقليم كوكباً مرة يذكر النجوم والهندسة وكرّة يورد ما ليس للعوام فيه فائدة وتارة ينعت أصنام الهند وطوراً يصف عجائب السند وحيناً يفصل الخراج والردّ ورأيته ذكر منازل مجهولة ومراحل مهجورة ولم يفصل الكور ولا رتب الأجناد ولا وصف المدن ولا استوعب ذكرها بل ذكر الطرق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مع شرح ما فيها من السهول والجبال والأودية والتلال والمشاجر والأنهار وبذلك طال كتابه وغفل عن أكثر طرق الأجناد ووصف المدائن الحيات^(٢) . »

وبنفس هذا الأسلوب القاطع يقرر المقدسي أن ابن خردادبه هو المصدر الأساسي للجيهاني: «ألا ترى أنك إذا نظرت في كتاب الجيهاني وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خردادبه وبناءه عليه»^(٣) ، وفي موضع آخر من إحدى مسوداته يدعم قوله هذا بأمثلة محسوسة فيقول: «ورأيت كتابه في سبع مجلدات في خزائن عضد الدولة غير مترجم وقيل بل هو لابن خردادبه ورأيت مختصرين بنيسابور مترجمين أحدهما للجيهاني والآخر لابن خردادبه تنفق معانيهما غير أن الجيهاني قد زاد شيئاً يسيراً»^(٤) .

ومن العسير التسليم بصدق هذا الزعم استناداً على ألفاظ المقدسي وحده ؛ كما يجب أن نفرّ بحقيقة ثابتة وهي أن الشذور التي تبقت لنا من الجيهاني لا تتفق عادة مع ما هو معروف لدينا من نص ابن خردادبه . غير أن هذا لا يعتبر رأياً قاطعاً في حد ذاته لأن طبعة دى خويه إنما تمثل المسودة المختصرة لكتاب ابن خردادبه وهي وحدها المعروفة إلى أيامنا هذه . وليس بدعاً أن نبصر في رأى المقدسي بعض التشدد والمبالغة فقد عرف سلفاً بالتشدد في الحكم على من سبقوه ؛ وفي مقابل هذا نجد المسعودي أكثر اعتدالاً في حكمه ، فهو حين الكلام على مصادره يقول بصدد الجيهاني :

«أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني . . . ألف كتاباً في صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأتهار والأهم ومساكنهم وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الطريفة»^(٥) .

وما كان للمسعودي ، وهو يتحدث عقب هذا مباشرة عن ابن خردادبه ، أن يغض النظر عن الصلة الوثيقة التي تربطه بالجيهاني لو وجدت تلك الصلة حقاً كما زعم المقدسي .

وبالرغم من إيجاز هذه الإشارات إلا أنها تمكننا من تحديد النمط الذي ينتمي إليه مؤلف الجيهاني ؛ فهو وإن انبعث من نفس الوسط الذي نشأت فيه أول حلقة معروفة لنا من المدرسة الكلاسيكية إلا أنه لا ينتمي إلى هذه الجماعة لأنه يرتبط ارتباطاً بيناً بالجغرافيا الرياضية من جهة ، ويؤكد هذا تقسيمه المعمورة إلى سبعة أقاليم . ولدى المقارنة يمكننا أن نقرر بالكثير من اليقين أن استعماله للفظ «إقليم» إنما بمعناه الأول ، أي بوصفها أحزمة عريضة تنتظم المعمورة من الشرق إلى الغرب لا بمعنى المناطق الجغرافية كما هو الحال مع مفهوم المدرسة الكلاسيكية . كذلك لا يوجد ثمة مبرر للأخذ برأى هونيمان Honigmann^(٦) الذي يعتقد أن المسألة تتعلق بفكرة اقتران الأقاليم بالكواكب . والسمة الثانية التي تميز كتاب الجيهاني عن تلك المدرسة هو اهتمامه البالغ بالبلاد الأجنبية وهو أمر غريب على المدرسة الكلاسيكية ، أضف إلى هذا أيضاً اهتمامه بالعجائب والغرائب المختلفة Mirabilia .

واستناداً إلى هذه الخطوط الرئيسية فإنه يمكن استشفاف بعض صلة الرحم بين هذا المصنف وكتاب ابن خردادبه ، بل وكتب بعض المؤلفين الذين مروا بنا كاليقوبي وخاصة الجاحظ وابن الفقيه ؛ فهذا الفن من المؤلفات في الجغرافيا الوصفية يقدم معلومات واسعة متنوعة تستطيع أن تجتذب أنظار الطبقات المثقفة لاحتياج ذلك العهد ؛ وهذا ما يؤكده إلى حد ما المقدسي في حكمه السلبي على الجيهاني: «وقد استعمل

هذا الفن في جمع شذات المعلومات عن العالم التي لم تجد طريقها إلى أدب الحديث أو الأدب الجغرافي فكانت بذلك في حاجة إلى تنظيم أكثر وإلى صياغة علمية . ومن أسماء بعض المصنفات الأخرى للجيهاني^(٧) التي أوردها صاحب « الفهرست » يتضح أنه كان على معرفة بالأدب الإيراني كالذي ينعكس عند ابن المقفع والجاحظ ، وذلك نتيجة لاتصاله بآل سامان .

ومما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نصدر حكماً مرضياً على تفاصيل ثابتة من كتاب الجيهاني كما حدث عند الكلام على الكتاب نفسه بوجه عام ، إذ أنه لم يعثر له على أثر إلى الآن . وقد ثبت أن ما تردد منذ نيف وعشرة أعوام في ثنايا مقال خاص^(٨) عن الكشف عنه بمدينة مشهد إنما يستند على محض لبس^(٩) . واسم الكتاب فيما يبدو كان ، وفقاً للعرف السائد ، هو « كتاب المسالك والممالك » ولو أنه يظهر أحياناً عنوان أكثر تعقيداً هو « كتاب المسالك في معرفة الممالك »^(١٠) .

222

وليس من المستطاع إثبات تاريخ تأليف هذا الكتاب الذي كثرت حوله الآراء والمعلومات الخاطئة إلا بصورة تقريبية . ويفترض بروكلمان Brockelmann^(١١) ، ويظهره في هنا هير Heer^(١٢) وسارطون Sarton^(١٣) ، أن الكتاب قد تم تأليفه بين عامي ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ و ٢٩٥ هـ = ٩٠٧ . ولكن يضعف من هذا الرأي اعتبارات زمنية ، منها التقاؤه بجغرافيين ورحالة آخرين ، وأنه قد استوزر لأمير ساماني صغير السن هو نصر الثاني بن أحمد (٣٠١ هـ - ٣٣١ هـ = ٩١٤ - ٩٤٣) في أوائل سني حكمه^(١٤) . ويدلل بارتولد استناداً على رواية كرديزي أن الجيهاني قد وضع مؤلفه في ذلك الحين ، ومن ثم فهو يميل إلى الافتراض بأن ذلك قد تم قبل عام ٣١٠ هـ - ٩٢٢^(١٥) . وتاريخ وفاة الجيهاني غير معروف لنا ؛ أما قول جرجاس Girgas^(١٦) بأنه قد توفي عام ٩٥٦ فهو سهو واضح .

فلذا ما اعتبرنا أن الكتاب قد تم تأليفه قريباً من عام ٣١٠ هـ = ٩٢٢ فيجب أن نطرح جانباً بعض المزايم القائلة بعلاقة الجيهاني بجغرافي الحيل المعاصر له . ويرى بروكلمان^(١٧) أن الجيهاني قد اعتمد في وضع كتابه على كتاب الخراج لقدامة بن جعفر وهو زعم لاتدحضه اعتبارات زمنية فحسب ، لأن قدامة كتب بعد الجيهاني أو على الأقل في وقت واحد معه ، بل أيضاً ما نعرفه عن مصنف الأخير .

ويجب أن نأخذ بعين الحذر والارتياح قول صاحب « الفهرست » أن ابن الفقيه قد « سلب » كتاب الجيهاني^(١٨) . حقاً أن الطابع النقلي لكتاب ابن الفقيه ليس في الوسع إنكاره ولكن كتابه يرجع تأليفه إلى ما قبل عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ ، أي قبل أن يخرج كتاب الجيهاني إلى عالم الوجود .

وليس هناك شك في وجود صلة الرحم بين جميع هذه المصنفات في شكلها ومضمونها ، ولعل هذا من الأسباب التي دفعت صاحب « الفهرست » إلى افتراض فرضه هذا ، وذلك إلى جانب فروض أخرى قام بتحليلها دى خويه تحليلًا عميقاً^(١٩) .

ويقف ياقوت فيما يبدو من كتاب الجيهاني موقفاً يسوده التحفظ ، فهو يذكره من بين السابقين

له (٢٠) وينقل عنه رواية واحدة ذات طابع غريب تتعلق بمشابهة أرض الصغد لصورة الإنسان (٢١) * 223 ولعل هذا يفسر من ناحية أخرى السبب في أن ياقوت لم يفرد له في معجم الأدباء سوى [ملاحظة تافهة (٢٢) مليئة بالحكايات عن ضروب من تصرفاته الغريبة ويسوق بيتاً لأحد الشعراء في ذلك . ويلوح أن المعرفة المباشرة بكتاب الجيهاني قد انقطعت مبكراً وأن معرفة المؤلفين المتأخرين به جاءت فيما يغاب على الظن عن طريق السماع ، فحاجى خليفة عندما يتحدث عنه لا يزيد عن تكرار ألفاظ المقدسي (٢٣) .

وليس أمامنا في هذه الحال سوى طريقة واحدة لتكوين فكرة واقعية عن مضمون الكتاب وهي دراسة المادة التي حفظها لنا منه المؤلفون الذين نقلوا مادته . وطالما صحب هذه المادة ذكر اسمه فإنه يمكن الاعتماد على هذه الطريقة بالكثير من الثقة ؛ أما الاستنتاجات المبنية على مادة مجهولة المؤلف من شأنها أن تقود إلى بعض التزيد كما رأينا من مثال مسلمة الجرمي . ولعل مصير الجيهاني يكاد يكون شبيهاً لهذا فقد نسبت إليه في العادة تلك المعلومات الخافلة عن أوروبا الشرقية التي لم يعرف مصدرها بالضبط ، وهي التي استقى منها ابن رسته والبكري والمؤلفون الفرس مثل صاحب كتاب « حدود العالم » وكرديزي وعوفى . وفي حالات معينة لا يوجد مجال كبير للشك في نسبة بعضها إليه غير أنه ، كما ينصح بارتولد ، يجب لإعمال الحذر في أمثال هذه المواضع (٢٤) . وإذا كان كتاب الجيهاني مصدراً أساسياً عن الأقطار الغربية بالنسبة للمؤلفين الشرقيين فهو أيضاً قد جمع مادة وفيرة عن المشرق . وقد رأينا كيف اعترف المقدسي بأنه كان نشيطاً في جمع المعلومات عن الأقطار المجاورة لخراسان خاصة وادى السند والهند عامة (٢٥) ؛ وهذه المادة الأخيرة بعينها هي التي تكاد تكون المصدر الوحيد ، أو على الأقل الأساسي ، للدريسي عن تلك البلاد . وليس أقل قيمة من ذلك ما أورده عن القبائل التركية وعن الشرق الأقصى (٢٦) ؛ وقد أثبت بارتولد أنه من الممكن أن يرتفع إليه واحد من أهم أوصاف الطرق التي تربط بين تركستان وعاصمة الصين (٢٧) .

ومما يثبت أن حكم المقدسي لا يخلو من الإحجاف شهادة مؤلف ذى مكانة كالبيروني الذي لم يأنف من الرجوع إلى الجيهاني أو الاستشهاد به (٢٨) ؛ وفي أمثال هذه الحالات يتوكد ميل الجيهاني إلى طراز العجائب والغرائب . وأطرف من هذا معرفته الواسعة بالديانة المسيحية ، فالبيروني في كتابه « الآثار الباقية » ينقل عنه قصة معجزة حدثت بإحدى الكنائس القبطية بمصر ذكرته بمعجزة « النار المباركة » 224 ببيت المقدس (٢٩) ؛ وفي كتابه « الجواهر في معرفة الجواهر » يروي عنه قصة [تتعلق بكيسة اسطقوانوس رئيس الشهداء برومة التي كان يوجد بها مذبح ثمين (٣٠) . ويقف دليلاً على صلة الجيهاني بالجغرافيا الرياضية أن أحد ممثلي المدرسة الرياضية في القرن الثاني عشر وهو الخرق (توفي عام ٥٣٣ هـ = ١١٣٨) (٣١)

* رأينا تحاشياً للغموض أن نورد نص ياقوت بجذافيره . قال : « وقال الجيهاني في كتابه الصغد كصورة لإنسان رأساً بسنجه كسكث ورجلاه كشانية وظهره وفر وبطنه كبوكت ويداه ما يسمن رخ وبزماخر » . (الترجم)

قد أفاد من وصفه للبحار^(٣٢) ، وهو أشبه بوصف البتاني الذي مر بنا ذكره فيما تقدم من هذا الكتاب . من كل هذا يمكن الخروج بنتيجة مؤداها أن كتاب الجيهاني رتخاً عن النقد الذي وجهه إليه المقدسي يستحق اهتماماً كبيراً وأن العثور عليه سيكون من شأنه إلقاء الضوء على مسائل عديدة من ميدان الأدب الجغرافي العربي للقرن العاشر .

ويرتبط بكتاب الجيهاني إلى حد ما مصنف بارز يرجع إلى الربع الأخير من القرن العاشر وتم تأليفه في المنطقة الواقعة حالياً في شمال شرق أفغانستان ، ذلك هو الكتاب الفارسي المجهول المؤلف « حدود العالم من المشرق إلى المغرب »^(٣٣) . وبالرغم من أنه مكتوب بالفارسية إلا أنه يجدر بنا الوقوف عنده لأنه وجد زعم يقول بأنه ترجم عن العربية في الأصل^(٣٤) بل أيضاً لارتباطه الوثيق بالتراث العربي بحيث لا يكتمل الوصف العام للأدب الجغرافي بدونه .

والخطوة الوحيدة المعروفة لنا لهذا الأثر كشف عنها المستشرق الروسي طومانسكي Tumanski في عام ١٨٩٢ ومن ثم فقد نسبت إليه في الدوائر العملية فأصبحت تعرف باسم « مخطوطة تومانسكي المجهولة المؤلف » L' Anonyme de Tumanski . وبعد أبحاث كثيرة حول المصنف ظهرت طبعة مصورة له (FaesImile) قام بنشرها بارتولد في عام ١٩٣٠ ، ثم تلى ذلك ظهور ترجمة إنجليزية علمية تصحبها تعليقات وافية بقلم مينورسكي في عام ١٩٣٧ . ويمكن القول بلاتردد أنه لا يوجد مصنف جغرافي من العصر الكلاسيكي ظفر بترجمة مثل هذه جعلت منه بحق كنزاً في متناول أيدي الجميع^(٣٥) . ورغمنا عن هذا فلا يزال الكتاب إلى الآن مجهول المؤلف ، ولكن ثبت بالتحديد أنه ألف حوالي عام ٣٧٢ هـ = ٩٨٢ . لأمر ناحية كركان أو كركانان (جزجان في شكلها العربي) من أسرة صغيرة حاكمة هي آل فريغون . والمؤلف فيما يبدو كان عالماً نقلياً لم يعرف التجوال أو الترحال ؛ وهو لا يميل إلى ذكر مصادره ولكنه يشير مرة أو مرتين إلى كتاب أرسطوطاليس في « الآثار العلوية » Meteorology ويذكر أيضاً بطلميوس^(٣٦) الذي استعمله بالطبع في ترجمة عربية . وصلته بالآخر أمر لا يرقى إليه الشك فإن أسلوبه في توزيع البلاد بطلميوسى صرف | ولكنه يهمل الأطوال والعروض ، ولو أن هذا لم يمنعه أحياناً من الاحتفاظ ببعض 226 الأوصاف كوصفه للبحار السبعة . ولم يقف إغفاله ذكر المراجع حائلاً دون التعرف على مصادره مع البحث العميق والتقصي ؛ ويرى بارتولد أن مصادره الأساسي هو الجيهاني وأنه أفاد بنفس القدر من مصنفات جغرافي المدرسة الكلاسيكية خاصة من المسودات المختلفة لكتاب الإصطخرى . كما يمكن أن نذكر ابن خردادبه كمصدر من مصادره الأساسية عن الأقطار الواقعة خارج العالم الإسلامي ؛ وبقينا أنه اعتمد في ذلك على نسخة كاملة منه لم تصل إلينا . وبالطبع كان تحت تصرف المؤلف آثار المؤلفين السابقين التي تنعكس في أقسام مختلفة من كتابه ولكنها لم تلعب دوراً جوهرياً ، ولا يزال الأمر يحتاج إلى دراسة دقيقة مهد لها السبيل إلى حد كبير العلامة مينورسكي .

ويشير المؤلف عدة مرات إلى خارطة تم إعدادها فيما يبدو قبل تأليف الكتاب ؛ وليس من المستحيل في شيء أن يستند وصفه للبلاد على خارطة ولكن لم يلاحظ في هذا الصدد أية صلة بينها وبين « أطلس الإسلام » المعروف . وينقسم الكتاب إلى واحد وستين فصلاً^(٣٧) ليست كبيرة الحجم ، فيتلوا المقدمة القصيرة سبعة فصول تعالج مسائل عامة كشكل الأرض وأحوال سكانها والبحار والجزر والجبال والأنهار والصحارى وتقسيم الأرض إلى مناطق . وهذه المناطق قد أفرد لمعالجتها اثنين وخمسين فصلاً ابتداء من الشرق في اتجاه الغرب ، ولو أن تتابعها يضحى أحياناً غير مفهوم لنا فهماً تاماً . ويحمل الوصف عادة طابعاً عملياً مقتضباً ، ويلاحظ لدى المؤلف الاهتمام بمسائل التجارة والمحاصيل المحلية . ولا ريب في أن مخطوطة طومانسكى المجهولة المؤلف كانت ذات أثر فعال في الأدب الجغرافي التالي لها ، غير أن مسألة إلقاء ضوء على هذه الحقيقة مسألة عسيرة تتطلب فحص مصادر عامة ليست معروفة في مجموعها لنا ، مثل المسودة المكتملة لابن خردادبه أو مصنف الجيهاني . وليس ثمة شك في أن المؤرخ الفارسي كرديزى^(٣٨) الذى سياتى عليه الكلام في حينه قد اعتمد في القسم الجغرافي من كتابه على « حدود العالم » .

ويرتبط بنشاط الدوائر الثقافية القريبة من السامانيين ظهور أثر آخر كبير أفرد فيه للجغرافيا مكان معين ، أعنى بذلك الموسوعة الفريدة في بابها « كتاب البدء والتاريخ » . وفي المخطوطة الوحيدة المعروفة لهذا الكتاب الموجودة باستنبول والتي تحمل تاريخ ٦٦٣ هـ = ١٢٦٥ ، كما وأيضاً لدى بعض المؤلفين المتأخرين مثل كوزموغرافى القرن الخامس عشر ابن الوردى ، أو بيليوغرافى القرن السابع عشر حاجى خليفة ، ينسب تأليف الكتاب إلى مؤسس المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية أبى زيد البلخى^(٣٩) ؛ وهكذا ظن ناشر الكتاب المستشرق الفرنسى هوار Huart عند طبع الأجزاء الأولى منه . غير أن 227 فحص | النصوص التى نقلها المؤلف عن مؤلفين متقدمين ، هذا بالإضافة إلى اعتبارات زمنية^(٤٠) ، قد أقنع المتخصصين بأن الكتاب من تأليف شخص غير معروف في المصادر الأخرى أصله فيما يبدو من فلسطين ، وهو مطهر بن طاهر المقدسى الذى عاش بمدينة بست بسجستان ووضع كتابه عام ٣٥٥ هـ = ٩٦٦ لأحد وزراء السامانيين^(٤١) . وحاجى خليفة الذى يكرر لنا ألفاظ مقدمة الكتاب — وهو ربما قد رجع في ذلك إلى مخطوطة استنبول آتفة الذكر — يقول عنه :

« وهو كتاب مفيد مهذب عن خرافات العجائز وتزاوير القصص لأنه تتبع فيه صحاح الأسانيد في مبدأ الخلق ومنتهاه فابتدأ بذكر حدود النظر والجدل وإثبات القديم ثم ذكر ابتداء الخلق وقصص الأنبياء وأخبار الأمم وتواريخ الملوك والخلفاء إلى زمانه في ثلاثة وعشرين فصلاً وهو في مجلد واحد^(٤٢) .

وفي طبعة هوار الذى كشف عن مخطوطة استنبول في عام ١٨٧٧ ونشرها في الفترة بين ١٨٩٩ و١٩١٩ مع ترجمة فرنسية في ست مجلدات ضخمة^(٤٣) نجد أن الكتاب ينقسم إلى اثنين وعشرين فصلاً

تفاوت من حيث الحجم والأهمية . فالفصل الأول على هيئة مقدمة تعالج مناهج المعرفة وحدودها ، والفصلان الثاني والثالث أفردا للالهيات (Theodosy) ، أما الفصل الرابع فلنظرية النبوة والخامس لبداية الخليقة والسادس للاهوت والسابع في صفة السماء والأرض كما ورد في الأديان ، ثم الثامن في ظهور الإنسان على الأرض وانتشاره بها والتاسع في الأخرويات (Eschatology) . ثم يعقب ذلك القسم التاريخي الذي يبدأ بتاريخ الأنبياء والرسول (الفصل العاشر) يليه تاريخ الفرس (الفصل الحادي عشر) فالأديان المختلفة (الفصل الثاني عشر) . وينتقل إلى التاريخ العربي بعد الفصل الثالث عشر وهو الفصل الذي يتكلم فيه عن الجغرافيا ، يلي ذلك تاريخ العرب الأقدمين مع ذكر أنسابهم (الفصل الرابع عشر) فتاريخ محمد (الفصول ١٥ - ١٧) وصحابته (الفصل الثامن عشر) وتطور التعاليم الإسلامية (الفصل التاسع عشر) وتاريخ الخلافة إلى عام ٣٥٠ هـ = ٩٦١ ، أي في خلافة المطيع العباسي (الفصول ٢٠ - ٢٢) .

وجميع هذه المادة الضخمة قد عرضت بلا تنسيق مما حدا بأحد العلماء المعاصرين أن يصف الكتاب ، خلافاً لرأى حاجي خليفة ، بأنه^(٤٤) : « مجموعة مختلطة من المعلومات في اللاهوت وتاريخ الأديان والتاريخ العام » . والقول بأن هذه المعلومات وفيرة ومتنوعة لا يمكن إنكاره بأية حال ، فطهر بن طاهر المقدسي كان يحق | جامعاً أكثر منه شيئاً آخر ولكنه لم يكتف بالمصادر المكتوبة بل أخذ عن عدد من الرواة²²⁸ الذين عرف كيف يتخيرهم ، فقد كانت له صلات باليهود وبالحجوس الإيرانيين بل وحتى بالهنود ؛ ويلاحظ أنه كان على معرفة جيدة بالحساب الزمني للهنود الذي مر بنا القول عليه عند الكلام على بداية الجغرافيا الرياضية . وهو يعدد عمر العالم لدى الهنود بأربعة مليارات وثلاثمائة وعشرين مليوناً من السنين وذلك بالأرقام الدونغارية (Dvengaari)^(٤٥) . وهذا المثال يقف شاهداً على أن اهتمام المؤلف بالجغرافيا إنما يتجه بالذات نحو الرياضة والفلك ، غير أن القسم المكرس للجغرافيا نفسها^(٤٦) يهدف شيئاً أوسع من ذلك بكثير ، ويمكن الاستدلال على هذا من عنوان الفصل الثالث عشر وهو « في صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق » . وفي الواقع نراه يبدأ العرض بتلك الأقسام المعروفة لنا من جغرافي المدرسة اليونانية ، أعنى وصف الأقاليم السبعة^(٤٧) والبحار^(٤٨) والأنهار^(٤٩) والأقطار المعروفة^(٥٠) . ويظهر جلياً في وصفه لبلاد الإسلام^(٥١) تأثير المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ؛ وتلى ذلك أقسام ذات مادة مختلطة في وصف المساجد المشهورة^(٥٢) ووصف الطريق من العراق إلى مكة^(٥٣) ووصف الثغور الإسلامية والرباطات^(٥٤) وعجائب الأرض^(٥٥) وغرائب الناس^(٥٦) وبناء بعض المدن^(٥٧) وأسباب هلاكهم^(٥٨) . لكل هذا فإن مصادر « كتاب البدء والتاريخ » جدٌ متنوعة ، ويبدو هذا جلياً الآن بعد أن تعرفنا على الأدب الجغرافي العربي ؛ ولعل ارتباطه الوثيق بالمدرسة الكلاسيكية ينعكس في اهتمامه الزائد بإيران ، أو « إيران شهر » كما يدعوها ؛ وقد حدث هذا مرتان

في كتابه^(٥٩) . ولاريب كذلك في التأثير البالغ للمدرسة اللغوية عليه وأيضاً المجموعات العديدة من صنوف العجائب Mirabilia ؛ وأخيراً نصل إلى أدب الحديث الذي وجد مكانه في الفصل الأخير المتعلق بالآخرويات . من كل هذا يتبين لنا أن مضمون الكتاب متنوع جداً وأن المؤلف يفتقر افتقاراً تاماً إلى الأصالة . 229

فإذا ما انتقلنا من هذا إلى المادة التي يوردها في مجال الجغرافيا الوصفية لألفيناها شحيحة في الواقع : وقد أثبت هذا فيران Ferrand عند فحصه للفقرات المتعلقة بالهند وأرخبيل الملايو^(٦٠) . ومن الملاحظ أن ياقوت^(٦١) يعترف بأنه أخذ عن طاهر المقدسي الرواية التي يذكر فيها أن الروس يقيمون بجزيرة موبوءة تحيط بها بحيرة^(٦٢) ؛ وهذه الرواية معروفة بدورها لكل من ابن رسته وكرديزي وقد اجتذبت إليها أنظار الباحثين أكثر من مرة^(٦٣) . ولا يخلو من طرافة نزوع المقدسي في الفصل الجغرافي^(٦٤) من كتابه وأيضاً في الفصول الأخرى إلى النصيح والإرشاد على حساب المادة التي يسوقها^(٦٥) . لهذا ، وأيضاً بالإضافة إلى القسم الرياضي من الفصل الجغرافي ، فإن « كتاب البدء والتاريخ » ينضم إلى « رسائل إخوان الصفاء » التي ظهرت في نفس ذلك الوقت تقريباً والتي تعرض في الفصل المشابه لهذا نفس الآراء البطلموسية التي ثبتت في القرن التاسع^(٦٦) .

ولعل هذا الاتفاق ليس وليد الصدفة المحضة فقد وردت لدى بعض مؤلفي هذه المجموعة ، الذين لاهروا بما يشيرون إلى مصادرهم ، الإشارة إلى شخص يدعى المقدسي البستي . حقاً إن الأسماء الأولى تختلف ؛ كما وأن النسبة الثانية ترد أحياناً في صيغة أخرى ، ولكن رغمًا عن هذا فإن التقارب في النسبة يشير بعض التباين خاص على ضوء الشبه بين القسمين الجغرافيين الذي أشرنا إليه . أما مجموعة إخوان الصفاء نفسها فهي تمثل أهمية كبرى ليس فيما يتعلق بالقسم الجغرافي بقدر ما يتعلق بالدور الذي احتلته الجماعة كظاهرة ثقافية كبرى لمنتصف القرن العاشر .

ففي هذا العصر الذي لحقت فيه عوامل الضعف والوهن بمذهب أهل السنة الذي ازدهر مدة قرن من الزمان عقب خلافة المتوكل ثم ضعفت شوكته نتيجة لارتفاع نجم البويهيين المعروفين بميولهم الشيعية ، أقول في هذا العصر كان يجتمع بالبصرة جماعة من المفكرين في محيط الدين والفلسفة اتخذوا لنفسهم اسم « إخوان الصفاء وخلان الوفاء »^(٦٧) ، إشارة إلى إحدى حكايات « كليله ودمنة »^(٦٨) . ومن العسير معرفة ما إذا اتخذت هذه الجماعة شكلاً معيناً أو أن نفوذها قد امتد إلى بغداد ، ولكن وضوح في الأعوام العشرة الأخيرة بما لا يدع مجالاً للشك أنها كانت قريبة من دوائر الإسماعيلية وتنصر لمذهبهم . ويجب ألا يعزب عن البال أنه إلى هذا العصر بالذات يرجع تمكين سلطان الفاطميين بمصر ونشاط الدعوة الإسماعيلية بخراسان^(٦٩) . 230

ولنشر آرائهم بين الناس قامت الجماعة بوضع لإحدى وخمسين رسالة دون الإشارة إلى أسماء المؤلفين ؛ وقد حاولوا في هذه الرسائل التقريب بين المنقول والمعقول ووضع فلسفة دينية جديدة^(٧٠) : هذا وقد ظهرت هذه الموسوعة الفريدة في نوعها في بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)^(٧١) ، على أية حال ليس بعد عام ٣٧٣ هـ = ٩٨٣ إذ كان على معرفة جيدة بها الفيلسوف الأديب أبوحيان التوحيدى الذى يقدم لنا وصفاً دقيقاً لهذه الجماعة^(٧٢) ولكنه كما هو العهد به دائماً لا يخلو من السخرية في وصفه . هذا وقد أحاطت رسائلهم بجميع العلوم التي كانت سائدة في ذلك العصر ، من علوم تربوية ودينية وفلسفية ، مع جنوح واضح إلى المذهب اليوناني^(٧٣) . واختيار المادة عندهم يتخذ طابعاً انتقائياً ملحوظاً ، فالأساس عندهم هو الثقافة اليونانية والعلم اليوناني ولكن يبصر لديهم بوضوح أيضاً نفوذ الثنائية الغنوصية (Gnostic Dualism) والنظريات الإيرانية في العناية الإلهية^(٧٤) . وفي صلتهم بالعلم اليوناني بل وحتى فيما يتعلق بنظرتهم الفلسفية العامة إلى الوجود فإن أرسطو كان يأتي عندهم في المرتبة الثانية عند مقارنته بهرمس Hermes وسقراط وأفلاطون وفيثاغورس^(٧٥) الذى تنال نظريته في الأعداد أهمية خاصاً بينهم ، ومعرفتهم العامة بالفلسفة اليونانية تغلب عليها السطحية عند المقارنة بالكندى والفارابى^(٧٦) . وفي بعض المخطوطات تضاف إلى الرسالة الحادية والعشرين عن الحيوان حكاية رمزية غريبة « في شكوى الحيوانات من الإنسان أمام ملك الجن^(٧٧) » ، وهى بمثابة تلخيص لجميع الأفكار الأساسية للرسائل بما في ذلك الأفكار الجغرافية ؛ بل وتمتاز بأهمية أدبية فريدة ويمكن أن يبصر في أسلوبها في الكلام على على ألسنة الحيوان تأثير كتاب « كليله ودمنة » الذى أخذت هذه الجماعة اسمها منه .

وعلاقة العلوم المختلفة التي تعالجها هذه الموسوعة ببعضها البعض تبدو في عدد الرسائل المفردة لكل منها ، فالرياضة والمنطق أفرد لها أربع عشرة رسالة ، والعلوم الطبيعية سبع عشرة رسالة ، بينما ظفرت الميتافيزيقيا وعلم النفس بعشرة رسائل ، والتصوف والتنجيم والسحر بإحدى عشرة رسالة^(٧٨) . والفكرة الأساسية التي يقوم عليها هذا المصنف الجماعي يمكن تلخيصها في أن كل ما يحدث في العالم السفلى إنما هو انعكاس للعالم العلوى فحسب ، وأن كل ما يحدث على الأرض إنما يخضع لحركات النجوم^(٧٩) . وعلى 231 ذلك فليس من العسير أن نتكهن بنوع الجغرافيا التي يمكن أن نجدها لديهم ؛ وقد أفردت لها رسالة خاصة هى « الرسالة الخامسة في العلوم التعليمية في الجغرافيا أى صورة الأرض والأقاليم »^(٨٠) ، وموضعها في القسم الأول بين الفلك والموسيقى وذلك في المجموعة العامة التي تشمل العلوم الرياضية والطبيعية ، الأمر الذى يفهم منه أننا إزاء عرض موجز للجغرافيا الفلكية الرياضية وفقاً للمذهب اليوناني ، أى للنظريات البطليموسية . وفي بداية الرسالة تؤكد النظرية القائلة بأن الأرض مركز الوجود^(٨١) ، ويتلو هذا وصف الربع المعمور^(٨٢) والأقاليم السبعة^(٨٣) كل على حدة . ويستغرق هذا الجزء الأكبر من موضوع الرسالة^(٨٤) ، ثم ينتهم كل ذلك كما هى العادة بعدد من الاستنباطات ذات طابع تعليمي (Didactic) القصد منها توضيح المغزى الباطنى للظواهر المحسوسة ؛ وإحدى قطع هذا القسم وهى المتعلقة بالشرق الأقصى والتي قام

232 بتجليلها فيران Ferránd^(٨٥) تقف دليلاً على أن المادة كما هو متوقع تحمل طابعاً ثقيلاً وليست بذات أهمية كبيرة. أما جداول توزيع الأماكن المأهولة وفقاً لكل إقليم فشوهة للغاية^(٨٦) كما هو الشأن دائماً مع المخطوطات. ورغم أن ذلك فقد حاول الكارتوغرافي المشهور كيبرت Kiepert أن يضع على أساسها خارطة للعالم كما تصوره «إخوان الصفاء».

وفيما عدا القسم الخاص بالجغرافيا فإن المعطيات الجغرافية تتناثر في بقية الرسائل، وهي لا تخلو من أهمية في بعض الأحيان رغم أن بعضها قليل ما تميزت بالأصالة. وتلعب نظرية الأزمنة الكونية (Cosmic Cycles) دوراً كبيراً في «رسائل إخوان الصفاء»؛ فقد عمل هؤلاء العلماء على تطوير النظريات القديمة للعالم الكلاسيكي ونظريات العلماء الهنود التي مر بنا ذكرها من قبل، ولكنهم إلى جانب هذا أتوا بآراء طريفة في مجال الجغرافيا الطبيعية^(٨٧) والميتورولوجيا (Meteorology). فهم قد لاحظوا ارتفاع حرارة الغلاف الجوي نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على سطح الأرض، كما تثبتوا من أصل المناخات والأهوار^(٨٨) ولاحظوا أيضاً وجود التغير التدريجي في موضع كل من اليابس والماء*. وقد تجاوزوا عصرهم بكثير عندما نادوا بالنظرية التي مؤداها أنه بمرور الزمان تتحول الأراضي المزروعة إلى صحارى والصحارى إلى أرض مزروعة، وتصبح السهول بحاراً وتتحول البحار إلى سهول وجبال^(٨٩)؛ وفي بداية القرن التالي لهذا يحاول العلامة البيروني أن يثبت ذلك بأدلة محسوسة:

و«رسائل إخوان الصفاء» التي ضيغت في أسلوب سهل لا تثقله المصطلحات والتي تضم دائرة واسعة من الموضوعات في تركيب جلي واضح قد نالت انتشاراً واسعاً ولكن ليس في الأوساط السنية بالطبع، فالغزالي مفكر أهل السنة الكبير (توفي عام ٥٠٥ هـ = ١١١١) يرى في استنتاجاتهم ضلالاً ميبئاً^(٩٠). وقد تجاوزت شهرتهم بسرعة فائقة ليس حدود موطنهم فحسب بل وحدود الأدب العربي بمعناه الضيق، فمنذ نهاية القرن العاشر نشر تعاليمهم بالأندلس^(٩١) مسلمة الخريطى «أقليدس الأندلسي»، وفي القرن الثالث عشر وقع تحت تأثيرهم الكاتب السرياني يعقوب (ساويرس) برشكو (شككو) Bar Shakko^(٩٢)، وفي القرن الرابع عشر نقلت رسائلهم إلى الفارسية في دولة تيمور^(٩٣)، كما أن أجزاء متفرقة منها وجدت طريقها إلى أوروبا الوسيطة. ويرجع الفضل في تعريف الدوائر العلمية المعاصرة بهم إلى ديتريتشي Dieterici الذي أفرد لهم أكثر من عشرين بحثاً في تحليل وترجمة ونشر معظم الرسائل. وترتفع هذه الأبحاث إلى العهد الذي لم تكن قد وضحت فيه بعد طبيعة الوسط الذي نشأت فيه جماعة «إخوان الصفاء»؛ وفي الأعوام العشرة الأخيرة فقط عندما وضحت طبيعة علاقتهم بحركة الإسماعيلية أصبح في حيز الإمكان

* حدث سهو لدى المؤلف عند ما كتب «اليابس والأرض» بدلا من «اليابس والماء». وفي الواقع أن ألفاظ J. K. Wright التي نقلها هي كالاتي: «gradual alteration in the relative position of land and sea» (راجع كتابه Geographical lore, New York, 1925 ص ٨٣). (المترجم)

فهم أفكارهم ۝ داخل الإطار العام للقرن للعاشر . أما بالنسبة للأدب الجغرافي وذلك في مفهومه المستعمل 233 في هذا الكتاب فإن هذه الرسائل ترتبط به ارتباطاً غير مباشر ولكنها لا تخلو من أهمية في تحديد مدى الاهتمام بالجغرافيا لأنها تمثل أثراً ممتازاً في نطاق التاريخ الثقافي لذلك العصر .

ولم ينتج المغرب الإسلامي في القرن العاشر أية مصنفات جغرافية ممتازة حتى يتسنى لها انتشار واسع . ولقد ساهمت مصر والمغرب والأندلس في هذا العصر بالكثير في محيط الجغرافيا الإقليمية مما ورد ذكره في موضعه ، ولكن المصنفات ذات الطابع العام كانت قليلة العدد وليست بذات أهمية تذكر .

ويمكن أن ينسب بشيء من التحفظ إلى هذا العصر مصنف لمؤلف يدعى إسحق بن الحسين نشرته منذ خمسة عشر عاماً أنجيلا كوداتسي Angela Codazzi ويحمل عنواناً فيه الكثير من أثر الصنعة هو « آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان » . وقد حُفظ لنا في مخطوطة فريدة من مجموعة معروفة تمتاز بالأصالة بميلان وتقتصر كلية على مخطوطات من جنوب الجزيرة العربية . ولم يمكن العثور حتى الآن على أية معلومات عن المؤلف (٩٤) ويبدو أن الكتاب قد تم تأليفه بالأندلس ، الأمر الذي يمكن ملاحظته من استعماله لتعابير لغوية خاصة (٩٥) . وتحليل مصادر هذا الكتاب الذي قام به إلى جانب الناشرة مينورسكي وأومنياكوف Umniakov يشير إلى أن تأليفه قد تم فيما يغلب على الظن في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر) ؛ ومن الجائز كذلك أن يمتد هذا التاريخ إلى قرن بعد هذا ، ولكن لن يتجاوز بأية حال عام ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ (٩٦) .

ومن الواضح من مضمون الكتاب أنه لم يحفظ صورته الأصلية بل يمثل في العموم ملخصاً لمصنف أكبر من ذلك بكثير تستند فكرته الأساسية على وصف المدن الكبرى (٩٧) ، وهو نمط من الأدب الجغرافي أولع به الناس كثيراً فيما بعد . وليست واضحة لنا في جميع تفاصيلها طريقة تصنيفه لمادته ، فبعد الكلام على المراكز الدينية وهي مكة والمدينة وبيت المقدس يأتي الكلام على بغداد ويتلو ذلك الحديث عن بلاد الشرق كالعراق والجزيرة العربية وفلسطين وإيران وما وراء النهر ، ثم عن الغرب كمصر والمغرب والأندلس ؛ ويفرد وصفاً خاصاً لرومه والقسطنطينية . ولسبب ما يعقب آسيا الصغرى الحديث عن « مدينة الزابج بالهند » ، وفي الخاتمة يأتي وصف بلاد الترك (٩٨) والخزر .

وتجىء الأوصاف بوجه عام قصيرة جداً وكثيراً ما يصحبها تحديد المواقع الجغرافية ، أي تبيان خطوط الطول والعرض . وقد يرد الكلام عن فتح مدينة ما فتعطي معلومات موجزة في الجغرافيا الطبيعية والسياسية قد تتسع بعض الشيء كما هو الشأن مع القسم المفرد للأندلس . وتقل ۝ المعلومات ذات الطابع 234 الاثنوغرافي (٩٩) ولو أن الفصول المتعلقة بالخزر والترك ربما تمثل أهمية خاصة . ورنحاً عن ذلك فقد ثبت ۝ في بحثين خاصين غالبا هذه النقطة أن كتاب إسحاق بن الحسين لا يقدم عنهما سوى تفاصيل ثانوية تستند

على مصنفات لم تصل إلينا في صورتها الكاملة أو معروفة في مسودات أخرى :

وإسحق بن الحسين كما هو متوقع لا يستقي مادته من المدرسة الكلاسيكية وحدها بل من المتقدمين عليها كذلك ؛ ويمكن ملاحظة تأثير الخوارزمي وابن خردادبة عليه ، ومن الواضح أنه كان أكثر اعتماداً على يعقوب بن رسته . وفيما يتعلق بالآخر يستقي منه بشكل خاص في الفصول المعقودة للخزر والترك ولو أنه لا يمكن استبعاد نقله عن مصنف الجيهاني الذي لم يصلنا ، وعلى أية حال فإنه يجب فيما يتعلق بهذا المؤلف الأخير إعمال الحذر الشديد^(١٠٠) كما فعلنا من قبل . ومن العسير أن نحكم ما إذا كان الأدب الجغرافي المتأخر على علم بمصنف إسحاق بن الحسين ، إذ لم يعثر إلى الآن على ما يثبت ذلك . والرأي الذي نادى به نالينو من أن الإدريسي وابن خلدون قد أخذوا عنه قبول باعتراض شديد^(١٠١) لأن تحديد الأسماء التي يوردها هذان المؤلفان يحتاج إلى براهين أقوى وأمتن من ذلك . وثمة رسالة مشابهة لهذا المصنف تم الكشف عنها في إحدى مكتبات استنبول ولكن لم تنشر عنها أية تفاصيل بعد :

وبمصر الفاطمية ظهر كتاب كان له تأثير كبير على المؤلفات التالية ولكن لا يمكن الحكم عليه إلا من شذرات متفرقة . فقد وضع الحسن بن أحمد (أو محمد) المهلب مصنفه « كتاب المسالك والممالك » للخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ هـ - ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ - ٩٩٦) ولذا فكثيراً ما ورد اسم الكتاب بعنوانه المقتضب « العزيزي »^(١٠٢) . والعنوان الكامل للكتاب يقودنا إل الظن بأنه من طراز « المسالك والممالك » المعروف لنا جيداً من قبل . وقد تبين من المقتطفات التي نقلها عنه المؤلفون المتأخرون أنه يستند أساساً على أوصاف الطرق خاصة طرق أفريقيا^(١٠٣) ؛ وهو يمثل فيما يتعلق بالسودان بالذات أحد المصادر الرئيسية لياقوت^(١٠٤) الذي ينقل عنه أكثر من ستين مرة^(١٠٥) ؛ ولكنه لا يقتصر على أفريقيا وحدها فياقوت مثلاً يرجع إليه أكثر من مرة بصدد مواضع مختلفة من الجزيرة العربية . وقد زار المهلب سامرا وحفظ لنا ياقوت انطباعاته الشخصية عن أطلالها^(١٠٦) ؛ وهو يولي عناية خاصة من بين مصادره فيضعه جنباً إلى جنب مع المقدسي^(١٠٧) . ويعرف مصنفه بالعنوانين اللذين ذكرناهما . وقد استعمله كثيراً أبو الفدا^(١٠٨) ، وهو أيضاً لم يكتف بمادته المتعلقة بأفريقيا بمفهومها الضيق إذ يورد عنه خبراً عن جزيرة سقطرى وسكانها من النصاري النساطرة^(١٠٩) ، كما يورد عنه عدداً من الروايات تتعلق بموطنه الشام . هذا وقد ظل كتاب المهلب معروفاً معرفة مباشرة إلى أيام دولة التيموريين فاستعمله في بداية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حافظ آبرو عندما وضع مصنفه في الجغرافيا^(١١٠) .

236

وجميع أنماط الأدب الجغرافي التي مرت بنا من قبل ظلت تعيش في القرن العاشر في مؤلفات ذات أصالة حقة في بعض الأحيان . فعرف لنا مثلاً مصنف تلعب فيه دوراً أساسياً الرغبة في إرضاء المطالب التبعية وهو للفيهي أبي العباس أحمد بن القاص الطبري الآملي الذي اشتغل بالتدريس في آمل وتوفي

بطرسوس عام ٣٣٥ هـ = ٩٤٦ (١١١) . وعنوان الكتاب فيما يبدو هو « دلائل القبلة » هذا إذا لم يكن حاجي خليفة (١١٢) ، قد استمده من تعبير ورد في مقدمة المؤلف الذى يقول : « تتبعت من علم دلائل القبلة وزوال الشمس ومنازل القمر وطلوع الفجرين ومقادير النوى وأوقات الصلاة مما ألفه الماضون قبلى » (١١٣) . ويصفه حاجي خليفة بقوله إنه « مختصر أكثرها تاريخ وحكايات عن أحوال الأرض » . هذا الطابع المزدوج لمحتويات الكتاب تؤكد المخطوطة الوحيدة المعروفة له والموجودة ضمن مجموعة شخصية بيروت وأعطى وصفاً مختصراً لها باللغة العربية صاحبها نفسه (١١٤) ، كما أثبت أصلها في عام ١٩١٤ (١١٥) كاتب هذه السطور ولكنها لم تصل إلى أيدي الدوائر العلمية بعد (١١٦) .

ومحتويات المخطوطة واضحة على العموم رغم أن أسلوبها لا يخلو من الخلط ؛ وهى تنقسم إلى إحدى عشر فصلاً تتفاوت في أحجامها ؛ وتتضح الأهداف الأصلية للكتاب من فصوله الأولى ، فالفصل الأول يحدد القبلة والثانى يعالج علاقة النجوم بها والثالث يتحدث عن مواقع البلدان المختلفة بالنسبة للقبلة والرابع عن شكل الأرض والموقع المركزى الذى تحتله فيها الكعبة . أما الفصول التالية فتحمل طابعاً تغلب عليه الجغرافيا العمومية ، فالفصل الخامس يعالج الأطوال والعروض والسادس موقع مكة والجزيرة العربية من حيث الطول والسابع البحار والثامن الأنهار والتاسع تقسيم الأرض إلى أقاليم والعاشر الجبال . أما أطول 237 الفصول وأكثرها افتقاراً إلى التجانس فهو الفصل الحادى عشر الذى يتحدث عن البلدان المختلفة والذى جمع فيه المؤلف بلا أدنى تنسيق كل ما ظنه ذا علاقة بموضوع كتابه . فهنا يرد وصف لمسجد مكة كما يرد الكلام على الكعبة والمدينة والبصرة مع وصف قلعتى الخضر والخورنق من عهد الجاهلية ، ثم بيت المقدس والقسطنطينية ورومة مع وصف أسوارها ، وكهف الرقيم وسد يأجوج ومأجوج ، فصنعاء ومعها إرم الأسطورية ، والإسكندرية والأندلس وأصفهان وطبرستان وشمروند . ويختتم الفصل بتصورات عن نهاية العالم وتاريخ الخلافة الإسلامية إلى عهد الراضى الذى ولى الخلافة عام ٣٢٢ هـ = ٩٣٤ .

ورغماً عن الخلط فى كتاب ابن القاص فإن مادته الجغرافية واضحة بالنسبة لنا ، فالمؤلف فقيه يهتم بمسائل الجغرافيا الفلكية بالقدر اللازم لمطالب العبادة المختلفة التى أهمها تحديده اتجاه الصلاة ومواقف الصلوات المختلفة . وإلى جانب هذا فهو يقدم خلاصة لما وقع إليه من « الفضائل » و « العجائب » عن البلاد والمدن المختلفة مستقيماً ذلك من الحديث أو من المادة اللغوية . وفى الأحوال النادرة التى ترد فيها الإشارة إلى المصدر الذى ينقل عنه فقد أمكن التثبت من صدق قوله ، فهو مثلاً يسجل وصفاً للبصرة مأخوذاً عن ألفاظ أحد أهلها وهو خالد بن صفوان (توفى عام ١٣٥ هـ = ٩٥٢ - ٧٥٣) (١١٧) من مشاهير البلغاء وكان مقرباً إلى الخليفة الأموى هشام (١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ = ٧٢٤ - ٧٤٣) ووصف له بالفعل ذابت مرة موطنه البصرة (١١٨) . أما وصفه لرومة فقد أخذ عن قصة هارون بن يحيى المعروف لنا جيداً ، والذى كان فى أسر البيزنطيين فى أوائل القرن العاشر (١١٩) .

ولعل مصنف ابن القاص لم يكن ليتمتع بشيء من الذبوع لواقترص الأمر على المخطوطة الوحيدة التي أمكن الكشف عنها حتى الآن ، ففي الواقع أن آثار معرفة الآخرين به يمكن ملاحظتها لدى عالم رزين كالبيروني ؛ غير أن الطريف في الأمر أن البيروني لا يرجع إليه فيما يتعلق بمسائل الجغرافيا الرياضية بل بصدد قصة « النار المباركة » في بيت المقدس (١٢٠) ، ولكن من الجائز أن يكون الدافع الذي حفز البيروني إلى التعرف عليه هو القسم الفلكي الرياضي من كتابه .

ومثل ابن القاص ليس هو الفريد لعالم عربي ترك لنا مصنفاً في الجغرافيا دون أن يكون هو نفسه عالماً جغرافياً أورشالة ، فالمؤلفات التي ترتبط بالجغرافيا من جانب واحد لا تقع تحت حصر ، غير أن إغفال ذكرها من شأنه أن يقدم صورة ناقصة للعرض العام لتاريخ الأدب الجغرافي . ويهمننا من وجهة نظرنا هذه في القرن العاشر تلك المؤلفات البليوغرافية والاصطلاحية الفريدة في نوعها ، وكذلك بعض مصنفات أخرى يمكن في أحوال أخرى أن تندرج في محيط الأدب الفني .

لقد وضح في الفصول السابقة من هذا الكتاب إلى أي مدى كان اعتمادنا على كتاب « الفهرست » المشهور ، ذلك الكتاب الذي يعتبر محاولة فريدة في نوعها لعرض تاريخ الأدب العربي (١٢١) . وهو قد أصبح مرجعاً عاماً في جميع فروع التاريخ والأدب والعلم العربية منذ السنوات السبعينات من القرن التاسع عشر بفضل الطبعة التي عني بتحضيرها فليغل Flügel والتي لم تر النور إلا بعد وفاته . وفي العشرين عاماً الأخيرة فقط بدأت تبرز إلى الوجود إمكانية تكوين فكرة عامة عن الكتاب في مجموعته بصورة أكثر دقة ووضوحاً ، كما بدت الحاجة ماسة إلى إخراج طبعة علمية جديدة له رغبة عن الجهود الكبيرة التي كان قد بذله فليغل . ولم يكن السبب في هذا هو الكشف عن مخطوطات جديدة للكتاب باستنبول فحسب ، بل أيضاً التطور العام لمنهج البحث العلمي منذ السنوات السبعينات (١٢٢) :

أما عن المؤلف نفسه فلا نعرف الكثير ، كما هو الشأن مع عدد غفير من المؤلفين . وجميع معلوماتنا عنه بالتقريب يجب استنباطها من كتابه نفسه (١٢٣) ، فاسمه الكامل وفقاً لمخطوطات الكتاب هو أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم البغدادي ، ومن هذا يتبين أن أباه كان يتاجر في الكتب ببغداد . ويبدو أنه صاحب أباه في شئون تتعلق بتجارة الكتب فزار الموصل مراراً ؛ أما الزعم القائل بأنه قد زار القسطنطينية ، ذلك الزعم الذي لا يزال يتردد في الأوساط العلمية إلى أيامنا هذه (١٢٤) ، فيستند على محض سهو لفت إليه الأنظار منذ عهد طويل المستشرق روزن . ويمكن أن نلمس في كتاب ابن النديم وجود عواطف معينة نحو الشيعة .

وفي عام ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ - ٩٨٨ فكر ابن النديم في وضع مصنف من أجل الوراقين ومحبي الكتب ، واتخذ لنفسه غاية معينة ذكرها في مقدمة كتابه حيث يقول :

« هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة » (١٢٥) .

وقد أراد ابن النديم فيما يبدو للوهلة الأولى أن يقصر مهمته في الكلام على العلوم « غير الإسلامية » ، فالمسودة الأولى لمصنفه تضم أربع مقالات فقط جمعت إلى جانب المؤلفات العربية الأصيلة | الترجمات العربية 239 للمصنفات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية المعروفة للمؤلف . وقد أفرد المقالة الأولى للفلسفة و« علوم الأوائل » معالجاً فيها إلى جانب الفلسفة المنطق والرياضة والطب . أما المقالة الثانية فلأدب الأسفار والخرافات وأساطير الأمم والسحر . وتحوى المقالة الثالثة الكلام على تاريخ الأديان وعن المذاهب والفرق المختلفة ؛ والمقالة الرابعة في أخبار الكيميائيين . غير أن المؤلف أضاف إلى ذلك في ذات العام نفسه ست مقالات أخرى كرسها « للعلوم الإسلامية » التي شغلت القسم الأول لما سُميت « بالمسودة الموسعة » . وفيه يرد على التوالى تعداد المصنفات التي تتصل بعلوم القرآن والنحو والتاريخ والشعر والكلام ؛ وقد ظل المؤلف يضيف إلى كتابه إلى بداية القرن الخامس الهجري تقريباً (التاسع الميلادي) . أما عام وفاته فغير معروف لنا . وقد استعمل ياقوت كتاب « الفهرست » في المسودة الموسعة من عمل الوزير المغربي (المتوفى عام ٤١٨ هـ = ١٥٢٧) (١٢٦) ؛ ويلوح أنها حظيت بانتشار واسع .

ومن المؤكد أن ابن النديم لم يكن من أصحاب السير بل من جامعي أسماء المصنفات في فروع العلوم المختلفة (ببليوغرافي) (١٢٧) ، وما خلفه لنا من تراجم الأشخاص نزر يسير إذ أنه لم يلق بالآلى المؤلفين بقدر ما حصر اهتمامه في مصنفاتهم ؛ وهو المجال الذي برزت فيه قدرته بحق . وهو يعالج عدداً من المسائل المتعلقة بالكتابات القديمة وبالنخط ، وقد نالت ملاحظاته عن كتابات الأمم المختلفة بما في ذلك الروس (١٢٨) شهرة واسعة وبُذلت محاولات شتى لفك طلاسمها . وهو يولى اهتماماً خاصاً إلى النخطوط التي وجدت بخط المؤلفين أنفسهم ، وكذلك إلى المكتبات الشخصية والنسخ الممتازة الموجودة بها . وصاحب « الفهرست » على إحاطة تامة بفروع العلوم المختلفة ويمكن الموافقة تماماً على رأى بارتولد في أن هذا الكتاب « سيبقى على الدوام المصدر الرئيسى لمعرفة الأدب والعلم في القرون الأربعة الأولى للإسلام » (١٢٩) .

ولم يفرد للجغرافيا فيه مقالة خاصة ولكن هذا لا يقلل من شأن الكتاب بالنسبة لتاريخ علم الجغرافيا . فالجغرافيا لديه تنضم من ناحية إلى العلوم الرياضية ومن ناحية أخرى إلى التاريخ والأدب . وترد المعلومات عن المصنفات الجغرافية تحت أسماء المؤلفين عادة ؛ وقد أفدنا منها في معظم الحالات السابقة للقرن العاشر . غير أنه إلى جانب هذا يضم « الفهرست » أحياناً وقائع ذات طابع جغرافى صرف في غاية من الأهمية ؛ وقد سبق أن ذكرنا روايته لقصاص أبي دلف ولقصة الراهب النجرانى الذى زار الصين . ويمكن أن

يضاف إلى هذا معلومات أخرى مثل معلوماته عن الهند وفرقها وعن الصين ، وهي تمثل أهمية كبرى
240 فيما يتعلق بتلك البلاد كما دلل على ذلك فيران Ferrand (١٣٠) أثناء تحليله لها .

وإلى جانب هذا المصنف البيليوغرافي وصلنا عن أواخر القرن العاشر مصنف في المصطلحات العلمية
لا يقل أهمية عن « الفهرست » ؛ ذلك هو كتاب « مفاتيح العلوم » لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف
الحوارزمي . وقد أصبح هذا الكتاب معروفاً جيداً للعلماء المتخصصين في كافة فروع العلوم منذ الطبعة
التي نشرها فان فلوتن Van Vloten عام ١٨٩٥ والتي تعتمد على أقدم مخطوطة يرجع تاريخها إلى عام
٥٥٦ هـ = ١١٦٠ - ١١٦١ (١٣١) ؛ أما أهمية الكتاب بالنسبة لتاريخ العلوم والثقافة فقد تم الاعتراف
بها بحق على أنها لا تقل أهمية عن « الفهرست » و« رسائل إخوان الصفاء » (١٣٢) .

وقد ظهر هذا الأثر في ذات الوسط الإداري الذي برزت فيه إلى الوجود في ذلك العصر طائفة
من الآثار الممتازة في منطقة إيران الشرقية التي نافست بغداد نفسها في القرن العاشر . وكان أبو عبد الله
الحوارزمي كاتباً للعتبي وزير نوح الثاني الساماني الذي ولي الحكم في المدة ٣٦٥ هـ - ٣٨٧ هـ = ٩٧٦ -
٩٩٧ ، وعاش بنيسابور حيث وضع كتابه بين عامي ٣٦٥ هـ = ٩٧٦ و ٣٨١ هـ = ٩٩١ . وكان هدفه
في الأصل وضع مصنف للدواوين على هيئة معجم يشرح المصطلحات المستعملة في جميع فروع العلوم
المختلفة . وقد أفرد المقالة الأولى لعلوم الشريعة وعلوم العربية المرتبطة بها ، وهي تقع في ستة أبواب تضم
الفقه والكلام والنحو والكتابة (الرسائل) والشعر (ومعه العروض) والتاريخ . أما المقالة الثانية فتعالج
علوم « العجم » ويعني بذلك اليونان والسرمان والفرس والهند ، وهي تحتوي على تسعة أبواب في الفلسفة
والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والحيل والكيمياء (١٣٣) .

هذا الترتيب يكشف عن مدى إحاطة المؤلف الجيدة بتصنيف العلوم عند اليونان (١٣٤) ، ولعله
قد عرف اليونانية والسرمانية إلى جانب الفارسية التي كانت دون ريب قريبة منه . ولم يكن إلمامه بالمصادر
العربية بأقل من تلك ، فهو كثيراً ما استعمل معجم الخليل ومصنفات الأصمعي اللغوية بل كان يرجع
إلى مصنف مثل كتاب الشعر لابن المعتز . ولكتاباه أهمية خاصة فيما يتعلق بخراسان وما وراء النهر التي عرفها
أكثر من غيرها . ومعطياته عن مصطلح الري في تلك البلاد قد بحثها العلماء الروس أكثر من مرة (١٣٥)
ولا تزال تحتفظ بأهمية واقعية إلى أيامنا هذه . والكتاب بأجمعه كما قال فان فلوتن يمتاز « بترتيب وإيجاز
في العرض قل أن يوجد مثيل لها في المصنفات العربية » (١٣٦) .

والجغرافيا كعلم تحتل بالطبع مكاناً ثانوياً في « مفاتيح العلوم » ؛ ويقتصر المؤلف على معالجتها من
241 الناحية الرياضية فحسب ، وهي تدخل في الغالب في باب الفلك (الباب السادس من المقالة الثانية)
نحيث تيشغل المكان الثاني (١٣٧) . وفيه يرد شرح مفيد جداً لجميع المصطلحات الأساسية المستعملة في اللغة

العربية في ميدان الجغرافيا الرياضية والفلكية ، تلك المصطلحات التي مر بنا الكلام عليها عند ذكر المصنفات المرتبطة بالمدرسة اليونانية . ويوجد هذا الباب في متناول أيدي غير المستعربين بفضل الترجمة التي قام بها فيدمان Wiedemann مؤرخ العلوم عند العرب (١٣٨).

وإذا كان ابن النديم وأبو عبد الله الخوارزمي قد وجها اهتمامهما الرئيسى إلى تصنيف العلوم فإننا نلتقي في القرن العاشر بعدد لا يستهان به من مصنفات المنهج الأدبي اللغوى التي تمس علم الجغرافيا كذلك . وقد مر بنا في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف أن دراسة الأعلام الجغرافية الموجودة في النسيب الجاهلى قد دفعت إلى وضع مؤلفات من طراز «كتاب جزيرة العرب» أو «كتاب جبال تهامة» ، والآن في القرن العاشر وفي عهد العباسيين نبصر ظهور عدد من الكتب الطريفة من طراز «كتب الديارات» التي جمعت فيها الأشعار الوارد فيها ذكر الديارات الشهيرة مع شروح وافية لها . وهى دون ريب لم تجتذب اهتمام المجتمع العربى والشعراء العرب بوصفها أماكن لعبادة المسيحيين ، بل اجتذبتهم بسبب الشهرة التي نالتها في إنتاج النبيذ وبيعه . ففيها كان يمكن شراء النبيذ الجيد وإقامة مجالس الشراب المقتصرة ، سواء في بساتين الدير أو في محلات خاصة بعيداً عن أعين الرقباء من متشددى المسلمين . وفي هذه المجالس كان الشعراء ينشدون أشعارهم ، بل إن المجالس نفسها كانت توصف في هذه الأشعار بطريقة حية تقدم لنا لوحة دقيقة لحياة ذلك العصر . وكان عدد هذه الديارات كبيراً ، وسرعان ما أحس اللغويون بالحاجة إلى وضع مرجع عام عنها كما فعلوا من قبل مع مواضع الجزيرة العربية الواردة في الأشعار .

ويمكن الحكم على الاهتمام بهذا الموضوع من أن عدد المصنفات التي من هذا الطراز لا يقل عن العشرين (١٣٩) . أما ما حوته من مادة ضخمة حية عن الحياة الثقافية والاجتماعية للعصر فيتضح من ثنايا البحث الذى نشره منذ عهد غير بعيد العلامة العربى حبيب الزيات (١٤٠) . ومن المرجح أن البحث الذى وعد به فيشر Fischer عام ١٩٢٩ لن يكون أقل أهمية من ذلك* (١٤١) .

وفي النصف الثانى من القرن العاشر تمتعت ثلاثة من «كتب الديارات» بشهرة خاصة ، وأحدها لمؤلف كتاب «الأغاني» المشهور أبى الفرج الأصفهاني (١٤٢) . وترجع معرفتنا بهذه الكتب عادة إلى شذرات متفرقة ، إلا أن واحداً منها وهو [للشابشتى معروف لنا معرفة مباشرة بفضل المخطوطة الفريدة 242 الموجودة ببرلين (١٤٣) والتي لا تخلو من السقط . وهناك زعم بوجود مخطوط طريفة مصورة لهذا الكتاب روئت في القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) (١٤٤) . أما المؤلف فليست لدينا عنه أية معلومات بخلاف أنه كان أميناً لمكتبة الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ هـ - ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ - ٩٩٦)

* توفي فيشر عام ١٩٤٩ ، وليس لنا علم ببحث له في هذا الموضوع . وهو نفس المشتشرق الألمانى الذى ندين له باللبنة الأولى في وضع معجم تاريخى للغة العربية . (المترجم)

وقارئاً^(١٤٥) له . وقد أبدى ياقوت الذى كثيراً ما ينقل عن كتابه^(١٤٦) تردداً واضحاً فيما يتعلق باسم المؤلف^(١٤٧) ، أما ابن خلكان فإنه لم يستطع رغم بحثه وتقصيه أن يثبت أصل النسبة ، وافترض فى آخر الأمر أنها ديلمية الأصل^{(١٤٨)*} . كذلك يخطط شك كبير بتاريخ وفاته وهل كان ذلك فى عام ٣٨٨ هـ = ٩٨٨ م عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ (١٤٩) .

ولعل طبيعة وظيفته كقاص للبلاط هى التى حفزته لوضع مصنفه « كتاب الديارات »^(١٥٠) ، ووفقاً لفكرته الأساسية فقد كان من المفروض أن يشمل الكتاب جميع أديرة العراق والحزيرة والشام ومصر إلا أن المخطوطة البرلينية لم تحتفظ لنا عن أديرة العراق إلا قسمها ضئيلاً ، بينما تفتقد أديرة الشام بالكلية^(١٥١) . ونصيب مصر أقل بكثير من نصيب الحزيرة ، غير أن القسم الخاص بها كما هو واضح من بحث العلامة القبطى عزيز سوريل عطية^(١٥٢) يحوى مادة قيمة . وكما هو الشأن مع المصنفات السابقة فإن مركز الثقل فى الكتاب لا يقوم على الوصف الجغرافى لتوزيع الأديرة وإن لقي بعض الاهتمام ، بقدر ما يقوم على القصائد الطويلة والحكايات المتعلقة بها . وهذه بالطبع لها قيمتها الذاتية وقد جمعها زاخاو Zachau فى كتيب خاص ويمكن للجغرافى أن يستقى منها معلومات غير قليلة .

ومن الثابت أن كتب الديارات لم تكن النمط الوحيد فى ذلك العصر الذى يقدم لنا معطيات جغرافية ؛ إذ يمكن استخراجها بصورة أيسر من المجموعات التاريخية الأدبية التى ذكر بها ذلك العصر أيضاً . ويجب أن نولى اعتباراً خاصاً فى هذا الصدد لثلاث مصنفات لأبى على المحسن التنوخى (توفى عام ٣٨٤ هـ = ٩٩٤) ^(١٥٣) الذى تزايد الاهتمام بشخصه فى الآونة الأخيرة عند المؤرخين بسبب طبع قسم من أحد مصنفاته الأدبية منذ عهد غير بعيد^(١٥٤) . ففى مصنفاته هذه تنعكس قصة حياته المضطربة التى قذفت به من البصرة إلى بغداد إلى الأهواز تارة فى منصب قاض وأخرى مدرساً وثالثة أديباً مفلساً ؛ ويبدو فيها مجهوده لابتكار القصص الجديدة وقوة ملاحظته واتباعه لمنهج أصيل فى معالجة كل ما يقع تحت نظريته . وسأقتصر على إيراد مثال واحد طريف يهمنى من وجهة نظر الأدب الجغرافى .

فى أكثر مجموعاته الأدبية شهرة وهو « كتاب الفرج بعد الشدة » الذى طبع فى القاهرة منذ وقت طويل أفرد الفصل السابع^(١٥٥) للقصص المختلفة من عالم الحيوان ، كالفيلة^(١٥٦) والأسود^(١٥٧) والقردة^(١٥٨) وكثير غيرها . وإذا اعتُبر بعضها مجرد حكايات للتسلية فحسب فإن البعض الآخر يتميز بالكثير من الحيوية والتفصيل بحيث يقدم للمتخصصين فى الجغرافيا الحيوانية (Zoological Geograpy) مادة لاستقرارات علمية ذات أهمية . وفى كتاب التنوخى تنعكس تلك المصادر التى خلقت نمط « القصص البحرية » المعروف لنا ؛ وهكذا يقترن فى مصنفاته الأدب التاريخى بالأدبين الفنى والجغرافى .

* عن توضيح أصل اسم الشاشى راجع ما جمعه الأستاذ كوركيش عواد فى مقدمة طبعته لكتاب الديارات (الترجم)

وإلى جانب « القصص البحرية » المحببة إلى الجماهير وجد في هذا العصر دون شك « الراهماني » ؛
 أى مرشد الطريق البحري ؛ وهى أوصاف لطرق الملاحة يرجع أصل واحد منها إلى نهاية القرن العاشر
 ومؤلفه هو « المعلم » (أى الربان) خواشيرين يوسف الأركى الذى أبحر حوالى عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩
 على سفينة هندية على طول الساحل الشرقى والجنوبى الشرقى لأفريقيا . وقد استعمل راهمانيه مؤلفو
 القرن الثانى عشر ، أما أخباره فقد حفظها لنا الربانة الكبار للقرن الخامس عشر من معاصرى فاسكو دا
 غاما Vasco da Gama الذين صحبوه فى رحلته التى كشفت فيها الطريق من أفريقيا إلى الهند (١٥٩) .
 ويمثل القرن العاشر فى جميع ميادين الأدب الجغرافى خطوة هامة ، بل ويرى فيه البعض أوج
 الجغرافيا العربية . ومن الثابت أن عدد المصنفات لم يتعرض للنقصان فى العصور التالية ، ولكن يمكن الجزم
 بأنه لم يحدث كما حدث فى هذا العصر أن ظهر فى وقت واحد مثل ذلك العدد الضخم من الكتاب المبرزين
 ومن الآثار الكبرى الذى لا يزال تأثيره محسوساً إلى القرن العشرين .

حواشي الفصل الثامن

- Reinaud, Introduction, p. LXII-LXIV (١) راجع عنه : -
- Sprenger, Reiserouten, p. XVII-Bartold, Turkestan, p. 12-13.
- حدود العالم ، ص ١٧ (الترجمة الإنجليزية ، ص ٢٣ - ٢٤)
- Markwart, Streifzüge, p. XXXI — XXXII — Markwart, Bericht p. 303
- Wiedemann, Beiträge, XXVII, 1912. p. 8-9 note 3 — Krachkovski,
- « Blagodatny Ogon » p. 241 note 7
- Bartold, Turkestan, p. 12-13 (= Barthold, Turkestan, p. 12) : راجع (٢) الترجمة ، راجع :
- Hudud, p. XVIII
- (٣) المقدسي BGA, III ص ٢٤١
- (٤) شرحه III ، ص ٤ ، رقم ١ : الترجمة راجع :
- Bartold, Turkestan, p. 13 (= Barthold, Turkestan, p. 12)
- (٥) المسعودي BGA, VIII ، ص ٧٥ =
- Carra de Vaux, Maçoudi p. 109
- Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 178 (٦)
- (٧) الفهرست ، ص ١٣٨
- Janicsek, p. 15-26 (٨)
- Z. Validi, OZ, XL. p. 368, note 1 — Brockelmann, GAL, SBI, p. 407, No 9 (٩)
- Reinaud, Introduction, p. LXIII (١٠)
- Brockelmann, GAL, I, p. 228, No 9 (١١)
- Heer p. 21, No 9 (١٢)
- Sarton, Introduction, I, p. 635-636 (١٣)
- Markwart, Streifzüge, p. XXXI — Hudud, p. 168 (١٤)
- Bartold SV, I, p. 42 (١٥)
- Girgas, p. 195 (١٦)
- Brockelmann. GAL, I, p. 228, No 9 (١٧)
- (١٨) الفهرست ، ص ١٥٤
- (١٩) ابن الفقيه ، BGA, V ، ص XI
- (٢٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧

- (٢١) شرحه الجزء الثالث ، ص ٣٩٤ : راجع : Heer, p. 21. No 9
- (٢٢) ياقوت الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤
- (٢٣) حاجي خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥١٠ ، رقم ١١٨٧٢ -
- Frähn, Ibn. Foszan, p. XXIV - XXV
- Hudud, p. XVII — XVIII (٢٤)
- Reinaud, Introduction, p. LXIII (٢٥)
- Hudud, p. XVIII (٢٦)
- (٢٧) حدود العالم ، ص ١٧ (Hudud, p. 24 =)
- (٢٨) Krachkovski, « Blagodatny ogon » p. 242 note 1-2 — Wiedemann, Beiträge, XXVII p. 8-9 note 3
- Krachkovski, « Blagodatny ogon », p. 230, 241 (٢٩)
- (٣٠) البيروني ، كتاب الجواهر ، ص ١٦٦
- Wiedemann, und Kohl (٣١)
- Nallino, Al-Battani, I. p. 166, 167-169; II, p. XXIII — Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 8-9, note 3—Validi, Schwerter p. 42 (٣٢)
- (٣٣) حسب ترجمة مينورسكي (Hudud, p. VII, note 2) : مناطق (Regions)
- Kramers, El, EB, p. 67 (٣٤)
- Taeschner, DI, XXVI, p. 67 : (٣٥) لقد نشر ، راجع :
- Minorsky, une nouvelle source, p. 1-8 ; Umniakov, — راجع أيضاً :
- VDI, No 3 (4), 1938, p. 211-218; Brockelmann, GAL, SBI, p. 411, No 15
- [Minorsky, Addenda to the Hudud, BSOAS, XVII, 1955, p. 250 : راجع أيضاً :
- (٣٦) حدود العالم ، ص ٦
- (٣٧) حسب تعداد الكتاب نفسه (الورقة الأولى ، ب) ستون فصلا ، فقد أسقط « البجناني » (الورقة ١٨ ، ب) .
- Kramers, El, EB, p. 67 : (٣٨) راجع :
- Huart, JA, série, XVIII p. 16 (٣٩)
- (٤٠) شرحه ، ص ٢٠
- (٤١) شرحه ص ١٧ ، ٢٠ - راجع أيضاً :
- Huart, Le Livre de la Creation—Brockelmann, GAL, SBI, p. 222, No 8
- Sarton, Introduction I, p. 659 — Krymski, Istoria Arabov, I, p. 103, 125
- Huart, Littérature Arabe, p. 282-283

(٤٢) حاجي خليفة ، الجزء الثاني ، ص ٢٣ ، رقم ١٦٩٣ -

Huart, Le livre de la Création, I, p. 5-6

المتن :

« فأمرني أن أجمع له كتاباً . . . مصفى عن سقاط الفسالات وخرافات المجازات وتزاوير القصص . . . » -

الترجمة ، الجزء الأول ، ص ٥

- Huart, Le livre de la Creation

(٤٣)

- Brockelmann, GAL, SBI, p. 222 No 8

(٤٤)

- Sarton, I, p. 659 — Huart, Le Livre de la Création, II (المتن) p. 146; (الترجمة)

II, p. 135

- Huart, Le Livre de la Creation, IV, p. 49-104; الترجمة p. 47-99

(٤٦)

(٤٧) شرحه ، ص ٤٩

(٤٨) شرحه ، ص ٥٤

(٤٩) شرحه ، ص ٥٧

(٥٠) شرحه ، ص ٦١

(٥١) شرحه ، ص ٧٠

(٥٢) شرحه ، ص ٨١

(٥٣) شرحه ، ص ٩٠

(٥٤) شرحه ، ص ٩١

(٥٥) شرحه ، ص ٩٢

(٥٦) شرحه ، ص ٩٦

(٥٧) شرحه ، ص ٩٨

(٥٨) شرحه ، ص ١٠٢ - ١٠٤

(٥٩) شرحه ، ص ٥٤ ، ٩٧

- Ferrand, Relations, I, p. 116-117

(٦٠)

(٦١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثاني ، ص ٨٣٤

- Huart, IV, p 66-67 = (الترجمة) p. 62-63

(٦٢)

- Markwart, Streifzüge, 200, 556

(٦٣)

- Huart, IV, p. 49-104

(٦٤)

(٦٥) شرحه ، ص ٨٠ - ٨١

- Kramers, EI, EB, p. 67

(٦٦)

- Brockelmann, GAL, I, p. 213-214, No 5 ; SBI, p. 379-380 — Sarton,

(٦٧)

Introduction, I, p. 660-661 — Mieli, p. 128-130 — De Boer, EI, II,

- p. 489-440 — Krymski, Istorii Arabov I, p. 126. — Krymski, Istorii Persii, I, No 2, p. 171-172 — Levy, II, p. 362-400 — Krachkovski, Arabskie Entsiklopedii, p. 17-18
- Goldziher, Ichwan al-safa, p. 22-26 (٦٨)
- Brockelmann, GAL, I, p. 213-214: SBI, p. 380 (٦٩)
- Nicholson Literary History, p. 370 (٧٠)
- Massignon, DI, IV, p. 324 (٧١)
- (٧٢) ابن القفطي ، ص ٨٢
- Arnold, Chrestomathia, p. 111 (٧٣)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 380 (٧٤)
- Krachkovski, Arabskie Entsiklopedii, p. 17 (٧٥)
- Sarton, Introduction, I, p. 660 (٧٦)
- Dieterici, Streit (الترجمة) : — Thier und Mensch (٧٧)
- Sarton, Introduction, I, p. 661 — Krachkovski, Arabskie Entsiklopedii, (٧٨)
- p. 17-18
- Gibb, Arabic Literature, p. 68 راجع مذهباً آخر لدى :
- Ruska GZ, p. 592 (٧٩)
- (٨٠) إخوان الصفا ، الجزء الأول ، ص ١٢٦ - ١٤٤ . القطعة لدى :
- Dieterici, Ichwan essafa, p. 59-65;
- الترجمة راجع : — Levy, II, p. 86-99 — Dieterici, Die Propaedeutik, 4th section, p. 377-381
- (٨١) إخوان الصفاء ، الجزء الأول ، ص ١٢٨
- (٨٢) شرحه ، ص ١٣٠
- (٨٣) شرحه ، ص ١٣١
- (٨٤) شرحه ، ص ١٣٤ - ١٤٢
- Férfaud, Relations I, p. 114-115. (٨٥)
- Dieterici, Die Propedeutik, p. 191-199, (٨٦)
- مع المتن مصوراً وخارطة من عمل Kiepert كيبرت
- J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 83 = Kimble, p. 169-170 (٨٧)
- (٨٨) شرحه ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦
- (٨٩) شرحه ، ص ٨٣ = Kimble, p. 170

- Brockelmann, GAL, SBI, p. 380 (٩٠)
- Gonzalez Palencia, p. 262 (٩١)
- Ruska, Quadrivium, p. 5 — ZA, XII, 1897, p. 145 (٩٢)
- Bartold, Kult, mus., p. 41 (٩٣)
- Umniakov, Kompendium, p. 1139 (٩٤)
- (٩٥) شرحه ، ص ١١٤٠
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 405, No 2 B (٩٦)
- Kramers, El, EB, p. 67 (٩٧)
- Umniakov, Kompendium, p. 1140-1141 (٩٨)
- (٩٩) شرحه ، ص ١١٤١
- Minorsky, Khazars, p. 149-150 (١٠٠) شرحه ، ص ١١٤٥ ؛ راجع :
- (١٠١) شرحه ، ص ١١٣٨
- (١٠٢) حاجي خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥١٢ ، رقم ١١٨٧٥ -
- Carra de Vaux, Les Penseurs, II, p. 9
- Kramers, El, SB, p. 67 (١٠٣)
- Mez, p. 267 (١٠٤)
- (١٠٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء السادس ، ص ٣٨٠ - يفتقد لدى Heer
- (١٠٦) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ١٩ - ٢٠
- (١٠٧) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٧
- Reinaud, Introduction, p. XCII - XCIII = Mehren, ١٠٨٨ p. 25 (١٠٨)
- (١٠٩) أبو الفداء ، الجزء الثاني ، ص ٣٧١ = Storbeck, p. 52
- Bartold, Haliz; Abru, p. 3-4 (١١٠)
- Brockelmann, GAL, I, p. 180, No 5; SBI, p. 306-307 (١١١)
- (١١٢) حاجي خليفة ، الجزء الثالث ، ص ٢٣٦ ، رقم ٥١٢٨
- (١١٣) جرجس أفندي صفنا ، ص ٤٣٩
- (١١٤) شرحه ، ص ٤٣٩ - ٤٤٢ ، ص ٥٧٨ - ٥٧٩
- Krachkovski, « Blagodatny ogon » p. 232-233 (١١٥)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 951 (١١٦)
- (١١٧) ياقوت ، إرشاد الأريب ، الجزء الرابع ، ص ١٩٠ - ١٩٥ : راجع : الزركلي ، الجزء الأول ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥
- (١١٨) جرجس أفندي صفنا ، ص ٤٤١ - ٤٤٢

(١١٩) راجع أعلاه الفصل الرابع

- Krachkovski, « Blagodatny ogon », p. 232-233 (١٢٠)
- Fück ZDMG, 90. 2, p. 299 - 321 (١٢١)
- Ritter, DI, XVII, p. 15-23 - Fück, ZDMG (١٢٢)
- Brockelmann, GAL, I, p. 147-148, No 3; SBI, p. 226-227 — Ritter DI, (١٢٣)
- XVII, p. 17-23 = ٦٨٧ - ٦٧٨ - محمد يونس الحسيني ، ص ٦٨٧ - Fück, ZDMG, 84, p. 111-124 — Fück, EI, III, p. 873-874 — Nallino, Racc., p. 47-50
- Sarton Introduction p. 662
- Fück, EI, III, p. 873 — Fück, ZDMG, 84, p. 111 - 1.4 — Sarton, شرحه (١٢٤)
- (١٢٥) الفهرست ، ص ٢
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 226-227. (١٢٦)
- عن المغربي راجع : Zettersteen, EI, III, p. 117
- Fück, EI, III, p. 874 (١٢٧)
- Fren, Pism dr. Russov (١٢٨)
- Bartold Musl, Mir, p. 51 (١٢٩)
- Ferrand, Relations I, p. 118-130 (١٣٠)
- Van Vloten, Mafatih al - olum, p. 6 (١٣١)
- Sarton, Introduction, I, p. 659 - Krymski, Istoria Persii p. 172 (١٣٢)
- Brockelmann, GAL, I, p. 244, No 1, SBI, p. 434-435 — Wiedemann, (١٣٣)
- Al - Khwarizmi, p. 979 - 980 Mieli, p. 96-97 — Beliaev, MITT, p. 29
- Bartold, Kult. Mus., p. 35-36 (١٣٤)
- Bartold, K istorii orosh., p. 17-18, 54-58 — Volin Mafatih, p. 217 - 219 (١٣٥)
- Van Vloten, Mafatih al - olum, p. 5 (١٣٦)
- (١٣٧) شرحه ، ص ٢١٥ - ٢٢٥
- Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 37-40 (١٣٨)
- (١٣٩) حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٢٩٢ - ٢٩٥
- (١٤٠) شرحه ، ص ٢٩١ - ٤١٨
- Fischer, SBSAW, 81, 3 (1929) (١٤١)
- Heer, p. 23 — حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٢٩٣ ، رقم ٢ (١٤٢)
- Sachau Klosterbuch, p. 6
- Sachau, Klosterbuch (١٤٣) حبيب الزيات ، ص ٢٩٣ ، رقم ٤

- (١٤٤) شرحه
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 411, No 14 (١٤٥)
- (١٤٦) تحليله لدى : Heer, p. 88 - 98
- (١٤٧) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٤٠٨
- De Slane, Ibn Khalikan, II, p. 263 (١٤٨)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 411, No 14 (١٤٩)
- Sachau, Arab. Erzählungen, p. 104 - 105, 115 - 119 : راجع : (١٥٠)
- (١٥١) حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٢٩٣ ، رقم ٤
- A. S. Atiya, XXme Congrès, p. 77 (١٥٢)
- Brockelmann, GAL, I, p. 155 - 156, No 10, SBI, p. 252 - 253 — Paret, (١٥٣)
- p. 710 — Wiener p. 39 - 41
- Margoliouth, Al-Tanukhi p. 137 - 146 (١٥٤)
- (١٥٥) التنوخي ، الجزء الثاني ، ص ٧٣ - ٩٤
- (١٥٦) شرحه ، ص ٧٣ - ٧٤ ، ٧٩ - ٨٠ ، ٨٧ - ٨٨
- (١٥٧) شرحه ، ص ٧٥ - ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ - ٨١ ، ٨٨ - ٨٩
- (١٥٨) شرحه ، ص ٧٨ - ٧٩
- Mez, p. 267 — Ferrand, Sofala, p. 394 - 395 (١٥٩)

الفصل التاسع

البيروني وجغرافيو القرن الحادى عشر بالمشرق

بدأ القرن الحادى عشر مشرقاً بالنسبة للعلم العربى ؛ ففي عام ٣٩٠ هـ = ١٠٠٠ م أتم تأليف كتابه 244 المشهور « الآثار الباقية » علامة شاب هو البيروني ، وهو كتاب لا مثيل له فى جميع آداب الشرق الأدنى . وفى خلال نصف قرن تقريباً من هذا التاريخ لم يتوقف البيروني عن تزويد مختلف فروع العلم بمؤلفاته العديدة التى يمكن القول بأنها بلغت ذروتها بكتابه عن الهند ، ذلك الكتاب الذى وصفه روزن منذ أكثر من خمسين عاماً بأنه « أثر فريد فى بابه لا مثيل له فى الأدب العلمى القديم أو الوسيط سواء فى الغرب أو الشرق »^(١) . وقد أحس العلماء بسمو شخصية البيروني العلمية منذ بزوغ فجر الاستعراب العلمى ، فكاترمير Quatremère قد لفت إليه الأنظار قبل روزن بنصف قرن تقريباً^(٢) . وكما توسع العلم وتعمق فى التعرف عليه وعلى مصنفااته كلما بدت شخصيته أكثر عظمة وسمواً . وفى أيامنا هذه أطلق سارطون على الفترة التى تشمل منتصف القرن الحادى عشر ، وذلك بالنسبة لتاريخ العلم العالمى ، اسم عصر البيروني لأنه أكبر شخصية علمية عاشت فى ذلك الوقت . ولا تزال شخصيته العلمية آخذة فى النمو ، فقد تم العثور على مواد جديدة تؤكد أحقية هذا العالم الذى ينتمى إلى بلاد ما وراء النهر لكل ما ناله من تقدير وإجلال ؛

.. وحياة البيروني أبعد من أن توصف بالهدوء والاستقرار ؛ ولا نملك إزاء هذا إلا الانحناء فى خشوع واحترام أمام النتائج العلمية الباهرة التى توصل إليها والتراث العلمى الحافل الذى أنتجه فى ظروف الزمان الذى عاش فيه . ولد البيروني فى الثانى من ذى الحجة عام ٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م^(٣) بضاحية من ضواحي خوارزم ، ومنها أخذ نسبته البيروني التى تنطق فى العربية بكسر الباء ولكن فى الفارسية تنطق الباء بمالة بعض الشئ (أى تليها e ممدودة) . ويمكن أن نجد إشارة إلى هذا فى إحدى النسخ التى كتبها بخط يده حيث يشكل اسمه بالعربية البيرونى أى بفتح الباء تليها ياء مسكّنة^(٤) ، يريد بذلك على ما يظهر أن يبين الصوت الممدود e الذى لا يوجد فى الكتابة العربية . أما فى الاستعمال العربى العادى فقد سرى 245 عليه اسم البيرونى بكسر الباء ، وهو الذى سنسير عليه أسوة بما حدث مع اسم المؤرخ الدينورى . والنسبة نفسها غير مستعملة كثيراً ، ولعله إلى جانب المعنى المعروف الذى يشير إليه السمعاني^(٥) وهو « رجل الضاحية » ، تختفى إشارة ما إلى أصل مغمور لمؤلفنا . وعلى ضوء هذا فقد لا يكون من قبيل المزاح والفكاهة أبيات البيرونى التى حفظها لنا ياقوت والتى يقول فيها^(٦) :

«.....:.....»
ولست والله حقاً عارفاً نسبي
إذ لست أعرف جدى حق معرفة وكيف أعرف جدى إذ جهلت أبى
إنى أبو لُهب شيخ بلا أدب نعم ووالدنى همالة الخطب »

وكنيته أبو الريحان غير واضحة بدورها^(٧)، كما وأن نسبه مجهول تماماً . أما اسمه محمد بن أحمد فلا يفاد منه شيء البتة ، بل جرت العادة على استعمال هذه الأسماء عندما تكون الأسماء الحقيقية غير معروفة . ومهما يكن مدلول أبيات الشعر هذه فإن لغته الوطنية كانت الخوارزمية^(٨) ، وتأتنى له أن يتلقى تعليماً جيداً دعمته أسفاره العديدة وتجوّاله وتعطشه الشديد إلى المعرفة الذى ألهم مشاعره منذ سن مبكرة . ومنذ سن مبكرة أيضاً اتجه اهتمامه إلى نواح من العلم لم تكن معهودة للدارسين في العصور الوسطى الإسلامية ، ويروى أنه عاش بخوارزم إذ ذاك عالم يوناني فكان يختلف إليه البيروني حاملاً أنواع النبات والبذور والثمار يسأله عن أسماؤها اليونانية ويدون ذلك^(٩). وقد لفت وهو لا يزال شاباً أنظار رعاة الأدب في دولة بني عراق المحلية الصغيرة ، ولكنه لم يلبث أن اضطر عقب إحدى الانقلابات إلى مغادرة وطنه وهو في سن العشرين ، فرحل إلى سواحل بحر قزوين . وفي جرجان التقى بأكبر أساتذته وهو الطبيب والفلكي المسيحي أبو سهل عيسى المسيحي ؛ وهناك أيضاً تمتع بعطف أمير جرجان وطبرستان قابوس بن وشمكير الزيارى^(١٠)، الذى اكتسب بدوره بعض الشهرة كنائر وآخذ في العلم بطرف^(١١)؛ وإليه رفع البيروني أول مصنفاته الكبرى وهو « الآثار الباقية » . ويبدو أن ميل هذا الحاكم إلى الطغيان جعل الحياة عسيرة ببلاطه ، الأمر الذى تردد صداه في أشعار متأخرة للبيروني . وإلى هذا الوقت المبكر من حياته العلمية ترجع أيضاً الرسائل التى تبادلها مع معاصره الأصغر منه سنّاً ابن سينا الذى طبقت شهرته الآفاق فيما بعد ؛ وهى تتمف دليلاً على عمق معرفته بالفلسفة وعلى حدة مزاجه^(١٢). وفي حوالى عام ٤٠٠ هـ = ١٠١٠ رجّع إلى موطنه حيث كانت تتولى مقاليد الحكم أسرة المأمونيين التى ما لبثت أن وجدت نفسها بين شقى الرحى ، تهددها دولتان قويتان هما دولة ايلكخانات تمرقند ودولة محمود الغزنوى التى كانت تنمو بسرعة متزايدة . ولم يلبث البيروني أن تقاذفته الدسائس والمؤامرات السياسية ، فلما احتل محمود الغزنوى خوارزم أخذ البيروني معه إلى غزنة عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٨ بوصفه عنصراً لا يُطمأن إليه . ولا تكاد تخلو مصنفاته المتأخرة بأجمعها من الشكوى المُرّة لما يلاقيه العلم من سوء التقدير ولمصيره الشخصى الذى انتهى إليه هو نفسه^(١٣) . وليس في الاستطاعة النفاذ إلى جوهر شكايته ، فهى بالنسبة لظروف ذلك الزمان كثيراً ما وردت على هيئة إشارات غامضة . ويبدو أن البيروني ظل طوال ذلك الوقت مُراقباً من محمود الذى كان لا يثق فيه ، ومن ثم فقد اضطر البيروني دائماً إلى البقاء إلى جانبه بل ومصاحبته في حملاته العسكرية دون أن يتمتع بحرية التنقل ، وقد عرف البيروني في هذه الفترة شظف العيش ولم تكن الأجهزة والوسائل العلمية في متناول يده حتى يستطيع متابعة أبحاثه . ورغماً عن هذا فقد وضع

فى هذه الفترة بالذات عدداً من المؤلفات الضخمة من بينها كتابه المشهور عن الهند . وإلى خليفة محمود وهو ابنه السلطان مسعود رفع البيرونى كتابه الكبير « القانون المسعودى » . ويلوح أن وضعه آنذاك كان 247 قد تحسن بعض الشيء فخصص له راتب منتظم وتمتع بحرية التنقل ، ومن ثم فقد استطاع فى حوالى عام ١٠٣٤ أن يزور مسقط رأسه خوارزم ، ولم نعد بعدها نسمع بشكاياته^(١٤) . والظاهر أن الأعوام الأخيرة من حياته كانت هادئة إلى حد ما ؛ وفى عهد مودود الذى خلف مسعود وضع البيرونى كتابه فى « الصيدنة » وهو آخر مؤلفاته الكبرى ؛ وتوفى البيرونى بغزنة فى الثالث من رجب عام ٤٤ هـ الموافق ١٣ ديسمبر ١٠٤٨^(١٥) .

وعلى الرغم من أن اسم البيرونى يجد مكانه فى الأدب العربى فى ميدان الجغرافيا والرحلات^(١٦) ، إلا أنه كما يتبين لنا من المصنفات التى مر ذكرها فإن البيرونى لم يكن جغرافياً ؛ أو على الأصح لم يكن جغرافياً بقدر ما كان مؤلفاً واسع المعرفة شمل نشاطه كل دائرة العلوم المعاصرة له والتى تحتل من بينها العلوم الرياضية والفيزيائية المكان الأول بالنسبة له ، بل وربما كانت أيضاً العلوم التاريخية والطبيعية ليست أقل مكانة عنده من تلك ؛ ويؤكد هذا رسائله الموجزة التى وصلنا منها نحو العشرين ، وأيضاً ثبت مؤلفاته الذى وضعه بنفسه والذى يصل إلى عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧^(١٧) . وقد بلغ محيط دراساته حداً أصبح معه من الأيسر تعداد فروع العلوم التى لم تحتذبها إليها عما اجتذبه فعلاً . فلا نستطيع مثلاً أن نلمس أثراً لاشتغاله بعلوم الشريعة ، ويبدو أنه لم يذهب فيها إلى أبعد من الحد المفروض على كل مسلم مثقف . وإذا كانت اللحظات الأخيرة من حياته قد أمضاها كما تقول لإحدى الحكايات^(١٨) فى فحص حالة معقدة تتصل بالتركات فهذا يمكن تفسيره بأن هذه الموضوعات بالذات كانت ترتبط بمسائل الرياضة والجبر ؛ وقد أولاها الخوارزمى الفلكى المعروف من قبل الكثير من الاهتمام . وكانت العلوم الاجتماعية تمثل عند البيرونى أهمية كبرى ، وهو نفسه لم يكن غريباً على الشعر كما يتضح من الأبيات الشعرية التى خلفها لنا ؛ وعلى أية حال فقد كان على معرفة جيدة بالشعراء ووضع فى ذلك بضع مصنفات لم تصل إلينا . ومعرفته بالشعر تنعكس بصورة أكثر وضوحاً فى مؤلفاته ذات الطابع التخصصى ، فى كتابه فى « الجواهر »^(١٩) مثلاً يستشهد بما يقرب من ثمانين شاعراً عربياً . ولم تصلنا مؤلفاته التاريخية التى عالج فيها تاريخ الفرق وتاريخ موطنه خوارزم وتاريخ الغزنويين الأول ، وليس ثمة ما يوجب الكلام عن الأهمية القصوى التى كانت ستمثلها جميع هذه المؤلفات ولكن يبدو أنها أصبحت نادرة الوجود منذ عهد مبكر ؛ فياقوت ، وهو الذى كان على علم بكتاب البيرونى فى تاريخ خوارزم ، لم يكن هذا الكتاب فى متناول يده عندما دون معجمه الجغرافى^(٢٠) . ويبدو أن البيرونى لم يشعر بميل إلى الفلسفة المجردة ، وفقط من 248 مراسلاته مع ابن سينا فى سنى الشباب يمكن الاستدلال على معرفته بها . وهو لم يعتبر نفسه ذا خبرة فى ميدان الطب خاصة الجانب العملى منه ؛ وفى آخر كتاب له وهو كتابه فى « الصيدنة » يؤكد عدم عزمه على أن يمس مسألة الاستعمال الطبى للأدوية^(٢١) .

ومجال نشاطه العلمى وأبحاثه هو الرياضة والفلك والعلوم المرتبطة بهما كالمترولوجيا وجميع المسائل المتعلقة بحساب الوقت وصناعة أجهزة الرصد . ولعل زيارته للهند قد اضطرتته إلى الاهتمام اهتماماً كبيراً بالمعادن وذلك نتيجة لولع الحكام المحليين بالأحجار الكريمة ؛ وقد جره هذا إلى إجراء عدد من التجارب القيمة فى الوزن النوعى ؛ وفى أواخر أيام حياته يقع اشتغاله بالصيدنة^(٢٢) .

ومن الطبيعى أن يتجه اهتمام البيرونى فى ميدان الجغرافيا إلى الجانب الرياضى والفلكى . ولكن يتضح من كتابيه « الآثار الباقية » و « الهند » ، وهما اللذان اقتصر عليهما تداول الدوائر العلمية حتى عهد قريب ، أن البيرونى لم يقف عند هذين الفرعين بل ضرب فى جميع فروع العلوم الأخرى بنصيب . أما مصنفاته التى تعرف عليها العلم الحديث منذ عهد ليس بالبعيد فإنها تثبت أنه كان ملماً بجميع المادة العلمية المعاصرة له . ويمكن إعطاء فكرة جيدة عن مدى اتساع أفق المعلومات الجغرافية فى عصره مما دونه بصدد توزيع البحار على سطح الأرض ، وذلك فى مصنف لم يقصد به فى الواقع إلى علم الفلك إنما قصد به التنجيم . قال :

« أما البحر الذى فى مغرب المعمورة وعلى ساحل طنجة والأندلس فإنه سُمى البحر المحيط وسماه اليونانيون أوقيانوس ولا يُلَجَّج فيه إنما يسلك بالقرب من ساحله وهو يمتد من عند هذه البلاد نحو الشمال على محاذة أرض الصقالبة ويخرج منه خليج عظيم فى شمال الصقالبة ويمتد إلى قرب أرض بلغار بلاد المسلمين^(٢٣) ويعرفونه ببحر وَرَنَك وهم أمة على ساحله ثم ينحرف وراءهم نحو المشرق وبين ساحله وبين أقصى أرض الترك أرضون وجبال مجهولة خربة غير مسلوكة . . . وأما امتداد البحر المحيط الغربى من أرض طنجة نحو الجنوب فإنه ينحرف عن جنوب أرض السودان المغرب وراء الجبال المعروفة بجبال القمر التى تنشع منها عيون نيل مصر^(٢٤) وفى سلوكه غَرَر^(٢٥) لا تنجو منه سفينة . . . وأما البحر المحيط من جهة الشرق وراء أقاصى أرض الصين^(٢٦) فإنه أيضاً غير مسلوكة ويشعب منه خليج يكون منه البحر الذى يسمى فى كل موضع من الأرض التى تحاذيه فيكون ذلك أول بحر الصين ثم الهند ويخرج منه خليجان عظام^(٢٧) يسمى كل واحد منهما بحراً على حدة كبحر فارس والبصرة الذى على شرقيه تيز ومكران وعلى غربيه فى حياله فرضة عُمان فإذا ما جاوزها بلغ بلاد الشحر التى يجلب منها الكندر ومر إلى عدن وانشعب من هناك خليجان عظيمان أحدهما المعروف بالقلزم وهو ينحرف فى المحيط بأرض العرب حتى تصير به كجزيرة ولأن الحبشة عليه بحذاء اليمن فإنه يسمى بهما^(٢٨) فيقال لجنوبيه بحر الحبشة وللشمالى بحر اليمن ولجموعهما بحر القلزم وإنما اشتهر بالقلزم لأن القلزم مدينة على منقطعه فى أرض الشام حيث يستدق ويستدير عليه السائر على الساحل نحو أرض البجة . . . والخليج الآخر المقدم ذكره وهو المعروف ببحر البربر يمتد من عدن^(٢٩) إلى سفالة الزنج ولا يتجاوزها مركب لعظم المخاطرة فيه ويتصل بعدها ببحر أوقيانوس المغربى وفى هذا البحر من نواحي المشرق جزائر الزابج ثم جزائر الديبجات وقصير ثم

جزائر الزنج ومن أعظم هذه الجزائر الجزيرة المعروفة بسرنديب ويقال لها بالهندية سيلانديب ومنها تجلب أنواع اليواقيت جميعها ومنها يجلب الرصاص القلعي وسُرْبْزِه ومنها يجلب الكافور. . . ثم في وسط المعمورة في أرض الصقالبة والروس بحر يعرف ببَنْطُس عند اليونانيين^(٣٠) وعندنا يعرف ببحر طرابزنده لأنها لأنها فرضة عليه ويخرج منه خليج يمر على سور القسطنطينية ولا يزال يتضايق حتى يقع في بحر الشام الذي على جنوبه بلاد المغرب إلى الإسكندرية ومصر وبخداها في الشمال أرض الأندلس والروم وينصب إلى البحر المحيط عند الأندلس في مضيق يذكر في الكتب بمعبدة هيرقلس ويعرف الآن بالزقاق يجرى فيه ماؤه إلى البحر المحيط وفيه من الجزائر المعروفة قُبْرُس وسامس ورودس وصقلية] وأمثالها . وبالقرب 250 من طبرستان بحر فُرْضة جرجان عليه مدينة آبسكون وبها يعرف ثم يمتد إلى طبرستان وأرض الديلم وشروان وباب الأبواب وناحية اللان ثم الخزر ثم نهر اتل الآتي إليه ثم ديار الغزية ثم يعود إلى آبسكون وقد سُمي باسم كل بقعة حاذها ولكن اشتهاره^(٣١) عندنا بالخزر وعند الأوائل بجرجان وسماه بطلميوس بحر أرقانيا وليس يتصل ببحر آخر . . . فأما سائر المياه المجتمعة في مواضع من الأرض فهي مستنقعات وبطائح^(٣٢) وربما سُميت بحيرات كبهيرة أفامية وطبرية وزُغْر بأرض الشام وكبهيرة خوارزم وأبسكون بالقرب من برسخان*^(٣٣) .

إن قرائن الأحوال تشير إلى أن البيروني كان يعتبر هذا الفصل جماعاً للمعارف الجغرافية في عصره ، وهو يعيد نفس هذا الكلام بإيجاز ولكن في خطوطه الرئيسية في كتابه « القانون المسعودي »^(٣٤) . وإذا ما رجعنا بذكريتنا إلى وصف البحار الذي يقدمه قبل قرن من هذا البتاني للاحتظنا اختلافاً جوهرياً بينه وبين البيروني ، ذلك أن البتاني يسير على هدى المدرسة اليونانية فيقدم لنا الرواية الكلاسيكية القديمة دون تغيير تقريباً ، أما البيروني فرغماً من تأثره بالعلم اليوناني إلا أنه يعمل على مزجه بالمعلومات الجديدة التي حصل عليها الجغرافيون العرب في ذلك العصر . ومن الميسور أن نستنتج من عرضه هذا بوصفه ملخصاً شاملاً لمعلوماتهم بعض الحقائق الحالية^(٣٥) .

لقد توفرت للعرب قرب ذلك العصر معلومات عن ساحل أفريقيا الشرق إلى خط عرض ٢٠ درجة جنوباً ؛ أما عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من ذلك فقد كانت فكرتهم بصفة عامة تستند على الظن والتخمين ولو أن علمهم بالكوارث التي كانت تتعرض لها السفن يشير إلى معرفتهم بطريق غير مباشر بمضيق موزمبيق . ويتضح أنهم عرفوا أفريقيا كجزيرة رغماً من عدم توفر المعطيات الواقعية التي يمكن أن تبرر هذا ، ورغماً أيضاً من وجود أنصار عديدين لنظرية بطلميوس في هذا الصدد . ويلاحظ عدم وجود أية إشارة في كلامهم إلى وجود قارة جنوبية (Antipodes)^(٣٦) ؛ وتندر معلوماتهم عن أوروبا

* بحر ورنك هو بحر البلطيق ؛ والبربر الصومال ؛ وجزائر الزابج أندونيسيا ؛ والديبجات ارخبيل لكديف وملديف ؛ وبَنْطُس البحر الأسود ؛ ومعبدة هيرقلس بوغاز جبل طارق وأتل الفولجا ؛ وبحيرة آبسكون هي بحيرة آيسيق كول . (المترجم)

الشمالية وآسيا الشرقية كما كان عليه الحال تماماً من قبل . أما البيروني فقد كان لديه عن جميع هذه المناطق معلومات وافية تعتمد لا على إلمامه التام بمؤلفات السابقين عليه بل وأيضاً على المعلومات التي حصل عليها من الرحالة والتجار . ولقد كانت لديه فكرة عن بحر البلطيق والبحر الأبيض الشمالي^(٣٧) ، وعرف الكثير عن سكان شمال وشرق أوروبا^(٣٨) خاصة النورمان الاسكندنافيين الذين يدعوهم لا باسمهم المعهود فقط وهو الروس بل باسم الورنك^(٣٩) أيضاً ، وهو قد سمع بقصة الملاح الذي ضرب في الأصقاع الشمالية فبلغ بقعة لا تغرب فيها الشمس صيفاً^(٤٠) ؛ ويورد لنا تفاصيل فريدة عن صناعة السيوف لدى الفرنجة والروس^(٤١) . وفيما يتعلق بسبيريا فإنه أول من أورد لنا ذكر نهر أنغرا Angara والأقوام التي تقطن منطقة بحيرة بايكال Baikal^(٤٢) . وقد كانت معروفة له أيضاً بلدان أفريقيا الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء فهو يذكر أن هناك أصقاعاً جنوبية « يكون فيها الوقت شتاء عندما يكون لدينا صيفاً » .

ونظرية البحار كما عرفها البيروني قد ثبتت هذه التصورات في الجغرافيا العربية لمدة طويلة ، إن لم نقل على الدوام . فياقوت الذي كثيراً ما نقل عن هذا المصنف للبيروني^(٤٣) ينقل عنه أيضاً بعد مضي قرنين الوصف المشار إليه عن البحار بخلافه ودون أية تغييرات باعتباره أفضل ما عرفه عن توزيع البحار على الأرض^(٤٤) ؛ ونفس القول يصدق على أبي الفدا^(٤٥) وذلك بعد قرن من ياقوت . وتمتاز بالصحة والدقة آراء البيروني الأصلية حول عدد من المسائل الجغرافية . فوئرخو علم الجغرافيا يشيرون بالكثير من الاحترام^(٤٦) إلى بحثه لمسائل مثل دوران الأرض حول محورها ، وخضوع منابع المياه لقواعد الهيدروستاتيكا Hydrostatics ؛ وأنه كان محقاً عندما قال بأن وادي السند كان يوماً ما قاعاً للبحر ثم غطته الرواسب الفيضية بالتدريج :

ولم جانب العدد الكبير من الرسائل المختلفة في الجغرافيا الرياضية ، والتي لم تكن فيما يبدو كبيرة الحجم ، ندين للبيروني بمصنفات تشير أسماؤها إلى اهتمامه بالأنماط الجغرافية المعروفة لنا . فياقوت مثلاً كثيراً ما ينقل عن مصنف له يحمل عنوان « تقاسيم الأقاليم »^(٤٧) وذلك من نسخة خطية بقلم المؤلف ترجع إلى عام ٤٢٢ هـ = ١٠٣١ م^(٤٨) . وجميع هذه المصنفات لم تصل إلينا ومن ثم فسقتصر في تحليل آرائه في الجغرافيا على مؤلفاته الكبرى التي تحمل طابعاً جغرافياً صرفاً ؛ غير أن استيعاب جميع المادة الجغرافية الموجودة بها أمر يحتاج إلى دراسة خاصة^٥ مهد لها الطريق أبحاث فيدمان Wiedemann 252 رغماً من أن مؤلفات البيروني التي تم الكشف عنها أخيراً لم تكن في متناول يده . ولن نستطيع هنا سوى الإشارة إلى الخطوط الرئيسية لمؤلفاته مع الوقوف عند نقاط معينة لأهميتها بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافي العربي :

وأول مؤلفات البيروني الكبرى من الناحية الزمنية وأكثرها شهرة في العلم الأوروبي هو كتابه في

التقويم « الآثار الباقية عن القرون الخالية » الذي انتهى من تصنيفه وهو في سن السابعة والعشرين تقريباً بجرجان ؛ وقد أصبح في متناول الأيدي منذ السنوات السبعينات للقرن الماضي بفضل مجهودات العلامة زاخاو Sachau . وفي الآونة الحاضرة اشتدت الحاجة إن لم يكن لطبعة جديدة فعلى الأقل إلى إضافة زيادات جوهرية إلى المتن الذي طبعه زاخاو . ويمكن بفضل المخطوطات التي كشفت منذ عهد غير بعيد ، ومن بينها واحدة بالاتحاد السوفيتي ، تدارك جميع الفجوات (Lacunae) الموجودة في الأصول التي اعتمد عليها زاخاو والتي ترجع في معظمها إلى عهود حديثة ، هذا بينما ترتفع المخطوطات التي تم العثور عليها أخيراً إلى القرن السابع (الثالث عشر الميلادي) وكثيراً ما تبين القراءة الصحيحة^(٥٩) . والكتاب في جوهره خلاصة للتقاويم المختلفة فلكية كانت أم شعبية ؛ وهو يقدم لنا وصفاً كاملاً لجميع التوقيات والأعياد المعمول بها عند الشعوب وفي الأديان المعروفة له كاليونان والرومان والفرس والصغد والحوارزميين والحرائين والقبط والنصارى واليهود وعرب الجاهلية والمسلمين . ومصادره في هذا الميدان غاية في التنوع فهو يعتمد من ناحية على مؤلفات خاصة مفقودة بالنسبة لنا ، ومن ناحية أخرى على الرواية المتواترة التي تمتاز في بعض الأحوال بقيمة نادرة . ويكفي في هذا الصدد أن نلاحظ أنه وهو المسلم يقدم لنا أول وصف مفصل لنظام التوقيت عند اليهود^(٥٠) . أما في مجال الجغرافيا الرياضية فلا تقتصر الأهمية على المادة نفسها بل تنتظم أيضاً المنهج الأصيل الذي اتبعه البيروني كتحليله المفصل لفكرته عن مساقط الخارطات (Cartographic Projections) الذي دفع أ حد الأخصائيين المعاصرين إلى الاعتراف بأنه قد جمع إلى سعة العلم خيالاً خصباً^(٥١) . وكما هو الشأن مع بقية مصنفاته فكذلك تبرز هنا بجلاء المميزات التي تنفرد بها معطيات البيروني التي أخذ الاهتمام يزداد بها وفقاً لاطراد الاكتشافات الجديدة وتقدم العلم المعاصر . ويمكن إدراك ذلك في الآونة الحاضرة من الاهتمام المتزايد بحضارة الحوارزميين القدماء عندما وكدت الاكتشافات والأبحاث الأخيرة أهمية معطياته فيما يتعلق بلغتهم وتقويمهم .

ويلاحظ بوضوح في هذا المصنف المبكر إحدى العلامات المميزة للبيروني فيما بعد ، ذلك هو إحساسه القوي بقوميته الإيرانية^{||} . فالتراث الإيراني في تاريخ الحضارة البشرية يستأثر باهتمامه ، بينما يبدو العرب 254 قبل الإسلام وكذلك دورهم في الفتوحات الإسلامية في صورة سلبية ؛ وهو يوجه نقده بصورة خاصة إلى فاتح بلاد ما وراء النهر المشهور قتيبة الباهلي لقضائه على حضارة خوارزم^(٥٢) . ولما كان البيروني يحرص دائماً على التزام الموضوعية (Objectivity) فن العسير اتهامه بمعاداة العرب^(٥٣) ، فهو مثلاً يعتقد أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة الحديرة بأن تكون لغة العلم^(٥٤) . وتقف تجربة حياته بأكملها برهاناً على هذا ؛ وقد عبر عن رأيه في اللغة العربية في آخر مصنفاته وهو كتاب « الصيدنة » الذي وضعه بعد خمسين عاماً تقريباً من تأليفه « للآثار الباقية » . ففيه يقول :

« وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت إلى الأفئدة وسرت محاسن اللغة

منها في الشرايين والأوردة ، وإن كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مع ألافها وأشكالها . وأقيس هذا بنفسى وهى مطبوعة على لغة لوخُلِدَ بها علم^(٥٥) لاستغرب استغراب البعير الميزاب والزرافة في العراب^(٥٦) ثم منتقلة إلى العربية والفارسية فأنا في كل واحدة دخل ولها متكلف والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية^(٥٧) . وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع به إذ لاتصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسفار الليلية^(٥٨) .

وهكذا فلم يمنع الشعور القومي الإيراني البيروني من تفضيل اللغة العربية على الفارسية ؛ وهو وإن أبدى في ذلك بعض المبالغة إلا أنه بقي مخلصاً لهذا الرأي طول حياته .

وقد دون البيروني مصنفاته بكل تأكيد بالعربية التي كان بلا شك يمتلك ناصيتها ، سواء في الأسلوب العلمى الصارم في مجال الرياضة والفلسفة أو في الأسلوب القصصى البسيط الذى يحفل به خاصة أحد مصنفاته الأخيرة وهو كتابه²⁵⁵ في « الجواهر » . ورغم أن هذا فإن العربية لم تكن لغته الأصلية ، ولعل هذا من الأسباب التي أكسبته أسلوباً خاصاً لا يمكن بأية حال اعتباره سلساً . وفي مؤلفاته للخاصة يبدو ميله إلى الإيجاز الشديد ؛ وهو نفسه يعترف بأنه لا يكتب من أجل المبتدئين ، ولكنه حتى في العرض القصصى العادى ينجح من وقت لآخر إلى الخروج عن المألوف المستعمل بل ويضحى أسلوبه عسراً وعراً يحتاج فهمه إلى إعمال الجهد . وقد تودى دراسة أسلوبه الكتابى إلى نتائج طريفة لو تفرغ لذلك أحد العلماء^(٥٩) . وبالرغم من اعترافه بأفضلية اللغة العربية على غيرها من اللغات فإن هذا الحكم لم يخف عليه مناقصها ، فهو يقف موقفاً سلبياً تماماً من رسمها ، ففي كتابه « الصيدنة » يقول* :

« ولكن للكتابة العربية آفة عظيمة هى تشابه الحروف المزدوجة فيها واضطرارها في التمايز إلى نقط العجم وعلامات الإعراب التي إذا تركت استبهم المفهوم منها . فإذا انضاف إليه إغفال المعارضة وإهمال التصحيح بالمقابلة ، وذلك من الفعل عام قومنا ، تساوى به وجود الكتاب وعدمه بل علم ما فيه وجهه . ولولا هذه الآفة لكنى نقل ما في كتب ديسقوريدس وجالينوس وبولس وأورياسيوس المنقولة إلى العربى من الأسامى اليونانية ، إلا أننا لا نثق بها ولانأمن التغيرات في نسخها^(٦٠) .

وعواطف البيروني نحو الشيعة التي تنعكس في كتابه « الآثار الباقية » قد اختفت بمرور الزمان ؛ ومن المحتمل أن يكون قد اضطر إلى خنق هذه العواطف فيما بعد أثناء إقامته في الوسط السنى المتطرف لبلاط محمود الغزنوى . غير أن منهجه في التفكير يدل على أن مثل هذه المسائل لم تمسه كثيراً وأن بعض الميول التي عرفها أيام شبابه قد حل محلها عدم الاكتراث بها^(٦١) .

* هذه الفقرة والسابقة لها نقلتهما عن مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ل ٣٠١٤ وكانت ملكاً لميرحوف (ص ١٥ ، ص ١٧) . (المترجم)

أما المصنف الثانى من الناحية الزمنية فيرتبط بمسائل الجغرافيا الفلكية وذلك بالمعنى الضيق لهذا المصطلح ، وهو كتابه « تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن » المحفوظ حتى الآن فى مخطوطة فريدة باستنبول بخط يد المؤلف فيما يبدو وترجع إلى عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ (٦٣). وفى المقدمة النظرية لهذا الكتاب يدور الكلام حول تحديد العروض الجغرافية والاختلاف فى تحديد أطوال المواضع والتطبيق العملى للمناهج السائدة (٦٣). ويبدى البيرونى ملاحظته عن أن العرب قد اتبعوا ثلاثة مذاهب فى تحديد 250 المسافات ، فهم إما أن يكونوا قد أخذوا حسابات بطلميوس كما هى ، أو أجروا أرصادهم الخاصة وفقاً لمذهبه ، أو استقوا مادتهم فى آخر الأمر من أسفار الرحالة وسير البريد . وقد اتبع البيرونى فى نشاطه العلمى المذاهب الثلاثة ، مستعملاً ملاحظاته الشخصية فيما يتعلق بمنطقة شرق إيران (٦٤) . ولما كان من شأنه أن يبين دائماً التواريخ التى دون فيها هذه الملاحظات فإنه من الممكن تتبع تحركاته من الوجهة الزمنية بالكثير من الدقة (٦٥).

وللبيرونى فى كتابه هذا استطراد لطيف يوضح فيه بالكثير من الحق والصواب الوضع الأفضل الذى تمتع به جغرافيو العرب بالنسبة للمؤلفين اليونانيين فيما يتعلق باتساع رقعة أفقهم الجغرافى نتيجة لاتساع نطاق الحضارة الإسلامية كما يقول « غرباً إلى الأندلس وشرقاً إلى حدود الصين وأواسط الهند وجنوباً إلى الحبش وبلاد الزنج وشمالاً إلى مساكن الترك والصقالبة » (٦٦). وتتركز أهمية الكتاب كما هو الحال دائماً فى مواضع معينة من العسير الحكم عليها إلا من خلال نقاط مبصرة ؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى عدم وجود طبعة للكتاب . وتتماز بقيمة كبيرة آراؤه فى هذا الكتاب عن جيولوجيا خوارزم القديمة ، وهى آراء تكشف عن الكثير من سعة الأفق وعن جرأة فكرية نادرة (٦٧). وفى القرن الخامس عشر نجد أن المقرئ يستشهد بكتاب البيرونى هذا عند كلامه عن محاولات القدماء لحفر قناة بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط (٦٨).

ومن بين مصنفات البيرونى الكبرى المعروفة لنا نعرف معرفة أجود ثلاثة منها ترجع بالتقريب إلى وقت واحد هو حوالى عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ ، أى عام وفاة محمود الغزنوى . أما أبعدها صينياً فهو « القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم » الذى رفعه إلى خليفة محمود ؛ وعليه بالذات تعتمد شهرته فى المشرق (٦٩). وهو لم يطبع إلا فى الآونة الأخيرة وذلك بفضل عناية المستشرق الألمانى كراوزه Krause (٧٠) غير أن العلماء رجعوا إليه دائماً بحيث أمكن تكوين فكرة عن الكتاب من خلال القطع المختلفة التى نقلوها عنه . وقد ترجم قیدمان (٧١) فصلين منه هما التاسع وهو فى وصف سكان الأرض وحدود الأقاليم وفقاً للأطوال والعروض ، والعاشر وهو الذى يبين لنا جداول أطوال وعروض المواضع المختلفة . وكان كتاب « المحسوطى » النموذج الذى سار على هديه « القانون » ؛ فهو يقدم لنا فى اثنى عشر باباً موجزاً لعلم الفلك كله مع حساب التوقيت وحساب المثلثات والرياضة والجغرافيا والتنجيم (٧٢) ، وهو يستند 257

على الآثار السابقة المصْلَحة كما يعتمد أيضاً على أرصاد جديدة^(٧٣) . أما فيما يتعلق بشكله فهو تعداد ضخّم للمدن كما هو الشأن عند الخوارزمي ، وهي موزعة فيه تبعاً للأقاليم المختلفة مع تبيان الأطوال والعروض . وتمثل طرافة الكتاب بشكل خاص في أن الهند والبلدان الشرقية للعالم الإسلامي تنال فيه من العناية أكثر ما نالته في المؤلفات السابقة له ؛ أما من ناحية الشكل الخارجى فإن العرض لا يختلف عما هو عليه الحال مع الجداول السابقة عليه ، فهو يعتمد في تحقيق عدد من معطياته على المصادر القديمة الموثوق بها مثل بطليموس والبتاني^(٧٤) . وهذا الكتاب بالذات هو الذى أفرد له المؤلفون المتأخرون مكان الصدارة من بين جميع مؤلفات البيروني ، فالقنطري^(٧٥) لا يذكر إلى جانبه مصنف آخر ، وياقوت يقول عنه إنه « يعنى على أثر كل كتاب في تنجيم أو حساب »^(٧٦) ، كما أفاد منه كثيراً أبو الفدا بل إنه يدين له بالكثير من الفضل في مصنفه الجغرافى على ما سوف نراه^(٧٧) .

وكتاب البيروني المعروف باسم « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » والذى يرجع إلى ذلك العهد نفسه لا يتسق موضوعه مع اسمه تمام الاتساق ، فهو في واقع ليس بمقدمة تقتصر على التنجيم وحده كما يمكن أن يفهم من العنوان بل عبارة عن موسوعة كبرى تعرض بالتوالى لمسائل فنية ولمصطلحات الهندسة والحساب والفلك (وينضم إلى ذلك الجغرافيا وحساب الأوقات ووصف الأجهزة الفلكية) والتنجيم . وهو كتاب جديد في نوعه يتميز بالاستقلال ، حفظ لنا فيه البيروني قواعد المذهب القديم^(٧٨) . وفي القسم الثالث المفرد للفلك نلتقى بقطع عديدة في الجغرافيا^(٧٩) ؛ وقد مر بنا الكلام عن إحداها وهي التى تعالج موضوع توزيع البحار على الأرض . أما القطع الأخرى فتبحث في كيفية ضبط العروض والأطوال ، وفي الأقاليم وخط الاستواء وارتفاع الشمس وقبة الأرض ، وفي المذاهب الأخرى في تقسيم الأرض بخلاف الأقاليم^(٨٠) ؛ وجميع هذه القطع تقريباً معروفة في الترجمة الألمانية لفيدمان^(٨١) . وإلى جانب الفصول الأخرى في الجغرافيا توجد قطعة بعنوان « ما يوجد من البلاد في كل إقليم »^(٨٢) ، وهي تختلف اختلافاً كبيراً عن الجداول الفلكية المعروفة للفرغانى^(٨٣) بالرغم من أن حدود الأقاليم عند الاثنين لا تتفاوت كثيراً^(٨٤) . ويمتاز بالطرافة على وجه الخصوص القسم عن البحار الذى مربنا ، وتصحبه في جميع المخطوطات المعروفة خارطة مستديرة تبين توزيعها^(٨٥) ، وهو نفس الرسم الذى نقله عنه ياقوت .

258

وهكذا نجد أن هذا المصنف على نقيض تسميته الضيقة لا يمكن بأية حال اعتباره مقدمة في التنجيم ، فهو في أبسط مدلولاته عبارة عن محاولة لإبراز تلك العناصر العقلية (Rationalistic) التى يرتبط بها التنجيم . وهو إلى جانب بعض الرسائل الصغرى للبيروني قد دفع أكثر من مرة إلى التساؤل عما إذا كان البيروني نفسه يعتقد في التنجيم أو أنه كان منجماً كما تصوره في أغلب الأحيان الأسطورة المتأخرة ؛ إن الإجابة على هذا التساؤل يجب أن تكون بالنفي ، فقد حفظ لنا عدد من القصص والإشارات المختلفة وكلها تؤكد أنه كان يقف من التنجيم موقف المستريب بل والمتهكم أحياناً . بيد أنه ليس هناك أدنى شك

في أنه قد حدث له أن لعب دور المنجم شأنه في هذا شأن جميع فلكيي ذلك العصر والوسط . أما القول بأنه كان المنجم الرسمي لبلاط محمود العزوى كما تصوره بعض المصادر المتأخرة فأمر مشكوك فيه ، ولكنه يظهر في حالات معينة في هذا الدور محاولاً فيما يبدو أن يفسح المجال لغلبة العناصر العقلية كما فعل في كتابه « التفهيم » (٨٥) .

وبخلاف الفصل الذى مر ذكره فقد أفاد ياقوت على وجه العموم كثيراً من كتاب البيرونى هذا ، والخلاصة التى عملها فيدمان (٨٦) له تعطى فكرة ما عن مقدار ما يدين به ياقوت إليه ؛ كما أن أبا الفدا قد عرفه جيداً (٨٧) . وثمة دليل على سعة انتشاره هو العدد الهائل من المخطوطات الذى وصلنا منه ؛ وإحدى هذه المخطوطات وهى ليست بأفضلها قام بنشرها بالزنكوغراف فى عام ١٩٣٤ رمزى رايت Ramsay Wright وزودها بترجمة إنجليزية مرافقة للمتن ، وهى تستند أساساً على الرواية الفارسية للكتاب . ولا تزال طبيعة العلاقة بين الروايتين العربية والفارسية غير واضحة تماماً حتى الآن ، وظهر رأى يقول بأن كليهما بقلم أبى الريحان (٨٨) غير أن علمنا بموقفه من الفارسية يدفعنا إلى أخذ هذا الرأى بالكثير من الحذر .

و« كتاب التفهيم » على عكس مؤلفات البيرونى الأخرى لم يُرفع إلى واحد من الحكام بل إلى سيدة من خوارزم تسمى ريحانة ابنة الحسين ، كانت على ما يلوح كثيرة الاهتمام بمسائل العلوم الدقيقة . ويمكن الافتراض بأنها كانت تنتمى إلى الأسرة الحاكمة بخوارزم وأنها قد رحلت إلى غزنة مع بقية أفراد أسرتها عندما أجلاهم محمود معه . أما القول اعتماداً على هذا بأن البيرونى كان موجوداً وقت تأليف الكتاب 259 بخوارزم فهو قول لا ينهض على أساس (٨٩) . ومن ناحية الشكل نجد أن هذا الكتاب يختلف عن بقية مؤلفات البيرونى فهو معروض على هيئة أسئلة وإجابات ، وهو أمر كما يقول المؤلف « أحسن وللتصور أسهل » (٩٠) . ولعل البيرونى لم يتنكب الصواب فى حكمه هذا لأن ذلك الكتاب بالذات يمثل موسوعة مبسطة لعدد من علوم عصره ونال انتشاراً واسعاً على ما يبدو من عدد المخطوطات الموجودة منه .

أما كتاب البيرونى الذى كسب له الصيت والمجد فى الدوائر العلمية الأوروبية ، وأعنى به كتاب « الهند » فهو ينتمى إلى طراز آخر من المؤلفات ويقف فريداً فى نوعه إلى يومنا هذا . ولا حاجة بنا إلى الكلام عنه بالتفصيل ، فنذ أكثر من خمسين عاماً قدم روزن عنه تحليلاً قيماً وكثدت قيمته على ممر نصف قرن من الزمان الاكتشافات التالية ولا يزال محتفظاً بحيويته وجدته إلى أيامنا هذه . أما معرفة الدوائر العلمية به فندين بها إلى المستشرق زاخاو الذى ترجمه إلى الإنكليزية ونشر متنه العربى فى الثمانينيات من القرن الماضى اعتماداً على مخطوطة ترجع إلى عام ٥٥٤ هـ = ١١٥٩ منقولة عن الأصل الذى كتبه المؤلف بخط يده . ومن المستحيل اعتباره كتاباً جغرافياً بالمعنى الضيق للفظ ؛ وهدف المؤلف الحقيقى يبدو فى العنوان الكامل للكتاب وهو « تحرير ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » (٩١) . فالمكانة الأولى عنده

إذن تحتلها الحضارة الروحية للهند ، وقليل من فصوله الثمانين يمس موضوعات جغرافية بحتة . فمقدمة الكتاب مثلاً تعرض للهند عامة ، ويضم الفصل الثامن عشر ملاحظات متفرقة عن الأرض والأنهار والأوقيانوس المحيط وعن اتساع الأقطار المختلفة . وفي الفصل الخامس والعشرين يرد الحديث عن أنهار الهند ومنابعها . ويجب أن يضم إلى هذا بكل تأكيد المجموعة الهائلة من المعلومات الاثنوغرافية المتناثرة بالكتاب ، وكذلك الفصول الهامة التي يعالج فيها الكلام عن ديانة الهند وحياتها الفكرية^(٩٢) . وتتخذ أهمية استثنائية ظاهرة خاصة هي أنه إلى جانب المجموعة الضخمة من المادة الجغرافية التي يحتويها الكتاب بصفة عامة فهو يكشف عن معرفة عميقة بالتصورات الجغرافية والكوزمولوجية لدى الهنود^(٩٣) وبالتالي يوضح لنا الكثير من المسائل المتعلقة بالتاريخ المبكر للعلوم والآداب الجغرافية العربية . أما طريقة العرض فتتشابه في جميع الفصول ، فالمؤلف يبدأ بسوق ملاحظات عامة تعقبها مقتطفات موثوق بصحتها من المؤلفين الهنود ، ثم ينظر في المسائل التي عالجوها ويقارنها بنظريات المسلمين واليونان والإيرانيين معلقاً على هذا بملاحظاته الشخصية الفذة . أما ما يحفل به الكتاب من مادة علمية فهو شيء يقف نسيج 260 وحده ولا يوجد له أي مثيل^(٩٤) .

وللبيروني كتابان كبيران معروفان لنا يرجع تاريخهما إلى الأعوام العشرة الأخيرة من حياته ، إذ تم تأليفهما في عهد السلطان مودود (٤٣٢ هـ - ٤٤٠ هـ = ١٠٤١ - ١٠٤٨) حفيد محمود الغزنوي الذي توفي في عام واحد مع البيروني . أحدهما هو مصنفه في المعادن بعنوان « كتاب الجواهر في معرفة الجواهر » الذي يبحث في المعادن والفلزات خاصة الأحجار الكريمة حيث يفرد لما يقرب من الخمسين منها فصلاً خاصاً لكل واحد . وقد نشر الكتاب منذ عهد غير بعيد المستشرق كرنكو Krenkow بحيدر أباد (١٣٥٥ هـ = ١٩٣٧) في طبعة تمكن من إعطاء فكرة واضحة عن الكتاب ، كما أن عدداً من المقالات والأبحاث قد بينت أهمية مادته لا من الناحية العلمية الخاصة فحسب بل ومن ناحية التاريخ الحضاري كذلك^(٩٥) . وقد جمع فيه البيروني بين أبحاث قام بها على أساس تجربة طويلة الأمد ومعرفة جيدة بالأدب العلمي من جهة والأدب الفني من جهة أخرى ؛ ولم يقتصر في ذلك على الأدب العربي وحده . بل أفسح المجال لآداب اللغات الأخرى . ويمكن تكوين فكرة عن مصادره من الدراسة القيمة التي أفرد لها لذلك محمد يحيى الهاشمي ، فمن بين المصنفات الجغرافية الأصيلة أفاد بصورة خاصة من مصنفات المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ومن الجياني كذلك . وكية المادة الجغرافية في هذا الكتاب كبيرة للغاية سواء كانت في شكل ملاحظات قصيرة أو قصص مفصلة ، غير أن استخراج هذه المادة يتطلب جهداً كبيراً لا يقل بحال من الجهد الذي تتطلبه المصنفات من هذا الصنف ، وذلك إما بمعاونة الفهرس أو بفحص الفصول المختلفة الخاصة بكل معدن أو فلز على حدة .

ومن هذا الطراز نفسه « كتاب الصيدنة في الطب » ، وهو آخر مؤلفات البيروني ، ولعله لم يتممه .

وقد تم الكشف عنه منذ أمد غير بعيد في مخطوطة فريدة بمدينة بروسه بتركيا ولا يزال معروفاً في مقدمته فقط التي نشرها ماكس ميرهوف، Max Meyerhoff. وكما رأينا من قبل فإن البيروني لم يقصد به البحث في الأثر الطبي للأدوية^(٩٦)، ولما لم يكن يعتبر نفسه متخصصاً في هذه المسائل فقد استعان بخبرة طبيب من معارفه^(٩٧). والشذوحر التي نشرت من هذا الكتاب إلى الآن تؤكد أهميته البالغة ليس فقط بالنسبة للناحية التي يبحث فيها بل أيضاً بالنسبة لنواح عديدة من بينها الجغرافيا. وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية، الأمر الذي يدل على ما تتمتع به من انتشار واسع. وقد اقتنع ميرهوف بعد بحث عميق أن هذا الكتاب يقف برهاناً على أن البيروني عالم لا مثيل له في جميع العصور الوسطى سواء في عمق التفكير أو متانة منهجه في البحث^(٩٨).

261

والمعلومات الواقعية التي يوردها البيروني كانت معروفة لدى الجغرافيين المتأخرين الذين أفادوا منها كثيراً كما أبصرنا من مثال ياقوت وأبي الفدا والمقريزي. وعلى النقيض من هذا لم تجد نظرياته الأصلية الفذة من يكملها أو يواصل البحث فيها وبقيت غير مطبقة من الأجيال التالية، وقد حدث هذا بوجه التحديد لمشروعه الهندسي لمساقط الخارطات^(٩٩) كما هو الشأن مع كثير غيرها مما أبدعته هذه العقلية الفذة. وقد كان مصيره في أوروبا الوسيطة أسوأ من هذا بكثير، ويبدو أن الأندلس لم تعرف مؤلفاته جيداً. وفي الوقت الذي ترجمت فيه إلى اللاتينية أكثرية المصنفات الكبرى للعلماء العرب بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر ظلت مصنفات البيروني غير معروفة لأوروبا^(١٠٠). ويبدو أن الأقدار قد سخرت منه فتردد صدى شهرته في مفهوم مناقض لسمعته وجد طريقه بشكل ما إلى اللغة الفرنسية. « فالأوسطى الليبورون » Maître Aliboron يقصد به كما يتضح من معجم الأكاديمية الفرنسية^(١٠١) Dictionnaire de l'Académie Française, 8 éd., 1931 : « الإنسان أو الحيوان الموصوف بالجهل والقدامة، والمضحك والخبير ».

من هذا يتبين لنا أن العلم الأوروبي المعاصر هو الذي اكتشف حقاً البيروني في القرن التاسع عشر؛ بل إن المادة توفرت في السنوات العشر الأخيرة فقط لتمكننا من تقديره تقديراً جديراً بمنزلته. وإذا كان روزن على أيامه قد استطاع أن يوفيه حقه، فالآن يستطيع بدوره علامة شاب يعد من خيرة العارفين بمصنفاته وهو كراوسه Krause أن يقول عنه بحق: « هكذا يهدف البيروني أمام أعيننا بجأثة لا يعرف الكلل وعلامة وضع نصب عينيه أهدافاً بعيدة المدى، ولكنه في نفس الوقت تطلب الكثير من الآخرين. وكان أميناً في منهجه العامي لا تأخذه في الحقيقة لومة لائم إذا ما أبصر تلاعباً حولها أو ضرباً من الإهمال؛ لقد كان عالماً واسع الأفق، وسعت معرفته العلوم الدقيقة لعصره؛ وإن شوقه إلى البحث والتقصي يعود بالشرف لقومه وعصره ويقف قدوة لجميع العصور التالية ».

وإذا كان البيروني قد غمط الفارسية حقها في أن ترتفع إلى مصاف لغة علمية فإن واقع الأحوال حتى

في عصره يشير إلى النقيض ؛ ولعله لم يكن على علم بذلك أو أنه تجاهله عن قصد . فقد وجد في القرن السابق عليه مصنف مثل « حدود العالم » . وحتى إذا سلمنا جدلاً بأن البيروني لم يجد في الأدب الجغرافي ما يجعله أهلاً لحمل اسم العلم فإننا نجد أمثلة تدل على أن اللغة الفارسية قد استعملت في ذلك العهد في ميدان العلوم الطبيعية ؛ فبين عامي ٣٥٧ هـ - ٩٦٨ و ٣٦٦ هـ = ٩٧٧ وضع موفق الهروي ، وهو أحد المقربين 262 من السامانيين ، كتابه في الصيدنة باللغة الفارسية معتمداً في ذلك كما هو الحال مع كتاب البيروني لا على العناصر العربية وحدها بل أيضاً على العناصر اليونانية والسريانية والهندية . وهو ذو أهمية لا بالنسبة لتاريخ الطب والكيمياء فحسب بل وبالنسبة لتاريخ اللغة الفارسية كذلك (١٠٢) . والطريف في الأمر أن أقدم مخطوطاته ترجع إلى عام ٤٤٧ هـ = ١٠٥٦ (١٠٣) ، أي أنها تكاد تكون معاصرة للبيروني . وأما استعمال اللغة الفارسية في محيط الأدب التاريخي والجغرافي فقد أصبح منذ ذلك العهد أمراً مألوفاً حتى في الوسط الذي كتب فيه البيروني ؛ ويبدو أنه لم يشاطره أحد ممن عاش في ذلك الوسط موقف الريبة الذي وقفه من اللغة الفارسية .

وواحد من هؤلاء المؤرخين الذين كتبوا بالفارسية وهو كرديزي يذكر أنه استمع إلى البيروني . وكرديزي ينتسب كما يتضح من اسمه إلى محلة تقع إلى الجنوب عن غزنة على الطريق إلى الهند ؛ ولم يمكن العثور على أية معلومات تتصل بسيرة حياته (١٠٤) . ويرجع الفضل إلى حد بعيد إلى دراسات المستشرق الروسي بارتولد في تعريف الوسط العلمي بكتابه « زين الأخبار » الذي لم يطبع طبعة كاملة إلى الآن . وقد تم تأليفه في عهد السلطان الغزنوي عبد الرشيد (٤٤٠ هـ - ٤٤٤ هـ = ١٠٤٩ - ١٠٥١) ، وهو يمثل في جوهره مصنفًا تاريخياً يعالج تاريخ الأكاسرة وتاريخ محمد والخلفاء إلى عام ٤٢٣ هـ = ١٠٣٢ وتاريخ خراسان من الفتح العربي إلى عام ٤٣٢ هـ = ١٠٤١ . وقد أضيفت إلى الكتاب فصول عن العلوم اليونانية والتقاويم والأعياد الدينية لمختلف الشعوب . وفي القسم الأخير من الكتاب يرد الكلام على الأنساب والعلوم عامة ، وعقد فيه المؤلف فصلاً عن الترك (١٠٥) يمثل أهمية كبيرة بالنسبة لجغرافيا آسيا الوسطى وهو ذلك الفصل الذي قام بارتولد بدراسته دراسة مفصلة . أما الفصل عن الهند فيستشهد فيه مراراً بالبيروني ، كما يدين فيه بالكثير إلى الجياني أيضاً (١٠٦) . وفي فصله عن الترك يذكر من بين مصادره ابن خردادبه والجياني (١٠٧) . ومن بين المصادر التي لا يسميها يحتل ابن رسته مركزاً رئيسياً خاصة في الأجزاء التي تمس أوروبا الشرقية ، هذا بالرغم من أن المؤلف لم يشر إليه ولو مرة واحدة (١٠٨) هـ أما فيما يتعلق بالقسم التاريخي فإن مصنفه ينال أهمية خاصة لأنه يعتمد فيه إلى حد كبير على كتاب « تاريخ خراسان » للسلامي (١٠٩) الذي لم يصل إلينا والذي يرجع تاريخ تأليفه إلى منتصف القرن الرابع الهجري (التاسع الميلادي) . وفي وصفه للصين يمثل أهمية قصوى وصفه للطريق بين طرغان Turfan و Khumdan عاصمة الصين آنذاك ؛ ولا تزال في هذا الوصف جوانب عديدة غير واضحة ، ورغم

من ذلك فلا يوجد شك في أن هذا الطريق قد سار في نفس الاتجاه الذي سارت فيه طرق المواصلات 263 بين الصين والغرب^(١١٠) . هذا ونادراً ما نقل المؤرخون المتأخرون عن كرديزي ، كما وأن تأثيره على تطور العلم بالتالي لم يكن كبيراً على ما يظهر^(١١١) .

وفي وقت واحد مع كتاب كرديزي هذا الذي يمثل في جوهره مصنفًا تاريخيًا ظهر باللغة الفارسية وفي آسيا الوسطى أيضاً وصف رحلة « سفرنامه » لناصر خسرو المشهور (٣٩٤ هـ - حوالى ٤٨١ هـ = ١٠٠٣ - ١٠٨٨)^(١١٢) . ولد ناصر خسرو ببلخ وعاش نيفاً وأربعين عاماً من حياته كعامل حكومي متوسط الحال بمدينة مرو في خدمة السلاجقة الذين بدأ نجمهم يعلو آنذاك . ثم اعتراه تحول نفساني عميق دفعه إلى التجوال سبع سنوات ، وأنهى أيامه كداعية للإسماعيلية بمنطقة بدخشان الجبلية . ويحتل شخصه مكانة مرموقة في الأدب الفارسي وفي تاريخ الحركات الدينية في الإسلام^(١١٣) . أما فيما يتعلق بموضوعنا فسنقتصر الحديث على روايته لأسفاره .

ففي مارس من عام ١٠٤٦ خرج من مرو يريد الحج فمر بنيسابور في طريقه إلى الري ، وفي أثناء مسيره يشير إلى أن الكثير من النشادر كان يستخرج إذ ذاك من جبل دنباوند (Demavend) . وفي طريقه مر على قزوین وتفليس وميفارقين وآمد (دياربكر) إلى حلب وطرابلس ؛ وفي معرة النعمان زار الشاعر الأعمى المشهور أبا العلاء المعري . ثم أخذ طريق الساحل من بيروت فوصل إلى عكا ومنها قام بعدة زيارات إلى الأماكن المقدسة العديدة ومن بينها طبرية ؛ وبعد رجوعه إلى عكا استمر في طريقه ماراً بحيفا والرملة وبيت المقدس حيث أقام مدة ما تخللها رحلات صغيرة إلى المدن القريبة مثل حبرون الخليل . ويمثل وصفه لبيت المقدس قسماً من أهم أقسام كتابه ، مما مكّن لمدنيكوف Mednikov على أساسه أن يقدم وصفاً واقعياً للمسجد المعروف بمسجد عمر^(١١٤) . ومن القدس أدى ناصر خسرو أول حجة إلى مكة في ربيع عام ١٠٤٧ ، ومنها رجع إلى القدس فأخذ طريق البر ماراً بالرملة متجهاً إلى عسقلان ثم أخذ السفينة من مرفأ طينة الصغير إلى جزيرة تنيس بمصر عند بحيرة المنزلة . وفي جزيرة تنيس - وبها مدينة مزدحمة بالسكان - كان يقيم آنذاك أهل الحرف من النساجين الذين اشتهرت صناعتهم في الشرق بأجمعه ، ولكن كانت في الغالب تحتكرها الحكومة ، وهى النسيج المعروف بالطراز ؛ كذلك اشتهرت بصناعة الحديد والعطر .

هذا وقد امتدت إقامة ناصر خسرو بمصر من أغسطس ١٠٤٧ لعدة أعوام . وفي هذه الفترة أدى فريضة الحج ثلاث مرات كانت كلها عن طريق البحر من القلزم إلى مرفأ البحار ، ومنها إلى المدينة ثم مكة . أما القسم الأساسي من وصف رحلته فقد كرسه لمصر وتم الاعتراف به منذ عهد بعيد كصدر من أهم مصادر تاريخ وخطط مدينة القاهرة في العهد الفاطمي^(١١٥) . وهو يصف في كثير من التفصيل التجارة وحياة المدينة ورسوم البلاط الفاطمي ونظام الإدارة في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر : وبعد كل ما رآه

فى المشرق فقد أثار دهشته ماكانت تتمتع به مصر من رخاء وأمن . ويغلب على الظن أن يكون اعتناقه نهائياً للمذهب الإسماعيلى قد تم بالقاهرة ، وقد أصبح بالتالى داعية متحمساً لمذهبهم فى موطنه . أما حجته الرابعة إلى مكة فقد أخذ فيها طريقاً مغائراً ، إذ أنه ركب النيل إلى أسوان ؛ وبعد سفر شاق لمدة خمسة عشر يوماً من شهر يوليو عام ١٠٥٠ وصل إلى عيذاب على البحر الأحمر ومنها أخذ البحر إلى جدة . وفى زيارته هذه الرابعة يقدم وصفاً مفصلاً لجميع المواضع والأبنية التى تهم الحجاج بمكة خاصة الكعبة وما يتعلق بها . أما قصة اجتيازه لجزيرة العرب فتمتاز بالكثير من الحيوية والمتعة ، فقد ذهب إلى الطائف حيث سمع فى نواحيها قصة ليلى والمجنون ، ثم سار فى محاذة جبل الطويق ذى الصخور البازلتية فر فى طريقه بواحة فلج إلى اليمامة فالبحرين على الخليج الفارسى . وقد اضطر إلى البقاء أربعة أشهر فى ظروف مرهقة بواحة فلج لم يكن يمتلك أثناءها من متاع الدنيا سوى سلتين مليئتين بالكتب لم تجدياه فتىلا مع السكان الجهلاء الذين كانوا يعيشون إلى حد كبير على قطع الطريق . وقد بلغ البصرة وهو لا يملك شيئاً ، ولكنه يقدم لنا فى مقابل ذلك وصفاً مفصلاً وهاماً للأحساء التى كانت لاتزال تحت سلطان القرامطة (١١٦) . وفى البصرة تمكن من أخذ طريق العودة إلى وطنه بفضل معاونه وزير ثرى من أهل الأهواز ، فر فى طريقه بمهربان وارجان وأصفهان ، ووصل إلى بلخ فى أكتوبر عام ٤٤٤ هـ = ١٠٥٢ (١١٧) بعد صعوبات جمة صادفها فى الطريق . وهو يختم كتابه بأمله فى أن يوفق فى القيام برحلة مماثلة إلى المشرق ؛ غير أن طريق حياته اتخذ اتجاهاً مغائراً فلم يكتب لهذه الرغبة أن تتحقق .

وسفرنا مه يرتبط ارتباطاً ضئيلاً بالرواية الجغرافية المدونة وقليل ما يتحدث المؤلف عن التقائه بالعلماء فى المدن المختلفة التى زارها . ولا ريب فى أنه كان ملمساً بالأدب الجغرافى لعصره ، غير أنه لم يهدف بكتابه غرضاً علمياً فهو ينتمى إلى نمط إلى مغاير لذلك . وعلى الرغم من دقته فى الملاحظة إلا أنه كان فى ذات الوقت 266 يعتقد آراء جد خاطئة عن التركيب العام للعالم (١١٨) ؛ وكان هدفه أن يقدم وصفاً لما رآه وسمعه بنفسه ، وسرده بسيط فى أسلوبه ويخلو من أثر الصنعة ولكنه يتميز بالحيوية أحياناً ، كما لا يخلو من العنصر الدرامى . وهو فى مواضع من وصفه يفصل الكلام بصورة مرهقة عن الأبنية والآثار ، بالرغم من أن ذلك قد لا يهم القارئ كثيراً . أما تاريخ تأليف الكتاب فغير معروف لنا ، لكن الكتاب نفسه يعتمد إلى حد كبير على المذكرات التى دونها المؤلف أثناء الطريق وذلك وفقاً لألفاظه هو ؛ كما أنه يذكر فيه أنه عمل أحياناً رسوماً (Sketches) للطريق . والكتاب وإن أمكن ضمه من ناحية فكرته الأساسية إلى نمط « كتب الزيارات » (أى الحج) إلا أن هذه الفكرة لم تطغ على الانطباعات الأخرى التى أثرت فى نفس المؤلف والتى عرف كيف يبرزها لنا بحيوية فائقة . ومن المؤسف أن المسودة الأولى الكاملة له لم تصلنا ، بل وصلنا فى رواية موجزة إلى حد ما ربما قام بها شخص من أهل السنة حاول بدوره أن يزيل عنها جميع

عواطف المؤلف نحو الشيعة خاصة الإسماعيلية^(١١٩) . وإلى جانب الترجمات الجزئية فإن الكتاب موجود الآن في ترجمة روسية كاملة وجيدة* .

ويمكن من الناحية الزمنية أن ينسب إلى هذا العصر عالم معروف بمصنف له في الجغرافيا ، ولو أنه لا يرتبط بشرق العالم الإسلامي . وكانت رحلته من بغداد إلى الشام ومصر كناسر خسرو ولكن أغراضه تختلف عن أغراض الأخير تماماً ؛ ومما يزيد في طرافة وصفه أنه ينتمي إلى وسط النصارى العرب الذين ألقوا ظهوراً على صفحات كتابنا هذا ذلكم هو العالم الطبيعي ابن بطلان الذى نال شهرة عريضة في عصره وخلف عدداً من المصنفات الطبية التى ترجم بعضها إلى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى^(١٢٠) . وقد ولد ببغداد حيث درس الفلسفة والطب وتوفى بأنطاكية على ما يبدو عام ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ (١٢١) ولو أن المصادر غير مجمعة على تاريخ وفاته^(١٢٢) . وأول من لفت إليه الأنظار البارون روزن في دراسته المعروفة عن يحيى الأنطاكي الذى كان ابن بطلان معاصراً^(١٢٣) له ؛ غير أن إشارة روزن إليه ظلت مجهولة في الغرب شأنها في هذا شأن عدد كبير غيرها من الأبحاث باللغة الروسية ؛ وقد وصل العلم إلى نفس النتائج التى وصل إليها روزن ولكن متأخراً وعلى حدة .

غادر ابن بطلان بغداد في رمضان من عام ٤٠٤ هـ = ١٠٤٩ ووصف انطباعاته عن الطريق من العراق إلى شمال الشام في رسالة^١ إلى صديقه المؤرخ هلال بن محسن الصابى (توفى عام ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦) ^(١٢٤) . 267 وهذه الرسالة حفظها لنا ابن المؤرخ وهو محمد بن هلال (توفى عام ٥٠٨ هـ = ١١١٤) في مصنفه «كتاب الربيع»^(١٢٥) ؛ وعنه نقلها ياقوت^(١٢٦) وابن القفطى^(١٢٧) في القرن الثالث عشر . ويمكن من خلال هذه المقتطفات تتبع طريق رحلته بوجه عام كما فعل ذلك الأب شيخو^(١٢٨) ؛ فن ببغداد سار في محاذاة نهر عيسى مرتفعاً إلى الفرات حتى بلغ الأنبار والرحبة ، ثم عبر المفازة إلى الرصافة الهاشمية . ويلوح أنه قد أمضى وقتاً طويلاً بلحب وانطاكية واللاذقية ، وكانت المدينتان الأخيرتان في أيدي البيزنطيين آنذاك ؛ ولأنه كان مسيحياً فقد استطاع أن يتعرف عليهما عن كثب كما فعل مع البلاد الإسلامية . ومن العسير معرفة ما إذا اقتصرت رسالته على وصف هذا الجزء من الرحلة أم أنها تناولت غيره أيضاً ، غير أن رجوع ياقوت إليه فيما يتعلق بوصفه ليافا ربما ينهض دليلاً على أنه قد أتم وصف الطريق إلى مصر^(١٢٩) . ومن خلال المصادر الأخرى نعرف أنه قد زار القسطنطينية^(١٣٠) إلا أن ذلك قد تم عقب هذا بمدة طويلة .

ومما يزيد في أهمية رسالته أنه استطاع أن يوجه اهتمامه إلى جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية قل أن حفل بها العرب المسلمون ، مثل كلامه عن وضع السكان النصارى وموقفهم من البيزنطيين وعاداتهم وأماكن العبادة عندهم الخ . وبالرغم من أن ابن بطلان كان أديباً وشاعراً إلا أن رسالته صيغت في أسلوب

* توجد له أيضاً ترجمة عربية كاملة وجيدة بقلم الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ . (المترجم)

بسيط لا أثر للصنعة فيه ، هذا إذا استثنينا الافتتاحية بما يصحبها عادة من العبارات المتكلفة الموجهة إلى الشخص الذى بعث بالرسالة إليه . وهى بلا شك تعكس انطباعات حية مباشرة عن ذلك العصر المضطرب الذى لم يتجاوز فيه سلطان الخليفة فى واقع الأمر بغداد ونواحيها ؛ وكانت حلب آنذاك تحت حكم المرداسيين بينما كانت أنطاكية فى قبضة البيزنطيين ؛ أما مصر فقد سيطر عليها الفاطميون - ورغمما عن هذا فقد كانت حرية التنقل كما أبصرنا مكفولة لا فى داخل العالم الإسلامى فحسب بل حتى بين الدولة البيزنطية وأراضى الإسلام (١٣١) .

ويرتبط بعهد السلاجقة التالى لذلك كتاب باللغة العربية ذو أهمية بالغة بالنسبة للجغرافيا ، ذلك 268 هو « ديوان لغات الترك » (١٣٢) لمحمود الكاشغرى الذى يعتبره بارتولد « الوحيد تقريباً الذى كتب بالعربية عن آسيا الوسطى معتمداً فى ذلك على معرفته الشخصية بتلك البلاد ولم ينقل عن مراجع مدونة » (١٣٣) . وقد تم تدوين كتابه ببغداد بين عامى ٤٦٤ هـ = ١٠٧٢ و ٤٦٦ هـ = ١٠٧٤ كما يذكر ذلك هو بنفسه (١٣٤) ؛ وقد يثير هذا الاختلاف فى التواريخ بعض الشبهات رغمما من أن المخطوطة الفريدة المعروفة للكتاب والتى ترجع إلى القرن السابع أو الثامن الهجرى قد أخذت عن المخطوطة الأصلية بيد المؤلف . ولا اعتبارات تتعلق بمادة الكتاب فإنه لا يوجد ثمة شك فى أن تاريخ تأليفه يرجع إلى النصف الثانى من القرن الحادى عشر . وليست لدينا معلومات على الإطلاق توضح سبب ظهوره ببغداد بالذات . والمعلومات الطفيفة عن حياة مؤلفه يجب استخراجها من صلب الكتاب نفسه ؛ فيتضح من ذلك مثلاً أن المؤلف كان يجيد العربية لإجادة تامة بالرغم من أنه كان تركى الأصل وربما انتمى فيما يبدو إلى أسرة القاراخانيين الذين حكموا بالمشرق ؛ وكان لأبيه صلة ما بمدينة برسخان القريبة من بحيرة ايسىق كول Issik Kol . وهو قد سافر كثيراً فى سهوب آسيا الوسطى وجال فى بلدان الترك وأجاد تقريباً جميع اللهجات التركية بآسيا الوسطى (١٣٥) . أما من ناحية اللغة فكتابه يمثل أهمية كبرى لا نظير لها ؛ وقد كان الكشف عنه بين مجموعة العلامة التركى المعروف على أميرى الدياربكرى (١٨٥٧ = ١٩٠٤) (١٣٦) ، ثم طبعه بتركيا أثناء الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣ هـ - ١٣٣٥ هـ = ١٩١٤ - ١٩١٦) ، حدثاً هاماً فى تاريخ دراسة اللهجات التركية . ولا تقل عن ذلك أهميته من وجهة نظر الجغرافيا لأنه يقدم لنا مادة وفيرة من محيط الأدب الشعبى التركى ومعلومات وافية عن مواضع سكنى القبائل التركية تصحبها تفاصيل عديدة عن الجغرافيا التاريخية للبلدان التى يقيمون بها . والمادة التى يوردها المؤلف جديرة بالثقة وكثيراً ما دعمتها الاكتشافات الأثرية الحديثة فى آسيا الوسطى (١٣٧) .

أما الخاطبة المستديرة التى حفظت بالمخطوطة والتى توفر على دراستها اثنان من العلماء هما ميلر Miller (١٣٨) وهرمان Hermann (١٣٩) فإنها تمثل أهمية قصوى ؛ ورغمما عن ذلك فلا يمكن القول بأن جميع المسائل المتعلقة بها قد وجدت الحل النهائى ، خاصة وأن الباحث قد درسها منفصلة عن متن محمود الكاشغرى .

وقول هرمان بأن أحد الأسماء الموجودة بالخارطة يقصد منه اليابان^(١٤٠) قد أحاط به الكثير من التشكك ، كما أن افتراضه بأن الخارطة يجب أن تعتبر أثراً طريفاً وأصيلاً كل الأصالة لا يستند على أى أساس من الواقع^(١٤١) . ولا يزال من الصعب القول بما إذا كانت الخارطة معاصرة للمتن وهل رسمها المؤلف بنفسه . والمرجح أنها ترجع في الأصل إلى خارطة العالم المستديرة « بأطلس الإسلام » للمدرسة الكلاسيكية في الجغرافيا^(١٤٢) ، ولكن واضعها استباح لنفسه حرية كبيرة فجعل مركز الخارطة مدينة كاشغر ومنطقة الأنهار السبعة (يدى صو Semirechie) مع مدينة بلاساغون ، وذلك بدلا من مكة . ومن المؤكد أنه كان يعتبر هذه المنطقة مركز مساكن القبائل التركية ، الأمر الذى يعززه متن الكتاب . ولا شك أن الخارطة قد عملت خصيصاً لتصوير هذه المنطقة والمناطق المتاخمة لها ، أما الأقاليم الأخرى فإن واضع الخارطة لم يهتم لها كثيراً ، ولعلها أضيفت مؤخراً إلى النواة الأساسية للخارطة ؛ على أية حال فإن تبينها على الخارطة ليس من الدقة كما يجب . ولعل الفكرة الأساسية كانت متجهة نحو إخراج خارطة إقليمية ولكن على هيئة صورة « الخارطة المستديرة للعالم » ؛ إلا أن المؤلف قد ارتأى بالتالى أن يملأ الأجزاء الحالية منها بالأسماء المعروفة له ، ومن ثم أصبحت خارطة للعالم قائمة بذاتها . ويرجع الفضل لأمنياكوف Umniakov^(١٤٣) فى إلقاء ضوء على التفاصيل المتفرقة لهذا الأثر الفريد فى الكارتوغرافيا العربية والذى 269 يمثل أهمية خاصة بالنسبة للجغرافيا التاريخية لحول آسيا والمناطق المتاخمة له .

وبعهد السلاجقة أيضاً ، ولكن فى أخرياته ، يرتبط اسم شرف الزمان طاهر المروزى^(١٤٤) الذى كان طبيباً ببلاطهم . ومنذ عهد غير بعيد أصبح معروفاً فى بعض المخطوطات مصنفه « طبائع الحيوان » الذى يبحث فى جوهره فى علم الحيوان ولكن القسم الأول منه يعالج الكلام على الأجناس البشرية والجغرافيا^(١٤٥) . ولا يمكن تحديد زمن تأليفه إلا بصورة تقريبية ، فأخر تاريخ موجود به يرجع إلى عام ٥١٤ هـ = ١١٢٠ ولكن توجد بالكتاب أخبار حوادث شهدها المؤلف بنفسه فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر^(١٤٦) . وأكثر رواياته قيمة هى تلك التى يرد فيها الحديث عن الشرق الأقصى - الهند والتبت والصين . هذا وقد تم الكشف من قبل عن شذرات منه لدى الكاتب الفارسى عوفى^(١٤٧) فى بداية القرن الثالث عشر ، وكذلك عند ابن المهنسا فى بداية القرن الرابع عشر وهو مؤلف اشتهر بكتاباتة عن اللغات الشرقية ؛ غير أنهما لم يقدمتا أية فكرة عن قيمة الكتاب بوجه عام^(١٤٨) . ومهم بالنسبة لنا حفظه لعدد كبير من روايات الجيهانى مع الإشارة الدقيقة إليه ؛ وبهذا أمكن التعرف على عدد من الروايات المجهولة الأصل عند المؤلفين الآخرين^(١٤٩) . وثمة أهمية خاصة تمثلها قصته عن سفارة بعث بها حوالى عام ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ « حاكم الصين والترك » إلى بلاط محمود الغزنوى ؛ وخبر هذه السفارة معروف لنا من كرديزى ولكن بصورة مبهمه^(١٥٠) . وهى لم تسفر عن أية نتائج سياسية لأن محموداً رفض أن يدخل فى علاقات دبلوماسية مع الكفار ؛ ولكنها فيما يبدو قد تركت أثراً على العلم ، إذ يلوح أن وصف الطريق بين غزنة

وعاصمة الكيتان Kitans قد أخذ عن هذه السفارة . ويمكن أن نلاحظ عرضاً أن بعض الأسماء في هذا الطريق مذكورة في « القانون المسعودي » ، أى أن البيروني قد استقاها على أغلب الظن من ذات المصدر : وأكثر أهمية من هذا رواية المروزي عن هجرات شعوب آسيا الوسطى التي استعارها عوفى والتي استعصت على الأفهام حين التعرف من جديد على هذا المصدر الذي يسر بعض الشيء فهم هذه المسألة ولإرجاع حوادثها إلى منتصف القرن الحادى عشر (١٥١) .

ومن الملاحظ أننا عدنا إلى الكلام على البيروني مرة أخرى في آخر هذا الفصل الذى بدأناه بالحديث عنه . وهذا بالتأكيد ليس من محض الصدفة فالبيروني هو تلك الشخصية الفذة التي طغت على شرق العالم الإسلامى في القرن الحادى عشر في ميدان العلوم المتصلة بالجغرافيا ، خاصة الجغرافيا الرياضية . ورغمما عن هذا فإنه لم تصلنا عنه مصنفات جغرافية بحتة وذلك بالمعنى الذى حددناه من قبل ؛ ولعله ليس من قبيل المصادفة أن تنعدم أيضاً عند المؤلفين الذين مر ذكرهم في هذا الفصل . وهذا يعنى بلا شك أن الأنماط المعروفة في الأدب الجغرافى التي نالت انتشاراً واسعاً قد انقطع الاهتمام بها في القرن الحادى عشر بل وأخذت تختفى في البلدان الشرقية . غير أن هذا يجب ألا يفهم منه أنها انقرضت تماماً ؛ إذ سنها بعد قليل تنتعش انتعاشاً كبيراً بالمغرب وبوجه خاص في الأندلس ، وهى مناطق سار فيها تطور الأدب بوجه عام بخطى أبطلما بالمشرق . أما في المشرق فلم ترفع رأسها من جديد إلا أنه يلاحظ في القرنين الثانى عشر والثالث عشر بالذات ظهور أنماط جديدة وازدهارها بحيث يصبح من العسير القول بتدهور للأدب الجغرافى في جملة حتى في ذلك العصر .

حواشي الفصل التاسع

- (١) – Rozen, ZVO, III, p. 147
- (٢) – Quatremère, Des sciences chez les Arabes, p. 45
- (٣) – Kreuse, Biruni, p. 2 – Meyerhof, Kitàb al - Saidana, p. 3
- عام ميلاد البيروني ٣٦٢ هـ = ٩٧٢
- (٤) – Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 528
- (٥) السمعاني ، الورقة ٩٨ ب
- (٦) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ص ٣١٣
- (٧) – R. Wright, Al-Biruni, p. III
- (٨) – Krause, Biruni, p. 2-3
- (٩) الترجمة ، ص ٤٢ ، ٥٠ – Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 14
- Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 531
- (١٠) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 154
- (١١) – Krymski, Istoria Persii, 1915, p. 525-528
- (١٢) – Wiedemann, Al-Biruni, p. 59-60
- (١٣) – Krause, Biruni, p. 6-7
- (١٤) شرحه ، ص ٧
- (١٥) شرحه – و Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 7 (القرن الثالث عشر)
- وهناك أيضاً الملاحظة رقم ٢ عن : « أنابة على الثمانين »
- (١٦) – Brockelmann, GAL, I, p. 475
- (١٧) الترجمة عند : Wiedemann, Albiruni, p. 66 95
- المتن عند : Krause, p 30-43
- (١٨) ياقوت الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٣٠٩ ؛ راجع : Wiedemann, Al-Biruni, p. 96
- (١٩) – M. J. Haschimi, Biruni, p. 37-30 – Meyerhof, kitab—al-saidana, p. 15
- (٢٠) ياقوت ، المعجم الجزء الثاني ، ٤٨٣ ؛ وأيضا : Heer, p. 41, h
- (٢١) – Krause, Biruni, p. 8
- (٢٢) شرحه
- (٢٣) – R. Wright, Al-Biruni, p. 121 : قرب الأرض بلغار المسلمين
- (٢٤) Validi, Schwrtter, p. 40-41 : الترجمة راجع :
- (٢٤)

- (٢٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٠ ، اقرأ : غرر بدلا من غزر - وأيضا :
- R. Wright, Al-Biruni, p. 121 : غرو
- R. Wright, Al-Biruni, p. 122 (٢٦)
- (٢٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢١ .
- (٢٨) زيادة في : ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢١
- (٢٩) زيادة في ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢١
- Wright, Al-Biruni, p. 123 (٣٠)
- (٣١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٢
- R. Wright, Al-Biruni, p. 124 (٣٢)
- Wiedmann, Beiträge, XXVII p. 3-7 ٢٢ - ٢٠ ، ص ٢٠ ، الجزء الأول ، المعجم ، ياقوت ، (٣٣)
- R. Wright, Al-Biruni, p. 121-124
- Blacchre, p. 240-242—Kimble, p. 54-56 : مختصرة في : « القانون المسعودي » ؛ راجع :
- Validi, Schwerter, p. 41 (٣٤) راجع :
- Kimble, p. 55-56 (٣٥)
- Wiedemann, Al-Biruni, p. 57-58 : راجع (٣٦)
- Validi, GZ, XI, p. 364 (٣٧)
- Validi, Schwerter, p. 46 (٣٨)
- (٣٩) شرحه ، ص ٤٤
- (٤٠) شرحه ، ص ٤٠ ، ٤٧ - ٤٨
- (٤١) شرحه ، ص ٢٧ وغيرها
- Validi, GZ, XL, p. 364 (٤٢)
- Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 19-25 (٤٣)
- (٤٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٠
- (٤٥) أبو الفدا و Validi, Schwerter, p. 41
- Kimble, p. 56 (٤٦)
- Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 2-3 (٤٧)
- (٤٨) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٣٠٨
- Zaleman. Al Biruni — Brockelmann, GAL, SBI, p. 872, 1 (٤٩)
- Krause, Biruni, p. 9 (٥٠)
- Fiorini, p. 294 (٥١)
- Krause Biruni, p. 9 (٥٢)

- (٥٣) راجع رأى زخاوى فى الطبعة : Brockelmann, GAL, SBI, p. 870-871
- (٥٤) – Krause, Biruni, p. 9
- (٥٥) – Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 530 : لا تستغرب
- (٥٦) شرحه : فى الكواب ، راجع : Krause, p. 9
- (٥٧) والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية .
- (٥٨) الصيدانة : المتن لدى Meyerhof, Kitab al-saidana ص ١٣ : الترجمة ص ٤٠ - ٤١ :
- وفقاً لكركو Krenkow راجع : RAAD, XIII, p. 422 ومع قراءات سيئة وأخطاء فى الطباعة
- راجع : Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 530, note
- (٥٩) Rozen, ZVO, III, p. 162, note 4 – Krause, Biruni, p. 15 – Sachau, راجع : SBWA, Phil, hist – KI., 73, p. 485=Wiedeman, al-Biruni, LX, p. 60
- (٦٠) – Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 531, note
- (٦١) راجع أيضاً : Krause, Biruni, p. 6; Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 48-50
- (٦٢) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 874 – Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 529
- الصورة فى ص ٥٣٤ .
- (٦٣) – Krause, Biruni, p. 9
- (٦٤) – Ritter, DI, XIX, p. 54
- (٦٥) راجع التصحيح فى : Krause, DI, XXII, p. 268 – DI, XXV, p. 196
- (٦٦) – Validi, OZ, XL, p. 370-371
- (٦٧) – Volin, VDI, No 1, p. 192-196
- (٦٨) – Wiedeman, Beiträge, XXVII, p. 1-2, note 2
- (٦٩) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 873, no 4
- (٧٠) – Krause, DI, XXII, p. 267
- (٧١) – Wiedemann, Beiträge, XXIX, p. 119-125
- (٧٢) – Krause, Biruni, p. 10
- راجع المحتويات فى : نالينو ، الفلك ، ص ٣٨ - ٤٠ (= Raccolt, p. 117, 38 – 118, 40)
- (٧٣) – Krause, Biruni, p. 10
- (٧٤) – Honigmann, Die sieben Klimata, p. 165-166
- (٧٥) طبعة Lippert ، ص ٩٧
- (٧٦) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٣١١

- Honigman, Die, sieben Klimata, p. 166 — Wiedemann, Al-Biruni, راجع : (٧٧)
p. 88-99 — Brockelmann, GAL, SBI, p. 873, 4
- Honigmann, Die Sieben Klimata, 166 (٧٨)
- Wiedeman, Beiträge, XXVII, p. 3 (٧٩)
- (٨٠) البيروني ، كتاب التفهيم ، راجع طبعة :
R. Wright, Al-Biruni, p. 138-145, 236-241
- Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 3-16 (٨١)
- (٨٢) شرحه ، ص ١٦ – ١٨
- Honigmann, Die, sieben Klimata, p. 166 (٨٣)
- Kramers, El, EB, p. 68 (٨٤) والصورة في ص ٧٠
- إعادة رسمها بواسطة Lelewel في p. 126 Miller, V, p. 125-126;
- Krause, Al-Biruni, p. 10-11 (٨٥) راجع :
- Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 19-25 (٨٦)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 873 (٨٧) راجع :
- R. Wright, Al-Biruni, p. III (٨٨)
- Wiedemann, Al-Biruni, p. 87 - Semenov, Al-Biruni, p. 106-116 (٨٩)
- (٩٠) أحسن وللتصور أسهل
- Nazim, p. 6, note 2 – (= Meyerhof, Kitab Al-saidana, p. 6, تحقيق ما للهند note 4) (٩١)
- Ruska, GZ, XXXIII, p. 592 (٩٢)
- Kramers, El, EB, p. 68 (٩٣)
- Mieli, p. 100 (٩٤)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 874, 11 (٩٥) راجع تعدادها أدنى :
- Krause, Di, XXII, p. 266 Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 15,46 (٩٦) راجع :
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 874, 27 (٩٧)
- Meyerhof, Kitab, al-saidana, p. 52 (٩٨)
- Kramers, El, EB, p. 68 (٩٩)
- Mieli, p. 102, note 9 (١٠٠)
- Dictionnaire de l'Académie Francaise, 8 ed., 1931, I, p. 39 — Lokotsch, (١٠١)
p. 26, No 313 — Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 76.
- Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 3, note 1 : عن المراجع الأخرى انظر :
- Sarton, Introduction, I, p. 678-679 — Mieli, p. 121 (١٠٢)

- Krymski, *Istoria Persii*, 1914, p. 170 (١٠٣)
- Bartold, *Iran*, p. 26 (١٠٤) راجع عنه أيضاً : حدود العالم ، ص ١٧ - ١٨ : و
- Krymski, *Istoria Persii*, 1909, p. 3-4 — Romaskevich, *MITT*, I, p. 44-55 — Mielj, p. 119, note 13
- Bartold, *Ochet*, 1897, p. 78-126 (١٠٥)
- Minorsky, *Une nouvelle source*, p. 309 (١٠٦)
- Berthold, *Gardizi*, p. 137-138 (١٠٧)
- Bartold, *Ochet*, 1897, p. 79 (١٠٨)
- Barthold, *Turkestan*, p. 20-21 (١٠٩)
- Hartmann, *China*, p. 878-879 — Yule, *Cathay*, I, p. 140-141 (١١٠)
- Barthold, *Gardizi*, p. 138 (١١١)
- Krymski, *Istoria Persii*, 1915, p. 461, note 2 (١١٢) عن تاريخ وفاته راجع :
- Berthels, *El*, III, p. 939-940 — Bertels, *Nasir-i Khusrau — Browne, Literary History*, II, p. 221-246 — Mielj, p. 116, 119, note 14 — Sarton, *Introduction*, I, p. 768 — Mednikov, *Palestina*, II, p. 843-882 — Krymski, *Istoria Persii*, 1915, p. 451-506
- Mednikov, *Palestina*, II, p. 858, 864 (١١٤)
- (١١٥) زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١٠ - ١٣ ، ١٨٠ - ١٨٨ .
- (١١٦) تقريله لدى : Lewis, p. 99-100
- (١١٧) طريق السير وفقاً لروسكا (Ruska, *GZ*, XXXIII, p. 593-594)
- Kramers, *Legacy*, p. 88 (١١٨)
- Bertels, *Nasir-i Khusrau*, p. 21 - Berthels, *El*, III, p. 940 (١١٩)
- Brockelmann, *GAL*, I, p. 483, No 2; SBI, p. 885 — Brockelmann, *Ibn Butlan*, p. 392 — Cheikho, *Poètes Arabes Chrétiens*, III, p. 266-272, 392
- Sarton, *Introduction*, I, p. 730-731.
- في الأونة الأخيرة جمع المادة عن ابن بطالان شاخت ومير هوف .
- (J. Schacht and M. Meyerhof, p. 14-15, note 14)
- (١٢١) هذا التاريخ يشير إليه مؤرخ حلب المعاصر الطباخ ، راجع :
- Cheikho, *Poètes arabes chrétiens*. III, p. 392
- Brockelmann, *GAL*, I, p. 483, no 2: « بعد عام ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ » SBI, p. 885 : (١٢٢)
- « بعد عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٨ » راجع : Rozen, *Vasilii Bulgarobolitsa*, p. 40,48

- Rozen, Vas. Bulg., p. 036, 038 - 053 (١٢٣) شرحه
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 556 - 557, No 2 (١٢٤)
- (١٢٥) شرحه ، ص ٥٥٧ ، في أعلى
- Heer, p. 22 (١٢٦) (ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ص ٣٨٢ - ٣٨٥ : أنطاكية =)
(والجزء الثاني ، ص ٣٠٦ - ٣٠٨ : حلب ؛ والجزء الثاني ، ص ٦٧٢ : ديرسمهان ؛ والجزء الثاني ،
ص ٧٨٥ : الرصافة ؛ والجزء الثالث ، ص ٧٢٩ : عم ؛ والجزء الرابع ، ص ١٠٠٣ : يافا)
- (١٢٧) طبعة Lippert ، ص ٢٩٥ - ٢٩٨
- Cheikho, Poètes arabes chrétiens, III, p. 272 - 277. (١٢٨)
- Rozen, Vasili Bolgaroboitsa, p. 039 : راجع
- (١٢٩) من المحتمل أنه ترجع إليه رواية عن اللاذقية ترتفع إلى عام ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ ، حيث يوجد بدلا من
اسم ابن بطلان اسم ابن فضلان : ياقوت ، المعجم ، الجزء الرابع ، ص ٣٣٩ (الطبعة المصرية ، الجزء
السابع ، ص ٣١٢) . راجع : Kovalevski, p. 14, no 1
و Meyerhof, Kitab al-saidana. p. 57, note 23
- Rozen, Vasili Bolgaroboitsa, p. 044 (١٣٠)
- (Le Strange, Röhricht) (١٣١) ترجمة جزئية لدى لوسترانج وروخت
Brockelmann, GAL. SBI, p. 885, No 2 : راجع
Meyerhof, Kitab al-saidana و
- Brockelmann, Mitteltürkischer Wortschatz (١٣٢)
- Barthold, Vorlesungen, p. 58 (١٣٣)
- (١٣٤) حدود العالم ، ص ١٦٨ (٤٦٦ هـ = ١٠٧٤ أو ٤٧٠ هـ = ١٠٧٧)
- Barthold, Vorlesungen, p. 93 95 (١٣٥)
- Babenger, GOW, p. 402-404, No 374 (١٣٦)
- Beliaev, MITT, p. 31-32 (١٣٧)
- Miller, V, p. 142-148 (١٣٨)
- Hermann, Imago Mundi, I, p. 21-28 (١٣٩)
- (١٤٠) شرحه ، ص ٢٣
- (١٤١) شرحه ، ص ٢٢
- Kramers, EI, EB, p. 67 (١٤٢)
- Umniakov, Samia staria turetskia karta mira (١٤٣)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 903, No 2 A (١٤٤)

- Minorsky, une nouvelle source, p. 317-318 (١٤٥)
- (١٤٦) شرحه ، ص ٣١٧
- Muhammad Nizamuddin, p. 88-89, No 29 (١٤٧)
- Minorsky, une nouvelle source, p. 318 (١٤٨)
- (١٤٩) شرحه ، ص ٣١٩
- Barthold, Vorlesungen, p. 89 — Minorsky, une nouvelle source, (١٥٠)
- p. 319 320
- (١٥١) شرحه ، ص ٣٢٠ — ٣٢٣

الفصل العاشر

جغرافيو القرنين الحادى عشر والثانى عشر بالمغرب

272 تكاد جميع المصنفات الجغرافية الكبرى التى تحدثنا عنها حتى الآن ترتبط بمشرق العالم الإسلامى ، وهذا دون ريب لا يعنى أن غرب العالم الإسلامى ، أقصد المغرب والأندلس بالذات ، لم يأخذ نصيبه فى التطور العام لهذا الأدب ؛ غير أن الأدب الجغرافى فى تلك الأقطار اتخذ صبغة محلية وقلمًا كان يخرج عن نطاق البلاد التى ظهر فيها ، كما وأنه لم يُبرز إلى الوجود مصنفات نالت انتشاراً عاماً . ويمكن القول بأن التطور الأدبى ربما تأخر بعض الشيء هنا ؛ صحيح إنه يقابلنا حتى فى العهود المبكرة ممثلون ذوو باع طويل فى الجغرافيا الإقليمية مثل الرازى Elmoroz Razis أو الرحالة الطريف فى نظرنا إبراهيم بن يعقوب ، غير أنه فقط فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر انبعثت مؤلفات معروفة لنا معرفة مباشرة وظفرت بمكانة رفيعة فى المشرق نفسه .

وفى هذه الآونة تعرضت البلاد العربية لغير قليل من الحوادث التى وجهت ضربات قاضية إلى وحدة العالم الإسلامى ، بالرغم من أن تلك الوحدة كانت فى غالب الأحوال ليست سوى فكرة فى أذهان الناس . وفى نحو عام ١٠٥٠ للميلاد تعرض النصف الشرقى من العالم الإسلامى لغارة السلاجقة ، بينما وقعت صقلية بأجمعها وجزء هام من أسانيا بل ومن حين لآخر بعض المواضع على ساحل أفريقيا الشمالى تحت سيطرة المسيحية . وفى نفس ذلك الوقت بدأت تختمر فى أوروبا الفكرة الصليبية وأخذ العالم الإسلامى ينكشف بالتدريج للمسيحيين ؛ كذلك ختمت بعض الأشياء حدة العلاقات السياسية بين العالمين ، ولكنها سرعان ما عادت سيرتها الأولى فترة من الزمن إبان حكم السلاجقة والأيوبيين فى خلال صراعاتهم العنيف ضد الصليبيين . بيد أن جميع هذه الأحداث لم تؤثر فى النظريات الأساسية التى سادت الأدب الجغرافى ، ويمكن فقط أن نلاحظ بعض المحاولات إلى الاقتراب من الجغرافيا الفلكية . فمثلاً فى نسخة معدلة لمصنف ابن حوقل يرجع تاريخها إلى عام ١٠٦٤ لا تظهر خارطة العالم مستديرة بل تتخذ شكلاً إهليلجياً (elliptic) ، مما يتفق مع الفكرة الفلكية عن المعمورة^(١) .

ومن الملاحظ أن تطور العلوم الجغرافية فى الأندلس كان أبطأ مما فى المشرق ، ففى القرن الحادى عشر نلاحظ الاهتمام بأنماط كانت قد بدأت تنقهر فى المشرق إلى النصف الثانى هذا إذا لم تكن قد اختفت تماماً . | 273 ويقدم لنا مثلاً طريفاً المحدث الأندلسى المشهور ابن عبد البر النمري القرطبي (٣٦٨ هـ - ٤٦٣ هـ = ٩٧٨ - ١٠٧١) الذى اكتسب شهرة واسعة كعالم فى الحديث ، وقد أخذ العلم بقرطبة التى كانت لا تزال

تتصف بجميع أبهة عاصمة الخلافة الغربية ؛ وهو لم يغادر الأندلس على الإطلاق وتوفى بشاطبة Játive في التسعين من عمره تقريباً^(٢) . وقد نالت مؤلفاته العديدة في الحديث شهرة عريضة ولم يكن هو فيما يبدو غريباً على الموضوعات الأدبية ، ويتضح ذلك من أحد مصنفاته الأدبية وكذلك من شرحه المشهور لأشعار أبي العتاهية ، شاعر الزهد في العصر العباسي . وبالحديث يرتبط أكثر مما يرتبط بالأدب مؤلفه الذي يمكن أن تكون له صلة بالجغرافيا ، أو على الأحرى بالاثنو جرافيا .

ويحمل الكتاب عنواناً طناناً قد يختلف أحياناً من مصدر لآخر هو « القصد والأهم في التعريف بأصول العرب والعجم » ؛ وهو في الواقع عبارة عن رسالة صغيرة تقع في عشرين صفحة تقريباً ولا تكاد تذكر شيئاً عن العرب بل تعالج فقط مسألة ظهور الشعوب الغربية التي ورد ذكرها في الحديث . وبعض مادته مأخوذ من العهد القديم ، بل ومن أسطورة الإسكندر ذي القرنين كذلك ، وهي في هذا تتفق بعض الشيء مع روايات المسعودي . وقد افترض نولدكه Nöldke أن الرسالة إنما تمثل ذيلاً فحسب لكتاب كبير لابن عبد البر في أنساب القبائل العربية والصحابة وأن قيمتهما العلمية ليست بذات بال^(٣) . ومثل هذا النوع من المؤلفات معروف لنا جيداً فهو يضم محاولات العهد المبكر لتفسير الأحاديث النبوية تفسيراً جغرافياً ، وهي محاولات ترجع إلى عهد ابن عباس . وهذا بالتأكيد لا ينبغي أن عناصر متفرقة منها يمكن أن تقدم بعض الفائدة في محيط الجغرافيا إذا ما عرضت لتحليل مناسب . ولعل شيفير Schéfer كان مصيباً عندما نشر قطعة من رسالة ابن عبد البر هذه مصحوبة بترجمة فرنسية ، وهي القطعة الخاصة بأهل الصين ، وأكد أنه توجد بها إشارة دقيقة إلى عبادة الأسلاف كما توجد بها فكرة عن وجود قبائل الأينو Aino في شمال الصين^(٤) . وفيان Ferrand رغم تشككه بصدد هذه النقطة الأخيرة إلا أن ذلك لم يمنعه من الاستشهاد بمثن ابن عبد البر حول مسألة علاقة الصين بسكان الملايو^(٥) .

وإلى نفس هذا الوسط ينتمي مؤلف يحتل مكانة كبيرة بالنسبة لنا وهو أحمد بن عمر العذري (٣٩٣ هـ - ٤٧٨ هـ = ١٠٠٣ - ١٠٨٥) الذي يعتبر في ذات الوقت تلميذاً أو أستاذاً لابن عبد البر^(٦) ، تماماً 274 كما كان تلميذاً وأستاذاً لابن حزم المشهور^(٨) ، فجميعهم أبناء عصر واحد ووفقاً لما كان متبعاً في الدوائر العلمية آنذاك فإنه لم يكن هناك ما يمنع أحدهم من التلمذ على الآخر في فرع من العلوم التي يجيدها الأخير . وقد توفى العذري عام استيلاء الفونس السادس Alfonso VI على طليطلة Toledo . وميزة العذري الكبرى على ابن عبد البر ليست في رحلته إلى المشرق فحسب بل في أنه عاش بمكة نحواً من تسعة أعوام^(٩) ، ولذا فن المنطقي أن تتصف معلوماته الجغرافية بالعمق ولا تعتمد على المادة المدونة في الكتب وحدها بل وعلى انطباعاته الشخصية كذلك . ومن العسير معرفة أي من هذين الاتجاهين دفعه قبل الآخر إلى وضع مصنف خاص في الجغرافيا ، غير أنه يتضح من العنوان وهو « نظام المرجان في المسالك والممالك » أنه ربما ارتبط بالتراث المعروف لنا جيداً .

ولم يعرف لهذا المصنف إلى الآن أية مخطوطات ، ولكنه كان معروفاً معرفة جيدة للمؤلف التالى لهذا ، كما نقل عنه آخرون شذوراً ضخمة* . وقد كان العذرى أستاذاً للبكرى^(١٠) المشهور الذى سيرد الكلام عليه بعد حين فى شىء من التفصيل لذا فليس من الغريب أن يمثل مصنفه مصدراً من المصادر الأساسية لمصنفات البكرى فى ميدان الجغرافيا ؛ كما وقد استعار منه الكوزموغرافى القزوينى كل المادة المتعلقة بأسبانيا^(١١) وأوروبا الغربية^(١٢) تقريباً ورجع إليه الإدريسى^(١٣) وعرفه ياقوت جيداً . وفى وصفه لموطنه دلالة Dalias من أعمال المرية Almaria ينقل عنه بتفصيل واف^(١٤) . ورغماً من معرفته بعنوان الكتاب^(١٥) إلا أنه فيما يبدو لم يستعمله استعمالاً مباشراً ، والمرة الوحيدة التى يتحدث فيها عنه كانت بمناسبة الكلام على تلميذه ابن حزم^(١٦) . إزاء ذلك نجد من الصعب علينا إعطاء وصف لهذا الكتاب فى مجموعه ؛ ومن ثانياً القطع المنقولة عنه يتضح أحياناً أن اهتماماً كبيراً قد أفرد فيه لختلف أنواع العجائب Mirabilia^(١٧) . وأعتقد أن الكتاب لم يقتصر على الأندلس وحدها كما ظن البعض ، فالقطع التى نقلها عنه باقوت مثلاً تمس فى الواقع مدينة مكة . أما انتماء الكتاب إلى نمط المسالك والممالك فأمر لا ريب فيه ولكن هذا لا يعنى أنه ارتبط ارتباطاً مباشراً بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا بالشرق إذ أن هذا النمط قد خضع لتعديل جوهرى بالأندلس كما سيتضح لنا عند الكلام على تلميذه المشهور البكرى .

وقبل أن ننتقل إلى الكلام عن الأخير يلزمنا أن نؤكد مرة أخرى ضرورة رفض الزعم القائل بوجود شخص قائم بذاته يدعى إبراهيم الطرطوشى كما افترض ياكوب Jacob^(١٨) عند كلامه على الرحالة الذى زار أسبانيا وأرض الصقالبة ؛ ومما زاد فى اللبس أكثر أن كرامرس Kramers يرجعه إلى القرن الحادى عشر ويجعل تاريخ وفاته وتاريخ وفاة العذرى (٤٧٨ هـ = ١٠٨٥) ^(١٩) . وكما رأينا فى حينه فقد أثبت كوفالسكى Kovalski أن إبراهيم الطرطوشى هو فى حقيقة الأمر إبراهيم بن يعقوب نفسه الذى قام برحلة فى النصف الثانى من القرن العاشر ، أما القول بوجود مؤلفين يحملان اسماً واحداً فهو قول يجب إطراحه نهائياً .

وأبو عبيد عبد الله البكرى هو « أكبر جغرافى أخرجته الأندلس زقاطبة » كما قال دوزى Dozy^(٢٠) . وقد تعرف عليه الاستشراق الروسى أساساً بفضل حفظه لشذرات من مذكرات إبراهيم بن يعقوب الذى مر ذكره للتو . وببحث كونيك Kunik وروزن Rosen الذى اعتبر فتحاً جديداً بالنسبة لعصرهما قد أسدل الستار قليلاً على النواحي الأخرى لشخصية البكرى ، فلم يتذكره الناس إلا بعد طبع مصنفاته الأدبية فى الآونة الأخيرة . وكان البكرى تلميذاً للعذرى وابن عبد البر ، ومن هذا الأخير تسلم إجازته

* عثر الأستاذ المصرى عبد العزيز الأهوانى على نص للعذرى فى جغرافيا الأندلس والظاهر أنه ناقص . وهو يعمل على تحفيظه للصحيح . (المترجم)

في التدريس^(٢١) غير أنه كان ينتمى إلى وسط آخر سواء من ناحية أصله أو من ناحية شخصه : فهو لم يكن عالماً متفرغاً للحديث أو متفقهاً فيه بل كان أديباً ذا ميل واضح محدد نحو الموضوعات الأدبية ، لا يرفض حياة المتعة والخمر^(٢٢) ، وكان موظفاً كبيراً ودبلوماسياً كما كان وثيق الصلة بمعاصريه من الأدباء كابن حيان وابن خاقان اللذين عرفهما عن كثب^(٢٣) . ويرتفع نسبه إلى بكر بن وائل ، وكان جده وأبوه يوماً ما أميرين على مدينتي ولبة HueIva وشلطيش^(٢٤) Saltès على ساحل البحر المحيط إلى الغرب من إشبيلية Seville؛ وقد اضطر أبوه إلى مغادرة إمارته عندما غلب عليها العباديون أمراء إشبيلية ورحل مع ابنه إلى قرطبة التي احتفظت بعد سقوط الأمويين بأهميتها حيناً من الدهر كمركز ثقافي وكملاذ لأمراء الأقاليم الذين فقدوا سلطانهم . وهناك أتم البكرى دراسته بل وانتسب إلى المدينة فعرف أيضاً باسم القرطبي . ونقابله بعد ذلك لفترة من الزمن وزيراً للأمير المرية ، وقد قام بمهمة دبلوماسية لدى بلاط الأمير الشاعر المعتمد بن عباد^(٢٥) بإشبيلية . وبعد هزيمة الأخير على أيدي المرابطين Almoravides 276 رجع البكرى مرة ثانية إلى قرطبة وظل يزاول نشاطه الأدبي بها إلى وفاته في عام ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ (٢٥) . ولم يتخذ اهتمامه بالجغرافيا طابعاً مستقلاً بل كانت تخضع إلى حد كبير لميوله الأدبية . وقد اشتهر البكرى كمخبر في الشعر والأدب الفني اللذين أفرد لهما بعض الرسائل التي تنعكس فيها مجادلاته مع اللغوى الشهير للقرن العاشر أبي على القالى الذى نقل ثقافة بغداد الأدبية إلى الأندلس . وكان البكرى بطبيعته محباً للكتب فأولاه اهتماماً متزايداً وكان يلفها فوق الجلدة بقطعة من النسيج « لإكراماً لها » كما قال هو نفسه^(٢٦) . ورغم أنه لم يغادر الأندلس البتة إلا أنه ترك لنا مصنفين في الجغرافيا تمتعاً بشهرة عريضة .

أحدهما بعنوان « المسالك والممالك » نحا فيه المنحى القديم في وصف الطرق والمراحل وبين فيه بلدان العالم الإسلامى المختلفة . ووفقاً لتركيبه فهو كتاب جامع ولكن أسلوبه جاف ؛ وقد قصد به مؤلفه في المكان الأول إرضاء مطالب الإدارة ولكنه لا يخلو من استطرادات ممتعة ويتضمن أحياناً وثائق هامة . ومن المستحيل نسبته إلى مدرسة البلخي ، وذلك لأسباب عديدة وليس فقط لأنه يخلو من الخارطات^(٢٧) . وكان الفراغ من تأليفه حوالى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٨ (٢٨) ؛ غير أن النص لم يحفظ لنا كاملاً بالرغم من أن مخطوطاته استمرت تظهر إلى الآونة الأخيرة^(٢٩) ، وكل ما تبقى منه هو أوصاف أفريقيا الشمالية ومصر والعراق وسكان نواحي بحر قزوين وبعض أجزاء أسبانيا ؛ وحتى هذا الموجود بين أيدينا لم يطبع بأجمعه ! ومن أكثر أوصافه تفصيلاً وصفه لأفريقيا الشمالية الذى أصبح في متناول اليد بفضل طبعة وترجمة دى سلان De Slane^(٣٠) . وفيه تمكن البكرى من الإفادة من كتاب يحمل نفس العنوان لمؤلف سابق من أهل القرن العاشر هو ابن الوراق^(٣١) الذى مر بنا الكلام عليه ؛ ومن هذا القسم يتضح لنا معرفة البكرى العميقة بالطرق وبكل الساحل بمرافته وخلقاته العديدة . وفي مواضع أخرى توفرت لديه مصادر عديدة كمذكرات إبراهيم بن يعقوب في وصف أراضى الصقالبة ، وهو القسم من كتابه الذى نشره

277 روزن . واعله من الحائز أن يكون قد اطلع على وثائق قرطبة فاستخرج منها **المادة** اللازمة لوصف بعض الطرق (٣٢) . أما الأدب المدون فإنه كان بلا أدنى ريب معروفاً له معرفة جيدة ؛ ففي القسم الخاص بالصقالبه نلمس تأثير الجيهاني (٣٣) والمسعودي (٣٤) وابن رسته ، كما أن انتماءه إلى المغرب قد يسر له أحياناً الرجوع إلى مصادر كانت غير معروفة بالمشرق فقد أثبت المستشرق الإسباني سيمونيت (٣٥) Simonet أن وصفه لجزر الكناري The Canaries مأخوذ من كتاب « أصول الكلمات » Etymologia الشهير لأيزيدور الإشبيلي Isidorus Seviliensis ، أحد مشاهير أصحاب الموسوعات في القرن السابع الميلادي (٣٦) . ويمكن القول دون تردد بأن المصنف بأجمعه يقوم أساساً على جهد المؤلف الشخصي وأنه يقدم إلى جانب المادة المدونة معلومات عديدة معاصرة له ، وقد كان الكتاب واسع الانتشار أفاد منه ياقوت (٣٧) ورجع إليه كثيراً الدمشقي كوزموغرافي القرن الرابع عشر (٣٨) * .

أما مصنف البكري الثاني في الجغرافيا فقد كان إحياءاً للمنهج القديم في المعاجم الجغرافية الذي يرتفع إلى القرن التاسع ، وهي المعاجم التي وضعها اللغويون . وقد اضمحل هذا النمط في القرنين التاليين لذلك حتى إنه لم يظهر مصنف ذو بال في هذا الميدان قبل مصنف البكري ، لذا فإن معجمه كان إبداعاً بفاتحة جهد جديد لازدهار هذا النمط الأدبي . ومن خلال المقدمة تبرز أمامنا واضحة الأفكار الرئيسية التي سيطرت عليه وعلى مثلي هذا الصنف من المؤلفات الجغرافية ، فهو يقول :

« هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه إن شاء الله جملة ما ورد في الحديث والأخبار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة . فإني لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس أردت أن أفصح عنه بأن أذكر كل موضع مبين البناء معجم الحروف حتى لا يتدرك فيه لبس ولا تحريف . وقد قال أبو مالك الحضرمي ربّ علم لم تُعجم فصوله فاستعجم محصولة . فإن صحة هذا لا تدرك بالفطنة والذكاء كما يليق المشتق من سائر الأسماء ، وما أكثر المؤلفات والمختلفات * في أسماء هذه المواضع مثل ناعجة وباعجة ونبتل وئيتل ونخللة ونخلّة وساية وشاية والنقّرة والنقّرة وجند وجند وجسّان وحسّان وحُبّحُبّ وحَبّحَبّ وسنام وسنّام وشبام وسلّك وسلّك والحوّب والحوّءب وقرّن وقرّن وجُفاف وجُفاف وحُتّ وحُتّ وتريّم وتريّم وتهامة ونِهامة بالنون وخزاز وجَرار وحرّاز . وكذلك ما اشتبه أكثر حروفه نحو سُمْن بالنون وسُمْنِي بالياء وشمام بالميم وسقام بالقاف وشابة بالباء وشامة بالميم ونَمَلِي بالنون وقَمَلِي بالقاف وتَحَلِي بالخاء وجُرْزان بالزاي وجرذان بالذال وإلاهة وإهالة بتقديم الهاء على اللام والقاعة والقاحة . وقديماً صحف الناس في مثل هذا .

278

* إن أفضل تحليل لهذا المصنف هو الذي يقدمه الدكتور حسين مؤنس في مقاله الأصيل « الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس » الذي ظهر بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمطبعة ، المجلدان السابع والثامن (١٩٥٩ - ١٩٦٠) . (المترجم)
* المؤلف والمختلف ما تتفق في الخط صورته وتفتقر في اللفظ صيغته . (المترجم)

قال ابن قتيبة قرئ على الأصمعي في شعر أبي ذؤيب :

بأسفل ذات الدَّير أُفردَ جحشُها فقد ولّمت يومين فهي خلوج^(٣٩)
فقال أعرابي حضر المجلس للقارئ ضل ضلالك إنما هي ذاتُ الدبر بالباء المعجمة بواحدة وهي
ثنية عندنا ، فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد^(٤٠) .

وقال أبو حاتم قرأت على الأصمعي في شعر الراعي :

وأفرعن في وادي الأمير بعدما كسا البید ساقی القیطة المتناصر^(٤١)
فقال الأعرابي لا أعرف وادي الأمير . قال فقلت إنها في كتاب أبي عبيدة « في وادي دلاميد » ،
فقال ولا أعرف هذا ولعلها جلاميد ففُصِّلَت الجيم من اللام . قال أبو حاتم وفي رواية ابن جبلة « وادي
الأميّل » باللام ، وكلها غير معروفة .
فهؤلاء عدة من العلماء قد اختلفوا في اسم موضع ولم يدروا وجه الصواب فيه ، وسأبين ذلك في
موضعه إن شاء الله

وترتيب حروف هذا الكتاب ترتيب ا ب ت ث فأبدأ بالهمزة والألف نحو آرة ثم بالهمزة والباء
نحو أبلى وأبان ، ثم بالهمزة والتاء نحو الأثم ، ثم بالهمزة والتاء نحو الأنثيل والأثاية ، هكذا إلى انقضاء
الحروف الثمانية والعشرين . فجميع أبواب هذا الكتاب سبع مئة وأربعة وثمانون باباً وهو ما يجتمع من
ضرب ثمانية وعشرين في مثلها فالحرفان من كل اسم مقيدان بالتبويب ، وأذكر باقي حروف الاسم
وأبين المشكل بالمعجم والمهمل وأذكر بناءه وضبطه واشتقاقاً إن عرف فيه وأنسب كل قول إلى قائله
من اللغويين والأخباريين المشهورين . وجميع ما أورده في هذا الكتاب عن السكوني فهو من كتاب أبي عبيد الله
عمرو بن بشر السكوني في جبال تهامة ومحالها يحمل جميع ذلك عن أبي الأشعث عبد الرحمن بن عبد الملك
الكندى عن عرام بن الأصمعي السلمي الأعرابي^(٤٢) * .

فالبكري إذن يواصل منهج عرام بن الأصمعي بدوى القرن التاسع الذي مر بنا الكلام عليه من قبل ،
ويبدو أنه لم يعرف مصنفات في هذا النوع أكبر من هذا . ويجب ألا يبدو غريباً أن ترتفع مصادر البكري
إلى هذه المحاولات للغويين الأوائل ، إذ لا يوجد أساس للبحث عنها في معاجم أنساب القبائل مثلاً حاول
أن يفعل في الآونة الأخيرة بلاشير^(٤٣) Blachère معيداً في هذا الصدد ، وفي صورة أقل دقة ، مزاعم
رينو^(٤٤) Reinaud التي ترجع مائة عام إلى الوراء تقريباً . وإذا كان معجم البكري هو أول ما وصلنا
في هذه السلسلة فإن هذا بالتأكيد لا يعنى أنه كان أول من سبق في هذا المضمار ؛ إذ من العسير اعتباره
أول من وليج باب هذا الفن من الأدب الجغرافي . ولكن من المرجح أن يكون أول من استعمل الطريقة

* هذه القطعة نقلتها عن الطبعة الجديدة لمعجم البكري التي نشرها السقا بالقاهرة في أربعة أجزاء ١٩٤٥ - ١٩٥١ . (المترجم)

الأبجدية في هذا الباب وإلا لما شرحها بمثل هذا التفصيل في افتتاحيته ؛ ومهما بدت لنا هذه الطريقة سهلة ومطروقة في العصر الحالى فإنه يجب ألا يغيب عن الذهن أن أول معجم جغرافى يظهر بأوروبا (وهو معجم أورتلئ Ortellius) كان في القرن السادس عشر (٤٥) .

وكما هو الحال مع الخبراء الأول في معرفة بلاد العرب القديمة فإن معجم البكرى ليس كتاباً في الجغرافيا بقدر ما هو كتاب لغوى ، ولا يعالج جميع البلدان المعروفة بوجه عام مثل ما يعالج جزيرة العرب بوجه خاص . فهو قد جهد قبل كل شئ في استغراق الأسماء الواردة في القرآن والحديث وفي الشعر القديم وقصص المغازى الأولى وذلك عن طريق شرح الشواهد المتعلقة بها . وهذا المعجم الذى ورد نظام ترتيبه مشروحاً مفصلاً في الافتتاحية يبدأ بمقدمة كبيرة تبحث في حدود الجزيرة العربية ومناطقها ونواحيها كالحجاز وتهامة واليمن ؛ وفي القسم الثانى من المقدمة يرد الكلام على القبائل العربية المستوطنة بها وعن هجراتها . وقد كانت الافتتاحية مصدراً لبحث خاص للعلامة فستفلد الذى يدين له العلم بطبعة كاملة للمعجم .

نال المعجم تقديرًا كبيراً لدى الجيل الأول من المستشرقين في القرن التاسع عشر فاعتبره دوزى فريداً لا يمكن مقارنته بشئ آخر (٤٦) ؛ ولا شك أننا نوافقه في أنه يمثل مرجعاً لا غناء عنه لكل من يشتغل بالتاريخ العربى القديم والجغرافيا والشعر الجاهلى ، ولكن يجب أن نعتز في ذات الوقت بأنه إنما يعتمد في الغالب على المادة المدونة وأن المكانة الأولى فيه تشغلها جزيرة العرب . ومن المنطقى أن يخمل ذكره وتتضاءل قيمته منذ أن أصبح معجم ياقوت في متناول الأيدي ، لأن الأخير يفوقه بشكل ملحوظ سواء في اتساع ملاحظاته المباشرة أو في اهتمامه بجميع البلدان على قدم المساواة وفى ضخامة المادة التى ينقلها عن المؤلفين الآخرين . ومن الطريف أن نلاحظ أن ياقوت كان على علم بهذا المعجم ولكن لم يستطع الاستفادة منه مباشرة ، وهو يقول ما نصه : « ولم أره بعد البحث عنه والتطاب له » (٤٧) . وهو من وقت لآخر يورد ذكره عن مصادر أخرى (٤٨) ، واستشهاداته من البكرى كثيرة (٤٩) ولكن نظراً لأنه يتحدث أحياناً عن كتابه الآخر « المسالك والممالك » (٥٠) فمن الراجح أن يكون قد أخذها بأجمعها من هذا المصنف الأخير . وإذا حدث وأن وقفنا موقف التحفظ من شهادة دوزى الحماسية عن البكرى فإنه يتحتم علينا موافقته في أن البكرى هو أكبر جغرافى الأندلس ، واو أنه يجب أن نستدرك على ذلك بإضافة « أى للمدرسة اللغوية » .

280

ويجب ألا يقتصر الاستدراك على لفظ الأندلس وحدها ، ذلك أنه منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ظل عدد كبير من المصادر الأدبية ، وبوجه خاص التاريخية ، يقدم مادة جغرافية ، إلا أن الأدب الجغرافى نفسه بدأ يتخذ شيئاً فشيئاً طابع التجميع لما خلفه المؤلفون السابقون . ولم يلبث حجم هذه المادة أن تزايد بشكل ملحوظ بحيث توالدت الرغبة في توحيد جميع المعطيات التى جمعتها الأجيال

السابقة بطرق شتى في قالب أدبي : وما زاد في تعقيد المسألة أن مفهوم الوحدة الجغرافية للعالم الإسلامي انكمش شيئاً فشيئاً نتيجة لاختلاف المصير التاريخي الذي أحاط بكل قطر من أقطاره . وإلى جانب كل هذا فقد قوى الاتجاه نحو الغريب والحارق والخارج عن المألوف : بنفس الصورة التي انعكس فيها هذا في المصنفات الجغرافية المتأخرة التي ظهرت باللاتينية في أوروبا الوسيطة^(٥١) .

ولعل الجهد في البحث عن نمط جديد يمكن تفسيره على ضوء ظهور اتجاه جديد في هذا العصر يرمى إلى الربط بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الفلكية مرة أخرى . وهذا الاتجاه يبدو واضحاً عند الإدريسي بالذات ، ولكن يقابلنا أيضاً عند غيره ليس بدرجة أقل . وقد حدث أن مر بنا في أحد الفصول الأولى من هذا الكتاب ذكر الزهري جغرافي الأندلس لمنصف القرن الثاني عشر وكيف ركّز جهده في وصف ما سُميت « بالخارطة المأمونية للعالم » . وكما رأينا فإن تقسيمه الأرض إلى ستة أقاليم تحيط بإقليم سابع يقع في مركزها وينقسم كل منها إلى ثلاثة أقسام إنما يرجع في الأرجح إلى النظريات الإيرانية القديمة عن السبع كشورات التي تنعكس في إحدى خارطات البيروني . وما يدعو إلى الأسف أن تحليل هذه المشكلة يزيد من صعوبة عدد من النقاط الغامضة التي تحيط بالمؤلف نفسه ، وأيضاً ذلك اللبس الذي يكتنف مخطوطات مصنفه^(٥٢) ؛ وعلى أية حال فقد ثبت في الآونة الأخيرة أن اسمه هو محمد بن أبي بكر الزهري ويظن أنه عاش بغرناطة حوالي عام ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ ؛ ولما لم تكن الآراء متفقة اتفاقاً تاماً حول اسمه فإن البعض يدعونه وفقاً لرأي دوزي بمؤلف المربة المجهول Anonyme d' Almerie^(٥٣) .

والمقتطفات التي نشرت عن مخطوطاته المختلفة تتناول بوجه خاص مراکش والأندلس وصقلية^(٥٤) ؛ وقد أفرد لأسبانيا في مصنفه عناية أكبر ، أما تبويب الكتاب فيتمشى برمته مع وصف الأقاليم على التوالي ، كما يبدو من معطياته في الجغرافيا الفلكية ميل واضح إلى جميع أنواع العجائب^(٥٥) ؛ وهو في هذا الصدد يقص علينا حكاية من أكثر الحكايات تفصيلاً وقيمة ، تلك هي أسطورة الشجرة المسحورة بجزائر واق الواق بالصين التي تثمر أشجارها كل عام نساءً بدلاً من الفاكهة^(٥٦) .

وخير مثال لمحاولة التقريب بين الجغرافيا الوصفية والفلكية ، وهي محاولة لم تكلل بالنجاح التام ، هو كتاب الإدريسي Idrisi (أو Edrisi كما تعود أن يكتبه الأوروبيون منذ القرن السابع عشر) . وهو أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الإطار العام لتطور الأدب الجغرافي العربي ، بل ولا نستطيع أن نضعه في مصاف العلماء المبرزين الممتازين ، ورغم ذلك فكتابه أكثر الكتب الجغرافية باللغة العربية رواجاً وصيتاً في أوروبا ؛ إذ ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد الغرب كما فعل الإدريسي . وقد مر وقت كان فيه الممثل الوحيد للأدب الجغرافي العربي^(٥٧) في الدوائر العلمية الأوروبية ، أضف إلى هذا أنه لم يظهر مصنف مماثل له في وسط مثل الوسط الذي ظهر فيه ، وهو ذلك الوسط الفريد نصف العربي ونصف الأوروبي الذي تقدمه لنا صقلية في ذلك العهد .

ورغمًا عن هذا الاهتمام الكبير بالإدريسي ، والذي يرجع إلى عهد قديم ، فإن معلوماتنا عن مسيرة حياته نزرلة للغاية ، وهى جميعها فى جوهرها إما أن تكون قد استمدت من نفس كتابه أو أنها تمثل روايات تروى عنها الأحاديث المنقولة وظل مصدرها مجهولا بالنسبة لنا .

وينتمى أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس إلى بيت الأدارسة العلويين الذين طالبوا وقتاً ما بأحقيتهم فى الخلافة ، وهذا السبب فقد اشتهر مؤلفنا باسم الشريف الإدريسي . وكان مؤسس دولة الأدارسة وهو إدريس الأول قد هرب من المشرق إلى مراكش وأسس إمارة مستقلة بنواحي سبتة Ceuta عام ١٧٢ هـ = ٧٨٩ ، ونال الشهرة بعد وفاته عام ١٧٧ هـ = ٧٩٣ كولى ولا يزال يتمتع بهذا الصيت فى أفريقيا إلى أيامنا هذه . ويرتبط باسم ابنه إدريس الثانى (١٧٧ هـ - ٢١٣ هـ = ٧٩٣ - ٨٢٨) تأسيس مدينة فاس ؛ ولم تعمّر دولتهم لأكثر من عام ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ . أما أجداد الإدريسي المباشرين فكانوا أمراء صغاراً بمالقة Malaga ، وهم أيضاً لم يستطيعوا الاحتفاظ طويلا بسلطانهم فاضطروا إلى الرجوع إلى سبتة فى القرن الحادى عشر ، وهناك فيما يبدو ولد الإدريسي فى عام ٤٩٣ هـ = ١١٠٠ (٥٨) .

ويلوح أن صلة الأسرة بالأندلس لم تنفصم بالإدريسي نفسه تلقى العلم بقرطبة التى ظلت مركزاً ثقافياً كبيراً . وهو قد عرف قرطبة معرفة جيدة ، فالوصف الشامل الذى أفرد له فى كتابه يحمل جميع آثار المعرفة المباشرة بالمدينة (٥٩) . وقد بدأ الإدريسي أسفاره منذ سن مبكر فزار أماكن لم تكن مألوفاً فى ذلك العصر . ومعرفته الواسعة بأسبانيا ومراكش ليست أمراً غريباً ، ولكن يبدو من مواضع مختلفة من كتابه أنه زار لشبونة وسواحل فرنسا بل وانجلترا ؛ وفى عام ٥١٠ هـ = ١١١٦ ، وهو لما يتجاوز السادسة عشرة من عمره زار آسيا الصغرى . وهذا جميع ما أمكن استنتاجه بالتحديد بشأن رحلاته ؛ والظاهر أنه لم يربقية أفريقيا وآسيا . وفى عام ١١٣٨ عبر البحر فى ظروف يشوبها الغموض إلى جزيرة صقلية حيث كان يوجد بلاط روجر الثانى ببالرمو ؛ وقد ظل الإدريسي وثيق الصلة بروجر إلى وفاة الأخير فى فبراير من عام ١١٥٤ (٦٠) ؛ ثم مرت عليه وهو بصقلية لحظات قلقة فى عهد خليفة روجر ، ولكنه رجع فى أيام شيخوخته فيما يبدو إلى مسقط رأسه سبتة وتوفى بها فى عام ٦٥٠ هـ = ١١٦٠ على أرجح الأقوال (٦١) .

وبمدينة بالرمو تقترن ذكرى أنضر فترة فى حياة الإدريسي ، وببالرمو أيضاً يقترن كتابه الكبير « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » (٦٢) . وقد انبثقت فكرة الكتاب فى عصر ازدهار حضارة صقلية تحت حكم النورمان ويرجع الفضل فى ظهوره إلى روجر الثانى نفسه . ويؤكد هذا القول كلام المؤلف نفسه فى مقدمة الكتاب حيث يبين فى وضوح وجلاء دور الملك النورمانى فى ذلك ، ويصف لنا بالكثير من الحيوية الظروف الفريدة التى تم فيها تنفيذ هذه الفكرة الرائعة لإخراج مصنف جامع فى الجغرافيا . وفى خاتمة تمجيده لراعيه وولى نعمته يقول الإدريسي :

« فن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم أهل دولته واطاعه البلاد الرومية ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقيناً وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً وفي أى إقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة ۞ التى اتفق عليها المتكلمون وأثبتها فى الدفاتر 283 الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه ويرجع إليه ويعد منه بطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى وكتاب أبى القسم عبيد الله بن خرداذبه (٦٣) وكتاب أحمد بن عمر العذرى وكتاب أبى القسم (٦٣) محمد الحوقلى البغدادى وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكى وكتاب موسى بن قاسم القردي وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى وكتاب إسحق بن الحسن المنجم وكتاب قدامة البصرى وكتاب بطليموس الأقلودى وكتاب أرسىوس الأنطاكى ، فلم يجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلاً بل وجده فيها مغفلاً فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علماً أكثر مما فى الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها فسألهم عنها بواسطة (٦٤) جمعاً وأفراداً فما اتفق فيه قولهم وصح فى جمعه نقلهم أثبتهم وأبقاه ، وما اختلفوا فيه ألغاه وأزجاه ، وأقام فى ذلك نحواً من خمس عشرة سنة لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريد ثم أراد أن يستعلم يقيناً صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم فى ذكر أطوال مسافات البلاد وعروضها (٦٥) فأحضر إليه لوح الرسم (٦٦) وأقبل يختبرها بمقاييس (٦٧) من من حديد شيا فشيئاً مع نظره فى الكتب المقدم ذكرها وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأمعن النظر فى جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة (٦٨) عظيمة الحرم ضخمة الجسم فى وزن أربعائة رطل بالرومى فى كل رطل منها ۞ مائة درهم واثنا عشر درهماً (٦٩) 284 فلما كملت أمر النعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وغازمها وما بين كل بلد منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات المشهودة والمراسى المعروفة على نص ما يخرج إليهم ممثلاً فى لوح الرسم ولا يغادروا منه شيئاً ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه وأن يولفوا كتاباً مطابقاً لما فى أشكالها غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين فى خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها ومواتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس بنائها وخواصها والاستعمالات التى تستعمل بها والصناعات التى تنفق بها والتجارات التى تجلب إليها وتحمل منها والعجائب التى تذكر عنها وتنسب إليها وحيث هى من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينهم وملابسهم ولغاتهم وأن يسمى هذا الكتاب بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق وكان ذلك فى العشر الأول من ينير

الموافق لشهر شوال الكائن في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فامثل فيه الأمر وارتسم الرسم» (٧٠) .
 فإذا غرضنا الطرف عن المحسنات البديعية في المقدمة فإنه لا يوجد ما يدعو إلى التشكك في صحة
 الوقائع التي يوردها . حقاً إن المصادر الغربية لاتتحدث عن نشاط خاص لروجر في ميدان الجغرافيا غير
 أن كلام الإدريسي يحمل جميع مقومات الصحة والواقع ، خاصة على ضوء ظروف الحياة الثقافية بصقلية
 في ذلك العهد . كما لا يوجد ما يدعو إلى التشكك في تاريخ إتمام الكتاب وهو يناير ١١٥٤ ، أي قبل أسابيع
 من وفاة روجر . ومعلوم أن الملك النورمانى كان في أيامه الأخيرة فريسة لمرض عضال لا يرجى الشفاء
 منه ، ولعل الرغبة في أن يرى الكتاب الذي ترجع فكرة ظهوره إليه تاماً كاملاً قبل أن يغادر الحياة تفسر
 طابع العجلة الذي اتسم به مؤلف الإدريسي في أكثر من موضع خاصة في القسم الثانى منه . وليس اعتباطاً
 أن يذكر أن روجر شغل بالموضوعات الجغرافية زهاء خمسة عشر عاماً ، [] إذ لو أخرجنا هذا الرقم من
 تاريخ إتمام الكتاب فإننا نحصل على عام ١١٣٩ ؛ ومعلوم لدينا من المصادر الغربية أنه عقب صلح سان جرمانو
 San Germano ، وفي الخامس والعشرين من يوليو بالذات من ذلك العام ، أنهى روجر بنجاح
 حروبه الطويلة واستطاع أن يمكن لسلطانه في صقلية وجنوب إيطاليا (٧١) ومن ثم فيمكنه حينئذ أن يشغل
 نفسه بنشاط سلمى .

285

ويمكن أن نلاحظ بعض التناقض في مخطوطات الكتاب المختلفة — ولعل مرد ذلك إلى أن المؤلف
 قد ترك مسودات عديدة للكتاب — حول الدور الذي لعبه الإدريسي نفسه في وضع الكتاب إذ يدور
 الكلام فيه بضمير الغائب ؛ غير أن العنوان قد ينسب إليه أحياناً وليس إلى روجر . هذا ولا يرق الشك
 إلى أنه مؤلف هذا الكتاب ؛ ولعله مما يكمل الفائدة التي جنيناها من افتتاحيته لو أضفنا إلى ذلك رواية
 لمؤلف مشهور من أهل القرن الرابع عشر وهو الصفدى (توفي عام ٧٦٤ هـ = ١٣٦٣) الذي لم يقف
 عند حد الإفادة من تلك الافتتاحية بل ضم إليها مواد أخرى كما يتبين من بعض الحكايات التي
 يسوقها . قال :

« رجّار ملك من الفرنج صاحب صقلية هلك بالخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . ويقال فيه أجّار
 بهمزة بدل الراء وجيم مشددة وبعد الألف راء — كان فيه محبة لأهل العلوم الفلسفية . وهو الذى استقدم
 الشريف الإدريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، من العدوّة إليه ليضع له شيئاً في شكل
 صورة العالم . فلما وصل إليه أكرم نزله وبالغ في تعظيمه . فطلب منه شيئاً من المعدن ليدع منه ما يريد ،
 فحمل إليه من الفضة الحجر وزن أربعمئة ألف درهم فصنع منها دوائر كهيئة الأفلاك وركب بعضاً على
 بعض ثم شكلها له على الوضع المخصوص . فأعجب بها رجّار ودخل في ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليل
 وفضل له ما يقارب الثلثين فتركها له إجازة وأضاف لذلك مائة ألف درهم ومركباً مسافاً كان قد جاء
 إليه من برشلونة بأنواع الأجلاب الرومية التي تجلب للملوك — وسأله المقام عنده وقال له أنت من بيت

الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ومتى كنت عندى أمنت على نفسك . فأجابه إلى ذلك ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك . وكان يجيء إليه راكباً بغلة فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى فيجلسان معاً — فقال له أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب فوق اختيارهما على أناس ألباء فطناء أذكفاء وجهزهم رجار إلى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالاً وسفر معهم قوماً مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً وأمرهم بالتقصي والاستيعاب لما لا بد من معرفته . فكان إذا حضر أحد 286 منهم بشكل أثبتته الشريف الإدريسي حتى تكامل له ما أراد وجعله مصنفاً وهو كتاب نزهة المشتاق الذى للشريف الإدريسي» . (٧٢)

وروجر وقد عاش على الحد الفاصل بين الحضارتين العالميتين لذلك العصر كان على معرفة جيدة بالاثنتين ، وتكليفه لعالم عربى بالذات بوضع وصف للعالم المعروف آنذاك لدليل الساطع على تفوق الحضارة العربية فى ذلك العهد وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق . وقد كان بلاط النورمان بصقلية نصف شرقى ، هذا إذا لم يكن أكثر من النصف ؛ وتشهد على هذا مختلف المصادر بما فى ذلك الأشعار العربية التى كانت تنشأ فى صقلية فى عهد روجر (٧٣) ؛ ولم يكن الإدريسي هو الوحيد الذى مجد من شأن روجر . ورغبة روجر فى الحصول على مصور للعالم يعمل خاصة من أجله تنعكس فيها نزعة شرقية صرفة . وإذا ما صرفنا النظر عن المحاولات الموهلة فى القدم للإسكندر وملوك إيران فى هذا الشأن فإننا نذكر بلاريب أنه قد مرت بنا فى هذا الكتاب محاولتان شبيهتان بهذه . ولاشك أن اهتمام المأمون بالجغرافيا (٧٤) ، وعلى الأخص بعمل « الخارطة المأمونية » إنما يرجع فى الأصل إلى رغبته فى تكوين فكرة عن العالم الخاضع لسلطانه . ونفس هذه الفكرة قد طبقها المدرسة الكلاسيكية على دولة السامانيين (٧٥) .

يفهم من افتتاحية الإدريسي وكلام الصفدى أن العمل فى الكتاب قد مر بثلاثة أطوار وخلف وراءه ثلاثة آثار — أحدها أنموذج فريد فى نوعه للكرة السماوية وهو عبارة عن قرص من الفضة مرسوم عليه صورة العالم ؛ وثانيها خارطة مرسومة على الورق ، وثالثها كتاب خاص مبينة فيه الأسماء الجغرافية . وقد ثبت أن أقلها دواماً ومقاومة لطوارق الحداث كانت الكرة الفضية التى يقال بأن الثوار حطموها ونهبوها عند اقتحامهم لقصر روجر فى عهد خلفه سنة ١١٦٠ (٧٦) . ومن حسن الحظ أن الكتاب والخارطة قد حفظا لنا فى مخطوطات عديدة ولكنها بالتأكيد ليست معاصرة للمؤلف بأى حال من الأحوال ، كما وأنها ليست كاملة دائماً . بل إنه توجد إلى جانب ذلك مسودات مختلفة لها ، ولكن على الرغم من ذلك تمكّن فى مجموعها من بناء متن الكتاب والأطلس معاً . وقد بلغ عدد المخطوطات حالياً حداً كبيراً ، فإلى جانب المخطوطتين المعروفتين منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر وهما مخطوطتا باريس وأكسفورد ، تنضم فى أوائل هذا القرن مخطوطات استنبول ومخطوطة القاهرة (٧٧) . أما مخطوطة ليننغراد التى تحتوى 287 على القسم الثانى من الكتاب وحده ، والتى وصلت إلى المكتبة العامة من إيران فى عام ١٨٩٧ (٧٨) فقد

كان زيولد Seybold هو أول من أورد ذكرها في الأدب العلمي الأوروبي^(٧٩) ، ثم عكف على دراستها ميلر Miller^(٨٠) وتوليو Tuulio^(٨١) حيناً ما وسار على نهجها بعض العلماء السوفيت مثل فولين Volin^(٨٢) وبترون Petrun^(٨٣) . ورغمما عن ذلك فإنها لا تزال في حاجة ماسة إلى بحث خاص لما لها من أهمية . ويبدو أن الأمل في العثور على نسخ من كتاب لإدريسي لا يزال يراود الكثيرين حتى الآونة الأخيرة ، فنذ خمسة أعوام تقريباً تواترت الأنباء بالكشف عن مخطوطة له في شومين Shumen ببلغاريا^(٨٤) ، إلا أن نقصى صحة هذا الزعم لم يتم مع الأسف . كذلك يحتاج إلى التقصى والتحقيق الزعم القائل بوجود كتاب الإدريسي في إحدى مجموعات المخطوطات بمدينة الموصل^(٨٥) ، ولعل الأمر كله يدور حول الطبعة القديمة التي عملت برومه كما حدث ذلك أكثر من مرة فيما يتعلق بفهارس مكتبات استنبول .

وعلى الرغم من العدد الكبير لمخطوطات الكتاب فإن من العسير القول بأن دراسة مؤلف الإدريسي بتمامه قد بلغت الدرجة المنشودة من الكمال ؛ والطبعة الوحيدة التي تشمل أصل الكتاب طبعت عام ١٥٩٢ بمطبعة المديتشي Medici المشهورة برومه تحت عنوان مطول هو « نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق »^(٨٦) . وقد أصبحت هذه الطبعة نادرة الوجود وهي تمثل واحدة من أقدم الطبوعات التي ظهرت في أوروبا بالحروف العربية ، هذا بجانب أنها لا تقدم كتاب الإدريسي في صورة مرضية لأنها تمثل رواية موجزة إيجازاً مخلاً يرجع تاريخها إلى فترة متأخرة وعملت بنابلس من أعمال فلسطين في عام ٩٤٤ هـ = ١٥٣٨ وأصلها محفوظ بباريس^(٨٧) . وبنفس الصورة تمثل أهمية تاريخية فحسب تلك الترجمة اللاتينية لهذه الطبعة التي ظهرت بباريس عام ١٦١٩ والتي قام بها عالمان مارونيان Maronites كانا يشتغلان بتدريس اللغات الشرقية وهما يوحنا الحسروني Joannes Hesronita وجبريل الصهيوني Gabriel Sionita^(٨٨) . وهي تحمل عنوان « جغرافيا النوبي » Geographia Nubensis ، وهي تسمية قادت إلى تثبيت خطأ فاحش بصدد المؤلف استمر لمدة قرنين في الدوائر العملية الأوروبية . ذلك أنه بسبب جهلها باسم المؤلف فقد قرر المترجم أن نوبي الأصل ، لأنه في الموضع الذي يرد فيه الكلام عن أن النيل يقطع أرض النوبة قرأ المترجم « أرضنا » بدلا من « أرضها »^(٨٩) ، أي أرض النوبة . أما الترجمة الكاملة لمئن الإدريسي فقد ظل العلم الأوروبي في انتظارها إلى منتصف القرن التاسع عشر حينما ظهرت باللغة الفرنسية في جزئين (١٨٣٦ - ١٨٤٠) بقلم جوبير Joubert (١٧٧٩ - ١٨٤٧) ، وهو أحد العلماء الذين اشتركوا في حملة بوناپرت على مصر . هذه الترجمة التي صيغت في لغة فرنسية رصينة واعتمدت على المخطوطة الباريسية (وهي ليست أفضل المخطوطات) ظفرت في أول الأمر بتقدير عال ولكن عكوف العلماء بالتالي على دراسة الإدريسي سرعان ما كشف عن عيوبها الأساسية بحيث لم تعد ترضى المطالب العلمية . وقد قام دوزي ودي خويه^(٩٠) بتحليل مفصل للأخطاء الجسيمة الموجودة بها ، ومنذ ذلك الحين أعلن عدد من العلماء بأنه ليس من المستطاع الركون إليها في أي بحث جدي^(٩١) .

لذا فإنه من الواجب إلى يومنا هذا الاعتماد على المخطوطات أو على الدراسات المفردة للأقسام المختلفة من الكتاب ، وهذه الطريقة وحدها يمكن تقدير كتاب الإدريسي في مجموعه تقديرًا صحيحًا .
 وإلى جانب العنوان المشهور الذي مر ذكره آنفًا فإن كتاب الإدريسي يحمل أيضاً عنواناً آخر واسع الانتشار هو «كتاب رجّار» أو «الكتاب الرجّارى» نسبة إلى راعيه وولى نعمته . وليس هناك في الواقع أساس للتشكك في أن الكتاب قد تم تأليفه في يناير ١١٥٤ ، ولكن يجب ألا يفهم من هذا أن الإدريسي لم يجر فيه بيد التعديل والإضافة ؛ ويستدل من التباين في المخطوطات على إمكان وجود مسودات شتى للكتاب . وقد استطاع الجغرافى الإيطالى باردى G. Pardi أن يستخلص^(٩٢) من إغفال ذكر مدينة اسبوليتو Spoleto ، التى خربت بعد وفاة روجر ، أن المسودة الثانية للكتاب ، إذا جاز القول بذلك ، قد تم إعدادها بعد يوليو ١١٥٤^(٩٣) .

وطريقة ترتيب كتاب الإدريسي بسيطة بالرغم من أنها لا تخلو من آثار الصنعة . فهو يقدم لنا في أول الأمر وصفاً موجزاً للأرض التى يتصورها على شكل كرة طول محيطها اثنان وعشرون ألفاً وتسعمائة ميل ومعلقة في الفضاء «كالمح في البيضة» . وبعد وصف قصير للأقاليم والبحار والخلجان ينتقل إلى وصف سطح الأرض بالتفصيل . وهو يتبع في هذا مذهب بطليموس المعروف لنا بتقسيمه الأرض إلى سبعة أقاليم ، أى أحزمة عريضة فوق خط الاستواء ، غير أن الإدريسي أدخل على ذلك تجديدًا بتقسيمه لكل إقليم من هذه الأقاليم السبعة إلى عشرة أقسام رأسية هى التى يتفرغ لوصفها في كتابه الواحد تلو الآخر مبتدئاً من الغرب ومتجهاً نحو الشرق . وكل وصف لقسم من هذه الأقسام يرتبط بخارطة ، بحيث إذا ضمت هذه الخارطات السبعون الصغيرة إلى بعضها البعض لتكوّن 289 من ذلك خارطة عامة لكل العالم على شكل مستطيل ، الأمر الذى يستحيل فعله مع «أطلس الإسلام»^{(٩٤)*} . ويدوجلياً أن العيب الأساسى لمثل هذا المنهج هو في أن وصف قطر ما يأتى موزعاً بين عدد من القطع الصغيرة المبعثرة هنا وهناك ، بحيث يتطلب جمعها مجهوداً ملحوظاً .

وأهم الأقسام بالطبع هى تلك التى أفردتها لأفريقيا الشمالية وأسبانيا وصقلية ونواحي إيطاليا الأخرى لأنها تعتمد قبل كل شيء ، وذلك خلافاً للأقسام الأخرى ، على الملاحظة الشخصية للمؤلف^(٩٥) . كذلك يتم وصفه لأوروبا الغربية (فرنسا وألمانيا واسكتلنده وإيرلنده وسواحل بحر الشمال) عن المقدرة والمهارة التى اقتضتها الظروف العلمية لذلك العهد . وقد بلغت معرفة الإدريسي شمالاً بلاد الباطيق فعرف سغتونا Sigtuna («سقطون») وفنمارك Finmark («فنمارك») وتافستلاند Tavastland («طبست») .

* تم بالفعل ضمها بعضها إلى بعض وإخراج خارطة كبرى موحدة اهتم بطبعها المجمع العلمى العراقى وخرجت ببغداد منذ أعوام . (المترجم)

أما ألمانيا وبولندا وروسيا فإن وصفها يرد في دقة أقل بكثير ولو أنه لا يخلو من اشتباه على مجموعة من المعلومات الهامة^(٩٦). وقد ظفرت رومانيا وسائر شبه جزيرة البلقان بتفصيل كثير ربما مرده إلى الحملات الصليبية التي كانت قد بدأت منذ عام ١٠٦٤ ، وأيضاً إلى نمو العلاقات التجارية بين الغرب الفرنجي — الروماني والشرق الإغريقي — الصقلي^(٩٧).

ويمكن اعتبار تحليل توماشك Tomashek لرواية الإدريسي عن البلقان أنموذجاً لبقية أقطار أوروبا . فمادة الإدريسي في هذا الصدد تمثل في جوهرها تقريراً عن الأحوال التجارية ، فضلاً عن أن الطرق التي يصنفها هي بدورها الطرق التجارية^(٩٨). وكانت شواطئ نهر الطونة Danube في عهد الإدريسي تتمتع بشيء من الهدوء فكان يرد إليها بالتجارة مختلف الشعوب كالإغريق والبلغار والولاخيين (الأفلاق) Wallachians والقومان Komans^{*}. وفيما بعد لعبت دوراً كبيراً في تلك التجارة الجمهوريات البحرية مثل البندقية Venice وجنوا Genoa وتلهماراغوزة Ragusa ؛ ثم أخذ طرفاً بالتدريج تجار روسيا وبولندا والمجر وتلتها النمسا وبقية البلاد الألمانية إلى حدود الفلاندر Flanders^(٩٩). وقد استطاع الإدريسي أن يكون فكرة عن أهم المراكز والطرق التجارية برومانيا من خلال استماعه إلى روايات التجار من العرب واليهود والإغريق والفرنجة ؛ وتمثل روايته في هذا الشأن محاولة مبكرة لم يستطع أن يقوم بها أحد في بزنطة في ذلك العهد بالرغم من مجاورة بلادهم لتلك الأصقاع ؛ وهي لن تفقد قيمتها على مر الزمن^(١٠٠). ومعطياته عن الجغرافيا الطبيعية للبلقان طفيفة ولكنه يقدم لنا الكثير في مجال التاريخ ، وأكثر من ذلك في وصف الوضع الاقتصادي للإمبراطورية البيزنطية وبلغاريا في القرن الثاني عشر^(١٠١). ولم يخل الأمر بالطبع في حالات معينة من ضرورة إيضاح بعض المسائل الغامضة ؛ مثال ذلك أنه من غير المستطاع الاعتماد على الإدريسي فيما يتعلق بتحديد المسافات والأبعاد بوجه خاص^(١٠٢). وهو حين يتكلم عن الميل لا يتضح دائماً ما إذا كان يقصد بذلك اللوغا Leuga الفرنجية أم الميليا Miglia الإيطالية أم الميل العربي^(١٠٣). كذلك يحيط بنفس هذا الاضطراب بمفهوم مرحلة الطريق لديه وهي التي كان يستعملها جنباً إلى جنب مع الميل . وعلى أية حال فقد أثبت توماشك بصفة عامة أنه فيما يتصل بالمسافات القصيرة فإن الميل يساوي لديه ألفاً وخمسمائة وخمسة وخمسين متراً (أي أنه أقل من الميل العربي المعتاد الذي يبلغ طوله ألفاً وثمانمائة وثمانية وسبعين متراً) ، بينما تبلغ المرحلة البحرية نحواً من المائة ميل في اليوم (١٥٥ كيلومتراً)^(١٠٤). وفي تحديده للطريق البري بين كييف Kiev وفلاديمير فولنسكي Vladimir Volynski وكندلوتسكي Lawicki صحة مقاس الميل^(١٠٥) ولكنه اختلف فيما يتعلق بمقاس المرحلة اليومية ، إذ لا يمكن في رأيه أن تتجاوز العشرين ميلاً (٣١ و ١١ كيلومتراً)^(١٠٦).

* شعب من المنصر التركي كان يقطن سهوب روسيا الجنوبية وعرفه الروس باسم البلووثسين Polovtsi وعرفته المصادر الإسلامية باسم القهقاز . أما اسم القومان فهو الموجود بالمصادر البيزنطية واللاتينية . (المترجم)

ومن المؤكد أن الإدريسي لم يجد تحت تصرفه مادة مفصلة عن كل البلاد كما وجد عن البلقان . فعلوماته عن الروس مثلاً إنما هي تكرار لروايات ابن حوقل والحياني ، وهو يقسمهم إلى ثلاث قبائل (١٠٧) ، ولا يذكر من مدنها الكبرى إلى جانب كييف ونوفغورود Novgorod إلا اسمولنسك Smolensk (١٠٨) التي حاول البعض أن يبصر فيها مدينة تموتاركان Tmutarakan (١٠٩) . وقد جاءت روايته على درجة من الضحالة حتى أنها لا تسمح بفهم ألفاظ أحد البحاة الذي صرح بأن الخوارزمي هو مصدر الإدريسي عن أوروبا الشمالية والشرقية (١١٠) .

فإذا ما انتقلنا إلى الأقطار غير الأوروبية فإن الإدريسي لم يكن يعرفها معرفة مباشرة باستثناء أفريقيا الشمالية ، بل ولم يستطع أن يجمع عنها مادة حافلة كالتى جمعها عن أوروبا بفضل استفهاماته وأسئلته المتواصلة . ويجب الاعتراف بأن مادته في هذا الصدد ليست بذات قيمة تذكر ، بل إن الكثرة الغالبة من البحاة لا تعترف لها بأية قيمة إطلاقاً . ويرى نالينو أن تخطيط بلاد آسيا وأفريقيا غير الإسلامية عند الإدريسي إنما يعتمد على بطليموس الذى استعمله في الترجمات والتعديلات العربية (١١١) . وإلى هذه النتيجة نفسها وصل مجيك الذى بين أن الإدريسي إنما يعتمد اعتماداً كلياً على بطليموس في معلوماته عن داخل أفريقيا بحيث يضحى من العسير اعتباره مصدراً مستقلاً فيما يختص بتلك المناطق (١١٢) . وعلى الرغم من قسوة هذه الأحكام إلا أنه من المستطاع أحياناً تلمس بعض فوائده معينة لديه ، فبعض مؤرخى الجغرافيا يرى أن الإدريسي في وصفه لأفريقيا لم يترسم خطى بطليموس دون وعى ؛ فوصفه لبحرى « النيل الغربى » ، أى نهر النيجر Niger ، قد وكدت صحته الاكتشافات الجغرافية في القرن التاسع عشر ، وهو على معرفة جيدة بالتجارة مع داخل أفريقيا وقد أورد أسماء المراكز التى ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت مثل غانا وسلا وتكرور (١١٣) .

أما اعتماده على بطليموس فيما يتعلق ببلاد الشرق الأقصى فأمر لا يرق إلى الشك ، وقد أثبت هذه الحقيقة بعد تحليل معلوماته عن الصين مثلاً كل من ريختوفن Richthofen (١١٤) ويول Yule . ومعلوماته عن جنوب شرق آسيا بما في ذلك الهند ضحلة للغاية ويشوبها الاضطراب (١١٥) ؛ وكثير من الأسماء الجغرافية في هذا القسم ترتفع إلى بطليموس ولكن هناك أسماء أخرى لم يمكن تحديدها بدقة إلى الآن (١١٦) . وعلى الرغم من هذا النقد الشديد فإن هذا القسم بدوره لا يخلو من بعض النتائج الإيجابية ؛ وتعليقات فيران على الجزء الخاص بالهند (١١٧) يؤكد إمكانية الحصول على معطيات قيمة في وصف تلك البلاد ترتفع في معظمها إلى الحياني (١١٨)* ، وقد لا يودى أحياناً تحليل مادة الإدريسي إلى نتائج قاطعة فالتنف التى أوردها عن الغز Guzz والتي ترجمت منذ عهد غير بعيد (القسم الثامن من الإقليم الخامس) (١١٩)

تدل على أنه بجانب اعتماده فيما يبدو على رواية الجيهاني فإن الإدريسي يورد عدداً من الأسماء لم يمكن العثور عليها في مصنفات المؤلفين الآخرين (١٢٠).

ويمكن الحكم على مصادر الإدريسي لا من تحليل أقسام الكتاب المختلفة فحسب ، بل ومن ملاحظاته الشخصية في افتتاحية الكتاب كما رأينا ذلك في حينه . ومن العسير القول بأنه استهدف استيعاب جميع المصادر المكتوبة التي كانت في متناول يده . ونصف مجموع الأسماء الجغرافية التي يذكرها يرجع في الأصل إلى مؤلفين معروفين لنا جيداً من أمثال ابن خردادبه واليعقوبي وقدامة والمسعودي والجيهاني وابن حوقل ؛ وقد مر بنا الكلام في أول هذا الفصل عن مصدر آخر له هو العذري ، أما إسحاق بن المنجم فإن نالينو يحاول أن يجعل منه مؤلف النص الذي نشرته كوداتسي Codazzi (١٢١) . والكاتبان الآخران اللذان أورد الإدريسي اسميهما واللذان مازالت شخصيتاهما مجهولتين لنا تماماً فإن أحدهما يمثل بالنسبة لنا أهمية خاصة وهو جاناخ بن خاقان الكيمائي الذي يرجع أصله كما يبدو من الاسم إلى قبيلة كيماك التركية بآسيا الوسطى .

ومن المؤلفين الذين كتبوا باللغات الأوروبية لا يذكر الإدريسي سوى بطليموس وأوروسيوس Orosius (هروشيئش)* مؤلف الجغرافيا العامة الشهير الذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي والذي كسب شهرة عريضة في أوروبا الوسيطة . ويقتنأ أن مصادر له لم تقف عند هذا الحد فلدينا علم بأسفار وبعثات أرسلها روجر ، ولكن يلوح أن الإدريسي قد أفاد إلى جانب هذا من كثرة تسأله واستفهامه من الرحالة والحجاج . وقد لوحظ مراراً موقفه غير النقدي من مصادر له ، سواء المدونة أو السماعية . ولن يدهشنا في شيء اهتمامه بالكلام عن أجوج ومأجوج (١٢٢) فقد شغلا مكانة كبيرة في كل من الجغرافيا العربية والجغرافيا الأوروبية في العصور الوسطى . كذلك يلوح أنه قد وضع أسطورة حياة القديس براندان St Brandan (١٢٣) موضع الاعتبار فجعل منها مادة جغرافية ذات قيمة ؛ كما يضحى من المسور أن نفهم سبب اتباعه لرأى بطليموس القائل بأن الطرف الجنوبي لأفريقيا متجه نحو الشرق وأن الأراضي الواقعة جنوب خط الاستواء غير مأهولة (١٢٤) . وحتى في وصفه لمدينة قريبة منه كرومه يفعل ذلك في أسلوب يذكر بحكايات « ألف ليلة وليلة » ، معيداً في هذا الصدد قصة ابن خردادبه تارة وقصة يهودى « تائه » (Wandering Jew) تارة أخرى (١٢٥) .

لقد برهنت دراسة الإدريسي منذ بداية القرن العشرين على أن تحليل متن كتابه لا يمكن أن يتم إلا بتحليل مماثل لخارطاته جنباً إلى جنب مع المتن . غير أن هذا لم يصبح ميسوراً بصورة قاطعة إلا في العشرينات من هذا القرن فقط ، وذلك بعد أن نشر ميلر جميع المادة الكارتوغرافية المعروفة في المخطوطات العربية والفارسية . بيد أن مسألة العلاقة بين متن الإدريسي وخارطاته ليست من السهولة بالدرجة التي

* عرفه العرب باسم هروشيئش ، راجع عنه وعن تاريخه ودوره كصدر بالنسبة للمؤرخين والجغرافيين العرب مقال الدكتور حسين مؤنس عن الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس . (المترجم)

تصورها افتتاحيته ؛ ومن ثم فإن الكثرة الغالبة من البحاثة يميلون إلى اعتبار الكتاب شرحاً للخارطات فحسب^(١٢٦) ، وقد تردد أكثر من مرة رأى القائل بأن المسافات المذكورة بالمتن ، سواء المراحل منها أو الأميال ، لا تستند في الواقع على معطيات واقعية عن الطرق نفسها بل يعتمد على القياس المقرب لمواقع الأماكن الجغرافية المختلفة على الخارطة^(١٢٧) . ويمكن لأول وهلة إثبات أسبقية الخارطات على المتن من الدراسة المقارنة لكليهما ؛ فن الملاحظ مثلاً أن الأسماء الموجودة على الخارطة ترد في صورة أصح وأقدم مما هي عليه في المتن ، فضلاً عن أن عددها أكثر^(١٢٨) ، خاصة فيما يتعلق بأسماء الجبال والمدن^(١٢٩) ؛ وإذا ما حدث العكس ووجدت في المتن أسماء^(١٣٠) لا أثر لها بالخارطات فرد ذلك إلى أنه ليس من السهل تضمين كل ذلك الحشد من الأسماء داخل خارطة في حين يسهل لإيرادها في متن الكتاب.

غير أن الدراسة الفاحصة قد تسوق أحياناً إلى نتيجة مضادة | عند بحث موضوع الأسبقية هذا ، فتوليو Tuulio 293 الذى درس بعناية فائقة خارطة الأجزاء الشمالية من أوروبا وهى القسمان الثالث والرابع من الإقليم السابع قد وصل إلى نتيجة حاسمة مؤداها أن الخارطة تالية للمتن^(١٣١) . لذا فإنه من غير الميسور لإصدار حكم عام في هذا الصدد يصدق على جميع أقسام الكتاب ؛ أما إذا أخذنا بمنطوق الافتتاحية فإنه يجب القول بوجه عام بأسبقية الخارطات . ولكن يجب الاستدراك على هذا بقولنا إنه في حالات معينة ، خاصة عندما يدور الكلام على مناطق معروفة قليلاً ، فإنه يمكن الافتراض بأن العمل في كليهما قد سار جنباً إلى جنب ؛ أضف إلى هذا أن المتن فيما يبدو قد تعرض للتدوين في أكثر من مسودة ، مرتبطاً في ذلك بالخارطات أو مستقلاً عنها ، كما وأنه من الممكن أن يضاف إلى الخارطة من المتن فيما بعد .

ومن العسير علينا أيضاً في الوقت الحاضر الوصول إلى رأى قاطع حول أصل خارطات الإدريسي وصلتها بأصل بطليموس . وكما ذكرنا من قبل فإن أطلس الإدريسي يضم سبعين خارطة ، يفتقد منها عادة في المخطوطات واحدة أو اثنتان^(١٣٢) . كما يوجد سوى ذلك في مطلع الكتاب خارطة مستديرة للعالم^(١٣٣) هى الوحيدة التى يمكن ربطها بمنهج « أطلس الإسلام » للمدرسة الكلاسيكية^(١٣٤) . فالفكرة الخاصة بهذا الأطلس وهى المتعلقة بوجود بحرين كبيرين تنعكس بوضوح في خارطة الإدريسي هذه ، ولكن تحديد سواحل البحر الأبيض المتوسط بها يقرب من الواقع أكثر مما هو الحال مع أية واحدة من الخارطات السابقة^(١٣٥) . وجميع خارطات الإدريسي بما في ذلك هذه الخارطة المستديرة تنفرد بدقة الرسم^(١٣٦) وباطراح منهج الخطوط المستقيمة والدوائر الهندسية الذى تميزت به الفترة الثانية للكارتوغرافيا العربية ، أى « أطلس الإسلام » .

ومن الصعب القول هل كانت الكرة الفضية التى عملت لروجر على هيئة خارطة مستديرة للعالم أم خارطة كبرى « للأقاليم » . وفيما عدا بعض ملاحظات عامة في الجغرافيا الفلكية فإن مقدمة الكتاب لا تذكر شيئاً عن المناهج الفلكية التى اتبعت في تخطيط هذه الخارطات ، وهذا بدوره قد سول لكرامرس

Kramers الافتراض بأن مثل هذه المناهج لم تستخدم في ذلك العصر وأن أنموذج الرسم لم يكن سوى خارطة قديمة من نوع الخارطات البطلموسية مبين عليها الأسماء باللغة العربية على أغلب الظن^(١٣٧) وأن الإدريسي كان يضيف إليها بالتدريج أسماء جديدة^(١٣٨). وحتى مثل هذا الفرض لا يمكن قبوله إلا بشيء من التحفظ. وفي دراسته لخارطة الإدريسي المبين عليها بحر الأديرياتيك اضطرت العلامة الإيطالية فورلاني Furlani إلى التصريح بأن هذه الخارطة تقف بمعزل، سواء عن متن «نزهة المشتاق» أو عن خارطات بطلميوس^(١٣٩). وقد وافقه على هذا الرأي نالينو^(١٤٠).

2 والفترة الثالثة في تاريخ الكارتوغرافيا العربية وهي المقترنة باسم الإدريسي^(١٤١) تعتبر الأوج الذي بلغه فن رسم الخارطات الجغرافية عند العرب، ولكن في الوقت نفسه تحمل في طياتها بوادر الاضمحلال رغمًا عن الدقة الكبيرة في طريقة الرسم. ويظهر بوضوح تام أن فكرة الأطوال والعروض الجغرافية اختفت تماماً من الخارطة^(١٤٢) ولكن يمكن ملاحظة بعض آثارها فيما يتعلق بالأقاليم الأولى^(١٤٣). والأقاليم لدى الإدريسي بوجه عام تتحول إلى أحزمة متساوية في العرض، مما يدل على أن الأساس الفلكي الذي قام عليه تقسيمها قد نسي تماماً^(١٤٤). أما تقسيم كل واحد منها آلياً إلى عشرة أقسام فيقف دليلاً على انحطاط الكارتوغرافيا العربية؛ وتبيان خط منتصف النهار الابتدائي الذي يمر بجزر السعادة في طرف الخارطة فيه إشارة أخرى إلى تأثير مذهب بطلميوس^(١٤٥). وثمة برهان آخر على هذا التدهور هو أن فحص التفاصيل الموجودة بخارطات الإدريسي أشق بكثير من فحصها لدى الخوارزمي الذي يمثل بداية المذهب البطلموسي عند العرب بقدر ما يمثل الإدريسي نهايته^(١٤٦). ورغمًا عن هذا التقدير السلبي فإنه يجب على أية حال اعتبار أطلس الإدريسي أهم أثر للكارتوغرافيا العربية، بل لعله أهم أثر لكارتوغرافيا العصور الوسطى بأجمعها^(١٤٧).

ويكاد اسم الإدريسي يقترن بصفة نهائية بكتابه «نزهة المشتاق» ولكن ثبت منذ عهد طويل أن لديه مصنفًا آخر في الجغرافيا عمله من أجل غليوم الأول (١١٥٤ - ١١٦٦) ولد روجر وخلفه، وذلك بعنوان «روض الأنس ونزهة النفس». وفيما عدا العنوان فلا نكاد نعرف عن هذا المصنف إلا شذرات قليلة حفظها لنا في القرن الرابع عشر أبو الفسدا الذي أطلق على الكتاب عادة اسم «كتاب المسالك (والممالك)»^(١٤٨). وفي بداية هذا القرن عشر باستنبول على مخطوطة تمثل فيما يبدو قطعة من هذا المصنف الأخير تحمل عنوان «روض الفرج ونزهة المهج» يرجع تاريخها إلى عام ٥٥٨ هـ = ١١٩٢، وهي تحتوي على أطلس كامل من ثلاث وسبعين خارطة. وقد عرف هذا المصنف في الدوائر العلمية باسم «الإدريسي الصغير» وذلك لتفريق بينه وبين كتابه الرئيسي «نزهة المشتاق»^(١٤٩). وعندما نشر ميلر هذه الخارطات سماها خطأ «أطلس الحبيب»^(١٥٠)؛ بينما المخطوطة في الواقع ذات حجم طبيعي^(١٥١).

295 ولا يزال متن هذا الكتاب غير معروف لنا فيما عدا شذرات طفيفة، ويمكن الحكم عليه فقط من خطاب

لزيبولد Seybold الذى كان يقوم بتحضير طبعة له (١٥٢). وفى افتتاحية هذا الكتاب يذكر الإدريسي أن هدفه هو مجرد إعطاء موجز فحسب ، ولكنه مع ذلك يورد كمصادره نفس الاثنى عشر مؤلفاً اللذين مر ذكرهم ، ويضيف إلى هذا أنه قد ذكر إلى جانب ذلك كل ما شاهدته بنفسه فى الغرب أو استوضح عنه الرحالة وأنه قد استغل جميع الإمكانيات التى قدمها له الملك روجر عند وضع الكتاب الذى يحمل اسمه وذلك خاصة فيما يتعلق بأخبار بلاد الروم كألمانيا وفرنسا وبروفنس وغسكونية وبريطانيا ونورمنديا واكوليه وتسكانيه ولانغوربادية والبندقية وهنغاريا والروس والقومان والكيك ، إلى أن قال « ولم أترك بلداً من هذه البلاد لم أصفه وصفاً دقيقاً ، وإذا ما دعت الحاجة فعلت ذلك بالتفصيل » (١٥٣).

لكل هذا فإن موضوع العلاقة بين هذين المصنفين للإدريسي يجب أن يظل قائماً فهو حقاً موضوع شائك . ومما يسترعى الانتباه أن مصنف « الإدريسي الصغير » يضيف إلى الأقاليم السبعة المعروفة إقليماً ثامناً (١٥٤) إلى الجنوب من خط الاستواء ، بل إن وصفه يرد فى المتن كذلك (١٥٥). كما أن بعض الغموض يحيط بالتواريخ أيضاً فقد لاحظ كرامرس فى ملخص استنبول إشارة إلى ابن سعيد ، مما أغراه حيناً من الوقت بأن ينسب الكتاب إلى القرن الثالث عشر (١٥٦).

وكما هو الشأن مع معظم علماء عصره فقد كان الإدريسي إلى حد ما مؤلفاً جامعاً (Encyclopaedist) ، بل وعرفت له بعض الأشعار منذ وقت طويل . ومنذ عشرة أعوام تقريباً عثر فى إحدى مكتبات استنبول على مخطوطة القسم الأول من رسالة له فى تحضير الأدوية (Pharmacognozia) . هذا وقد أثبت البحث التمهيدى الذى قام به ميرهوف Meyerhof (١٥٧) أن الكتاب لا يخلو من بعض الأهمية ولو أنه لا يمكن وضعه فى مرتبة واحدة مع المصنفات الممتازة فى هذا الباب كرسالة البيرونى مثلاً ؛ ومن الطريف أنه لا يرتبط فى شىء باسم ثيوفراست Theophrast الذى يرجع إليه العرب عادة فى هذا الفن ، أو بكتاب « النبات » De Plantis المنسوب لأرسطو . ويلى مقدمة الكتاب وصف لثلاثمائة وستين نباتاً لا يخلو من بعض القيمة من وجهة علم النبات Botany ؛ أما الطب فإن الإدريسي لم يعتبره ميداناً له بل ترسم فى ذلك خطى الآخرين (١٥٨) . وهو يبذل جهده دائماً فى إيراد أسماء النباتات فى اللغات المختلفة ، بل إنه يميز بين التسميات البيزنطية (« إغريق ») واليونانية القديمة (« يوناني ») . ولاشك أنه يدين بمثل هذه المعرفة إلى إقامته بصقلية حيث كان التراث اليونانى البيزنطى لا يزال على قيد الحياة (١٥٩).

296

ورغم أن كل هذه التحفظات فإن مؤلفات الإدريسي فى الجغرافيا تمثل بكل تأكيد ظاهرة ممتازة فى محيط الأدب الجغرافى العربى خاصة وفى النشاط العلمى لجميع العصور الوسطى عامة ؛ لهذا فإنه لما يثير الدهشة أن تظل مؤلفاته مغمورة الذكر فى القرون التالية لذلك ؛ وقد أبصرنا فى حينه كيف أن الحقائق

* نظراً لاستحالة الوصول إلى المتن فقد ترجمت هذه الألفاظ عن الترجمة الألمانية لزيبولد الموجود نصها بكتاب
توليو Tuulio . (المترجم)

عن سيرة حياة الإدريسي نفسه كانت قليلة ومتناثرة . ومنذ بداية السنوات الأربعينات للقرن الماضي أورد دى سلان De Slane ، وذلك بصدد تقييده لترجمة جويبر للإدريسي ، أسماء المؤلفين الذين أغفلوا ذكر أى شىء عن الإدريسي رغمًا من أن الدلائل تشير إلى إمكان معرفتهم به (١٦٠) ؛ ويجب الاعتراف بأن مادتنا لم تُنم منذ ذلك التاريخ ولو قليلا . وقد أراد بعض العلماء أن يبصر في ذلك الصحت أمرًا مقصودًا مرده إلى أن الإدريسي كان يعمل ببلاط ملك نصراني بل ورفع إليه مصنفًا يمتدحه في افتتاحيته ؛ ولعل الدوائر السنية اعتبرته مارقًا ، كما وأنه من الجائز أن يكون حجم الكتاب وخارطاته المعقدة قد جعل من مسألة استنساخه أمرًا عسيرًا مما كان سببًا في إعاقة انتشار مخطوطاته .

ومن بين المؤلفين الذين استعملوا مصنفات الإدريسي استعمالًا مباشرًا اثنان ، أحدهما وهو ابن سعيد المغربي الذى عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر أخذ عن الإدريسي كل معلوماته عن أوروبا تقريبًا (١٦١) ومقدارًا لا يستهان به عن بلاد أخرى (١٦٢) ؛ أما الثانى وهو أبو الفدا الذى عاش في بداية القرن الرابع عشر فقد نقل عن الكتاب الثانى للإدريسي كما رأينا . وأبعد إلى جهة الشرق من هذين فإن معرفة الناس بالإدريسي لم تكن واسعة ، ولا يخلو من مغزى في هذا الصدد أن خيرًا كبيرًا بالأدب الجغرافى مثل ياقوت الحموى لا يعلم عنه شيئًا على الإطلاق (١٦٣) ؛ وربما كان السبب في هذا أيضًا الموقف السلبي الذى وقفه ممثلو المدرسة الرياضية من منهج الإدريسي . . . ومما يسترعى النظر بوجه خاص شهادة الطبيب المصرى الأكفانى (توفى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨) في كتابه الفريد الذى يحلل فيه ستين علما من العلوم ويشير إلى أهم الكتب في كل فرع منها (١٦٤) . ففي القسم الخاص بالجغرافيا يقول (١٦٥) :

« ولبلطميوس في أحوال المساكن والأقاليم كتاب يعرف بجغرافيا تام في معناه إلا أن أكثر مسمياته مجهولة عندنا لأنها أسماء أعلام نقلت بجلها من اللغة اليونانية . وكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق فيه مخالفة لقسمة الأقاليم فإن مؤلفه وإن كان عارفاً بالممالك والممالك بحوبه الآفاق فإنه عرى من علم هيئة الأفلاك » . من هذا يتضح لنا أن محاولة الإدريسي للتقريب بين الجغرافيا الوصفية والفلكية قد عرفت في الشرق بوصفها محاولة فاشلة ، تماماً كما عرفها العلم الحديث (١٦٦) :

إن نشاط الإدريسي في الجغرافيا في قطر أوروبى يقع على الحد الفاصل بين حضارتين ألتى في روعه أن تأثيره سيمتد على أوروبا أكثر مما على العالم العربى . بيد أن شيئاً من هذا لم يحدث فقد بقى أثره الجغرافى مجهولاً إلى بداية القرن السابع عشر فيما يبدو . صحيح أن الكارتوغرافى ميلر K. Miller أراد أن يبصر تأثيرا لخارطاته على خارطة مارينو سانودو Marino Sanudo التى نشرها فسكونتى Visconti عام ١٣١٨ — ١٣٢٠ (١٦٧) ، وأيضاً على الخارطات القطلونية (Catalonian) (١٦٨) ، بيد أن كل هذا محض افتراضات نظرية . ويوسف كمال ، وهو من أفضل الخبراء في الكارتوغرافيا العربية والكارتوغرافيا الأوروبية المبكرة في العصور الوسطى ، ينهى نفيًا باتاً وجود أى تأثير مزعوم لمتن البكرى ولخارطات الإدريسي على أوروبا

الوسيلة بل ويعتبر أى زعم من هذا القبيل ضرباً من « الهذيان العلمى » Scientific Hallucinations (١٦٦). وإذا وجد ثمة تأثير فإنه دون ريب لم يكن للإدريسي نفسه بل للوسط الذى أمضى فيه زهرة عمره ؛ وبعض مؤرخى الجغرافيا والمسائل الملاحية يعللون هذا التأثير بأن أهل صقلية كانوا أساتذة الجنويين فى الملاحة وأن الأخيرين نقلوها بدورهم إلى الإسبانيين والبرتغاليين والفرنسيين والإنجليز على التوالى (١٧٠). هذا بلا ريب أمر لا تربطه علاقة مباشرة بالنشاط الجغرافى للإدريسي الذى يرجع الفضل فى التعريف به إلى الاستعراب الأوروبى ، لا فى القرن السابع عشر حين استعمل ملخص للكتاب بل فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين أصبح فى حيز الإمكان الاتصال بأصل الكتاب اتصالاً مباشراً عن طريق مخطوطاته الأصلية .

وقد اقتنع العلماء بصعوبة العمل فى كتاب الإدريسي كوحدة قائمة بذاتها وذلك لتعدد الأقطار التى يصفها وتنوع المادة التى يوردها ، لذا فإنه بعد المحاولة الفاشلة التى قام بها جوبير لترجمة الكتاب ترجمة كاملة اهتدى البعثة إلى أن المنهج الصحيح هو الاختصار على دراسات محددة لكل قطر من الأقطار المختلفة . ووضع هارتمان Hartmann اللبنة الأولى لهذا منذ القرن الثامن عشر ببحثه عن أفريقيا عند الإدريسي (١٧١) ، وهو بحث وإن عنى عليه الزمن إلا أنه كان بالنسبة لعصره مجهوداً محموداً . وكان البحث المشهور لدوزى Dozy ودى خويه De Goeje (١٧٢) عن أسبانيا وأفريقيا الشمالية أول خطوة جدية فى هذا المضمار ، وقد أتم هذا البحث وأضاف إليه فيما يتعلق بأسبانيا العلامة سافدرا Saavdra (١٧٣) . 298 ونفس هذه الدرجة العالية تتمتع بها دراسة الأجزاء الخاصة بإيطاليا وصقلية على يد أمارى Amari ، واسكيا بارلى Schiaparelli (١٧٤) ، وهى دراسة هامة أيضاً فيما يتعلق بمسائل عامة تتصل بدراسة الإدريسي . والجزء الأقل أهمية من ذلك وهو الذى أفرده الإدريسي للشام وفلسطين قد ترجم ونشر عدة مرات (جلد مايستر Gildmeister (١٧٥) وبراندل Brandel (١٧٦) ومدنيكوف Mednikov (١٧٧)) ، كما قدم توماشك تحليلاً ممتازاً لمادة الإدريسي عن شبه جزيرة البلقان ، ولكن لم ينشر النص أو ترجمة كاملة له . ولا تخلو من الأهمية فى الجوانب المتعلقة بها تلك الدراسات التى نوهنا إليها من قبل فيما يتعلق بالهند والشرق الأقصى .

وقد انبعث الاهتمام بالإدريسي من جديد فى السنوات الثلاثينات بصفة خاصة ، ويرجع الحافز إلى هذا نشر ك. ميلر لخارطاته . والدراسات التى ظهرت فى تلك الآونة كانت ذات علاقة مباشرة بأراضى اتحادنا السوفيتى ، ونخص بالذكر منها أبحاث تالجرين توليو Tallgren - Tuulio . وقد كانت نقطة الابتداء فى دراسته وصف فنلندا لدى الإدريسي ، ولكنه لم يلبث أن أخضع لبحث عميق الأجزاء التى تمس الدنمارك والنرويج والسويد وألمانيا الشمالية واستونيا وشبه جزيرة كولا وشمالى روسيا ومناطق الدنبر الأعلى : ونظراً لتطبيقه مناهج جديدة فى الدراسة فقد أثار عدداً من المشاكل والاعتبارات الخاصة ؛

وبوجه عام فإن أبحاثه تمثل خطوة جديدة في دراسة الإدريسي عامة ، ويجب أن يعمل لها حساب خاص بصرف النظر عن المنطقة التي اختارها موضوعاً لبحثه^(١٧٨) . ولاتخلو من فائدة رغم هدفها المتواضع دراسة هنريباخ Hoenerbach لوصف الإدريسي لألمانيا والبلاد المجاورة لها ، وكذلك مقال لفتسكي Lewicki عن وصف الإدريسي لطريق من الطرق الخارجة من كييف . ولاشك أن الوضع الآن فيما يتعلق بالإدريسي أفضل بكثير مما كان عليه في نهاية القرن الماضي ، بحيث أصبح في الإمكان تقديم طبعة كاملة وترجمة « لنزهة المشتاق » . وقد فكر فيران Ferrand وغودفروا ديمومبين G. Demombynes في مثل هذا العمل بالفعل ولكن لم يكتب له أن يرى النور بسبب وفاة الأول . وفي الأعوام الأخيرة ترددت الفكرة أكثر من مرة ، في هولندا حين ظهرت فكرة لإخراج طبعة جديدة « لمكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum ، وكذلك في المؤتمرات الجغرافية المنعقدة بإيطاليا حيث دار الكلام بشكل خاص عن الخارطات^(١٧٩) . هذا وقد تضافرت حوادث الأعوام الأخيرة مع عسر المهمة نفسها على تأجيل تنفيذ هذا العمل إلى أجل غير مسمى* .

وفي خلال المائة عام التي أعقبت ظهور ترجمة جوبير أخذت صورة المصنف الجغرافي الأكبر للإدريسي تبدو واضحة المعالم بفضل الدراسات المستقلة لأجزائه المختلفة . كما تؤكد أكثر من ذي قبل صدق الحكم الذي أصدره عليه رينود R. inaud منذ مائة عام تقريباً[[] حين قال « والإدريسي في بعض النقاط قد ساعد بالأحرى على تفهيم العلم بدلاً من تقدمه ، غير أن مصنفه على وجه العموم يمثل صرحاً هائلاً في ميدان الجغرافيا ، يشبه في هذا الصدد مؤلف استرابون Strabon^(١٨٠) » : ولن يفكر أحد الآن في منازعة رأي بارتولد الذي يبصر فيه « محاولة للتنظيم والترتيب ولكن على حساب الدقة والثبات » . ورغم ذلك من كل هذا فإن الجميع يوافقون أماري في اعتباره الكتاب « أفضل رسالة في الجغرافيا وصلتنا عن العصور الوسطى »^(١٨١) سواء من الشرق أو الغرب ؛ وعلى هذا الحكم يقف الآن إجماع آراء المستعربين ومؤرخي الجغرافيا على السواء^(١٨٢) .

وإذا ما رأى الأكفاني في الإدريسي رحالة فقط وأشار إلى « جوبه الآفاق » فإن حكمه هذا يبعد كثيراً من الصحة ، ذلك أن الإدريسي في حقيقة الأمر عالم جغرافي . أما الرحالة جواب الآفاق فقد كان معاصره الأكبر منه سناً أبو حامد الغرناطي ، بالرغم من أنه لم يدون انطباعاته عن الطريق في شكل ملاحظات بل أحيا النمط الأدبي القديم « لكتب العجائب » فصنف مؤلفاً ذا طابع كوزموغرافي بحت ؛ وهو في هذا ربما كان واضح لبنة جديدة في الأدب الجغرافي العربي . وقد ولد بغرناطة عام ٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ وكان اسمه الطويل بما يصحبه من كنى وأنساب مدعاة إلى الخلط الذي حدث أكثر من مرة ،

* تواترت الأخبار أخيراً بتأليف لجنة من المستشرقين بإيطاليا لتتولى هذه المهمة ، ومن المعتقد أن العمل سيوزع على عدد من العلماء من مختلف البلدان ليدرس كل واحد منهم المنطقة التي تمثل ميدان تخصصه . (المترجم)

فهو أبو حامد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي الأندلسي الأقلشبي^(١٨٣) القيرواني ؛ ويرد اسمه في المراجع الأدبية في صياغات مختلفة لهذه الأسماء العديدة ؛ أما أسفاره فمعروفة لنا من مصنفاته الشخصية . ففي عام ٥٠٨ هـ = ١١١٤ قام بأولى رحلاته إلى مصر حيث استمع إلى بعض علماء القاهرة والإسكندرية^(١٨٤) ، ثم رجع إلى وطنه ولكنه لم يمكث به طويلاً فغادره مرة أخرى في عام ٥١١ هـ = ١١١٧ بنية الرجوع إليه مرة ثانية فيما يبدو ، وفي رحلته هذه مر على جزيرة ساردينيا وعلى صقلية فالإسكندرية فالقاهرة . وفي عام ٥١٦ هـ = ١١٢٢ نلتقي به في بغداد حيث أمضى أربعة أعوام متمتعاً بعطف الوزير المعروف برعايته للأدب والأدباء يحيى بن خبیر^(١٨٥) ، وقد رفع إليه الغرناطي أحد مصنفاته . وفي عام ٥٢٤ هـ = ١١٣٠ نراه بأبهر في إيران ، وفي العام التالي ٥٢٥ هـ = ١١٣١ يعبر بحر قزوين فيصل إلى مصب نهر الفلج ، وفي خلال هذه الفترة قام بثلاث رحلات إلى خوارزم^(١٨٦) . ونظراً لعلاقة بلغار بشبه جزيرة البلقان فن الحائر أن يكون قد زار هنغاريا^(١٨٧) وكان موجوداً بها في عام ٥٤٥ هـ = ١١٥٠ ؛ وهناك كان يمتلك منزلاً بل إن ابنه الأكبر حامد [تزوج بسيدتين من أهل تلك البلاد وأقام بها نهائياً^(١٨٨)] . أما الأعوام الأخيرة من حياته فقد أمضاها بمركز الخلافة فكان ببغداد عام ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ وبالموصل عام ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ وتوفي بدمشق عام ٥٦٥ هـ = ١١٧٠ . ومن المصنفات ذات الطابع الجغرافي المنسوبة إليه نعرف على وجه التحديد واحداً فقط هو « تحفة الألباب ونخبة الأعجاب » الموجود في عدد كبير من المخطوطات والذي نشره وترجم جزءاً منه فيران* . وتحفل مقدمة الكتاب بالتعبيرات العادية ذات الطابع الديني ولكن يستنتج من ثناياها أن الكتاب قد تم تصنيفه في عام ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ بالموصل بتوصية من عالم متصوف هو الإربلي ، وهو عالم معروف في الأدب العربي^(١٨٩) . وينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب^(١٩٠) ، الأول منها يعطى « صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها » ، ويشمل الثاني « صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان » ، والثالث منها يتناول « صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من أنواع النفط والنار » ، أما الرابع فيحوى « صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم النشور » . ورأى رينو^(١٩١) عن « تحفة الألباب » يشوبه الكثير من التحفظ ، ففي رأيه أن المؤلف « كان بوسعه تقديم خدمات كبرى في محيط الجغرافيا والتاريخ الطبيعي لو أنه جمع إلى طبيعته المتشوفة إلى المعرفة نصيباً أوفر من الاطلاع وروح النقد » . هذا الحكم صحيح لا مجال للشك فيه ، ذلك أن محيط اطلاع المؤلف لم يكن واسعاً فهو لا يبرز من مصادره إلى جانب القرآن إلا عدداً ضئيلاً جداً من المؤلفات . أما مادته الجغرافية فقيرة للغاية ومضطربة كما أن ميله إلى الغرائب^(١٩٢) واضح ملموس بحيث لا يمكن إنكاره ، ولكن عرضه يتميز بالحيوية والتفنن ويمكن بعد تمحيصه تمحيصاً دقيقاً استخراج نتائج طيبة في

مختلف النواحي : وقد أثبتت الدراسة العميقة التي قام بها ياكوب Jacob أن التحليل الدقيق لرواياته التي كانت تنسب قبلاً إلى محيط الأساطير قد يكشف في كثير منها عن أسس واقعية وعن دقته الكبيرة في الملاحظة .

ويورد أبو حامد أسماء رواياته بدقة ويتحدث عن نفسه بضمير المتكلم^(١٩٣) ولهذا يمكن التفريق بسهولة بين مصادر مادته . وكثير مما يورده على لسان الغير لا يمثل في الواقع أهمية ما وذلك [سهولة تصديقه للعجائب^(١٩٤) واعتقاده فيها ، ولكنه على أية حال يدل دائماً قصارى جهده لتوسيع نطاق معلوماته . ففي القاهرة مثلاً يتجاذب أطراف الحديث مع أحد أهل الحجاز عن عجائب الهند والصين^(١٩٥) حيث أمضى ذلك الرجل هناك أربعين عاماً ؛ وفي بغداد يستفهم من أحد مسلمي صقلية عن ثوران بركان اتنا^(١٩٦) ؛ وفي هنغاريا يجمع أخبار مفصلة من أهل البلاد عن القسطنطينية والمشاكل السياسية فيها^(١٩٧) . وتنال أهمية خاصة روايته لما رآه بعين رأسه ، وهو يمثل ثلث الكتاب بالتقريب^(١٩٨) . واهتمامه بالأبنية والعالم المختلفة قد خلف لنا مقداراً ملحوظاً من المعطيات الطريفة ، فهو قد رأى أعمدة هرقل عند مضيق جبل طارق وذلك قبل فترة قصيرة من انهيارها عام ١١٤٥ . وكان واحداً من بين آخر من رأوا فنار الإسكندرية في صورته التامة ؛ وآخر من ذكره كان الإدريسي^(١٩٩) . وبعين شمس قرب القاهرة رأى المسلة المعروفة التي سقطت عام ١١٦٠^(٢٠٠) كما نفذ إلى داخل هرم خوفو^(٢٠١) ؛ ويعلق ياكوب على هذا بقوله إن هذه ليست الحالة الوحيدة التي قد تثير اهتمام علماء الدراسات المصرية القديمة (Egyptology) في كتابه^(٢٠٢) ؛ ويصدق هذا القول على مجالات أخرى كثيرة . وإذا حدث وأن وجد لديه علماء التاريخ الطبيعي مادة طفيفة^(٢٠٣) إلا أن معلوماته ذات قيمة كبرى فيما يتعلق باستفادة الإنسان من ثمار الطبيعة ، العضوية منها وغير العضوية^(٢٠٤) .

وليس من المستطاع بطبيعة الحال مقارنة معلوماته عن أوروبا من ناحية الكم بما أورده غيره من الجغرافيين ، ولكن رغمًا من ذلك نجد من بينها معطيات قيمة كذكره للألمان تحت اسم « نامس »^(٢٠٥) ، ومثل حكايته عن هنغاريا التي مكنت العلامة البولندي لفتسكي منذ عهد قريب من إلقاء ضوء جديد على مشكلة أصل المسلمين الهنغارين ووضعهم^(٢٠٦) . ويرتبط بهذه المسألة الأخيرة وصفه لمدينة « رومية العظمى » التي يجب أن نبصر فيها القسطنطينية لا رومة نفسها ، وذلك رغم المحاولات العديدة لربطها بالأخيرة^(٢٠٧) . هذا وقد تعرف العلم الروسي على أبي حامد منذ عهد طويل ، ويرجع الفضل في ذلك إلى العلامة دورن Dorn الذي كان من أول العلماء الذين اشتغلوا بدراسة الغرناطي دراسة جدية وكان ذلك في عام ١٨٧٢ ، على الرغم من أن ذكر الغرناطي يرد في الغرب منذ عهد دربلو d'Herbelot

* يذكرنا باسم النمسا الذي أخذناه عن العثمانيين الذين أخذوه بدورهم عن الصقالبة، وهو الاسم الذي ينعت به هؤلاء الأخيرون الشعوب الجرمانية ومعناه لديهم « البكم » ، أي الأعاجم . (المترجم)

وفي روسيا منذ عهد فرين Frähn وشارموا Charmoy (٢٠٨) : أما بالنسبة لاتحادنا السوفيتي فإن معطياته عن حوض القلج الأوسط والأدنى وعن شعوب القوقاز تمثل أهمية كبرى . ولم يثبت حتى الآن على وجه الدقة موقع مدينة سقسين التي يفرد لها وصفاً مفصلاً في كتابه ، ومن الجائز أنها كانت على مصب نهر يايق أو نهر القلج نفسه (٢٠٩) . ونالت اهتماماً كبيراً قصة أبي حامد عن تجارة العظام المندثرة (من المحتمل أنها عظام الماموث Mamoth) التي نشطت بين سكان القلج الأدنى وخوارزم (٢١٠) ؛ وقد أثبت سارطون Sarton أن ذكر هذه العظام قد ورد عند مؤلفي العالم الكلاسيكي القديم . ويسوق لنا أبو حامد تفاصيل وافية عن شعوب القوقاز (٢١١) خاصة أصحاب الزرد (« زره كران ») وهم الكبشجي Kubachi (٢١٢) الحاليون . وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من الجغرافيين العرب ابتداء من البلاذري والمسعودي يتحدث عنهم إلا أن أبا حامد هو الوحيد الذي يتكلم عن طقوس الدفن عندهم ، وهي ترجع فيما يغلب على الظن إلى أصل إيراني كما أثبت ذلك بارتولد (٢١٣) ؛ ومن الجائز أن أبا حامد نفسه لم يزر بلادهم وأنه سنع هذه القصص في دربند . وهو أكثر الجغرافيين تفصيلاً في الكلام عن أسطورة سيف مسلمة (٢١٤) التي استرعت أنظار دى خويه منذ عام ١٨٧٥ (٢١٥) . وأبو حامد أحد المؤلفين الذين تنظر روايتهم بأهمية خاصة بالنسبة لتاريخ شعوب اتحادنا السوفيتي ، ولا تزال مادته في هذا الشأن تنتظر بحثاً خاصاً يأخذ في حسابه المادة التي تجمعت منذ عهد دورن .

ومن المستحيل تجاهل الغرناطى في تاريخ الأدب الجغرافى ، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهور القراء لأن المنهج الذى ابتدعه فى الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة فى وحدة كوزموغرافية قد راق كثيراً للأجيال التالية . وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة ، كما حفظ لنا شذرات كبيرة منه كوزموغرافى القرن الثالث عشر القزوينى واستعمله كل من ابن الوردى وابن إياس فى بداية القرن السادس عشر ، ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم بل تعداه إلى غيرهم ، فرجع إليه عالم الحيوان الأديب الدميرى (القرن الخامس عشر) وصاحب المجموعة الأدبية الذائعة الصيت الأبشيهى (٢١٦) فى القرن الخامس عشر . وقد نحن أبو حامد تخميناً صحيحاً حاجة الأجيال القادمة إلى هذا الضرب من المؤلفات ، فـ [فند ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافيا بما 303 ملازمه من عنصر الغرائب محبباً إلى الطبقات الشعبية بشكل خاص . وليس فى مقدورنا بطبيعة الحال أن نعتبر هذا النمط خطوة تقدمية فى ميدان العلم ، اللهم إلا إذا استثنينا نقاطاً معينة فيه .

ومنذ هذه اللحظة أيضاً يتسع انتشار نمط آخر من الأدب الجغرافى وينال القبول لدى الجمهور ، ذلك هو وصف الرحلات التى كثيراً ما حملت عنواناً بسيطاً هو « الرحلة » ، وذلك على غرار « سفرنامه » لناصر خسرو . ولم تدون الرحلات على هيئة كتب « المسالك » المعروفة لنا بل دونت على هيئة « مذكرات يومية » مع تفاوت فى الدقة فيما يتعلق بتدوينها من يوم لآخر . وكثيراً ما ارتبطت هذه الرحلات بالحلج ،

ولكن هذا لا يعنى أن الحج كان يمثل دائماً المكانة الأولى فيها ، وهو ما رأينا مثاله من قبل في «سفرنامه» . والرحلات تمثل بالأحرى انطباعات من «سنوات التجوال» للعلماء الشبان الذين كان هدفهم قبل كل شيء التعريف بأساتذتهم وبالعلماء الذين التقوا بهم ، متجاهلين تسجيل جوانب الحياة الأخرى. ويكون وصف الرحلة أحياناً قصة ممتازة يسجل فيها صاحبها كل ما رآه أو ما هو جدير بالاهتمام، وكثيراً ما تبلغ مستوى عالياً من الفن والصياغة الأدبية . ولعل أكثر الآثار قيمة دون منازع في هذا المجال رحلة ابن جبير ولكنها ليست الأولى من الناحية الزمنية في هذا الضرب من الأدب .

فأول من وضع الأساس لهذا الفن حسب علمنا ، وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير ، هو الفقيه أبو بكر محمد بن العربي (٤٦٨ هـ - ٥٤٣ هـ = ١٠٧٦ - ١١٤٨)^(٢١٧) وأصله من إشبيلية ولكن لم يلبث أن غادرها إلى المشرق^(٢١٨) بعد زوال دولة آل عباد التي شغل أبوه فيها مركزاً مرموقاً ، وكان هدفه الدراسة ، ولم يتجاوز عمره إذ ذاك السادسة عشرة بعد (٤٨٥ هـ = ١٠٩٢) . وفي الشام تتلمذ على واحد من مواطنيه ممن أقاموا هناك وهو أبو بكر الطرطوشي^(٢١٩) صاحب كتاب «سراج الملوك» المعروف . وفي بغداد استمع إلى دروس الغزالي^(٢٢٠) وأصبح تلميذاً للغوى النابه التبريزي^(٢٢١) الذي كان يدرس آنذاك بالنظامية وهي نفس المدرسة التي كان يدرس بها الغزالي . ومن بغداد أدى فريضة الحج بطريق الصحراء عام ٤٨٩ هـ = ١٠٩٦ ثم رجع إلى بغداد ليقوم بها بعض الوقت ، وغادرها إلى مصر فدرس بالقاهرة والإسكندرية على علماء المدينتين . وتوفي أبوه بالإسكندرية عام ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ ولعل هذا ما دفعه إلى الرجوع إلى وطنه وذلك بعد تجوال دام ثمانية أعوام . وسرعان ما ذاع صيته كقاض وفقيه من أكبر فقهاء المالكية بالأندلس ، وتوفي أثناء رحلة اضطرت إلى القيام بها إلى مدينة فاس . وقد خلف لنا عدة مصنفات فقهية^(٢٢٢) ، ولم يكن الشعر غريباً عليه فقد حفظ لنا المقرئ عدداً من قصائده^(٢٢٣) ، أما وصف رحلته ففقود ، وكان يحمل عنوان «الرحلة» أو «ترتيب الرحلة»^(٢٢٤) ، وقد نقل عنه ابن خلدون^(٢٢٥) والمقرئ^(٢٢٦) . وينقل عنه الأخير وصفاً شيقاً لغرق سفينتهم عند سواحل أفريقيا ولكن يرجع إلى مصنف آخر له يحمل عنوان «قانون التأويل» ، وهو أمر غير واضح لنا تمام الوضوح . ويبدو من الأسلوب ميل ملحوظ إلى الصنعة^(٢٢٧) ، وفي موضع آخر يذكر لنا المقرئ ولع ابن العربي بصنوف الغرائب^(٢٢٨) ويورد أخباراً عديدة عن مقابلاته مع بعض العلماء والأدباء^(٢٢٩) . وابن العربي يقدم لنا مادة ضخمة في مجال الحضارة الثقافية والاجتماعية لذلك العصر .

وقد رفع هذا الضرب من الصياغة الأدبية إلى درجة عالية كما ذكرنا من قبل ابن جبير . ولا غرابة في هذا إذ ينتمى هو وأبوه إلى طبقة الكتاب والأدباء من رجال الدواوين المثقفين ، وهم تلك المجموعة التي لعبت بوجه عام دوراً كبيراً في تطوير الأدب العربي . ويرتفع نسب محمد بن أحمد بن جبير الكناني إلى

أسرة عربية عريقة ، فقد دخل أسلافه الأندلس في القرن الثامن^(٢٣٠) مع القائد المشهور بـسُج بن بشر ابن عياض القشيري ؛ وكان اسم ابن جبير من الأسماء المحببة إلى أسرته فقد حمله الكثيرون قبله^(٢٣١) . وموطن الأسرة على ما يبدو كان بلنسية Valencia ، وقد ولد ابن جبير عام ٥٤٠ هـ = ١١٣٥ والتحق مبكراً بأعمال الدواوين والكتابة كأبيه^(٢٣٢) وعمل مدة طويلة كاتباً لحاكم غرناطة من الموحدين ، ولم يلبث أن كسب الشهرة ككاتب وشاعر وله ديوان شعر متعدد الرواية ولكن المعروف عنه قصائد متفرقة ؛ كما ترك لنا أيضاً رسائل نثرية كسبت بعض الشهرة^(٢٣٣) . ولم يكن بوسعه أن يشتهر في الدوائر العلمية الأوربية على أساس هذا ، أى قبل التعرف على رحلته التي ضمنت له مكانة مرموقة في الأدب الجغرافي .

305 وفي سن مبكرة توجه إلى الحج فغادر غرناطة في رفقة أحد الأطباء وذلك في فبراير من عام ٥٧٨ هـ = ١١٨٣ . وخط سير رحلته معروف لنا جيداً بفضل الإشارات الدقيقة والتواريخ المحددة^(٢٣٤) ، فقد مر بسبته وسار بمحاذاة سواحل سردينيا وصقلية حتى دخل ميناء الإسكندرية ، ومنها ركب النيل إلى القاهرة . ثم غادرها إلى صعيد مصر فوصل إلى مرفأ عيذاب وهو المرفأ المعهود للحجاج على البحر الأحمر . ونزل بجدة وأخذ قافلة إلى مكة حيث أقام هناك حوالى نصف عام ؛ ثم مر بالمدينة في طريقه إلى الكوفة وزار بغداد وسامرا فالموصل فحلب ومنها إلى دمشق التي أمضى بها بضعة أشهر قبل أن يغادر الأراضي الإسلامية فقد كانت سواحل الشام آنذاك في قبضة الصليبيين . ومن ميناء عكا أخذ ابن جبير سفينة مسيحية فنزل بصقلية وذلك بعد رحلة طويلة حافلة بالمشاق لم تخل من كوارث هددت السفينة .

306 وفي هذه المرة استطاع أن يتعرف على الجزيرة عن كثب ، وفي أبريل من عام ٥٨١ هـ = ١١٨٥ وصل إلى غرناطة بعد غيبة دامت أكثر من عامين . ومن الحلى أن انطباعاته عن المشرق كانت قوية جداً وانعكست في قصيدة له طويلة يشيد فيها بصلاح الدين الأيوبي الذي تعلقته به آنذاك أنظار المسلمين ؛ ولم يمض وقت طويل فإذا بابن جبير لدى سماعه باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس (٥٨٣ هـ = ١١٨٧) يخرج في رحلة ثانية تستغرق عامين (٥٨٥ هـ - ٥٨٧ هـ = ١١٨٩ - ١١٩١) ، ولكن لم تحفظ لنا تفاصيل عنها . كذلك نعرف القليل عن الأعوام الأخيرة من حياته ؛ وقد قام برحلة ثالثة إلى المشرق وهو شيخ كبير قد أحزنه وفاة زوجه في عام ٦٠١ هـ = ١٢٠٤^(٢٣٥) ، ولم يرجع إلى الأندلس مرة أخرى بل أمضى أكثر من عشرة أعوام متنقلاً بين مكة وبيت المقدس والقاهرة مشغلاً بالتدريس والأدب إلى أن وافته المنية بالإسكندرية في عام ٦١٤ هـ = ١٢١٧ .

ورحلته الأولى فقط هي التي ترك لنا وصفها على هيئة يوميات في كتاب منفرد وضعه بعد رجوعه حوالى عام ٥٨١ هـ = ١١٨٥ . وعنوانه غير معروف لنا بالضبط ، ويوجد له عنوانان تغلب عليهما الصنعة هما « كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك » ، و« تذكير بالأخبار عن اتفاقات الآثار » ، ولكن كلاهما منحول على ما يظهر^(٢٣٦) . ويمكن القول بأن العنوان ربما كان بكل بساطة « رحلة

الكناني « نسبة إلى القبيلة التي ينتسب إليها . وعلى هذه الرحلة بالذات تعتمد شهرته الأدبية بين الأجيال التالية ؛ ولو أن هذه الشهرة قد اقتصرت بالطبع على المغرب . وقد أفاد منه فائدة كبرى الجغرافيون والمؤرخون مشيرين إلى اسمه تارة ومضمينين ببساطة قطعاً كبيرة منه في مصنفاتهم تارة أخرى . فن بين الرحالة أخذ عنه العبدري وخالد بن عيسى البلوي (حوالى عام ٧٣٦ هـ = ١٣٣٥) وابن بطوطة المشهور أو روايته على الأصح (٢٣٧) ؛ ومن بين المؤرخين رجع إليه ابن الخطيب والمقرئى والفاسى وأيضاً المقرئ (٢٣٨) الذى كما هي عادته قد حفظ لنا روايات عديدة هامة منه . وتلميذ ابن جبير هو الشريشى (توفى عام ٦١٩ هـ = ١٢٢٢) شارح مقامات الحريرى المشهور الذى حفظ لنا شذوراً كبيرة من رحلة أستاذه (٢٣٩) .

ورغمًا عن ذبوع صيته فإن الدوائر العلمية الأوروبية لم تعرف إلى الآن سوى مخطوطة وحيدة لرحلته موجودة بلندن ويرجع تاريخها إلى عام ٨٧٥ هـ = ١٤٧٠ . وقبل التعرف عليها وجدت عن ابن جبير معلومات مهمة متناثرة في مصادر أخرى ؛ وقد أصبحت الرحلة معروفة بفضل الطبعة الجزئية لدوزى 307 وأمارى ، وهو أمر مفهوم بالنسبة لأهمية مادته عن صقلية بالذات . ولا يخلو من طرافة أن نذكر في هذا الصدد أن الشيخ الطنطاوى* الذى كان يدرس آنذاك ببطرسبرغ قد أخذ طرفاً في تلك الطبعة (٢٤٠) . ولم تلبث الرحلة أن أصبحت في متناول الأيدي بفضل الطبعة الكاملة التي نشرها المستشرق البريطاني رايت Wright (١٨٥٢) في بداية نشاطه العلمى ولما يتجاوز سن الثانية والعشرين ، ثم بفضل الترجمة الإيطالية الجيدة بقلم اسكياباريلي Schiaparelli (١٩٠٦) (٢٤١) . وبعد أكثر من نصف قرن أعاد دى خويه (١٩٠٧) طبعة رايت مع تصحيحات عديدة ؛ أما المخطوطة التي تم الكشف عنها خلال تلك الفترة بفاس فإنها لم تجلب تصحيحات ذات أهمية (٢٤٢) .

ووفقاً لمضمونها فإن « رحلة الكناني » تمثل أهمية قصوى في تصوير حياة ذلك العصر ، فهي تقدم وصفاً حياً لمصر والشام عندما بدأت فيهما حركة التحرير الإسلامية ضد الصليبيين بزعامة نور الدين وصلاح الدين . وهي في هذا تقترب كثيراً من مذكرات الأمير أسامة بن منقذ ، بالرغم من الاختلاف الكبير في المنهج وطريقة العرض بين المؤلفين . وفي تحليله لرواية ابن جبير عن الشام اعترف الأب لامنز Lammens بأن ابن جبير (٢٤٣) يمتاز بقوة ملاحظة نافذة . وللرحلة قيمة فريدة فيما يتعلق بتصويرها لحياة مسلمى صقلية ، ففي طريق عودته مر ابن جبير في ديسمبر من عام ١١٨٤ على ساحل صقلية الشمالى من مسينا Messina إلى ترابانى Trapani وبقى هناك إلى فبراير سنة ١١٨٥ يرقب عن كثب مظاهر الحضارة المادية والروحية لإخوته في الدين . والمهم في روايته ليس وصفه لآثار العصور الوسطى

* هو أستاذ مصرى اشتغل بتدريس العربية بجامعة بطرسبرغ وتوفى بها عام ١٨٦١ . وقد ترك لنا كراتشكوفسكى بحثاً طريفاً عن حياته ونشاطه العلمى . (المترجم)

الممتازة بصقلية بل أيضاً لبلاط النورمان الذى لم يترك لنا الكتاب اللاتين المعاصرين شيئاً يذكر عنه (٢٤٤) .
وتعتبر رحلة بن جبير من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة فى الأدب العربى . وإذا كان وصفه
المفصل للأبنية مملاً للقارئ العادى فإن أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير ، مثال ذلك وصفه
للمراك الإسكندرية أو لكارثة السفينة على سواحل صقلية . أما عرضه العام فيستهدف الصنعة والأناقة ،
وهو كثيراً ما يلجأ إلى السجع الذى يعالجه بالكثير من المهارة دون أن يبالغ فيه أو يضطر القارئ إلى تكلف
الجهد فى تفهمه . كما يشحن كتابته بالاقتراسات الأدبية والإشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من
المعرفة والاطلاع حتى يضحى مفهوماً للقارئ . وبعد فهذا مصنف رفيع الأسلوب يختم بجدارة حلقة
الجغرافيين الأندلسيين لهذا العصر .

ومن الطبيعى أن شخصيات لامعة كالبكرى والإدريسى وابن جبير لا تستغرق حلقة مؤلفى المغرب ،
إذ نلتقى إلى جانبهم بمصنفات أقل شهرة ولكنها لا تخلو أحياناً من بعض الصلة بهم ، أحدها هو « كتاب
الاستبصار فى عجائب الأمصار » لمؤلف مجهول (٢٤٥) . ويدين العلم بمعرفته إلى كريم A. Kremer
الذى نشر المتن عام ١٨٥٢ معتمداً على مخطوطة فينا مع عرض مفصل لمضمون الكتاب باللغة الألمانية .
ومخطوطة باريس التى استعملها لأول مرة أمارى (٢٤٦) قد ساعدت فى تغطية الفجوات الموجودة بمخطوطة
فينا ، غير أنها لا هى ولا مخطوطة الجزائر عاونتا على حل المشاكل المتعلقة بأصل الكتاب ومضمونه .
أما ترجمة فانيان Fagnan (١٩٠٠) التى اعتمد فيها على المخطوطات الثلاث وزودها بكمية من الشروح
والتعليقات فهى تمثل خطوة فى هذا السبيل ولو أنها لا تقدم لنا الكتاب فى صورته الكاملة (٢٤٧) . ولا يتطرق
الشك إلى صلته بالبكرى غير أن باب الاستنتاج يقف عند هذا الحد ، ويرجع تاريخ تأليف الكتاب إلى
عام ٥٨٧ هـ = ١١٩١ ، ويتضح هذا من مضمونه (٢٤٨) . ويلوح لنا أن المؤلف أدى فريضة الحج
فهو يصف الحرمين وصفاً مفصلاً ثم ينتقل إلى الكلام عن مصر ويتحدث عن أهراماتها (٢٤٩) ؛ وبعد
هذا ينتقل شمالاً إلى الكلام عن شواطئ المحيط الأطلنطى ، ثم يورد لنا فى الغالب مادة البكرى (٢٥٠)
واصفاً المدن وفقاً لترتيب جغرافى معين مضيفاً إلى ذلك بعض روايات المعاصرين (٢٥١) . وهو يجهد
فى تسجيل جميع ما رآه فى طريقه وكل ما سمعه عن البلاد المحيطة (٢٥٢) ومن ثم فهو يختلف عن البكرى
لا فى التبويب وترتيب المادة (٢٥٣) فحسب بل وأيضاً فى أنه يصف أفريقيا الشمالية وصف شاهد عيان (٢٥٤)
ويقتصر على عرضه على الجغرافيا الوصفية وحدها (٢٥٥) . وأغلب الظن أن المصنف لم يصلنا فى مسودته
الأصلية ، فالعرض يرد على لسان من يدعى « الناظر » ، وهو الذى (نظر) فى الكتاب فى عهد أبى يوسف
يعقوب الموحدى (الذى حكم ابتداء من عام ٥٨٠ هـ = ١١٨٤) وأضاف إليه روايات تتعلق بانتصار
الخليفة وسفارة صلاح الدين الأيوبي إلى فاس فى عام ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ . أما مؤلف الكتاب نفسه فيأتى
ذكره على ما يبدو تحت اسم « المؤلف » وتذكر إلى جانبه مصادر أخرى (٢٥٦) . وجميع هذه النقاط

309 لا تزال تنتظر المزيد من التوضيح إذ يحيط بها الغموض منذ أيام أمارى ؛ ومن الجلى أن الأثر لا يبلغ مرتبة الآثار الأخرى كما وأن الاهتمام به لم يكن كبيراً (٢٥٧)* .

وعلى نقيض الأندلس والمغرب فن الملاحظ أن مصر لم تخرج في القرنين الحادى عشر والثانى عشر مصنفات جغرافية ممتازة طبقت شهرتها البلاد العربية الأخرى ، غير أنها حافظت على الدوام كما كان عليه الحال من قبل على إنتاج تلك المراجع الرسمية فى الإحصاء والإدارة التى يمكن تقصى بدايتها فى المقدمات الأدبية المختلفة التى عملت من أجل كتاب الدواوين منذ العهد العباسى ثم تتبع تطورها فى الموسوعات الكبرى لعهد المماليك بمصر . هذا وقد احتلت الجغرافيا مكانتها كعلم فى تلك المراجع الرسمية وهاته الموسوعات الكبرى كغيرها من العلوم الأخرى ، بيد أن التحليل العميق لمادة هذه المصنفات من شأنه أن يساعد على استخراج معطيات هامة تتعلق بالأوضاع الداخلية أو الخارجية للأقطار المختلفة .

وإلى هذا العصر ينتمى مصنف من ذلك النوع وصفه ابن ممتاى ، واتضحت قيمته منذ أيام هامر Hammer^٦ وWüstenfeld ووكد هذه الأهمية من أرخوا لمصر الإسلامية مثل بكر Becker وبيوركمان Björkman . وتتميز شخصية المؤلف نفسه فى بعض نواحيها بطرافة لا تقل عن طرافة كتابه (٢٥٨) ، فابن ممتاى (توفى عام ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩) ينتمى إلى أسرة قبطية عريقة شغل عدد من أفرادها مناصب كبرى فى دواوين الدولة المختلفة . ولما وضع صلاح الدين يده على مصر^٧ (٥٦٤ هـ = ١١٦٩) اعتنق ابن ممتاى الإسلام وشغل فى عهد صلاح الدين وخلفائه منصب رئيس ديوان الجيش والمالية . وبعد أن تدعم سلطان الملك العادل بمصر فى عام ٥٩٦ هـ = ١٢٠٠ اضطرت الدسائس ابن ممتاى إلى الهرب إلى حلب حيث وافاه أجله المحتوم ؛ وقد سرد لنا سيرة حياته ياقوت الذى كان على معرفة تامة بنشاطه فى أواخر سنى حياته . وثقافة ابن ممتاى الأدبية تقف فى أعلى مستوى لذلك العصر ، وقد خلف لنا عدداً من الآثار الأدبية يوجد اثنان منها ضمن مخطوطات جامعة لينينغراد (٢٥٩) .

هذا وقد ساعده وضعه الحكومى فى الاطلاع على الوثائق الرسمية هذا إلى جانب معرفته الجيدة بالنظام الإدارى مما يضمنى على كتابه «قوانين الدواوين» قيمة لامراء فيها . وإلى جانب الكلام على التعليمات الدواوينية البحتة فإن نصف الكتاب يبحث فى نظام الأراضى بمصر ويفحص فحوصاً دقيقاً أنواعها ومساحتها وخراجها وغير ذلك من المسائل المتعلقة بها ؛ ولا حاجة لنا بالطبع إلى توكيد أهمية مثل هذه المادة . والكتاب معروف فى روايتين ، غير أنه مع الأسف لا توجد فى متناول اليد سوى القصيرة منهما ، أضف إلى هذا فى طبعة غير مرضية بل وموجزة أكثر (١٢٩٩ هـ = ١٨٨٢) (٢٦٠) ، وهى ترجع إلى عهد السلطان العزيز (توفى عام ٥٩٥ هـ = ١١٩٨) وتشمل عشرة فصول . أما الرواية

* من المعتقد أن اسم المؤلف هو أبو الفضل جعفر بن محمد المعروف بابن محشرة . وقد تناول الكتاب بالدرس والتحقيق أستاذ مصرى هو الدكتور سعد زغلول عهد الحميد ونشره مع تعليقاته سنة ١٩٥٨ . (المترجم)

الأولى والأكبر فتضم خمسة عشر فصلاً وظهرت في عهد صلاح الدين ولكنها لا تزال معروفة في المخطوطات فقط (٢٦١)* : ورغمنا من أن ابن مماتي لا يعد شخصية كبيرة في ميدان الجغرافيا العربية إلا أنه خير من يمثل أحد اتجاهات ذلك الأدب في مصر . وكما مر بنا فإن سيرة حياته تأخذنا إلى الشام وبذلك تسمح لنا بتركيز أنظارنا مرة أخرى على مشرق العالم الإسلامي حيث يبدو القرن الثاني عشر شاحباً فقيراً فيما يتعلق بالأدب الجغرافي ، فهو بهذا كأنما يهيئ الجو لظهور آخر أثر جغرافي ضخم للعهد السابق للغزو المغولي ، أعني بذلك معجم ياقوت الحموي .

* نشر المؤرخ المعروف الدكتور عزيز سوريال عطية كتاب ابن مماتي بالقاهرة في عام ١٩٤٣ ، مع مقدمة ضافية عن حياة المؤلف ونظام الأراضى بمصر في عصره . (المترجم)

حواشي الفصل العاشر

- Kramers, Legacy, 88-89 (١)
- Brockelmann, GAL, p. 367-368, No 1; SBI, p. 628-629 — Pons (٢)
- Boigues, p. 147-150, No III — طبعة القاهرة ، ١٣٥٠
- Nöldeke, ZDMG 40, p. 308 (٣)
- Schefer, Notice, p. 9-11 (٤)
- Ferrand, K'ouen Louen p. 443-445 (٥)
- Lévi-Provençal, La Péninsule, p. XXIV, note 2 — Pons Boigues, (٦)
- p. 158-159, No 120
- (٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثاني ، ص ٥٨٢ ؛ الجزء الرابع ، ص ٥١٧
- (٨) شرحه ، الجزء الرابع ص ٥١٧
- (٩) شرحه ، الجزء الثاني ، ص ٥٨٢ — Lévi-Provençal, La Péninsule, p. XXIV,
- note 2 — Pérès, MGD, p. 235, note 2
- (١٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثاني ، ص ٥٨٢
- Alemany, p. 126, 189 No 4 (١١)
- Jacob, Studien, I, p. 6-8; IV p. 138 (١٢)
- Pons Boigues, p. 159 (١٣)
- (١٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثاني ، ص ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، الجزء الرابع ، ص ٥١٧ - ٥١٨
- (١٥) شرحه ، ص ٥٨٢ : الجزء الرابع ، ص ٥١٧ - ٥١٨
- (١٦) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ٢٤١
- Lévi-Provençal, La Péninsule, p. XXIII (١٧)
- Jacob, Studien, I, p. 8-10; II, p. 52; IV, p. 137-147 (١٨)
- Kramers, El, EB, p. 68 (١٩)
- Dozy, Recherches, I, p. 1849, p. 282 (٢٠)
- Wüstenfeld, El-Bekri, I, Vorwort, p. 3 (٢١)
- Dozy, Recherches, I, 1849, p. 297 (٢٢)
- Pons Boigues, p. 162 (٢٣)
- Dozy-Lévi-Provençal, III, p. 222 — Lévi-Provençal, La Péninsule, (٢٤)
- p. 136, note 1

- Dozy, Recherches, I, 1849, p. 295 - 298 (٢٥)
- (٢٦) شرحه ، ص ٢٩٧
- Kramers, El, EB, p. 68 (٢٧)
- Lévi - Provençal, La Péninsule, p. 251, note 2 — Kramers, El, EB, 68 (٢٨)
- not exact - 459 = 1067
- (٢٩) مخطوطة كيل Kiel لعام ٨٥١ هـ ؛ عن مخطوطة استنبول راجع :
- Ritter, DI, XIX p. 57 p. (Kramers, El, EB, p. 68 — خطأ : p. 43) —
- Minorsky, Khazars, p. 143, note 1 مخطوطة مراکش راجع :
- Kowalski, Relcia Ibrāhima, p. 7 - 16
- Kunik i Rozen, I, p. 5 - 17 — González Palencia, p. 195 (٣٠)
- Kramers, Legacy, p. 88 (٣١)
- Kunik i Rozen, I, p. 6 (٣٢)
- (٣٣) شرحه ، جزء أول ، ص ٩ - ١٠ ، ١٧
- (٣٤) شرحه ، ص ٨ - ١٠ ، ١٦
- Pons Boigues, p. 163 — Brockelmann, GAL, SBI, p. 876, No 2 (٣٥)
- Sarton, Introduction, I, p. 471 - 472 (٣٦)
- (٣٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٦٥٣ ؛ راجع الفهرس ، الجزء الخامس ، ص ٣٥٠
- Kunik i Rozen, I, p. 5 (٣٨)
- Der Diwan des Abu Dn'aib, herausg. von J. Hell. Hannover, 1926, (٣٩)
- Text p. 18, No 11, 27; translation, p. 30; cf : Brockelmann, GAL, I, p. 41 - 42; SBI, 42 - 43, 71, No 1 — Bräunlich E., Abu Duaib - Studien, DI, XVIII, 1929, p. 1 - 23
- Wüstenfeld, El - Bekri, I, p. 3 (٤٠)
- (٤١) شرحه ، ص ٤
- (٤٢) شرحه ، ص ٣ - ٥ — (جزئياً) Blachère p. 255 - 257
- Blachère p. 252 - 253 (٤٣)
- Reinaud, Introduction, p. CVIII - CIX (٤٤)
- Reinaud, Notice, p. 68 - 69 (٤٥)
- Dozy, Recherches, I, 1849, p. 304 - 305 (٤٦)

- Heer p. 21 (٤٧) ياقوت المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ - ٨
(٤٨) شرحه ص ٨٠١
(٤٩) شرحه ، الفهرس ، الجزء الخامس ، ص ٣٥٠
(٥٠) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٣٠٢ ، ٦٥٣ ، ٨٦٢
- Kramers, El EB, p. 68 (٥١)
— Brockelmann, GAL I, p. 476, No 3; SBI, p. 876 — Sarton, Introduction, (٥٢)
II, p. 221, Kramers, El, EB, p. 64 - 65, 69 — Amari (Nallino, I,) p. 60 - 61, No 27
— Dozy, Recherches, II, 1881, Appendice XXXV, p. LXXXIX (٥٣)
(٥٤) راجع تعدادها لدى : Bassett, Extraits, p. 619 — Griffini, Estratti, p. 414 - 420
— Bassett, Extraits (٥٥)
(٥٦) الترجمة والتحليل لدى : Ferrand, El, IV, p. 1198 —
Le Wakwak, p. 201 - 202 وأيضا بحثه :
— Kramers, Legacy, p. 89 (٥٧)
(٥٨) عن التواريخ راجع : Seybold, Edrisiana, p. 596, note 1
— Dozy et de Goeje, p. III (٥٩)
— Miller, I, heft 2 p. 41 (٦٠)
— Seybold, Al - Idrisi, b, 480 (٦١)
(غير صحيح : ١١١٦ = — Brockelmann, GAL, SBI, p. 876)
(٥٥١ = ١١٥٦ مشكوك فيه) Kramers El EB, p. 68
(٦٢) تحمل طبعة ١٥٩٢ الترجمة اللاتينية للعنوان وهي :
Oblectatio desiderantis in descriptione Civitatum Principalium
et tractatum et Provinciarum et insularum et urbium et Plagarum
Mundi. Roma, 1592 (من أسفل , Schnurrer, p. 167 راجع)
(٦٣) هكذا في المتن
(٦٤) Amari (Nallino), III, p. 462, note 1 — Tallgren, Finlande p. 5, note 2
(٦٥) لا يتعلق الأمر بالتحديد الفلكي للأطوال والعروض ؛ راجع :
Amari (Nallino), III, p. 463, note 2,
وذلك على عكس تالجرين (Tallgren, Finlande, p. 5, note 3)
(٦٦) إن فكرة إماري Amari عن اللوح المبين عليه خطوط الطول والعرض يرفضها نالينو Nallino
Amari (Nallino), III, p. 690 - 691, note 3 راجع :

- (٦٧) الدائرة = Amari (Nallino) III, p. 463 : Compasso —
 (٦٨) يعتقد أمارى . (Amari (Nallino ,) , III, p. 464, note 1)
 أنه قد بين عاينها خط الاستواء والخطوط الأفقية الفاصلة بين الأقاليم إلى الشمال منه ، وأيضاً الخطوط الرأسية
 التي تفصل بين الأقسام العشرة لكل إقليم .
 (٦٩) بحسب رأى نالينو (Amari (Nallino) , III, p. 364, note 1)
 فإن الرطل يساوى ١٤١٠٣٠ كيلو جراماً ، وبحسب رأى ميلر Miller حوالى ١٥٠ كيلو جراماً
 (Miller, 1, 2, 39) ؛ أما قطر الدائرة ، فقد كان فبحسب رأى امارى Amari ١٩٠ متراً .
 (٧٠) وفقاً لمتن إمارى Amari واسيكا باريللى Schiaparelli
 (M. Amari e C. Schiaparelli L'Italia, p. 4-6 ; translation, p. 4-8 ;
 مع تحليل امارى — (Amari (Nallino) , III, 2, p. 461 - 466) —
 راجع أيضاً المتن لدى : Tallgren, Finlande, p. 4-7 — Amari, Bibl. ar. Sic, p. 17-19
 الترجمة في الجزء الأول ص ٣٥ - ٤٣ —
 Jaubert, I, p. XVI — XVII = de Slane, review of Joubert, p. 362 - 385 =
 Miller, I, 2, p. 37 sui = Reinaud, Introduction, p. CXVI-CXYIII —
 Carra de Vaux, Les Penseurs, II, p. 25
 — Amari e Schiaparelli, L'Italia, p. III (٧١)
 Tuulio, Du Nouveau, p. 226 - 228 : المتن لدى :
 Amari, Bibl. ar - Sic., p. 657 - 658 راجع أيضاً :
 Tallgren, Finlande, p. 8 (قلعة) — Amari (Nallino) , III, 2,
 p. 467-468; Amari, Bibl. ar - sic., II, p. 564 - 565 — Reinaud,
 Introduction, p. CXIV - CXV — Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 11 : قارن :
 Miller, I, 2, p. 37 - 38 — Pizzi p. 331 - 333
 وعن مخطوطة نزهة المشتاق في باريس (مجموعة Asselin) وبالقاهرة ، راجع :
 Dehérain, De Sacy, p. 97, 111
 — De Slane. review of Jaubert, p. 365 - 372 (٧٣)
 — Kramers, Legacy, p. 89 (٧٤)
 (٧٥) شرحه ص ٩٠
 — Miller, I, 2, p. 39 — Tallgren, Finlande, p. 6, note 1 (٧٦)
 — Seybold. Al-Idrisi, p. 480 - Miller, p. 44 - 46 — Hoenerbach, Idrisi, p. 3 - 7 (٧٧)
 — Tallgren, Finlande, p. 15 - 19 — Tuulio, Du nouveau, p. VII - IX

- Ochet Imp. Publ. bibl. for 1897, p. 80-81 (٧٨)
- Seybold, Al-Idrisi, p. 481 (٧٩)
- Miller, I, 2, p. 46 (٨٠)
- Tallgren, Finlande, p. 16 (٨١)
- Volin, Al-Idrisi p. 220-222 (٨٢)
- Petrun, Jurnal Nauchno-Issledovatel'skoi Kafedry g. Odessy, 1, 7; II, 2. (٨٣)
- Kassner, Peterm. Mitteilungen, 79, 1933, p. 304 (٨٤)
- (٨٥) د. چلبی ، مخطوطات ، ص ٥٣ ، رقم ٩٣
- Schnurrer, p. 167-168, No 187 (٨٦)
- Saavedra, p. 226 — De Slane, Catalogue, p. 391, No 2223 (٨٧) (القديم ، رقم 894)
- Miller, I, 2 p. 43 — طمس
- Schnurrer, p. 168 — Günther, Edrisi, p. 113-123 (٨٨)
- Dozy et de Goeje, p. VI, note 1 (٨٩)
- (٩٠) شرحه ، ص ٦ - ٢١
- Seybold, Edrisiana, p. 591 (٩١)
- Pardi, p. 380-382 (٩٢)
- H enerbach, Idrisi, p. I, note 3 (٩٣)
- Kramers, El, EB, p. 68 · Kimble, p. 57 — J. K. Wright, Geogr. Lore, (٩٤)
- p. 80-81
- Dozy et De Goeje, p. XXI (٩٥)
- Tomaschek, Zur Kunde, II, p. 4 (٩٦)
- (٩٧) شرحه ، ص ٥
- (٩٨) شرحه ، ص ٩ ، ٩١
- (٩٩) شرحه ، ص ١٥
- (١٠٠) شرحه ، ص ٤ ، ٩١
- (١٠١) شرحه ، ص ٩١
- (١٠٢) شرحه ، ص ٦
- (١٠٣) شرحه ، ص ٥
- (١٠٤) شرحه : ص ٥ - ٦
- (١٠٥) Lewicki, Al-Idrisi, p. 95
- (١٠٦) شرحه ، ص ٩٨

- (١٠٧) توضيح جديد : Validj, Ibn Fadlan, p. 320-321
- Garkavi, Trudy III Archeologich Syezda, I, p. 345-352 (١٠٨)
- Grushevski, p. 34-35 (١٠٩)
- Mzik, Osteuropa, p. 193 (١١٠)
- Nallino, Al-Huwarizmi, p. 39, No 2, 42-44, 52 (١١١)
- Mzik, OLZ, XV, p. 403 (١١٢)
- Kimble, p. 59 (١١٣)
- Miller, I, 2 p. 42 (١١٤)
- Yule - Cordier I, p. 141 (١١٥)
- (١١٦) شرحه ، ص ١٤٣
- (١١٧) شرحه ، ١٧٢ - ١٩٩
- Beazly I, p. 435 (١١٨)
- Volin, Al-Idrisi p. 220 - 222 (١١٩)
- (١٢٠) شرحه ، ص ٢٢٠ ، رقم ١
- Amari (Nallino), III, 2, p. 686, note 3 — Codazzi, p. 373-463 (١٢١)
- (١٢١) مثالا : Kramers, El, EB, p. 68
- Reinaud, Introduction, p. CXVI — Géographie d'Aboulefeda, كتابه أيضاً (١٢٢)
- p. 263
- Reinaud, Introduction, p. CXVI (١٢٤)
- Amari (Nallino), III, 2 p. 697, note 2 (١٢٥)
- Mzik, Ptolemaeus, p. 165 - Kramers, Legacy, p. 90 — Hoenerbach, (١٢٦)
- idrisi, p. 22 - 24
- Mzik, Ptolemaeus, p. 166 (١٢٧)
- (١٢٨) شرحه ، ١٦٥
- Kramers, Notices, p. 26 - 27 (١٢٩)
- (١٣٠) شرحه
- Tuulio, Du nouveau, p. 44 - 62 (١٣١)
- Kramers, Legacy, p. 90 (١٣٢)
- (١٣٣) الصورة لدى : Kimble, p. 58 — Kramers Legacy, p. 90
- Kramers, El, EB, p. 68 (١٣٤)

- Kramers, Legacy, p. 90 (١٣٥)
- Mzik, Ptolemaeus, p. 165 (١٣٦)
- Kramers, EI, EB, p. 68 (١٣٧)
- Kramers, Notices, p. 28 (١٣٨)
- Furlani, Le Carte (١٣٩)
- Amari (Nallino), III, 2, p. 701 note (١٤٠)
- Mieli, p. 201-202 : راجع (١٤١)
- Mzik, Ptolemaeus, p. 165 (١٤٢)
- Kramers, Notices, p. 28 (١٤٣)
- Honigmann, Die Sieben, Klimata, p. 181 (١٤٤)
- Mzik, Ptolemaeus p. 165 (١٤٥)
- (١٤٦) شرحه ، ص ١٦٦
- (١٤٧) شرحه
- Reinaud, Introduction, p. CXXI — Miller, I, 2, p. 43-44 Tallgren, (١٤٨)
Finlande p. 9
- Miller, I, 2, p. 44 and 1, 3 (١٤٩)
- (١٥٠) شرحه ، ١ ، ٣ ، ص ٦٧
- Tallgren, Finlande, p. 17-18, note 3, Letter of Nallino (١٥١)
- Miller, I, 3, p. 67-68 (١٥٢)
- Seybold cf : Miller, I, 3 p. 68 cf : Tallgren, Finlande, p. 6-10 (١٥٣)
- Miller, I, 3 p. 68 (١٥٤)
- (١٥٥) كرامرس عن الإدريسي ، راجع :
- Youssouf Kamal, Quelques éclaircissements, p. 106
- (المسودة الثالثة « أنس المهج » ليست للإدريسي — في نهاية القرن الثالث عشر)
- وحسب رأيه كانت هناك أربعة مسودات :
- كتاب روجر ؛ « وروض الأنس ونزهة النفس » الذي عمله لتعليم الأول ؛ ثم ثالثة هي التي عمل
- منها أحد مؤلفي القرن الثالث عشر كتاب « أنس المهج » —
- Cerulli, OM, XXIII, No 1, p. 22-23, note 7 : راجع أيضاً :
- Kramers, EI, EB, p. 68-69 (١٥٦)

- Meyerhof, *Pharmakologie*, p. 45, 225 (١٥٧)
- Sarton, *Introduction*, II, p. 410 (١٥٨)
- Mieli, p. 200, note 2 (١٥٩)
- De Slane, review of Jaubert, p. 373 - 375 (١٦٠)
- Hoenerbach, *Al - Idrisi*, p. 19 (١٦١)
- Miller, I, 2, p. 50 - 51 (١٦٢)
- Amari, *Bibl. ar. - sic.*, I, p. XXVII = Amari (Nallino), I, p. 49 (١٦٣)
- Brockelmann, *GAL*, II, p. 137, No, 3; SBII p. 169 - 170 (١٦٤)
- (Sprenger Two works p. 85 - 86) إرشاد القاصد إلى إسنا المقاصد (١٦٥)
- Honigmann, *Die Sieben Klimata*, p. 181 - 183 (١٦٦)
- Miller, I, 2, p. 51 (١٦٧)
- (١٦٨) شرحه ، ص ٥١ - ٥٢
- Kramers, *Notices*, p. 15, 17, 25, 28 - 29, 32 (١٦٩)
- J. K. Wright, *Geogr. Lore*, p. 81 with reference to De la Roncierè (١٧٠)
- Hartmann (١٧١)
- Dozy et De Goeje (١٧٢)
- Saavedra, p. 225 - 242 (١٧٣)
- Amarie Schiaparelli, *L'Italia*, 1883, (١٧٤)
- Seybold, *Analecta - Arabo - italica*, p. 213 - 215 : بعض تصحيحات لدى :
- Gildemeister, *Idrisis Palestina* (١٧٥)
- Brandel (١٧٦)
- Mednikov, *Palestina*, II, 921 - 937 (١٧٧)
- H Jansky, *OLZ*, 36, p. 633 - 695 : راجع نقده : (١٧٨)
- Furlani, p. 196 - 206 (١٧٩)
- Reinaud, *Introduction*, p. CXX (١٨٠)
- Amari (Nallino), III, 2, p. 701 (١٨١)
- J. K. Wright, *Geogr Lore* p. 80 (١٨٢)
- Ferrand, *Le Tuhfat al - albab*, p. 17 - 18 (١٨٣)

- (١٨٤) المقرئ في كتاب : Ferrand, Le Tuhfat, p. 14
 (١٨٥) توفي عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٥ راجع الفخرى (Derenbourg, Al-Fahri, p. 425)
 قارن : Brockelmann, GAL, II, p. 161, No 1
 - Brockelmann, GAL, SBI, p. 878 (Bactrien) (١٨٦)
 (١٨٧) شرحه (Russland)
 - Jacob, Studien, III, p. 71 — Lewicki, Al-Andalusi p, 108 (١٨٨)
 - Brockelmann, GAL, SBI, p. 783 - 784 — Ferrand, Le Tuhfat, p. 284 (١٨٩)
 (١٩٠) المحتويات عرضها ياكوب : (Jacob, Studien, III, p. 74 - 77)
 أما المتن فراجع : Ferrand, Le Tuhfat, p. 36
 - Reinaud, Introduction, p. CXI (١٩١)
 - Kramers, El, EB, p. 69 (١٩٢)
 - Jacob, Studien, III, p. 92 (١٩٣)
 (١٩٤) شرحه
 - Ferrand, Le Tuhfat, p. 106 (١٩٥)
 - Amari Bibl. ar - sic., I, p. 134 — Amari (Nallino), II, p. 504 - 505 (١٩٦)
 - Lewicki, Al-Andalusi, p. 109 (١٩٧)
 - Jacob, Studien, III, p. 93 (١٩٨)
 (١٩٩) شرحه ، ص ٧٦ . لايرد ذكر لأبي حامد لدى أسين
 (Asin Palacios, Al-Andalus, I, 2, p. 269)
 - Jacob, Studien, III, p. 87 (٢٠٠)
 (٢٠١) شرحه ، ص ٨٩
 (٢٠٢) شرحه ، ص ٨٦ - ٩١
 (٢٠٣) شرحه ، ص ٨٣
 (٢٠٤) شرحه ، ص ٨٤
 (٢٠٥) شرحه ، ص ٩١ - ١٢٣
 - Lewicki, Al-Andalusi (٢٠٦)
 - Moncada, (Seybold, Deutsche Literaturzeitung p. 1716 : راجع نقد زيبولد: (٢٠٧)
 (٢٠٨) عن المراجع المبكرة راجع : Ferrand, Le Tuhfat, p. 15 - 16

- Barthold, Vorlesungen, p. 168-169; — Büchner, El, IV, p. 89 — Ferrand, (١٠٩)
 : Le Tuhfat, p. 87-90
- Jacob, Studien, III, p. 77-79 — Sarton, Introduction, II, p. 412 (٢١٠)
 — Ferrand, Le Tuhfat, p. 82-83 (٢١١)
 (٢١٢) شرحه ، ص ٨٤ - ٨٥ - راجع أيضاً :
- Orbeli and Trever, Sasanidskii Metall, p. XV
- Bartold, ZVO, XIII, p. 0101-0104 (٢١٣)
 Barthold, Daghestan p. 925 — Trever, p. 18 : راجع أيضاً :
- Ferrand Le Tuhfat, p. 83-84 (٢١٤)
 — De Goeje, Eenige Mededeelingen, p. 23-33 (٢١٥)
 — Ferrand, Le Tuhfat, p. 18-19 : تعدادهم لدى : (٢١٦)
 (٢١٧) ابن خلكان (طبعة De Slane) الجزء الثالث ، ص ١٢ - ١٤ - المquiry الجزء الأول ،
 ص ٤٧٧ - ٤٨٩ - Pons — CXXIV — CXXIII — Reinaud, Introduction, p. CXXIII — CXXIV — Pons
 Boigues p. 216-217, No 172
- (٢١٨) المquiry الجزء الأول ، ص ٤٨٢
 (٢١٩) ابن خلكان ، شرحه ، ص ١٣
 (٢٢٠) شرحه - المquiry ، الجزء الأول ، ص ٤٧٩ ، ٤٨٢
 (٢٢١) المquiry : الجزء الأول ، ص ٤٧٨
 (٢٢٢) راجع ذلك لدى : المquiry ، الجزء الأول ، ص ٤٨٣ - ٤٨٤ و Pons Boigues, p. 217
 Brockelmann, GAL, SBI, p. 298 : راجع أيضاً :
- (٢٢٣) المquiry ، الجزء الأول ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٨٩
 — Pons Boigues, p. 217 (٢٢٤)
 (٢٢٥) ابن خلكان (طبعة De Slane) ، الجزء الثالث ، ص ١٤
 — Pons Boigues p. 217 (٢٢٦)
 (٢٢٧) المquiry ، الجزء الأول ، ص ٤٨٠ - ٤٨١
 (٢٢٨) شرحه ، ص ٤٨١ - ٤٨٢
 (٢٢٩) شرحه ، ص ٤٨٤ - ٤٨٩
 Schiaparelli Ibn Gubayr, p. VIII (٢٣٠)
 (٢٣١) شرحه ، ص ٧ - ٨
 (٢٣٢) المصادر عنه جمعها زييولد (Seybold, ZDMG, 63, p. 353-355)

- (٢٣٣) مصنفاته لدى ابن الخطيب ؛ راجع : Schiaparelli, Ibn Gubayr, p. XII - XIII
- (٢٣٤) عن طريق رحلته راجع : Schiaparelli, Ibn Gubayr, p. XXV - XXVII
- (٢٣٥) هكذا يقول ابن الأبار (Schiaparelli, Ibn Gubayr, p. X, note 1)
- في العادة يقال إنه بدأ رحلته في عام ٦١٤ هـ = ١٢١٧
- (٢٣٦) هكذا يؤكد رايث (Wright, Ibn Jubayr, 2 ed. p. 9)
- (٢٣٧) شرحه ، ص ١٧
- (٢٣٨) شرحه ، ص ١٨ - ١٩
- (٢٣٩) شرحه ، ص ١٩
- Krachkovski, Sheikh Tantawi p. 80 (٢٤٠)
- Schiaparelli, Ibn Gubayr; reviewed by de Goeje cf : W. Wright, Ibn Jubayr, 2 ed., p: 24 (٢٤١)
- (٢٤٢) شرحه ، ص ٢٣
- Lammens, Causeries, p. 53 - 64 (٢٤٣)
- Amari (Nallino), I, p. 52; III, p. 541 - 542, 544 - 546 (٢٤٤)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 879, No 5 b (Anonyme Paris, 2225 — هناك أيضا - (٢٤٥)
- (راجع : Fagnan, l'Afrique p. II : الاستبصار 878 - 879)
- Amari (Nallino) I, p. 53, No 11 (٢٤٦)
- (٢٤٧) كذيل لترجمته أضاف فانيان Fagnan كذلك ترجمة روايته عن صقلية :
- Fagnan, Centenario, I', 105 - 106
- Fagnan, L'Afrique p. IV (٢٤٨)
- (٢٤٩) شرحه ، ص ٢ ، ٥
- (٢٥٠) شرحه : ص ٤
- Kramers, El, EB, p. 69 (٢٥١)
- Reinaud, Notice sur les Dictionnaires, p. 106 (٢٥٢)
- Fagnan, L'Afrique, p. VII (٢٥٣)
- Reinaud, Notice sarles Dictionnaires, p. 106 (٢٥٤)
- Fagnan, L'Afrique, p. VII (٢٥٥)
- Amari (Nallino), I, p. 53 - cf : Fagnan, L'Afrique, p. 211 - 212 (٢٥٦)

- Amari (- Nallino), I, p. 54 (٢٥٧)
- Brockelmann, GAL, I, p. 335, No 2; SBI, p. 572-573; (٢٥٨)
- Krachkovski, Ibn Mammäti, p. 1-3 انظر خاصة :
- Sarton, Introduction, II, p. 464 وأيضاً بحثه في نفس الموضوع ص ٨٩ - ٩٠
- Krachkovski, Ibn Mammati p. 3-4 (٢٥٩)
- وأيضاً بحثه في نفس الموضوع ص ٩٠ - ٩٦
- Björkman, Beiträge p. 33 (٢٦٠)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 573 (٢٦١)

الفصل الحادي عشر

جغرافيو القرن الثاني عشر بالشرق

311 إذا حدث ولم نلتق بمصنف جغرافي هام في شرقي العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر فإن هذه الظاهرة لا تعني إطلاقاً أن المصنفات الجغرافية كانت قليلة العدد أو تنتمي إلى نمط واحد . فهنا تقابلنا كما كان عليه الحال من قبل جميع الأنماط الأساسية ممثلة في الجغرافيا الفلكية التي تمس أحياناً الجغرافيا الوصفية ، وفي المعاجم الجغرافية سواء التي تعتمد على أساس لغوي أو أسس أخرى كالأنساب ، وأخيراً تأتي الرحلات . وإلى جانب اللغة العربية التي استثمرت بها تقاليد القرون السابقة نما أيضاً بالكثير من الحيوية الأدب الجغرافي باللغة الفارسية وظهر بها في هذا الصدد آثار تتميز بالكثير من الأصالة والإبداع .

وفي جوٍّ عربي خالص بالنسبة لذلك العصر يمكن أن نلاحظ ظاهرة طريفة ترتبط بمحيط حضاري مستقل بذاته ، مركزه خوارزم ومجاليه جميع بلاد ما وراء النهر . ويمكن تقصي آثار ابتداء هذه الظاهرة في تلك المنطقة بالذات إلى القرن العاشر ، أي في العصر السابق لعصر البيروني ؛ أما نهايتها فيمثلها الغزو المغولي ، أي بالتقريب تلك اللحظة التي كان يجمع فيها ياقوت مادة علمية ضخمة من مكتبات مرو من أجل معجميه المشهورين .

وبخوارزم وبلاد ما وراء النهر ترتبط معظم أسماء المؤلفين والمصنفات الذين سنتكلم عنهم في نطاق القرن الثاني عشر ، وقد لاحظنا أثناء الكلام على الترجمة الفارسية لكتاب ابن حوقل كيف ظهر الميل إلى ربط الجغرافيا الوصفية بالجغرافيا الرياضية في منتصف ذلك القرن ؛ ويمكننا أن نلاحظ الآن في مصنف لأحد أهالي خيوه وهو الخرقى^(١) محاولة مضادة لتقريب الجغرافيا الرياضية من الجغرافيا الوصفية . أما عن المؤلف نفسه فإن معلوماتنا تقتصر على القليل ، بل إن اسمه نفسه مجال لاختلاف كبير^(٢) . وتشير النسبة إلى صلته بمحلة صغيرة من أعمال مرو ، وكان مقرباً من بلاط شاهات خوارزم ومن المحتمل أنه كان فلكياً للبلاط ، وقد عاش معظم حياته بخيوه^(٣) وتوفي على ما يظهر في عام ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م^(٤) ، أما أرصاده الأساسية فترجع إلى عام ١١٣٢ م^(٥) .

ويحمل مصنفه الرئيسي طابعاً فلكياً ينعكس في العنوان نفسه وهو « منتهى الإدراك في تفسير الأفلاك » . ويجب أن يقتصر حكمنا عليه من مضمونه العام ومن المقتطفات المنقولة عنه ، إذ أن المعروف من مخطوطاته لم ينشر بعد ؛ ويرجع الفضل في دراستها لثالينو وقيدمان . والمصنف كان على ما يظهر

معروفاً في الشرق لمدة طويلة فحاجى خليفة يورد لنا تحليلاً موجزاً لاحتوياته يعتمد في أغلب الظن على رأى العين (de visu)^(٦)

وهو ينقسم إلى ثلاث « مقالات » رئيسية يدور الكلام في الأولى منها على تركيب الأفلاك وحركاتها ، وتعالج المقالة الثانية الكلام على شكل الأرض وتقسيمها إلى معمر وغير معمر وتحديد المواقع الجغرافية بحسب خطوط الطول والعرض ؛ أما الثالثة فتبحث في التقويم المختلفة وأشكال المجموعات النجمية^(٧) . وللفصل الثاني من المقالة الثانية الذى يعالج الكلام على البحار أهمية خاصة بالنسبة للجغرافيا الوصفية ، وهو معروف بأكمله في طبعة مستقلة وترجمة لاتينية بقلم نالينو^(٨) . وينضم هذا الفصل بطبيعته إلى ذلك التراث من الجغرافيا الفلكية الذى مر بنا في أحد الفصول السابقة وذلك أثناء إيراد ترجمة قطعة البتاني ؛ غير أن رسالة الخرقى لا تتفق معها تمام الاتفاق . ولا يخلو من طرافة أن نلاحظ أن الخرقى ينقل عدداً من رواياته عن الجيهانى بل يبدأ الفصل المشار إليه بالرجوع إليه^(٩) .

والخرقى في الواقع عالم نقالة وليس بباحث ولا يخلو من مغزى في هذا الصدد أنه أفرد فصلاً « لقبة الأرض »^(١٠) ؛ وقد لاحظ بارتولد في حالات معينة صلته الوثيقة ببطلميموس^(١١) . أما آراؤه في الفلك فهى استمرار لنظريات الخازم من القرن العاشر وابن الهيثم من القرن الحادى . عشر ونظراً لأن الأخيرين قد عرفا في أوروبا الوسيطة فقد ورد ذكر مصنف الخرقى في الرسائل اللاتينية القديمة^(١٢) . أما مصنفه الثانى الذى لا يقل انتشاراً عن الأول ، وذلك إذا بنينا حكمنا على عدد المخطوطات المعروفة لنا منه ، فيحمل عنوان « التبصير في علم الهيئة » وهو يرتبط بالمصنف الأول ارتباطاً وثيقاً وأشبه ما يكون بمقتطفات منه ولكنها تقتصر على الجانب الفلكى فقط مع إهمال الأجزاء المتعلقة بالجغرافيا الوصفية مثل الفصل الذى مر بنا ذكره عن البحار والذى يمكن أخذ فكرة عنه من ترجمة قيدمان لمقدمتى المقاتلين الأولى^(١٣) والثانية^(١٤) . أما بالنسبة لتطور الأدب الجغرافى فإن هذا المصنف الأخير أقل مساساً بالتأكيد بموضوع دراستنا من « منتهى الإدراك »

وإلى خيوه ينتسب أيضاً معاصر للخرقى هو الأديب العالم المشهور أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ هـ - ٥٣٨ هـ = ١٠٧٥ - ١١٤٤)^(١٥) ، وستقتصر كلامنا على معجمه الجغرافى فقط وإن كان لا يمثل أهمية ذات بال بالنسبة لشخصيته العامة . أما مكانته في الثقافة الإسلامية فتعتمد على شهرته كمفسر ممتاز على مذهب المعتزلة وكنهوى ولغوى ومؤلف لعدد من المصنفات الأدبية في النثر الفنى . وقد ولد وتوفى بخوارزم ، وبالرغم من أن إحدى ساقيه كانت خشبية فقد عرف بأسفاره الواسعة وأمضى أعواماً طويلة بمكة حتى لقب « جار الله » ؛ وقد رأى ابن بطوطة قبره بالجرجانية^(١٦) . وهو يمثل من ناحية تفكيره أنموذجاً طريفاً وفريداً لمؤلف نشط في مجال الحضارة العربية بينما يرجع نسبه إلى أصل غير عربى ؛ بل إنه يؤكد على الدوام في مقدمات كتبه قيمة اللغة العربية كأداة لتلك الحضارة .

وليس لمصنفه الجغرافى أية علاقة برحلاته بل يرتبط بدراساته وقراءاته ويحمل عنوان « كتاب الجبال والأماكن والمياه » ؛ وهو على هيئة معجم جغرافى من طراز معجم البكرى تقريباً . والزنجشرى وإن لم يكن على علم بهذا المعجم الأخير إلا أن مصادرها واحدة وهى معاجم لغويى القرن التاسع التى تبين مواقع الأماكن الجغرافية فى الجزيرة العربية مما ورد ذكره فى الأشعار وفى النثر العربى المبكر . والفرق الأساسى بين البكرى والزنجشرى هو أن الأول كان يستهدف فى الغالب الناحية الأدبية اللغوية بينما أولى الثانى اهتمامه إلى التفسير فجهد قبل كل شئ فى ضبط الأعلام الجغرافية الواردة فى السيرة النبوية والقرآن والحديث . 314

ولقد كانت زيارته لجزيرة العرب ذات قيمة كبرى فى اضطلاع بهذا العبد ، بل إن فكرة وضع مصنف من هذا النوع قد نشأت لديه هناك وشجعه عليها شريف مكة آنذاك ، وكان رجلاً مولعاً بالكتب وعلى معرفة جيدة بالحجاز فقد زار معظم مواضعه الهامة^(١٧) لذا فإن أكثر مادة الزنجشرى تفصيلاً هى المتعلقة بـجبال الحجاز وأوديته ومياهه ؛ والمؤلف يرجع فى معظم الحالات إلى رواية الأمير المذكور^(١٨) . وقد ترك هذا أثره على جميع الكتاب فالأعلام التى استوفيت فيه استيفاء تاماً هى مواضع الجزيرة العربية وحدها ، وأندر من ذلك بكثير تظهر مواضع فلسطين والشام والعراق ومصر ، وبصورة استثنائية إيران وماوراء النهر ؛ هذا بينما لا يرد أى ذكر للأندلس أو الهند . وباستثناء الحالة التى أشرنا إليها فإن جميع مصادر الزنجشرى تكاد تكون مصادر مكتوبة وهى تمثل فى جوهرها مصنفات اللغويين الذين عالجوا هذا الموضوع قبله^(١٩) .

بهذا تتحدد قيمة كتاب الزنجشرى بالنسبة لنا ولذلك فن العتب البحث فيه عن أية مواد تتعلق بمناطق قريبة من موطنه كخوزارم وآسيا الوسطى ، إذ أن اهتمامه فى الواقع قد اتجه إلى ناحية أخرى . ولدى مقارنته بالبكرى تبدو مادته أقل تفصيلاً ؛ و فقط من وقت لآخر تظهر لديه قراءات أفضل للأعلام الجغرافية . وقد عرف ياقوت كتابه وأثنى عليه^(٢٠) ، ولكن لا يخلو من مغزى أنه لم يضمه إلى مجموعة المصنفات المكرسة لجزيرة العرب وأنه قلما ينقل عنه^(٢١) . لهذا فليس غريباً ألا نلتقى به إلا نادراً حتى فى المراجع العلمية الحديثة بالرغم من وجود طبعة له لا بأس بها صدرت منذ عام ١٨٥٦ وقام بتحضيرها سالقردا دى غرافه Salverda de Grave تلميذ يينبول T. G. J. Juynboll^(٢٢) ؛ وقد زود هذا الأخير تلك الطبعة بتحليل دقيق لمادتها ؛ وبحسب رأيه فإن مصنف الزنجشرى لم يكمل وأن مؤلفه لم يصغه الصياغة النهائية^(٢٣) .

ولحسن الحظ لم يكن جميع مواطنى الزنجشرى قليلى الاهتمام بموطنهم مثله ، ويمثل طرف نقيض له فى هذا الصدد معاصره الأصغر منه سنّاً أبو سعد عبد الكريم السمعانى (٥٠٦ هـ - ٥٦٢ هـ = ١١١٣ - ١١٦٧)^(٢٤) من أهالى مرو ؛ وقد اشتهر فى الدوائر العملية الإسلامية كـمفسر وعالم بالحديث ولكن

شهرته الأساسية بالنسبة لنا هي كمؤرخ ، فقد أكمل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي وألف تاريخاً معتمداً لموطنه مرو . تواترت الأخبار أخيراً بالعثور على مخطوطته ونقل عنه ياقوت (٢٥) . ولمصنفه « كتاب الأنساب » علاقة مباشرة بالأدب الجغرافي بحيث يقدم لنا فرصة مواتية للتحدث عنه في هذا الصدد .

وقد ساعد الوسط الذي نشأ فيه السمعاني على تنمية ميوله العلمية فهو ينتمي إلى أسرة عربية استوطنت مرو منذ عهد بعيد وخرج منها عدد كبير من العلماء والفقهاء (٢٦) ؛ هذا وقد اشتهرت مرو بمكتباتها الحافلة بالكتب إلى عهد ياقوت . وتمكن السمعاني مبكراً من القيام بعدد من الرحلات في « طلب العلم » وأمضى فترات تختلف طولاً وقصراً في مراكز العلم القريبة من موطنه مثل بخارى ونيسابور وأصفهان ، أو النائية مثل بغداد وحلب ودمشق والمقدس بل وعاش وقتاً ما بالحجاز ؛ ويتراوح عدد العلماء الذين سمع منهم بين أربعة آلاف وسبعة آلاف ؛ ويستلفت النظر أيضاً العدد الكبير لمؤلفاته فالقائمة الموثوق بها تورد ما يقرب من خمسين مصنفاً معروفة لنا جميعها من أسمائها فقط (٢٧) باستثناء « كتاب الأنساب » المذكور .

وقد جعل السمعاني هدفه من هذا الكتاب وضع مؤلف في الأنساب التي اشتهرت بها شخصيات تاريخية في مجال أو آخر ؛ وترد فيه الأنساب مرتبة حسب حروف المعجم ؛ وإذا كان بعضها يرتفع إلى أسماء أعلام قبلية أو تاريخية فإن الغالبية العظمى منها ترتبط بأسماء جغرافية للنواحي والمدن والأماكن المختلفة . وبهذا يضحى مفهوماً لنا أن القيمة الكبرى التي ينالها الكتاب ليست من ناحية مادته التاريخية فقط بل والجغرافية كذلك . وترد فيه الأنساب مزودة بالشرح الكافي مع ضبط الأعلام الجغرافية والتعريف بها تعريفاً دقيقاً ، ويصحب كل ذلك تعريف مختصر بسير الشخصيات التاريخية وذكر مصنفات العلماء الخ . ولاشك أن السمعاني لم يكن أول من صنف في هذا الميدان فمن بين السابقين له (٢٨) يرد عادة اسم

الدارقطني (٢٩) في القرن العاشر وقد وضع مرجعاً في « أسماء التابعين » (٣٠) ، ثم ابن ماكولا في القرن 316 الحادي عشر وقد ألف في « أسماء الرجال » (٣١) ولعل أقربهم رحماً بالسمعاني من حيث الموضوع هو ابن القيسراني (توفي عام ٥٠٧ هـ = ١١١٣) (٣٢) الذي وضع مرجعاً في الأنساب المتشابهة طبع منذ عام ١٨٦٥ (٣٣) وأفاد السمعاني منه كثيراً . ومن هذا يتضح أن فكرة وضع مصنف من هذا الطراز لم تنشأ لأول مرة لديه ، غير أن المؤلفين الآخرين اختلفوا عنه من حيث أن هدفهم كان قبل كل شيء استيفاء ما يسمى « بعلم الرجال » (أي رواة الأحاديث النبوية) ؛ وقد وجد من أمثال هذه المصنفات عدد غفير ولكن فائدتها اقتصررت على مجالها فحسب ، لذا فليس غريباً أن يصفى النسيان ذبوله على من ذكرناهم من المؤلفين السابقين للسمعاني في خضم العدد الهائل للمؤلفين الذين كتبوا في هذا الموضوع وألا يحفل العلم الأوروبي بهم إلا في مجال ضيق يهم المتخصصين في أمثال تلك الموضوعات . ولم تكن فكرة السمعاني تحقيق أسماء الأشخاص بل توضيح أصل واشتقاق الأسماء التي نسبوا إليها ؛

وبذلك اتسع موضوعه بدرجة كبيرة خاصة في المحيط الجغرافي ، وفي هذا يتركز الاختلاف الجوهرى في المنهج بينه وبين الزمخشري . وتحتل مكاناً بارزاً من بين الأنساب التي عالجها أنساب إيران وما وراء النهر ؛ وهو يسوق أحياناً مادته إلى العصر الذى عاش فيه بل وكثيراً ما اقتصر علمنا ببعضها على روايته وحدها ، مثال هذا ما يورده تحت نسب الصينى . عن شخصيات مختلفة تحمل هذا الاسم وزارت الصين في أغراض التجارة أو العلم ؛ وهو يسوق في هذا الصدد تفاصيل قد تسمح أحياناً بإلقاء ضوء على مسائل تتصل بعلاقة الصين لا ببلاد ما وراء النهر وحدها بل حتى بمناطق نائية كالمغرب (٣٤) .

هذا وقد بدأ السمعاني في وضع كتابه في عام ٥٥٠ هـ = ١١٥٥ ولم يلبث أن نال الشهرة التي يستحقها وأصبح خلال نصف قرن من ذلك مصدراً من المصادر الأساسية لياقوت الذى كان يحمل له تقديراً عالياً (٣٥) .

وكما هو الحال دائماً فقد لاح الكتاب بالنسبة للأجيال التالية هائلاً ضخماً الحجم وفي حاجة إلى الإيجاز فاختصره في منتصف القرن الثالث عشر المؤرخ المشهور ابن الأثير بعنوان « الباب » (٣٦) ، واختصر هذا بدوره في القرن الخامس عشر عالم جم النشاط هو النيسوى وذلك تحت عنوان « لب الباب » . وهذه الكتب عرفت الدوائر العلمية الأوروبية بفضل طبعاتها الجزئية منذ السنوات الثلاثينات من القرن الماضى ؛ أما كتاب السمعاني نفسه فقد تأخر ظهوره رغمًا عن أهميته الكبرى إلى عام ١٩١٢ . وإخراج طبعة علمية مستوفاة لأثر ضخمة متعدد النواحي مثل « كتاب الأنساب » أمر ليس باليسير ولعل ناشري «سلسلة جب التذكارية» Gibb Memorial Series فعلوا خيراً حينما اكتفوا بنشر المخطوطة المحفوظة بالمتحف البريطانى على هيئة طبعة مصورة طبق الأصل (Facsimile) . ويجب ألا يغيب عن الذهن أن هذه المخطوطة ليست أفضل المخطوطات الموجودة وأن قراءتها تتطلب أحياناً غير قليل من العناية والمشقة وذلك لخطها الدقيق الذى تصعب قراءته في بعض المواضع . ولدينا بالاتحاد السوفيتى لحسن الحظ مخطوطة بمعهد الدراسات الشرقية جلبت من تركستان ويمكن على ضوءها تصحيح مخطوطة المتحف البريطانى ، وهى من ناحية القيمة أفضل من الطبعة المصورة رغمًا عن أن الاثنين ترتفعان إلى أصل واحد على ما يظهر (٣٧) ؛ وعلى نقيض المختصرات المتأخرة التي عملت للكتاب والتي فقدت إلى حد كبير قيمتها العلمية حالياً فإن « كتاب الأنساب » للسمعاني سيبقى على أغلب الاحتمال محتفظاً على الدوام بقيمته فيما يتعلق بالمسائل التاريخية ، والجغرافية المرتبطة ببلاد ما وراء النهر .

وأحد السابقين لياقوت مباشرة قد أفاد ياقوت كثيراً من مصنفه ولكن لا يمكن اعتباره عالماً على الإطلاق ، بل رحالة ، ورحالة ذا أهداف معينة ، وهو على الهوى (توفى عام ٦١٩ هـ = ١٢١٥) ، وكما تدل نسبته فأصله من هرات ولكنه ولد بالموصل وارتبطت حياته بالبلدان الغربية للعالم الإسلامى (٣٨) . وقد أمضى معظم حياته في التجوال حتى لقب « بالسائح » ، ولكن تجواله لم يكن في طلب العلم أسوة

بعدد من الجغرافيين المعروفين لنا بل في زيارة أضرحة الأولياء والمقامات الكثيرة التي سمع بها . وهذه التجولات تقص أنموذجاً حياً لتلك الرياضة الروحية التي سيطرت بمرور الزمن على دوائر عديدة والتي عرضها لنا بالكثير من المهارة جولدتسهر Goldziher^(٣٩) . وفي أواخر أيام حياته تمتع الهروي بنفوذ كبير لدى والي حلب وهو أحد أبناء صلاح الدين الأيوبي ، وشيد له الأمير مدرسة توفى بها ؛ وقد رأى قبره ابن خلكان^(٤٠) .

ونظراً لأنه اتخذ في تجواله مسوح صوفي متسول فقد استطاع أن يحصل على ما يقيم أوده في الطريق مستغلاً في ذلك أحياناً معرفته بالسحر وجميع ضروب الخاريق . ويبدو اهتمامه بعرض الدنيا أنه كتب اسمه أو نقشه في كل مكان زاره ، وقد أبصر ابن خلكان بعين رأسه أمثلة لذلك بعد نصف قرن من هذا^(٤١) . وعلى أية حال فقد كان الهروي كاتباً نقالة يرتبط اسمه ببعض المصنفات تارة من طراز « كتب الزيارات » 319 المعروفة لنا وهي أشبه بمرشد للحجاج ، وطوراً من طراز آخر معروف لنا أيضاً وهو طراز « العجائب » . وأشهر مصنفاته « كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات » الذي وإن لم يطبع إلى الآن* إلا أن الاقتباسات والترجمات العديدة منه تسمح بتكوين فكرة صحيحة عنه^(٤٢) . وتحيط بالكتاب ظاهرة فريدة هي أن المؤلف اعتمد على ذاكرته اعتماداً تاماً أثناء تدوينه له ، ذلك أن الجانب الأكبر من أوراق الهروي ومدوناته فقد أثناء كارثة حلت بسفينته قرب عكا في عام ١١٩٢ ؛ وهو يستدرك على نفسه أحياناً بقوله إن معلوماته عن بعض الأماكن التي لم يستطع زيارتها شخصياً قد أخذها من زاروها .

وقد بدأ الهروي تجواله من حلب فكانت الشام أولى الأقطار التي زارها ووصفها ، وقد حدث هذا بعد أعوام قليلة من زيارة ابن جبير . وأقام أثناء ١١٧٣ - ١١٧٤ ببيت المقدس تحت سلطان الصليبيين ، وهنا تظهر لنا جدوى اهتمامه بالنقوش فقد دون نقوشاً ذات قيمة تاريخية كانت بمسجد عمر واختفت بعد ذلك . وزار على مر الوقت أضرحة الأولياء وأماكن العبادة المعروفة بمصر وبلاد العرب والعرا وإيران والهند كما زار أيضاً أراضي الدولة البيزنطية والقسطنطينية في عهد الإمبراطور مانويل الأول من آل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠) وجرت له محادثة مع الإمبراطور كما يزعم . وفي صقلية سنحت له فرصة مراقبة ثوران بركان اتنا Etna في عام ١١٧٥ ؛ وهو وإن لم يزر الحبشة إلا أنه وصف الأماكن المشهورة بها عمن زاروا تلك البلاد .

وقد أسفر تحليل نقاط مختلفة من كتاب أنه لا يجب رفض مادة الهروي بحجة أنه رجل سهل التصديق لما يقال ومخادع ؛ وهذا هو موقف كاتب جغرافي واسع الاطلاع لا يخلو من الحذر مثل ياقوت . فهو رغمًا من أنه يشير إلى اسمه مرتين فقط^(٤٣) إلا أنه كما ثبت من البحث الذي قام به بلوخ Bloch قد رجع إليه فيما يقرب من ثمانين مرة أمكن تحديدها بدقة تامة . والواقع أن ما نقله ياقوت عن الهروي يفوق

* نشره المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٣ بمناية جانين سورديل تومين Janine Sourdel - Thomine . (المترجم)

هذا بكثير لأن بلوخ قصر بحثه على النقاط المتعلقة بالشام وفلسطين . وضوابط رأى ياقوت في أنه يمكن استخراج معلومات مفيدة من مصنف الهروى قد وكده العلم الأوروبي الحديث ، على الأقل فيما يتعلق بتلك الأقسام التي أخضعت لأبحاث مستقلة وهذا ينطبق على المادة الضخمة التي يوردها الهروى عن الصليبيين وفي وصفه للقسطنطينية^(٤٤) ولثوران بركان اتنا . ومن الطريف ملاحظة أنه رغمًا من سهولة التصديق لدى الهروى فإنه قد ذهب لمراقبة ثوران بركان اتنا ليتحقق بعينى رأسه من زعم أحد العلماء المحليين الذى ادعى أنه قد رأى السمندر (Salamandar) يقفز في اللهب دون أن يحترق . وقد تمكن الهروى من أن يثبت أن فوهة البركان هي التي كانت تقذف في الواقع بحجارة ملتهبة في اتجاه البحر^(٤٥) .

ومن المؤكد أن كلا من السمعاني والهروى ، رغمًا من اختلاف منهجهما ، كانا أستاذين كبيرين لياقوت ، أعنى بذلك أنه قد نقل عنهما كثيراً ؛ ويمكن أن نحكم إلى حد ما على درجة هذا النقل بفضل وجود المصنفات الأصلية بين أيدينا . وإلى جانب هذين المؤلفين نعرف أيضاً من القرن الثانى عشر ، وفي النصف الثانى منه بالذات ، عدداً من صغار المؤلفين السابقين لياقوت والذين تعتمد معرفتنا بهم في الواقع على مجرد ذكر ياقوت لأسمائهم . وهم جميعاً نجوم ليست من الدرجة الثانية فحسب بل الثالثة ، غير أن عددهم الكبير يقف دليلاً على الطابع المميز لذلك العصر وبرهاناً على أن ياقوت قد جهد في استيعاب جميع المادة السابقة له حتى تلك التي لم تتمتع بأهمية من المكانة الأولى . والسلسلة الطريفة لهؤلاء المؤلفين ممن ذكرهم ياقوت بالذات تساعدنا على إلقاء ضوء ساطع على شخصيته في الفصل القادم . وفي مقدمة معجمه التي يعطى فيها سرداً مفصلاً لمصادره يذكر ياقوت أنه قد رجع إلى كتاب أبى

الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندرى « توفي عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٥) بعنوان « فيما اختلف واختلف في أسماء البقاع » ، فهو بهذا إنما ينتمى إلى المصنفات من طراز « اختلف والمؤلف » المعروف لنا بما فيه الكفاية والذي كثر استعماله في ترتيب أسماء الأعلام في مختلف فروع الأدب ، أى ليس في الجغرافيا وودها بل في التاريخ وتاريخ الأدب الخ . ويقدر ياقوت هذا الكتاب تقديراً عالياً ويرى فيه « تأليف رجل ضابط قد أنفذ في تحصيله عمراً وأحسن فيه عيناً وأثراً »^(٤٦) ؛ ورغمًا من ذلك فقد اطلع عليه ياقوت في موجز لأبى موسى محمد بن عمر الأصفهاني^(٤٧) (توفي عام ٥٨١ هـ = ١١٨٥) الذى مر بنا شخصه في صدد آخر ، وهو من رواة الأحاديث المشهورين^(٤٨) وأهم من ذلك أنه وضع ذيلاً لمعجم الأنساب لابن القيسراني^(٤٩) . ويتضح لنا من هذا المثال أن اهتمام هذه الجماعة من العلماء كان موجهاً قبل كل شيء

إلى ما يسمى « بعلم الرجال » (أى رواة الأحاديث) . وإلى جانب هذا عرف ياقوت ملخصاً آخر لكتاب الإسكندرى عمله أبو بكر محمد بن موسى الخازمي^(٥٠) (توفي عام ٥٨٤ هـ = ١١٨٨) ، وهو كسابقه كان أيضاً من رواة الأحاديث^(٥١) ولا شك أن اتجاهه كان مشابهاً لاتجاه أولئك . وقد قدر ياقوت مصنفه تقديراً عالياً في بادئ الأمر ولكن عندما تعرف على مسودة أبى موسى تأكد لديه أن الخازمي

« قد اختلسه وادعاه واستجهل الرواة فرواه »^(٥٢) . ومن الممكن جداً أن يتصل بهذا المصنف مصنف آخر للخازمي محفوظ في مخطوطة باسراسبورج يبحث فيه « ما اتفق لفظه واختلف مسماه من الأمكنة المنسوب إليها نفر من الرواة والمواضع التي ذكرت في مغازي رسول الله »^(٥٣) .

وقد وجد صدق رأى ياقوت في هذه الحالة ناشره فستنفد فقد تمكن بفضل معاونة رايت Wright من أن يكشف بالمتحف البريطاني عن مخطوطة كتاب الإسكندري تحت عنوان يشير إلى النمط المعروف لنا جيداً وهو « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار والنواحي المذكورة في الأخبار والأشعار »^(٥٤) . ومن ثم فيجب أن نبصر فيه معجماً جغرافياً من طراز معاجم اللغة ورجال الحديث وضع خصيصاً لتوضيح « المؤتلف والمختلف » من الأسماء ، وهو هائل الحجم ويضم حسب تعداد فستنفد ألفين وتسعمائة وثمانية وثلاثين اسماً^(٥٥) . وإزاء انعدام المصادر اللازمة لإجراء مقارنة صحيحة فن العسير القول إلى أى واحدة من مسوداته الثلاث المعروفة لياقوت ترجع هذه المخطوطة ؛ غير أنه لدى مقابله بمثن ياقوت تبدو ظاهرة طريفة وهي أن جميع مادة رسالة الإسكندري قد ضمنها ياقوت في معجمه . ورغم أن المقطعات ترد تحت ثلاثة أسماء مختلفة إلا أنها تنطبق دائماً على مادة مخطوطة المتحف البريطاني^(٥٦) ويتجاوز عدد الحالات التي ينقل فيها ياقوت عنه الألفين^(٥٧) .

إن تفصيلنا الكلام على هذا الاتجاه في المصنفات الجغرافية للنصف الثاني من القرن الثاني عشر أمر هام جداً بالنسبة لنا ، لأنه يقف دليلاً على سعة اطلاع ياقوت المدهشة^(٥٨) من ناحية وبرهاناً 322 على النشاط الكبير في ميدان الجغرافيا لذلك العهد من ناحية أخرى . ومهما كان نوع الحكم الذي يصدره الإنسان على هذه المصنفات ، التي بالتأكيد لا يمكن مقارنتها بالآثار الكبرى لمدرسة البلخي - الاصطخرى - ابن حوقل ، إلا أنه توجد ثمة نقطة للتشابه بين الطرفين . ذلك أنه من المستحيل أن يتجاهل الإنسان أن أحد تلك المصنفات ، مهما كانت قيمته من الدرجة الثانية ، قد خضع لثلاث مسودات مختلفة في نطاق ثلاثين عاماً فقط . ونظراً لأن الكتاب مصنف عادي فإن هذه الحقيقة لا يمكن أن تكون ظاهرة استثنائية ، إذ تحملنا على الافتراض بأن النشاط العلمي قد استمر قدماً حتى ولو لم يتصف بالابتداع والأصالة .

ويمثل أهمية خاصة في القرن الثاني عشر الأدب الجغرافي باللغة الفارسية . وقد حدث أن بينا أكثر من مرة أن هذا الاتجاه يرتبط في تطوره ارتباطاً وثيقاً بالجغرافيا العربية وأنه في أى عرض هدفه الاستيعاب يجب فحصهما معاً جنباً إلى جنب . وقد حدث في بعض العهود أن قدم لنا الأدب الفارسي آثاراً أعظم بكثير من العربية ؛ وهو وإن رجع في مصادره إلى نفس المادة التي استقى منها الأدب العربي إلا أن تأثيره كان محدوداً لأن اللغة حالت دون انتشاره في الجزء الغربي من العالم الإسلامي فاقصر على المشرق وحده . وقد أتاحت لنا الفرصة لنبصر كيف أن المصنفات الأولى قد مرت في المشرق على تعديلات وتغييرات عديدة أو أصبحت أساساً ومصدراً للمصنفات المتأخرة . وبالطبع لم تنشأ أنماط جديدة أو أصيلة في الأدب

الجغرافي باللغة الفارسية ، وبذا يمكن أن توزع جميع الآثار المبرزة للقرن الثاني عشر على الأنماط المعروفة لنا. وأحد هذه المصنفات يذكرنا بمصنف ابن حوقل وإلى حد ما بمنهج وصف البلدان والمدن المختلفة كما تم تطبيقه في المغرب في «كتاب الاستبصار» الذي مر بنا الكلام عليه في الفصل السابق لهذا ، ذلكم هو كتاب «فارسنامه» لابن البلخي ، وهو أحد الآثار الأدبية القليلة التي تمخض عنها عهد سلاجقة فارس^(٥٩) . ولا نكاد نعلم شيئاً عن المؤلف نفسه ، غير أن اسمه يشير إلى انتماء أسرته إلى مركز من المراكز الثقافية القديمة في المشرق الذي ينتمي إليه أيضاً مؤسس المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية : وكان المؤلف «مستوفياً» (أشبه ما يكون برئيس حسابات) في عهد أحد السلاجقة^(٦٠) ، وهو الذي كلفه بوضع هذا المصنف الذي يمثل وصفاً تاريخياً جغرافياً مفصلاً لولاية فارس بإيران ؛ ويمكن إرجاع تاريخ تصنيفه إلى العشرة الأولى من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، وهي الفترة بين عامي ١١٠٦ و ١١١٦^(٦١) . والكتاب يبدأ بقسم تاريخي مفصل عن ملوك إيران قبل الإسلام^(٦٢) ؛ ورغماً من أن لوسترايج Le Strange ، وهو أول من لفت الأنظار إلى هذا الأثر^(٦٣) ، يتشكك في قيمة القسم التاريخي منه إلا أن نيكولسون Nicholson يعتقد أنه لا يخلو من بعض الأهمية بصفتها أقدم ما كتب نثراً باللغة الفارسية في تاريخ تلك الحقبة وأنه بالإضافة إلى هذا لا يعتمد على تاريخ حمزة الأصفهاني وحده كما ظن لوسترايج بل على عدد كبير من المصادر الأخرى^(٦٤) :

323

وقد أفرد فيه قسم ليس بالكبير لفتح العرب لفارس^(٦٥) ، ولكن يلي هذا القسم الجغرافي القيم الموجود في ترجمة علمية بقلم لوسترايج^(٦٦) . ومضمون هذا القسم يقرب إلى حد كبير من كتاب ابن حوقل في واحدة من مسوداته العديدة^(٦٧) . أما تبويب الكتاب فيتبع أيضاً النموذج المعروف لنا جيداً ، فبعد عرض قصير للتقسيم الإداري للولاية^(٦٨) يرد وصف لنواحيها المختلفة^(٦٩) وللطرق الرئيسية^(٧٠) ثم استطرادات مختلفة عن القبائل التي تقطن الولاية^(٧١) ، يلي هذا الكلام على الخراج^(٧٢) . وواضح من هذا أننا بإزاء تكملة واستمرار لأسلوب المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ولكن مع الاختصار على وصف ولاية واحدة .

وعلى ما يظهر فإن الكتاب لم يكتسب صيتاً واسعاً ، وهو معروف حتى الآن في مخطوطتين فقط وثيقتي الصلة ولكنهما مكنتا على أية حال من إخراج الترجمة التي ذكرناها للقسم الجغرافي وأيضاً الطبعة الكاملة للمتن^(٧٣) . أما في محيط الأدب الفارسي فلا شك أن المؤلف قد ترك أثراً كبيراً ، ففي القرن الرابع نقل عنه كثيراً حمد الله قزويني^(٧٤) ، وفي القرن الخامس عشر أفاد منه كثيراً حافظ آبرو^(٧٥) .

وبعهد آخر سلاجقة العراق طغرل الثاني (٥٧٣ هـ - ٥٩٠ هـ = ١١٧٧ - ١١٩٤) يرتبط مصنف جغرافي لأحمد طوسي يعكس نمطاً آخر في الجغرافيا^(٧٦) ، ذلكم هو أول كتاب باللغة الفارسية في الكوزموغرافيا^(٧٧) وهو يذكر بعض الشيء بالمصنف المعاصر له في المغرب للغرناطي ولكن يغلب

324

عليه طابع أكثر جدية فضلاً عن أن مادته أحفل بكثير من مادة الغرناطي^(٧٨). وعنوانه «عجائب المخلوقات»، بل وتبويبه في عشرة فصول («قانون وأركان»)^(٧٩) يكشف عن شبهه الشديد بمصنف زكريا القزويني الذي ظهر بعد قرن من ذلك^(٨٠). وكان تأليفه كما يجب أن يفترض من التاريخ الذي يسوقه المؤلف هو حوالى عام ١١٨٠^(٨١)؛ ويستند على محض خطأ التاريخ الذي يذكره حاجي خليفة (وهو عام ٥٥٥ هـ = ١١٦٠)^(٨٢)، وهو خطأ وجد طريقة إلى بعض المؤلفين الأوروبيين. أما عن المؤلف نفسه فلا نكاد نعلم شيئاً، ويرد اسمه في الغالب على أنه محمد بن محمود بن أحمد^(٨٣) ويلوح أن أصله من همدان، ودليل ذلك أشادته بتلك المدينة مما يفوق كثيراً ما كتبه عن طوس^(٨٤).

ودليل آخر على ارتباطه بوطنه استعماله الكثير لابن الفقيه وذلك في مسودة تشبه إلى حد كبير مخطوطة «مشهد»^(٨٥) المعروفة لنا. كذلك يكشف عن معرفة مباشرة كهذه بابن فضلان رغمًا من أنه ينقل روايته بالكثير من الخلط^(٨٦)؛ ومعروفة لديه أيضاً مذكرات أبي دلف. وكما هو الأمر في كثير من الأحيان مع جغرافيين العهود المتأخرة فإن المعلومات المتعلقة بالقرنين الحادى عشر والثاني عشر يسودها الكثير من الاضطراب لدى المقارنة بما عليه الحال مع العهد السابق لذلك الذى توجد عنه مصادر يمكن الاعتماد عليها أكثر^(٨٧).

والعدد الهائل لمخطوطات هذا المصنف الموجودة بأوروبا قد لفت النظر إليه، خاصة فيما يتعلق بتاريخ شعوب أوروبا الشرقية؛ وقد حاز قصب السبق في الكشف عن قيمته بالنسبة لهذا الموضوع المستشرق فون هامر Von Hammer الذى نقل عنه مقتطفات عديدة في مؤلفه الذى ظهر عام ١٨٢٥ عن «أصل الروس» Sur les Origines Russes^(٨٨). وقيمة هذه المقتطفات كما هو الأمر دائماً ليست عالية ولكنها لعبت دورها في البحث العلمى، ففي عهد فرين Frähn لم تكن توجد مخطوطة لكتاب طوسى بسان بطرسبرغ فاضطر إلى الاستعانة في بحثه المشهور عن ابن فضلان بما نقله هامر^(٨٩). و فقط بعد أعوام طويلة من ذلك تمكن دورن Dorn من الاستعانة بأشهر مخطوطة لطوسى بأوروبا وهى مخطوطة غوتا Gotha^(٩٠)، وذلك في أبحاثه عن بحر قزوين وسواحله. ويمتلك معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية في الوقت الحاضر مخطوطتين للكتاب لم تفحصا بعد فحوصاً كاملاً دقيقاً^(٩١).

وفي بعض مخطوطات طوسى، خاصة مخطوطة غوتا، توجد خارطات يبلغ عددها ستة في العادة، وهى لبحر قزوين والبحر الأبيض المتوسط وبلاد الجبال والسند والخليج الفارسى وبلاد العرب^(٩٢). ولعله من فحوصها يمكن الافتراض بأنها ذات علاقة ما «بأطلس الإسلام»؛ وقد لاحظ دورن عند نشره لخارطة بحر قزوين أنه مرسوم في الواقع على طريقة الاصطخرى^(٩٣). غير أن أفضل الخبراء قاطبة بالكارتوغرافيا العربية، وهو كونراد ميلر K. Miller الذى نشر جميع هذه الخارطات في أطلسه نقلاً عن مخطوطة غوتا^(٩٤) المذكورة قرر أن «خارطات طوسى فريدة في نوعها وغير عادية»^(٩٥)؛

وفى الواقع أن خارطتى الجبال وبحر قزوين فقط هما اللتان روعى فى تخطيطهما بعض العناية والدقة ، أما بقية الرسوم فتمثل فى الغالب مسودات وتخطيطات أولية .

وثمة مصنف فى الجغرافيا العامة باللغة الفارسية يسوقنا إلى عهد قريب من عهد المغول وهو كتاب « جهان نامه » لمحمد بن نجيب بكران الذى وضعه لآخر شاهات خوارزم إلا واحداً وهو السلطان محمد (٥٩٦ هـ = ٦١٧ هـ = ١٢٠٠ - ١٢٢٠)^(٩٦) . وهو محفوظ فى مخطوطتين وأصبح معروفاً لدينا بالذات لأنه يدخل ضمن المجموعة الشهيرة التى كان يمتلكها طومانسكى Tumanski والتى تضم أيضاً مخطوطة « حدود العالم » المجهولة المؤلف . وتحمل مخطوطة « جهان نامه » فى هذه المجموعة تاريخ ٦٦٣ هـ - ١٢٦٥^(٩٧) ، أى أنه قد تم نسخها بعد خمسين عاماً تقريباً من تأليف الكتاب* . ويرجع إلى طومانسكى نفسه الفضل فى التعريف بها لأول مرة وبشذرات منها ، ثم أضاف بارتولد مراراً إلى هذه الشذرات اعتماداً على المخطوطة الباريسية^(٩٨) . والكتاب يمثل مصنفاً من النوع العادى فى جغرافيا العالم موجزاً بعض الشيء مما قد يحمل على الاعتقاد بأن المقصود به ليس سوى تعليق على مصور جغرافى (خارطة) لم يصلنا^(٩٩) . غير أن بعض مادته عن آسيا الوسطى بالذات يمثل أهمية ما ؛ وقد لاحظ بارتولد فى وقته أنه يقدم تفاصيل قيمة عن جغرافيا ما وراء النهر وتاريخ القراخطاي^(١٠٠) ؛ وقد ضمنت منه فى الآونة الأخيرة شذرات فى مجموعة المواد الخاصة بتاريخ التركمان^(١٠١) . وبالرغم من أنه لا يمثل أهمية خاصة فى التاريخ العام لتطور الأدب الجغرافى فإن مصنف محمد بكران لم يُهْمَل على أية حال فى نطاق المحيط الفارسى لهذا 326 الأدب فرجع إليه فى القرن الخامس عشر حافظ آبرو^(١٠٢) ، وفى نهاية ذلك القرن يقدم لنا سعيد جرجانى موجزاً له فى القسم الثانى من كتابه الذى يحمل العنوان التقليدى « مسالك وممالك »^(١٠٣) .

ويوشك « جامع الحكايات ولوامع الروايات » لمحمد عوفى أن يكون أهم مصنف باللغة الفارسية بالنسبة للعصر السابق للغزو المغولى وذلك فيما يتعلق بمادته الجغرافية^(١٠٤) رغماً من أنه لم يقصد به الجغرافيا فى حد ذاتها . ويرجع وقت تأليفه إلى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر . وعوفى أصله من بخارى وكان يفخر بأن جده الأعلى هو عبد الرحمن بن عوف الصحابى الجليل^(١٠٥) ؛ غير أن شهرة عوفى ومكانته إنما تعتمدان على كونه مؤلفاً كبيراً باللغة الفارسية . ونال انتشاراً واسعاً مؤلف له باللغة الفارسية أيضاً يغلب عليه طابع التاريخ الأدبى هو « لباب الألباب » . وقد أمضى عوفى أيام صباه ببلاد ما وراء النهر خاصة بسمرقند ولكنه أقام أيضاً بخوارزم ونيسابور ؛ ونظراً لاضطراب الأحوال بموطنه وتوتر أخبار الغزو المغولى فقد هاجر عوفى إلى بلاط سلطان البنجاب ناصر الدين قباجه وبعد هلاكه عام ٦٢٥ = ١٢٢٨ على يد ايلتتمش سلطان دلهى (٦٠٧ هـ = ٦٣٣ - ١٢١٠ - ١٢٣٦) التحق عوفى ببلاط الأخير ، وهو أول

أمير هندي يعترف به رسمياً خلفاء بغداد بالرغم من أن هذا الاعتراف قد تم قبل قليل من زوال الخلافة العباسية على أيدي الغزاة المغول (١٠٦) .

ولمّا وزير ايلتتمش رفع عوفى مصنفه « جوامع الحكايات » الذى بدأ تأليفه قبل عام ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ وأتمه بعد عام ٦٣٣ هـ = ١٢٣٦ . ورغم أن متن الكتاب لم يطبع إلى الآن طبعة علمية* إلا أنه يمكن تكوين فكرة واضحة عنه ليس فقط من الشذرات المتفرقة المنقولة عنه أو من طابعه العام بل أيضاً بفضل البحث الوافى الذى كتبه باللغة الإنجليزية محمد نظام الدين وقدم فيه تحليلاً لا مثيل له لمضمون الكتاب يمتاز بالعمق والتفصيل (١٠٧) .

ومصنف عوفى ينتمى إلى ذلك الطراز من المجموعات الأدبية الذى انتشر بشكل خاص فى الأدب العربى ، أقصد مجموعة القصص التاريخية واليومية التى يقصد بها النصيحة والموعظة الحسنة وأحياناً الإمتاع . وهو يذكرنا من ناحية بكتاب التنوخى « الفرج بعد الشدة » الذى مر الكلام عليه ؛ ولاغرو فقد ترجم عوفى نفسه هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية حوالى عام ٦٢٠ هـ = ١٢٢٣ (١٠٨) ، بل إن بعض 327 قصصه يتكرر فى مجموعته هذه . ولا يخلو مصنف عوفى من درجة معينة من التناقض ولو أنه تناسق ذو طابع خارجى إلى حد كبير ، فهو ينقسم إلى أربعة أقسام يضم كل واحد منها خمسة وعشرين باباً ويختلف عدد الحكايات من باب إلى آخر . وبلغ عدد الحكايات وفقاً لتعداد نظام الدين ألفين ومائة وثلاث عشرة حكاية (١٠٩) . ويضم القسم الأول منه الحكايات عن حكمة الخالق ومعجزات الأنبياء والأولياء وتاريخ الملوك والخلفاء وسير مشاهير الرجال . أما الثانى فى بيان الأخلاق الحميدة والسيّر المرضية ، والثالث فى الأخلاق المذمومة ؛ أما الرابع فيرد فيه الكلام على الأحوال الغريبة وعجائب البحر والبر وطباع الحيوان وطرف وملح لمشاهير الناس . وهكذا كما هو الحال دائماً مع المجموعات الأدبية نبصر فى كتاب عوفى موضوعات شتى تتابع داخل الباب الواحد دون أى نظام ، فيقابلنا إلى جانب التاريخ الأدب والنصائح والأخلاق بل وحتى ، كما يقول سارطون ، الكوزموغرافيا وعلم الحيوان (١١٠) .

وكمية المادة الجغرافية فيه ليست بالمهملة ، بل وأحياناً ذات قيمة كبرى . فإلى جانب النقاط العديدة المنتشرة خلال الأقسام المختلفة للكتاب تفوز الجغرافيا بمعناها الواسع بالبابين السادس عشر والسابع عشر من القسم الرابع (١١١) وتبدو خلال ذلك محاولة ملحوظة لعرض المادة فى صورة منظمة . ويرسم لنا فيهما عوفى لوحة عامة للعالم كما يراه الجغرافيون ويزودنا بمعلومات عن بعض الشعوب التى تقطن « الأقاليم » المختلفة . ويبدأ الفصل السادس عشر بفدلة قصيرة فى الجغرافيا الطبيعية ، ويلى ذلك تقسيم العالم إلى سبعة « أقاليم » ؛ وفى هذا يتفق عوفى كثيراً أو قليلاً مع المسعودى من الجغرافيين السابقين والقزوينى والمدمشى من الجغرافيين اللاحقين . ويتلو هذا الكلام على الصين وعاصمتها القديمة وفنها وحضارتها ،

* ظهر الجزء الأول منه باعتناء الدكتور محمد معين ، وذلك ضمن منشورات جامعة طهران . (المترجم)

وتتفق بعض معطياته في هذا الصدد مع رواية أبي دلف المعروفة لنا . وتظفر بأهمية كبرى الروايات التالية لذلك عن القبائل التركية في أواسط آسيا وشمال شرقي أوروبا . ويبدأ الفصل السابع عشر بالجغرافيا التاريخية للروم أى الدولة البيزنطية مع وصف لنظامها العسكرى والإدارة البلدية والطقوس الدينية والعلم اليونانى فى آسيا الصغرى . ووصف جزيرة العرب الذى يلى هذا تصحبه حكايات عن حضارة العرب قبل الإسلام وعن حياتهم البدوية . أما روايته عن الهند فتقتصر على ملاحظات قصيرة عن انتشار السحر فيها وعن التنوع الكبير فى شعوبها وأديانها . ويلى هذا قسم عن الحبش وأخلاقهم وعاداتهم ، ويختتم هذا الفصل برواية مفصلة عن جزر بحر قزوين ومنطقة البلغار القريبة منه وقبائل أخرى ، وعن الرمال المتحركة وبلد النساء .

وكما يبصر من هذا السرد فالمعطيات الواقعية فى القسم الجغرافى تسير جنباً إلى جنب مع التفاصيل الأسطورية ؛ والمصنف فى مجموعه **يمثل أنموذجاً جيداً** لكتاب وضع من أجل المطالعة الأدبية ولكنه ينتهى بعض الشيء ناحية العجائب Mirabilia . ومجموع الروايات الصحيحة فيه خاصة المتعلقة بالتاريخ القديم لشعوب اتحادنا السوفيتى ليس بالضئيل ؛ ويجب أن نتذكر دائماً أن عوفى ، كما وضح ذلك لأول مرة بارتولد ، هو المؤلف الإسلامى الوحيد الذى يورد اسم الأمير فلاديمير Vladimir (١١٢) عند الحديث على اعتناق الروس للمسيحية . كذلك بين ماركفارت Markwart الأهمية الفريدة لروايات عوفى عن شعوب بلغار ويورا Youra وسكان شمال أوروبا (١١٣) ، كما لا تخلو من بعض الأهمية مادته عن قبائل شرق آسيا والقبائل التركية ؛ وقد أثبت بارتولد أنه أول كاتب فارسى يذكر الأويغور Uighur (١١٤) . بل وحتى فيما يتعلق بالشرق الأقصى توجد لديه نقاط لا تخلو من الأهمية فقد لفت شيفير Schefer الأنظار إلى قصته عن السادة العلويين الذين هربوا بأنفسهم من اضطهاد الأمويين إلى الصين واتخذوها موطناً لهم وأصبحوا بالتالى حلقة وصل بين الصين وبلاد الإسلام (١١٥) .

هذا التنوع فى المادة التى يرويها عوفى يقف دليلاً على العدد الهائل من المصادر التى رجع إليها واستقى منها ، وقد حلل لنا محمد نظام الدين (١١٦) بالكثير من المهارة نيفاً وأربعين منها مما أمكن إثباته دون ريب . أما فيما يتعلق بمادته الجغرافية على وجه الخصوص فإنه لن يتأتى تكوين فكرة عنها إلا إذا أفردت لذلك أبحاث ودراسات مستقلة . ويبدو جلياً فى الأقسام العامة للكتاب تأثير مصنفات كمصنفات الجاحظ (١١٧) والبيرونى (١١٨) ، كما أن عدد المراجع التاريخية التى استقى منها مادته كبير للغاية (١١٩) . غير أنه يقتصر فى الفصول الجغرافية على الإشارة الغامضة إلى « كتاب الطبائع » و« مسالك وممالك » (١٢٠) ؛ وإذا أمكننا أن نبصر فى الأول بالكثير من الصواب « طبائع الحيوان » للمرزوى (١٢١) من القرن الحادى عشر ، وقد مر عليه الكلام فى موضعه من الكتاب ، فإن القول بأن أى مصنف من نوع المسالك والممالك يقصد عوفى بالذات أمر عسير للغاية بإزاء العدد الضخم من المصنفات فى ذلك الباب . وكما هو

الأمر دائماً مع مصنفات القرنين الثاني عشر والثالث عشر فيوجد ما يبرر الافتراض بأنه قد استعمل آثار المؤسسين الأصليين لمدرسة القرن العاشر بصورة أقل مما استعمل مصنفات المتأخرين من هذه الجماعة : ومؤلف عوفى يعتبر بحق مصنفًا كلاسيكيًا في الأدب الفارسي عرفه جميع الكتاب المتأخرين تقريباً ، ونخص منهم بالذكر حمد الله قزويني وحافظ آبرو اللذين سنلتقي بهما فيما بعد . [هذا وقد ترجم « جوامع الحكايات » أكثر من مرة إلى التركية ، ومن ترجمه ابن عربشاه المشهور (١٢٢) (القرن الخامس عشر) كما رجع إليه كمصدر عام عدد كبير من البحاثة المعاصرين في مختلف الميادين (١٢٣) . وهو هام بالنسبة لنا لأنه يبين مدى اتساع أفق المعلومات الجغرافية بين غير المتخصصين من أهل الأدب في بداية القرن الثالث عشر ، أى قبل قليل من الغزو المغولى .

ونظرة عامة إلى القرن الثاني عشر بالشرق تبين لنا أنه لم يأت في الواقع بأية أنماط جديدة أو آثار كبرى كما حدث في الماضى ، غير أن هذا بالتأكيد لا يعنى أنه لم تظهر فيه آثار لاتزال محتفظة بأهميتها العلمية إلى أيامنا هذه ، إذ يكفى في هذا الصدد الإشارة ولو إلى السمعاني وحده ؛ وغير عدد تلك المصنفات التى لم تستخرج منها بعد المواد التى تخص كل فرع من فروع العلوم . كما أن هذا العصر هو أول عصر تكتسب فيه المصنفات الفارسية أهمية أكثر من ذى قبل بل وتتمتع أحياناً بدرجة عالية من الأصالة . ولكن أن يُستنتج من هذا أن الأدب الفارسي قد تفوق على الأدب العربى في ذلك العصر ، على الأقل في محيط الجغرافيا كما حدث بالتالى في محيط التاريخ ، هو أمر سابق لأوانه حقاً . بل على العكس من هذا يقدم لنا القرن التالى لهذا عدداً من المصنفات الكبرى ، إن ليس في أنماط جديدة فعلى الأقل بأهداف جديدة : ويشغل المكانة الأولى بينها دون منازع سواء من ناحية الأسبقية الزمنية أو القيمة الذاتية مؤلف ياقوت الذى يقدم لنا جماع ما عرف في هذا الميدان في الحقبة التاريخية السابقة للغزو المغولى ، ويحتل مكانة رفيعة لا مثيل لها سواء في محيط الرحلات أو الجغرافيا بفروعها الفلكية واللغوية والوصفية :

حواشي الفصل الحادي عشر

- Brockelmann, GAL, I, p. 473, No 4; SBI, p. 863 — Kramers, EI, EB, p. 69 (١)
- Wiedemann, Al-Kharaki, p. 1027 — Sartori, Introduction, II, p. 204-205.
- Sartori, Introduction II, p. 205 عن مقالات فيدمان راجع :
- Wiedemann, Beiträge, LXX, p. 203 — Sartori, Introduction, II, p. 204 (٢)
- Wiedemann, Beiträge, LXX, p. 204 (٣)
- Kramers, EI, EB, p. 69 — Brockelmann, GAL, SBI, , p. 863 (٤)
- Nallino, Battāni, I, p. LXVI LXVII (٥)
- (٦) حاجي خليفة ، الجزء السادس ، ص ١٧٠ ، رقم ١٢١٢٤
- Sartori, Introduction, II, p. 205 (٧)
- Nallino. Battāni, I, p. 169-172 (نص) p. 173-175 (ترجمة) (٨)
- Ferrand, Relations, I, p. 170-171 راجع أيضا فيران :
- (٩) راجع : حدود العالم ، ص ٢٨
- Ferrand, Notes, p. 17-20 (١٠)
- (١١) حدود العالم ، ص ٧
- Wiedemann, Al-Kharaki, p. 1027 — Sartori, Introduction, II p. 205 (١٢)
- Wiedemann, Beiträge, LXX, p. 205-209 (١٣)
- (١٤) شرحه ص ٢٠٩ - ٢١١
- Brockelmann, GAL, I, p. 289-293, No 12; SBI, p. 507-513 — Brockelmann, (١٥)
- EI, IV, p. 1305 — 1307 — Sartori, Introduction, II, p. 271-272 — Re naud,
- وأيضا بحثه : Introduction, p. CV-CVI; Notice sur les dictionnaires, p. 78-82
- (١٦) ابن بطوطة ، الجزء الثالث ، ص ٦
- (١٧) لينبول في كتاب : Salverda, p. 26-28
- (١٨) شرحه ، ص ١٤ - ١٨
- (١٩) شرحه ، ص ١٨
- (٢٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ : له كتاب لطيف في ذلك .
- Heer, p. 30, I — Salverda, p. 8 (٢١)
- Salverda (٢٢)

- (٢٣) شرحه ، ص ٩
- Brockelmann, GAL, I, p. 329 - 330 No 2; SBI, p. 564 - 565 — Sarton, (٢٤)
Introduction, II, p. 444 - 445 — Margoliouth, Al-Sam'ani, المقدمة p. 1 - 5
Bartold, Turkestan, II, p. 35 - 36 — Beliaev, MITT, p. 33 - 34 — Reinaud,
Introduction, p. CX - CXI.
- Heer, p. 39, b (٢٥)
- (٢٦) عن نسب السمعاني راجع : Margoliouth, Al-Sam'ani, p. 5
- (٢٧) فهرست مصنفات السمعاني ، شرحه ص ٦
- Reinaud, Introduction, p. CVIII — CIX (٢٨)
- Brockelmann, GAL, I, p. 165, No 12 — Heffening, Al-Darakutni, p. 49-50 (٢٩)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 275 No 12 (٣٠)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 602, No 4 (٣١)
- Brockelmann, GAL, p. 355 - 356, No 8; SBI, p. 603 (٣٢)
- De Jong, Kitab al - ansab (٣٣)
- Schefer, Noice, p. 11 (٣٤) (ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ، ص ٤٤٤ - ٤٤٥ =)
- Heer, p. 39, note 5. (٣٥) (فهرس فستفله غير تام : المعجم . الجزء السادس)
- (٣٦) اسمه الكامل : « كتاب اللباب في تهذيب الأنساب »
- Beliaev, MITT, p. 34 (٣٧)
- Reinaud, Introduction, p. CXXVII — CXXIX — Brockelmann, GAL, I, p. 478, (٣٨)
No 8, SBI, p. 879 — Sarton, Introduction, II, p. 413 - 414 — Amari,
(Nallino) I, p. 51 - 52, 199; II, p. 500 — Mednikov, Palestina. Translation,
p. 948 - 966 — Schefer, Archives p. 587 - 609 — Bloch.
- Goldziher, Muham. Studien, II, p. 318 (٣٩)
- Bloch, p. 14 (٤٠)
- (٤١) شرحه ، ص ١٣
- (٤٢) راجع : حاجي خليفة ، الجزء الأول ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ ، رقم ٧٥٠
- Bloch, p. 12 (٤٣)
- Hartmann, DI, XIX, p. 296 - 298 (٤٤)
- Amari Bibl. ar - Sic., I p. 136 — Amari (Nallino) II, p. 505 (٤٥)
- (٤٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨ .
- (٤٧) شرحه

- (٤٨) – Brockelmann, GAL, I, p. 365-366, No. 11; SBI, p. 625
- (٤٩) المتن ص ١٦٧ - ٢٢٤ – De Jong, Kitab al-ansab, p. XIV-XVIII;
- (٥٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ص ٨
- (٥١) – Brockelmann, GAL, I , p, 366, No 12; SBI, p. 605
- (٥٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨ - ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ص ٣٢ - ٣٣
- (٥٣) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 605, No 13, 3
- (٥٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ، ص ٣٣ . غير موجود لبروكلمان .
Catalogus, II, p. 608, No 811 : راجع
- (٥٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ، ص ٣٣ - الفهرست ص ٣٤ - ٤٥
- (٥٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ، ص ٣٤ .
- (٥٧) – Mednikov, Palestina, II, 2 p. 969, note 1
- (٥٨) راجع : Heer, p 19 No 1
- (٥٩) – Kramers, El, EB, p. 69-70
- (٦٠) – Nicholson, The Farsnama, p. X
- (٦١) – Sartou, Introduction, II, p. 221
- (٦٢) – Nicholson, Farsnama p. 8-113
- (٦٣) – Le Strange, Description of The Province of Fars, p. 4-5
- (٦٤) – Nicholson, The Farsnama, p. XXII-XXIV
- (٦٥) شرحه ، ص ١١٣ - ١١٩
- (٦٦) – Le Strange, Description of The Province of Fars, p. 17-30, 311-339, 865-889
- (٦٧) – Kramers, El, EB, p. 69-70
- (٦٨) – Nicholson, Farsnama, p. 119-120
- (٦٩) شرحه ص ١٢١ - ١٦٠
- (٧٠) شرحه ص ١٦٠ - ١٤٦
- (٧١) شرحه ص ١٦٤ - ١٧٠
- (٧٢) شرحه ص ١٧٠ - ١٧٢
- (٧٣) شرحه
- (٧٤) – Le Strange, Description of The Province of Fars, p. 1-2 — Sartou, Introduction, II, p. 221

- Le Strange, شرحه , p. 3 (٧٥)
- Sarton, Introduction II, p. 413 (٧٦)
- Ruska, GZ, p. 596 (٧٧)
- Kramers, El, EB, p. 69 (٧٨)
- Rosen, Coll, Scient., III, p. 144 (٧٩)
- Kramers, El, EB, p. 69 (٨٠)
- Ruska, GZ, شرحه (٨١)
- (٨٢) حاجى خليفة ، الجزء الرابع ، ص ١٨٨ ، رقم ٨٠٧١
- Rosen, Coll. Scient., III, p. 144 (٨٣) (يتشكك في صحة الإسم)
- N. D. Miklukho - Maklai p. 186 - 188 (٨٤) شرحه ص ١٤٥ . أثبت الإسم الحقيقي :
- Beliaev, MTT, p. 20 (٨٥)
- Kovalevski, p. 42 (٨٦)
- Volin, Zap. IVAN, VI, p. 79 (٨٧)
- Hammer, Sur Les orig. russes, p. 32 - 39 (٨٨) المتن ص ٩٦ - ١٠٢
- Frahn, Ibn Fozlan, p. LIX (٨٩)
- Dorn, Auszüge, Mél. As., VI, p. 364 - 381 (٩٠)
- Kovalevski, p. 42 (٩١)
- Sarton, Introduction, II, p. 413] (٩٢)
- Dorn, Auszüge, Mél. As., VI, p. 365 (٩٣)
- Miller, III/IV, No V, Tabl 12, No 5 (The Mediterranean); No I, Tabl. 21, (٩٤)
- No 10 (Arabia); No II, Tabl. 22, No II (Persian Sea); No XII, Tabl 36
- No 13 (Sind); No XIV, Tabl. 41, No 6 (Djibal) ; No XVI, Tabl, 47,
- No 6 (Caspian Sea)
- Miller, I, I, p. 21 (٩٥)
- Kramers, El, EB, p. 70 (٩٦)
- (٩٧) حدود العالم ، p. VII (يوجد خطأ في التاريخ الميلادى)
- Tumanski ZVO IX, p. 302 - 303 --- Same, ZVO, X, p. 124 (٩٨)
- Romaskevich, Djehan - name, p. 49 (٩٩)
- Barthold, Turkestan, p. 36 - 37 (١٠٠)
- MTT, I, p. 349 - 350 (١٠١)
- Tumanski ZVO, X, p. 124, note I (Bartold) (١٠٢)

- Romaskevich, Djehan - Name, p. 49 (١٠٣)
- Browne, Literary History of Persia, II, p. 477 - 479 — Sarton, Introduction. (١٠٤)
II, p. 602 - Krymski, Istoria Persii, II, p. 22 - 25 — Krymski, Istoria Persii,
(Ukranian) I, p. 11, No 25
- Houtsma, EI, I, p. 57 — ٦٥٢ = الهجرة (١٠٥)
- Awfi, EI, I, p. 537 - 538 — Ilututish, EI, II, p. 501 (١٠٦)
- (١٠٧) محمد نظام الدين
- (١٠٨) شرحه ص ١٤ - ١٨ ، ٩٤
- (١٠٩) شرحه ، ص ١٩ ، ١٤٠ - ٢٦١
- Sarton, Introduction, II, p. 602 (١١٠)
- (١١١) تحليل للمحتويات لدى محمد نظام الدين ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ؛ وبالتفصيل في نفس المرجع
ص ٢٤٧ - ٢٤٩
- Bartold, ZVO, IX, p. 262 - 267; CB, I, p. 39 - 50 (١١٢) راجع أيضاً :
- Markawrt, Bericht p. 261 - 334 (١١٣)
- Barthold, Turkestan. p. 36 (١١٤)
- Schefer, Nolice, p. 3 - 4 — Muhammad Nizamuddin, p. 247 (١١٥)
- Muhammad Nizamuddin, p. 35 103 (١١٦)
- (١١٧) شرحه ، ص ٩٦ - ٩٩ ، رقم ٣٤
- (١١٨) شرحه ، ص ٣٧ ، رقم ١
- (١١٩) شرحه ، حسب القائمة صفحات ٣٥ - ٣٦ ، رقم ٣ - ٤ ، ٨ - ١٧ ، ٣٠ ، ٣٦
- (١٢٠) شرحه ص ١٠٢
- (١٢١) راجع : شرحه ص ٨٨ - ٨٩ ، رقم ٢٩
- (١٢٢) شرحه ص ٣١
- (١٢٣) راجع الأبحاث الهامة إلى عام ١٩٢٩ لدى : Muhammad Nizamuddin, p. 31 - 32

الفصل الثاني عشر

ياقوت ومؤلفو النصف الأول للقرن الثالث عشر

يعتبر الغزو المغولي حداً فاصلاً في تاريخ القسم الشرقي من العالم العربي ؛ فابتداء من تلك اللحظة 330 أخذت مراكز الحضارة الإسلامية تتزحزح بسرعة نحو الغرب ولم تلبث بغداد التي كانت حتى تلك اللحظة محتفظة بمكانتها كمركز علمي رغباً عن التدهور السياسي للخلافة العباسية ، أقول لم تلبث بغداد أن تنازلت عن ذلك المركز لحلب ودمشق ثم بصورة نهائية للقاهرة . ومن الممكن عمل خلاصة وافية لكل فرع من فروع العلوم في العالم الإسلامي في منتصف القرن الثالث عشر ، غير أنه لم يحدث في الواقع أن اهتم العلماء لذلك باستثناء ياقوت ؛ فهو قد أحس إحساساً صادقاً بالحاجة إلى مرجع عام يجمع شتات المادة الجغرافية المعروفة لعصره . وقد حدث فعلاً أن هلك جزء كبير من المادة التي كانت تحت تصرفه في خضم المصيبة الكبرى التي اجتاحت العالم الإسلامي .

وأهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة ، فهو فوق ذلك يمثل آخر انعكاس لتلك الوحدة المثالية للعالم الإسلامي تحت حكم العباسيين ، رغباً من أنها كانت في واقع الأحوال أثراً من آثار الماضي . وهو أوسع وأهم ، بل وأكاد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للعصور الوسطى^(١) . ولتكوين فكرة عن حجمه يكفي أن نذكر أن المتن المطبوع يضم ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعاً وتسعين صفحة . وهو جامع للجغرافيا في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضاً ، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والاثنولوجيا (Ethnology علم الأجناس والفصائل البشرية) والأدب الشعبي (Folklore) والأدب الفني وذلك في القرون الستة الأولى للهجرة . ويقرب عدد الشواهد الشعرية وحدها فيه ، وذلك بين صغيرها وكبيرها ، من الخمسة آلاف^(٢) استطاع الناشر أن يحقق منها ما يقرب من ثلاثة آلاف من المصادر الأخرى .

ورغباً من القيمة الأدبية الكبرى لهذا الأثر فقد تعرف عليه العلم الأوروبي بعد مدة طويلة من تعرفه على الإدريسي وأبي الفدا خاصة ، وهذا الأخير هو الذي استمرت له السيطرة دون انقطاع إلى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً . حقاً إن اسم ياقوت قد ورد ذكره من وقت لآخر لدى علماء مدرسة الاستشراق الهولندية مثل غوليوس Golius في طبعته للفرغاني (١٦٦٩) أو غرونوفوس Gronovius (١٧٠٣) الذي لفت إليه الأنظار في بحثه عن « نشأة » وتطور وفائدة الجغرافيا^(٣) 332

الخاص بالشام من جغرافيا ابن الوردى* (١٧٧٦) (٤). بيد أن الاهتمام بمؤلف ياقوت قد انبعث في القرن التاسع عشر فقط عندما تسربت مخطوطاته إلى أوروبا بالتدريج ؛ ويرجع الفضل في هذا قبل كل شيء إلى اثنين من علماء الشمال هما راسموسن Rasmussen (١٨١٤) وفرين Frähn (١٨٢٣) اللذان كانا أول من نقل عن المعجم القطعة المشهورة لابن فضلان ؛ وكان فرين بالذات هو أول من كتب عن شخص ياقوت وعرف به ، وقد احتفظ بحته كما أثبت روزن بقيمته إلى أوائل القرن العشرين ؛ ومن قبل روزن حاول باربييه دي مينار Barbier de Meynard أن يبخص من تقييم فرين (٥) لشخصية ياقوت العلمية ولكن الخطوات التي تمت بالتالي في دراسة الموضوع أثبتت خطأ رأيه ، ولعله يمكن توضيح موقفه التشككي بأن المتن الكامل للمعجم لم ير النور إلا في عام ١٨٦٠ . وقد وكدت الأيام صدق رأى فرين ، بل ورأى سنكوفسكى أيضاً ؛ والأخير عندما نشر ترجمته (٦) لرواية ياقوت عن تفليس (١٨٣٨) (٧) وصفه بأنه « كاتب مدقق مجتهد ندين له بحفظ آثار قيمة في تاريخ وجغرافيا العصور الوسطى (٨) وهو قد أبدى الكثير من الغيرة والحس في دراسة الأوضاع الجغرافية والاثنوغرافية والسياسية لعصره (٩) » . أما عملية نشر المصنف بأجمعه في عهد فرين فقد كانت أمراً بعيد المنال إذ حال دون ذلك ليس فقط العيوب الموجودة بالمخطوطات الثلاث المعروفة آنذاك (كوبنهاغن وبطرسبرغ وأوكسفورد) بل أيضاً الحجم الضخم للكتاب . ومرت فترة نصف قرن تقريباً قبل أن يفكر أحد في تنفيذ ذلك المشروع ، ولكن تم في خلالها فحص مخطوطات أخرى للكتاب (باريس وبرلين ولندن) (١٠) وطبع مصنفين آخرين لياقوت أقل حجباً من المعجم . وفي الواقع أن طبع أحد هذين المصنفين الصغيرين ، الذي كانت الفكرة الأساسية من تأليفه أن يكون بمثابة مدخل للمعجم الكبير ، كان أشبه بالقوة الدافعة التي ساقطت إلى التفكير في طبع المعجم نفسه (١١) .

وكان طبع المعجم في ستة أجزاء في الفترة بين عامي ١٨٦٦ و ١٨٧٣ إحدى الخدمات الجليلة ، بل وربما كانت أجملها ، التي طوق بها فرديناند فستنفلد عنق الاستعراب العالمي . وهذه الطبعة وإن وقفت على مستوى عال بالنسبة لحاجة العصر إلا أنها لا تستوفي تماماً المطالب العلمية لعصرنا بالنسبة لما يجب أن يكون عليه نشر النصوص وتحقيقها ، ورغم ذلك فإنها لا يبخص من قيمتها تلك الاعتبارات والفروض التي أعرب عنها فليشر Fleischer ، أبرع ناقد للنصوص في وقته ، والتي ظهرت في الجزء الخامس للمعجم ؛ 333 كذلك لا تخلو من أهمية كبيرة في هذا الصدد الفهارس المختلفة التي أفرد لها الجزء السادس . ولم ينكص فستنفلد أمام الجهد الهائل الذي تطلبه أحياناً تحقيق أسماء الشخصيات التاريخية التي ذكرها ياقوت ، مما استدعى منه الرجوع إلى عدد هائل من المصادر الأدبية . ولا تزال هذه الطبعة إلى الآن من أهم المراجع

* كان سهياً غير مقصود من المؤلف (Lapsus Calami) حين وضع اسم أبي الفدا بدلا من اسم ابن الوردى . (المترجم)

لجميع المشتغلين بالدراسات العربية ، ولم يأت بجديد لإعادة طبع المتن بالقاهرة في عام ١٣٢٣ هـ - ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦^(١٣) ، رغمًا من أن الناشر كانت لديه فكرة عالية عن مجهوده بالنسبة لطبعة فستنفلد^(١٣) الذي لم يفعل شيئاً في الواقع سوى أن أعادها بحذافيرها . ويمكن بالطبع أن نقابلنا أحياناً في هذه الطبعة الثانية قراءات أفضل ، ولكن هذا يحدث من قبيل الصدفة البحتة^(١٤) ، وأطرف من ذلك أن طبعة القاهرة هذه قد أضيف إليها جزآن بعنوان «منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان»^(١٥) يستدرك فيما الناشر ، وهو أمين الخانجي المعروف ، على مادة معجم البلدان . وقد تمس هذه الاستدراكات أحياناً نقاطاً عاجلها ياقوت فيورد الناشر المعلومات المتأخرة في ذلك ، ولكنه في أغلب الأحيان يقتصر كلامه على بلاد ومدن العالم الحديث بأوروبا وأمريكا وأستراليا . وهذه الإضافة وإن لم تمثل قيمة ما من وجهة النظر العلمية إلا أنها برهان طريف على استمرار الأنماط القديمة للمعاجم الجغرافية التقليدية بين الأوساط العربية المثقفة إلى بداية القرن العشرين*.

وقد كان مجهود فستنفلد بمثابة حجر الزاوية في دراسة شخصية ياقوت نفسه ودراسة المادة التي تحتويها دفناً مصنفه . ولعله لم يتمتع جغرافي عربي بعدد من الدراسات مثل الذي أفرد لياقوت ، بل إن الناشر نفسه قد حاول في مقالات منفردة إلقاء ضوء على سيرة حياته وعلى الأخص رحلاته . وبمرور الزمن ظهرت دراسات عن مصادره — وبالذات عن المادة التاريخية الجغرافية التي اشتمل عليها كتابه من ناحية عامة^(١٦) ، وكذلك فيما يختص بالمؤلفين الذين نقل عنهم^(١٧) . ونتيجة لظهور طبعة كاملة للمعجم فقد أصبح في حيز الإمكان تكوين فكرة صحيحة عن عدد كبير من المؤلفات التي رجع إليها والتي لم تصبح في متناول الأيدي إلا بعد ذلك بوقت طويل ؛ ويصدق هذا بالذات على مصنفات ابن الكلبي وابن فضلان وأبي دلف وابن بطلان وعدد آخر من المؤلفين ، فلا غرو أن نلتقي باسم ياقوت في كتابنا هذا أكثر من اسم أى جغرافي آخر كمصدر عن المؤلفين السابقين . هذا وقد أخضعت المادة الجغرافية 334 التي جمعها ياقوت لدراسات مختلفة بحسب كل قطر أو عصر ؛ فعروفة لنا محاولة باربييه دي مينار في جمع وتنسيق مادته عن إيران ؛ كما توجد دراسة عن انعكاس صدى الحروب الصليبية في المعجم ؛ بل ويوجد فهرس منظم خاص بالموضوعات الأدبية والشعبية (الفولكلورية Folklore) والاثنوغرافية التي يعالجها ياقوت مع سرد أسماء المراجع التي يستقى منها . وفي عام ١٨٩٠ حلل مدنيكوف Mednikov المعجم تحليلًا عامًا في محاضرة له لم تطبع بالتالي^(١٨) ، كما بين طريقة تناول ياقوت لمصادره وكيف كان منهجه في نقد النصوص ؛ كذلك لا تزال تحتفظ ببعض أهميتها إلى أيامنا هذه آراء روزن حول هذا الموضوع . من كل هذا يتضح لنا أن المجال قد هيئ لدراسة وافية عن ياقوت ، وأنه يستحق فعلاً مثل هذه الدراسة . وبالنسبة لموضوعنا فإن سيرة حياة ياقوت ليست بأقل أهمية من مصنفه ، وهي برهان آخر على سعة الأفق والعبقرية التي تميزت بها الشخصيات العلمية التي شادت بمصنفاتها الصرح الهائل للحضارة العربية .

* ظهرت أخيراً بيروت طبعة ثالثة للمعجم ؛ وهي أيضاً بدورها لم تأت بجديد . (المترجم)

واسم ياقوت يشير إلى أنه كان في الأصل عبداً رقيقاً ؛ وقد جرت العادة بتسمية الأرقاء بأسماء الحجارة الكريمة والطيب كزمرد وكافور الخ . وقد حاول ياقوت فيما بعد استبدال اسمه باسم مقارب له في اللفظ وهو يعقوب ولكن ثبت عليه ، سواء بين معاصريه أو لدى الأجيال التالية أو في الدوائر العلمية ، ذلك الاسم الذي كان يطلق عادة كما ذكرنا على الأرقاء . أما نسبته وهي الرومي فدليل على أن أصله من بلاد الدولة البيزنطية وربما كان إغريقى الجنس . ونظراً لأن أباه كان غير معروف فقد تسمى بابن عبد الله كما جرت العادة في مثل هذه الأحوال . وجميع هذه الأسماء كانت واسعة الانتشار وتسمى بها عدد كبير من الموالى من أصل رومي ؛ وياقوت نفسه يذكر في معجمه الأدبي اثنين من معاصريه كانا يشاركانه اسمه مشاركة تامة ، أحدهما أبو الدرياقوت بن عبد الله الرومي الذى عُرف كشاعر وأديب وتوفى عام ٦٢٢ هـ = ١٢٢٥ (١٩) ، الآخر ياقوت بن عبد الله الرومي الذى عاش بالموصل واشتهر لا كأديب ونحوى فحسب بل وكخطاط أيضاً من مدرسة ابن البواب المشهور ؛ وقد قابله مؤلفنا بالموصل عام ٦١٣ هـ = ١٢١٦ وتوفى بعد خمسة أعوام من ذلك في عام ٦١٨ هـ = ١٢٢١ (٢٠) .

ويعرف ياقوت أيضاً باسم الحموى نسبة إلى التاجر الذى اشتراه وهو غلام ، وكان من أهل حماة . وإجماع الآراء أن ياقوت ولد عام ٥٧٥ هـ = ١١٧٩ ، ولم يكن يفهم لغته الأصلية أو على الأقل لم يُجِدْها ؛ وقد أصبحت العربية لغته القومية **¶** ولكن يلوح أنه بالنسبة لأصله الأجنبى فإنه لم يبلغ درجة عالية من الفصاحة فيها ، ولو أن الذى لاحظ ذلك علامة متعسف كفليشر Fleischer (٢١) ؛ ولعله ليس من قبيل الصدفة أن نثره الفنى لم يبلغ درجة عالية من البلاغة أيضاً (٢٢) .

وعلى أية حال فقد نال ياقوت تعليماً إسلامياً جيداً ، شأنه في هذا شأن الأرقاء من الروم الذين التقينا بهم من وقت لآخر على صفحات هذا الكتاب . وقد جهد سيده الذى لم ينل حظاً وافراً من التعليم في أن يوفر له هذا ، وكان تاجراً على سعة من العيش اضطرتته مصالحه إلى الإقامة ببغداد فأراد أن يتخذ لنفسه كاتباً ماهراً يساعده في أعماله التجارية . ويذكر لنا ياقوت من بين أساتذته اللغويين المشهورين العكبرى (توفى عام ٦١٦ هـ = ١٢١٩) وابن يعيش (توفى عام ٦٤٣ هـ = ١٢٤٥) (٢٣) وكثيراً ما اصطحبه سيده في أسفاره التجارية وبعث به أحياناً بمفرده . ومن أكثر الأسفار التى تركت أثراً في نفسه في ذلك العهد رحلاته العديدة إلى جزيرة كيش التى ساعدت كثيراً في توسيع أفقه الجغرافى . وجزيرة كيش أو كيس (وفى شكلها المعرب قيس) تقع في ذلك الجزء من خليج فارس الذى أسمته العرب بحر عمان ، وكانت لعهد ياقوت مركزاً من مراكز التجارة الخارجية للعالم الإسلامى تجمع فيها ممثلو مختلف الأقطار والشعوب ؛ وكانت الجزيرة غنية بالنخيل وغيره من الأشجار وأنواع النبات . وقبل ياقوت بقليل ، وذلك في النصف الثانى من القرن الثانى عشر زارها رحالة آخر هو بنيامين التُّسْطَيْلى Benjamin of Tudela وامتدحها كثيراً . وبعد مائة عام من ذلك ، أى في النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، زارها ماركو بولو Marco Polo

البندقي ؛ وعقب هذا مباشرة أخذت تفقد أهميتها بالتدريج لهرمز على الساحل الفارسي ولم تلبث أن طواها النسيان في آخر الأمر (٢٠) .

وخلال إحدى تلك الأسفار وذلك في عام ٥٩٦ هـ = ١١٩٩ علم ياقوت بوفاة سيده وإعتاقه له فأصبح بذلك حراً طليقاً . ومنذ تلك اللحظة استقر ببغداد واحترف نهائياً مهنة استنساخ الكتب وبيعها ، الأمر الذي يذكرنا بصاحب « الفهرست » المشهور الذي مر الكلام عليه فيما تقدم من هذا الكتاب . ولكن ياقوت لم يلبث أن بدأ تجواله ابتداء من عام ٦١٠ هـ = ١٢١٣ ، ذلك التجوال الذي استمر ستة عشر عاماً إلى لحظة وفاته ، ولم تتخله سوى وقفات قصيرة الأمد . ويمكن تكوين فكرة عن رحلاته هذه اعتماداً على الإشارات الواردة بمعجمه ، وقد ساهم في ذلك فُستقُلد إلى حد كبير . بدأ ياقوت تجواله ماراً بتهريز والموصل في طريقه إلى الشام ومصر أولاً ، وبعد ثلاثة أعوام من ذلك ، أي في عام ٦١٣ هـ = 336 ١٢١٦ ، نبصره مرة أخرى بدمشق التي غادرها إلى حلب فأرسل ثم أرمية بتهريز ومنها إلى إيران الشرقية . وأمضى عامين بنيسابور حيث علق قلبه حب فتاة من أهلها ، ثم غادرها إلى هرات وسرخس إلى أن بلغ مرو . وبمرور أمضى عامين متنقلاً بين مكتباتها الشهيرة التي وصفها الكثيرون بحماس شديد ، ولم يلبث أن واثته فكرة الاستقرار بها نهائياً خاصة وأن فكرة وضع المعجم قد انبعثت لديه هناك في عام ٦١٥ هـ = ١٢١٨ . وكان معتزماً بزيارة خوارزم وبلخ عندما تواترت إلى مسامعه أخبار خروج المغول عام ٦١٦ هـ = ١٢١٩ ثم استيلائهم على بخارى فسمروند ، فهرب ياقوت إلى خراسان تاركاً وراءه بعض مادته العلمية وفي طريقه مر بالري وقزوین وتهريز إلى أن بلغ الموصل فدخلها فقيراً معدماً لا يملك شروى فقير غير أن عطف « الوزير الفيلسوف » (٢٥) ابن القفطي (توفي عام ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨) وزير السلطان الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي صاحب حلب (٢٦) ، أمكن له فرصة العمل بضعة أعوام في معجمه الذي لم يلبث أن أتم تسويده في عام ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ ورفع أولى مخطوطاته إلى ابن القفطي (٢٧) ، وكان نازلاً عليه بحلب . وفي عام ٦٢٤ هـ = ١٢٢٧ توجه مرة أخرى إلى فلسطين ومصر ثم رجع إلى حلب وأخذ على عاتقه ابتداء من أول يناير ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ تهذيب المعجم ولكن الوفاة عاجلته دون ذلك فقد انتقل إلى جوار ربه في العام التالي لهذا وذلك في العشرين من أغسطس عام ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ بخان عند أحد أبواب حلب ولما يتجاوز الخمسين . وقد وقف كتبه على مسجد ببغداد وكلف بتنفيذ وصيته هذه صديقه المؤرخ المعروف ابن الأثير (٢٨) فحملها إلى هناك . وخلال عام من وفاته زار حلب مؤلف كتاب التراجم المشهور ابن خلكان وذكر أن أهل العلم كانوا لا يزالوا يثنون عليه ويتذكرون فضله وأدبه (٢٩) . وأمام الظروف القاسية التي اكتنفت الأعوام الأخيرة من حياته يجب أن نعجب لا للعدد الضئيل من الأخطاء الذي وجد الطريق إلى مصنفاته بل لعدد هذه المصنفات الكبير وقيمتها العالية التي لا يتطرق إليها الشك . ويحتل المكانة الأولى بينها من وجهة نظرنا دون منازع معجمه الجغرافي الكبير الذي سنقصر حديثنا عليه الآن .

لقد انبعثت فكرته كما رأينا بمرور عام ٦١٥ هـ = ١٢١٨ ، ويبدو لنا الطابع المميز للكتاب من الظروف التي أحاطت بتأليفه^(٣٠) . فقد حدث أن جمع ياقوت مجلس للإمام السمعاني ابن صاحب كتاب الأنساب المشهور ودار الكلام حول اسم موضع **ب** بالجزيرة العربية ورد ذكره في الحديث وهو حُباشة . وقد دلل ياقوت معتمداً في ذلك على اشتقاق اللفظ على أنه يجب نطقه هكذا ، أي بضم الحاء ؛ غير أن أحد الحاضرين أصر على نطقه حُباشة بفتحها . وقد استعصى على ياقوت أن يجد مرجعاً ثقة يدعم به رأيه ، مع اكتظاظ مكتبات مرو آنذاك بالمراجع ، فعجز عن العثور على الشاهد . حينئذ عقد العزم على وضع معجم جغرافي جامع يكون مرجعاً عند الحاجة ولا يقتصر على تفسير الأعلام الجغرافية فحسب بل وبين أيضاً نطقها الصحيح . فهو في جوهره إذن من نفس نمط المعاجم اللغوية التي تقابلنا منذ القرن التاسع ؛ بل إن هذا يستبين لنا من ألفاظ ياقوت نفسه عند وصفه للكتاب في بداية مقدمته : « كتاب في أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران والأصنام والأبداد والأوثان »^(٣١) ؛ ولهذا السبب فقد أطلق عليه اسم « معجم البلدان » .

وبالرغم من اتباعه لدرب مطروق سلكه قبله الكثيرون فإن ياقوت قد خشي أن يتهم بأن هدفه من وضع المعجم كان جغرافياً بحتاً ، لذا فقد جهد في أن يدعم معطياته قبل كل شيء بالشواهد من القرآن والحديث^(٣٢) . فهو يشير إلى أن آيات الخالق وبراهين قدرته منتشرة على الأرض بأجمعها لذا فإن قراءة الرحلات والاطلاع على وصف البلدان فيه فائدة كبرى وموعظة حسنة ، والرجل الورع ملزم بأن يتذكر ملاحظاته ويدونها أثناء أسفاره لفائدة معاصريه وفائدة الأجيال التالية . وياقوت لا يهمل التفصيل في أهمية المعلومات الجغرافية من الناحية العملية ؛ وهو يعتقد أن النساخ وأهل الأخبار الذين يقفون من الأعلام موقفاً غير نقدي كثيراً ما أثبتوا الصور الخاطئة لها^(٣٣) ، هذا بينما يحتاج في الواقع إلى ضبط الأعلام جميع صنوف الناس ، فالحكام والمشرعون يحتاجون إلى معرفة تاريخ فتح المسلمين لبلد ما وكيف تم هذا الفتح وذلك لتحديد خراج البلد . كما يجب على أهل الحديث معرفة من اشتهر من أهل بقعة ما من العلماء والمجاهدين ؛ ويهم أهل الطب المعلومات عن المناخ والظروف الطبيعية كما يهم المنجمين مطالع النجوم ليحكموا على طوالع البلاد . ويلزم الشعراء وعلماء اللغة معرفة دقيقة بنطق أسماء الأماكن والأنهار والجبال والآبار كي لا يخطئوا فيصيحوا هدفاً لسخرية المثقفين من الناس . ويسوق ياقوت مثالا لهذا شرحاً « لمقامات الحريري » : لعالم جليل من معاصريه كشف عن عجزه التام عندما حاول تحديد مواقع بعض المواضع^(٣٤) . وجميع هذه العلل التي يسوقها ياقوت وجيزة في حد ذاتها ، وهي تعطى مرة أخرى فكرة عن تلك الاعتبارات العملية المعروفة لنا من قبل والتي عاونت على ظهور الأدب الجغرافي وتطوره عند العرب ، هذا بالرغم من أن ياقوت لا يوردها بأجمعها .

وفي آخر مقدمة المعجم يورد ياقوت في الكثير من التفصيل أسماء السابقين له في مضمار الجغرافيا ،

ولكن لا يمكن القول إطلاقاً بأنه قد استوفى أسماء جميع من استقى مادته منهم^(٣٥). وقد حدث وأن عرضنا لعدد كبير منهم فيما مر من هذا الكتاب معتمدين في ذلك أحياناً على ياقوت وحده وذلك لفقدان الأصول التي نقل عنها. ويختتم ياقوت المقدمة بتحليل لكتابه ولمنهجه في التأليف^(٣٦)، وهي مسألة قد ألقى عليها روزن بعض الضوء في بحثه المشار إليه. وقد رفض ياقوت في كثير من الحدة والغيرة التماس من طلبوا منه مراراً اختصار كتابه، وهو يستشهد في هذا الصدد بحكاية للجاحظ في عيوب اختصار الكتب^(٣٧).

ويلى المقدمة خمسة أبواب بمثابة مدخل للمعجم، يعرض أولها للنظريات المختلفة في صورة الأرض معتمداً في ذلك على معطيات الجغرافيا الرياضية المعروفة لنا في جوهرها. ويميل ياقوت إلى اعتبار الأرض كروية تتجاذبها أطراف الفلك من جميع النواحي كالمغناطيس. ويبحث الباب الثاني في نظام تقسيم الأقاليم، ولكن ياقوت يورد فيه أيضاً قائمة البروج الاثني عشر والبلدان الواقعة تحت تأثيرها كما يعرض للطرق العملية المتبعة في تحديد قبلة كل موضع من الأرض. وأما الباب الثالث ففي تفسير المصطلحات التي يرد ذكرها في المصنفات الجغرافية كالبريد والفرسخ والميل، وأيضاً النواحي كالإقليم والكورة والخلاف والاستان والريستان والطسوج والهند وآباد والسكة والمصر، ثم يوضح مصطلحات الجغرافية الفلكية كالطول والعرض والدرجة والدقيقة، ثم المصطلحات الخاصة بالخراج وغلة الأرض كالصلح والسلام والعبوة والخراج والنفء والغنيمة والصدقة والخمس والقطيعة. ويعطى الباب الرابع تصنيفاً قصيراً للبلاد المختلفة التي فتحها المسلمون وذلك وفقاً للخراج الذي يجبى من كل منها. أما الباب الخامس فأشبه ما يكون بمقدمة في أخبار البلاد وسكان النواحي المختلفة وتوزيع الممالك بحسب مكانتها وعراقها فتأتى في المرتبة الأولى بابل وتليها الهند فالصين فالترك فالروم. وفقط بعد هذه الأبواب المدخلية (Introductory) التي تشغل خمسين صفحة من الكتاب* يبدأ المعجم بمعناه الدقيق.

وترد فيه أسماء المواضع بحسب الترتيب الأبجدي كما هو الحال مع المعاجم السابقة المعروفة لنا؛ ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن الترتيب قد يختلف داخل الحرف الواحد أحياناً، وهو أمر غير معهود لنا من قبل. وبعد إيراد الاسم يرد توضيح مفصل بالألفاظ لنطقه مع ذكر اختلاف القراءات. وكثيراً ما يسوق ياقوت اشتقاق بعض التسميات ويحاول توضيح منشأ وأصلها؛ وكما هو ديدن جميع اللغويين العرب فهو يحاول أيضاً تفسير التسمية من صميم اللغة العربية ولا يسمح بفكرة وجود أصل غير عربي لها إلا في حالات نادرة. وهذا القسم الأول اللغوي يصحبه في العادة شواهد من الشعراء العرب ممن يمكن الثقة فيهم لتحديد النطق الصحيح الذي قد يعتمد أحياناً على البحر والقافية؛ ثم يلي هذا عادة بيان طول وعرض المكان مع تحديد البرج الذي يقع تحته.

* ظهرت في عام ١٩٥٩ ترجمة إنجليزية لهذه الأبواب الخمسة مع تعليقات وافية وإشارات إلى المراجع؛ وهي بقلم وديع جويده وقد طبعت بدار بريل Brill بليدن. (المترجم)

أما القسم التاريخي الذي يعقب هذا مباشرة فيبحث في أصل الموضوع الجغرافي المذكور ونشأته والظروف التي أحاطت بذلك ، ومن سكنه والدور التاريخي الذي لعبه ؛ وكثيراً ما يصحب هذا الأخبار والأساطير المتعلقة به . وإذا جاء ذكر الموضوع في القرآن أو الحديث سقت في ذلك الشواهد ، وإذا كان قد فتحه المسلمون فيعرض لتاريخ هذا الفتح ؛ كما يورد على الدوام تقريباً أسماء كبار علمائه خاصة الفقهاء وأهل الحديث وأسماء أساتذتهم وتلامذتهم . وبخلاف هذا فليس من النادر أن يعطى ياقوت وصفاً دقيقاً للأمكنة والمدن التي زارها ويورد تفاصيل دقيقة عن الأبنية المختلفة والقلاع والمرافئ ، وهو كثيراً ما يقف أيضاً ليصف عادات وأخلاق القبائل والشعوب كما لا يهمل الكلام عن صنوف العجائب في البلاد النائية . ويتخلل العرض أثناء ذلك ضروب من الحكايات الطريفة والنكات والقصص مع مختارات واسعة من الشعر ، وقد يضمه قطعاً ورسائل بأجمعها من المؤلفين السابقين . ونتيجة لهذا فقد تنشأ لديه أحياناً مقالة قائمة بذاتها تمتد أحياناً إلى عشر أو خمس عشرة صفحة .

ومن الطبيعي ألا تظفر جميع مواد المعجم بمثل هذه الصورة الحافلة ؛ وإذا كان القسم اللغوي موجوداً على الدوام فإن التاريخي قد يختفي بالطبع عند الكلام على محلة مغمورة أو غير معروفة جيداً ، وفي هذه الحالة يختفي أيضاً القسم الفلكي ويرد تحديد موقع المكان بصورة تقريبية ؛ وأحياناً قد تقتصر المادة على سطر واحد فقط مع التعريف بالاسم بشكل عام .

ولست بنا حاجة الآن إلى التحدث بشكل خاص عن مصادر المعجم الجغرافي لياقوت فقد رجعنا إليه أكثر من مرة في الفصول السابقة من كتابنا هذا واقتنعنا بأنه يجمع شتات المادة الجغرافية الضخمة التي تراكت على مر ستة قرون . ورغماً عن الميل اللغوي المالحوظ عند المؤلف فإن هذا المصنف الجامع ، كما تبين لنا أكثر من مرة ، لم يقتصر على الجغرافيا اللغوية أو الوصفية بل شمل أيضاً الرياضية وحفظ لنا في هذا المجال معطيات من مصادر أخرى ليست معروفة دائماً ، الأمر الذي وضعه بالكثير من الدقة هو نغمان في كتابه عن الأقاليم السبعة . كما يتوكد هذا في مواضع أخرى من المعجم ؛ فن بين جميع الزيجات (أي الجداول الفلكية) أولى ياقوت اهتماماً خاصاً لزيج أبي عون إسحاق بن علي (٣٨) .

340

وهو لم يكن معروفاً لخبر كبير في الموضوع مثل نالينو Nallino الذي استطاع أن يثبت شبه هذا الزيج « بصورة الأرض » للخوارزمي (٣٩) وذلك اعتماداً على الشذور التي حفظها لنا منه ياقوت . من هذا يتضح لنا أنه حتى في هذا المجال الذي لم يهتم له كثيراً فإن ياقوت وجد تحت تصرفه مصادر لم تصل إلى أيدينا :

ومادة ياقوت متنوعة للغاية ؛ وهو لم يقصر نفسه على العالم الإسلامي وحده كما فعل ممثلو المدرسة الكلاسيكية ، كما وأنه لم يفرد أهمية استثنائية لمواضع جزيرة العرب دون غيرها كما فعل ممثلو المدرسة اللغوية . وقد رأينا كيف وزع اهتمامه بالسوية على العالم الإسلامي والشرق الأقصى وأن هذا الحكم ينطبق أيضاً على معالجته لأوروبا الشرقية والشمالية . ومن الطبيعي أن معرفته بالشرق أفضل بكثير من معرفته بالمغرب ،

ولكن فيما يتعلق بالآخر فإنه تقابلنا أحياناً تفاصيل تدل على معرفته الواسعة بأحواله . وقد أثبت أماري Amari^(٤٠) أن ياقوت هو المؤلف الوحيد الذى حفظ لنا شذرات من مصنفين مفقودين لمؤلفين من صقلية هما أبو على الحسن (حوالى عام ١٠٥٠)^(٤١) وابن القطاع (توفى عام ٥١٥ هـ = ١١٢١)^(٤٢) ؛ وهو يعتمد عليهما اعتماداً كلياً فى معلوماته عن الجزيرة . وعلى العكس من هذا فإن معرفته بإيطاليا على العموم لم تكن جيدة ؛ ونفس هذا الحكم كما لاحظ زيولد Seybold يصدق على معرفته بقورسিকা ولا نغورديه وكلابريا ومالطة وغيرها^(٤٣) .

وبخلاف المعجم الكبير فإنه يرتبط باسم ياقوت أيضاً مصنفان جغرافيان معروفان تم طبعهما قبل المعجم وهبطت قيمتهما عقب طبعه . أولهما وضعه بعد المعجم الكبير لهدف خاص وهو يحمل عنوان «كتاب المشترك وضعاً والمفترق صقلاً» أى أنه بمثابة معجم للمواضع التى تشترك فى الاسم . ويتضح من ألفاظ ياقوت نفسه فى مقدمة هذا الكتاب أنه قد استخرجه من معجمه الكبير ليكون أسهل عند المراجعة . ومادته مقتضبة إلى أقصى حد ؛ كما أسقطت منه جميع تلك الاستطرادات التى تضى أحياناً على مصادرها أهمية خاصة . ونظراً لأنه قد تم تأليفه عقب المعجم الكبير فقد أضحى فى حيز الإمكان إضافة تفاصيل صغيرة إليه غير موجودة بالمعجم ، الأمر الذى يجعل من المفيد الرجوع إليه فى أمثال تلك الأحوال . أما من ناحية الكم فادته هو أيضاً واسعة جداً إذ يورد فيه ذكر ألف وواحد وتسعين اسماً 341 تعالج أربعة آلاف ومائتين وواحداً وستين موضعاً جغرافياً .

أما المصنف الثانى الذى يحمل اسماً تغلب عليه الصنعة هو «مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع» والذى طبع مسودته بينبول Juynboll^(٤٤) فإنه ليس من عمل ياقوت نفسه . فهذا الكتاب الذى لا يمثل فى الواقع سوى موجز للمعجم الكبير قد عمله بعد مائة عام من ذلك على ما يظهر شخص يدعى صنى الدين عبد المؤمن بن عبد الحكم (توفى عام ٧٣٩ هـ = ١٣٣٨) ؛ ولا تزال مسألة من هو المؤلف موضع نزاع^(٤٥) ، فرينو Reinaud الذى فحص الطبعة بعناية فائقة خرج بنتيجة مؤداها أنه قد وجد على الأقل ثلاث موجزات أو ثلاث مسودات تحت عنوان واحد ؛ إحداها فقط لياقوت ولكنها لم تصل إلينا^(٤٦) . وإذا تذكرنا موقف ياقوت من الموجزات كما حدده هو بنفسه فى آخر مقدمته للمعجم الكبير فإن وجود مصنف له من هذا النوع عرضة لشك كبير . أما المسودة الثانية فيرجعها رينو إلى عبد المؤمن هذا ،^(٤٧) بينما ينسب الثالثة إلى السيوطى^(٤٨) المشهور وقد تم العثور عليها منذ وقت غير طويل^(٤٩) . وطبعة بينبول فى ستة أجزاء^(٥٠) قد أحيطت بالكثير من العناية والاهتمام* بحيث ساهمت مساهمة فعالة فى تيسير مهمة فستنفلد عند تحضيره لطبعة المعجم الكبير . وتقتصر أهميتها فى الوقت

* ظهرت له طبعة جديدة فى البلاد العربية لا أعتقد أنها تختلف كثيراً عن طبعة بينبول . (المترجم)

الحاضر على أنه يمكن بواسطتها أحياناً توضيح النقاط المغلقة في المعجم الكبير ، كما ستستمر على الدوام مفيدة وقيمة تعليقات ينبغي عليها .

وكان ياقوت أديباً واسع الأفق وكاتباً جم النشاط متعدد النواحي ؛ ومن دون حاجة إلى ذكر مصنفاته التي لم تصل إلينا فإنه يكفي أن نشير إلى معجم الأدباء الذي لا يقل حجاً أو أهمية عن معجمه الجغرافي بل وربما يفوقه فيما يتعلق بالمادة التاريخية والحضارية عن العالم الإسلامي . ومن المستحيل مقارنة ياقوت ببحاث عالمي كالبيروني أو رحالة من طراز المسعودي أو المقدسي ، غير أنه لدى المقارنة بمجاعة الجغرافيين اللغويين من أمثال البكري فإن ياقوت يبرزهم أجمعين ، ليس فقط في غزارة مادته وتنوعها بل أيضاً في منهجه المستقل الذي ينطوي على الذكاء . اكل هذا فإن مصنفه الجغرافي يختتم بجدارة العهد السابق للغزو المغولي ، أما هو نفسه فيمكن اعتباره من أبرز رجالات عصره خاصة في هذا الفرع من الأدب الذي نعالجه في كتابنا هذا . ولا يزال معجمه إلى أيامنا هذه يخدم غرضه ويلعب دوره كمرجع موثوق به ، مما يقف برهاناً ساطعاً على أهميته التي لا تضارع .

وبعد عامين من وفاة ياقوت توفي ببغداد معاصره الأكبر سنّاً منه (موفق الدين) عبد اللطيف (ابن يونس) البغدادي^(٥١) ، الذي لم يكن عالماً لغوياً في الأصل بل عالماً بيولوجياً (Biologist) ، ولم يكن مؤلف سفر ضخيم جامع بل رسالة صغيرة عن مصر ذات أهمية جغرافية عامة ممتازة .

وسيرة حياته معروفة لنا جيداً بفضل الإشارة إليها في عدد من المؤلفات من ناحية وبفضل الشذرات من سيرة حياته التي كتبها بنفسه (Autobiography) والتي حفظها لنا ابن أبي أصيبعة (توفي عام ٦٦٨ هـ = ١٢٧٠) في الفصل الذي أفرد له في تاريخه للأطباء . وكان جد ابن أبي أصيبعة صديقاً حميماً لعبد اللطيف كما أن أباه قد درس الطب عليه . وقد ولد عبد اللطيف ببغداد عام ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ وترعرع بها ودرس الأدب والكيمياء التي كانت تشمل آنذاك الكيمياء والطب . وكانت مراكز تلك العلوم قد أخذت منذ ذلك الوقت تنتقل غرباً لذا فقد توجه عبد اللطيف في طلب العلم ، لا في إثر ياقوت إلى بلاد ما وراء النهر بل إلى الشام ومصر . وقد بدأ ترحاله عام ٥٨٥ هـ = ١١٨٩ من الموصل حيث استمع هناك إلى الرياضي الفقيه الذي ذاع صيته في ذلك الوقت كمال الدين بن يونس ، وهو أحد العلماء الذين تمكنوا من حل المسألة الهندسية التي طرحها مع مسائل أخرى على العلماء العرب الإمبراطور فردريك الهوهنشتاوفن Frederik of The Hohenstaufen^(٥٢) . وبفلسطين استرعى عبد اللطيف أنظار صلاح الدين الأيوبي الذي كان يقاتل الصليبيين فوصله وعينه مدرساً بإحدى مساجد دمشق . وبعد وفاة صلاح الدين في عام ٥٨٩ هـ = ١١٩٣ انتقل عبد اللطيف إلى مصر وتمتع برعاية الأيوبيين وظل بها يدرس الفقه ويتابع أبحاثه في الطب والنبات ؛ وقد يسرت له علاقته بالأيوبيين التعرف بعدد كبير من فطاحل العلماء بمصر والشام مثل عماد الدين الأصفهاني . مؤلف سيرة صلاح الدين والقاضي الفاضل وزيره ،

وأيضاً موسى بن ميمون . وبمصر شهد عبد اللطيف المجاعة الهائلة والوباء الفتاك الذى حدث عام ٥٩٧هـ - ٥٩٨هـ = ١٢٠٠ - ١٢٠٢ . وفى عام ٦٠٤هـ = ١٢٠٧ نقابله مرة أخرى بحلب ومن هناك ذهب فى رحلة إلى آسيا الصغرى استمرت عدة أعوام ، وأمضى بعض الوقت ببلاط أمير أرزنجان قرب أرضروم . ومن المحتمل أنه فى أثناء رحلته هذه تعرف عن كتب على أخبار المغول ، وقد حفظ لنا المؤرخ الذهبى (توفى عام ٧٤٨هـ = ١٣٤٨م) كثيراً من رواياته [عنهم] . ورجع عبد اللطيف إلى بغداد 343 فى شيخوخته وتوفى بها عام ٦٢٩هـ = ١٢٣١ .

وكان عبد اللطيف رجلاً جم المعرفة ضارباً فى جميع فروع العلم بسهم ، كما كان عالماً دقيق الملاحظة فهو بهذا يمثل طراز العالم المحقق الذى يتوق إلى المعرفة الإيجابية مع ميل واضح إلى التجربة العلمية . ولم تقتصر معرفته على مصنفات العرب وحدهم بل عرف مصنفات اليونان خاصة أرسطو وديوسقوريدس وجالينوس . ولم يزل مهنة الطب فقط بل كان أيضاً باحثاً فى العلوم الطبيعية عامة ، وهو قد طبق نظريات جالينوس على الموميات الموجودة بمصر وصحح بعض معطياته فى التشريح . وقد تمكن بعد معاينة موميا من بوسير أن يثبت على نقيض جالينوس أن الفك الأسفل لا يتكون من عظمين بل من عظم واحد (٥٤) . ومثل هذا الاهتمام وتلك المقدرة فى التحليل الدقيق يسود جميع ملاحظاته سواء عن الطبيعة أو عن الناس فى جميع المجالات .

وعدد مصنفات عبد اللطيف كبير بعضها فى العلوم الفقهية والأدب والبعض الآخر فى العلوم الطبيعية بالمفهوم الواسع للفظ كالنبات والطب والتشريح . غير أن شخصيته تنعكس بصورة جلية فى أثره المعروف لنا أكثر من غيره والذى يتصل اتصالاً مباشراً بالأدب الجغرافى ، أعنى بذلك سفره الصغير عن مصر الذى عرفه العلم الأوروبى منذ نهاية القرن الثامن عشر والذى يحمل عنوان «كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» . وكما يقرر عبد اللطيف نفسه فإن كتابه ليس سوى ملخص لمصنف كبير له فى نفس الموضوع وأنه بدأ تأليفه فى رمضان عام ٦٠٠هـ = ١٢٠٤ بالقاهرة وأتم تهذيبه ببيت المقدس عام ٦٠٣هـ = ١٢٠٦ ورفعته إلى أحد خلفاء صلاح الدين وهو أخوه الملك العادل «لئلا ينطوى عن العلوم الشريفة شئ من أخبار بلاده وإن تراخت أو يخفى بعض أحوال رعاياه وإن تناعت» (٥٥) .

وينقسم الكتاب إلى مقالتين تنقسم كل منهما إلى بضعة فصول ، الفصل الأول من المقالة الأولى يقدم ملاحظات عامة عن مصر ، طبيعتها وسكانها ، والثانى والثالث يصفان نباتها وحيوانها ، وقد أثبتت الأبحاث الخاصة فى تاريخ النبات أنهما يحتويان على معطيات ذات قيمة كبيرة (٥٦) . أما الفصل الرابع فطريف جداً فى فكرته إذ يصف فيه عبد اللطيف آثار مصر القديمة ، وكما هو معروف فإن الاهتمام بالآثار القديمة (الأركيولوجيا Archaeology) نادر ما وجد بين العرب ، وفى هذا المضمار يمثل

344 عبد اللطيف حالة استثنائية . وأطرف من هذا أن عبد اللطيف يعترض على التخريب الوحشي للآثار القديمة وإتلافها كما يعترض أيضاً على البحث عن الكنوز القديمة الذى يستند على الأساطير والمعتقدات الباطلة . وفى الفصل الخامس يصف الأبنية فى مصر المعاصرة له وأيضاً السفن ، بينما يبحث الفصل السادس فى صنوف الأطعمة والمأكول . أما المقالة الثانية من رسالته فتحتوى على ثلاثة فصول فقط ، الأول منها مكرس للنيل وفيه ينتقد عبد اللطيف مرة أخرى بعض المعتقدات الباطلة السائدة عن منابعه وعن أسباب حدوث الفيضان ؛ وقد حاول عبد اللطيف أن يقيس ارتفاع الفيضان كل عام على أساس الملاحظة المتتابة . أما الفصلان الأخيران فيقدمان وصفاً حياً لا يخلو من الرهبة لحوادث ٥٩٧ هـ - ٥٩٨ هـ = ١٢٠٠ - ١٢٠٢ التى اجتاحت فيها مصر قحط هائل ووباء مروع . وقد دفعته نزعته العلمية كطبيب وبجاجة إلى الاحتفاظ بقوة ملاحظته ورباطة جأشه ، فهو يصف لنا بهدوء وبدقة تامة الحالات الرهيبة لأكل لحوم البشر وكيف كانوا يختطفون الأطباء الذاهبين لعيادة مرضاهم وكيف أحرق الجرمون الذين ثبتت عليهم تهمة أكل الغير وكيف وجدت جثث هؤلاء الجرمين مأكولة فى الصباح . وفى جميع هذه الظروف المروعة لم يفقد عبد اللطيف حب الاستطلاع وروح البحث المتأصلين لديه فأجرى عدداً من الملاحظات التشرحية والطبية . ولا يزال كتابه فى هذا الصدد محتفظاً بقيمته كوثيقة إنسانية حية . وهو مهم ليس فقط من وجهة النظر الجغرافية الصرفة بل كوصف للأحوال التاريخية والاجتماعية لعصره ، ناهيك ما يحفل به من مسائل علمية متنوعة .

وقد تعرف الاستعراب الأوروبي على هذا الأثر مبكراً وأولاه اهتماماً جديراً به منذ الخطوات الأولى فى تاريخ تطوره ؛ فنذ مستهل القرن السابع عشر جلب مؤسس الاستعراب الإنجليزى بوكوك الأكبر E. Pococke مخطوطة قديمة جداً من الشرق ، وهى موجودة الآن بالمكتبة البودلية Bodleyan . وكان يحلم هو وخلفاؤه بنشر هذا الأثر وترجمته ، بل وبدأوا فعلاً ذلك أكثر من مرة ، ولكن يلوح أنه قد أحاطت بهذا الأثر طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر لعنة شريفة^(٥٧) فلم تظهر الطبعة التى أعدها وايت White إلا عام ١٧٨٩^(٥٨) ، وأعيد طبع المتن مرة ثانية فى عام ١٨٠٠^(٥٩) وعنها ترجم الكتاب مرتين إلى الألمانية ومرة إلى اللاتينية ، كما نشرت وترجمت معه سيرة عبد اللطيف البغدادى لابن أبى أصيبعة . ولم يلبث أن توج هذا المجهود فى آخر الأمر بظهور ترجمة علمية مصحوبة بالشروح والتعليقات لسلفستر دى ساسى Sylvestre de Sacy (١٨١٠) ، أعنى بذلك بحثه المشهور « Relation d'Egypte » . وهى محاولة كانت بالنسبة لعصرها شيئاً ممتازاً ، ولا يزال بحثه يحتفظ إلى الآن ببعض الأهمية التى يتمتع بها الأثر نفسه ، بل إن روزن لم يجد كفىً له فى أوائل القرن التاسع عشر إلا بحث فرين المشهور عن ابن فضلان . وكان آخر من اهتم بتقدير الأثر حق قدره ممثلو النهضة الأدبية العربية المعاصرة الذين احتذّب أنظارهم عبد اللطيف بشكل خاص فى السنوات الثلاثينات فأفرد له النقادة المعروف سلامة موسى

كتيباً (١٩٣٤) (٦٠) والمؤرخ محمد عبد الله عنان فصلاً في كتابه القيم « مصر الإسلامية » (١٩٣١) (٦١) : 345
وهكذا ظفر عبد اللطيف بتقدير المستعربين والعرب وتردد اسمه لدى علماء الحياة (biologists)
والمؤرخين . ورغمما من أنه ينتمى إلى طراز من الناس يخالف تماماً طراز ياقوت إلا أنه يُعتبر بنفس الدرجة
مثالاً نموذجياً لعصره وبيئته بل وجميع الحضارة العربية عشية الغزو المغولي :

ولم يكن الاهتمام بعلم النبات شيئاً غريباً على الجغرافيين العرب بل كان يمثل أحياناً هدفاً أساسياً
لرحلاتهم ومصنفاتهم ؛ فبعد عبد اللطيف زار مصر عالم من الأندلس يحمل لقب « النباتي » ، كما أن كنيته
« ابن الرومية » تشير إلى أن والدته من نصارى أسبانيا . أما اسمه فلم يختلف عن الأسماء المعهودة لدى
المسلمين وهو أبو العباس أحمد بن محمد ، وقد ولد باشبيلية وتوفي بها على ما يظهر عام ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩
بعد رحلات واسعة (٦٢) .

ورغمما من حملة للقب « الحافظ » (وذلك لحفظه القرآن) فإن ميوله على أية حال اتجهت نحو علم النبات
بحيث اعتبره العرب من أكبر علمائهم في هذا الفرع من العلوم . ولهذا ما يبرره فقد درس النبات نتيجة
لاهتمامه المباشر به وليس بأغراض الطب فحسب كما جرت العادة . وفي البداية ساح في أسبانيا وحدها
وعلى محاذة جبل طارق ثم عبر البحر حوالى عام ١٢١٧ إلى شمال أفريقيا ومصر وأدى فريضة الحج
مدفوعاً دائماً بنفس أهدافه في دراسة النبات . وقد حاول السلطان الأيوبي العادل أن يغريه بالبقاء بمصر
لمعرفته الواسعة بالطب ولكن « النباتي » آثر الرحيل إلى الشام والعراق ليتعرف على نباتاتها غير الموجودة
بالمغرب ؛ ولعله رجع إلى الأندلس عن طريق صقلية . وقد أودع نتائج ملاحظاته ودراساته كتابه الذى
يحمل عنواناً عادياً وهو « كتاب الرحلة » ؛ ويتضح من مقتطفات المتبقية منه أن الكتاب قد كرس فعلاً
بتمامه للمسائل النباتية وحدها وحفل بمعلومات جديدة في صدها مثال ذلك ما يورده عن نباتات سواحل
البحر الأحمر . ومصنفه معروف إلى الآن في مقتطفات كبيرة فقط حفظها لنا معاصره الأصغر وتلميذه
عالم النبات الشهير ابن البيطار (توفي عام ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨) (٦٣) :

وانتساب جميع هؤلاء العلماء إلى عصر الموحدين يبرر الكلام عن مؤرخ قام بمحاولة طريفة لفصل
المنهج التاريخي عن المنهج الجغرافي وهو الأمر الذى لم يحفل له كثيراً التأليف العربى كما رأينا ، ذلكم هو عبد الواحد
المراكشى سمي الفلكي المعروف الذى مر بنا الكلام عليه (٦٤) . وقد ولد بمراكش عام ٥٨١ هـ = 346
١١٨٥ ودرس بفاس وأقام بالأندلس وأدى فريضة الحج ثم استقر بمصر وكان بها أثناء استيلاء الصليبيين
على دمياط (٦١٧ هـ - ٦١٩ هـ = ١٢٢٠ - ١٢٢٢) (٦٥) :

ومصنفه الأساسى هو « كتاب المعجب في (تلخيص) أخبار المغرب » الذى كرسه لتاريخ دولة
الموحدين مع مقدمة قصيرة في الحوادث السابقة لذلك ؛ وقد أتمه حوالى عام ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ .
والكتاب معروف منذ السنوات الأربعينات للقرن الماضى بفضل طبعة دوزى Dozy ثم الترجمة الفرنسية

بقلم فانيان Fagnan . وتحقيقاً لرغبة مولاه يعطى المراكشي في القسم الأخير من الكتاب وصفاً جغرافياً لدولة الموحدين ولكن يسبقه بالألفاظ الآتية التي يتضح منها أنه يعتبر هذا الموضوع غير مناسب على الإطلاق لمهنة المؤرخ :

« وقد رسم مولانا حرس الله مجده أن يضاف إلى هذا التصنيف ذكر أقاليم المغرب وتعيين مدنه وتحديد ما بينها من المراحل عدداً من لدن برقة إلى سوس الأقصى وذكر جزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها على ما تقدم فلم ير المملوك بُدّاً من الجرى على العادة في سرعة الإجابة وامثال مرسوم الخدمة لوجوب ذلك عليه شرعاً وعرفاً هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف وداخل في باب المسالك والممالك وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة ككتاب أبي عبيد الله البكري الأندلسي وكتاب ابن فياض الأندلسي أيضاً وكتاب ابن خرداذبه الفارسي وكتاب الفرغاني وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة له ونحن إن شاء الله ذاكرون من ذلك موافقة لرأى مولانا العالي بما يقف به على حدود البلاد ويصور له صورتها على التقريب من غير تطويل جارين في ذلك على ما سلف من عادتنا في سائر الكتب » (٦٦) .

من هذا القول يتضح أنه قد وجدت لدى العرب رغبة صادقة للتفريق بين المادتين التاريخية والجغرافية وإخضاع كل منهما لمنهج خاص يقوم على أسس عامة ، ولو أنهم في الواقع لم يتمكنوا من ترجمة ذلك في صورة واقعية .

347 وقد أصبحت مصر الأيوبية التي لم تمسها وطأة الغزو المغولي ملاذاً للعلماء من الشرق والغرب فكانت بذلك كأنما تهيأ لتتسلم مركز الثقافة العربية الذي أصبحته بالتالي نتيجة لاستيلاء الممولى على بغداد . هذا وقد داوم علماء مصر على الاحتفاظ بالتراث الذي نشأ هناك ، فنلتقى في هذا العصر بمصنفات من أنماط معروفة لنا . فمن جهة يقابلنا ذلك النوع الفريد لجغرافيا الدواوين وهي مراجع إدارية واقتصادية عمات من أجل كتاب الدواوين ، وخير مثال لهذا كتاب ابن مماتي « قوانين الدواوين » الذي لم يكن الوحيد من نوعه . ومن جهة أخرى تجمعت بالتدريج ونمت مادة نمط « الخطط » ، وهي أوصاف تاريخية وإدارية للنواحي والأحياء المختلفة من المدن الكبرى . ولعل خير مثال لذين الاتجاهين ما يقدمه في مصنفاته الإداري والجغرافي النابلسي (توفي عام ٦٤١ هـ = ١٢٤٣) (٦٧) .

واسمه الكامل وهو عثمان بن إبراهيم النابلسي الصفدي يشير إلى أن أصله من فلسطين ، ولكنه عاش بمصر وعمل بها في عهد السلطان الأيوبي نجم الدين أيوب (٦٣٧ هـ - ٦٤٧ هـ = ١٢٤٠ - ١٢٤٩) ولعله لم يتفاد تأثير ابن مماتي حينما وضع مصنفاً مماثلاً لمصنفه وهو « كتاب لمع القوانين المضببة في دواوين الديار المصرية » المعروف إلى الآن في المخطوطات فقط . ويبحث القسم الأساسي من الكتاب كما هو الحال عند ابن مماتي في نظام الدواوين المالية المختلفة التي يحتل من بينها مركز الصدارة ديوان الأحباس

الذى يعالج الأوقاف كما يعالج أيضاً جزءاً هاماً من الإدارة المالية ، وهو الديوان الوحيد الذى كان بمقدوره أن يتخذ قرارات دون توقيع خاص من السلطان (٦٨) . وقد عين النابلسى حاكماً على الفيوم عام ٦٤١هـ = ١٢٤٣ فوضع خلال عامين (٦٩) وصفاً وافياً لها يوجد فى متناول الأيدى فى طبعة لموريتز Moritz . ومن العسير القول بأنه هل يتفق هذا المصنف مع المخطوطة الموجودة باستنبول والى تحمل عنوان « إظهار صنعة الحى القيوم فى ترتيب بلاد الفيوم » (٧٠) ؛ وعادة يحمل مصنفه عنواناً بسيطاً هو « تاريخ الفيوم وبلاده » . وينتمى المصنف إلى طراز الجغرافيا الإقليمية (Regional) ويقدم فى عشرة أبواب وصفاً يمس فى الغالب الأماكن المأهولة من الفيوم (٧١) ؛ والأبواب التسعة القصيرة كأنما تستخدم غرض مقدمة للبواب الأخير . فبعد وصف عام مجمل للمنطقة ترد معطيات موجزة عن المناخ ومزاج السكان وأكثر تفصيلاً من ذلك وصفه للنظام الهيدروغرافى (hydrographic) للمنطقة واتصال قنواتها بالنيل . وفى البواب الذى عقده عن السكان يتحدث عن انقسامهم إلى حضر وبدو مع سرد أسماء القبائل العربية . كما أفرد اهتماماً خاصاً 348 فى أبواب الكتاب المختلفة للمساجد والأديرة وأخيراً لطبيعة الأقاليم . ويلى هذا القسم الأساسى من الكتاب الذى يصف فيه المواضع المأهولة ، وهو حافل ومفصل بحيث يمكن من وضع خارطة تخطيطية لمنطقة الفيوم . وهو كجميع المصنفات من هذا الطراز يحفل بالتفاصيل المختلفة سواء فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بالمنطقة أو فى الجغرافيا الطبيعية . وقد مكنت هذه التفاصيل بدورها أحد العلماء من وضع قائمة بنباتات الفيوم (٧٢) بالرغم من أن النابلسى نفسه لم يكن البتة عالماً بالنبات كبعض السابقين له ممن مر ذكرهم للتو .

وقد ضربت الجغرافيا الإقليمية فى هذا العصر فى اتجاهات أخرى بالطبع ، ولم يكن مؤلفوها دائماً من أهل المنطقة الموصوفة نفسها . وغير واضح بالنسبة لنا مثلاً لماذا أصبح خبيراً ممتازاً بجنوب جزيرة العرب والحجاز الأوسط شخص مثل يوسف بن يعقوب الدمشقى المشهور بابن الجاور (٧٣) الذى ولد بدمشق ونشأ وترعرع ببغداد (٧٤) . وكانت له صلات بالهند فقد أقام بعض الوقت بملتان ؛ وفى عام ٦١٠هـ = ١٢٢١ عبر البحر من الديبل إلى عدن ، وكان ببلاد العرب على أية حال فى عام ٦٢٧هـ = ١٢٣٠ - والتاريخ الأخير يقابلنا فى مصنفه (٧٥) ، لهذا فإن رأى الغالب هو أنه قد تم تأليفه قبل عام ٦٣٠هـ = ١٢٣٣ بقليل (٧٦) ؛ وهذا بدوره دفع إلى الافتراض بأن تاريخ وفاته . الذى يرجعه بعض المؤلفين عادة إلى عام ٦٩٠هـ = ١٢٩١ (٧٧) متأخر جداً على أغلب الاحتمال . وربما يمكن تفسير هذا التردد فى التواريخ بأن اسم ابن الجاور ليس اسمه الشخصى بل هو اسم عام استعمل للتوقيع وحمله عدد من أفراد هذه الأسرة . ونفس هذا التردد فى الاسم يصدق أيضاً على مصنفه فهو بحسب آراء البحاثة السابقين يحمل عادة اسم « تاريخ المستنصر » ولكن نظراً لأن مادته لا ترتبط فى شىء مع هذا العنوان الواسع الانتشار فمن المحتمل أنه يجب قراءته « تاريخ المستنصر » وفقاً لرأى آخر بحاثة طرق هذا الموضوع (٧٨) .

- وكان أول عالم يتعرف عن كُتب على كتاب ابن الجاور هو اشبرنجر Sprenger ، فقدّره حقّ قدره
 349 (١٨٦٤) ووضع أحياناً جنباً إلى جنب مع المقدسى^(٧٩) . وابن الجاور قد زار تقريباً جميع النواحي
 التي وصفها ، ووصفه لبلاد العرب الجنوبية لا يعتمد على وصف المقاطعات والنواحي بل وصف الطرق
 فيورد المسافات ويذكر آثار كل منزلة ويتحدث عن أخلاق السكان وعاداتهم ويسجل الروايات
 والأساطير المحلية التي يشعر بميل شديد نحوها . ومعرفته بالتاريخ القديم ليست كبيرة فهو ليس بعالم نقلي ؛
 وارتياح اشبرنجر في معرفته بالأدب الجغرافي السابق له^(٨٠) قد خفف منه دىخويه De Goeje كثيراً ،
 فقد اتضح له أثناء اشتغاله بإعداد ذلك الأثر للطبع أن عدداً من المصادر المكتوبة التي يرجع إليها ابن الجاور
 تدل على اطلاعه الواسع في ذلك الأدب^(٨١) وعلى معرفته العميقة لا بالشعر العربي وحده بل وبالفارسي
 أيضاً^(٨٢) . وقد مكنته رحلاته البحرية من معرفة تلك المراجع الفريدة المعروفة باسم الراهناجات
 (أى المرشدات الملاحية) التي ألقى ضوءاً على أهميتها المستشرق الفرنسي فيران Ferrand^(٨٣) . وكان
 ابن الجاور على معرفة دقيقة بخطوط الملاحية فيورد مثلاً ذكر المسافة بين نجران وبلاد العرب الجنوبية
 وجاوه^(٨٤) ؛ ويلوح أنه كان مولعاً أشدّ الولع بالمسائل الملاحية وحفظ لنا شهادة فريدة ذات قيمة كبرى
 كما برهن فيران عن وجود أسطول ملغاشى قوى في الأزمنة القديمة^(٨٥) . غير أن أهمية ابن الجاور
 لا تقوم على هذه المعلومات المدونة بل على أساس ملاحظاته المباشرة عن الحياة العامة ، ومن العسير
 أن نلتقي بهذه الكمية الضخمة من المعطيات الطبوغرافية والحضارية والأسطورية لدى أى مؤلف آخر .
 وهى جميعها تكشف عن معرفة عميقة بالهند خاصة في محيط الأثنوغرافيا والأدب الشعبي (الفولكلور)^(٨٦) ؛
 وهو يصف بالتفصيل عادات الزواج وطقوس العرس في زبيد باليمن^(٨٧) ؛ وفي بلد كمكة^(٨٨) كما يسرد
 بحوية فائقة التقاليد البدائية لقبيلة بجيلة التي تقطن محلة السرو بين الطائف وتبالة^(٨٩) . وجميع هذه
 الروايات أيدّها الرحالون فيما بعد ؛ فخبر لهجات جنوب الجزيرة العربية لا ندبرج Landberg الذى
 كانت لديه وقتاً ما فكرة نشر هذا الأثر^(٩٠) استخرج منه مادة اثنوغرافية ضخمة^(٩١) يمكن على ضوءها
 تكوين فكرة واضحة عن مضمون تلك الأقسام من كتابه وعن سلاسة أسلوبه وسهولته^(٩٢) .
 350 وقسماً كبيراً من « تاريخ المستبصر » ينوف على الخمس يشغله وصف مدينة عدن^(٩٣) ؛ وهو قد
 عرف منذ وقت طويل يرجع بالتقريب إلى عهد الكشف عن المصنف نفسه . وكما هو ديدنه دائماً فقد
 قدم لنا فيران في الآونة الأخيرة تعليقاً وافياً على جزء منه^(٩٤) ، أما الطبعة الكاملة لهذا القسم فقد نشرها
 أخيراً (١٩٣٦) لوفجرين Löfgren^(٩٥) . وكما هو الحال مع بقية أقسام الكتاب فإن وصفه لعدن يمثل
 خلطاً غريباً مبتكراً بين الرواية الأسطورية للتاريخ القديم والملاحظات الدقيقة للمؤلف نفسه . أما
 المادة الأثنوغرافية فوافرة جداً ، كما تتوفر لديه أيضاً المعطيات الطبوغرافية ؛ ومن الطريف ملاحظة أن
 بعض مخطوطات الكتاب تحمل صورة بدائية لتخطيط مدينة عدن^(٩٦) .

وتاريخ مخطوطات هذا الكتاب معقد للغاية^(٩٧) ؛ فإلى جانب المخطوطات التي وجدت طريقها إلى أوروبا بفضل مجهودات شيفير Schéfer^(٩٨) أضيفت مخطوطتان أخريتان في عهد دى خويه ولانديج^(٩٩) ؛ ورغماً عن هذا فلم يقدر لأحد هذين العالمين أن يتخذ قراراً حاسماً بإخراج طبعة كاملة للكتاب مع أن كليهما كان يعد العدة لذلك ، ولعل لوفغرين كان أكثر حظاً منهما فقد استطاع أن يضيف إلى تلك المخطوطات مخطوطة استنبول^(١٠٠) وينشر قطعاً من كتاب ابن الجاور . والأثر حقاً جدير بطبعة كاملة ولو أنه من المبالغة بالطبع وضعه جنباً إلى جنب مع المقدسي كما فعل أول باحث في الموضوع ، أو مع الهمداني كما فعل آخر باحث^(١٠١) . ومع ذلك فيمكن القول بدون تردد أن ابن الجاور كاتب أصيل له طابعه الخاص به وأنه ربما يحتل المكانة الأولى فيما يتعلق بالملاحظات الاثنوغرافية .

من كل هذا يتضح لنا أن البلاد العربية لم تمسح جميعاً وطأة الغزو المغولي في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فاستمرت تنمو وتترعرع بها الأنماط المعروفة للأدب الجغرافي . بل إن كاتباً كياقوت الذى اضطر إلى الفرار أمام جحافل جنكيز خان قد استطاع بالتالى أن يضع مؤلفاً كان بمثابة القول للفصل والخاتمة الحسنة في ميدان المعاجم الجغرافية . وبعد سقوط بغداد في أيدي المغول عام ١٢٥٨ انتقلت مراكز النشاط الأدبي للغة العربية كما ذكرنا من قبل إلى الشام وأبعد منها إلى الغرب . غير أن هذا لا يعنى أن 351 التأليف الجغرافي قد اختفى من المشرق كلية ؛ وكما هو معروف فقد ظهر باللغة الفارسية في عهد المغول عدد من الآثار الممتازة في مجالى التاريخ والجغرافيا . بل إن اللغة العربية نفسها قد عرفت في النصف الثانى من القرن الثالث عشر مصنفات من أكثر مصنفاتها انتشاراً وتداولاً بين جماهير القراء ، أعنى بذلك كوزموجرافيا القزويني . وهذا المصنف كمعجم ياقوت يمثل الأوج كذلك في نمطه الخاص به ، وهو ذلك النمط من التصنيف الجغرافي الذى ينتحى ناحية العجائب Mirabilia والذى أوفى على غايته واستنفذ أغراضه في كتاب القزويني بحيث لم يكشف بالتالى عن أية طاقة جديدة فاكتفى المؤلفون باختصار كتاب القزويني أو تنقيحه في صورة أو أخرى :

حواشى الفصل الثانى عشر

- (١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، المقدمة ، ص ٧
- (٢) شرحه ، ص ١١
- (٣) – Gronovius, p. 16 (=Günther, Gesch. d. Erdkunde, p. 42, note 2)
- (٤) – Kovalevski, p. 10
- (٥) – Barbier de Meynard, Dictionnaire, p. XV-XVI
- (٦) – Senkovski, Bibl. dlia cht, XXX, p. 151-172
- (٧) – Senkovski, Sobr. Soch., VI, p. 192-195 (الجزء الأول ص ٧٥٨-٨٥٩)
- (٨) شرحه ، ص ١٩١
- (٩) شرحه ، ص ١٩٥
- (١٠) عن المخطوطات راجع : Kovalevski, p. 174-178
- (١١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٥
- (١٢) فى ثمانية أجزاء راجعها أحمد أمين الشنقيطى (توفى عام ١٣٣١هـ = ١٩١٣). راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الثامن .
- (١٣) الشنقيطى : راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الثامن ، ص ٥٣٦
- (١٤) (استبدل ص ٥٢٦ بص ٥٣٦ عند القراءة)
- (١٥) ياقوت ، المنجم ، التاسع والعاشر
- (١٦) – Heer
- (١٧) – Bloch. — Heer
- (١٨) ألقى مدنكوف Mednikov محاضراته "Ob arabskom geograficheskom slovaré yakuta"
- (معجم ياقوت الجغرافى باللغة العربية) بتاريخ ٢٧/٢/١٨٩٠
- (راجع : Krachkovski, Pamyati N. A. Mednikova, p. 424, note 2)
- (١٩) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السابع ، ص ٢٦٧ ، رقم ١٦٣
- (٢٠) شرحه ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، رقم ١٦٤
- (٢١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، مقدمة ، ص ٥٨ - ٦٥
- (٢٢) ابن خلكان ، الجزء الرابع ، ص ٢٣ ، الملاحظة السابعة
- (٢٣) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الثالث ، ص ٧٧
- (٢٤) – Streck, Kais, p. 695 - 697
- (٢٥) – Bartold, Vostok, IV, p. 126 - 138

(٢٦) عن سيرة ابن القفطي راجع : ياقوت ، الارشاد ، الجزء الخامس ، ص ٧٧ - ٩٤

Mittwoch, El, II, 423 و

(٢٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ١٢

(٢٨) ابن خلكان ، الجزء الرابع ، ص ٢٢

(٢٩) شرحه

(٣٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٦

(٣١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ١

(٣٢) شرحه ، ص ٢ - ٣

(٣٣) شرحه ، ص ٣

(٣٤) شرحه ، ص ٥

(٣٥) شرحه ، ص ٧ - ٨

(٣٦) شرحه ، ص ٨ - ١١

(٣٧) شرحه ١١ - ١٢

(٣٨) شرحه ، الجزء السادس ، ص ٣١٧

- Heer, p. 24 (٣٩)

- Amari (Nallino), II, p. 491 (٤٠)

- Heer, p. 44, f. (٤١)

(٤٢) شرحه ، ص ٤٣ - ٤٤

- Seybold, Analecta Arabo-italica, p. 206-213 (٤٣)

- Juynboll, Marâsid al ittilâ' (٤٤)

- Reinaud, Introduction, p. CXXXIII-CXXXV (٤٥)

- Reinaud, Notice sur les dictionnaires, p. 91-92 (٤٦)

(٤٧) شرحه ، ص ٩٣ - ٩٩

(٤٨) شرحه ، ص ٩٩ - ١٠١

- Brockelmann, GAL, SBI, p. 880, No 10, I, b (٤٩)

- Reinaud, Notice sur Les dictionnaires, p. 101-106 (٥٠)

- Brockelmann, GAL, I, p. 481, No 11; SBI, p. 880-881 - Houtsma, (٥١)
Abd al-Latif, p. 50

- Brockelmann, GAL, SBI, p. 859-860, No 9 p. —Suter, AGNT, IV, (٥٢)
Erlangen, 1922, p. 1-8

- Somogyi, DI, XXIV, p. 106-130 (٥٣)

- De Sacy, Relation, p. 418-420 - Sarton, Introduction, II, p. 599 (٥٤)

- Brockelmann, GAL, SBI, p. 881, No, I. (٥٥) عنان ، ص ١٠٦ - راجع :
- Meyer, III, p. 301-306 (٥٦)
- Schnurrer, p. 150-152 (٥٧)
- White, Abdallatif's compendium. (٥٨)
- White, Abdallatif's historiae Aegypti (٥٩)
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 881 (٦٠)
- (٦١) عنان ، ص ٩٦ - ١٠٦ .
- Sarton, Introduction, II, p. 650-651 — González Palencia, p. 269-270 (٦٢)
- Kramers, EI, EB, p. 70.
- (٦٣) الأبحاث في هذا :
- Simonet, Glossario, p. CL, No 12 and note 4, p. XCIV, note I.
- Brockelmann, GAL, I, p. 322, No 5; SB, I, p. 555 — Sarton, Introduc- (٦٤)
- tion, II, p. 681 — EI, I, p. 70 — Dozy, Recherches, II, 1881, p. 461
- Pons Boigues, p. 413 — González Palencia, p. 161-162 — Reinaud,
- Introduction, p. CXXXV—CXXXVI
- Reinaud, Introduction, p. CXXXV (٦٥)
- Dozy, History of the Almohades, p. 252-253 (٦٦)
- Kramers, EI, EB, p. 71 (٦٧) من هذا التاريخ راجع :
- Brockelmann, GAL, I, p. 335, No 4, SB, I, p. 573 و :
- Björkman, Beiträge, p. 33-34 (٦٨)
- Moritz, Description du Faiyoum, p. 2 (٦٩)
- (٧٠) شرحه ص ٣ .
- (٧١) سرقيس ، ص ١٢١٠ .
- Salmon, Flore du Fayyôûm, p. 25-28 (٧٢)
- Brockelmann, GAL, I, p. 482, No 15; SB, I, p. 883, No 15 — Kramers, (٧٣)
- EI, EB, p. 70 — Ferrand, K'ouen Louen, p. 469-483 (على حدة ص ١٣٩)
- De Goeje, Ibn al-Modjawir, p. 31 (٧٤)
- (٧٥) شرحه .
- (٧٦) شرحه ، ص ٢٣ .
- Brockelmann, GAL, SBI, p. 883, No 15 (٧٧)
- Löfgren, Aden, p. 19 (٧٨)
- Sprenger, Reiserouten, p. XXI-XXIV (٧٩)

- (٨٠) شرحه ص XXI
- (٨١) – De Goeje, Ibn al-Modjâwir, p. 24
- (٨٢) شرحه ، ص ٢٥ .
- (٨٣) – Ferrand, L'Element Persan, p. 213, 257
- (٨٤) (في نقده لكتاب : Ferrand (G. Coedès, Le Royaume de Çrivijaya, p. 191
- (٨٥) – Ferrand, K'ouen Louen, p. 469 (على حدة ص ١٣٩)
- و (على حدة ص ١٤٦ – ١٤٩) p. 476-479
- (٨٦) – Löfgren, Aden, p. 20
- (٨٧) – De Goeje, Ibn al-Modjâwir, p. 26-28
- (٨٨) شرحه ، ص ٢٥ – ٢٦ .
- (٨٩) شرحه ص ٢٨ – ٣٠ .
- (٩٠) شرحه ، ص ٣١ – ٣٣ .
- (٩١) – Landberg, Etudes, II, Datinah, 2, Commentaire, p. 826-829, 859-869, 908-913, 918-919, 999.
- (٩٢) تعداد كامل للاقسام في : Löfgren, Aden, p. 20, note 1
- (٩٣) شرحه ، ص ٥ .
- (٩٤) – Ferrand, K'ouen Louen, p. 469-483 (على حدة ص ١٣٩ – ١٥٣)
- (٩٥) عن شخصية ابن المجاور راجع : Löfgren, Aden, p. 19-21
- (٩٦) – Löfgren, (خارطة عدن ص ٧٠ ، ٥٠)
- (٩٧) شرحه ، ص ٢٠ – ٢١ .
- (٩٨) – Sprenger, Reiserouten, p. XXI
- (٩٩) – De Goeje, Ibn al-Modjâwir, p. 30
- (١٠٠) – Löfgren, Aden, p. 7
- (١٠١) شرحه ، ص ١٩ .

الفصل الثالث عشر

النصف الثاني من القرن الثالث عشر

352 يتميز القرن الذي أعقب الغزو المغولي بظهور عدد من الآثار الكبرى في محيط الأدب الجغرافي تحتل بالنسبة لأنماطها نفس المكانة التي يحتلها معجم ياقوت ولو أنها لا تبلغ قيمته : هذا وقد كسبت أسماء القزويني وأبي الفدا والدمشقي صيتاً واسعاً سواء في الشرق أو في محيط الاستعراب الأوروبي : غير أن هذه الأسماء أخذت تفقد مكانها وتتقهقر إلى النصف الثاني منذ أواخر القرن التاسع عشر نتيجة للكشف عن مصنفات المؤلفين السابقين لهم ؛ ورغمما من هذا فقد أزاح البحث الحديث الستار عن جوانب جديدة في كتبهم لم يكن قد التفت إليها البحاثة من قبل ولهذا فن العسير القول بأن مادتها قد درست دراسة كافية إلى يومنا هذا . ومما يميز هذا العصر أيضاً كما يميز العصر السابق له تلك المصنفات الجغرافية أو المتعلقة بالجغرافيا التي تم تدوينها باللغة الفارسية والتي تمثل أوج ما بلغه هذا الفن من الأدب في تلك اللغة . وإلى جانب أوصاف الرحلات التي تتفاوت من حيث قيمتها يسترعى النظر في النصف الثاني من القرن الثالث عشر مؤلفان يرتبط أحدهما بمغرب البلاد العربية بينما يرتبط الثاني بمشرقها . فأبو الحسن علي الغرناطي الذي اشتهر بابن سعيد ولد قريباً من غرناطة في حوالى عام ٦١٠ هـ = ١٢١٤ ؛ ومصدر معلوماتنا عنه في الغالب هو النبذة التي كتبها عن نفسه والتي حفظها لنا المقرئ في مصنفه المعروف^(١) . وقد نال ابن سعيد حظه من التعليم باشبيلية وأمضى الجانب الأكبر من حياته متنقلاً في طلب العلم ؛ وكما عبر عن ذلك أحد علماء القرن التاسع عشر فإنه قد تنقل في تجواله « من المغرب الأقصى على المحيط الأطلنطي إلى الخليج الفارسي والتقى بأكابر العلماء ورأى أفضل الكتب »^(٢) . وقد صحب أباه في أولى رحلاته إلى الحج عام ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ فزار شمال أفريقيا ومصر ؛ وفي طريق العودة توفي والده بالإسكندرية عام ٦٤٠ هـ = ١٢٤٣^(٣) فتخلف ابن سعيد بالقاهرة حتى عام ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ ثم غادرها إلى الشام وأقام حيناً من الدهر بالموصل وبغداد والبصرة . وقبل استيلاء هولاكو على بغداد بأعوام قليلة تمكن ابن سعيد من متابعة دراساته بمكتباتها البالغ عددها ستاً وثلاثين مكتبة والتي يصفها لنا بحماس يماثل الحماس والإعجاب الذي وصف به ياقوت مكتبات مرو لعهد . ثم رحل إلى حلب ودمشق في صحبة المؤرخ الشهير ابن العديم وحج إلى مكة مرة ثانية^(٤) ؛ ونلتقى به في عام ٦٥٢ هـ = ١٢٥٤ ببلاط أمير تونس ؛ وفي عام ٦٦ هـ = ١٢٦٧ خرج في رحلة أخرى فر بالإسكندرية وحلب متجهاً إلى أرمينيا^(٥) حيث دفعه حب الاستطلاع

ليرى بعبى رأسه هولاكوا الجبار (توفى عام ٦٦٣ هـ = ١٢٦٥)^(٦) ؛ وهذا التناقض فى التواريخ يسوقنا إلى التشكك فى صدق هذه الواقعة الأخيرة^(٧). وقد توفى ابن سعيد على قول إحدى الروايات بدمشق فى خلال عودته من هذه الرحلة وذلك فى عام ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ ؛ وترجع رواية أخرى تاريخ وفاته إلى ما بعد هذا بأعوام طويلة فتذكر أنها قد حدثت بتونس فى عام ٦٨٥ هـ = ١٨٢٦ . ويعتبر ابن سعيد بصفة عامة من أخصب الكتاب إنتاجاً على الرغم من أسفاره التى لم تنقطع ، هذا إلى جانب ميوله الواضحة نحو الأدب الفنى^(٨) خاصة الشعر الذى نال فيه حظاً وافراً من الشهرة .

وكان ابن سعيد محباً لوطنه الأندلس وانعكس حنينه إلى الوطن فى أشعار عاطفية عميقة^(٩) ؛ وقد رد على ابن حوقل لأنه ارتاب فى أخلاق أهل الأندلس^(١٠) كما وأنه وضع سائر المدن التى زارها فى مرتبة دون مرتبة مدن الأندلس . وقد عبر عن أحاسيسه هذه بإيجاز فى قوله^(١١) :

« وأنا أقول كلاماً فيه كفاية منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطففت فى بر العدو ورأيت مدنها العظيمة كمر اكش وفاس وسلا وسبتة ثم طفت فى إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط ، فرأيت بجاية وتونس ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلباً وما بينهما لم أر ما يشبه رونق الأندلس فى مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام وفى حماة مسحة أندلسية ولم أر ما يشبهها فى حسن المباني والتشييد والتصنيع إلا ما شيد بمراكش فى دولة بنى عبد المؤمن وبعض أماكن فى تونس وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ولكن الإسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع ومباني حاب داخلية فيما يستحسن³⁵⁵ لأنها من حجارة صلبة وفى وضعها وترتيبها إتيان^(١٢) .

أما فى الدوائر العلمية فقد لفتت الأنظار بشكل خاص مصنفاته التاريخية ، ذلك أن ابن سعيد سار على نهج أسرته فأتم مؤلفات كان قد بدأها جده وأبوه^(١٣) وهى تعالج تاريخ العرب والبلاد العربية منذ الجاهلية إلى العصر القريب من حياة المؤلف . هذا وقد أصبحت تلك المؤلفات معروفة فى القرن العشرين عن طريق الأبحاث الخاصة^(١٤) وعن طريق طبعات للفصول التى لم تمتد إليها يد الضياع^(١٥) ؛ وهى تضم إلى المادة التاريخية جانباً ليس بالقليل من المعطيات الجغرافية ينعكس فيها بجلاء ميل المؤلف إلى الأدب الفنى ، من ذلك وصفه لصقلية الذى استخرجه موريتز Moritz من إحدى مصنفاته التاريخية التى أشرنا إليها^(١٦) وذلك فى مخطوطة كتب قسم منها بخط يد المؤلف نفسه .

أما نشاطه فى محيط الجغرافيا فإنه لا يتصل بالأدب بقدر ما يتصل بالاتجاه الذى يمثله الإدريسى ؛ ويتضح ذلك من عنوان مصنفه « كتاب جغرافيا فى الأقاليم السبعة » ، وكأنه يشير بهذا إلى المذهب الذى ينضوى تحت لوائه المؤلف . غير أنه يجب أن نضيف إلى هذا أن المشكلة المتعلقة بمسودات هذا الكتاب ومختصراته لا يمكن القول بأنها قد حلت تماماً^(١٧) ؛ ولا يزال البحث الذى بكر به بار تولد منذ السنوات

التسعينات من القرن الماضى هو الدراسة الوحيدة حول هذا الموضوع وفيه ينعكس الاهتمام الخاص بمحتويات هذا الكتاب . غير أن عدم وجود طبعة له حتى يومنا هذا ليقف حيز عثرة في سبيل دراسته دراسة صحيحة . وترجع معرفتنا بهذا المصنف إلى قطعة واحدة ترتفع إلى بداية القرن الرابع عشر وتوجد نسخة خطية لها بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية^(١٨) . وقد اعتقد بعض البحاثة استناداً على إحدى النسخ بأن الكتاب من تأليف أحمد بن ياقوت الحموى وهو ابن ياقوت المشهور^(١٩) ؛ إلا أن الواقع يكذب هذا الزعم ذلك أنه إذا كان تأليف القطعة يرجع حقاً إلى ما بين عامي ٧٢١ هـ = ١٢٣١ و ٧٢٣ هـ = ١٢٣٣ كما هو مبين بها فإن هذا يعنى أن ابن ياقوت لم يكن عمره آنذاك ليقل عن سبعة وتسعين عاماً^(٢٠) . وثمة قطعة أخرى من هذا الكتاب تحمل عنواناً مغايراً هو « كتاب بسط الأرض في طولها والعرض »* ؛ ومن الطريف أن إحدى نسخ هذه الأخيرة التي استعملها أبو الفدا وعلق على هامشها بملاحظات عديدة محفوظة الآن بباريس^(٢١) . وعلى الرغم من الغموض الذي يحيط بمسودات الكتاب إلا أنه يمكن القول بأن « جغرافيا » ابن سعيد تعتمد على الإدريسي اعتماداً كبيراً في مادتها الأساسية وفي تبويبها فالأقاليم فيها مقسمة إلى سبعة وكل واحد منها مجزأ بدوره إلى عشرة أقسام ، ولكنه كما لاحظ هونيمان Honigmann^(٢٢) « لا يترسم في هذا مذهب بطليموس إطلاقاً » ذلك أن مفهوم « الإقليم » بمعناه الخاص الذي يقوم على الفكرة الفلكية قد أخذ يخفى شيئاً فشيئاً . ويزيد ابن سعيد على الإدريسي أنه قد بين عروض وأطوال جميع المواضع المأهولة بطريقة دقيقة يمكن معها إلى حد كبير تخطيط مصور جغرافى متكامل .

وعلى الرغم من الطابع الثقلى الذى يغلب عليه إلا أنه يجب الاعتراف بأنه مصنف غنى حافل وان ما أورده من معلومات عن أوروبا الغربية خاصة فرنسا وهنغاريا لا يخلو من الطرافة ، كما لا يخلو منها أيضاً وصفه لآسيا الصغرى والمنطقة قسطنطينى بالذات التي كانت آنذاك مركزاً للتركان . وابن سعيد يقدم لنا معلومات عن الصقالبة الغربيين على سواحل بحر البلطيق ؛ وقد أخضع بارتولد مادته عن أوروبا الشرقية وآسيا الداخلية لدراسة ممتازة ؛ وهو على معرفة بالروس على سواحل بحر آزاق Azov ونهر الدون^(٢٣) كما وأنه يورد بعض التفاصيل عن جبال القوقاز^(٢٤) والشعوب القاطنة إلى الشمال والشرق منها كالبرطاس والغز والقومان والقبچاق^(٢٥) ؛ أما معرفته بالصين فتعتمد في الغالب على الإدريسي ولكنه كان على علم بالاسم التركى لبكين وهو خانبايق وباسم حاكمها لذلك العهد وهو محمود يلواج من أهل خوارزم ؛ وقد ساور الشك أبا الفدا في صحة هذه الرواية الأخيرة فأثر ألا ينقلها في مؤلفه الجغرافى^(٢٦) .

وأبو الفدا بوجه عام يقف موقف المتشدد من ابن سعيد بل إنه يذكر في مواضع من كتابه أنه قد اعتمد على روايته عن المغرب كل الاعتماد في مبدأ الأمر لأن ابن سعيد مغربى ولكنه مالبث أن تدين

* نشره مؤخراً معهد مولاي الحسن بتطوان بعناية Juan Vernet Gines الأستاذ بجامعة برشلونه . (المترجم)

له أخطاؤه فصار يتحاشاه^(٢٧). غير أن هذا الحكم القاسى لأبى الفدا لم يقره عليه العلم الأوروبي بصفة دائمة ، فأمارى Amari وهو من خيرة العارفين بالمصادر في هذا الميدان قد أضاف اللثام عن معرفة ابن سعيد الجديدة بجنوبي أوروبا^(٢٨) وإيطاليا بوجه خاص ؛ أما فيما يتعلق بنواحيها ومدنها مثل سردينيا وقورسика ونابلى وسالرنو ورومه ويزه وجنوه فقد أورد بشأنها عدداً من المعطيات الجديدة مما لم يعرفه المؤلفون الآخرون ، ولعله استقاهها من التجار الأندلسيين والأفارقة^(٢٩). وهذا الحكم عينه يصدق بدوره على معرفته بسواحل أفريقيا الغربية والشرقية التي لم يزرها بنفسه بل استقى مادته عنها من ملاح عربي لا نعلم عنه شيئاً يدعى ابن فاطمة ولعله عاش في القرن السابق على ذلك^(٣٠) ؛ وقد أبحر هذا الملاح على طول الساحل الغربي لأفريقيا حتى بلغ مصب نهر السنغال الذي كان يعتبر في ذلك الوقت متصلاً عن طريق نهر النيجر بحوض النيل الذي كان الجغرافيون يضمون إليه في ذلك العهد منطقة بحيرة تشاد^{(٣١)*}. أما في شرق أفريقيا فإن ابن فاطمة بلغ سفالة الزنج على ما يبدو وعرف جيداً مدغشقر^(٣٢) وربما ترتفع إليه تلك الرواية الهامة التي ينسبها ابن سعيد بروايتها دون المؤلفين العرب قاطبة والتي تتعلق باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر^(٣٣). وكل هذه الاعتبارات ذات الطابع العام والخاص تقف دليلاً على أن « جغرافيا » ابن سعيد تستحق اهتمام البحاثة المعاصرين ؛ ولا يزال محتفظاً بقيمته ذلك الرأي الذي أفصح عنه بارتولد منذ نصف قرن حين قال : « ويمثل هذا المصنف لدى مقارنته بالإدريسي وأبى الفدا قائمة بذاتها .. ولم يستطع أبو الفدا أو المترجمون والناشرون أن يستغرقوا جميع مادته^(٣٤) » ، أى أن المصنف لا يزال في حاجة إلى بحث خاص وعند ذلك فقط يمكن توضيح الجوانب الغامضة فيه توضيحاً كافياً .

ولإذا استحال القول بأن ابن سعيد كان مؤلفاً مغموراً ، سواء عند العرب أو لدى العلماء الأوروبيين ، فإن الصيت الأكبر في ذلك العصر بل وفي العصور التالية له كان من نصيب القزويني الذي يكاد يكون أكثر الكتاب العرب قاطبة قرباً إلى الجاهير ؛ ذلك أن معرفة جمهرة القراء بالآثار الأدبية لم ترتبط بالطبع دائماً بأسماء كبار العلماء بل كانت في أغلب الأحيان من نصيب تلك المصنفات المحببة إلى نفوسهم والتي تتجاوز مع رغباتهم . وإذا كان ياقوت قد بلغ الأوج في نمط المعاجم فإن القزويني يعتبر أكبر كوزموغرافي ومبسط للعلوم من أجل الجمهور . وكما رأينا من قبل فإن ممثلي هذا النمط بدأوا في الظهور منذ نهاية القرن

* لدى المترجم ما يحمله على الاعتقاد بوجود بعض الاختلاف بين هذا الكلام وبين النص الذي اعتمد عليه المؤلف ، لذا فقد أثر إيراده بحذافيره :

«The Author Ibn Said, on the thirteenth century, is very well acquainted, through the travels of with the Atlantic coast as far as the Senegal (which was thought to be connected with the Niger and even to belong to the same fluvial system as the Nile), and with the negro peoples living round lake Chad (p. 102, Legacy of Islam, 1960) (المترجم)

الثاني عشر ، وهم لم يقفوا عند حد عرض القوانين التي تتحكم في نظامنا الشمسي فحسب بل اهتموا على السواء بجميع الظواهر التي تحدث على الكرة الأرضية فلعبوا في وقت واحد دور الفلكيين والجغرافيين والجيولوجيين وعلماء المعادن والنبات والحيوان والاثنوغرافيا وبهذا يعتبرون إلى حد ما مكابن للمحافظ والمسعودي والبيروني ولكن مع الافتقار إلى الأصالة في البحث ونقص التحليل . وهم في كثير من الأحيان قوم متصوفون ولكن بطريقة بدائية ، يرون في كل شيء « معجزات الخالق » وكثيراً ما اتخذت رسائلهم طابع الموعظة والتهذيب . وهم على عكس أولئك لم يهدفوا للإبداع والأصالة بل اكتفوا بالنقل والجمع ولكنهم كانوا في العادة أمناء في نقلهم وبلغوا درجة رفيعة في التصنيف التركيبي ؛ ومؤلفاتهم وإن افتقرت إلى عنصر الذاتية إلا أنها كانت تتطلع في معظم الأحيان إلى الوضوح في الأسلوب والتزام منطق في العرض له سماته المميزة . والميزة الكبرى للقزويني هي في بلوغه بهذا النمط أقصى درجة من الإبداع الفني ؛ وسينضم إلى هذا الاتجاه في العصور التالية الدمشقي وابن الوردي (٣٥) .

والقزويني بالطبع ناقل مثالي ويقدم لنا نموذجاً حياً لأدب عصر التدهور ؛ وهو بالرغم من اطلاعه الواسع ومعلوماته الغزيرة إلا أنه لا يأتي بجديد أو يصوغ نظرية أصيلة . وقد عاونته ثقافته على أن يفقه كل شيء وفقاً لطريقته الخاصة مما أدى به في آخر الأمر إلى وضع مصنف تركيبي يجمع كل معارف عصره . والقزويني ككاتب يتميز بالوضوح في الأسلوب الذي يبلغ به في واقع الأمر درجة رفيعة ، وهو بلاريب نابغة كمبسط للمعارف يعرض مادته العلمية في كثير من المهارة بحيث لا تنفر القارئ العام . ولديه مقدرة فائقة في تبسيط أكثر الظواهر تعقيداً وذلك بطريقة جذابة واضحة كما وأن أسلوبه يجمع بوجه عام بين البساطة والتنوع ولو أنه يقدم في كثير من الأحيان صورة متداخلة الألوان (mosaic) من روايات المؤلفين السابقين عليه (٣٦) . ويرى أحد العلماء المعاصرين أن كوزموغرافيا القزويني هي أهم أثر أنتجه كاتب عربي في العصور الوسطى ؛ وكثيراً ما قارنه العلماء هيرودوت Herodotus وبايني Plinius ولعل هذه المقارنة لا تخلو من بعض الوجهة على الرغم من أنه يجب الاعتراف بأن القزويني لا يفضل هذين المؤلفين الكلاسيكيين سواء من ناحية الروح النقدية أو المنهج (٣٧) .

والقزويني هو زكريا بن محمد ، ويجب عدم الخلط بينه وبين سميح حمد الله قزويني المؤرخ والجغرافي الفارسي الشهير الذي سيرد الكلام عنه في حينه . وقد ولد القزويني في عام ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ ، ورغماً من النسبة التي يحملها فهو ينحدر من أسرة عربية أصيلة استقر بها المطاف في العراق العجمي منذ عهد طويل . ومن الملاحظ أن لغته العربية يكثر بها الغريب ولا ترتفع إلى مصاف اللغة الكلاسيكية مما يمكن أن يستدل منه على أنها لم تكن لغة طفولته (٣٨) . أما عن حياته وأساتذته فلا نعرف سوى النزر اليسير ، من ذلك أنه كان بدمشق حوالي عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ وهناك وقع تحت تأثير الصوفي الشهير ابن العربي (توفي عام ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠) (٣٩) كما ربطته علاقة بالكاتب والأديب الكبير ضياء الدين بن الأثير

أخ المؤرخ المشهور وكان مقياً آنذاك بالموصل (توفي في عام ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م)^(٤٠) : ولا شك أن القزويني درس الفقه لأنه تولى منصب القضاء بمدينة واسط والحلة بالعراق . ومن العسير القول ما إذا بقي في وظيفته هذه أم تركها عقب استيلاء هولاكو على بغداد ولكن من المؤكد أنه استطاع أن يتابع دراساته العلمية ؛ وقد توفي بعد ذلك بأمد طويل وهو في سن متقدمة وذلك في عام ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ .

ويرجع السبب في شهرة القزويني إلى أثرين قد يخطئ الناس بينهما أحياناً في مؤلف واحد ولكنهما مرتبطان على أية حال ببعضهما البعض ارتباطاً وثيقاً ؛ أما الكتاب الأول فيمكن أن نطابق عليه من باب التجاوز اسم « كوزموغرافيا »* وأما الثاني فهو مصنفه الجغرافي ؛ وكلاهما يتمتع بانتشار واسع أضاف إلى تعقيد المشكلة المتعلقة بمسودة الكتابين . ويحمل مصنفه في الكوزموغرافيا عادة اسم « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » وقد رفعه مؤلفه إلى حاكم بغداد في عهد المغول عطا ملك الجويني^(٤١) الذي سنتقى به بعد قليل كعلامة أيضاً ؛ وكل هذا يشير إلى أن القزويني قد بذل جهده في أن يكيف حياته وفقاً للأوضاع الجديدة . والنصف الأول من عنوان الكتاب تكرر لعنوان مصنف مر بنا الكلام عليه لأحمد طوسي ؛ وكما هو واضح فإن العنوان يحدد بصراحة انتهاء المصنف إلى نمط العجائب Mirabilia المعروف ؛ وقد عاون كثيراً انتشار هذا العنوان بين المصنفات التي من هذا الطراز على سهولة الخلط بينها . والكتاب ينقسم في جملة إلى قسمين يعالجان الكلام على العالمين العلوي والسفلي كل على حدة ، وتسبق هذا مقدمة تحوى تصنيفاً عاماً لجميع الموجودات وذلك وفقاً للمذهب اليوناني كما وجد لدى أرسطو خاصة . والقسم الأول الذي يبحث في العالم العلوي يتناول الكلام على الأجرام السماوية (الشمس والقمر والنجوم) وسكان ذلك العالم أي الملائكة ، وفي التوقيتات والتقويم العربية والسريانية وما يرتبط بها من أعياد ومناسبات ؛ أما القسم الثاني فمكرس للأرض وظواهرها بأوسع معنى تحمله هذه الكلمة ففيه يرد الكلام بشكل عام عن العناصر الأربعة ثم عن كل واحد منها بشكل خاص فيعالج الحديث عن النار والهواء والماء وعن الشهب والرياح . ويحوى هذا القسم وصفاً لتقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم مع بيان أسباب حدوث الزلازل وتكوين الجبال ونشأة الأنهار والمنايع والعيون ؛ ومحاولة لتدعيم هذه النظريات بتعليقات طبيعية وجيولوجية لا تخلو من الطرافة^(٤٢) . ويلى هذا عرض سريع للمالك الطبيعة الثلاث وهي المعدنية والنباتية والحيوانية^(٤٣) ؛ والمملكة الأخيرة تبدأ بالكلام على الإنسان وخصائصه الأخلاقية وتشريحه وتركيبه العضوي ومميزات الشعوب المختلفة ؛ ويعقب هذا الكلام عن المخلوقات الأخرى ابتداء من الجن والغيلان^(٤٤) . ومن كل هذا تبدو لنا لوحة متعددة الألوان تحفل بمادة جغرافية وافرة كثيراً ما تكرر مادة مصنفه الآخر في الجغرافيا .

* من المستحسن بهذه المناسبة أن نبين معاني ثلاثة ألفاظ هي كوزموغرافيا Cosmography أى علم وصف الكون وكوزمولوجيا Cosmology أى علم الكونيات وكوزموجينا Cosmogony أى علم نشأة الكون ، وهي جميعها مشتقة من اللفظ اليوناني كوزموس Cosmos أى الكون والنظام . (المترجم)

361 عرفت كوزموغرافيا القزويني في رواية قصيرة واسعة الانتشار توجد في طبعات عديدة موجزة وفي مسودات جديدة قد تحمل أحياناً عنواناً مخالفاً للعنوان الحقيقي للكتاب : وتوجد أقدم مخطوطاته المعروفة لنا بميونخ ويرجع تاريخ تدوينها إلى عام ٦٧٨ هـ = ١٢٨٠ أى والمؤلف على قيد الحياة^(٤٥) ؛ وهى مزودة بالرسوم المصغرة (المشتمات) Miniatures كما هو الحال مع عدد كبير من مخطوطات ذلك الكتاب ؛ والشئ الطريف في الأمر أن علماء الحشرات Entomologists يفترضون أن ذلك ربما يكون قد تم تحت إشراف القزويني نفسه^(٤٦). ويميز العلامة فستنفلد Wüstenfeld الذى ندين له بنشر الكتابين ، رغمًا من أن المادة لم تكن بأجمعها في متناول يده ، بين ثلاث مسودات لهذا الكتاب قام بتحضيرها حسب رأيه القزويني نفسه^(٤٧) ؛ إلا أنه تبين فيما بعد أن الأمر أكثر تعقيداً مما ظن فستنفلد : فمؤرخ العلوم الدقيقة المستعرب المعروف روسكا Ruska قد كشف النقاب عن وجود مسودة رابعة وذلك عند تحليله للفصول الأنثربولوجية والمعدنية من الكتاب خاصة الأسطورة المشهورة عن «حجر المطر» عند الشعوب التركية . وتنتمى أقدم مخطوطات الكتاب إلى المسودة الثانية التى وضّح أنها أكثر المسودات انتشاراً في اللغة العربية والتي توجد في عدد كبير من المخطوطات . أما المسودة الثالثة فلا يوجد أصلها العربى ، وطابعها المميز هو أنه قد أضيف إليها الفصلان السابع والثامن اللذان يعالجان الكلام عن الشعوب والحرف . وهذه المسودة الأخيرة ليست من عمل القزويني وهى الأساس الذى اعتمدت عليه الترجمات الفارسية واستندت إليه المسودة الرابعة ؛ وهذه الأخيرة هى آخر المسودات من الناحية الزمنية وأكثرها انتشاراً إلى أيامنا هذه وتمتاز بالعدد الكبير من الزيادات التى أدخلت على فصولها المختلفة فهى وحدها مثلاً التى تتحدث عن القبائل التركية في القرن العاشر وهى وحدها كذلك التى تتضمن القطع المعروفة لنا جيداً لأبي دلف وابن فضلان والفصول عن الأحجار الكريمة للخازنى ؛ ولا يوجد ثمة شك في أن هذه المسودة لا ندين بها لقلم القزويني فالخطوطة الأساسية لها تحمل عنواناً مغايراً وتعتبر نفسها شرحاً للقزويني .

هذه المسودة الأخيرة بالذات هى التى طبعها فستنفلد ومن ثم فإن الكوزموغرافيا التى نشرها لا يمكن اعتبارها بأية حال الأصل الذى أعده القزويني نفسه بل تمثل آخر رواية مصلحة للكتاب وترجع على ما يبدو إلى القرن الثامن عشر . وقد زاد فستنفلد من تعقيد المسألة بشكل ملحوظ بإسقاطه لقطع منها واستعانته بمخطوطات المسودات الأخرى ملء الفجوات المختلفة وبهذا يوجد بين أيدينا في الواقع متن يقوم على أساس تحكّمي (arbitrary) ولا يعكس أية واحدة من المسودات الموجودة بين أيدينا^(٤٨) وهو أمر يجب عدم إغفاله بالنسبة لجميع المسائل المتعلقة بدراسة «كوزموغرافيا» القزويني . لكل هذا فلا تزال الحاجة ماسة إلى طبعة علمية تعتمد قبل كل شئ على أقدم مخطوطات المسودة الثانية للكتاب .

362 وإذا كان من الواجب عدم تجاهل السابقين للقزويني في هذا المضمار فإنه يجب من جهة أخرى الاعتراف بمصنّفه كأكبر أثرٍ من هذا النوع كسب انتشاراً واسعاً في جميع آداب الشرق الإسلامى . ومن

الطريف اكتشاف شبه كبير بين القسم المتعلق منه بالعالم العلوي والرسائل المسيحية المعاصرة في الغرب والشرق^(٤٩) ؛ ويصدق هذا بشكل خاص على المصنف السرياني المجهول المؤلف « علث كل علان » (« علة كل العلال ») الذي يصفه زخاو Sachau بأنه مصنف في الكوزموغرافيا لا مثيل له من حيث طرافته وأنه يهدف لتقديم « كتاب عام لجميع الشعوب »^(٥٠) ؛ ولا مشاحة في أن روايات جميع هذه المصنفات إنما تشترك من حيث مصادرها .

ولا يقف برهاناً على الرواج الكبير الذي لقيته كوزموغرافيا القزويني ذلك التباين والتعدد في مسوداته ومخطوطاته فحسب بل أيضاً العدد الكبير من الترجمات والمسودات المعدلة التي ظهرت باللغات الأخرى ، فقد ظهرت المسودة الفارسية للكتاب في وقت واحد بالتقريب مع مسودته العربية . ومعروف لنا ما لا يقل عن ثلاث مسودات بالفارسية هذا عدا الموجزات والمقتطفات ؛ بل إن القسم الثاني من الكتاب موجود في رواية شعرية . أما المسودات المعدلة والترجمات باللغة التركية فقد أخذت في الظهور منذ منتصف القرن الخامس عشر وظلت تتوالى في سلسلة لا تكاد تنقطع خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر^(٥١) ، بل إنه توجد ترجمة چغتائية* محفوظة في مجموعة خانيكوف Khanikov الموجودة بالمكتبة العامة ببطرسبورغ^(٥٢) . وبالطبع فإن الغموض لا يزال يكتنف العلاقة بين جميع هذه الترجمات والمسودات المصلحة بحيث يحتاج فحصها إلى نفس الجهود الذي يحتاج إليه فحص المسودات العربية للكتاب ؛ والأمر الذي لا يرقى إليه الشك هو أن عددها الكبير يقف دليلاً على الرواج والانتشار والإقبال الذي لقيته كوزموغرافيا القزويني . وقد امتد صيت الكتاب حتى بلغ روسيا الموسكوفية في أواخر القرن السادس عشر فهو بهذا يوشك أن يكون المصنف العربي الوحيد الذي نفذ اسمه إلى الوثائق الرسمية لتلك الحقبة من التاريخ الروسي بل إن هذا قد ساق بدوره إلى افتراض مبالغ فيه عن ضخامة مكتبة ايغان الرهيب . ويتلخص جوهر القصة^(٥٣) في أن السفير الموسكوفي الذي أرسل في عام ١٥٦٥ إلى دولة نوغاي Nogai** كان قد كلف بالآتي : « ويقول الأمير تونمخات Tunemkhat : « لقد كتبت إلى الملك والأمير العظيم بشأن كتاب taz'a ibu imakh lukat فلم يرسل الملك الكتاب إلى » . وقولوا لميخائيل : إن ملكنا قد أمر بالبحث عن ذلك الكتاب في خزائنه ولكن لم يمكن العثور عليه » . وليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن هذا العنوان المحرف إنما قصد به كوزموغرافيا القزويني إذ من الصعب القول بأنه المقصود بذلك

* يطلق اسم الچغتائية على اللغة التركية الأدبية التي ازدهرت بآسيا الوسطى عقب الغزو المغولي وظهر بها أدب حافل كان من أكبر مثاليه على شيرنوائى والسلطان بابر . وهذه النسبة مأخوذة من اسم چغتاي أحد أبناء جنكيزخان وكان أبوه قد أقطعه أقطار آسيا الوسطى عندما قسم إمبراطورية المغول المتراصة الأطراف بين أفراد أسرته . (المترجم)

** اسم إمارة من الإمارات التترية التي تقاسمت الحكم عقب سقوط دولة الأوردو الذهبى في أواخر القرن الرابع عشر ، ولا تزال تحمل هذا الاسم قبيلة مسلمة تتكلم لهجة تركية وتوطن في منطقة القوقاز الشمالية . (المترجم)

† أى أنه يجب أن يرى في هذه الألفاظ اسم « عجائب المخلوقات » . (المترجم)

مُصنّف آخر يحمل نفس هذا الاسم حتى ولو كان ذلك مُصنّف أحمد طوسي : ولعله من الخير البحث عن توضيح لهذه المسألة في واقعة تاريخية معينة ؛ فقد حدث في عام ١٥٤٩ أن وضعت قوات دولة موسكو يدها على سفارة كانت في طريقها من قازان إلى القريم وكان في حوزة هذه السفارة نسخة من كتاب يحمل نفس ذلك العنوان . هذه الرواية التي تقدم لنا تفاصيل الواقعة والتي ترجع إلى عصر ايثان الرهيب تقدم ترجمة عنوان الكتاب على أنها « حكمة كل العالم » ولكن تضيف إلى هذا أنه « مدون باللغة الفارسية » ؛ وبهذا يصبح من العسير علينا أن نحدد بصفة قاطعة أي روايات القزويني بالذات هي التي وجدت طريقها إلى أراضي دولة الموسكوف . هذا وقد ظلت كوزموغرافيا القزويني ممتعة بالرواج بين الجمهور في آسيا الوسطى حتى السنوات العشرينات من هذا القرن ولم يمر يوم إلا وظهرت طبعات جديدة لترجماتها في اللغات المحلية المختلفة .

363

وثمة دليل آخر على الانتشار الواسع الذي تمتع به مُصنّف القزويني هو أنه من الكتب العربية القليلة التي زينت بالتصاوير ؛ فهو مزود لا بأشكال وجداول فلكية فحسب بل أيضاً بالرسومات المصغرة (المنمنمات) Miniatures التي تبلغ أحياناً قمة الجودة والإتقان كما يظهر هذا من مخطوطة ميونخ التي مر القول عليها ، وأيضاً في مخطوطة موجودة بمعهد الدراسات الشرقية . ونفس الرسوم تتكرر في المسودات الغربية والفارسية على السواء ؛ وإذا حدث وغلب طابع الخيال على بعض رسوم النبات والحيوان وجميع أصناف الوحش فإن الرسومات المصغرة قد عاونت في أحوال معينة على تفسير مسائل على غاية من الأهمية كتاريخ تصوير الكواكب مثلاً وبعض مسائل التاريخ الطبيعي^(٥٤) . وفي الختام يمكن أن يلاحظ أن معظم مخطوطات القزويني ، شأنها في هذا شأن المصنفات الكوزموغرافية المتأخرة لبحراني وابن الوردي تحتوي على خارطة مستديرة للعالم من طراز خارطة الإصطخرى^(٥٥) .

أما مُصنّف القزويني الآخر والذي يطلق عليه مع بعض التجاوز اسم « جغرافيا » فهو معروف بدوره في روايتين تحمل إحداهما عنوان « عجائب البلدان » وترجع إلى عام ٦٦١ هـ = ١٢٦٣ ، بينما تحمل الأخرى عنوان « آثار البلاد وأخبار العباد » ويرجع تاريخها إلى عام ٦٧٤ هـ = ١٢٧٥ ، وهي تختلف عن الأولى اختلافاً كبيراً وتضم زيادات هامة^(٥٦) ؛ وطبعة مُستنفذة تعتمد على الرواية الثانية .

ووصف الأرض موزع هنا على الترتيب المعروف لنا أي بتقسيمها إلى سبعة أقاليم ؛ وفي داخل كل إقليم يرد وصف مختلف البلاد والمدن والجبال والجزر والبحيرات والأنهار الخ وفقاً لحروف المعجم . وهو في كلامه عن كل بقعة يتحدث عما يستحق الاهتمام فيها ويورد في هذا الصدد تفاصيل تاريخية وافية كما أنه لا يهمل التفصيل أيضاً حين يتحدث عن سير مشاهير الرجال في الأماكن المختلفة ؛ نلتقي من بين هؤلاء كما لاحظ براون Browne بعدد كبير من شعراء الفرس بحيث تعتبر رواياته أحياناً من أقدم ما وصلنا عنهم^(٥٧) ؛ وهكذا فإن جغرافيا القزويني تقترب من حيث طرازها من معجم ياقوت

الجغرافى **||** بل إنه يستعير منه الكثير . وتوزيع المادة فى هذا الكتاب على صورة سبعة معاجم مستقلة بحسب 364 الأقاليم السبعة لا يجعله سهل المتناول ، كما وأن عدداً من الفقرات كتلك التى تتناول الحديث عن الجبال والبحار والأنهار المختلفة كثيراً ما تكرر بالحرف الواحد تقريباً نفس المعطيات التى وردت فى مصنفه الكوزموغرافى (٥٨) . أما مادته الجغرافية فلا يمكن مقارنتها بمادة ياقوت أو بمادة الجغرافيين الأوائل من باب أولى ولو أنها لا تخلو من روايات طريفة ؛ كما يجب الاعتراف من ناحية أخرى بأنها تتميز دائماً بالإمتاع مثال ذلك أنه عند الكلام على الإقليم السادس يورد فقرة عن إيرلنده يتحدث فيها عن صائدئ القيطس ، وفى الإقليم السابع يعدد الصور المختلفة عند الفرنجة لما يسمى « بالحنة » (ordeal) سواء كان ذلك بالنار أو الماء أو القتال ، كما يتحدث أيضاً عن السحر والساحرات وحرقهن (٥٩) .

وجغرافيا القزوينى بوجه عام لم تحظ بمثل ما حظيت به الكوزموغرافيا من رواج وانتشار ولكنها فى مقابل ذلك معروفة فى عدد من الترجمات الفارسية والمختصرات التركية (٦٠) . ويقدم لنا فى بداية القرن الخامس جغرافى من أهل القوقاز يعرف بالباكوى رواية جديدة للجغرافيا لها أهمية قائمة بذاتها من بعض النواحي ؛ هذا وسيرد الكلام عن ذلك فى حينه .

ولم يحدث حتى الآن أن تصدى أحد العلماء لدراسة مصادر القزوينى ولو فى المجالين التاريخى والجغرافى كما حدث مع ياقوت ؛ أما المجهود المثمر الذى بذله فى هذا الصدد مولر Möller و فستنفلد فيرتفع إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما لم يكن تحت تصرف العلماء آنذاك المادة المتوفرة حالياً . وقد عدد فستنفلد ما يقرب من خمسين مؤلفاً من الذين رجع إليهم القزوينى فى تأليف جغرافيته ؛ ويلاحظ أنه يوجد من بينهم كبار المؤرخين والجغرافيين المعروفين لنا (٦١) ؛ ويمكن بالطبع زيادة هذا العدد بصورة ملحوظة فى الآونة الحاضرة . وتسمح لنا الأبحاث التى أفردت لدراسة القزوينى خاصة بتكوين فكرة عن مدى اطلاعه الواسع ومحيط قراءاته ، حتى ولو اقتصرنا فى ذلك على ذكر ما مر فى صفحات كتابنا حتى هذه اللحظة . والقزوينى قد اطلع على تراث الأوائل عن طريق الرواية العربية كجميع العلماء العرب تقريباً ، وهو على معرفة جيدة بكتاب « المعادن » المنسوب خطأ لأرسطو كما كان على معرفة أيضاً بمؤلفات ابن سينا . أما من بين المؤلفين السابقين له فى ميدان الجغرافيا فإنه لم يجتذبه كثيراً ممثلو « المدرسة الكلاسيكية » ولو أنه كما رأينا على معرفة « بأطلس الإسلام » ؛ وحيث أن هدفه الأساسى كان الإمتاع فقد اجتذبه أكثر من ذلك المؤلفون من طراز الجيهانى والجاحظ والمسعودى ولكن هذا لم يحل دون رجوعه مراراً إلى ممثلى العلوم الدقيقة ، فهو مثلاً يستشهد بالبىرونى عند معالجته لمسألة كثر حولها الأخذ والرد أعنى مسألة صلاحية الأقاليم للسكنى فيقول : « فإذا تأملت وجدت الناس محصورين فى الأقاليم السبعة وليس لهم علم بحال بقية الأرض » (٦٢) . هذا وتمثل الرحلات بالنسبة للقزوينى مادة ذات قيمة خاصة **||** وقد 365 حدث أن أشرنا فيما سبق من هذا الكتاب إلى أنه قد حفظ لنا شذرات هامة مما دونه هارون بن يحيى

عن بيزنطة (٦٣) كما حفظ لنا أيضاً قطعاً من روايتي أبي دلف وابن فضلان . ومن الطبيعي جداً أن يكون القزويني قد أفاد فائدة محسوسة من السابقين له في هذا المضمار مثل أحمد طوسي الذي تحدثنا عنه وعن مصنفه الذي يحمل نفس العنوان فيما مر من هذا الكتاب . ومما يقف دليلاً على سعة المادة التي جمعها القزويني تلك المصادر التي يوردها عن الأندلس فهو قد رجع إلى مؤلفات أبي حامد الغرناطي المعروف لنا جيداً وإلى العبدري السابق له كما يدين له العلم إلى حد كبير بحفظه لعدد من الشذور عن إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي . ويجب في آخر الأمر ألا نغفل مسألة هامة وهي أن القزويني قد استخدم مصادر لم تصلنا فهو مثلاً قد أفاد من رواية عن رحلة في داخل أفريقيا لشخص يدعى أبا الربيع سليمان الملتاني لا يعرف عنه شيئاً البتة (٦٤) ومن المحتمل أنه لعب بالنسبة للقزويني نفس الدور الذي لعبه ابن فاطمة الذي أبحر على طول سواحل أفريقيا بالنسبة لابن سعيد . وحتى إذا ما اكتفينا بسررد عاجل للمصادر الثانوية التي استعان بها القزويني فإن اللوحة التي تتكشف لنا تبعث في الواقع على الكثير من الدهشة .

أما أثر القزويني في الأدب المتأخر فليس ثمة ما يدعو إلى الوقوف عنده بشكل خاص بعد كل : ما ذكرناه عن التعديلات والتصيلحات التي مرت عليها مصنفاته ؛ وبالطبع قد وجد عدد من المؤلفين ممن اعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً مثل الديميري عالم الحيوان المعروف (٦٥) . وإن عدم وجود طبعات علمية لمصنفات القزويني ليقف دليلاً على أن العلم الأوروبي لم يفرغ من دراستها بعد ، وقد كان ظهور طبعة فستنفلد حافظاً لإيتيه Ethé على ترجمة الكتاب فبلغ إلى منتصفه ، ومما يسبغ على ترجمته أهميته خاصة تلك التعليقات والتصحیحات العديدة التي ندين بها لقلم فليشر Fleischer . وقد رجع العلماء مرة ثانية في القرن العشرين إلى منهج الاستقصاء المحدد لنقاط معينة من القزويني ، وهو ذلك المنهج الذي أنار السبيل إليه في مستهل القرن التاسع عشر المستشرق دى ساسي De Sacy بطبعه للأقسام المتعلقة بالمعادن والنبات والإنسان من كتاب القزويني والذي سلكه أيضاً ايدلر Ideler الذي أفاد في بحثه الممتاز (١٩٠٩) من وصف النجوم لدى القزويني (٦٦) ؛ وقد أيدهم في هذا المجال بشكل خاص في الآونة الأخيرة العلامة ياكوب Jacob الذي لم يقصر نشاطه على تحليل المادة المتصلة بإبراهيم بن يعقوب بل عالج أيضاً في أبحاث خاصة علم الطيور وعلم النبات لدى القزويني ؛ أما العلامة رسكا Ruska فبعد دراسة عميقة لقسم المعادن توصل كما رأينا إلى نتائج أساسية هامة تتعلق بتاريخ تدوين المصنف وذلك في مقال له يتميز بالدقة وعمق التحليل . ويقدم لنا مؤرخ العلوم فيدمان Wiedemann وذلك في مجموعة من المقالات تحليلاً لعدد من المسائل التي عالجها القزويني من محيط الفيزياء والتاريخ الطبيعي ؛ ومثل هذه المادة كبير للغاية ومتنوع لدى الكوزموغراف العربى ويكنى أن نلاحظ في هذا الصدد وجود ترجمات لعدد من الفصول الخاصة منها ما هو متعلق بالأرواح والمخلوقات العجيبة (انسباخر Ansbacher ١٩٠٥) (٦٧) ومنها ما يتعلق بآرائه في علم النفس Psychology (تيسنر Taescher ١٩١٢) (٦٨) ؛ ونتيجة لهذا فإنه يمكن أن نكرر بشأنه نفس الحكم الذي أصدرناه

في أحوال عديدة عن بقية الجغرافيين العرب وهو أن مصنفاته أبعد من أن تكون قد استوفت حقها بعد من الدراسة ولو أن المادة قد تجمعت بصورة متزايدة تسمح من الآن بوضع دراسة خاصة عميقة عن هذا المؤلف ؛ بل إن العرب أنفسهم لم يعودوا في الآونة الأخيرة يبصرون في مؤلفاته مجرد حكايات طريفة فحسب تعج بمختلف العجائب الخارقة من صنع الخيلة^(٦٩) ، كما حدث مع أوروبا لزمان طويل .

وابن سعيد والقزويني هما أضخم الأسماء التي ظهرت في محيط الأدب الجغرافي لنهاية القرن الثالث عشر وإلى جانبهما تتضاءل أسماء أولئك الرحالة الذين اكتسب كل واحد منهم أهمية معينة في محيطه الخاص ولكنهم لم يلعبوا دوراً هاماً في المحيط العام ؛ لهذا فإننا نفتقر إلى معلومات كافية عنهم وليس من النادر عن مصنفاتهم أيضاً . وليس من محض الصدفة أن الغالبية العظمى منهم قد اتجهت من المغرب إلى المشرق وأن أسفارهم تنضوي تحت النمط المعروف لدينا باسم « الرحلة » ولو أنه اكتسب طابعاً خاصاً في هذا الميدان.

وأحد هؤلاء الرحالة كان أبو محمد العبدري الذي ينتمي في الأصل إلى مدينة بلنسية Valencia على ما يبدو^(٧٠) . وتشير النسبة إلى أنه ينحدر من صلب بني عبد الدار من بني قصي وهذا الأخير هو الذي تنسب إليه الأسطورة توحيد قبيلة قريش^(٧١) . أما سيرة حياة العبدري فلا نكاد نعلم عنها شيئاً ويلوح أنه كان على صلة ما بمراكش لأنه بدأ أسفاره من موغادور Mogadar تاركاً أسرته مع قبيلة حاحه^(٧٢) . وقد خرج في رحلته يصحبه ابنه في ديسمبر من عام ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ ووجهته مكة^(٧٣) ، وفي البداية سارت الرحلة ببطء في شمال أفريقيا وتوقف الرحالة خلالها وقفات طويلة بالمدن الكبرى . ومن مصر رافق فافلة الحج لأداء الفريضة^(٧٤) ثم رجع إلى مصر عن طريق فلسطين فأمضى بعض الوقت بالقاهرة والإسكندرية وغادرها إلى وطنه ماراً في طريقه بتلمسان وفاس ومكناسه حتى بلغ أزمور على المحيط وهناك أقام لبعض الوقت حتى تلاحق به أسرته^(٧٥) . هذا وقد أخذ في رحلته طريق البر ذهاباً وإياباً وربما دفعه إلى هذا كراهية العرب المعهودة لركوب البحر^(٧٦) ؛ وقد بدأ رحالته في تدوين وصف رحلته وهو بتلمسان وكرسه بصورة خاصة للكلام على المدن الكبرى بشمال أفريقيا ؛ وابتداء من القاهرة يبدأ الوصف يفقد حيويته وتفصيله^(٧٧) أما الرحلة نفسها فتتمثل إلى حد ما لوناً جديداً عند مقارنتها بمن سبقوه في هذا المضمار وهي تحفل في واقع الأمر بكمية كبيرة من المعطيات الجغرافية إذ يقدم لنا المؤلف وصفاً دقيقاً وصحيحاً للمواضع والبقاع المختلفة مع تفاصيل وافية عن الآثار القديمة وأخلاق السكان المحليين^(٧٨) . وقد لاحظ أحد العلماء الأسبان أن عرضه يتميز « بالصدق والدقة في الرواية والحيوية والرشاقة في الأسلوب » ؛ وقد تمكن هذا العالم في أثناء رحلة قام بها في الجزائر وتونس من أن يتحقق بنفسه من دقة ملاحظات العبدري التي تتميز أحياناً بلون محلي خاص^(٧٩) . غير أن الطابع الأساسي للمصنف لا يعكسه هذه المعلومات الجغرافية على الرغم من أنها لا تخلو من القيمة بجانب أهميتها ودقتها ، ذلك أن اهتمام المؤلف الرئيسي قد اتجه إلى الحديث عن العلماء الذين التقى بهم والذين تتلمذ عليهم أحياناً ردها من الزمن

في الأماكن التي يقيمون بها^(٨٠). وهو يغتم أمثال هذه المناسبات في سرده ليبين مهارته الأدبية فيسوق بعضاً من قصائده أو يصوغ الوصف في نثر مسجوع تغلب عليه الصنعة ؛ وقد لاحظنا من قبل أن هذا الاتجاه كان خاصاً بابن جبير ولكنه لم يغلب لديه بشكل يطغى على خيط القصة أما ابتداء من العبدري فإن نمط الرحلة أخذ يتحول شيئاً فشيئاً إلى ضرب من يوميات العلماء تتدهور أحياناً لتصبح محاولة من المؤلف ليرز فيها المدى الذي بلغته معارفه^(٨١) ؛ ويجب أن نستدرك على هذا بقولنا إن العبدري لم ينحدر إلى ذلك المستوى فعلى الرغم من أن أسلوبه لا يخلو من التكلف إلا أنه يكتب في نفس الوقت بحرية ويسر بحيث لا يصل إلى درجة المبالغة المموجة التي نلتقي بها لدى ممثلي الأجيال التالية ، أو يجعل من مصنفه مجموعة من التطبيقات الأدبية^(٨٢). ومن المؤكد أنه كان على معرفة بمن سبقوه في هذا الاتجاه ؛ وهو عندما يضمّن وصفه كلاماً من المسعودي أو البكري إنما يدفعنا بذلك إلى إعمال الحذر بل وإلى التساؤل هل يعتمد وصفه على المصادر المكتوبة دون الملاحظة المباشرة^(٨٣) ؛ ومن حسن الحظ أن هذا الرأي الأخير لا يوجد كما رأينا ما يبرره تبريراً كافياً. وهو ينقل في بعض الأحيان عن مواطنه ابن جبير ويورد أشعاره^(٨٤) ؛ والعبدري بوجه عام يميل إلى الشعر بشكل واضح ويضمّن وصف رحلته عدداً كبيراً من قصائده الشخصية حتى تلك التي لا علاقة لها البتة بقصة الرحلة نفسها^(٨٥) ؛ كما وأنه يختتم رحلته بقصيدة طويلة في وصف الطريق. وقد شبه البعض العبدري بابن بطوطة على غير أساس^(٨٦) ذلك أن رواية ابن بطوطة تحتل فيها القصة المكانة الأولى بينما يولي العبدري اهتماماً كبيراً للآثار الأدبية. ويجب الاعتراف بأن معرفتنا بالعبدري ضئيلة للغاية كما أنه لا توجد حتى الآن طبعة لمصنفه^(٨٧) ؛ ولإعطاء فكرة عن معدل السرعة التي سار بها تطور العلم نذكر أن الشكوى التي عبر عنها شربونو Cherbonneau في عام ١٨٥٤ بصدد جهل القراء الأوروبيين به لم يمكن ندا ركبها إلا في عام ١٩٤٠ بفضل دراسة هنريباخ Hoenerbach^(٨٨).

وهناك احتمال في أن يكون محمد العبدري الذي لقب احتراماً باسم ابن الحاج ابناً لرحالتنا هذا ؛ وهو من مواليد فاس ولكنه تولى بالقاهرة. وقد نال الشهرة قبل كل شيء كفقيه^(٨٩) ولو أنه من الطريف أن نلاحظ أن مصنفه الرئيسي الذي أفرد له الكلام عن مختلف أنواع البدع يضم بين دفتيه مادة وفيرة في الجغرافيا والاثنوغرافيا ، وهو نفس المصنف الذي قدم كمية هائلة من المعطيات لبحث خاص يتمتع بطرافة كبرى بعنوان « اصطلاحات وفن الطحانين والحجازين في العصور الوسطى الإسلامية » (R. Mielck, 1914) *Terminologie der Müller und Bäcker im islamischen Mittelalter*, ١٩٠٠.

ولم تكن رحلة العبدري المصنف الوحيد في بابها فقد قام مغربي آخر يدعى (أبو عمر عبد الله بن رُشيد) النشرسي برحلة طويلة امتدت لبضعة أعوام من ٦٧٣ هـ - ٧٠٠ هـ = ١٢٧٤ - ١٣٠٠ بدأها من غرناطة وزار خلالها شمال أفريقيا ومصر والشام ووصف كل ذلك في الأجزاء الخمسة التي تكون

« الرحلة »^(٩١) : ويحتل مكان الصدارة لديه سير العلماء المقيمين في الموطن التي زارها ووصف المكتبات ودور العلم المختلفة . ولإعطاء فكرة عن ضخامة مصنفه نذكر أن الجزء الثالث منه المحفوظ بالاسكوريال قد أفرد بتمامه للكلام على علماء الإسكندرية والقاهرة بين عامي ٥٨٥ هـ = ١٢٨٦ و ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ ؛ وذلك عندما كان المؤلف مقياً بمصر^(٩٢) .

- 369 ومن الطبيعي أن نفترض أن مثل هذه الرحلات العلمية لم تسر في اتجاه واحد فقط أى من الغرب إلى الشرق بل سارت أيضاً في الاتجاه المضاد . وتوجد بمكتبة برلين مخطوطة لوصف رحلة ثم تأليفه بمدينة الجبل على نهر الفرات في عام ٦٩٩ هـ = ١٢٩٩ وهو لمؤلف غير معروف لنا عن قرب ويدعى الفضل بن يحيى الطيبي^(٩٣) . وفي هذا المصنف يرد الكلام عن رحلة لشخص يدعى على المازندراني صاحب فيها أستاذه على الأندلسي ، وكانا قد خرجا في رحلتهم من دمشق فورا على مصر في طريقهما إلى الأندلس وبلاد البربر . ويرد في سياق العرض ذكر لزيارتهم بالجزيرة تسمى « جزيرة الرافضة » (ربما يعنى بذلك جزيرة جربة كما يفترض بروكلمان) ؛ ويغلب الخيال على الحقيقة عندما يدعى بأنه أمضى ثمانية أيام في الجزر الخضراء (جزر الأزور Azores) بالبحر الأبيض (البحر الأطلنطي) في محادثة علمية مع رجل عرف بتمتعه في القرآن هو شمس الدين محمد العالم ، وأنه اضطر لأسفه الشديد إلى مغادرته لأنه كان ينوى الإسراع في العودة ؛ واسم بطل القصة يدفعنا إلى التشكك في صحتها وإلى التساؤل أليست هذه القصة بخدافيرها من نسج خياله وذلك على الرغم من أن مخطوطة كتابه تحدد بالكثير من الدقة مسقط رأسه على أنه بماندردان^(٩٤) . وعلى أية حال فإنه يمكن الخروج بنتيجة هامة هي أنه ابتداء من القرن الثالث عشر بدأ طابع الرحلة في « طلب العلم » يطغى على نمط الرحلة وما لبث أن اتسع نطاق انتشاره على ممر القرون حتى بلغ الأوج بوجه خاص في العهد التركي .

- ويمثل الجغرافيا الإقليمية (regional) لهذا العهد بالشام مصنف يتميز بالطرافة وهو للمؤرخ عز الدين ابن شداد ، ويجب ألا يخلط بينه وبين كاتب سيرة صلاح الدين الأيوبي المشهور بهاء الدين بن شداد الذي عاش قبل ذلك بقرن من الزمان . أما اسم مؤلفنا الكامل فهو أبو عبد الله محمد* بن علي بن إبراهيم الحلبي^(٩٥) ؛ وأصله من حلب وقد شغل منذ سنن شبابه الأولى مناصب إدارية لدى الأيوبيين وكان يعد خبيراً في شئون الميزانية والمالية ، الأمر الذي انعكس بشدة في كتابه^(٩٦) . وقد عاش عز الدين في أزمنة خطيرة فقد ولد عام ٦١٣ هـ = ١٢١٧ وأخذ طرفاً في النشاط الدبلوماسي لعصره فشارك في النضال العسكري ضد الزحف المغولي . وفي عام ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ عندما استولت جمحافل المغول على حلب^(٩٧) هاجر عز الدين إلى القاهرة وهناك تمتع برعاية الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون^(٩٨) ؛ وفي عام ٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ تمكن من زيارة دمشق ولكنه لم يلبث أن عاد إلى القاهرة وتوفي بها في عام ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥^(٩٩)

* سقط اسم محمد سهواً في المتن الروسي . (المترجم)

ويحمل مصنفه الأكبر اسم «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» ؛ ويجب ألا تصرفنا هذه التسمية عن مادة الكتاب فهو لا يقتصر على تاريخ أمراء هاتين المنطقتين بل على العكس من ذلك نجد أن المخطوطات التي وصلت إلينا كثيراً ما تخلو تماماً من الأقسام المفردة لهم إما لأنها فقدت أو أنها لم تكتب منذ البداية . والكتاب يمثل في الواقع دراسات مستقلة ذات طابع نصف تاريخي ونصف جغرافي للمقاطعات والمدن المختلفة^(١٠٠) ، الأمر الذي يقرب الكتاب أحياناً من نمط الخطط المصرية .

وعلى الرغم من أن المصنف قد عرف منذ زمن طويل إلا أن الحكم عليه كان أمراً عسيراً حتى الآونة الأخيرة ؛ وفي الواقع أن هذا لم يعد أمراً ممكناً إلا عقب اكتشاف مخطوطة الفاتيكان التي يغلب على الظن بأنها بخط يد المؤلف نفسه فهي التي مكنت كلامن كاهن Cahen^(١٠١) ولودى Ledit^(١٠٢) من كتابة مقالهما عن هذا المصنف . والكتاب ينقسم إلى ثلاثة أجزاء ليس من النادر أن يتبادل الثاني والثالث منهما الأماكن ؛ هذا وقد بدأ ابن شداد العمل فيه وهو بمصر . وهو أشبه بخلاصة للوضع في العالم العربي شرقي البحر الأبيض المتوسط قبل تحركات المغول ، وقد انتهى ابن شداد من الجزء الأول الذي أفرد له لشام الشام في عام ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ أما الثاني المفرد لجنوبي الشام فقد أتمه عام ٦٧٤ هـ = ١٢٧٥ بينما أنهى الجزء الثالث الخاص بالجزيرة في عام ٦٧٥ هـ = ١٢٧٦^(١٠٣) ؛ وعلى أية حال فإن تاريخ مسودته النهائية لا يتجاوز عام ٦٧٩ هـ = ١٢٨٠^(١٠٤) . والجزء الأول من الكتاب في قسمين يتناول الأول منهما الكلام على منطقة حلب بينما

يعالج الثاني الكلام على قنسرين والمناطق الملاصقة لها (العواصم والثغور) وحصص ؛ أما القسم الثالث الذي كان سيتناول الحديث عن أمراء حلب فلا يوجد أثر له في المخطوطات^(١٠٥) . وينقسم الجزء الثاني من الكتاب إلى عدد مماثل من الأقسام فالقسم الأول منه مخصص لدمشق والثاني لمدن الشام الجنوبية وفلسطين باستثناء دمشق ، أما الثالث المفرد لأمراء دمشق فهو أيضاً معدوم الأثر^(١٠٦) . ويوجد الجزء الثاني مستقلاً بنفسه في مخطوطة محفوظة بليدن تحت عنوان يجانبه التوفيق هو «برق الشام في محاسن إقليم الشام»^(١٠٧) ؛ وكما دلل حبيب الزيات^(١٠٨) فإن هذا لا يعدو أن يكون تزييناً فريداً مرجعه في أغلب الظن إلى أحد النساخ لأن النص لا يختلف في الواقع عن أصل الكتاب إلا في مختصرات ضئيلة وفي بعض التغييرات في صيغة العبارة . والجزء الثالث المكرس للجزيرة ينقسم بدوره أيضاً إلى ثلاثة أقسام وفقاً لمناطق ديار مضر وديار ربيعة وديار بكر مع وصف أهم المدن الموجودة في كل منطقة^(١٠٩) . وهذا التقسيم وإن كان في جوهره متعدد الجوانب إلا أنه يغلب عليه الطابع التاريخي الجغرافي ، ويمكن أن نحكم على محتويات الكتاب حتى ولو اكتفينا بسرد سريع لعناوين تلك الفصول العشرة التي يتكون منها القسم الخاص بدمشق^(١١٠) :

- (١) في ذكر اشتقاق اسمها . (٢) في ذكر من بناها وعدة أبوابها وقلعتها (٣) في ذكر مسجدتها الجامع (الجامع المعمور) (٤) في ذكر مساجدها بياطنها وظاهرها (٥) في ذكر المزارات بها بياطنها وظاهرها (٦) في ذكر الخوانق والربط بياطنها وظاهرها (٧) في ذكر المدارس (٨) في ذكر ما بدمشق وظاهرها

من الكنائس والأعمار (٩) في ذكر الحمامات بباطن دمشق وظاهرها (١٠) في ذكر فضلها وما مدحت به نثراً ونظماً . وفي وصفه لحلب يزيد في الفصول حتى يبلغ بها سبعة عشر فصلاً (١١) هذا بينما يميل وصفه إلى الاقتضاب فيما يتعلق بالمدن التي تقل أهمية عن ذلك ولو أنه لا يحيد في شيء عن المنهج الذي سار عليه في بقية الكتاب*

ولكتاب ابن شداد مزايأ أخرى فصادره مثلاً متنوعة وقيمة للغاية ، وهو يسمح لنا دائماً بالتعرف على مصنفات لم تصل إلينا أحياناً بطريق مباشر (١٢) . وأطرف من هذا أنه لم يكن له علم فيما يبدو بمعجم ياقوت ، ومهما يكن من شيء فإنه لم يشر إليه ولو مرة واحدة (١٣) . ومن الجدير بالملاحظة أن ابن شداد كان حتى عام ٦٢٩ هـ = ١٢٣٢ يعتمد اعتماداً كلياً على رواية الغير (١٤) ولكن ابتداء من ذلك التاريخ أخذ يبدو على عرضه طابع الأصالة التامة الذي يعكس بجدارة اتساع تجربته وملاحظته الشخصية . هذا ولم يفد المؤرخون المتأخرون كثيراً من كتاب ابن شداد (١٥) باستثناء الأقسام المتعلقة بالشام وبدمشق بصفة خاصة والتي اجتذبت اهتمام جميع من عالجوا الكتابة في أمثال هذه الموضوعات (١٦) . وتعتبر مادة ابن شداد في تاريخ دمشق وخطوطها من أكل ما قدمه عصره (١٧) وقد تردد صدى هذا عند جميع المؤلفين الذين كتبوا عن فضائل دمشق في العصور التالية له ؛ ومما يزيد في أهمية ابن شداد أنه يكاد أن يكون الممثل الأخير للجغرافيا التاريخية على الأساس الإقليمي الذي درس الشام في وحدة عضوية مع أرض الجزيرة . ولعله من نافلة القول أن نستدرك بقولنا مرة أخرى أن تطور الأدب الجغرافي (أو التاريخي) في اللغة العربية قد تردد صداه في الأدب الفارسي . وقد كان عصر المغول بالنسبة للأدب الفارسي عصر ازدهار خاص ، ولعلنا ليس من محض الصدفة أن يرفع القزويني مؤلفه كما رأينا إلى الجويني ؛ ذلك أن هذا الأخير لم يكن موظفاً كبيراً من موظفي الدولة فحسب بل كان في ذات الوقت عالماً مرموقاً ومؤرخاً كبيراً استطاع أن يقدر مصنف القزويني حق قدره لأن المسائل الجغرافية لم تكن غريبة عليه ؛ وإلى جانب هذا فهو كان يستطيع الكتابة بالعربية كما وأنه استعمل المصادر العربية بالكثير من الحرية . وأصل علاء الدين عطا ملك الجويني من خراسان وقد بدأ نشاطه في خدمة الدولة في وقت مبكر ولما توطد سلطان المغول أصبح جويني كاتباً خاصاً للأمير أرغون الذي كلفه مرتين بالسفر إلى منغوليا . وفي عهد هولاكو وفق جويني في إنقاذ جزء كبير من مكتبة الإسماعيلية بالموت ، ثم لم يلبث أن عين منذ عام ٦٦١ هـ = ١٢٦٢ - ١٢٦٣ حاكماً على بغداد وكان هذا يعني في واقع الأمر امتداد سلطانه على جميع البلاد العربية الخاضعة لسلطان المغول . وقد جهد جويني كثيراً في إعادة الحياة إلى ما كانت عليه في المناطق التي قاست من وطأة الغزو

* نشر المعهد الفرنسي بدمشق القسم الخاص بحلب في عام ١٩٥٣ بتحقيق المشرق الفرنسي سورديل Sourdel ، والقسم الخاص بدمشق في عام ١٩٥٦ بتحقيق الأستاذ سامي الدهان . وهذا هو جميع ما نشر من كتاب ابن شداد حتى هذه اللحظة بحسب علمنا . (المترجم)

المغولي حتى أن ابن عدوه اللدود وهو مؤلف تاريخ «كتاب الفخري» يثنى ثناءً جماً على خدماته . ولم تكن سنوات حياته الأخيرة سعيدة فقد أحاطت به الدسائس التي لم يكن ليسلم منها البتة كبار رجال الدولة آنذاك ومات كمداً في عام ٦٨١ هـ = ١٢٨٣ (١١٨) .

أما شهرته العلمية فتعتمد على مصنفه التاريخي المشهور «تاريخ جهانكشا»* الذي أوضح لنا بارتولد أهميته الفريدة أكثر من مرة ، وقد أنمّه جويني في سني شبابه وذلك في عام ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ . وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام يعالج الأول منها تاريخ المغول وفتوحات جنكيزخان ويبحث الثاني في تاريخ خراسان وشاهات خوارزم بينما يؤرخ الثالث للقتال ضد الإسماعيلية وحملة هولاكو على العراق . ومن هذا يتضح لنا أننا بإزاء مصنف تاريخي صرف ولو أنه يحفل بمادة جغرافية وافرة ؛ وقد لاحظ بارتولد بحق أنه المؤرخ الفارسي الوحيد الذي زار منغوليا ۞ ووصف بلاد آسيا الشرقية اعتماداً على ملاحظاته الشخصية ؛

373

ومن الطريف أنه هو وروبروك Rubruquis قد وجها اهتماماً كبيراً إلى تأسيس قرة قورم (١١٩) . هذا وقد أتم القسم الأخير من كتابه في بعض النقاط معاصره الشهير نصير الدين طوسي الذي سبق أن تحدثنا عنه بالتفصيل في أحد الفصول الأولى لكتابنا هذا ؛ ولعله ليس من فضل القول في هذه المناسبة أن نصيف مرة أخرى أن هذا العصر بأجمعه قد تميز بازدهار الجغرافيا الرياضية فلمع فيه إلى جانب اسم نصير الدين طوسي اسم واحد من كبار علماء الفرس وهو قطب الدين شيرازي ؛ وقد ارتبطت أسماء عدد كبير من علماء هذا العصر كما تبين لنا من قبل بمرصده مراغة المشهور ؛ ويمكن اعتبارهم جميعاً ممثلين لوحدة الحضارة العربية الإيرانية وذكر مراغه وعلاقتها بالجغرافيا يسوقنا بدوره إلى الوقوف عند واحد من معاصري هاته الشخصيات البارزة ؛ وهو ينتمي إلى حضارة مغيرة الأمر الذي يؤكد مرة أخرى الطابع الجماعي التركيبي الذي تميز به هذا العصر . ويستحيل علينا في عرض عام للأدب الجغرافي العربي أن نغفل اسم الممثل المبرز للحضارة السريانية ، أو على الأصح السريانية العربية . ابن العبري . هذا لا لأنه قد كتب بالعربية أيضاً ولا لأنه خلف مصنفات ترتبط بالجغرافيا بل لأنه أسهم بوجه خاص في تطوير التراث العربي على نحو لا يقل عن معاصريه الفرس الذين تقدم ذكرهم . ولقد كان للحضارة السريانية فيما مضى تأثير كبير على العرب ؛ ونحن نذكر جيداً كيف كان العرب في القرنين الثامن والتاسع تلامذة على السريان وكيف أنه فيما يتعلق بالجغرافيا بالذات فإن عدداً من الترجمات العربية لمصنفات بطليموس قد تم نقلها دون ريب عن طريق الترجمات السريانية أما الآن وفي العصر الذي نعالج الكلام عليه فقد أصبح ذلك أثراً من آثار الماضي لأن الحضارة العربية اندفعت قدماً في تطورها بحيث أضحت العلماء السريان المتأخرون يدينون لها بالكثير ؛ وليس أبلغ في الدلالة على هذا في القرن الثالث عشر من ابن العبري الذي يعتبر أكبر كاتب موسوعي في الأدب السرياني لذلك العهد بل ويمثل الأوج الذي بلغه تطور هذا الأدب .

واسمه بالعربية أبو الفرج غريغوريوس بن العبري الملقب (١٢٠) ؛ وكنيته ابن العبري تشير إلى أصله اليهودي وقد ساق في شكلها السرياني برعبرايا إلى التسمية اللاتينية برهبرايوس Barhebraeus التي ثبتت عليه في العلم الأوروبي خاصة . وكان مواطناً ومعاصراً لمعظم كبار المؤلفين الذين مر ذكرهم في هذا الفصل ؛ وقد ولد بمدينة ملطية عام ١٢٢٦ أى قبل ثلاثة أعوام من وفاة ياقوت وتوفي بمراغه عام ١٢٨٦ | أى بعد ثلاثة أعوام من وفاة القزويني وجويني . وكان متمكناً في الأدبين السرياني والعربي 374 على السواء وألف في كل فرع من فروع العلوم المعروفة آنذاك مخلفاً في كل منها مؤلفات جامعة تمثل خلاصة معارف عصره . أما بالنسبة لمواطنيه السريان فقد كان نشاطه العلمي فاتحة عهد جديد ، هذا على حين أنه اشتهر في العلم الأوروبي غالباً كمؤرخ ولا يزال يحتفظ ببعض هذه الشهرة حتى الآن . أما أهميته بالنسبة لنا فتتصل ببعض مصنفاته التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالجغرافيا .

وأحد هذه المصنفات وهو « سلاكه خوننايه » (« صعود العقل ») الذي يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ١٢٧٩ يمثل رسالة متكاملة في الفلك والكونوموغرافيا تعرض باختصار « الجسطى » لبطلميوس مع إضافات مختلفة تقع في قسمين أحدهما مكرس لشكل السماء والأجرام السماوية وأفلاكها والثاني لشكل الأرض والظواهر الجوية وما يرتبط بذلك . وفي هذا القسم الأخير يرد وصف لتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ولبحارها وجزرها وأنهارها ثم حساب الوقت ومسائل التقويم وأبعاد النجوم من الأرض وأحجامها بالنسبة للأرض الخ (١٢١) ؛ وكل هذا التقسيم يذكرنا بشدة بالمؤلفات العربية الماثلة في ميدان الجغرافيا الرياضية مما سبق الكلام عنه في حينه . ولعل تأليف هذا الكتاب يرتبط بالدروس التي ألقاها ابن العبري في مراغه بين عامي ١٢٧٢ و ١٢٧٩ (١٢٢) . وكما بين المتخصصون في هذا الميدان فقد ظل هذا المصنف هو الرسالة الجديدة الوحيدة في الجغرافيا الفلكية باللغة السريانية (١٢٣) ؛ وكشف بعض العلماء فيه عن معرفة جيدة بالبيروني (١٢٤) ، الأمر الذي أيدته مصنفات أخرى لابن العبري . ومن المحتمل أنه يرتبط بهذا المصنف الكبير « زيح » (جداول فلكية) وتقويم فلكي ، وقد ورد ذكر الاثنين معاً في المصادر على أهمهما مصنفان قائمان بذاتهما (١٢٥) . هذا وموسوعته الكبرى في اللاهوت « منارث قدشي » (« منارة الأقداس ») التي يحلل فيها الأسس التسعة عشر للإيمان الصحيح تضم مادة جغرافية ضخمة (١٢٦) ؛ والمكانة الأولى بينها تحتلها المعرفة بوجه عام وتأني بعدها في المرتبة الثانية معرفة العالم الطبيعي ، وهنا ينتهز ابن العبري الفرصة ليسوق ضرورياً من المعلومات يمكن أن نذكر بصدها على سبيل المثال أنه يمكن عمل قائمة للأزهار التي ورد ذكرها لدى ابن العبري (١٢٧) . وهذه الرسالة معروفة بأكملها في ترجمات عربية (١٢٨) .

وفي شخص ابن العبري ينعكس بقوة تأثير الثقافة العربية الإسلامية ؛ ولعل هذا يبدو بصورة 375 أقوى في أثره العلمي الثالث الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجغرافيا أعني بذلك مصوراً له للعالم شبه مستدير يرتبط على السواء بكتابه « منارث قدشي » (١٢٩) وبتاريخه (١٣٠) ، وقد كشف عنه حتى الآن في أربع

مخطوطات (١٣١) وتوجد أفضل نسخة في مخطوطة باريسية لمعجم برعلى (١٣٢) : أما الأصل الذى اعتمد عليه ابن العبرى فى وضع المصور فيرتفع إلى القرن الثانى عشر (١٣٣) مكملًا بهذا سلسلة مصورات العالم المستديرة المعروفة لنا من قبل ولكن لا علاقة له « بأطلس الإسلام » على الرغم من أنه يقسم العالم إلى سبعة أقاليم . ويقول عنه خبير الكارتوغرافيا العربية ميلر Miller إنه « من أصل لإغريق عربى انتقل إلى السريان دون شك من مصدر عربى » (١٣٤) ، ويرى أن فيه ما يذكر بالإدريسى (١٣٥) . ولم تجد المسألة حلاً شافياً عند أول من قام بنشر هذا الأثر وهما شابو Chabot وغوتهيل Gottheil ؛ وأول من استطاع أن يلتقى ضوءاً على مصادره هو هونيمان Honigmann الذى تمكن أثناء تحليله للأسماء الجغرافية (١٣٦) أن يثبت بنصيب واف من الاحتمال أن هذا الأثر يرتبط بالبهرى أكثر من غيره (١٣٧) ، وقد ثبت من مصنف آخر لابن العبرى أن مؤلفنا كان على معرفة بمصنفات ذلك العالم الجليل . وعلى أية حال فهذه الخارطة تعد أفضل نموذج للكارتوغرافيا عند السريان (١٣٨) وتمثل أوج ما بلغه تطور هذا الفن عندهم .

ويقدم لنا هذا العصر فى الأدب السريانى أثراً آخر فى الجغرافيا فريداً فى بابهِ هو وصف رحلة قام بها أحد الأيوغور من الصين الشمالية إلى العراق ومصر ، وهو مصنف لا شبيه له من حيث موضوعه فى جميع الأدب العربى لذلك العصر ؛ وقد حفظ لنا هذا الأثر فى سيرة الجائليق ماريا باللاها الثالث (١٢٨١ - ١٣١٧) التى كتبها معاصر له مجهول الاسم (١٣٩) . وتتلخص قصة الرحلة فى أن اثنين من الرهبان النساطرة أصلهما من شمال الصين ، وهما الراهب الذى أصبح فيما بعد الجائليق ماريا باللاها ومعلمه ربان برصوما ، قد عقدا العزم على الحج إلى بيت المقدس فخرجا من خانبالىق مارين فى طريقهما على كاشغر وتركستان الصينية حتى بلغا العراق ، وهناك علما أن الطريق إلى بيت المقدس مقفل بسبب اشتعال نيران الحرب ؛ وبما أن الرجوع إلى وطنهما قد بدا لهما أمراً مستحيلاً فى ذلك الوقت فقد اضطرا إلى البقاء بالعراق بصفة دائمة ولم يلبث أحدهما أن أصبح جائليقا للنسطرة وحاز الآخر وهو برصوما على ثقة الإيلخان المغولى أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١) الذى تمتع الجوينى برعايته . [ونظراً لرغبة الخان فى توثيق علاقاته بالحكام الأوروبيين فقد وجه برصوما فى عام ١٢٨٧ مبعوثاً إلى رومه فأخذ الأخير طريق البحر من القسطنطينية إلى إيطاليا وهناك شهد ثوران بركان اتنا فى أواخر يوليو ١٢٨٧ وزار رومه وجنوه وباريس وتعرف عن كُتب على جامعة الأخيرة ، ثم أمضى الشتاء بجنوه التى يثنى ثناء عاطراً على طقسها اللطيف وأقام برومه بعض الوقت قبل أن يأخذ طريق العودة فى عام ١٢٨٨ . وتوفى برصوما ببغداد عام ١٢٩٣ ، ويفترض الباحثة (١٤٠) أن سيرة ماريا باللاها ووصف هذه الأسفار من وضع مؤلف مجهول اعتمد على مذكرات برصوما نفسه لأن بعض التفاصيل تتميز بجوية ووضوح يحتاجان إلى شاهد عيان* . وبالطبع

* ظهرت فى الآونة الأخيرة ترجمة روسية لهذا الكتاب الذى عرف من قبل فى ترجمتين فرنسية وإنجليزية . (المترجم)

فقد اهتم الراهب قبل كل شيء بالمسائل المتعلقة بالعبادة ، ولكنه قوى الملاحظة شديد الانتباه ينعكس في وصفه طابع الجدة الذى نلتقى به عادة لدى الإنسان القادم من بيئة مغايرة . ومن الجلى أن مصنفات ابن العبرى وسيرة حياة ماريا باللاها قد تم تأليفها في وسط نصراني بحث وفيه انتشرت وعرفت من دون أن يكون لها أثر كبير في التطور العام للأدب العربى ؛ غير أن المصنفات العربية لابن العبرى لم تقتصر قراءتها على الوسط النصراني وحده ، وقد رأينا كيف أن مصنفاته السريانية نفسها قد ترجمت إلى العربية ؛ أما سيرة ماريا باللاها الثالث فقد وجدت بدورها طريقاً ولو في صورة موجزة إلى مصنف عربى للقرن الرابع عشر يعرف باسم «كتاب الجدل» (١٤١)

لإزاء كل هذا فن العسير القول بحدوث تدهور في الأدب الجغرافى في القرن الثالث عشر ؛ حقاً إنه لم يشق طرقاً جديدة أو يبتدع أنماطاً لم تعرف من قبل ولكنه بلغ الأوج في بعضها مثل الكوزموغرافيا . وسبقا بلنا في القرن الرابع عشر التالى لهذا ازدهار نمط جديد هو نمط الموسوعات الكبيرة التى يفرد فيها للجغرافيا مكان هام . أما من حيث الكم فقد ظل الأدب الجغرافى حافلاً بمؤلفاته إلى بداية نهضة الأدب العربى في القرن التاسع عشر . بيد أن النتيجة الحتمية للغزو المغولى كانت في أن فقدت اللغة العربية سيطرتها نهائياً على المشرق واحتلت مكانها هناك اللغة الفارسية التى أخذت تظهر بها ابتداء من هذا العصر بالذات مصنفات تاريخية وجغرافية تمثل قمة الإنتاج الأدبى بالنسبة لعصرها في جميع أقطار العالم الإسلامى . ومن الملاحظ في القرن الرابع عشر أن المصنفات العربية الكبرى في هذا المجال قد ظهرت بالشام ومصر اللتين احتفظتا بقصب السبق حتى العصر الحديث تقريباً هذا بينما توقفت العراق عن أن تلعب أى دور ذى بال في هذا الميدان .

حواشي الفصل الثالث عشر

- (١) - Pons Boigues, p. 306-310, No 260
- (٢) - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p, 136
- (٣) - Ibn Sa'id, p. 440
- (٤) - Reinaud, Introduction, p. CXLI
- (٥) - Ibn Sa'id, p. 440
- (٦) - Brockelmann, GAL, I, p. 337
- (٧) من المحتمل أنه قد حدث خلط هنا فيما يتعلق بالقصة التي يرويها المفري عن آخرين (الجزء الأول ، ص ٧٠٧ ، وقارن ص ٧٠٦ السطر الثالث من أسفل) .
- (٨) - Pons Boigues, p. 309
- (٩) المقرئ ، الجزء الأول ص ٦٤٨ = Schack, I, p. 178-181
- (١٠) شرحه ، الجزء الأول ، ص ١٣٠ ، السطر ١٣ وما يليه .
- (١١) شرحه الجزء الأول ، ص ١٢٨ ، السطر ١٧ إلى ص ١٢٩ ، السطر ١ .
- (١٢) هاتان الفقرتان الأخيرتان أضافهما كراتشكوفسكى مؤخراً .
- (١٣) - Brockelmann, GAL, SB, I, p. 576, I.
- (١٤) - Trummer
- (١٥) - Cf. Amari (—Nallino), I, p. 41-42, No 10
- (١٦) - Moritz, Ibn Sa'id, I, p. 292-305
- (١٧) - Reinaud, Introduction, p. CXLII-CXLIII — Amari (—Nallino), I, p. 55-56, No 18
- (١٨) - Rosen, Notices sommaires, p. 181, No 233
- (١٩) - Derenbourg Schefer, t.à-p., p. 39 — Brockelmann, GAL, SB, I, p. 577, 3 and 880, No 10, at the end.
- (٢٠) - Barbier de Meynard, Dictionnaire, p. VI, note
- (٢١) - Brockelmann, GAL, I, p. 337,3 — Trummer, p. 12, II, Geographisches, No 1
- (٢٢) - Honigmann, Die sieben Klimata, p. 181 and note 4
- (٢٣) - Bartold, Geografia Ibn Sa'ida, p. 232-235
- (٢٤) شرحه p. 235-236

- p. 236-238 شرحه (٢٥)
- p. 240 شرحه (٢٦)
- Reinaud, Introduction, p. CXLIII (٢٧)
- Amari (—Nallino), I, p. 55-56 (٢٨)
- Amari, Frammenti, p. 388-392 (٢٩)
- Kramers, EI, EB, p. 69,70 (٣٠)
- Kramers, Legacy, p. 102 (٣١)
- Ferrand, EI, IV, p. 508 — Storbeck, p. 59-60 (٣٢)
- Ferrand, Relations, II, p. 317-320 — Ferrand, K'ouen Louen, p. 445 446, (٣٣)
- 479, 204 sui = t. à p. 115-116, 149, 230 = Hudud, p. 205, No 29 ;
- Hennig, II, p. 314-319
- Bartold, Geografia Ibn Sa'ida, p. 241 (٣٤)
- Blachère, p. 276-277 (٣٥)
- p. 278-279 شرحه (٣٦)
- Streck, Al-Kazwini, p. 901 (٣٧)
- . شرحه (٣٨)
- . شرحه (٣٩)
- Reinaud, Introduction, p. CXLIV (٤٠)
- Browne, Literary History, II, p. 483 (٤١)
- Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 37-40 (٤٢)
- Reinaud, Introduction, p. CXLV — Streck, Al-Kazwini, p. 901 — Sarton, (٤٣)
- Introduction, II, p. 868-869 — Ruska, GZ, p. 596
- Amari (—Nallino), I, p. 57 (٤٤)
- Streck, Al-Kazwini, p. 901 (٤٥)
- Bodenheimer, I, رسم 46,47, لوحة IV, cf. II, p. 305, note 34 (٤٦)
- Streck, Al-Kazwini, p. 901 (٤٧)
- Streck, Al-Kazwini, p. 902 — Brockelmann, GAL, SB I, p. 882 (٤٨)
- Kramers, EI, EB, p. 70 (٤٩)
- Wright — Kokovtsov, p. 174 (٥٠)
- Kayser : عن الطبعة والترجمة راجع :
- Taescher, GLO, p. 37 and 38, (٥١)
- وخاصة الزيادة في صفحة ١٤٤ .
- (٤٨)

- Streck, Al-Kazwini, p. 902-903 (٥٢)
- Sedelnikov, p. 165-167 — Krachkovski, Arabskie geografii, p. 756 (٥٣)
- Streck, Al-Kazwini, p. 903 (٥٤)
- Kramers, EI, EB, p. 70 (٥٥)
- Streck, Al-Kazwini, p. 903 (٥٦)
- Browne, Literary History, II, p. 483 ; III, p. 64-65 (٥٧)
- Streck, Al-Kazwini, p. 903 (٥٨)
- Browne, Literary History, II, p. 483 (٥٩)
- Streck, Al-Kazwini, p. 903 (٦٠)
- p. 903-904 شرحه (٦١)
- Honigmann, Die sieben Klimata, p. 168 (٦٢)
- Hudud, p. 419 (=Wüstenfeld, El-Cazwini's Kosmographie, II, p. 406-407, 397-399). (٦٣)
- Streck, Al-Kazwini, p. 904 (٦٤)
- لعله ينبغي قراءتها الملياني ؛ راجع ياقوت ، المعجم الجزء الرابع ، ص ٦٣٩ ، الأسطر ١٣ - ١٤ حيث يروى نقلا عن الملياني قصة عن تنس (بعد عام ٦٢٠ هـ = ١٢٢٣) ؛ راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٧٨ ، الأسطر ٢١ - ٢٣ .
- Streck, Al-Kazwini, p. 901 (٦٥)
- Ruska, GZ, p. 596 (٦٦)
- Ansbacher (٦٧)
- Taeschner, Die Psychologie Kazwini's (٦٨)
- ع . م . العقاد ، الفصول ، ١٢٣ - ١٢٧ . (٦٩)
- Mohammed Ben Cheneb, Al-Abdari, p, 71-72 — Sarton, Introduction, (٧٠)
- II, p. 1065-1066 — Mieli, p. 211 and 212, note 6 — Reinaud, Introduction, p. CXXVI — Pons Boigues, p. 310-313, No 261 — González Palencia, p. 201 — Amari (—Nallino), I, p. 56, No 20
- Levi della Vida, EI, II, p. 1243 (٧١)
- Mohammed Ben Cheneb, Al-Abdari, p. 72 (٧٢)
- Pons Boigues, p. 310 (٧٣)
- Cherbonneau, p. 172 (٧٤)
- p. 174 شرحه (٧٥)
- Pons Boigues, p. 310 (٧٦)

- Mohammed Ben Cheneb, Al-'Abdari, p. 72 (٧٧)
- (٧٨) شرحه
- Pons Boigues, p. 313; cf. Gonzàlez Palencia, p. 201 (٧٩)
- Mohammed Ben Cheneb , Al-'Abdari, p. 72 (٨٠)
- Brockelmann, Amelang, p. 167 -- Mc hammed Ben cheneb, Al-'Abdari, p. 72 (٨١)
- Cf. Pons Boigues, p. 311 (٨٢)
- Cherbonneau p. 172 (٨٣)
- W. Wright, Ibn Jubayr, p. 16-17- Schiapaelli, Ibn Gubayr, p. XIV (٨٤)
- Mohammed Ben Cheneb, Al-'Abdari, p. 72 (٨٥)
- Pons Boigues, p. 311 (٨٦)
- (٨٧) ترجمة الشذور ، راجع شرحه ،
- Cherbonneau, p. 150 -170 - p. 311 — 313
- Hoenerbach, ZDMG, 94, 3, ص 11 — Hoenerbach, Itinerar des 'Abdari, p. 193 (٨٨)
- Brockelmann, GAL, II, p. 83, No 1; SB II, p. 95 - Brockelmann, (٨٩)
- Al-'Abdari p. 72
- Mielck, p. 6 (٩٠)
- Reinaud, Introduction, p. CXXVII, -- Devic, Litt. géogr. arabe, p. 389-390 (٩١)
- (t. á. p., p. 28-29) — Pons Boigues, p. 314, No 264 -- Gonzalez
- Palencia, p. 201
- Reinaud, p. CXXVII (٩٢)
- Brockelmann, GAL, I, p. 482, No 16 Kramers, EI, EB, p. 70 (٩٣)
- Ahlwardt, V, p. 432, No 6132
- (٩٤) شرحه
- Brockelmann, GAL, I, p. 482, No 13; SB I, p. 883 — Ibn Shaddad, (٩٥)
- p. 445 — Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 146, No 362 —
- I. Gujdi, محاضرات ص ٢٢
- Ledit, Al-Alak, p. 163 (٩٦)
- p. 165 شرحه (٩٧)
- p. 166 شرحه (٩٨)
- p. 167 شرحه (٩٩)
- Cahen, p. 110 — شرحه (١٠٠)
- Cahen (١٠١)

- Ledit, Al-A'lāk, p. 161-223 — Ledit, Ibn Saddād, p. 586-608 (١٠٢)
- Ledit, Al-A'lāk, p. 166 (١٠٣)
- Cahen, p. 109 (١٠٤)
- Ledit, Al-A'lāk, p. 167-169 (١٠٥)
- p. 169-170 شرحه (١٠٦)
- Sauvaire, JA, Série 9, VI, 1895, p. 409. note a — Brockelmann, GAL (١٠٧)
SB I, p. 883, No 13
- (١٠٨) سعييب الزيات ، المشرق ، المجلد الثاني والثلاثون ، ص ٥٠٤ - ٥٠٥
- Cahen, p. 110 (١٠٩)
- Ledit, Al-A'lāk, p. 169-170 (١١٠)
- p. 167-168 شرحه (١١١)
- p. 173-178 شرحه (١١٢)
- Cahen, p. 110 p. 178 شرحه (١١٣)
- Cahen, p. 110 (١١٤)
- (١١٥) شرحه
- (١١٦) سعييب الزيات ، المشرق ، المجلد الثاني والثلاثون ، ص ٥٠٦
- (١١٧) شرحه ، ص ٥٠٥
- Bartold, Djuwaini, p. 1115-1117 — Bartold, Iran, p. 73-74 — Sarton, (١١٨)
Introduction, II, p. 1123-1124 — Kramers, EI, EB, p. 71 — Krymski,
Istoria Persii, III, No I, p. 40-43 — Romaskevich, Djekhan - name,
p. 50-52 Volin, — Orda, II, ch. II, p. 20-24 — Browne, Literary
History, II, p. 434, 435, 443, 473; III, p. 20-21, 24-25, 65-67
- Bartold, Djuwaini, p. 1117 (١١٩)
- Brockelmann, GAL, I, p. 349, No 17; SB I, p. 591 — Brockelmann, (١٢٠)
Barhebræus, p. 634-635 — Sarton, Introduction, II, p. 975-979 — Wright
— Kokovtsov, p. 190-204 — Baumstark, p. 312-320 — Chabot, p. 131-
137 — Browne, Literary History, II, p. 468-469 — Nöldeke, Orientalische,
Skizzen, p. 253-273
- شيخو ، المشرق : المجلد الأول ، ص ٢٨٩ - ٢٩٥ ، ٣٦٥ - ٣٧٠ ، ٤١٣ - ٤١٨ ، ٤٤٩ - ٤٥٣ ،
- ٥٠٥ - ٥١٠ ، ٥٥٥ - ٥٦١ ، ٦٠٥ - ٦١٢
- Brockelmann, Syr. u. chr. — ar. Litt., p. 60-62

- (١٢١) شيخو، المشرق، المجلد الأول، ص ٥٠٧ - ٥٠٨
- Wright - Kokovtsov, p. 194 - Baumstark, p. 318, note 1 - Nau,
Le Livre de l'ascension de l'esprit.
- Sarton, Introduction, II, p. 975 (١٢٢)
- (١٢٣) شرحه
- Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 2 (١٢٤)
- Wright - Kokovtsov, p. 194 - Baumstark, p. 318 - Sarton, Introduction, (١٢٥)
II, p. 975
- Sarton, Introduction, II, p. 978, No 6 - Baumstark, p. 315, note 1 (١٢٦)
- Wright - Kokovtsov, p. 197-200
- Gottheil, p. 39-55 (المتن p 47-55 والترجمة p 40-46) (١٢٧)
- (١٢٨) شيخو، المشرق، المجلد الأول، ص ٤٥١
- Cf. Cheikho, Catalogue, p. 10, No 31, 1
- Kramers, EI, EB, p. 71 (١٢٩)
- Sarton, Introduction, II, p. 976, No 3 (١٣٠)
- (١٣١) V, p. 168-172 : عن الوصف راجع شرحه؛ Miller, V, Beiheft, Taf. 81 عن الصور راجع
- (١٣٢) شرحه p 170
- Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 167 (١٣٣)
- Miller, I, p. 9 (١٣٤)
- (١٣٥) شرحه V, p. 169
- Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 167-168 (١٣٦)
- (١٣٧) شرحه p. 167
- Sarton, Introduction, II, p. 976, No 3 (١٣٨)
- Wright - Kokovtsov, p. 211 - 212, Note - Baumstark p. 325 - 326, g (١٣٩)
and p. 326, note 1 - Sarton, Introduction, II, p. 1068 - 1070
- Sarton, Introduction, II, p. 1069 (١٤٠)
- Wright - Kokovtsov, p. 182-183, note (١٤١)

الفصل الرابع عشر

القرن الرابع عشر

—

377

بدأ نصيب الأندلس والمغرب في تطور الأدب الجغرافي يتضاءل بصورة ملحوظة في القرن الرابع عشر؛ وكان السبب في ذلك هو أن غرناطة قد أصبحت المركز الوحيد للعرب في شبه الجزيرة الأيبيرية، وهي إن ظلت محتفظة بهالة من الحضارة السالفة إلا أنها كانت دائماً تحت رحمة جيرانها الشماليين. وقد أثبت نمط الرحلة مجددة أنه أكثر الأنماط مقاومة ورواجاً غير أن اهتمام المغاربة به كان يتجاوز اهتمام الأندلسيين، وظل هذا الاتجاه مزدهراً بين ظهرانيهم حتى اختتمه ابن بطوطة فاختتم بذلك في نفس الوقت سلسلة الرحلات العربية ذات الأهمية العالمية. وباستئجاب سلطان المماليك بمصر مدة قرنين من الزمان اقتضت ظروف الحكم أن تولى عناية خاصة للأدب الجغرافي في جميع أنماطه التي عرفناها من قبل، فالتقى في هذا العصر بنمطى الفضائل والخطط وقد ظل هذا الأخير مزدهراً بمصر حتى القرن التاسع عشر؛ كما نما بصورة خاصة نمط الموسوعات الذي ساد في القرنين الرابع عشر والخامس عشر والذي يمثل عدد من المصنفات الضخمة التي تقع في مجلدات عديدة. أما الشام فتقدم لنا في النصف الأول من القرن الرابع عشر مصنفين هامين في الكوزموغرافيا هما مصنف أبي الفدا والدمشقي؛ وقد نال الأول منهما شهرة لم يبلغها غيره في الدوائر العلمية الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وأما إلى الشرق من الشام فإن الأدب الجغرافي يبدو لنا في قلبه الفارسي وحده، وإن أسماء رشيد الدين فضل الله وحمد الله قزويني لتقف شاهداً على أن أهميته قد تجاوزت حدود بلاده. وقد رأينا من الأفضل أن نغض النظر عن التابع الزماني لبعض الشيء فنؤجل الكلام على موسوعات عهد المماليك إلى الفصل التالي لهذا بوصفها نمطاً جديداً في الأدب الجغرافي وسنختتم ذلك الفصل نفسه بوصف رحلة ابن بطوطة الذي يعتبر من الناحية الزمنية آخر أثر جغرافي كبير يظهر في القرن الرابع عشر. أما الآثار العديدة الأخرى والتي تنتمي جميعها بالتقريب إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر فسيجرى فحصها وتحليلها في هذا الفصل الواحد تلو الآخر متجهين من المغرب إلى المشرق.

وأول ما يواجهنا منها هو نمط الرحلة التي أخذت تعكس الاهتمام بالعلوم الطبيعية إلى جانب الأدب الفني والتي تذكرنا إلى حد ما بما لاحظناه في العصر السابق لهذا. وإلى هذا النمط ينتمي مصنفان لحمد بن رشيد

الفهرى الأندلسي^(١) * الذى ولد بسبته في عام ٦٥٧ هـ = ١٢٥٩ وخرج من المرية لأداء فريضة الحج 378 فر في طريقه بشمال أفريقيا ومصر وزار الشام أيضاً . وعند عودته اشتغل بعض الوقت بالتدريس في غرناطة ثم أمضى بقية عمره في كنف عثمان الثاني من بني مرين بفاس إلى وفاته بها في عام ٧٢١ هـ = ١٣٢١ . وإلى جانب مؤلفاته العديدة في الحديث فإن له وصفاً لرحلتين مختلفتين من حيث العنوان ولكنهما تحملان أحياناً اسماً جامعاً هو « الرحلتان » . أما الأولى منهما فيصف فيها طريقه في أفريقيا والمرجح أنها وجدت في عدة أجزاء ، غير أن ما تبقى منها موجود بمكتبة الاسكوريال وهو بخط يد المؤلف ويعالج الكلام عن علماء الإسكندرية والقاهرة في نهاية القرن الرابع عشر ؛ وعنوانها الذى تغلب عليه المصنعة يعكس بحق مضمون هذه الرحلة وهو « ملء العيبة في ما جمع بطول الغيبة في الوجهة الواجبة إلى الحرمين مكة وطيبة »^(٢) . أما الرحلة الثانية فتتناول الكلام عن أهل الحديث والفقهاء الأندلسيين وقد فرغ من تأليفها في حوالى عام ٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ بسبته . وكلا الرحلتين كانتا في جوهرهما تمثلان الطراز المعروف لنا جيداً وهو « يوميات عالم » ، ومما يلفت النظر فيهما أن المؤلف إلى جانب اهتمامه بالأدب يهتم كذلك بالتاريخ الطبيعى . ومن الممكن تكوين فكرة واضحة عن كتابيه ومحتوياتهما ولو من خلال تلك الشذرة التى يفردا للكلام عن مصحف عثمان الموجود بمسجد قرطبة والى نقلها عنه المقرئ^(٣) في القرن السابع عشر ، وكذلك من خلال موقفه من صديق عتيقة الشاعر إبراهيم بن سهل^(٤) أو الكاتب ابن حبيش الذى كان تلميذاً له^(٥) . وإلى هذا العصر نفسه بالتقريب ترجع « رحلة » محمد بن أحمد التجانى الذى لا علم لنا بتفاصيل سيرة حياته بل إن اسمه لم يثبت حتى الآن بصورة قاطعة^(٦) . وكل ما يمكن استقراؤه من مصنفه أنه خرج من تونس لأداء فريضة الحج عام ٧٠٦ هـ = ١٣٠٩ في صحبة أمير من بني حفص هو يحيى بن زكريا ، وفيما بعد عندما أصبح هذا الأمير حاكماً على تونس صار التجانى من عماله المقربين إليه . وتاريخ وفاة التجانى كتاريخ ميلاده مجهول لنا جهلاً كاملاً .

٣٨٣

ولما كان سير الرحالة بطيئاً ومجالها محدوداً فقد كان ذلك في مصلحة الوصف إلى حد كبير إذ تمكن المؤلف بذلك من الوقوف عند كل ما يمكن ملاحظته في طريق سيره القصير . وقد برهنت رحلته على أهميتها الكبرى وذلك بتزويدها لنا بمعلومات وافية^{||} عن جميع المناطق التى زارها وعن الأصقاع المجاورة لها . وهى تتناول مسائل الجغرافيا كما تتناول مسائل التاريخ الطبيعى وبوجه خاص التاريخ البشرى ؛ وكما جرت العادة فإنه يستشهد بمختلف المؤلفين ويقتبس أحياناً من الونائق ، أما أسلوبه في العرض فأدبى صرف ولكنه لا يثقله بالانطباعات الشخصية أو بمحاولة التدليل على سعة معارفه ومهارته ككاتب فهو في هذا الصدد أفضل بكثير من غيره من الكتاب الذين عالجوا التأليف في هذا النمط . وبعد قرن من الزمان

* راجع المقال الذى دمج يراع العلامة المغربى محمد الفاسى عن هذا الرحالة ونشر « مجلة معهد المخطوطات العربية » (المجلد الخامس ، ١٩٥٩) . (المترجم)

قدره ابن خلدون تقديرًا كبيراً وآفاد من مصنفه مراراً عديدة في تلك الأجزاء من تاريخه التي أفردها لشمال أفريقيا (٧). وقد دلت أبحاث أماري على أن التجاني يقدم معلومات تاريخية وجغرافية ذات قيمة كبرى من ذلك ما كتبه عن جزيرة جربة بل وعن صقلية نفسها. ولم تطبع رحلته حتى الآن* ولكن يمكن الاطلاع على شذرات هامة منها في ترجمة روسو Rousseau التي ترجع إلى الخمسينيات من القرن الماضي (٨) وتستند على اختيار تحكى للنصوص مع سوء فهم للمتن أحياناً. أما أماري Amari وبل Bel فإنهما لم يتعرضا في كتابيهما إلا لقسم ضئيل من الرحلة (٩).

ومما لا شك فيه أن البحث الدقيق المتواصل في المصادر سيمكن من الكشف عن مجهودات أكثر أصالة في القرن الرابع عشر في البلاد العربية؛ ويقص عاينا العمرى، وهو من مؤلفي النصف الأول من هذا القرن وسيرد الكلام عنه فيما يلي، أن أحد ملوك الزنيج بعث بجاعة من ساحل أفريقيا الغربي لدراسة المحيط الأطلسي (١٠)؛ ومما يؤسف له أن قصته هذه نجأت عرضاً وبصورة مقتضبة ولكن يمكن بكل اطمئنان إرجاع هذه المحاولة إلى عام ١٣٠٠ - ١٣٠٧، وفيما عدا ذلك فن العسير إضافة شيء ذي بال. أما فيما يتعلق بإمكان حدوث هذه المغامرة من وجهة النظر التاريخية فهذا شيء ممكن للغاية، غير أن القول بأنها تمثل « المحاولة الثانية للمسلمين للكشف عن أمريكا (١١) » كما وصفها أحد العلماء العرب المعاصرين فهو قول لا يقوم على أسس وجيهة.

وتختل مصر المكانة الأولى في هذا العصر فيما يتعلق بسعة الإنتاج الأدبي في محيط الجغرافيا موعدة بذلك استمرار تقاليدھا الأدبية دون انقطاع بحيث يمكن أن نلتقي بجميع الأنماط الجغرافية المختلفة حتى تلك التي ترتفع إلى القرنين التاسع والعاشر. فيلى نمط الفضائل الذي وصفناه من قبل يمكن أن نرجع مصنفاً صغيراً للحسن بن عبد الله الصفدى الذي يجب عدم الخلط بينه وبين المؤرخ المشهور خليل بن أبيك الصفدى (١٢)؛ أما حياته فلا نعرف عنها إلا القليل (١٣) ويبدو أنه كان من المقربين إلى السلطان الناصر ابن قلاوون الذى حكم مصر ثلاث مرات (كانت آخرها من عام ٧٠٩ هـ إلى ٧٤١ هـ = ١٣١٠ - ١٣٤١). وهو ينتمى إلى فئة الموظفين المشتغلين بالأدب الذين حفل بهم هذا العصر، وله تاريخ مختصر لمصر تحمل إحدى مخطوطاته عنواناً يغلب عليه التكلف هو « نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولى مصر من الملوك »؛ وحيث أن القسم الأول من الكتاب يعالج « الفضائل » فإنه يحمل في بعض مخطوطاته العنوان المعهود لنا جيداً وهو « فضائل مصر ». أما القسم التاريخي من الكتاب فإن أقيم ما فيه هو ما جاء بصدد « الأتراك » أى السلاطين المماليك، وهنا ندين له بوصف دقيق لحوادث السنوات الأخيرة للقرن السابع الهجرى بمصر ويبحث القسم الأول في مختلف الفضائل الطبيعية والروحية لمصر؛ وهو نمط معروف لنا جيداً وكان مبعثه في الأصل كما أبصرنا من قبل هو الأحاديث النبوية المتعلقة بالجغرافيا: أما التواريخ المذكورة

* نشر متن الرحلة العلامة التونسي الكبير حسن حسنى عبد الوهاب في عام ١٩٥٨. (المترجم)

في الكتاب فلا تتعدى الخمسة عشر عاماً الأولى من القرن الرابع عشر ؛ وهناك أساس للافتراض بأن الكتاب قد تم تأليفه في عام ٧١٦ هـ = ١٣١٦ - ١٣١٧ ؛ وأحياناً قد يسوق النساخ تكلمة هذا الكتاب إلى نهاية القرن الرابع عشر .

وقد كان لخط الخطط ، وهي طراز من الجغرافيا التاريخية قائم بذاته ، ممثلوه في هذا العصر أيضاً فهم كأنما كانوا يمهّدون الطريق بهذا إلى الاكتمال الذي بلغه هذا الفرع من الأدب الجغرافي في مؤلف المقرئى القيم . وبفضل الشذرات التي حفظها لنا المقرئى نفسه أصبح معروفاً لنا اسم أحد المصنفات الأساسية في هذا المجال وهو لمحمد بن عبد الوهاب الزيرى الذي اشتهر باسم ابن المتوج (توفي في عام ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠) (١٤) وكثيراً ما أطلق عليه لقب ابن القاضي ، وأغلب الظن أنه ينتمى إلى نفس الوسط الإدارى الذى ينتمى إليه المؤلف السابق عليه ؛ أما كتابه فباستثناء حالات طفيفة تتعلق باختلاف القراءات فإنه يحمل عنوان «كتاب إيقاظ المتغفل واتعاط المتأمل» . ويقول عنه المقرئى إنه كان آخر مؤرخ للخطط (١٥) وأنه «يبين جملاً من أحوال مصر وخططها إلى أعوام بضع وعشرين وسبعائة ، قد دثرت بعده معظم ذلك في وباء سنة تسع وأربعين وسبعائة ثم في وباء إحدى وستين ، ثم في غلاء سنة ست وسبعين وسبعائة» (١٦) .

ومن الطريف أن المقرئى الذى استقى منه مادة وافرة عن بلاد مصر وآثارها المختلفة ومساجدها ومشاهدها (١٧) لا يشير إليه إطلاقاً فيما يتعلق بالقاهرة التي يغلب على الظن أنه لم يعالج الكلام عنها (١٨) ؛ كما ينقل عنه القلقشندى (١٩) في موسوعته الدواوينية . ويشير حاجى خليفة (٢٠) عدة مرات إلى مصنفه ولكن في عبارات تحمل على الاعتقاد بأنه لم يطالع على الكتاب نفسه بل كان يكرر ألفاظ المقرئى (٢١) ؛ وكما هو معلوم فإن ذلك المؤرخ الكبير للمؤلفات الإسلامية (Bibliograph) أبعد من أن يكون قد رأى رأى العين (de visu) جميع المصنفات التي تحدث عنها .

وإلى جانب المؤلفات الجغرافية من طراز الفضائل والخطط فإن مصر عرفت في القرن الرابع عشر أيضاً المؤلفات المتعلقة بمسح الأراضي حيناً في شكل رسمى جاف وحيناً آخر موضحة بمعلومات إضافية ؛ وآخر هذه «الروكات» ، أى سجلات مسح الأراضي ، وأبعدها صديتاً هو «الروك الناصرى» المعروف والذي يرجع تاريخه إلى عام ٧١٥ هـ = ١٣١٥ . ويفترض دى ساسى أنه قد وجد أيضاً «روك» آخر تم وضعه في عهد الملك الأشرف شعبان في حوالى عام ٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ ؛ وقد نشر له هذا المستشرق ترجمة في تذييلاته لكتابه عن عبد اللطيف البغدادى . وكما بين موريتز (٢٢) فإن هذا الأثر لا يمثل في الواقع وثيقة رسمية بل هو عبارة عن مرشد عمل من أجل عمال الدواوين ويحمل عنوان «تقويم البلدان المصرية في الأعمال السلطانية» ، وهو مضمن برمته في مصنف متأخر من تأليف يحيى بن الحيعان الذى سيمر بنا الكلام عليه في القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) (٢٣) .

والآن وقد فرغنا من الكلام على جميع هذه المصنفات التي لا تخلو أحياناً من الأهمية والفائدة في محيطها فإنه يجب ألا يغيب عن بالنا بأنها ليست هي التي تمثل الطابع المميز للأدب الجغرافي العربي بمصر في ذلك العصر إذ أن شرف هذا يعود إلى سلسلة الموسوعات التي ظهرت إلى عالم الوجود في ذلك العهد بالذات والتي سنتحدث عنها في الفصل التالي لهذا . وفي الوقت نفسه تقدم لنا الشام عالمين يهتمان بإدارة هذا العصر ويحتلان إلى جانب أصحاب الموسوعات المكان الأول من بين مجموعة الكتاب الذين لا يمكن تجاهلهم في عرض عام للأدب الجغرافي عند العرب .

وكلا هذين المؤلفين لا ينتميان إلى الوسط الذي انتمى إليه الكتاب المصريون الذين ورد ذكرهم قبل قليل ؛ وأولهما وهو شمس الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي ولد في سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ (٢٤) أي قبل استيلاء هولاكو على بغداد بعامين فهو بهذا قد كان معاصراً منذ طفولته لسيل الحوادث الذي اجتاحت العالم الإسلامي . وفي عام ١٢٦٠ الحلق السلطاني بپرس هزيمة نكراء بالمغول في الشام فوضع بذلك حداً لتهديدهم لمصر ووثق العُرى بين مصر والشام اللتين ظلتا طوال عهد المماليك خاضعتين لإدارة واحدة ؛ كما كان المغرب بدوره في ذلك العهد مسرحاً لحوادث كبرى فنذ عام ١٢٦٤ لم يبق تحت السيادة العربية بأسبانيا سوى غرناطة . هذا وقد أمضى الدمشقي معظم حياته بمسقط رأسه دمشق إماماً بمسجد الربوة ، ولقب بالصوفي لميوله التصوفية . ويبدو أن هذه الميول هي المسئولة عن اعتزاله العلم في أواخر أيام حياته وإقامته بناحية من أعمال فاسطين حيث عاش عيشة الزهاد إلى وفاته في عام ٧٢٧ هـ = ١٣٢٧ ، أي قبل وفاة أبي الفدا بأربعة أعوام .

وعلى الرغم من جنوحه إلى التصوف إلا أنه خلف وراءه عدداً كبيراً من المؤلفات يكشف بعضها عن اهتمام ومعرفة جيدة بالعلوم الدنيوية ؛ وأكثرها شهرة وأهمية بالنسبة لنا هو كتابه في الكوزموغرافيا « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » . وعلى نحو ما سنرى فإن طريقة تصنيفه للمادة تكاد تنطبق على طريقة القزويني (٢٥) إلا أنه لا يكررهما دون تدبر . وينقسم الكتاب إلى تسعة أبواب يشغل الأول منها المقدمة التقليدية في شكل الأرض ووصف الأقاليم السبعة وفصول السنة وبعض الآثار القديمة ، أما الفصل الثاني فيبحث في المعادن والجواهر والأحجار الكريمة بينما يصف الثالث الأنهار والعيون والآبار التي تناقل ذكرها التاريخ ؛ والباب الرابع مكرس للكلام على البحار أما الخامس فيتحدث عن البحر الأبيض المتوسط خاصة ويتضمن وصفاً مفصلاً لميناء الإسكندرية بينما يعالج السادس الكلام على « بحر الجنوب » (أي المحيط الهندي) . أما الياض فقد أفرد له البابان السابع والثامن فيرد في أولهما الكلام عن « الممالك المشرقية » ابتداء من الشرق الأقصى في اتجاه الغرب وذلك على ثلاث مناطق متوازية تشمل الهند وإيران والشرق الأدنى ؛ ويعالج الثاني الكلام على القسم الغربي من الأرض « الممالك المغربية » فيبدأ بوصف مصر

ثم يتابع ساحل أفريقيا الشمالى ابتداء من برقة إلى المحيط ثم يلي هذا بالتتابع وصف مراكش والبربر والسودان والزنج ، وتشغل الأندلس الجزء الأخير* .

وتقدير العلماء الأوروبيين للدمشقي لا يخلو من بعض التحفظ فهم يعتبرونه عادة دون الكوزموغرافيين الآخرين من وجهة النظر العلمية ، فمثلا ذفيك Devic يراه دون القزويني بكثير سواء من حيث المعرفة أو روح النقد^(٢٦) . والدمشقي على نقيض أبي الفدا يحمل الجغرافيا الرياضية ولكن كتابه الذى يعتبر فى آن واحد مصنفاً فى الجغرافيا والكوزموغرافيا يفضل كتاب أبي الفدا من حيث تبويب مادته ولو أنه أقل ملاءمة لروح عصره^(٢٧) ؛ وهو ذو أهمية كبيرة من وجهة نظر التاريخ الطبيعى^(٢٨) لأنه يحفل بمعطيات وافرة فى النبات والحايوان والمعادن وطبقات الأرض ؛ ويغلب على طابع الكتاب الميل إلى الروحيات ولكن ليست من ذلك الطراز البدائى البسيط . ومن تحليل مصنف آخر له يجادل فيه نصارى قبرص الذين تصدى لرد عليهم أيضاً مواطنه ومعاصره المشهور ابن تيمية يستبين لنا أن الدمشقي لا ينتمى إلى مدرسة المتصوفين القديمة المعادية لكل فكر فلسفى بل ينضم إلى ذلك الاتجاه الذى اقتفى أثر ابن العربى والذى يجيز تطبيق المنهج التشكيكى فى حدود معينة^(٢٩) .

ومما يزيد فى قيمة كوزموغرافيا الدمشقي والمصنفات المشابهة له وجود معلومات غير قليلة فيها نفتقدها لدى المؤلفين الآخرين ، هذا إلى جانب الإشارة إلى مواضع جغرافية معينة تصمت عنها المصادر الأخرى صمتاً مطبقاً . وتحتل المكانة الأولى مادته عن الشام وفلسطين التى عاش كل حياته فيها والتى يعتبر كتابه مصدراً أساسياً بالنسبة لجغرافيتها وتاريخها ، وفى الواقع أن وصفه لهذه البلاد يعتبر من أكمل ما عرف فى هذا الصدد^(٣٠) ، وعند المقارنة به تهبط قيمة الأقسام الأخرى من كتابه المكرسة للكلام على البلاد الواقعة إلى الشرق من البلاد العربية خاصة مناطق المحيط الهندى^(٣١) كما بين ذلك فيران Ferrand . أما فيما يتعلق بالهند نفسها فقد أدان العلماء الدمشقي بأخطاء عديدة^(٣٢) .

وترد الإشارة فى مقدمة بعض المخطوطات إلى خارطة بالكتاب إلا أنه لم يمكن الكشف عنها حتى الآن فى أية واحدة من المخطوطات المعروفة^(٣٣) ؛ بيد أنه إذا أخذنا فى الاعتبار أن جميع كتب الكوزموغرافيا من هذا الطراز كمصنف القزويني والحراني وابن الوردي قد وجدت بها خارطة مستديرة للعالم فإن الاحتمال يغلب بوجودها عند الدمشقي أيضاً . وبعض مخطوطات الكتاب يحمل عدداً كبيراً من الرسوم والتخطيطية ، ويقدم لنا كونراد ميلر تحليلاً لثلاثة منها يبين أحدها تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ويوضح الآخر توزيع الشعوب على الأرض بينما يمثل الثالث رسماً للبحر الأبيض المتوسط^(٣٤) .

والدمشقي نادراً ما يشير إلى مصادره وهى جميعها أسماء معروفة لنا كابن حوقل والمسعودي والبكري والإدريسي^(٣٥) ؛ ويحتل مكانة بارزة من بينها معاصره أحمد الطيني ، ولعله هو نفس ذلك المؤلف^(٣٦)

* لا ضير فى أن ذصيف أن الباب التاسع والأخير يبحث « فى وصف انتساب الأمم إلى سام وياث وحام أولاد نوح » .
(المترجم)

الذى ترد الإشارة إليه تحت لقب الوطواط الوراق (توفى في عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨) وهو من أوائل واضعى الموسوعات وسيرد الكلام عنه في الفصل التالى لهذا . والرأى الذى أخذ به من قبل (٣٦) ومؤذاه أن كتاب الدمشقى ليس إلا نقلا من كتاب هذا المؤلف الأخير لا يستند على أى أساس من الواقع . هذا وقد عرفت كوزموغرافيا الدمشقى منذ السنوات الستينات من القرن الماضى (١٨٦٦ ، ١٩٢٣) فى طبعة وترجمة فرنسية جيدة من عمل المستعرب الدنماركى مرن Mehren ، غير أن المحاولات الأولى الدراسة هذا الأثر قد ارتبطت إلى حد ما بنشاط الاستشراق الروسى . وبفضل انتشار مخطوطات الكتاب بين المجموعات المختلفة فقد بدأ الاهتمام به مبكراً ، ففى القرن الثامن عشر نشر المستشرق السويدى نوربرج Norberg مقتطفات صغيرة منه (١٧٩٨ - ١٧٩٩) وفكر فى إعداد طبعة كاملة له (٣٧) وفى عام ١٨١٩ عندما وصلت إلى المتحف الآسيوى بطرسبرغ مخطوطة من هذا الكتاب ضمن مجموعة روسو اهتم بها المستشرق فرين Frähn اهتماماً متزايداً حتى أنه تقدم فى العام التالى لهذا باقتراح إلى الأكاديمية بأن تقوم بطبعه (٣٨) ؛ ولما كان حجم الكتاب كبيراً فإن اقتراحه لم يكن يرمى فى الواقع إلى إخراج طبعة علمية للمتن بقدر ما كان يهدف إلى نشر مخطوطة بطرسبرغ ؛ وقد بدأ الطبع فعلاً ولكنه حين وصل إلى الصفحة الثانية عشر بعد الثلاثمائة أتى الحريق على بقية الصفحات المعدة للتصحيح (٣٩) . ولهذا السبب أو لأسباب أخرى اضطر فرين إلى الإقلاع عن السير فيه ؛ وفى عام ١٨٦٦ فقط ، أى بعد مضى خمسة عشر عاماً على وفاة فرين ، جمعت الصفحات التى لم تمتد إليها النيران وجلدت وصدرت بوصفها مخطوطة ، ولم يتجاوز المطبوع منها المائة نسخة يضاف إلى هذا صفحة تحمل العنوان باللغة الفرنسية ولا تحمل أى توضيح آخر ؛ وقد بلغ المتن بالتقريب إلى وصف فلسطين وهو يضم ثلثى الكتاب . وفى ذلك العام نفسه ظهرت طبعة مرن الذى كان أول من اهتم بدراسة الدمشقى ولم يكن له أى علم بمجهود فرين ؛ وهو قد اعتمد فى ذلك على المخطوطة الموجودة بكونها غن . وقد بدأ بنشر ترجمة لأقسام من الكتاب وعمل دراسات حول نقاط معينة منه (الشام وفلسطين ؛ شبه جزيرة البرانس الخ) (٤٠) ، ثم استعان بالمادة التى أعدها فرين فأخرج طبعة كاملة للكتاب قامت بنشرها أكاديمية العلوم الروسية . ونتيجة لتعرف العلماء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على المؤلفين السابقين للدمشق وعلى مؤلفى الموسوعات أيضاً فقد تضاعف الاهتمام به بصورة ملحوظة وكان آخر بحث يتصل بكتابه هو بحث دهيران Deherain عن أفريقيا لدى الدمشقى الذى ظهر فى عام ١٨٩٨ (٤١) : بيد أن هذا لا يمنع من القول بأن كتابه لا يزال يجتذب أنظار العلماء فيما يتعلق بمسائل معينة .

. وينتمى إلى نمط الكوزموغرافيا ، مرتبطاً ببعض الشىء بمؤلف الدمشقى ، كتاب أحمد بن حمدان ابن شبيب الحرانى بعنوان «جامع الفنون وسبلوة الخزون» (٤٢) . ولا يزال الغموض بكل أسف يكتنف عدداً من المسائل المتعلقة بشخص المؤلف نفسه وبمسودة مصنفه التى توجد فيها اختلافات كبيرة تبعاً

لإختلاف المخطوطات^(٤٣). والثابت فقط أنه كان يمحصر في عام ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ ؛ ويبصر كوامر من
فني مصنفه تأثير المنهج الذي اتبعه الدمشقي في تبويب مبادئه ولكن يعتقد أن الكتاب قد اعتمد على أساس
جغرافي مغاير^(٤٤) وهو أمر يوكدّه توزيع الأقسام المختلفة للكتاب في بعض المخطوطات^(٤٥). فمثلاً تتحدث المقالة
الثانية في مخطوطة لينغراد عن « الآثار العلوية والسفلية » أو بمعنى آخر عن العجائب التي يمكن ملاحظتها
في السموات وفيما بين السماء والأرض ؛ أما المقالة الثالثة فتحدث عن « الدنيا وأحوالها والدهور والزمان ».
وهي تحفل بأمشاج من المعلومات المتعلقة بالتقاويم ولكنها تجمع إلى جانب ذلك مواد أدبية ذات طابع
انتخابي تزينها الأشعار والأقوال البليغة ، وهذا بالطبع لا يتعلق في قليل أو كثير بالكوزموغرافيا كما وأنه
من العسير تحديد ارتباطه بالمسودة الأولى للكتاب ؛ أما المقالة الرابعة فتشمل أنموذجاً جيداً للكوزموغرافيا
عند الحراني بل إن عنوانها نفسه يحدد مضمونها الأساسي وهو « في عجائب الأقطار وغرائب البحار
والأنهار والجبال والقفار » ، فهي تنضم إذن في جوهرها لنمط العجائب (Mirabilia) المعروف لنا جيداً
منذ القرن العاشر . وإزاء كل هذا فإن من السهل علينا أن ندرك السر في أن قسماً كبيراً من هذه المقالة
قد أفرد لعجائب مصر التي يستقيها أساساً من مصنف إبراهيم بن وصيف شاه ولو أنه لا يشير إليه بصراحة
في صفحات كتابه^(٤٦) ؛ وهذا القسم بالذات هو الذي ضمنه بأجمعه تقريباً في مصنفه في الكوزموغرافيا
سراج الدين بن الوردى^(٤٧) . أما تلك الأقسام من كتاب الحراني
التي تسمى بحر قزوين فهي ليست سوى تكرار حرفي لمادة المسعودي والقزويني^(٤٨) . وعلى أية حال
فإن كتاب الحراني مثال جيد لما طرأ على مادة الكوزموغرافيات القديمة من تبسيط وتقريب إلى أفهام
الجمهور في العصور التالية حتى أصبحت تتمتع برواج كبير في أوساط القراء كما يتضح لنا من كتب
ابن وصيف شاه والحراني وابن الوردى على التوالي .

386

وإلى جانب الدمشقي يجب أن نذكر شخصية معاصره ومواطنه أبي الفدا الذي احتل في ميدان العلم
مكانة أرفع من مكانته والذي يقول رينو Reynaud عن مصنفه الجغرافي وذلك قبل قرن من الزمان إنه
يمثل « إلى جانب الإدريسي مؤلفاً ضخماً في مجاله » ويؤكد في ذات الوقت « أن العصور الوسطى الأوروبية
لم تعرف كتاباً يمكن مقارنته به » . ولا يزال هذا الحكم صحيحاً في جوهره حتى أيامنا هذه ولكن يجب
أن تعدل بعض تفاصيله على ضوء تطور البحث في مجال الأدب الجغرافي منذ أن أصدر رينو حكمه هذا .
وأبو الفدا على نقيض المؤلفين السابقين له ينتسب إلى فرع دوحه عريقة هي أسرة الأيوبيين التي تولت
زمام الحكم في الشرق فهو بذلك تربطه رابطة الرحم بصلاح الدين الأيوبي ، وإلى جانب هذا فهو يتفرد
بين سائر الشخصيات التي تشاركه الحسب والنسب في أنه لم يكن من بين رعاة الأدب والفن فحسب
كما كان الكثيرون غيره بل كان إلى جانب ذلك مؤلفاً كبيراً خلف وراءه مصنفين كبيرين في التاريخ
والجغرافيا . وقد أدى انتسابه إلى تلك الأسرة الكبيرة أن تعددت الأسماء التي عرف بها ، فهو وإن ثبتت

عليه في الأوساط العلمية الأوروبية كنية أبي الفدا إلا أنه غلب عليه الشرف لقبه عماد الدين أو لقب الإمارة الملك المؤيد ؛ أما اسمه فهو إسماعيل بن علي الأيوبي. وسترة حياته معروفة لنا جيداً بفضل ما خلفه لنا من ملاحظات وفيرة في سيرة حياته الخاصة التي تذكرنا في بعض خطوطها بسيرة حياة أمير شيزر أسامة بن منقذ الذي عاش بالشام أيضاً ولكن قبل قرن من أبي الفدا وخلف مذكرات ممتعة عن حياته الخاصة^(٤٩). هذا قد سارت حياة أبي الفدا بحسب ما يبتغى حتى اعتقد البعض أن الأقدار حابته كثيراً^(٥٠).

وإلى جانب ما منحه إياه الأقدار من ذهن صاف وقريحة فياضة وملكة شعرية وتملك لختلاف فروع المعارف إلا أنه برز كذلك بشجاعته وصفاته العسكرية ؛ وقد اعترف له معاصروه بالمرونة والاستعداد الدبلوماسي فاستطاع في تلك الأزمنة الشديدة الاضطراب أن يحتفظ بما ورثه عن آبائه من أملاك بل وأن يوسع رقعتها . وكانت تلك الفترة التاريخية عصبية حقاً فقد استمر الكفاح ضد الصليبيين من ناحية وضد تحركات المغول على الشام من ناحية أخرى ، أضف إلى هذا أن سلطان المماليك لم يكن قد ثبت بعد في الشام بصورة قاطعة ؛ وعلى أية حال فقد كانت قرائن الأحوال تشير إلى أن سلطان مصر هو صاحب القوة الكبرى وقد أحس أبو الفدا بهذا ولعل ذلك هو السبب الذي جعله يثبت على ولائه لدولة المماليك . ولد أبو الفدا في سنة ٧٦٢ هـ = ١٢٧٣ بمدينة دمشق التي كان قد التجأ إليها آنذاك أبوه أمير حماة ؛ وقد سارت مهمة تثقيفه في الأدب جنبا إلى جنب مع تدريبه العسكري وصحب أباه وهو في سن الثانية عشر في الحملة التي انتزعت من أيدي الصليبيين قلعة المرقب ، كما أخذ جانباً وهو في سن السادسة عشرة في إخراج الصليبيين من طرابلس ؛ وفي عام ٦٩١ هـ = ١٢٩١ أخذ طرفاً في حملة على أرمينيا الصغرى بقيادة السلطان لاجين ؛ وتنسب أسطورة أوروبية هذا الأخير إلى جماعة الفرسان الثيوتون (Teutonic Knights) وتزعم بأنه قد وصل إلى فلسطين مع الصليبيين ولكنه لم يلبث أن أخذ جانب المسلمين ونال المكانة لديهم شيئاً فشيئاً حتى صار سلطاناً^(٥١) ؛ ومن الخير أن نضيف أن هذه الأسطورة مجهولة تماماً في المصادر العربية^(٥٢).

هذا وقد ربط أبو الفدا كفاحه مع المماليك نهائياً في عام ٦٩٨ هـ = ١٢٩٩ وذلك في عهد خليفة لاجين السلطان الناصر الذي ظل أبو الفدا مخلصاً له طوال حياته . وفي عام ٧٠١ هـ = ١٣٠١ أخذ أبو الفدا طرفاً في الحملة الثانية للمماليك* على آسيا الصغرى ، وقریباً من ذلك العهد قام بزيارة لبلاط السلطان بالقاهرة لأول مرة فقبول بما هو أهل له من تقدير واحترام وأعيدت إليه حقوقه الشرعية بعد عامين من هذا فثبت أميراً على حماة . ومنذ تلك اللحظة استقر في أملاكه ولكنه كان يُرى بالقاهرة في المناسبات والأعياد كما أدى فريضة الحج بضعة مرات صحب فيها أحياناً السلطان الذي كان يأنس بصحبته ؛ وحوالي

* ورد في الكتاب سهواً « المغول » بدلا من « المماليك » . (المترجم)

عام ٧١٥ هـ = ١٣١٥ اشتراك أبو الفدا في حملة أخرى على آسيا الصغرى . غير أن هذه الحياة النشطة الدائبة الحركة لم تحل دون اشتغاله بالأدب فإلى هذه الفترة بالذات يرجع تدوين القسم الأكبر من تاريخه الذي ظل يضيف إليه عاماً بعد عام حتى سنة ٧٢٩ هـ = ١٣٢٩ ؛ وفي الوقت نفسه وذلك عندما كان بحجة في عام ٧١٧ هـ = ١٣١٧ اشتغل أيضاً في تأليف كتابه في « الجغرافيا » . وقد كان التوفيق حليفه دواماً في خططه السياسية فتم تنصيبه للمرة الثانية في عام ٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ أميراً على حماة وأصبحت الإمارة وراثية في بيته ولقب بالملك المؤيد . وفي رحلة له إلى مصر زار الإسكندرية ونال شرف حضور استقبال سفراء نادريين مثل سفير خايمه Jaime (يعقوب) الثاني ملك أراغون Aragon وسفير ايلخان فارس ؛ وفي أثناء اصطحابه للسلطان في تجواله بمصر العليا بلغ ذندرة . وختم أيام حياته بسلام في حماة وذلك في أكتوبر سنة ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ بعد أن تنبأ كما تزعم الأسطورة بأنه لن يتجاوز الستين شأنه في هذا شأن جميع أفراد أسرته ؛ بل إن نسله أنفسهم لم يكتب لهم البقاء طويلاً في عالم الأحياء فقد ورث ابنه بعده سلطان الأسرة بحجة وخلعت عليه الإمارة من سلطان مصر ولكن بعد وفاته في عام ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ لم يستطع الحفيد أن يرتفع إلى مستوى الأحداث المعقدة لذلك العصر وقنع بالاحتفاظ بمظهر الإمارة إلى وفاته بحجة في عام ٧٥٨ هـ = ١٣٥٧ فانقرض بذلك بيت أبي الفدا^(٥٣) . ولاتزال مقبرة أبي الفدا حتى يومنا هذا بمدينة حماة قرب المسجد المعروف « بمسجد الحيايا » الذي بناه أبو الفدا نفسه كما يمكن الاستدلال من نقش موجود بالمسجد حالياً يرجع تاريخه إلى عام ٧٢٧ هـ = ١٣٢٧^(٥٤) ، وعلى مقربة من منارة المسجد أمر أبو الفدا بتشيد « تربة » له زودها بكفن ، وإذا لم يكن ثمة خطأ قد وجد سبيله إلى تاريخ النقش فإن أبا الفدا يكون بذلك قد أعد العدة لوفاته قبل أربعة أعوام من حدوث ذلك ، أي عندما بنى مسجده في عام ٧٢٧ هـ = ١٣٢٧^(٥٥) . وقد حفظت لنا الأقدار أثراً فنياً كان يمتلكه أبو الفدا ويمثله كاتباً أكثر مما يشير إليه كحاكم ، هو عبارة عن « قلمدان » ، أي وعاء للأقلام ، مصنوع من البرونز ونقشت عليه عبارة مناسبة وهو يعد أثراً طريفاً في الفن الإسلامي^(٥٦) .

وكانت حماة في عهد أبي الفدا مركزاً للأدب والأدباء نلتقى فيها بعدد من الشعراء الذين تنافسوا في مدح الأمير كالشاعر المشهور ابن نباته ، كما نلتقى فيها أيضاً بمواطنين من أهل المدينة نفسها كالشاعر الشعبي عمر المهار (توفي حوالي عام ٧١٠ هـ = ١٣١٠)^(٥٧) . ولم يكن أبو الفدا نفسه غريباً على الشعر ، كما وأنه ضرب بسهم وافر في كثير من العلوم كالفلك والطب والنبات إلا أن شهرته العلمية تعتمد أساساً على مصنفه في التاريخ والجغرافيا .

وأبو الفدا وإن كان معاصراً لماركو بولو Marco Polo (١٢٥٦ - ١٣٢٣) إلا أنه لم يكن رحالة ، فهو لم يعرف غير الشام والبلاد المجاورة لها كفلسطين وبلاد العرب ومصر والجزء الشرقي من آسيا الصغرى

* أي الأفاعي ، وهو جمع عامي لحية كما يستعمله أهل تلك النواحي . (المترجم)

وأرض الجزيرة العليا . أما بخلاف هذا فهو جغرافي نقالة كان يستقي مادته من الآثار المدونة وأحياناً من قصص التجار والرحالة التي سمعها بالشام ، وهو لم يكن بحاجة ولكن هذا لم يمنعه من وضع أثر لا يقل في شيء عن معجم ياقوت . وما لا شك فيه أن كتابه مصنف نقل جمع مادته من عدد كبير من المؤلفات القديمة ولكنه أضاف إلى هذا عدداً ليس بالقليل من المعلومات الجديدة عن البلدان غير الإسلامية ؛ وهو في تبويبه لمادته يكشف عن مقدرة ملحوظة في التأليف . وليس في مقدور أحد أن ينكر أن المكانة التي بلغها عند الأجيال التالية من العرب والفرس والترك ، وبين دوائر المستشرقين ابتداء من القرون السادس عشر ، إنما تقوم في الواقع على أساس متين^(٥٨) .

ويجمل مصنفه في الجغرافيا عنواناً متواضعاً هو « تقويم البلدان » ؛ وقد أتم مسودته في سبتمبر من عام ٧٢١ هـ = ١٣٢١ ولكن من الممكن القول بأنه ظل يزيد عليه حتى لحظة وفاته ؛ وتوجد بمكتبة ليدن مخطوطة له راجعها أبو الفدا نفسه . وينقسم الكتاب إلى قسمين غير متساويين الأول منهما أقل أصالة من الثاني^(٥٩) ، وهو على هيئة مقدمة في الكوزموغرافيا العامة تضم المعلومات المعهودة عن تقسيم الأرض وعن خط الاستواء والأقاليم السبعة³⁹⁰ والمعومور من الأرض ومساحتها وعن المصطلحات المستعملة في الجغرافيا ؛ ويرد فيها وصف قصير للبحار والبحيرات والأنهار والجبال كما يوضح النظام الذي يسير عليه الكتاب^(٦٠) . وأما القسم الثاني والأكبر فهو ينقسم بدوره إلى ثمانية وعشرين قسماً ، أوجدادول على الأصح بمكرسة للكلام على المناطق الجغرافية المختلفة التي تسمى أيضاً بالأقاليم والتي يرد وصفها على الترتيب الآتي الذي قد يختلف اختلافاً ضئيلاً وفقاً للمخطوطات : بلاد العرب ، مصر ، المغرب ، السودان ، الأندلس ، جزر البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطي ، الشمال (بلاد الفرنجة والترك) ، الشام ، الجزيرة ، العراق ، خوزستان ، فارس ، كرمان ، سجستان ، السند (البنجاب) ، الهند ، الصين ، جزر البحر الشرقي ، الروم (آسيا الصغرى) ، أرمينيا (ومعها أرمان وأذربيجان) ، العراق العجمي ، الديلم (وكيلان) ، طبرستان (ومازندران) ، خراسان ، زابلستان (والغور) ، طخارستان ، خوارزم ، ما وراء النهر . وهذا التعداد يبين لنا لأول وهلة أن تبويب أبي الفدا يعكس بدقة تأثير المدرسة الكلاسيكية للبلخي^(٦١) كما وأن الاهتمام الذي يفرده لبلاد إيران يحس من خلاله تأثير « أطلس الإسلام » ؛ ويمكن أن نستنبط من هذا التبويب كيف أن أبا الفدا قد تحول عن الادريسي إلى التقسيم الذي اتبعه جغرافيو القرن العاشر ، أي أنه أطرح جانباً التقسيم إلى أقاليم فلكية مفضلاً عليه التقسيم إلى مناطق جغرافية^(٦٢) .

هذا وإذا كان أبو الفدا يفتقر إلى الأصالة في طريقة تعداده للمناطق وتنظيمه لها إلا أنه بلا ريب يظهر الكثير من هذه الأصالة في طريقة تبويبه للمادة داخل هذه المناطق . فكل واحدة من المناطق الثمانية والعشرين منسقة وفق نظام موحد وينقسم كل منها إلى جزئين يحتوي الأول على عرض عام للمنطقة وأخلاق سكانها وعاداتهم وآثارها القديمة وطرقها ؛ وتتفاوت هذه الأجزاء الأولى من حيث الحجم وفقاً لمساحة كل منطقة

وأهميتها الجغرافية أو تبعاً للمادة التي كانت تحت تصرف أبي الفدا عنها . أما الجزء الثاني لكل منطقة فيمثل جدولاً يقدم رسوماً بيانية متتالية تحتوي على أسماء البلاد والنقاط المأهولة فيها والمصدر الذي اعتمد عليه أبو الفدا في تحديد طولها وعرضها والإقليم الفلكي والجغرافي الذي تنتمي إليه ، هذا مع بيان الأسماء بدقة من جهة الإملاء وتقديم وصف عام للمدن^(٦٣) : وأبو الفدا أول من اتبع نظام الجداول في علم الجغرافيا وهي خطوة لا تعتبر شيئاً أصيلاً إذ من الطبيعي أن نفترض منذ البداية أن أبا الفدا قد استعار فكرة الجداول من الزيجات التي كان يعرفها معرفة جيدة . غير أن أبا الفدا نفسه يذكر صراحة^(٦٤) أنه قد سار على نهج الطبيب يحيى بن جزله (توفي عام ٤٩٣ هـ = ١١٠٠) ^(٦٥) الذي وزع الأمراض في 391 مصنفه الشعبي « تقويم الأبدان » على هيئة جداول وفقاً للنماذج الفلكية . وربما تقودنا هذه الملاحظة الأخيرة إلى التفكير في أن الاثنين قد رجعا إلى مصدر مشترك ، غير أن أبا الفدا يذكر بصراحة أنه أخذ تلك الطريقة عن الطبيب بما في ذلك عنوان الكتاب نفسه .

والمصادر المدونة التي اعتمد عليها أبو الفدا معروفة لنا على وجه العموم لأنه كان من عادته الإشارة إلى مصادره بدقة^(٦٦) ؛ ففيما يتعلق بالأدب الكلاسيكي للقرن العاشر اعتمد أبو الفدا أساساً على الإصطخرى وابن حوقل ؛ ومن بين المتأخرين اعتمد على الإدريسي الذي عرفه لا في كتاب « نزهة المشتاق » وحده بل وفي مصنفه الثاني الذي لم يصل إلينا^(٦٧) ؛ كذلك استعمل معجم ياقوت وجغرافيا ابن سعيد ؛ ومخطوطة هذا المصنف الأخير التي اطلع عليها أبو الفدا محفوظة الآن بباريس^(٦٨) . أما من بين المؤلفين الذين فقدت مصنفاتهم بالنسبة لنا فتحتل أهمية خاصة الفقرات العديدة التي نقلها عن المهلبى جغرافي العهد الفاطمي ، والتي تساعد على تكوين فكرة عن مؤلفه الجغرافي^(٦٩) . وقد وجه أبو الفدا اهتمامه كما هو معروف إلى الجغرافيا الوصفية ، إلا أن الجغرافيا الرياضية تحظى كذلك بمكانة كبيرة في كتابه إذا ما قورن ذلك بالحالة السائدة في عصره^(٧٠) . وكان مصدره في هذا المجال هو البيروني خاصة في كتابه « القانون » ، وابن سعيد الذي مر ذكره ؛ وغير معلوم لنا أي « كتاب الأطوال » يعنى عندما يشير إلى ذلك ولكن الرأي الغالب أنه يقصد بهذا الترجمة العربية لإحدى مصنفات بطليموس العديدة . أما فيما يتعلق بمصادره الشفوية فلا نستطيع إلا أن نقف موقف التكهّن ؛ وهي بلاشك قد وجدت ويمكن أن نقدم مثالا لها الرواية التي ينقلها على لسان أحد التجار عن مصب نهر الشلج أو إشارته خلال كلامه عن الهند إلى رحالة زار تلك البلاد .

ومن الطبيعي أن تحتل الشام والبلاد المجاورة لها الأهمية الكبرى عنده من حيث وفرة المادة ؛ أما فيما يتعلق بأوروبا الشمالية والغربية فإنه لا يمثل أهمية كبيرة بجانب بعض المصادر الموجودة في أيدينا الآن . وقد لوحظ أكثر من مرة تسرب الأخطاء إلى مادته عن عدد من الأقطار وذلك لأسباب مختلفة ، فمثلا وصفه لأفريقيا الجنوبية يمثل تقهقراً علمياً واضحاً عند المقارنة بمصدره البيروني^(٧١) . وقد لمسنا

عنده من قبل الخلط في القسم الخاص بالهند ، من ذلك روايته التي ينقلها عن ابن سعيد والتي يزعم فيها خطأ أن البيروني أصله من مدينة هندية^(٧٢) وهي رواية لا تزال تتردد من آن لآخر إلى أيامنا هذه* ؛ كما يلاحظ لديه أيضاً بعض التخبیط في معلوماته عن الصين والتي استقاها من مصادر مختلفة^(٧٣)

392 وجميع هذه التفاصيل تتكشف بوضوح فور الفحص الدقيق لكل قسم من الأقسام المختلفة لكتاب أبي الفدا ؛ وكتابه بوجه عام مصنف تام مكتمل يمتاز بأصالة التبويب وبالوضوح فضلاً عن أنه تمتع برواج كبير سواء بين الأجيال القريبة من المؤلف أو التالية له^(٧٤) . وقد لخصه الذهبي^(٧٥) معاصره الأصغر سنّاً منه (توفي في عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧) كما نال حظوة كبرى لدى الأتراك فرتبه في القرن السادس عشر سپاهى زاده (توفي عام ٩٩٧ هـ = ١٥٨٨) على حروف المعجم باللغة العربية وزاد عليه وأخرجه بعنوان «أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك»^(٧٦) ، وتوجد منه مخطوطة بمعهد الدراسات الشرقية بليبنغراد^(٧٧) كان قد درسها المستشرق دورن Dorn^(٧٨) ؛ ولم يقف سپاهى زاده عند حد إعادة صياغة المصنف بالعربية بل ترجم شذوراً منه إلى التركية ؛ أما في إيران فقد خضع لتأثيره محمد صادق الأصفهاني من مؤلفي القرن السابع عشر^(٧٩) .

وقد حدث هذا في اللحظة التي عرفت فيها أوروبا أبا الفدا معرفة ليست أقل من معرفة الشرق به^(٨٠) ؛ وفي الواقع إنه لم يفقه في الشهرة هناك إلا مصنفان في اللغة العربية بأجمعها هما القرآن و«ألف ليلة وليلة» . ويمثل كتابه واحداً من أوائل المصنفات التي ترجمت عن اللغة العربية ؛ وحاز التقدير كما يقول أماري «لأسلوبه المتزن ونقده القويم»^(٨١) . وقد ورد ذكره منذ منتصف القرن السادس عشر (في عام ١٥٦١) لدى المستشرق الفرنسي بوستل Postell الذي يعد في الرعيل الأول من بين المستشرقين . وفي القرن التالي لذلك شغل كثيراً بدراسته المستشرق الألماني شيكارت Schickardt (١٥٩٢ - ١٦٣٥) ، ثم لم تلبث أن وجدت نسخة من المصنف ، لا الترجمة وحدها^(٨٢) ، طريقها إلى مكتبة باريس^(٨٣) . وعقب ذلك بقليل (١٦٥٠) وضع المستشرق والفلكي الإنجليزي غريفز Greaves أوغرافوس Gravius (١٦٠٢ - ١٦٥٠) اللبنة الأولى في دراسة هذا الأثر دراسة نقدية بنشره لقسم من الكتاب^(٨٤) ؛ وفي القرن الثامن عشر ظهرت إلى جانب دراسات لبعض نقاط الكتاب ترجمة كاملة له (١٧٧٠ - ١٧٧١) بقلم المستشرق رايزكه Reiske (١٧١٦ - ١٧٧٤) وهي ترجمة يغلب عليها مع الأسف طابع الاستعجال ؛ ثم لم يلبث أن توج كل هذا الجهد الكبير بظهور الطبعة والترجمة اللتين بدأ العمل فيهما في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي تلامذة المستشرق الكبير دى ساسى بايعاز منه وتحت توجيهه ؛ ولا يزال هذا العمل حتى أيامنا هذه من أبرز ما أنتجه الاستشراق الفرنسي ، وقد ظهر المتن الذي قام بإعداده رينو Reinaud

* بين أحد العلماء الهنود المعاصرين أن مصدر هذا الخلط يرجع إلى أبعد من ذلك وهو كتاب «نزهة الأرواح» لشمس الدين الشهرزوري الذي تم تأليفه بين عامي ١١٩٠ و ١٢١٤ . (المترجم)

394 ودى سلان De Slane في عام ١٨٤٠ مصحوباً بمقالة ضافية في سيرة حياة أبي الفدا وعن مصنفه^(٨٥) ؛
وأعقب ذلك في عام ١٨٤٨ ظهور القسم الأول من الترجمة بقلم رينو ومقدمة عامة في علم الجغرافيا لدى
المشاركة تمثل في حد ذاتها أثراً مستقلاً بنفسه^(٨٦) . وقد أتم الترجمة غيار Guyard بعد خمسة وثلاثين عاماً
من ذلك التاريخ وظهرت هذه التتمة في عام ١٨٨٣^(٨٧) . وكان سير العلم قد تقدم بشكل محسوس منذ
أن بدأ تنفيذ هذه الفكرة لذا فإن غيار أورد في مقدمته لترجمة القسم الثاني قائمة بأسماء الطبقات والأبحاث
المتعلقة التي ظهرت في هذه الفترة والتي عدلت كثيراً من موقف العلماء لإزاء أبي الفدا في الثلاثينيات
والأربعينيات من ذلك القرن بحيث بدا هذا المشروع لدى علماء الثمانينيات وكأنه قد عفى عليه الزمن
وذلك بسبب ظهور طبقات لآثار أهم بكثير من مصنف أبي الفدا .

غير أن هذا لا يقلل في شيء من قيمة الترجمة في حد ذاتها ، فهي تمثل إحدى الترجمات القيمة في هذا
الميدان وستظل على الدوام محتفظة بأهميتها لأنها تقدم لنا في صورة متكاملة مصنفاً قائماً بذاته لعب دوراً
ليس بالصغير في تطور العلوم عند العرب وغير العرب . أما المقدمة العامة لرينو Introduction Générale
à la Géographie des Orientaux. Paris, 1848 فإنها تتمتع بأهمية استثنائية كما حدث وأن بينا ذلك
في مقدمة كتابنا هذا ؛ لا لأنها كانت البحث الرئيسي للتعريف بأبي الفدا وجغرافيته على ممر قرن من
الزمان بل لأنها ظلت عشرات من السنين الدراسة العامة الوحيدة في تاريخ الجغرافيا العربية (ويصدق
هذا بعض الشيء على الفارسية والتركية) ولم يحل محلها حتى الآن أي بحث آخر* . وعلى الرغم من
التقدم الذي أحرزه العلم في الفترة التي مرت منذ ظهور المقدمة وعلى الرغم أيضاً من التغير التام الذي
طرأ على الصورة العامة في بعض الفترات التاريخية وفي بعض الجوانب فإن هذا الأثر لا يزال على وجه
التقريب المرجع الأساسي للتعريف بجميع الآثار الجغرافية العربية هذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الفترة
التي انقضت منذ تأليفه . ويرتبط بهذه «المقدمة العامة» على الدوام اسم أبي الفدا الذي كان حافظاً
ولو بطريق غير مباشر على ظهور هذا الأثر العلمي الذي يعتبر من أبرز منتجات الاستعراب الأوروبي.
وكما أسلفنا في مرات عديدة فإن الأدب الجغرافي في هذا العصر لم يجد تربة خصبة في المناطق الواقعة
إلى الشرق من الشام ، ولكن في مقابل ذلك بلغ الأدب الجغرافي باللغة الفارسية أوجه في هذا العصر
بالذات . ويتبين لنا هذا من خلال فحص مصنف رشيد الدين المشهور «جامع التواريخ» الذي وإن
كان في جوهره أثراً تاريخياً صرفاً إلا أنه يمكن اعتباره بنفس القدر مصنفاً في الجغرافيا التاريخية
أيضاً^(٨٨) . وكان أبو الفضل رشيد الدين طبيباً في الأصل وقد ولد حوالي عام ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ في أسرة

* إن كتاب نفيس أحمد الباكستاني الذي وضعه باللغة الإنجليزية والذي تم تعريبه في الآونة الأخيرة لم يستطع أن يشغل المكانة
التي احتلها مؤلف رينو ، ومصادق هذا أن جماعة من العلماء الهنود قد قامت بنقل مصنف رينو إلى اللغة الإنجليزية منذ وقت غير
بعيد ؛ أما الآن وبظهور كتاب كراتشكوفسكي فإنه يمكن القول بأنه قد ظهر فعلاً كتاب يحل محل مقدمة رينو التي عفى عليها
الزمن . (المترجم)

395 يهودية من همدان ، ولم تلبث مهنته أن قربته من بلاط الحكام المغول ايلخانات الفرس منذ عهد آباخان وظل محتفظاً بهذا النفوذ حتى كان في واقع الأمر الوزير الأول في عهد غازان والحياتو ؛ ولكن بوفاة الايلخان أو لحياتو سقط رشيد الدين فريسة لدسائس أعدائه الذين استغلوا فيما استغلوا حقيقة أصله اليهودي فلم يلبث أن نفذ فيه حكم الإعدام في عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨ . هذا الأثر الكبير الذى استعان فيه رشيد الدين بخبرة عدد من العلماء ، وهو شئء جر عليه وقتاً ما تهمة السرقة الأدبية ، بدأ تأليفه في حوالى عام ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ و فرغ منه في عام ٧١٠ هـ = ١٣١١ ؛ وهو يتألف في صورته المعروفة لنا من جزئين أفرد الأول منهما لتاريخ المغول ويتكون بدوره من قسمين يحتوى الأول منهما على تاريخ القبائل التركية والمغولية مع تفاصيل مسهبة عن فروعهم وأنسابهم وأساطيرهم ، بينما يحتوى الثانى على تاريخ المغول منذ جنكيزخان إلى غازان . أما الجزء الثانى فيمثل شيئاً أشبه بالتاريخ العام وهو معروض أيضاً في قسمين يشغل الأول منهما تاريخ إيران القديمة بينما يبدأ الثانى بتاريخ محمد فالحلفاء إلى عام ١٢٥٨ ويضم قطعاً خاصة عن الدويلات الفارسية وعن الإسماعيلية ومعلومات حول كفاح البابائى ضد الأباطرة ؛ وفي الفصل الأخير المتعلق بالهند يعطى تحليلاً خاصاً لبوذا ولتعاليمه . وكما لاحظ عدد من البحاث^(٨٩) فإن هذا المصنف لا مثيل له في تعدد مصادره واتساع أفقه ، بحيث لا نلتقى بمصنف مثله لا في هذا العصر ولا في العصور التالية يعالج تاريخ العرب والفرس باعتباره « جدولاً من الجداول العديدة التى تصب في بحر التاريخ العالمى » ويجهد في تبويب مادته من وجهة النظر هذه .

ولا يزال موضعاً للنزاع القول بوجود جزء مخصص للجغرافيا في هذا المؤلف الضخم ؛ وعلى الرغم من أن رشيد الدين يتحدث في شئء من التفصيل في مقدمة سفره عن مضمون كتابه ، وعلى الرغم أيضاً من أن بعض الكتاب الفرس يشيرون إلى وجود هذا الجزء إلا أن أكثر العلماء يفترض سلفاً أن هذا الجزء كان مجرد أمنية لم يكتب لها التحقيق ؛ وعلى هذا كان رأى بارتولد^(٩٠) . وفي الآونة الأخيرة جنح العلامة أحمد زكى وليدى إلى القول بأن هذا القسم قد وجد بالفعل^(٩١) ؛ وعلى أية حال فإنه لم يتم الكشف عنه حتى الآن* . هذا وقد تعرض كتاب رشيد الدين لعدد من الأبحاث لا مثيل له ، تحتل من بينها الأبحاث الروسية مكانة مرموقة ؛ وجميع هذه الأبحاث تقدم لنا فكرة متكاملة الجوانب عن كل المسائل المتعلقة بالكتاب . وهو وإن اعتبر من ناحية امتداداً للمذهب العربى إلا أنه يقدم لنا من نواح أخرى مواد نادرة جداً في محيط الأدب الجغرافى الإسلامى ترتفع إلى مصادر أوروبية بل وشرقية غير إسلامية^(٩٢) .

هذا وقد نخضع لتأثير رشيد الدين القومى معاصره حمد الله مستوفى قزوينى وانعكس ذلك بوضوح

* لقد تم الآن الكشف عن هذا القسم وذلك ضمن مخطوطة تحوى جميع مصنفات رشيد الدين « جامع التصانيف رشيدى » ، وهى المخطوطة المارسية رقم س ٣٧٥ الموجودة بمعهد الدراسات الشرعية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية . (المترجم)

في نشاطه العلمي ؛ وهو أيضاً كان موضع اهتمام العلماء الروس^(٩٣) . ويتنسب قزويني إلى أسرة³⁹⁶ من قزوين شغل أفرادها لمدة طويلة مناصب إدارية كان من بينها وظيفة المستوفي (أى مفتش الحسابات) ، وقد شغل خمد الله نفسه هذه الوظيفة في أيام رشيد الدين . ولعله هو أيضاً بدأ نشاطه العلمي كرشيد الدين بالتأليف في التاريخ فقد وضع في البداية قصيدة تاريخية على غرار شاهنامه الفردوسي ، تلاها كتاب في التاريخ العام بعنوان « تاريخ كزیده » أتمه في حوالى عام ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠ وهو يتمتع بشهرة كبيرة في الأدب : ويقدم لنا المؤلف في الفصل السادس من هذا الكتاب الأخير وصفاً مفصلاً لمسقط رأسه قزوين وذلك على طراز الرسائل الجغرافية التاريخية المعروفة لنا جيداً عن المدن الكبرى^(٩٤) ؛ ويوجد هذا الكتاب في متناول الأيدي في ترجمة فرنسية ظهرت منذ السنوات الخمسينات من القرن الماضي ؛ وقد وكد الرحالة في منتصف القرن التاسع عشر دقة ما أورده من معلومات^(٩٥) . وإلى جانب هذا فلقزويني مصنف جغرافي مستقل هو « نزهة القلوب » أتم تأليفه في حوالى عام ٧٤٠ هـ = ١٣٣٩^(٩٦) . وتاريخ وفاة قزويني غير معروف على وجه التحديد ولكنه يؤخذ في العادة على أنه عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ : ويمكن اعتبار مصنفه مكملاً للمذهب العربي الإيراني من نمط الكوزموغرافيا المعروف لنا ، جامعاً إلى هذا بضع ملاحظات فلكية وطبيعية وجغرافية بأوسع ما يحمله هذا اللفظ من معنى . وينقسم الكتاب إلى مقدمة وثلاث مقالات وخاتمة ، ففي المقدمة ترد المعلومات المعتادة عن السماء والنجوم والفصول والتوقيت كما يرد وصف عام للأرض وللأطوال والعروض والأقاليم السبعة ، أما المقالة الأولى فتعالج الكلام على المعادن والنبات والحيوان بينما تتناول المقالة الثانية الكلام على الإنسان (خاصة من وجهة النظر التشريحية) ، وبلى هذا المقالة الثالثة المفردة للجغرافيا والتي تنقسم إلى أربعة أقسام يتحدث في الأول منها عن مكة والمدينة والمسجد الأقصى وفي الثاني عن إيران مع استطرادات عديدة . أما الثالث فمن الأقطار المجاورة لإيران والتي خضعت لها حيناً من الدهر بينما يتحدث في الرابع عن المناطق التي لم تخضع لإيران مطلقاً ؛ وفي الخاتمة يعالج المؤلف الكلام عن جميع أصناف العجائب من مختلف أنحاء العالم^(٩٧) : ويفضلها جميعاً من حيث القيمة الفصل الثاني من المقالة الثالثة عن إيران لأنه لا يعتمد على المصادر الكتابية فحسب بل وأيضاً على ملاحظات المؤلف الشخصية التي جمعها أثناء أسفاره الإدارية العديدة بنواحي إيران المختلفة ، زد على هذا أن المنصب الإداري الذي ورثه عن أسرته^(٩٨) إذا جاز القول بهذا قد ساعد قزويني على الوصول إلى الوثائق الرسمية . ووفقاً للمذهب التقليدي القديم فهو لا يكتفى بالكلام على البلاد الإيرانية بل يتحدث عن بلاد كالجزيرة العربية وشرق أفريقيا^(٩٩) ، إلا أن المكانة الرئيسية عنده تشغلها آسيا الصغرى والعراق ، وبوجه خاص إيران : وقد أفاد قزويني فائدة جمّة من الذين سبقوه في هذا المضمار خاصة ابن خرداذبه وياقوت وزكريا القزويني ؛ وهو في وصفه لفارس يعتمد إلى حد كبير على المسودة الفارسية لابن البلخي^(١٠٠) . ولا يمكن إنكار حفظه من المنهج

النقدى فهو لم يكتف بنقل معطيات من سبقوه بطريقة آلية ولكنه يكملها ويصححها أحياناً على ضوء الظروف السائدة في عصره^(١٠١). وثمة أهمية كبيرة تناولها بشكل خاص معلوماته عن الوضع الاجتماعى والاقتصادى السائد بإيران والبلاد المجاورة لها في عهد المغول ، بل وفي عهد السلاجقة أيضاً حيث أفاد في هذا الصدد من الوصف الرسمى الذى وضع في عهد ملكشاه في النصف الثانى من القرن الحادى عشر^(١٠٢). ويعود إلى العلم الروسى فضل كبير في دراسة معطيات قزوينى في محيط التاريخ الاقتصادى والجغرافيا الاقتصادية^(١٠٣) (١٠٤) ؛ وينال كتابه أهمية خاصة بالنسبة للجغرافيا التاريخية وذلك بإعطائه وصفاً لإيران في الفترة التى تعقب رحلة ماركوبولومباشرة^(١٠٥).

لقد اتسع مجال الأدب الجغرافى باللغة الفارسية في القرن الرابع عشر بصورة ملحوظة فلم يقتصر على المراكز الكبرى وحدها ؛ وإلى عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ مثلاً يرجع مصنف لشخص يدعى محمد بن يحيى^(١٠٦) يحمل في أغلب الأحيان عنوان « صور أقاليم سبعة » على الرغم من أنه لا يعكس هذه التسمية بأية حال^(١٠٧) ؛ وقد تم تأليفه بكرمان^(١٠٨) ورفع مؤلفه إلى ميرزا الدين محمد (٧١٣ هـ - ٧٥٩ هـ = ١٣١٤ - ١٣٥٨) أحد أمراء كرماني^(١٠٩) من المظفرية^(١١٠) ؛ وتبويب هذا المصنف الجغرافى الكوزموغرافى الذى حفظ في عدد من المخطوطات^(١١١) بعضها موجود بالاتحاد السوفيتى^(١١٢) معروف أساساً من تحليل للمستشرق الروسى زاليان Salemann^(١١٣) ومن مقال للمستشرق الفرنسى هوار Huart . والفصل الأول منه عبارة عن مقدمة تليها المادة الجغرافية المعهودة ، أما الفصل الثانى فينقسم إلى سبعة أقسام وفقاً للأقاليم السبعة^(١١٤) . ويبدى ريو Rieu الكثير من التشدد في حكمه على هذا الكتاب فيصفه بالانحياز الخلل وبأنه يحفل بالأساطير والخرافات وحكايات الأطفال^(١١٥) ؛ غير أن الكتاب لا يخلو إلى جانب المعلومات المعروفة لنا جيداً من تفاصيل قيمة خاصة فيما يتعلق بالمناطق الشمالية لإيران كما بين ذلك دورن Dorn ، بل إن القسم الخاص بأفريقيا يحتوى إلى جانب الحكايات على معلومات ذات أهمية مستقاة من مؤلفين عرب لم تصلنا مصنفاتهم^(١١٦).

وقد امتد تأثير الأدب الجغرافى الفارسى على الشرق الأقصى وظل باقياً هناك إلى القرن الرابع عشر ؛ وقد بينا في حينه الدور الذى لعبه في هذا المجال مرصد مراغه ومؤلفات نصير الدين طوسى في القرن الثالث عشر . وتمثل الخارطة الصينية الرسمية للمستعمرات « الغربية » التى يرجع تاريخها إلى عام ١٣٣١ (أعوام ١٣٢٩ على الأصح^(١١٧)) نموذجاً طريفاً لهذا التأثير ؛ وقد رسمت هذه الخارطة في عصر حكم أسرة اليوان Yuan She وعملت من أجل الفصل الثالث والأربعين من تاريخ اليوان « يوان شى » Yuan She ؛ وأول من أشار إلى أهميتها برتشنيدر Bretschneider (١٨٧٦) (١١٨) ثم أخضعها لبحث خاص البيرت هرمان A. Hermann (١٩٢٢) . وتبين هذه الخارطة بدقة حدود دولة « الخاقان الأكبر » والدول الثلاث التى دانت لسلطان أسرة جنكيزخان وهى دولة چغتاي في آسيا الوسطى ودولة

أوزبك في سهوب القيقاق ودولة أبي سعيد في إيران . ويمكن أن نستبين من بين الأسماء الواردة في المناطق الجنوبية من الخارطة اسم القسطنطينية ودمشق ومصر^(١١٩) . والخارطة مخططة على هيئة شبكة مربعة أشبه ما تكون بـ سم هندسي (Diagram) منها بخارطة^(١٢٠) ويحس في كل نقطة منها اختلافها الكبير عن الخارطات الصينية القديمة . أما الأسماء الجغرافية فيها فتبدو في صورة جديدة بحيث يصبح من العسير التعرف عليها في الخارطات الصينية المألوفة ، كما أن توجيه الخارطة من الجنوب إلى الشمال يشبه المذهب الغالب على الخارطات العربية ويتعارض مع الأسس التي رسمت عليها الخارطات الصينية في العهد المغولي ولو أن الكارتوغرافيا الصينية كانت تلجأ في العادة إلى استعمال كلتا الطريقتين^(١٢١) . ومن ثم فإنه لا يمكن تفسير نشأتها إلا على ضوء التأثير المباشر للكارتوغرافيا العربية على الكارتوغرافيا الصينية ، بل إن هناك أساس للاعتقاد بأن واضعها كان من ممثلي المدرسة العربية الإيرانية ؛ ومن الممكن أن الأسماء قد كتبت في البداية باللغة المغولية ثم نقلت الخارطة عقب ذلك إلى الصينية^(١٢٢) . وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الأهمية العالمية للجغرافيا العربية لم تكن قد تلاشت في القرن الرابع عشر .

حواشي الفصل الرابع عشر

- Brockelmann, GAL, II, p. 245-246, No 1; SB II, p. 344 — Sarton, (١)
Introduction, II, p. 1066 — Reinaud, Introduction, p. CXXVII — Pons
Boigues, p. 317-318, No 270 — Kramers, El, EB, p. 70
- (٢) المقرئ ، الجزء الثاني ، ص : ٣٥٢ ، الأسطر ٥ - ٧
(٢) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٣٩٩ - ٤٠٦
(٤) شرحه ، الجزء الثاني ، ص ٣٥٢ ، الأسطر ٥ - ٧
(٥) شرحه ، ص ٦٤٥ - ٦٤٦
- Brockelmann, GAL, II, p. 257, No 1; SB II, p. 368 — Kramers, El, EB, (٦)
p. 70 — Plessner, El, IV, p. 806-807 — Amari (—Nallino), I, p. 80-81
No 54 — Amari, Bibl. ar. - sic., II, p. 41-81
- Plessner, El, IV, p. 807 (٧)
- Rousseau, JA, 4 série, XX, p. 572-08; 5 série, I, p. 101-168, 354-425 (٨)
- Plessner, El, IV, p. 807 (= Amari, Bibl ar. - sic, II, p. 41-81 — Bel, (٩)
Benou Ghânya)
- Hennig, III, p. 128-132 (١٠)
- Ahmed Zéki Pacha, p. 57 (١١)
- Kramers, El, EB, p. 71 (١٢)
- Brockelmann, GAL, II, p. 35, No 1; SB II, p. 33-34 — Krenkow, El, IV, (١٣)
p. 57-58
- (١٤) عنان : ص ٤١ - ٤٢ — Kramers, El, EB, p. 71
- Vollers, Ibn Doukma, p. 6 (١٥)
- (١٦) عنان ، ص ٤٢
- (١٧) عنان ، عدد من المقتطفات ، ص ٤٢ ، الحاشية ٣
- (١٨) عنان ، ص ٤٢
- Björkman, Beiträge, p. 83 (١٩)
- (٢٠) حاجي خليفة ، الجزء الأول ، ص ٥١٦ ، رقم ١٥٨١ ؛ شرحه ، الجزء الأول ، ص ١٥١ ،
رقم ٦٣ ؛ الجزء الثاني ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ؛ قارن عنان ، ص ١٦٨
- (٢١) حاجي خليفة ، الجزء الأول ، ص ٥١٧ .

- Moritz, Ibn al - Gî'ân, p. 11 (٢٢)
- Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 5; SB, II, p. 163 — Moritz, Ibn al - Gî'ân, p. 111 — Kramers, EI, EB, p. 71 (٢٣)
- Reinaud, Introduction, p. CL — Brockelmann; GAL, II, p. 130, No 1; SB II, p. 161 — Brockelmann, Al Dimashki, p. 1016 — Kramers, EI, EB, p. 70 (٢٤)
- Kramers, Legacy, p. 92 (٢٥)
- Devic, Litt. géogr. arabe, p. 396 (= t. à p., p. 35) (٢٦)
- Kramers, EI, EB, p. 70 (٢٧)
- Ruska, GZ, p. 596 (٢٨)
- Fritsch, p. 36 (٢٩)
- Devic, Litt. géogr. arabe, p. 396 (= t. à p., p. 35) (٣٠)
- Ferrand, Relations, II, p. 363-393 (٣١)
- Hudūd, p. 254 (٣٢)
- Mehren, Cosmographie, p. VIII — Miller, V, p. 139 (٣٣)
- Miller, V, p. 130-141 (٣٤)

(٣٥) راجع عن المؤلفين والكتب الذين ينقل عنهم الدمشقي .

Mehren, Cosmographie, p. LXXXVII — LXXXVIII

- Mednikov, Palestina, Issledovanie, p. 282 (٣٦)
- Mehren, Cosmographie, p. X (٣٧)
- Dorn, Das Asiatische Museum, p. 36 (٣٨)
- Mehren, Cosmographie, p. XI (٣٩)
- Pozen, Meren, p. 40 - 41 — Mednikov, Palestina, Perevod, p. 1166-1167 (٤٠)
- Dehérain, 1898 (٤١)
- Brockelmann, GAL , II, p. 130, No 3; SB II, p. 161-162 — Rozen, Notices Sommaires, p. 175-176 No 224 (٤٢)
- Brockelmann, GAL, SB II, p. 161, note 1 (٤٣)
- Kramers, EI, EB, p. 70 (٤٤)
- (٤٥) راجع أيضاً : Rozen, Notices sommaires, p. 175-177, No 224
- Rosen, Notices sommaires, p. 177 (٤٦)

- Brockelmann, GAL, SB II, p. 162 (٤٧)
- Dorn, Mél. As., VI, p. 347 (p. 348-364 : شذور) (٤٨)
- Hitti, Kitāb al-l'tibār أسامة بن منقذ (٤٩)
- Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 139-146 — Reinaud, Introduction, (٥٠)
§ II, p. XXXVIII
- Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 141 (٥١)
- Lane Poole, p. 290 note 2 (٥٢)
- Reinaud, Introduction, p. XXXI (٥٣)
- Mühlinen, p. 658 (٥٤)
- (٥٥) شرحه ، p 660
- Wiet, Catalogue, p. 81, No 11 and p. 196, No 152 (Collection Harari, (٥٦)
No 179)
- Brockelmann, GAL, SB II, p. 1. No 1b (٥٧)
- Kramers, El, EB, p. 70 ومع تشدد أكثر لديه ؛ Kramers, Legacy, p. 91 (٥٨)
- Blachère, p. 291 (٥٩)
- Blachère, p. 291 — Reinaud et de Slane, Texte, p. 507 (٦٠) شرحه
- Kramers, El, EB, p. 70 (٦١)
- Bartold, Geografia Ibn Sa'ida, p. 228 (٦٢)
- Blachère, p. 291-292 (٦٣)
- Cf. Reinaud et de Slane, Texte, p. 3. الترجمة : Reinaud, II, 1 Partie, p. 3; (٦٤)
Cf : Blachère, p. 292
- Brockelmann, GAL, I, p. 485, No 8; SB I, p. 887-888 (٦٥)
- Reinaud, Introduction, p. CDXLVII — CDXLIX (٦٦)
- Mednikov, Palestina, الترجمة p. 1143, note 3 — p. CXXI شرحه (٦٧)
- Reinaud, Texte arabe, p XLV, note 1 (٦٨)
- Mednikov, Palestina, Issledovanie, p. 282 (٦٩)
- Amari (— Nallino), I, p. 58, No 24 (٧٠)
- Kimble, p. 60 62 ، خاصة ، (p. 61) (٧١)
- Hudüd, p. 372 (٧٢)
- Yule — Cordier, Cathay, I² , p. 145, 258 (٧٣)
- (٧٤) عن ملخصات وتفتيحات مصنف أبي الفدا في الشرق راجع :
- Reinaud, Introduction p. CDLIII — CDLIV (٧٥)

- p. CDLIII شرحه (٧٥)
- Brockelmann, GAL, II, p. 46,453, No 4; SB II, p. 44, 673 — Taeschner, (٧٦)
DI, XIX, p. 39, note 1
- Rozen, Collections scientifiques, p. 35, No 69 (٧٧)
- Dorn, Caspia, p. 167-169 = Dorn, Kaspi, p. 263-267 (٧٨)
- Reinaud, Introduction, p. CDLIV (٧٩)
- p. CDLV شرحه (٨٠)
- Amari, (—Nallino), I, p. 58, No 24 (٨١)
- Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 13 (٨٢)
- Reinaud, Texte arabe; p. XLII, note 2 (٨٣)
- Abulfedae Chorasmiae et Mavaralnahræ descriptio, ed. J. Gravius, (٨٤)
London, 1650
- (٨٥) راجع الحاشية رقم ٦٠
- (٨٦) راجع الحاشية رقم ٦٦
- Guyard, II, deuxième partie (٨٧)
- Bartold, MI, I, 1912, p. 56-107 — Berthels, Rashid al-Din, p. 1213- (٨٨)
1214 — Romaskevich, MITT, I, p. 52-54 — Volin, Orda, II, p. 27-
29 — Bartold, Iran, p. 75-79 — Krymski, Istoria Persii, III, p. 44-48
— Ferrand, Relations, II, p. 361-362 — Schefer, Chrestomatie persane,
p. 12-14 — Yule — Cordier, Cathay, III², p. 107-133 — Browne,
Literary History, III, p. 68-87
- Validi, GZ, XL, p. 364-365 and note 1 (٨٩)
- Bartold, Iran, p. 76 — Krymski, Istoria persii, III, p. 44, note 2 (٩٠)
- Validi, GZ, XL, p. 365-366, note 5—Validi, Schwerter, p. 47 and note 1 (٩١)
- Yule — Cordier, Cathay, III², p. 107-133 (٩٢)
- Bartold, Iran, p. 79 81 — Krymski, Istoria Persii, III, p. 49-50 — Romaske- (٩٣)
vich, MITT, I, p. 54-55 — Reinaud, Introduction, p. CLV-CLVI —
Büchner, EI, II, p. 904-906 — Kramers, EI, EB, p. 71 — Ferrand,
Relations, II, p. 405-407 — Le Strange, Description of Persia, p. 49-
63 — Browne, Literary History, III, p. 87-100
- Browne, Literary, History p. 93-94 — Barbier de Meynard, Kazvin, p. 257-308 (٩٤)
- Barbier de Meynard, Kazvin, p. 257 (٩٥)

- Le Strange, Description of Persia, p. 54 — Browne, Literary History, (٩٦)
III, p. 98-100
- Le Strange, شرحه p. 59-63 (٩٧)
- p. 53-54 شرحه (٩٨)
- Ferrand, Relations, II, p. 405 407 (٩٩)
- Büchner, El, II, p. 906 (١٠٠)
- Bartold, Iran, p. 80 (١٠١)
- شرحه (١٠٢)
- Le Strange, Description of Persia, p. 54-55 (١٠٣)
- Bartold, Mechet, p. 14 et sui. — Petrushevski, Khamdallakh Kazvini (١٠٤)
Le Strange شرحه p. 50 (١٠٥)
- Kramers, El, EB, p. 71 (١٠٦)
- Huart, l'Afrique, p. 1 (=t. á p., p. 13) (١٠٧)
- Dorn, Mél. As. VI, p. 574, No 3 (١٠٨)
- VII, p. 43 44 شرحه (١٠٩)
- Huart, l'Afrique, p. 1 (=t. à p., p. 13) (١١٠)
- p. 1-2 (t. à p., p. 13-14) شرحه (١١١)
- Salemann, Mél. As., IX, p. 493 — Miklukho — Maklai, opisanie, p. 43- (١١٢)
45, No 27
- Salemann, Mél. As., IX, p. 493-495 (١١٣)
- p. 494-495 شرحه (١١٤)
- Huart, l'Afrique, p. 2 (=t. à p., p. 14) (١١٥)
- شرحه (١١٦)
- Hermann, p. 278, note 1, Table. VIII (١١٧)
- شرحه (١١٨)
- p. 279 شرحه (١١٩)
- p. 278 شرحه (١٢٠)
- Ferrand, Tuhfat al-albāb, p. 88-89, note — شرحه Introduction, p. 48. (١٢١)
48, note 2
- Hermann, p. 280 (١٢٢)

الفصل الخامس عشر

موسوعات عصر المماليك — أسفار ابن بطوطة

- 399 وكذا القرن الرابع عشر تفوق مصر الفكرى بوجه عام لا فى ميدان الأدب الجغرافى وحده ، فنحن نلتقى فى العصر المملوكى بأدب حافل قل أن نجد له مثيلاً فى أى بلد من بلدان الشرق الأخرى^(١) . وقد تعرفنا حتى الآن على عدد من المصنفات الجغرافية المتعلقة بمصر كما أننا سنتحدث عن أخرى غيرها ، بيد أنها ليست هى التى تكسب الأدب الجغرافى لهذا العصر طابعه المميز فإن شرف ذلك يرجع إلى نمط الموسوعات التى ازدهرت فى تلك الآونة والتى أفرد فيها للجغرافيا على الدوام مكانة مرموقة ، وهى التى ترك طابعها المميز بوضوح على القرنين الرابع عشر والخامس عشر وتعتبر خير ما أنتجه ذلك العصر.
- أما من وجهة نظر التاريخ الأدبى فإن الموسوعات تنتمى إلى طراز مصرى صرف من المؤلفات الوصفية التى وضعها عمال وعلما حكومة عصر المماليك ؛ ويجب أن يضم إليها عدد من الأوصاف المستقلة فى جغرافيا مصر والشام وإدارتهما^(٢) مما حدث وأن عاجلنا الكلام عليه من قبل وسنعرض له حين الحديث على القرن الخامس عشر. وكنمط أدبى فإن هذه الموسوعات وليدة تاريخ طويل معقد فهى ترتبط بعض الشيء بتلك المجموعات التى وضعت فى الإدارة والجغرافيا والمعروفة لنا من القرنين التاسع والعاشر ، ولكنها تختلف عنها فى أنه قد قصد بها دائرة أوسع من القراء . وعلى الرغم من أنها عملت أساساً من أجل كتابة الدواوين الذين كانوا زينة الجهاز الكتابى والإدارى لمصر آنذاك إلا أن جميع المثقفين قد اهتموا بمطالعتها ، مما جعل مؤلفيها يولون اهتماماً كبيراً للأسلوب الأدبى . وهى بلاشك أوسع مجالا من المؤلفات السابقة لها ، كما أنها تعالج مسائل أعم وأكثر شمولاً فى جميع فروع العلوم التى يريد المؤلف أن يعرف بها . ولا تقف أهميتها عند حد الجغرافيا وحدها بل إنها بنفس القدر تولى اهتمامها أيضاً إلى التاريخ والحضارة^(٣) ؛ وهى وإن كانت لا تخلو من بعض الصلة بمصنفات الجغرافيا المبكرة إلا أنها إلى جانب هذا قد خضعت لتأثير قوى من ناحية المصنفات الكوزموغرافية للقرن الثالث عشر بحيث تستعير أحياناً طريقة تبويبها . والاختلاف الجوهري الذى يميزها عن غيرها هو أن هدفها الأول لم يكن الإعلام بل الأدب الفنى ، كما أن مؤلفيها لم يروا فى أنفسهم علماء بل كتاباً ، أعنى كتاباً من موظفى ديوان الإنشاء كل زادهم هو بعض الخبرة فى الشئون الكتابية . وقد أدت وحدة الوسط الذى نشأت فيه الموسوعات إلى تشابهها فى الترتيب ، وهو ترتيب يعكس أحياناً بوضوح تام أثر التدريب الصارم فى الشئون الكتابية .

وأكبر موسوعات القرن الرابع عشر هما موسوعتا النويرى والعمري ، غير أنه وجد مؤلف سابق عليهما في هذا الميدان من الناحية الزمنية ويمكن بوساطته تقصى أصل نخط الموسوعات هو محمد بن إبراهيم الطواط الكتبي النراق (توفى عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨) ^(٤) . ولقبه النراق يشير بوضوح تام إلى أنه لم يكن من رجال الأعمال أو عمال الحكومة بل كان من المشتغلين بالكتب وربما كان من تجاردا أو نساخها ، وعلى أية حال فقد كان وثيق الصلة بالأدب .

ولا تتوفر لدينا معطيات عن سيرة حياته إنما يؤخذ من ألفاظه أنه مغربي المولد مصري الوطن والدار ^(٥) . وكان شاعراً أديباً اشتهر بمؤلف في المختارات الأدبية نال رواجاً كبيراً كما هو الشأن مع المؤلفات من هذا النوع ، كما اشتهر أيضاً بكتاب آخر في شعراء الأندلس غير معروف لنا عن كتب ^(٦) . ويمثل أهمية أساسية بالنسبة لنا مصنف له لم يطبع حتى الآن ويقف في الحد الفاصل بين الكوزموغرافيا والموسوعة والمختارات الأدبية ، جامعاً بين هذه العناصر الثلاثة وأشبه ما يكون بحلقة موصلة إلى مصنف النويرى . وكما هو الحال دائماً مع أمثال هذه المؤلفات فهو يحمل عنواناً متكلفاً يختلف أحياناً في المصادر والخطوط هو « مباحج الفكر ومناهج العبر » ؛ ويهدف المؤلف بكتابته إلى الموعظة والعبرة وهو كبقية الكوزموغرافيات غرضه تفسير « معالم » الطبيعة المختلفة ، لهذا فإنه يمثل موسوعة في العلوم الطبيعية والجغرافيا ولكنه معروض في أسلوب المصنفات الأدبية وموضح بالشواهد من شعر ونثر . وينقسم الكتاب إلى أربعة فنون الأول في الفلك والأجرام السماوية والثاني في الجغرافيا والاثنو جغرافيا مع استثناء الشعوب المنحدرة من أولاد يافث وأولاد حام « لأن رائد العقل بهمت عليه أسماؤها فما عرج عليها ولا حام » ^(٧) والثالث في الحيوان والرابع في النبات . وكل فن ينقسم بدوره إلى تسعة أبواب ^(٨) . ينعكس 401 في تتابعها تأثير نظام العرض المعهود في كتب الكوزموغرافيا . والفن الثاني المكرس للجغرافيا يبحث في باب الأول في خلق الأرض وهيئتها ، ولعل مما لا يخلو من الطرافة اعترافه بكروية الأرض وحركتها ^(٩) ؛ والباب الثاني منه في الجبال والمعادن والثالث في البحار والجزائر والرابع في العيون والآبار والخامس في ذكر أسباب من سكن المعمور . أما السادس فيبحث في ذكر البلاد ونواحيها وما ملك المسلمون منها والسابع في طبائع البلاد وأخلاق من سكنها من العباد والثامن في المباني التي بقي أثرها ووعظ خبرها والتاسع فيما وصفت به المعازل والمنازل .

إن هذا المضمون يذكرنا إلى حد كبير بما هو معروف لنا في المصنفات الكوزموغرافية خاصة كتاب القزويني ، غير أن أسلوبه يختلف عنها اختلافاً كبيراً لأن الطواط يقرر منذ البداية في كل قسم من كتابه بالتقريب أنه لم يقصد إلى الإعلام أو إلى استنباط نتائج عملية من النظريات التي يعرضها ولكن يترك هذا للمتخصصين . فهو مثلاً في الفن الأول الذي أفرده للكلام على الفلك لا يمس الجانب التطبيقي منه وهو التنجيم ^(١٠) ؛ وكذلك الشأن مع الفن الثالث الذي يمس الحيوان نراه لا يتعرض في شيء إلى نفعها أو ضررها

أو تشريح أعضائها « إذ ذلك موضوع لم في كتب مدونة ». وهذا القول نفسه يصدق على الفن الرابع الذى يتعرض فيه للكلام على النبات فهو لا يتحدث فيه عن منافع النبات ومضاره أو ذكر ماهيته وقواه وطبائعه بل يكتفى بذكر طرف من تجارب الفلاحين والطرق التى مارسوها فى علاجه والعناية به^(١١) . ولا ينفى مؤلفنا أن الهدف من كتابه هو تقديم جماع ما عرفه فى زمانه علماء العرب واليونان والسريان فيما يخص الأرض والسماء ، وفيما عدا ذلك فإنه يغلب عنده بصورة واضحة الميل الأدبى على الميل العلمى^(١٢) فيحفل بنماذج من النثر والشعر من كل لون معروضة عرضاً جيداً يكشف عن خبرة كبيرة بالمسائل الأدبية ، وبهذا فإن كتابه لم يقف عند حد تلك العلوم التى أفرد لها « فنوناً » مختلفة فحسب بل يعالج « الأدب » فى معظمه^(١٣) . وينعكس هذا بصورة أوضح فى طريقة عرضه للمادة فى كل باب ، فهو يصدر مواضع بحثه بالقول النقلي من آيات قرآنية وأحاديث نبوية ومذاهب فى التفسير ثم يعقب على ذلك بآراء العلماء من اليونان والعرب . ويلي هذا فى العادة توضيح لغوى تصحبه أمثلة من مجال الأدب بمفهومه الواسع كالنواذر والأمثال والشعر^(١٤) ؛ وهو يستشهد بعدد كبير من الشعراء من مختلف العصور^(١٥) كما يذكر أسماء عدد وافر من الكتب^(١٦) .

والكتاب فى جوهره مؤلف نقل بالطبع ، غير أن هذه الظاهرة يجب ألا تدهشنا فى محيط الأدب العربى ابتداء من القرن الثانى عشر ؛ وعلى أية حال فإن واحداً من البحاثة القلائل الذين فحصوا هذا 402 المصنف فحصاً دقيقاً يثبت أنه أكثر جدية وأحفل مادة من كوزموغرافيا القزوينى^(١٧) وأنه لا يعكس ذلك الميل الواضح إلى العجائب كما هو الحال مع الكتاب الآخر . ومما يزيد فى صعوبة التعرف على هذا المصنف أنه لم يطبع إلى الآن ، وليس هذا فحسب بل أيضاً لأن مجموعات المخطوطات المختلفة لا تحتوى منه إلا على أجزاء متفرقة^(١٨) ؛ والنسخة التامة الوحيدة المعروفة حتى الآن هى تلك الموجودة بالمكتبة المارونية بحلب والى لفت إليها الأنظار منذ القرن الثامن عشر أحد كبار ممثلى النهضة الأدبية فى الشام جرمان فرحات (١٦٧٠ - ١٧٣٢)^(١٩) الذى وضع لها عناوين شاملة فى عام ١٧٢٧^(٢٠) ؛ ثم قام بوصف هذه النسخة بالكثير من الدقة والتفصيل عالمان مختلفان من حاب^(٢١) أحدهما هو الذى يجب الاعتماد عليه اعتماداً تاماً فى التعرف على الكتاب .

ونظراً لأنه مصنف نقل متأخر لم يقتصر على الجغرافيا وحدها فإن « مباحج الفكر » لا يمثل خطوة هامة فى تطور الأدب الجغرافى ؛ غير أنه لا يخلو من أهمية بالنسبة لنا لا فى وصفه لذلك العصر وذلك الوسط فحسب بل لأنه يسوقنا إلى التاريخ المبكر للموسوعات فيمكننا من تبين الصلة التى تربطها بالكوزموغرافيا وبالمصنفات الأدبية الأخرى . فهذا المصنف تد لعب بلاشك دوراً كبيراً فى تطوير هذا النمط ويرتبط ارتباطاً مباشراً بموسوعة النويرى ؛ وبرهان ذلك ليس فقط فى أن هذا الأخير ينقل عنه مراراً بل لأنه من المحتمل أن يكون النويرى قد استعار عنه طريقة التبويب إلى « فنون » محتفظاً أحياناً

بمحتويات الكتاب نفسها؛ ففي القسم الخاص بالنبات مثلاً يعيد النويرى تصنيف النبات كما دونه الوطواط (٢٢)؛ ومن هذا نجد أن التفاصيل من ناحية والتبويب من ناحية أخرى يشير إلى ارتباط وثيق بين الكتابين. ويعتبر شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكرى النويرى (٦٧٧ هـ - ٧٣٢ هـ = ١٢٧٩ - ١٣٣٢م) خير ممثل للوسط الذى عملت فيه ومن أجله الموسوعات؛ وهو مصرى الأصل أخذ اسمه من اسم محلة غير كبيرة فى مصر العليا، وقد اكتسب أبوه الشهرة ككاتب فى مختلف دواوين الحكومة وكان الابن من المقرين إلى السلطان الناصر الذى شمل أبا الفدا برعايته. وشغل النويرى لبعض الوقت منصب رئيس لكتبة إدارة الجيش بطرابلس الشام ثم فيما بعد منصب رئيس الكتبة فى عدد من المقاطعات المصرية. ويرتبط على السواء بالأعمال الإدارية وبالإشياء الأدبية مصنفه الأساسى الكبير الذى رفعه إلى الملك الناصر. وعنوانه «نهاية الأرب فى فنون الأدب» يشير على وجه التحديد إلى المضمون الأدبى للمصنف والدور الحاسم الذى يلعبه فى هذا المقام لفظ «فن». ويبين لنا المؤلف نفسه الطريق الذى سلكه فى تنفيذ فكرته فهو يذكر أنه فى بداية نشاطه الأدبى قد أولى كل جهده إلى «الكتابة»، ثم تحول إلى «الأدب» بمفهومه العام عقب ذلك. وقد جعل هدف موسوعته تلخيص جميع العلوم الاجتماعية فما يحتاج إليه كبار الكتاب؛ وهذا الوضع فى الهدف يتفق تماماً مع ما هو ملحوظ فى كتابه من الانتظام الشديد فى العرض ولو أنه يقوم على أسس شكلية.

403

وإلى جانب الفنون الأربعة الموجودة لدى الوطواط يضيف النويرى «فنًا» خامساً ويعدل كثيراً فى مادة «الفن» الثانى. وينقسم كل فن عنده إلى خمسة «أقسام» يحتوى كل واحد منها على عدد من الفصول يختلف مقدارها باختلاف الأقسام. فالفن الأول مفرد للسماء والأرض (ويشمل الجزء الأول من الطبعة المصرية)، أما الفن الثانى فعن الإنسان (الأجزاء من الثانى إلى التاسع) والثالث للحيوان (الجزآن التاسع والعاشر) والرابع للنبات (الجزآن الحادى عشر والثانى عشر) والخامس للتاريخ. ولا تتفق الفنون فى أحجامها فالقسم التاريخى الذى يصل به المؤلف إلى العام السابق لوفاته (٧٣١ هـ = ١٣٣١) يشغل بالتقريب نصف الكتاب، أى أنه يمثل فى الطبعة ما يقرب من تسعة آلاف صفحة من القطع الكبير؛ وإلى جانب التقسيم إلى فنون ينقسم الكتاب إلى أجزاء يصل عددها إلى واحد وثلاثين جزءاً. وكان المؤلف خطاطاً كتب بخط يده أربع أو خمس نسخ تامة من مصنفه هذا قدرت قيمة كل واحدة منها بألفى درهم؛ وكان بمقدوره أن يخط ثمانين صفحة فى اليوم.

والقسم الجغرافى من الموسوعة يشغل القسمين الرابع والخامس من الفن الأول، وفيه للثق بـكل المعلومات المعروفة لنا عن خلق العالم والظواهر الجوية (meteorological) والعناصر وقياس الوقت والفصول، وكذلك عن الأرض وأبعادها والأقاليم السبعة والجبال والبحار والجزر والأنهار والبحيرات والبلدان المختلفة والمدن وسكانها وآثار المنازل والحال (٢٤)؛ وهكذا نجد هنا أيضاً توافقاً ملحوظاً

فى المضمون مع الوطواط : ومعطياته فى الجغرافيا الإقليمية (regional) بوجه عام طفيفة للغاية عند مقارنتها بالمعلومات ذات الطابع العام ؛ وكما هو الحال مع الأقسام الأخرى من الكتاب فإن النويرى لا يدعى لنفسه أصالة خاصة بل يذكر بالتحديد أنه إنما يقتفى أثر السابقين له ويلقى بجميع المسئولية على عاتقهم . وتبدو أصالته الأساسية فى معالجته الأدبية لمادته وينعكس هذا بوضوح تام فى القسم الذى يفرد له للنبات مثلاً فهو يعالج الكلام على النبات من وجهة نظر الأدب ويورد عنه 404 ما هو ضرورى فقط للتثقيف الأدبى ، فالنبات نافع للإنسان كغذاء أو عطر أو أدوية طبية ولكن توضيح ذلك لديه يجرى فى الغالب عن طريق إيراد الأشعار ولهذا فإن القزوينى مثلاً يفوقه فى وصفه لعدد أكبر من النباتات (٢٥) رغمًا من أن القسم النباتى لدى النويرى أكبر منه حجمًا .

وقد أخذ النويرى وقتًا طويلاً فى تأليف كتابه يصل إلى عشرين عاماً ، وهو أمر ليس بالغريب إذا أخذنا فى الاعتبار حجم الكتاب الهائل . وهذا يفسر لنا تفسيراً كافياً السبب الذى جعل الأقسام المبكرة من الكتاب تضم زيادات ترجع إلى تاريخ متأخر وأن المؤلف ظل يضيف إلى القسم التاريخى على هيئة حوليات من عام لآخر إلى قرب وفاته . وكتاب النويرى مصدر من الدرجة الأولى بالنسبة للتاريخ والجغرافيا التاريخية المعاصرة له أو القرية العهد منه ، أما بالنسبة للفنون الأخرى فإن أهميته تختلف باختلاف نوع المادة التى يعالج الكلام عليها فى كل فن .

وبفضل العدد الكبير من أجزاءه المختلفه الذى وجد طريقة إلى مجموعات المخطوطات بأوروبا فقد بدأ الاهتمام بموسوعة النويرى منذ القرن الثامن عشر واجتذب الأنظار بصورة خاصة الجزء التاريخى منها . وقد بالغ العلماء أحياناً فى تقدير الأقسام المفردة لتاريخ الأزمنة السالفة ولكن لم يلبث أن تبين فى القرن العشرين أن النويرى مصدر ذو أهمية ثانوية فى هذا المجال بعد أن أصبحت فى متناول الأيدى معظم المصادر التى اعتمد عليها فى كتابة تلك الأقسام . وعلى النقيض من هذا فإن كتابه سيظل على الدوام مصدراً ذا أهمية كبرى بالنسبة للفترة التاريخية القريبة من عهد المؤلف سواء كان ذلك عن شمال أفريقيا والأندلس وصقلية (٢٦) أم عن أقطار مثل دولة الأوردو الذهبى ؛ وقد بين أهمية النويرى بالنسبة لتاريخ تلك الدولة أبحاث تيزنهاوزن Tiesenhauseن ثم وكدت ذلك الأبحاث الأخيرة التى ظهرت فى الاتحاد السوفيتى . أما الأجزاء الأخرى من موسوعة النويرى فإنها لم تجتذب كثيراً أنظار البحاثة على الرغم من أن القسم الذى يحتوى على سير مشاهير الرجال يمكن أن يقدم مادة لبعض الدراسات ؛ وتحليل كل من فيدمان (٢٧) وفيران (٢٨) للفصول التى تبحث فى العطور والأدوية والنباتات بوجه عام يبين أن الكتاب لا يخلو من مادة قيمة تهم الجغرافى كما تهم عالم النبات ومؤرخ الحضارة .

ومما كان يعوق التقييم العام لموسوعة النويرى هو عدم وجود طبعة كاملة للكتاب ؛ ولقد كان من أفضل خدمات العلامة المصرى أحمد زكى باشا (توفى فى الخامس من يوليو عام ١٩٣٤) هو ما بذله من جهد

في سبيل جمع نسخة كاملة من هذا الكتاب في واحد وثلاثين جزءاً البعض منها في الأصل والبعض الآخر مصور من مخطوطات استنبول والمكتبات الأوروبية^(٢٩). هذا وقد وصلت الطبعة التي بدأها دار الكتب المصرية في عام ١٩٢٣ إلى الجزء الثاني عشر* الذي ينتهي به الفن الرابع؛ أما الأجزاء الباقية 405 فتحتوي على القسم التاريخي. وبهذا أصبح من الممكن تقدير هذا الأثر الجليل لعهد المماليك تقديرًا أساسياً يتفق مع أهمية الكتاب الكبرى بالنسبة للأدب الجغرافي ولجميع تاريخ حضارة ذلك العهد.

ويظفر بأهمية أكثر منه بالنسبة لنا مصنف معاصره العمرى (٧٠٠ هـ - ٧٤٩ هـ = ١٣٠١ - ١٣٤٩) وإن لم تبلغ سمعته في الدوائر العلمية سمعة النويرى^(٣٠). واسمه الكامل وهو شهاب الدين أحمد بن يحيى ابن فضل الله العمرى الدمشقي يدلنا على أنه خلافاً للنويرى لا ينتمى من ناحية الميلاد إلى مصر؛ ويرتفع نسب أسرته إلى عمر بن الخطاب وهو أمر تشكك في صحته أحياناً بعض من لا يحبون الخير للناس؛ أما أجداده الأقربون فقد استقروا منذ بعض الوقت في البرلس بمصر السفلى^(٣١) ولكنهم كانوا يحسون على الدوام بأنهم أكثر ارتباطاً بدمشق^(٣٢) منهم بمصر فاحتفظوا باسم الدمشقي كنسبة أساسية؛ وبدمشق ولد العمرى ولكنه شب وتعلم بمصر. وقد ربطته تقاليد أسرته كما هو الحال مع النويرى بعمل الدواوين؛ وكما يذكر المقرئى فإن أسرته قد تولت رئاسة ديوان الإنشاء بمصر مدة قرن من الزمان تقريباً^(٣٣). وإلى جانب ممارسته للكتابة يومياً فقد تتلمذ العمرى على أساتذة مبرزين في مختلف فروع العلوم ومعروفين بسعة الأفق نذكر من بينهم برهان الدين بن الفركاح الذى يتصل نشاطه العلمى بالجغرافيا أيضاً والذي سيرد ذكره حين الكلام على جغرافيا فلسطين في ذلك العهد؛ كما تتلمذ على أحد علماء البلاغة وهو شهاب شهاب الدين الحلبي^(٣٤). وعلى أية حال فإن العمرى لم يتخذ العلم مهنة له وقد شغل حيناً من الوقت وظيفة قاض بمصر وخلف أباه في رئاسة ديوان الإنشاء في عهد السلطان الناصر؛ وفي عام ٧٣٨ هـ = ١٣٣٨ كان عضواً في بعثة الحج المصرية^(٣٥). ولم تلبث حدة طباعه أن ساقته إلى النزاع مع ولى نعمته فأقصى الأعوام الأخيرة من حياته بدمشق أشبه بالمغضوب عليه^(٣٦) وبها توفي في سن مبكرة لا بسبب الوباء الذى وقع بالشام آنذاك بل من الرب Q.artenfieber^(٣٧).

ولما كان العمرى يتمتع بثقافة عريضة وذوق أدبي مرهف فقد وقاه هذا من ضيق الأفق الذى يسوق إليه الوسط الدواوينى الذى أمضى فيه كل حياته. وهو لم يكن نائراً فحسب بل وكان شاعراً أيضاً؛ وتنسب إليه المصادر المختلفة ما يقرب من أحد عشر مصنفاً^(٣٨). وإلى جانب موسوعته الكبرى العديدة 406 الأجزاء يمثل أهمية خاصة بالنسبة للأدب الجغرافي سفر جامع متوسط الحجم قصد به العمرى عرض كل ما يحتاج إليه في عمل الدواوين وذلك بالمعنى الضيق لهذا اللفظ. وعلى الرغم من أنه قد قصد به أن

* كال ذلك في الملاحظة التى دون فيها المؤلف هذه السطور ، أما الآن أى في عام ١٩٦٣ فإن الطبعة قد وصلت إلى الجزء الثامن عشر (١٩٥٥). (المترجم)

يكون أنموذجاً في فن الكتابة فقد أصبح بفضل المنهج الذى اتبعه المؤلف مصدراً هاماً بالنسبة للتاريخ والجغرافيا التاريخية . ويرجع تأليفه إلى الفترة التالية لعام ٧٤١ هـ = ١٣٤٠ يوم كان المؤلف يتمتع بخبرة واسعة في فن الإنشاء ؛ وعنوانه « التعريف بالمصطلح الشريف » يحدد بدقة الغرض الرئيسى من الكتاب . وينقسم الكتاب إلى سبعة أقسام الأول منها في رتب المكاتب والثاني في عادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير والثالث في نسخ الإيمان والرابع في الأمانات والدفن والهدن والمواصفات والمفاسحات والخامس في نطاق كل مملكة وما هو مضاف إليها من المدن والقلاع والرساتيق والسادس في مراكز البريد والحمام ومراكز هجن الثلج والمراكب المسفرة به في البحر والمناور والمحرقات والسابع في أوصاف ما تدعو الحاجة إلى وصفه^(٣٩) . والعلماء الذين توفروا بصورة خاصة على دراسة هذا الأثر مثل هارتمان Hartmann وغودفروا ديمومبين G Demombynes يقدرونه تقديرأ كبيراً سواء في تفاصيله أو في مجموعته . وتحليل المقالين الخامسة والسادسة المفردتين لمصر والشام ولوسائل المواصلات في دولة المماليك يبين بجلالة الأهمية الكبرى لهذا الأثر من الناحية العملية ودقة المعلومات التى يشتمل عليها ، وهو أمر يجب ألا ندهش له إذ أن معظم هذه المعلومات لا تستند على الوثائق الرسمية فحسب بل وعلى معرفة المؤلف المباشرة بمعظم الوقائع . ومما يسترعى النظر أن المؤلف استطاع في مثل هذا المصنف الخاف بطبيعته أن يرتفع إلى مستوى راق في العرض الأدبي من غير أن يفقد في ذات الوقت النظرة الشاملة إلى موضوعه . وقد كان لمعرفته الجيدة بأسرار البلاغة وتملكه بجدارة لناصية اللغة العربية أن تجنب بمهارة فائقة الإطالة والإسهاب وحصر اهتمامه في الجوهرى ، الأمر الذى يميزه عن الكثيرين ممن كتبوا في العصور التالية لذلك رغماً من أن أسلوبه لم يكن يتصف على الدوام بالسهولة . والترتيب المنطقي لمادة كتابه يجعل من هذا المصنف مصدراً حافلاً لدراسة مختلف الموضوعات^(٤٠) خاصة الجغرافية والتاريخية ؛ وبعد أن نفحص مصنف خليل الظاهرى الذى ألف كتابه بعد قرن من هذا سيستبين لنا بجلالة البون الشاسع الذى يفصل بين العمرى وبين أولئك الذين اقتفوا أثره فعاالجوا نفس الموضوعات التى كتب فيها . ويبدو أن كتابه كان مرغوباً فيه للغاية فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الخامس عشر الميلادى) قام بتدقيقه والزيادة عليه اثنان من أفراد أسرة المحبى الشامية المعروفة باشتغالها بالعلم وذلك بعنوان «تكتيف التعريف بالمصطلح الشريف»^(٤١) . وبفضل المخطوطة الموجودة لدينا بمعهد الدراسات الشرقية فقد 407 أصبحت هذه الرواية المعدلة للكتاب معروفة لدى المستشرقين الروس ولفت تيزنهاوزن الأنظار إلى أهميتهما بالنسبة لتاريخ الأوردو الذهبى^(٤٢) .

أما موسوعة العمرى فإنها تعادل من حيث الضخامة موسوعة النويرى ويبلغ عدد أجزائها السبعة والعشرين جزءاً موزعة بين دور المخطوطات المختلفة ؛ ولكن الموسوعة فيما يبدو كانت تتألف من اثنين وثلاثين جزءاً كما أثبت ذلك أحمد زكى باشا الذى استطاع بمجهوده الشخصى أن يجمع نسخة

كاملة منها بالقاهرة . وفي الواقع أن هذه النسخة التي جمعها أحمد زكي باشا والتي تعتمد أساساً على مخطوطات استنبول تحتوي على ستة عشر جزءاً مزدوجاً وتقع في تسعة آلاف وثمانمائة وإحدى وثمانين صفحة خطية ؛ وعلى الرغم من ضخامة هذا الحجم فإن مضمون الموسوعة أضيق بكثير من مضمون موسوعة النويرى إذ أن مادتها تقتصر على الجغرافيا والتاريخ وحدهما ؛ وينعكس هذا في نفس العنوان الذى ذكرنا بمذهب قديم فى الجغرافيا العربية وهو « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ؛ وقد يحمل الكتاب أحياناً عنواناً مختصراً بعض الشيء ولكنه يفتقر إلى الدقة وهو « أخبار الملوك » . وينقسم المصنف إلى قسمين أحدهما مكرس للأرض والآخر لسكانها من مختلف الشعوب ، وينقسم القسم الأول بدوره إلى قسمين يطلق العمري عليهما مصطلحاً لايجرى عادة فى الاستعمال وهو « النوع » ، ولعله أراد من ذلك أن يجعله مقابلاً لاستعمال النويرى للفظ « الفن » . ويحمل « النوع الأول » عنواناً موجزاً هو « فى ذكر المسالك » ويجب أن يؤخذ هذا العنوان بمفهومه العريض ليشمل فى الواقع الجغرافيا العامة ؛ أما الباب الأول منه فيبحث فى أبعاد الأرض و« حالها » والثانى فى الأقاليم السبعة وهنا يرد استطراد طريف بعنوان « ممالك عبّاد الصليب » الذى سنعود إلى الكلام عليه . أما الباب الثالث فى البحار وكل ما يتعلق بها وهنا يرد ذكر « القنباص » (معرب كومباس Compass وهو البوصلة) ؛ ويبحث الباب الرابع فى القبلة والأدلة عليها ، أما الخامس فى الطرق . هذا فيما يتعلق بالنوع الأول فإذا ما انتقلنا إلى النوع الثانى فهو يحمل أيضاً اسماً مقتضياً هو « فى ذكر الممالك » وينقسم إلى خمسة عشر باباً تصف على التوالى الدول والبلاد الآتى ذكرها ابتداء من الشرق فى اتجاه الغرب : الهند والسند ، ممالك بيت جنكيزخان ، الحيل (كيلان) ، الجبال ، الأتراك بالروم (آسيا الصغرى) ، مصر ومعها الشام والحجاز ، اليمن ، المسلمون بالحبشة ، السودان ، مملكة ملّى ، جبال البربر ، أفريقيا ، مملكة بر العدو (مراکش) ، الأندلس ، العرب البدو المعاصرين وأماكن سكنهم . والقسم الثانى من الكتاب الذى يبحث فى سكان الأرض من طوائف الأمم « ينقسم إلى خمسة أنواع ؛ أما النوع الأول منها الذى يبدو وكأنه يمثل مرحلة انتقالية فإنه يحوى مفاخرة بين المشرق والمغرب تمس الطبيعة والحيوان بل وطوائف العلماء مما يذكرنا بعض الشيء بالنمط القديم فى « الفضائل » ، أى مزايا البلدان والأشياء المختلفة ولو أنه يصوغه بالطبع فى صورة مختصرة وفى قالب أدبى . ويبحث النوع الثانى فى الديانات المختلفة بينما يبحث الثالث فى طوائف المتدينين ، أما الرابع 408 فمكرس للتاريخ ويتضمن بابين أحدهما فى ذكر الدول التى وجدت قبل الإسلام والثانى فى ذكر الدول الكائنة فى الإسلام .

هذا هو مضمون كتاب « مسالك الأبصار » كما يعرضه المؤلف نفسه بإسهاب فى مقدمة الكتاب (الجزء الأول ، الصفحات من ٦ إلى ١٣) . والحكم على حجم كل قسم من أقسام الكتاب المختلفة وكذلك البهت فى مطابقة هذا التبويب لمضمون الكتاب الواقعى أمر عسير إذ أنه لم ير النور منه حتى الآن سوى

الجزء الأول (عام ١٩٢٤) ؛ غير أنه بفضل ما تم نشره من أقسامه المختلفة سواء من المتن نفسه أو في ترجمات (أفريقيا الشمالية وأوروبا الغربية والأناضول ودولة الأوردو الذهبي والصين) فقد صار من المستطاع تكوين فكرة عن الهدف الأساسى للمؤلف وهو أن يضع موسوعة تاريخية جغرافية جامعة لا تقوم على أساس علمى صرف بل على أساس أدبى عريض .

والمؤلف رجل نقالة جامع لصنوف العلوم وموسوعى (Encyclopaedist) ولكنه يتميز بالقليل من الأصالة ؛ وهو يعوض هذا النقص باطلاعه الواسع . وقد هيا له عمله الحكومى الاطلاع على الوثائق كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية مما مكنه من إخراج لوحة مفصلة في وصف العالم المعاصر له . وهو قد قصد من مؤلفه هذا قبل كل شئ إلى وضع مرجع جامع من أجل كتبة الدواوين كما هو الشأن أيضاً مع كتابه « التعريف » ، إلا أن هذا الأخير لا يرتفع من الناحية الأدبية إلى درجة « المسالك » ؛ كما أن الاختلاف بين المصنفين لا يقوم في جوهره على أساس أن «التعريف» إنما يحوى أرقاماً أكثر فحسب أو أن « المسالك » يتضمن مادة جغرافية أكثر كما دلل على ذلك هارتمان^(٤٣) ، بل أيضاً في أن منهج العرض في الكتابين مختلف للغاية . « فمسالك الأبصار » يمكن أن يسد مسد كتاب عام للمطالعة لا من أجل الكتاب وحدهم بل وأيضاً من أجل الأدباء بوجه عام ؛ ووضع كتاب كهذا يستلزم وفرة في الذوق الأدبى وقدرراً معلوماً من الملكة النقدية ، وهما شيئان ضرب فيهما العمرى بسهم كبير ولو أنه يجب ألا يدهشنا منه تصديقه للمعتقدات السائدة في عصره والتي لم تكن قد اطرحت بعد . وهو يطبق أحياناً المنهج العلمى بطريقة بدائية ولكنه على أية حال يفعل ذلك بالكثير من الأصالة ، ففي موضع من كتابه يقول : « ونأخذ في هذا الباب على التحرير في أكثر ما عرفنا ، والتحقيق لأكثر مما نعرف بتكرار السؤال واحداً بعد واحد عما يعلمه من أحوال بلاده وما فيها وما اشتملته عليه في الغالب نواحيها ، وكنت أسأل الرجل عن بلاده ثم أسأل الآخر والآخر لأقف على الحق . فما اتفقت عليه أقوالهم أو تقاربت أثبتته ، وما اختلفت فيه أقوالهم أو اضطربت تركته ، ثم إنى أترك الرجل المسئول مدة أناسيه فيها عما قال ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سألت ، فإن ثبت قوله الأول أثبت مقاله وإن تزلزل أذهبت في الريح أقواله ، كل هذا لأتروى في الرواية وأتوثق في التصحيح^(٤٤) » .

وقد أحس العمرى بالمطالب الأدبية لعصره إحساساً مرهفاً لذا فإن كتابه لا يمثل موسوعة تاريخية جغرافية فحسب بل وأيضاً مجموعة كبيرة من المنتخبات الشعرية تضم بوجه خاص الأشعار المرتبطة بالمواضع المشهورة^(٤٥) ؛ وكما هو معروف فإن هذا العنصر قد لعب دوراً ليس بالضئيل في المعاجم الجغرافية المختلفة خاصة معجم ياقوت . وإذا كانت موسوعة العمرى لا تخلو من الطرافة كمصنف أدبى قائم بذاته فهي أيضاً معين لا تنضب مادته فيما يتعلق بمختلف الأقطار ، ولا يسعنا في هذا المجال إلا أن نكتفى بإيراد نماذج معينة منه . فأما رى Amari عند فحصه للقسم الخاص بصقلية وإيطاليا قد أثبت

أن المادة التاريخية فيه هي بوجه عام تكرر لما جاء في مصنف أبي الفدا ، هذا بينما تمثل المادة الجغرافية أهمية خاصة لأن المؤلف استقهاها من المؤلفين السابقين كما استقهاها أيضاً من الوثائق الرسمية وروايات المعاصرين له^(٤٦) . وهو بوجه عام على معرفة جيدة بمجريات الحوادث في حوض البحر الأبيض المتوسط ، فادته التي يقدمها مثلاً عن مسلمى جزيرة بانتلاريا Pantellar a قد أيدتها الوثائق الدبلوماسية التي تم الكشف عنها في القرن التاسع عشر ؛ أما فيما يتعلق بجزيرة صقلية فإن العمرى لم يقف عند مصنف الإدريسي وحده بل رجع أيضاً إلى مصنف مجهول بالنسبة لنا عن عهد النورمان^(٤٧) . وأما إيطاليا كما وردت في « مسالك الأبصار » فإن وصفه لها يعتمد في الغالب على الإدريسي ، وهو يورد تعداداً للمدن الرئيسية بإيطاليا موزعة وفقاً للأقاليم والمناطق ويتناول بعضها بالوصف^(٤٨) . وإلى جانب هذا فقد تسرب إلى كتابه الوصف الأسطوري القديم لمدينة رومة والذي يتكرر في صورته التقليدية الأدبية عند عدد كبير من الكتاب على ممر القرون^(٤٩) . وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى مصدر آخر من مصادر العمرى فريد في نوعه وهو شخص من أهل جنوا يدعى دومينيك دوريا Dominic Doria كان قد سبق أسيراً إلى الشرق وعرف هناك باسم بلبان الجنوى وكان من مماليك الأمير المملوكي بهادور المعزى (توفي في عام ٧٣٩ هـ = ١٣٣٩ م)^(٥٠) ؛ أما في الوسط العلمي الروسي فقد اجتذب هذا الجنوى اهتمام العلامة سرزنفسكى Sreznevski فذكره في كتابه الذي أفرد له لرحلة افناسى نيكيتين Afanasi Nikitin (١٨٥٦ م)^(٥١) . ويبدو أنه كان شخصاً واسع المعرفة لأن العمرى قد أخذ عنه فكرة جيدة عن عدد من البلاد والشعوب الأوروبية ؛ وهو يذكر مثلاً أن الدور الرئيسى في ذلك العصر كانت تلعبه فرنسا وأن ملك أسبانيا كان أشبه بنائب الملك فرنسا ؛ وهو يعلم أن الألمان أقوياء في البر وحده . ولا شك أن هذا الجنوى قد زار بروفس أيضاً كما أنه يورد معلومات وافرة عن لومبارديا وصقلية والبندقية وبيزا وفلورنسه وقطلونيا ، وعن جنوه بشكل خاص لأنه يفصل القول عن تجارتها مع المشرق⁴¹⁰ بصورة تدل على معرفته العميقة بهذا الموضوع . هذا وقد ألفت به الأقدار في ظروف معينة إلى آسيا الصغرى التي يعتبر وصفه لها من أقيم فصول كتاب العمرى^(٥٢) خاصة تلك التفاصيل التي يوردها عن بلاد القرم وطريزون^(٥٣) ؛ ويبدو أنه لم يزر القسطنطينية لأن وصف العمرى لها لا يرد بالفاظه^(٥٤) . أما روايته عن القاهرة والشام فإنها تحمل على الاعتقاد بأن ذلك الجنوى الذي جاب الآفاق قد عرفهما معرفة مباشرة ؛ وفيما يتعلق بالصلبيين فإن العمرى كان إلى جانب ما زوده به الجنوى من معلومات يتصرف أيضاً في مادة غنية ومتنوعة .

وفي مقابل هذه الروايات التي يوردها عن الغرب فإن من الطريف أن نقدم مثلاً لما يقوله عن الشرق الأقصى . فقد أثبتت الدراسة التي عملها شيفير للأقسام المتعلقة بالصين^(٥٥) أنه يجب ألا نعتبر العمرى بالنسبة لهذه الأصقاع نقالة فحسب يكتفى بتسجيل ما وصل إليه عن طريق الصدفة ؛ وهو يقدم لنا فيما

يتعلق بشمال الصين وحدها معلومات جمة مروية بألفاظ عدد ممن التقى بهم^(٥٦) ؛ وكان هذا الضرب من الرحالة ينتمى إلى مجموعتين من الناس هما التجار ثم الفقهاء الذين ساقهم إلى تلك الجهات في أغلب الظن حاجة الأقليات المسلمة المهاجرة إلى قضاة وأئمة . وكان من بين هؤلاء الرحالة عدد من أهل العراق وإيران وما وراء النهر ؛ وتؤكد جميع قصصهم أن الصين قد فتحت أبوابها في عهد المغول للتجار ولمن دفع بهم حب الاستطلاع إلى الضرب في الأرض^(٥٧) . وكان التجار العرب يحملون إليها الخيل وطيور الصيد والحلى الثمينة بل وحتى الآنية المطلية بالمينا من حلب^(٥٨) ؛ وتمس معلوماتهم^(٥٩) مختلف أوجه الحياة في الصين ولكن ليس في عرض منتظم إلا أنه يتميز على الأقل بالإحاطة والشمول . وقد اهتموا اهتماماً خاصاً بوصف نظام الإدارة وطرق المواصلات والتجارة بالطبع وبما يتصل بذلك من حرف ومهن ؛ ولم تقف معرفتهم بحياة أهل الصين عند حد الجوانب المتعلقة بالنظام النقدي وحده بل تجاوزته إلى موضوعات شتى كمهارة الصينيين في عمل الأسنان الصناعية .

هذان المثالان من الغرب والشرق يقفان دليلاً على الأهمية الكبرى لموسوعة العمرى كمصدر لدراسة ذلك العصر ؛ وليس ثمة حاجة إلى القول بأنها لا تقل أهمية عن بقية موسوعات عهد المماليك بوصفها مصدراً من مصادر تاريخ الأوردو الذهبي ؛ إلا أنه تجدر الإشارة في هذا المقام ولو عرضاً إلى أن ترجمة تيزنهاوزن لمادته عن الأوردو الذهبي⁴¹¹ وما يرتبط بذلك من استنتاجات يتطلب الآن إعادة النظر في نقاط معينة وتحقيق النصوص من جديد استناداً على المصادر التي تم الكشف عنها منذ ذلك الوقت وعلى الطبقات العلمية التي أصبحت في متناول الأيدي في الستين عاماً التي انقضت على ظهور هذا الأثر الذي يمثل فاتحة عهد جديد بالنسبة لدراسة تاريخ تلك الدولة . وإذا كان هذا هو مبلغ أهمية موسوعة العمرى بالنسبة للبلدان التي لم يزرها بنفسه فحري أن تزداد قيمتها بالنسبة لبلاد دولة المماليك أى مصر والشام اللتين عرفهما المؤلف عن كثب ؛ وفي الواقع أن كلا مصنفيه يعدان من أهم آثار عصرهما في هذا المجال . والعمرى رغماً من اتباعه للمذهب التاريخي التقليدى عرف كيف يحتفظ بشخصيته كؤلف ، وقد لقيت مصنفاته تقديراً عالياً من الأجيال التالية التي تدين له بالكثير في سبيل تطوير هذا الاتجاه .

ويرتبط بالعمرى ارتباطاً مباشراً مؤلف آخر موسوعة كبرى لعصر المماليك وهو القلقشندى ؛ ورغماً من أن نشاطه يدخل في نطاق بداية القرن الرابع عشر إلا أن الفرصة مواتية للكلام عنه في هذه اللحظة . والقلقشندى اسم معروف في مهادن التأليف التاريخي بمصر الإسلامية بل وفي العالم الإسلامى بأجمعه لذلك العصر ؛ وإلى جانب معرفة العرب الجيدة به فقد عرفه جيداً أيضاً العلماء الأوروبيون منذ القرن التاسع عشر إلا أنه لم يكن من المستطاع إعطاء فكرة عن مجهوده العلمى بصورة شاملة إلا بعد ظهور كتابه في طبعة مرضية تشمل أربعة عشر جزءاً وذلك في الفترة بين عامى ١٩١٣ و ١٩٢٠ ؛ ويرجع الفضل في ظهور هذه الطبعة إلى مجهود ذلك العلامة المصرى الذى لم يعرف الكلل إلى نفسه سييلا وهو أحمد

زكى باشا وثمة دراسة هامة لهذا الكتاب تستند على تلك الطبعة هو البحث الخاص الذى قام به بيوركمان Björkman عن مصنف القلقشندى ؛ وبالرغم من أنه يعالج موضوعه من وجهة نظر تاريخ تطور النثر الدواوينى بمصر الإسلامية إلا أنه يقدم لنا أساساً متيناً لتحليل المصنف من كافة نواحيه وذلك فى دراسة لم تتمتع بها أية موسوعة أخرى من موسوعات عهد المماليك .

وكما هو الشأن فى حالات مماثلة مرت بنا فإنه لا يوجد اتفاق تام بين المصادر فيما يتعلق باسم القلقشندى ، ولعل مرد ذلك إلى الخلط بينه وبين ابنه الذى كان من رجالات الأدب أيضاً . ويتفق رأى الغالبية على أن اسمه هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي ؛ وقد ولد فى عام ٧٥٦ هـ = ١٣٥٥ بمحلة صغيرة قرب قليوب بمصر وإليها نسب إلا أنه من أصل عربى صرف فهو ينتمى إلى قبيلة فزارة التى استقرت بمصر عقب الفتح . وقد تلقى العلم بالإسكندرية وأصبح منذ عام ٧٧٨ هـ = ١٣٧٦ مدرساً للحديث والفقه ، غير أن ميوله الشخصية ذهبت به إلى اتجاهات أخرى فقد اهتم اهتماماً بالغاً بنسب القبائل العربية وله فى هذا الصدد مصنف لقى انتشاراً واسعاً عند القراء العرب فأكمله وزاد عليه فى مستهل القرن التاسع عشر (فى عام ١٢٢٩ هـ = ١٧١٤) العلامة العراقى السويدى . ولم يبق القلقشندى طويلاً فى مهنته التدريسية فقد التحق منذ عام ٧٩١ هـ = ١٣٨٩ بديوان الإنشاء الذى كان يرأسه آنذاك أحد أفراد أسرة العمرى من أقرباء مؤلف الموسوعة المعروف لنا ؛ هذا وقد ترك العمل بديوان الإنشاء أثره الخاص على نشاط المؤلف وهو قد ظل مرتبطاً به على ما يبدو إلى وفاته فى عام ٨٢١ هـ = ١٤١٨ ، 412

أى بعد سبعين عاماً من وفاة العمرى . وكان القلقشندى معاصراً لشخصيات كبرى وأحداث عظمى فى عصره عاش بمصر ابن خلدون المشهور ، وشهد القلقشندى مثله زحف التتار على الشام تحت قيادة تيمورلنك .

هذا وقد حفزه عمله بديوان الإنشاء على وضع المصنف الأدبى الأكبر لحياته ، فقد بدأ العمل فى سفره الضخم فور انتقاله للعمل بديوان الإنشاء فى عام ٧٩١ هـ = ١٣٨٩ ؛ وهو قد وضعه فى الأصل من أجل كتاب الدواوين وأطلق عليه اسم « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ؛ وقد أتم الجزء الرابع الرابع عشر منه فى عام ٨١٤ هـ = ١٤١٢ وظل يزيد عليه إلى حين وفاته . ولعله قد أحس بنفسه كبر حجم المصنف فدفعه هذا إلى اختصاره فى مجلد مكتنز بعنوان « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » (٦٠) ؛ وبعض الصيغ الإنشائية التى عالجها فى هذا المصنف الأخير تعتبر أكثر تفصيلاً مما جاء فى مؤلفه الضخم .

إن موسوعة القلقشندى تعتمد اعتماداً كبيراً على مصنفى العمرى كليهما ولكنها تتميز بدقة التبويب وبأن غرضها الأساسى هو أن تكون مرجعاً من أجل كتاب الدواوين أى أعمال ديوان الإنشاء . وفيها يلخص المؤلف جميع المعارف التى يحتاج إليها الكاتب المثالى ابتداء من التوجيهات الفنية بالكلام على المداد والقلم والورق والخط إلى المعطيات الواسعة فى محيط الجغرافيا والتاريخ والأدب والبلاغة . وهو يقدم وصفاً

لنواحى مصر والشام بل ولجميع الدول التي لها أدنى علاقة بمصر مولياً اهتماماً خاصاً لنظامها السياسى والإدارى وأساليب « المعاملات » بين السكان ؛ وهو يوضح الأسس التي يقوم عليها نشاط الدواوين ويفرد عدداً من أجزاء كتابه لنماذج المكاتبات الدبلوماسية وقرارات تعيين الممثلين الرسميين وللوثائق الحكومية الرسمية من كل صنف . ولا يكتفى القلقشندى بإيرادها في صيغها الكتابية الخاصة فحسب بل يسوق نماذج من الوثائق الأصلية الموجودة « بالخطوط » Archives مما يجعل من كتابه مصدراً أساسياً بالنسبة للتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الإسلامى والأقطار المتصلة به في أوائل القرن الخامس عشر (٦١) .

وتنقسم الموسوعة من حيث التبويب إلى عشرة أقسام كبيرة في هيئة مقالات غير متساوية الحجم ولا تتفق مع تقسيم المصنف إلى أجزاء ؛ ويوجد بالمقدمة تحليل دقيق لمهنة الكتابة وفضلها في المجتمع البشرى . وفي المقالة الأولى من الكتاب (الأجزاء من الأول إلى الثالث) يعالج المؤلف الكلام في ما يحتاج الكاتب إلى معرفته من المعلومات المتعلقة بالخط واللغة والنحو والبلاغة ومختلف العلوم ذات الفائدة العلمية بالنسبة له . ويفرد المقالة الثانية (الأجزاء من الثالث إلى الخامس) للمعلومات من محيط الجغرافيا 413 والتاريخ وهي تمثل بالنسبة لنا أهمية خاصة . أما المقالة الثالثة (الجزآن الخامس والسادس) فتعالج المسائل العامة التي تشترك فيها كل المكاتبات والولايات فيعرض للناحية الشكلية المتعلقة بالورق والكتابة ويبحث في الأسماء والكنى والألقاب ومواضع ذكرها واستعمال الصيغ المختلفة . وتتناول المقالة الرابعة (الأجزاء من السادس إلى التاسع) المكاتبات وأنواعها ومصطلحها مع إيراد عدد كبير من الوثائق الرسمية برمتها ؛ وتمثل هذه الوثائق سواء في هذا القسم أو في الأقسام الأخرى عنصراً جوهرياً في أهمية هذا المصنف ؛ أما المقالة الخامسة (الأجزاء من التاسع إلى الثاني عشر) فتقدم لنا بعض المعلومات النظرية ونماذج للولايات والعهود والبعثات وطريقة تفويضها ، وتحمل هذه المقالة مكانة هامة في هذا الكتاب وذلك لأنها تلقى ضوءاً على النظام الإدارى المعقد الذى ساد في عهد المماليك ؛ والنماذج التي يسوقها في هذه المقالة حافلة بشكل غير معهود . أما بقية المقالات فإنها صغيرة الحجم بمقارنتها بالسابقات عليها فالمقالة السادسة (الجزء الثالث عشر) تقدم صوراً من المكاتبات مما لا يخضع للتصنيف ، كما تحلل المقالة السابعة (من نفس ذلك الجزء) الوثائق المتعلقة بالإقطاعات ؛ أما المقالة الثامنة (في نفس الجزء أيضاً) فتبحث في الأيمان وصور الأقسام المختلفة واليمين بينما تتحدث التاسعة (الجزآن الثالث عشر والرابع عشر) عن عقود الصلح والفسوخ والهدنة بين المسلمين والكفار ؛ وتتناول المقالة العاشرة والأخيرة (الجزء الرابع عشر) فنوناً من الكتابة تختلف باختلاف الظروف الداعية إليها .

أما خاتمة الكتاب فتحتوى على أبواب تبحث أساساً في وسائل النقل والمواصلات : فهنا يرد الكلام على البريد العادى وبرىد الحمام كما يبحث في طريقة نقل الثلج من الشام إلى مصر على ظهور الجمال وعلى

السفن ، وفي استعمال الإشارات النارية . وليس من العسير أن نبصر في هذا التبويب اقتفاء القلقشندي لأثر كتاب « التعريف » للعمري بل إنه يطبق في بعض الأحيان ترتيبه وتبويبه بحذافيره ، وسيزداد اقتناعنا بقوة الصلة التي تربط بين هذين المصنفين في جوانب أخرى كلما أوغلنا في دراسة المصادر التي استقى منها القلقشندي .

ونلتقي على طول هذا الكتاب بمعلومات جغرافية متنوعة للغاية وتختلف باختلاف الموضوعات التي يتناولها بالبحث . وإلى جانب هذا فإن المؤلف قد أفرد المقالة الثانية من كتابه بأجمعها للجغرافيا وحدها ؛ وهي تمثل في الحقيقة عرضاً تاريخياً جغرافياً مستقلاً^(٦٢) تحتل مركز الصدارة فيه مصر المملوكية ويدور العرض جميعه حولها . وفي بداية هذه المقالة ترد المعلومات التقليدية التي لا تتغير عن شكل الأرض على سبيل الإجمال ، وإلى هذا عرض تاريخي قصير للخلافة مع اهتمام بالجوانب التي انتعشت بشكل خاص في مصر المملوكية كشعائر الخلافة ونظمها ومراسيمها . أما القسم الخاص بالجغرافيا بمفهومها الضيق من هذه المقالة والذي يبدأ بوصف مفصل للديار المصرية (الجزء الثالث ابتداء من صفحة ٢٨٢ 414 وكذلك الرابع إلى صفحة ٧١) فيعد من أهم أقسام الكتاب ولا يزال يقف حتى الآن فريداً في بعض نواحيه^(٦٣) . وكان المستشرق فستنفلد Wüstenfeld قد قام بعرضه بطريقة موجزة في عام ١٨٧٩ إلا أن ذلك العرض الذي يعد مجهوداً مقدراً بالنسبة لعصره والذي لعب آنذاك دوراً لا ينكر قد أصبح الآن في حاجة إلى فحص جديد على ضوء الطبعة التي ظهرت للمتن وبسبب ما تجمع من مواد علمية في خلال هذه الفترة^(٦٤) . والقلقشندي يولى أهمية خاصة في هذا القسم لمصر الفاطمية والأيوبيّة كما أنه قد اهتم بالطبع بالعصر المملوكي الذي عاش فيه . وبنفس طريقته المفصلة يعالج الحديث في وصف الشام ؛ ووصفه هذا معروف لنا جيداً بفضل الدراسة المتقنة التي ندين بها لغودفرواديمومين (١٩٢٣) . وإلى هذا وصف الحجاز لوقوعه آنذاك في دائرة نفوذ مصر .

وتبرز في المكانة الأولى من بين البلاد التي لا تخضع لسلطان المماليك « ممالك بيت جنكيزخان » أي أراضي إمبراطورية المغول التي يقسمها إلى مملكتين كبيرتين هما مملكة إيران ومملكة توران ؛ وفي القسم الخاص بالمملكة الثانية يقدم لنا معطيات هامة عن دولة الأوردو الذهبي ، وقد أصبح قسم منها في متناول الأيدي منذ عهد تيزنهاوزن^(٦٥) . ثم يعود القهقري للكلام عن بلاد العرب في أجزائها شبه المستقلة أي التي لا تمثل قسماً من الإمبراطورية المصرية ، فيتكلم عن اليمن والساحل الشرقي بما في ذلك عمان ويضم إلى هذا وصفاً مفصلاً للهند (الجزء الخامس ، الصفحات من ٦١ إلى ٩٨) حدث وأن أفرد له المستشرق اشبيس Spies بحثاً خاصاً منذ عهد غير بعيد (١٩٣٦)^(٦٦) . ثم يلي هذا وصف منظم للبلدان الواقعة إلى الغرب من مصر وإلى الجنوب والشمال منها ؛ فالجموعة الأولى تبدأ بتونس ويلها المغرب « الأوسط » وقصبتها تلمسان ثم المغرب « الأقصى » المسمى ببرالعدوة والذي تمثله الآن مراکش ؛

ثم يتكلم في صورة منفصلة عن « جبال البربر » بالأندلس* . أما البلاد الواقعة إلى الجنوب من مصر فتدخل تحت اسم عام هو « بلاد السودان » وتشمل ستة ممالك آخرها الحبشة . وإلى الشمال من مصر يصف بلاد الروم (آسيا الصغرى) في ذلك الجزء الذى كان لا يزال في أيدي البيزنطيين ؛ وهو يغتنم هذه الفرصة ليقدم عرضاً تاريخياً عن اليونان القدماء وعن البيزنطيين الذين خلفوهم مشيراً كمرجع له إلى كاتب من القرن الرابع الميلادى يدعى هروشيئس الذى نقل عنه على ما يبدو في رواية العمرى . ومن بين الشعوب والبلدان الأوروبية يدور الكلام على التوالى عن « الألمان » والبنادقة والجنوبيين و« رومية » وبلاد الفرنج (فرنسا) والحلالقة (غاليسيا) والنبردية (لمبارديا) . وإلى الشمال من القسطنطينية يرد ذكر شعوب القوقاز خاصة الحركس الذين كانوا يمدون مصر عادة بالممالك ، وأيضاً الآس وغيرهم . أما من سكان جنوب شرقى أوروبا فيرد ذكر البلغار والصرب والصقالبة والروس والباشقرد والبرجان ؛ وتتم معلوماته من هذه الشعوب الأخيرة بالإيجاز كما وأنها لا تخلو من الاضطراب في بعض مواضعها ، وبها ينتهى القسم الجغرافى .

ومن الواضح أن قيمة هذا القسم الجغرافى ، شأنه في هذا شأن بقية الكتاب ، إنما تعتمد على المصادر التى يستعملها القلقشندى أكثر من اعتمادها على طريقة تبويبه للمادة . وكما أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة 415 فإن هذا المصنف يمثل قبل كل شيء مصنفًا نقلياً إلا أنه يجب أن نستدرك على هذا بقولنا إنه يضم مادة ضخمة جدرة بكل ما يليق بها من تقدير ؛ فهو بهذا يعد إلى حد ما مصنفًا فريداً في نوعه (٦٧) . ويمكن تقسيم مصادره إلى مجموعتين كبيرتين تنتميان إلى مختلف المجالات والوثائق الرسمية ، وهو يشير إلى مصادره بالكثير من الدقة وكلما استدعت الحال ذلك (٦٨) ، كما أنه يعتمد عليها اعتماداً كلياً لا من حيث المادة فحسب بل ومن حيث تبويبه لكتابه مقتفياً في أغلب الأحيان أثر « التعريف » للعمرى . ويعتمد القلقشندى قبل كل شيء على آثار السابقين له في المصنوع الذى سلكه ، ونعنى بهذا أولئك الخبيرين بالإنشاء والعمل الدواوينى من جهة ورجالات الأدب من جهة أخرى . وبفضل كتابه هذا أصبح من اليسير تقصى مدى تطور هذا الفن في الأدب العربى الأمر الذى أسهم فيه المستشرق بيوركمان ببحثه الذى أشرنا إليه . بيد أن القلقشندى قد أفاد إلى حد كبير أيضاً من جميع فروع الأدب الأخرى الحافلة التى اعتبرها ذات أهمية بالنسبة للكاتب . وقد تبين أن عدد مصادره في هذا الصدد كبير بشكل ملحوظ ، قام بتلخيصها لنا بيوركمان (٦٩) بدرجة تقرب من الكمال وليس ثمة ما يدعو إلى الوقوف عندها بالتفصيل ؛ غير أن العرض السريع لمصادر القسم الجغرافى أمر هام بالنسبة لنا لما يليق به من ضوء على تطور الأدب

* يبدو أن ثمة خلط وجد طريقه إلى المتن الروسى فقد جاء في كتاب القلقشندى ما نصه : « المملكة الخامسة من بلاد المغرب جبال البربر ؛ المملكة السادسة من ممالك المغرب جزيرة الأندلس » . أى أنه لم يدخل « جبال البربر » في الأندلس كما يفهم من المتن الروسى . (المترجم)

الجغرافى ويساعد بذلك على تحديد تلك الآثار التى ظلت تتمتع بالحيوية فى العصر الذى عاش فيه المؤلف ؛ ولما لم يكن القلقشندى نفسه منقطعاً للجغرافيا فإن هذا العرض يخلو من أهمية خاصة . وبالرغم من أن العمرى يحتل المكانة الأولى لديه^(٧٠) إلا أنه لم يعتمد عليه وحده فى جمع مادته الضخمة ، فن بين ممثلى الجيل « الأول » من الجغرافيين نلتقى فى « صبح الأعشى » بأسماء ابن خردادبه وابن حوقل والمسعودى والهمداني والمهلبى والسمعانى ؛ ومن بين ممثلى القرن « الفضى » بأسماء البكرى والإدريسى والغرناطى وابن سعيد وياقوت وأبى الفدا . وإلى جانب هؤلاء المؤلفين البارزين نلتقى بمروجى المادة الأسطورية مثل ابن وصيف شاه ؛ وإلى جانب مصنفات ممثلى الجغرافيا الوصفية نلتقى أيضاً بمصنفات ممثلى الجغرافيا الرياضية ولكن بصورة أقل ، وعلى كل حال فإن القلقشندى كثيراً ما ينقل عن الزيجات المختلفة وعن « المحسطى » لبطلميوس ؛ ومن مراجعه الأساسية فى هذا المجال البيرونى^(٧١) خاصة فى كتابه « القانون المسعودى » . والقلقشندى يعتمد فى القسم الخاص بالجغرافيا الرياضية من كتابه اعتماداً كاملاً على المذاهب القديمة ويخضع للنظريات الكوزموغرافية لبطلميوس بحيث ينعكس جيداً من مثاله كيف كانت الدوائر الكتابية فى القاهرة تتأرجح بين النظريات العلمية القديمة الموجودة فى بطون الكتب وبين الوقائع الجغرافية الحديثة^(٧٢) التى كانت معروفة لديهم جيداً ۞ التى وكلفتها آنذاك التجربة المباشرة لمختلف الشعوب . وهكذا يرفع رأسه مرة أخرى ذلك الفاصل الذى تحدثنا عنه أكثر من مرة والذى يفصل بين النظرية والواقع فى الأدب الجغرافى .

ويجب ألا يغيب عن ذهننا أن الأهمية الكبرى فى المادة الجغرافية لدى القلقشندى تحتلها معلوماته من تلك الأقطار التى عرفها معرفة مباشرة ، وقد رأينا مثال ذلك عند الكلام على مصر والشام . ولا تقل أهمية عن ذلك تلك المعلومات التى يوردها عن البلاد التى ربطتها صلات دبلوماسية منتظمة كانت أم متقطعة بدولة المماليك . وفيما يتعلق بممالك النصارى فقد تعرض الأب لامنز Lamimens لتحليل مادته فى عدد من المقالات بنفس الطريقة التى حلل بها تيزنهاوزن مادته عن الأوردو الذهبى وجورجيا^(٧٣) أو كما حللها كانار Canard بالنسبة لبيزنطة^(٧٤) . غير أنه حتى بالنسبة للبلاد التى لم يكن لديه عنها معلومات باستثناء المادة الأدبية وقصص الرحالة فإنه يجب ألا نطرح سلفاً هذه المادة بوصفها خالية من كل قيمة ؛ وخير مثال لهذا ما كتبه عن الهند فإن المصادر التى اعتمد عليها فى هذا الصدد^(٧٥) ابتداء من العمرى إما أن تكون قد طبعت أو عرفت فى مخطوطاتها بحيث أوضحت مادته عنها ليست من الأهمية فى المكان الذى كان يعتقد من قبل . وعلى الرغم من كل هذا فإن القلقشندى قد وفق فى تقديم عرض مزود بالتفاصيل يمكن أن يستدل منه على أنه كان للعرب فى ذلك العصر فكرة لا بأس بها عن الهند^(٧٦) .

كل هذا يؤكد لنا صحة النتيجة التى وصلنا إليها من قبل وهى أن مصنف القلقشندى يمثل ظاهرة مبرزة فريدة فى نوعها فى مجال الأدب الجغرافى أيضاً ويختتم بمجادة سلسلة موسوعات عهد المماليك التى

تكاد تكون أكثر آثار ذلك العهد أصالة في محيط الأدب . وزيادة على هذا فإنه يمكن إلى حد ما القول بأن « صبح الأعشى » يختتم عصرًا معينًا في تاريخ الأدب الجغرافي إذ أن عهد الجغرافيا العامة (General Geography) الذي بلغ أوجه في نمط الكوزموغرافيات والموسوعات للقرنين الثالث عشر والرابع عشر قد انتهى وحل محله نمط الجغرافيا الإقليمية (Regional-Geography) ؛ كما يمكن أن نضيف إلى هذا أنه قد ظهرت مصنفات محلية باللغتين الفارسية والتركية^(٧٧) كما حدث مثلاً بإيران وآسيا الوسطى والهند ثم بالدولة العثمانية فيما بعد . أما نمط الرحلات فقد استمر حافلاً ومزدهراً حتى النهاية ، وليس هذا فحسب بل إن مما يسترعى الانتباه حقاً هو أن آخر رحلة كبيرة انتظم محيط رحلاته العالم الإسلامي بأجمعه إنما ينتمي إلى القرن الرابع عشر أيضاً .

ذلكم هو ابن بطوطة المشهور وهو نفس ذلك الرحالة الذي كانت أسفاره تطالع بالمدارس الثانوية بالبلاد العربية إلى عهد قريب والذي يرد المثقفون العرب حين التساؤل عنه باتسامة لا تخلو من بعض⁴¹⁷ الاستخفاف ؛ وهو نفس ذلك الرحالة الذي لا يستغنى عن الرجوع إليه أى باحث يود الخوض في تاريخ الأوردو الذهبي وآسيا الوسطى والذي رغمًا من هذا تقف رواياته عن الصين والهند في مستو واحد مع « أسفار السندباد » و« عجائب الهند » . ومهما اختلفت الآراء فيه فإن من المستحيل إنكار أنه كان آخر جغرافي عالمي من الناحية العملية ، أى أنه لم يكن نقالة اعتمد على كتب الغير بل كان رحلة انتظم محيط أسفاره عدداً كبيراً من الأقطار . وقد جاوز تجواله مقدار مائة وخمس وسبعين ألف ميل^(٧٨) ، فهو بهذا يعد منافساً خطيراً لمعاصره الأكبر منه سنًا ماركو بولو البندقي^(٧٩) . ولعل المقارنة بين الاثنين قد بولغ فيها أحياناً ولو أنها لا تخلو من الطرافة في بعض جوانبها فالصياغة الأدبية لكلا الرحلتين مثلاً لا ترجع إلى صاحب الرحلة نفسه بل إلى شخص آخر ؛ كما أن كلا المصنفين يكمل أحدهما الآخر بالنسبة لمعلوماتنا عن آسيا فالرحلة البندقي عرف الشرق الأقصى خيراً مما عرفه المغربي ، وفي مقابل هذا فن الطبيعي أن نجد أن هذا الأخير كان لديه إحساس ذاتي بظروف حضارة العالم الذي يصفه أكثر مما كان لدى البندقي . ومما يقرب بين الاثنين أنهما لا ينتميان في المحيط الجغرافي إلى الجغرافيين العلماء ولو أنه يجب الاعتراف بأن وصف المواطن المسلم لخط سير رحلته أدعى إلى الثقة مما عليه الحال مع معاصره المسيحي . غير أن هذا يجب ألا ينسينا شطحاته ، فما لا شك فيه أن وصفه « لأرض الظلمات » الواقعة خلف أراضي بلغار الفلجا إنما يرجع فيه إلى فكرة غير موثوق بها أو إلى مصدر أدبي أساء فهم روايته^(٨٠) ؛ كما أن وصفه لبلاد طوالسي الواقعة في مكان ما من كوشين صين Cochinchina يضم أساطير سمعها عن بلاد أخرى حتى اختلط الوصف لديه اختلاطاً كلياً . إلا أنه كلما تعرضت الأجزاء المختلفة من وصف رحلته لدراسة دقيقة مفصلة كلما زادت الثقة في صدق روايته يوماً عن آخر .

واسمه الكامل هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي وتشير النسبة الأخيرة إلى علاقته بطنجة

التي رأى النور فيها لأول مرة في يوم ٢٤ فبراير ٧٠٣ هـ = ١٣٠٤ ؛ أما النسبة السابقة لها فتشير إلى أن أصله من قبيلة لواتة البربرية (ايلواتن بلغة البربر) التي انتشرت بطونها على طول ساحل أفريقيا حتى مصر^(٨١) . وبالبربر أيضاً يرتبط اسم أسرته بطوطة الذي أثبت صحة نظره بتشديد الطاء بصفة قاطعة المستشرق فيشر A. Fischer^(٨٢) في عام ١٩١٨ ولو أن هذا لم يجد طريقه إلى الدوائر العلمية إلا بصورة بطيئة . ولا علم لنا بسنى حياته الأولى ولا بسيرة حياته بوجه عام بخلاف ما ذكره هو عرضاً في سياق رحلته ؛ ويبدو أنه قد حصل على ما تيسر من العلم بمسقط رأسه مع ميل واضح إلى الفقه وفقاً للمذهب المالكي السائد بشمال إفريقيا ؛ ولا شك أنه قد تمتع ببعض المعرفة في هذا المجال فقد حدث له أن شغل 418 في خلال رحلته منصب القضاء وهو في ريعان شبابه . غير أنه لا يخلو من غرابة أنه لم يخلف وراءه أى إنتاج أدبي ، إذ لم يرد في كتاب الرحلة أو في المصادر الأخرى ذكر ما لمؤلفات أدبية منسوبة إليه . وكان لابن بطوطة كغيره من المثقفين شعر جيد وكان يحب رفع قصائده إلى من شملوه برعايتهم . وقد كان الحافظ له على الخروج في تجواله هو نفس ذلك الحافظ الذي لعب دوراً كبيراً في الأقطار الإسلامية وأعنى به الرغبة في أداء فريضة الحج . وهو يروى ذلك بقوله :

« قال الشيخ أبو عبد الله كان خروجي من طنجة مسقط رأسى في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعائة معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفرداً عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون في جملة لباعث من النفس شديد العزائم وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كان في الحيازيم فحزمت أمرى على هجر الإناث من الأحباب والذكور وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور وكان والدتي بقاء الحياة فتحملت لبعدهما وصباً ولقيت كما لقياً نصباً وسننى يومئذ ثنتان وعشرون سنة »^(٨٣) .

ويغلب على الظن أن ابن بطوطة كان ينوى أداء فريضة الحج فحسب ولم يدر بخلده أن عصا الترحال ستلقى به في مختلف البلاد فلم يكتب له العودة إلى وطنه إلا بعد أكثر من ربع قرن . وخط سير رحلته معروف لنا منذ اللحظة الأولى لتحركه إلا أنه ليس من النادر أن ينقطع خيط الرواية أو يضطرب سياق العرض ، وهو على أية حال يسوقنا إلى لحظة عودته إلى أرض الوطن . ولعل الإطار الخاف الذي يحتوى قصة الرحلة يصف بصورة أبلغ من أى شيء آخر المدى الواسع الذي بلغه تجواله^(٨٤) فقد بدأ تحركه من طنجة ماراً في طريقه على جميع المدن الكبرى بشمال إفريقيا حتى بلغ الإسكندرية ثم غادرها إلى دمياط فركب النيل إلى القاهرة التي كانت آنذاك تمر على فترة من الازدهار أيام عصر المماليك وأحدثت في نفسه أثراً يماثل الأثر الذي أحدثته في وقتها مصر الفاطمية على ناصر خسرو . ومن القاهرة تابع ابن بطوطة النيل إلى أسوان ومنها اتجه شرقاً مخترباً الصحراء حتى بلغ مرفأ عينذاب على البحر الأحمر وهي الفريضة التي كانت تنجيه منها السفن عادة إلى جدة ؛ غير أن سير السفن المصرية بالبحر الأحمر كان متوقفاً آنذاك

بسبب الحرب التي اشتعلت بين قبائل البجيه والماليك مما اضطر معه ابن بطوطة إلى العودة إلى القاهرة . وهناك واثته فكرة زيارة الشام لينضم إلى قافلة الحاج من دمشق ، واغتنم هذه الفرصة فزار في طريقه فلسطين ماراً على بيت المقدس كما زار الشام فبلغ أنطاكية واللاذقية . وعقب زيارته لحلب أمضى فترة من الوقت بدمشق ثم انضم إلى قافلة الحاج فزار مكة والمدينة . وأعقب هذا زيارته لمشاهد الشيعة وقبر 419 على بالنجف ثم مر بالبصرة في طريقه إلى فارس فزار شيراز وأعقبها بالموصل وديار بكر من مدن الجزيرة ثم رجع إلى الكوفة وغادرها إلى بغداد . وكان العام قد انصرم مما يسر عليه فرصة تأدية الحج مرة ثانية ، وهنا أقام بمكة الفترة من عام ٧٢٩ هـ إلى ٧٣٠ هـ (من نهاية عام ١٣٢٨) حتى عوفي من مرض شديد كان قد ألم به وتعرف خلال ذلك على عدد من العلماء والدرويش المقيمين بها . ولم يلبث أن غادرها إلى جده ومنها عبر البحر الأحمر إلى الساحل الشرقي لأفريقيا ثم رجع منه إلى اليمن ثم عاد مرة ثانية إلى إفريقيا التي غادرها إلى الساحل الشرقي لبلاد العرب على الخليج الفارسي ، وقد مر في طريقه على عمان وهرمز والبحرين . وزار مكة للمرة الثالثة فر في طريقه إليها على اليمامة ثم اجتاز البحر الأحمر إلى عيذاب ومنها إلى القاهرة . أما الدورة الثانية من أسفاره فكانت وجهتها الأقطار الشمالية فقد اجتاز الشام حتى دخل آسيا الصغرى ؛ وفيما يتعلق بهذه البلاد الأخيرة فإن خط سيره يعتوره خلط شديد فقد اجتاز ابن بطوطة آسيا الصغرى حتى وصل إلى سينوب (« صنوب ») على البحر الأسود ثم عبر البحر فنزل شبه جزيرة القريم عند ميناء كفا وهي فيودوسيا حالياً وكانت إذ ذاك من المستعمرات الجنوبية بالبحر الأسود ، وفيها ولأول مرة في حياته سمع ابن بطوطة صوت نواقيس الكنائس . أما ميناء القريم الرئيسية فكانت سوداق التي يعتبرها ابن بطوطة أحد المرافئ العالمية الخمسة الكبرى (إلى جانب الإسكندرية بمصر وكلم وقاليقوت بالهند والزيتون بالصين)^(٨٥) . وفي طريقه مر ابن بطوطة على سلخات (القريم القديمة) فجال في جميع أنحاء القريم وروسيا الجنوبية ومن هناك بلغ أرض بلغار الفلجا^(٨٦) . ثم خرج من استراخان (« حاجي طرخان ») مع قافلة أميرة بزنطية هي لإحدى زوجات الخان أوزبك فبلغ القسطنطينية ومن هناك رجع مرة ثانية إلى مملكة الأوردو الذهبي فوصل إلى مقر الخان بمدينة سراي ، ثم عبر الفلجا فوصل إلى خيوه وغادرها إلى بخارى فأفغانستان ودخل الهند في غرة المحرم من عام ٧٣٤ هـ = ١٢ سبتمبر ١٣٣٣ ؛ ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجزء الثاني من وصف الرحلة . وفي دلهي حظا ابن بطوطة بدرجة عالية من النفوذ لدى السلطان محمد بن طغلق الذي عينه في منصب القضاء لمدة خمس سنوات^(٨٧) . وفي تلك الأثناء جهز السلطان سفارة إلى الصين كان من أعضائها ابن بطوطة ؛ ولم يوفق ابن بطوطة في محاولته الوصول إلى الصين برأ عن طريق قندهار فأبحر من قليقوت إلى جزر الملديف (« جزائر ذبية المهل ») Maldives وهناك أمضى زهاء عامين شغل خلالها مرة أخرى منصب القضاء وزار سيلان والبنغال (« بنجالة ») والهند الشمالية وأندونيسيا ،

ومن هناك اتجه إلى كانتون بالصين . وفى طريق العودة أخذ السفينة من سومطرة إلى ظفار فى جنوبى الجزيرة العربية فبلغها فى عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ . ومرة أخرى نراه ضارباً فى فيانى إيران والعراق والشام ومصر ؛ ثم أدى فريضة الحج للمرة الرابعة ؛ وبعد ذلك ذهب إلى فلسطين وشهد بها الوباء الخيف الذى اجتاحتها عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ . ¶ وعقب ذلك بقليل فى أبريل من عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ ألحت عليه رغبة عاجحة فى الرجوع إلى وطنه ، ولعل تواتر الأخبار بازدهار مراكش فى عهد السلطان أبى عنان من بنى مرين قد مكن من هذه الرغبة فى نفسه فأخذ طريق العودة ماراً على مصر وتونس ؛ وهناك واثته فكرة زيارة جزيرة سردينيا (« سردينية ») . وفى أثناء هذه الرحلة تعرض مرتين لهجوم لصوص البحر^(٨٨) ؛ وعلى الرغم من هذا فقد حالفه التوفيق فتقدم فى طريقه إلى فاس ماراً على تنس وتلمسان وتازا ، التى علم فيها بنحبر وفاة أمه ، حتى بلغ بلاط السلطان أبى عنان فى نوفمبر من عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ وهناك انتهى به المطاف وقوبل بما هو أهل له من التقدير والإجلال . بيد أن تجواله لم يقف عند هذا الحد فقد بقى قطران إسلاميان لم يكن قد زارهما بعد أحدهما دولة غرناطة التى لم تستغرق زيارته لها وقتاً طويلاً . وفى طريقه إليها زار قبر أمه بطنجة^(٨٩) ثم عبر مضيق جبل طارق إلى رنده فمالقه وأقام مدة أطول بعض الشئ بـ غرناطة ، ومن المحتمل أنه تعرف فيها بمحمد بن جزى وهو الرجل الذى كتبت له الأقدار أن يدون أخبار أسفار ابن بطوطة ؛ ثم رجع ابن بطوطة إلى المغرب عابراً مضيق جبل طارق للمرة الثانية . غير أنه لم يلبث أن خرج فى غرة المحرم من عام ٧٥٣ هـ = ١٨ فبراير ١٣٥٢ فى رحلة أطول من تلك بكثير كان قد كلفه بها السلطان أبو عنان وكانت وجهتها جوف إفريقيا ؛ وقد ظل وصف هذه الرحلة الأخيرة لا يفضلها شئ إلى عهد الرحلات الأوروبية فى القرن التاسع عشر . مر ابن بطوطة بسجلماسة فى طريقه إلى تمبكتو بمملكة مالى القوية^(٩٠) التى لم يكن قد مر على اعتناقها الإسلام عهد طويل . وفى طريق العودة بعد أن زار معادن النحاس بتكداء بدأ فى ١٢ سبتمبر ٧٥٤ هـ = ١٣٥٣ رحلة شاقة استغرقت بضعة أشهر فى صحبة قافلة من تجار الرقيق اخترق خلالها هضبة « هكار » Ahagger بعد أن مرّ فى طريقه على واحة أغدس Agdes ثم عبر جبال أطلس شتاء فى ظروف قاسية من الشظف الشديد إلى أن بلغ فاس فى نهاية عام ٧٥٤ هـ = ١٣٥٣ ؛ وفى هذه المدينة أمضى البقية الباقية من حياته وهى نيفاً وعشرين عاماً لم يقم خلالها بأى تجوال حتى وافته منيته فى عام ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧* .

وقد كان عهد المرينيين ، خاصة فى أثناء حكم أبى الحسين (٧٣١ هـ - ٧٤٩ هـ = ١٣٣١ - ١٣٤٨) وأبى عنان (٧٤٩ هـ - ٧٥٩ هـ = ١٣٤٨ - ١٣٥٨) عهداً ازدهرت فيه الثقافة فى جميع أنحاء المغرب الإسلامى ، وقد عد بنو مرين أنفسهم ورثة الحضارة الأندلسية على الرغم من أن الدولة العربية بالأندلس

* هذا التاريخ غير صحيح ، وكما أثبت جيب Sir Hamilton Gibb فإن التاريخ الصحيح لوفاة هو عام ٧٧٠ هـ = ١٣٦٨ - ١٣٦٩ (راجع 2 ، Selections) . (المترجم)

كانت لا تزال على قيد الحياة ولو أن رقعتها كانت قد تقلصت بشكل ملحوظ ؛ لذا فقد اهتم بنومرين بتشجيع الأدب والأدباء كأسلافهم عرب الأندلس . وقد حفظت لنا الآثار المعمارية لعصرهم نماذج فنية عظيمة كما اجتذب بلاطهم عدداً كبيراً من الأسماء اللامعة في مجالى الأدب والعلم فعاش في كنفهم ابن خلدون وابن الخطيب وكلاهما كان معاصراً لابن بطوطة (٩١) . ويبدو أنه كان لاسلطان أبي عنان الفضل في ظهور كتاب وصف رحلة ابن بطوطة فهو الذى عثر له على « محرر أدبى » إن صح هذا القول ؛ وتشير قرائن الأحوال إلى أن رحالتنا رغباً من ولعه بالقصص فإنه لم يحس انجذاباً شديداً نحو الكتابة . 421 أما كيف خرجت فكرة الكتاب إلى الوجود فيتضح ذلك جلياً من ألفاظ المحرر ، فهو فى كلامه عن ازدهار فاس فى عهد السلطان أبى عنان يقول :

« وكان ممن وفد على بابها السامى وتعدى أو شال البلاد إلى بحرها الطامى الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوباب الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الواقى الطنجى المعروف بابن بطوطة المعروف فى البلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذى طاف الأرض معتبراً وطوى الأمصار مختبراً وباحث فى رقى الأمم وسبر سيرة العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا (٩٢) ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملى ما شاهده فى رحلته من الأمصار وما عاق بحفظه من نواذر الأخبار ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة أفاد باجتماعها وعجبية أطرف بانتحاءها وصدر الأمر العالى لعبد مقامهم الكريم المنقطع إلى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد بن جزى الكلبي . . . بأن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا ولئيل مقاصده مكتملا متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه معتمداً إيضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدورها عن تجريده عن الصدف فامتثل ما أمر به مبادراً وشرع فى منله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادراً ونقلت معانى كلام الشيخ أبى عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها موضحة للمناحى التى اعتمدها وربما أوردت لفظه على وضعه فلم اخل بأصله ولا فرعه وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ولم أعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار على أنه سلك فى إسناد صحاحها أقوم المسالك وخرج عن عهدة سائرهما بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيدت المشكك من أسماء المواضع والرجال بالشك والنقط ليكون أنفع فى التصحيح والضبط وشرحت ما أمكنى شرحه من الأسماء الأعجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطئ فى فك معماها معهود القياس » (٩٣) .

من هذا يتضح لنا أن وصف رحلة ابن بطوطة المعروف باسم « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ليس من تصنيف ابن بطوطة نفسه بل يمثل صياغة أدبية لروايته عملها الكاتب 422 ابن جزى ، ولا يزال موجوداً بالمكتبة الأهلية بباريس قسم من الكتاب بخط يد الكاتب نفسه . ويمكن

الحكم على الطابع العام للكتاب من ألفاظ ابن جزى التي استشهدنا بها في سياق هذا الفصل ومن تحليل شخصيته كأديب ، فهو على ما يبدو من أدباء عصر التدهور وقد بقي لنا من آثاره ترجمة لسيرة حياته (Autobiography) ومصنف في نسب النبي^(٩٤) . وقد ولد ابن جزى بغرناطة وشغل منصب الكاتب لدى السلطان أبي الحجاج يوسف من بنى نصر (٧٣٣ هـ - ٧٥٥ هـ = ١٣٣٣ - ١٣٥٤) ثم لم يلبث أن اختلف معه فرحل عنه ليشغل نفس المنصب في بلاط السلطان أبي عنان الذي عرف كيف يجتذبه إلى شخصه . وأتم ابن جزى عمله في ثلاثة أشهر فقد انتهى من « تقييد » ألفاظ ابن بطوطة في ديسمبر من عام ٧٥٦ هـ = ١٣٥٥^(٩٥) وفي فبراير من العام التالي كان قد أكمل صياغتها^(٩٦) ؛ ولم يعش طويلاً بعد هذا فقد وافته المنية في نفس العام^(٩٧) . وعلمنا أن نأخذ دائماً في اعتبارنا جميع الظروف التي تم فيها تدوين الرحلة بحيث أننا إذا ما قسونا في حكمنا على ابن بطوطة فيجب ألا ننسى أن كثيراً من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئاً عن ابن جزى .

ويمس هذا قبل كل شيء الإطار العام للكتاب الذي هو من وضع ابن جزى فهو يفتقر في كثير من الأحيان إلى التناسب والتناسق ؛ ويمكن من خلال الشذور التي اقتطفناها أن نحكم على الأسلوب المتكلف الذي لجأ إليه ابن جزى وميله الواضح إلى السجع والإطناب وهي على أي حال من سمات عصر التدهور . ومن حسن الحظ أن أسلوب الكتاب لا يسير في جميع صفحاته على وتيرة واحدة إذ كثيراً ما تتخلل العرض لغة ابن بطوطة القصصية البسيطة التي تميل أحياناً نحو لغة المحادثة محتفظة في ذات الوقت برزاتها وغناها بالتفاصيل فوق ما تتميز به من الحيوية الدفافة والعاطفة الحياشة . وإلى جانبها يبدو أسلوب ابن جزى ثقيلًا يغلب عليه الحشو والتكلف كما تنعكس فيه على الدوام محاولة واضحة إلى جمع قصص ابن بطوطة المتفرقة في وحدة متماسكة وتزويقها بصورة تجعلها أقرب إلى النصوص الأدبية^(٩٨) . وهو يقتطف من أشعار مختلف الشعراء ، أحياناً دون مناسبة تستوجب ذلك وبلا أدنى صلة تربطها بموضوع كلامه ؛ وغرضه من هذا أن يكسب كلام ابن بطوطة حيوية أكثر . وأغلب الظن أن ابن جزى قد لجأ إلى الطريقة القديمة في تضمين الأوصاف المأخوذة من المؤلفين السابقين في سياق عرضه دون أن يهتم بالإشارة إلى أسمائهم ؛ ومن الإجحاف اتهام ابن بطوطة بادعاء المعرفة والعلم بالكتب فهو رجل يحب القصص ولكنه يفضل حكايتها بألفاظه هو ومن المشكوك فيه أن يكون هو المسئول عن تضمين قطع كبيرة من كلام ابن جبير في وصف الشام وبلاد العرب دون أن يشير إلى المؤلف ، إلا أنه من الطبيعي أن يكون ابن جزى الغرناطي الأصل على معرفة جيدة بالأسلوب المصقول لمواطنه الأندلسي ابن جبير خاصة وأن الأخير كان بوجه عام محبباً إلى قلوب أهل بلده^{٤٢٣} فلا غرو أن أراد ابن جزى تحلية مؤلفه بإضافة تلك القطع إليه .

إن دور ابن جزى في تحرير الكتاب كانت له آثار بعيدة فقد جهد في أن يضفي على المصنف طابعاً

فنياً متماسكاً لعله لم يعرف في الأصل إطلاقاً . ومن الواضح أن ابن بطوطة نفسه لم يكن ليستحي من الاعتراف بأنه قد نسي اسم موضع ما أو اسم شخص ، مثل ذلك القاضى الذى نزل عليه بالشام أو تلك المدينة التى مر عليها في طريقه إلى تمبكتو^(٩٩) ؛ وأغلب الظن أنه لم يدون مذكرات منظمة وإذا كان قد دون شيئاً ما فلا ريب في أنه قد أضاعه خلال تجواله أضف إلى هذا أنه لم يهدف لإخراج صورة متكاملة الجوانب لوصف أسفاره بل اكتفى بأن يقص على سامعيه حوادث معينة وقطعاً متفرقة منها : لذا فحين دعت الحاجة إلى الربط بينها في رواية متتابعة فإن المحرر بذل جهداً ليس بالقليل ليخرج من القصة بأكثر مما استطاع المؤلف أن يتذكره ، سواء كان ذلك عن طريق توجيه الأسئلة أو ربما استحثه بوسائل أخرى . ولم يكن ابن جزى على معرفة بالبلاد التى تحدث عنها ابن بطوطة لذا فليس غريباً أن يقع في أخطاء عديدة عندما حاول أن يجمع بين هذه القصص المتفرقة في وحدة متماسكة ، ويصدق هذا بصورة خاصة على أفريقيا الشمالية عندما أخذ ابن بطوطة لأول مرة طريقه إلى مصر فدلّلت الأحوال تشير إلى أن ابن بطوطة كان قد نسي وصف طريقه تماماً وذلك بعد الزمن الذى ينيف على ربع قرن ؛ ومن الملاحظ أن وصف هذا الطريق مختصر للغاية لدى مقارنته ببقية وصف الرحلة . أما الخلط الشديد المتعلق بوصف آسيا الصغرى^(١٠٠) فيمكن رده إلى ابن جزى الذى حاول بلاشك أن يستخلص صورة متكاملة الجوانب بإزاء العدد الكبير من أسماء الأماكن التى يذكرها ابن بطوطة . وكان ابن بطوطة قد قطع على نفسه عهداً ألا يأخذ طريقاً ما أكثر من مرة^(١٠١) ومن ثم فإن تحديد طريق سيره بدقة يستلزم معرفة جيدة بالأقطار التى سلكها . وعلى نحو ما أراد المحرر فإن ابن بطوطة قد أسبغ على روايته في بعض الأحيان دقة خيالية لا تمت للحقيقة بسبب وذلك فيما يتعلق بتحديد المسافات والأماكن مما كان قد أسدل عليه الزمن ستار النسيان بالنسبة له ؛ كما أنه من الصعب مثلاً التصديق بأن عدداً من رحلاته الكبيرة قد بدأ على وجه التحديد في غرة المحرم من كل عام .

ومن المحتمل أن ابن جزى لم يمس جوهر القصص نفسها لذا فلا يزال ينتظر إجابة شافية حتى الآن سؤال حائر هو إلى أى حد يمكن الاعتماد على صدق رواية ابن بطوطة حتى ولو وضعنا في اعتبارنا مدى فعالية العنصر الذاتى (Subjective) في هذا المجال . ولقد بدأ هذا التساؤل يأخذ بخناق ابن بطوطة منذ لحظة رجوعه إلى أرض الوطن تماماً كما حدث مع ماركو بولو ، بل إنه يمكن استشفاف لون من الخدر حتى عند ابن جزى نفسه وذلك في قوله « وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ولم أعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار » . ولقد سارت هذه الشكوك قدماً تارة تفيض وطوراً تغيب ولكنها لم تصل بالطبع في الأدب العربى إلى مرتبة الحدة أو تأثير مثل ذلك الاهتمام الذى ترجع صدهاء في الأوساط العلمية الأوروبية . ولعله لم يكن من قبيل الصدفة المحردة أن 424 يسير التراجع بين اليقين والشك في شأن ابن بطوطة بنفس التتابع الزمنى الذى ساره موقف العلماء

المحدثين من الجغرافيين العرب الآخرين ، فالبحاثون الأول الذين تعرفوا على المتن الأصلي لابن بطوطة بصورة مباشرة مثل كوزغارتن Kosegarten ولى Lee قد وثقوا ثقة تامة فى صدق روايته ثم أعقب ذلك فترة من التشكك بلغت غايتها فى موقف النقد المتطرف الذى وقفه يول Yule من ابن بطوطة ؛ وأخيراً وفى القرن العشرين نلاحظ بداية عهد من الاعتراف بقيمته من جديد أخذ يكتسب الأنصار يوماً بعد يوم . وتتمثل وجهة النظر الأخيرة فى أن ابن بطوطة يعكس بدقة وإخلاص العصر والوسط اللذين عاش فيهما وذلك على ضوء الظروف الحضارية السائدة آنذاك .

وبالطبع فابن بطوطة رجل مسلم قح من أهل القرن الرابع عشر ولكنه كان أكثر قرباً إلى المعتقدات الشعبية منه إلى العقيدة الرسمية ، أعنى المعتقدات السائدة فى المغرب ؛ وهو لم يلق بالالجوانب الحياة التى تهم عصرنا نحن . وقد احتلت المكانة الأولى بالنسبة له المسائل المتعلقة بالعبادة والأولياء والدراويش فاعتقد فى صحة الكرامات التى حكيت له أو التى حدثت له هو نفسه ، ولعله من اليسير تفسيرها على ضوء الانخداع النفسى والسلوك الجاهل (Mass hypnosis) الذى شهده بنفسه فى الهند أوردتها ببساطة إلى المبالغة التى ينساق إليها بسهولة جميع الرحالة فى كل العصور . فإن أسقطنا من حسابنا هذه العوامل فإن روايته بوجه عام جديرة بالثقة أو أنه على الأقل قد روى ما اعتقده الحق . أما الأخطاء التى وقع فيها فليست بالقليلة ويجب ألا يغيب عنا أنه لم يكن على معرفة بلغات البلاد العديدة التى زارها ، وهو فيما عدا العربية كان ملماً ببعض الفارسية وربما التركية كذلك إلا أن معرفته بلغات الهند وقفت فى الواقع عند حد ألفاظ معدودة كان يجب أن يعرضها من حين لآخر ولكن التوفيق جانبها فى معظم الأحوال . وفى اتصالاته بالسكان المحليين لم يكن من النادر أن يلجأ إلى الاستعانة بترجم ما ، ولا يخفى بالطبع النتائج التى تترتب على هذا إذ كثيراً ما تسرب الخطأ إلى أسماء البلاد الأجنبية التى يذكرها أثناء سيره كما أنه ليس من المستبعد أن يختلط لديه ترتيبها ، زد على هذا أن التابع الزمنى للرحلة غير منتظم وأن التواريخ تبدو كأن المحرر قد وضعها خبط عشواء ؛ ونفس هذه المجموعة من الأخطاء وجدت طريقها إلى الاستطرادات التاريخية . لكل هذا فإنه يجب ألا يغرب عن الذهن أن ابن بطوطة لم يكن عالماً نقالة بل اعتمد اعتماداً مطلقاً على ذاكرته ، وهو كان يتمتع حقاً بذاكرة ممتازة شأنه فى هذا شأن جميع ممثلى الثقافة العربية لذلك العهد . وبعد فيجب الاعتراف بأن مقدار الأخطاء الزمانية (أى فى التواريخ chronological) والمكانية (أى فى المواضع الجغرافية Topographical) ضئيل لديه عند مقارنة ذلك بالعدد الكبير من الوقائع التى يوردها (١٠٢).

وقد وجهت حملات النقد بصورة خاصة إلى أقسام معينة من رحلته كوصفه للقسطنطينية وحكاياته عن الصين ؛ أما عن الأولى فقد كان اضطراب التواريخ سبباً فى حدوث بعض الخلط لديه ولكن على الرغم من هذا تم الاعتراف فى الأونة الأخيرة بأن وصفه للمدينة نفسها يتسم بطابع الصحة ولا يمكن

أن ينتج إلاّ عن معرفة مباشرة بها فضلاً عن أنه يكشف في هذا الصدد كما هو الحال دائماً عن قوة ملاحظة خارقة^(١٠٣). ولا تزال مستعصية على الحل مسألة حتمية زيارته للصين ، وكما قال مجيك Mizik فإنها لم تنضج بعد للحل^(١٠٤) ويجب أن يترك الباب مفتوحاً لها^(١٠٥) ؛ ولا يزال إجماع الآراء أكثر ميلاً إلى القول بأن ابن بطوطة لم يزر الصين . ويقرر شيفير Schefer أن القليل من رواياته عن الصين يستأهل الاهتمام^(١٠٦) ولو أنه يجب الاستدراك على هذا بأن رواياته عن الصين ليست بالقليلة العدد^(١٠٧) . وقد وصل فيران Ferrand وهو خير خبير في الأدب الإسلامي عن الشرق الأقصى إلى نتيجة مؤداها أن ابن بطوطة لم يزر الهند الصينية ولا الصين بل لفق روايته عنهما دون توفيق يذكر من مصادر مختلفة^(١٠٨) . وكما بينا من قبل فإن ابن بطوطة لا يكشف بوجه عام عن معرفة جيدة بالأدب الجغرافي ، وإذا ما سلمنا جدلاً بالفرض القائل بأن ابن بطوطة إنما اعتمد في وصفه على القصص التي سمعها من الآخرين فثمة تفاصيل معينة تجعل من العسير علينا التسليم التام بهذا الفرض ، فمثلاً من الصعب القول بأن ابن بطوطة من غير أن يزرور الصين قد وجد أن هناك ما يضطره إلى القول بأنه قد التقى فيها برجل من أهل سبتة ثم يذكر اسمه بالتفصيل كما يذكر أيضاً أنه قابل أخاً لذلك الشخص نفسه بالسودان الغربي^(١٠٩) . مما لا ريب فيه أن الكلام يدور هاهنا عن شخصيات حقيقية كانت معروفة للكثيرين بمراكش عند رجوع ابن بطوطة إليها فلم يكن بوسعهم إذن أن يفكر في تعريض سمعته للثلب من أجل دافع تافه كهذا . ومنذ عهد ليس بالبعيد توصل البحاثة الياباني ياماموتو Yamamoto إلى رأى حول رحلة ابن بطوطة في الشرق الأقصى لا يبلغ في شدته الرأى الذى خرج به فيران . فهو يقول :

« لأنه لمن العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين هي من نسج الخيال وحده . حقاً إن وصفه المفصل لتلك البلاد يشمل عدداً من النقاط الغامضة ولكنه لا يخلو أحياناً من فقرات معينة تعتمد على ملاحظة مباشرة عن الصين ، فضلاً عن أنه من المستحيل القول بأن رواياته التي وجدت توكيداً في المصادر الصينية وفي أسفار ماركو بولو قد كانت من تلفيق مخيلته »^(١١٠) . ولا اعتبارات ذات طابع عام أخضع ياماموتو رواية ابن بطوطة عن بلاد طوالسى الغامضة لتحليل دقيق ؛ ولندكر عرضاً أن رواية ابن بطوطة عنها قد جرت عليه سخرية بعض البحاثة ، فالعلامة يول Yule مثلاً قال عنها في زمنه « يجب البحث عن تلك البلاد في صفحات الأطالس التي تحتوى الخارطات البحرية مما رسمته يد الطبيب الذكر القبطان غليفير »^(١١١) . وعلى الرغم من هذا فإن عدداً من البحاثة ممن لم يصل بهم التشكك إلى الدرجة 426 التي بلغها عند يول قد حاولوا العثور على هذه الجزر فبحثوا عنها في جزيرة بورنيو^(١١٢) وفيما بين اليابان وشامبا الواقعة في كوشين صين^(١١٣) ، وأخيراً وضعوها في تونكين^(١١٤) ؛ وقد ساق ياماموتو حججاً قوية للتدليل على أن طوالسى إنما هي شامبا^(١١٥) بعينها التي كانت تقع بلاشك على الطريق بين الهند والصين^(١١٦) . ولعل ابن بطوطة كان ضحية القصص الخرافية التي رواها له المترجمون المحليون^(١١٧) عن

تلك البلاد وذلك لجهله باللغات المحلية : لكل هذا فإن رواية ابن بطوطة حتى في حالات قصوى مثل هذه لم تعد تثير الشكوك في نفس البحاثة المعاصرين كما كان الحال عليه من قبل ، خاصة وأن رواياته عن مواضع مجاورة كجزر ملديف مثلاً قد وكد الرحالة المتأخرون صحتها برمتها (١١٨) :

ومن الطريف أن نسوق ملاحظة لابن خلدون في هذا الصدد ، خاصة وأن ابن خلدون من المؤلفين العرب القلائل الذين ذكروا اسم ابن بطوطة بل والتقى به شخصياً . ففي « مقدمته » المشهورة ، وفي الفصل منها الذي يبحث « في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها » يذكر فيما يذكر :

« ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتى من أحواله بما يستغربه السامعون ، مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه في ذلك الحقل منجنقات على الظهر

427 ترمي بها شكاير الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه ؛ وأمثال هذه الحكايات فتناجي الناس بتكذيبه ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال لي الوزير فارس إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك الحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم الذي كان يتغذى فقال له أبوه هذا لحم الغنم ؟ فقال وما الغنم ، فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها ؟ فيقول يا أبت تراها مثل الفار ، فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار ! وكذا في لحم الإبل والبقر إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفار فيحسها كلها أبناء جنس الفار وهذا كثيراً مما يعثرى الناس في الأخبار كما يعثرهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهيمناً على نفسه ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق فإن نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حداً بين الواقعات وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء فإننا إذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وصفه ومقدار عظمته قوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أمواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه وقل رب زدني علماً وأنت أرحم الراحمين والله سبحانه وتعالى أعلم » (١١٩) .

من هذا يتبين أن عالمين ، أحدهما ابن خلدون في القرن الرابع عشر والآخر ياماموتو في القرن العشرين ، قد وصلوا في الحقيقة إلى استنتاج واحد مؤداه أنه من المستحيل رفض رواية ابن بطوطة على أساس أنها تتناقض مع الواقع ؛ ويميل العلم الأوروبي الحديث إلى أن يقف نفس هذا الموقف من ابن بطوطة . ووضع ابن بطوطة في تاريخ الأدب الجغرافي واضح للبيان فهو لم يكن جغرافياً نقالة أو من أصحاب الموسوعات أو من الأدباء بل كان شخصاً عادياً للغاية لا يتمتع بأية مواهب خاصة ولا تنعكس في رواياته أفكار عميقة أو ملاحظات دقيقة وكثيراً ما نلتقي لديه بأمثلة لتصديق أكثر الروايات إغراباً في الخيال . وعلى 428 الرغم من كل هذا فهو شخص شاهد الكثير وعرف كيف يصور ما شاهده بدقة وبساطة (١٢٠) ؛ وقد جعلت منه الأقدار جغرافياً على الرغم منه إن صح هذا التعبير وصنعت منه لوناً من الرحالة نادرًا عند العرب ذلك هو الرحالة الذي يستهدف الرحلة لذاتها ويضرب في مجاهل الأرض استجابة لعاطفة لا تقاوم ورغبة جارفة للتعرف على الأقطار والشعوب . وهو على نقيض الغالبية العظمى من الجغرافيين العرب لم يجمع مادته من صفحات الكتب بل جمعها عن طريق التجربة الشخصية وعن طريق محادثاته مع شخصيات تعرف عليها عرضاً في خلال رحلاته . وقد شغل اهتمامه بالمواضع الجغرافية مكانة ثانوية بالنسبة لاهتمامه بالبشر ، وهو بالطبع لم يفكر في أن يجري أى نوع من البحث والتحقيق في مجال الجغرافيا ولعله نتيجة لهذا قد أصبح كتابه نسيج وحده كوصف للمجتمع الإسلامي والشرقي عامة في القرن الرابع عشر . فهو خزانة تحفل بمادة غنية لا في مجال الجغرافيا التاريخية أو تاريخ عصره فحسب بل عن جميع حضارة ذلك العهد ، فتراه يعرض لجميع الظواهر الاجتماعية بالسرد حتى تلك التي يهملها المؤرخون عادة فتمر أمام أنظارنا مراسيم البلاطات الأجنبية وأزياء الشعوب المختلفة وتقاليدها وحرفها وأصناف الأطعمة والأغذية . فهو بهذا ليس كتاباً نظرياً جافاً بل على العكس من ذلك يفيض بالإنسانية والحيوية ولا يخل فيه المؤلف بملاحظات وتعليقاته في أية مناسبة تعرض ؛ وهو لا يمثل وثيقة ممتازة لتجربة فردية فحسب بل يقدم كذلك نموذجاً صادقاً لأفكار وتصورات مواطن إسلامي من أهل القرن الرابع عشر (١٢١).

ولما كان للنثر الفني الغلبة في الأدب العربي فلم يكن من الغريب ألا يتمتع مصنف ابن بطوطة في القرون التالية بالرواج ، فقد وقف منه العلماء المتزمتون موقف التحفظ وطرحوه جانباً على أنه ضرب من الحكايات والأساطير الشعبية ، بل وليس في علمنا أن أحداً من المؤلفين المتأخرين قد أشار إليه مجرد إشارة إذا استثنينا الموجز الذي وضعه للكتاب في القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) شخص يدعى البيهونى وتعرفت عليه أوروبا قبل أن يتعرف عليه العالم العربى . وفى العصر الحديث فقط ، وذلك بفضل الطبعة الأوروبية للمصنف والتي أعيد طبعها مراراً بالشرق ، بدأ أصل الكتاب يجد طريقه شيئاً فشيئاً إلى الأوساط العربية المثقفة في صورة مختارات مدرسية وكتب للمطالعة في أغلب الأحيان . وخير مثال لها تلك الكتب الثلاثة التي أخرجها في سلسلته المعروفة فؤاد افرام البستاني (عام ١٩٢٧) .

أما بالنسبة للأتراك العثمانيين في القرن التاسع عشر فلم يكن من السهل أن يمر ابن بطوطة هكذا دون أن يشير اهتمامهم ، إن ليس لشيء فلو وصفه المفصل لآسيا الصغرى على أقل تقدير ، ناهيك عما يحفل به كتابه من تفاصيل هامة تتعلق بموضوعات شتى : وقد ظهرت محاولات لترجمته إلى اللغة التركية منذ الستينيات الأولى للقرن الماضي وذلك في صحيفة « تقويم وقائع » التي كان يحررها كمال افندى (١٢٣) ؛ أم الترجمة الكاملة للكتاب التي قام بها الداماد محمد شريف فقد ظهرت في ثلاثة أجزاء في نهاية ذلك القرن (١٣١٥ هـ - 429 ١٣١٩ هـ = ١٨٩٧ - ١٩٠١) (١٢٣). وللعلامة التركي محمد جودت (توفي في عام ١٩٣٥) تعليق واف على رواية ابن بطوطة عن تقاليد « الأخي » بآسيا الصغرى ومقارنته لذلك مع تقاليد « الفتيان » عند العرب (١٢٤) .

وعلى أية حال فيجب القول بأن معرفة الاستعراب الأوروبي بابن بطوطة جاءت متأخرة ومتأخرة بكثير عن معرفته بالإدريسي بل وحتى بأبي الفدا ؛ ومن العبث البحث عن اسمه في موسوعة دربلو d'Herbelot المعروفة التي جمعت خلاصة المعارف في ميدان الاستعراب حتى القرن الثامن عشر ، أو عند اشنور Schnurrer الذي سجل أسماء جميع المؤلفات التي ظهرت في عالم الاستعراب إلى عام ١٨١٠ . وفي بداية القرن التاسع عشر فقط ثم الكشف عن ابن بطوطة لأول مرة ، ولم يتم ذلك بواسطة العلماء ولكن بواسطة اثنين من الرحالة هما زيتسن Seetzen (١٨٠٨) وبوركهارت Burckhardt اللذين استطاعا بحق أن يقدرا زميلهما المغربي حق قدره وإليهما يرجع الفضل في وصول مخطوطات موجز البيلوني إلى أوروبا لأول مرة (بمكتبتى غوطا Gotha وكبردج Cambridge) وبهذا أصبح المتن في متناول أيدي العلماء . وكان أول من تناوله بالبحث العلامة كوزغارتن Kosegarten وتلميذه ابتر Apetz فقدم الأول تحليلاً عاماً للرحلة وثلاث مقتطفات من المتن تصحبها الترجمات والتعليقات بعنوان : « الرحلة الفارسية » Iter Persicum و« الرحلة الملديفية » Iter Maldivicum و« الرحلة الإفريقية » Iter Africanum (١٨١٨) ؛ أما الثاني فقد قام بنفس المهمة فيما يتعلق بوصفه لساحل ملبار Malabar (١٨١٩) . وتمثل خطوة إلى الأمام في دراسة ابن بطوطة تلك الترجمة الكاملة للموجز التي قام بها العلامة الإنجليزي لي Lee الأستاذ بجامعة كبردج (١٨٢٩) ؛ وعلى النقيض من هذا فإن الترجمة البرتغالية التي قام بها مورا Moura (١٨٤٠ - ١٨٥٥) (١٢٥) معتمداً في ذلك على مخطوطة حصل عليها بفاس في حوالى عام ١٧٩٧ لم تحظ بالعناية الكافية (١٢٦) . أما أصل الكتاب فإنه لم يتم العثور عليه إلا بعد فتح الفرنسيين للجزائر واستيلائهم على قسنطينة ، وأعقب هذا أن وجدت طريقها إلى المكتبة الأهلية بباريس Bibliothèque Nationale نحو من خمس مخطوطات اثنتان منها كاملتان وأبعض منهما بخط يد ابن جزى نفسه . وبهذا تمكن العلماء الفرنسيون ، بعد محاولات عديدة للنشر وترجمة أقسام من الكتاب ، من أن يخرجوا أول طبعة كاملة للرحلة مصحوبة بترجمة فرنسية في أربعة

أجزاء بقلم المستشرقين دفريمري Defrémery وسانغنتي Sanguinetti (١٨٥٣ - ١٨٥٨) ؛ وقد قوبل ظهور الجزء الأول بحماس شديد من قبل العلامة رنان Renan الذى نشر بهذه المناسبة دراسة عن ابن بطوطة وكتابه تنسم بالكثير من الحيوية . ولا تزال الطبعة الفرنسية فى جوهرها إلى أيامنا هذه تمثل الأساس الذى قامت عليه جميع الأبحاث عن رحلة ابن بطوطة ، وقد أعيد طبعها أكثر من مرة ولكنها لم تخضع فى مجموعها لفحص منظم على الرغم من أنه لا يمكن بالطبع أن ترضى فى الوقت الحاضر متطلبات البحث العلمى المعاصر . غير أن الدراسات المستقلة التى تناولت بحث فصول مختلفة من الرحلة أو عالجت مسائل متعلقة بذلك قد زاد عددها بصورة ملحوظة ؛ ويمكن إعطاء فكرة عامة عن الرحلة بأجمعها من خلال الترجمات التى عملت لأقسام مختلفة من الكتاب ، أعنى بذلك ترجمات مجيك Mzik 430 (١٩١١) وجب Gibb (١٩٢٩) المزودة بتعليقات موجزة والتى يمكن أن تعد القول الفصل إلى يومنا هذا فى دراسة « منافس ماركو بولو » (١٢٧)* . وأن الاهتمام الذى قابلته به أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ليقف برهاناً قاطعاً على صدق قول ابن جزى فى خاتمة الكتاب :

« ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد » (١٢٨) .

ونحن إذ نودعه الآن فإنما نفارق بذلك آخر رحالة عربى كبير ؛ كما وأننا بمفارقتنا لموسوعات عهد المماليك قد فارقنا آخر المصنفات الكبيرة التى تقدم عرضاً عاماً للأدب الجغرافى العربى .

* استدرك الناشر السويث على المؤلف ذكرهم لظهور بحث لعلامة هندي هو مهدي حسين. عالج فيه الكلام عن أسفار ابن بطوطة فى الهند وجزر ملديف وسرنديب (١٩٥٣) . ونحن نستدرك بدورنا عليهم فنذكر أن المستعرب الكبير جب Sir Hamilton Gibb قد شرع فى نشر ترجمته الإنجليزية الكاملة للرحلة التى كان قد وعد بها والتي ظهر منها حتى كتابة هذه السطور جزآن . كما نضيف إلى هذا أنه توجد للكتاب ترجمة تشكية بقلم هربك Ivan Hrbek (براغ ١٩٦١) وإيطالية بقلم غابرييلي Fr. Gabrieli (فلورنسة ١٩٦١) وأخرى موجزة باليابانية ؛ ويجرى حالياً العمل فى تحضير ترجمات باللغات البولندية والمجرية والروسية . (المترجم)

حواشي الفصل الخامس عشر

- Hartmann, ZDMG, 70, p. 12 (١)
- Kramers, El, EP, p. 70 (٢)
- Blachère, p. 299-300 (٣)
- Brockelmann, GAL, II, p. 54-55, No 2; SB II, p. 53-54 — Sarton, (٤)
Introduction, p. 870

(٥) مناقش ، المشرق ، المجلد العاشر ، ص ٧٢٣ ، ٧٢٤

(٦) شرحه ص ٧٢٤

(٧) شرحه ، ص ٧٢٧

(٨) شرحه ، ص ٧٧٥ - ٧٧٦

(٩) شرحه ، ص ٧٨٦ - الغزى مجلة المعهد العلمي العربي بدمشق ، المجلد التاسع ، ص ٦٨٥ - ٦٨٦ -

(١٠) مناقش ، المشرق ، المجلد العاشر ، ص ٧٢٦

(١١) شرحه ، ص ، ٧٢٧

(١٢) شرحه ، ص ، ٧٨٦

(١٣) شرحه ، ص ، ٧٢٧

(١٤) شرحه ، ص ، ٧٢٨

(١٥) شرحه ، ص ، ٧٢٨ - ٧٢٩

(١٦) شرحه ، ص ، ٧٢٩

(١٧) شرحه ، ص ٧٨٠ - ٧٨٣

(١٨) يوجد برلين الجزء الثاني - الجغرافيا

راجع (Ahlwardt, V, p. 371, No 6045) والرابع - النبات (راجع : شرحه :

p. 486 No 6207)

(١٩) - Kratschkovsky, El, EB, p. 79-80 - Brockelmann, GAL, SB II, p. 389, No 53a

(٢٠) مناقش ، المشرق ، المجلد العاشر ، ص ٧٧٤ ، ٧٧٦

(٢١) شرحه ، ص ٧٢١ - ٧٢٩ ، ٧٧٤ - ٧٨٦

الغزى ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد التاسع ، ص ٦٨١ - ٦٨٧ ، والمجلد العاشر ص ٢٥٠ - ٢٥١

(٢٢) - Wiedemann, Beiträge, LI, p. 153

(٢٣) - Krachkovski, Al-Nuwairi, p. 1045 - 1047 — Brockelmann, GAL, II,

p. 139-141, No 1; SB II, p. 173 - 174 — Mieli, p. 262, 264

- Reïnaud, Introduction, p. CLI — CLII (٢٤)
- Wiedemann, Beiträge, LI, p. 154 (٢٥)
- Amari (— Nallino), I, p. 82-83, No 57 (٢٦)
- Wiedemann, Beiträge, XLIX, p. 16-52; — Beiträge, LI, p. 151-176 (٢٧)
- Ferrand, Relations, I, p. 50-52; II, p. 394-397, 614-625 (٢٨)
- Ahmed Zeky, Mémoire, p. 8-10 (٢٩)
- Brockelmann, GAL, II, p. 141, No 3; SB II, p. 175-176 — Al-'Omari, (٣٠)
p. 38 — ٢٣٨ — ٢٢٦ — ص ٣ ، الجزء الثالث ، زيدان ، Bhmed Zeki, Mémoire p. 10 12
— Blachère p. 301-302 — وصف ، عبد الوهاب ، حسن حسنى
- Hartmann, ZDMG, 70, p. 1 (٣١)
- (٣٢) شرحه ، p. 2
- (٣٣) شرحه ، p. 3-4
- (٣٤) شرحه ، p. 4-5
- Taeschner, Al-'Umari's Bericht, I, p. 100-101 (٣٥)
- (٣٦) راجع عن سيرة العمري Hartmann, ZDMG, 70, p. 2-3
- (٣٧) شرحه ، p. 3
- (٣٨) شرحه ، p. 6
- (٣٩) شرحه ، p. 7
- (٤٠) شرحه ، p. 6
- (٤١) راجع إلى جانب المصادر الأخرى أيضا — Gaudefroy — Demombynes, La Syrie, p. XII - XIII
- Tizengauzen, Sbornik materialov. I, p. 331-350 (٤٢)
- Hartmann, ZDMG, 70, p. 6 (٤٣)
- (٤٤) حسن حسنى عبد الوهاب ، وصف ، ص أ — ب
- Blachère, p. 301-302 (٤٥)
- Amari (— Nallino), I, p. 59 No 25 (٤٦)
- (٤٧) شرحه ، p. 60
- Schiaparelli, Al-'Umari, p. 304 (٤٨)
- (٤٩) شرحه ، p. 305
- Amari, Al-'Umari, p. 306 (٥٠)
- Sreznevski, Khojenie A. Nikitina, p. 246 et sui (٥١)
- (Quatremère, Not. et Extr, XIII, p. 347) معتبداً في ذلك على مادة كاترمير

- Taeschner, Al-'Umari's Bericht, p. VII, 18, v^r (٥٢)
- Amari (—Nallino) I, p. 59 (٥٣)
- Amari, Al-'Umari, p. 308 (٥٤)
- Schefer, Notice, p. 16 23 (٥٥)
- (٥٦) شرحه ، p. 23
- (٥٧) شرحه ، p. 16
- (٥٨) شرحه ، p. 16, note 2
- (٥٩) راجع الترجمة لدى Schefer, Notice p. 16-22
- Björkman, Beiträge, p. 73; cf. Brockelmann, GAL, SB, II, p. 165 (٦٠)
- Gaudetroy — Demombynes, La Syrie, p. V (٦١)
- (٦٢) من محتويات هذا راجع : Björkman, Beiträge, p. 96-109
- Björkman, Beiträge, p. 96 (٦٣)
- (٦٤) شرحه ، p. 96, note 1
- Tizengauzen, Sbornik materialov, I, p. 395-416 (٦٥)
- Spies (٦٦)
- Björkman, Beiträge, p. 75 (٦٧)
- Gaudetroy — Demombynes, La Syrie, p. X (٦٨)
- Björkman, Beiträge, p. 75-86 (٦٩)
- (٧٠) شرحه ، p. 80-81
- (٧١) شرحه ، p. 81-82
- Gaudetroy — Demombynes La Syrie p. XIV (٧٢)
- Tizengauzen, ZVO, I, p. 208-216 (٧٣)
- Canard, AlÉO, p. 27-52 (٧٤)
- . . . حيث يرد الخطاب باللغة اليونانية الحديثة مع التعليق عليه من مادة القلشقندى .
- Spies, p. 9-13 (٧٥)
- (٧٦) شرحه ، p. 8
- Kramers, El, EB, p. 70 (٧٧)
- Gibb, Ibn Battúta, p. 9 — Arnold, Arab Travellers, p. 101 (٧٨)
- Ruska OZ, XXXIII, p. 597 (٧٩)
- (٨٠) راجع مقارنة [مادة ابن بطوطة مع مصادره] Brockelmann, GlV, p. 199 200
- Colin, El, III, p. 21 (٨١)

- (٨٢) Fischer, Battūta, p. 289
- (٨٣) ابن بطوطة Defrémery, I, p. 12-13 Voyage, طبعة
- (٨٤) Hennig, II, p. 174 : عن تواريخ تحركات ابن بطوطة
- (٨٥) Defrémery, I, p. 28 Voyage, طبعة ابن بطوطة
- (٨٦) - Janicsek, Ibn Battūta, p. 791 800 ; cf. Brockelmann, GAL, SB, II, p. 365- مع الإشارة إلى 366 Markwart
- (٨٧) - Agha Mahdi Husain, p. 89 . 91
- (٨٨) - Gibb, Ibn Battūta, p. 9
- (٨٩) ابن بطوطة ، الروائع ، ص ١٥٠
- (٩٠) Cf. Hennig, III, p. 256-260 تقع دولة مالي على حوض النيجر
- (٩١) - Marçais, Meriniden, p. 537
- (٩٢) Defrémery, I, p. 8 Voyage, طبعة ابن بطوطة
- (٩٣) شرحه 9-12 p
- (٩٤) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 366
- (٩٥) Defrémery, IV, p. 448-449 Voyage, طبعة ابن بطوطة
- (٩٦) شرحه 451 p
- (٩٧) - Pons Boigues, p. 328 329, No 284
- (٩٨) - Blachère, p. 350
- (٩٩) ابن بطوطة ، الروائع ، يد
- (١٠٠) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 366
- (١٠١) - Gibb, Ibn Battūta, p. 5
- (١٠٢) - Mz'k, Ibn Battūta, p. 15 — Gibb 'bn Battuta, p. 12, 13
- (١٠٣) شرحه 13 p
- (١٠٤) - Mzik, Ibn Battuta, p. 15
- (١٠٥) شرحه 413 sui p
- (١٠٦) - Schefer, Notice, p. 23
- (١٠٧) شرحه 23 24 p
- (١٠٨) - Ferrand, Relations, II, p. 432 433
- (١٠٩) Defrémery, IV, p. 281-282 Voyage, طبعة ابن بطوطة
- (١١٠) - Yamamoto, p. 103
- (١١١) - Yule, Cathay, I, p. 520, عن مزيك (Mzik, Ibn Battūta, p. 411, note 17)

- (١١٢) - Mzik, Ibn Batūta. p. 411, note 17
 (١١٣) شرحه note 17 and p. 412
 (١١٤) شرحه p. 411, note 17 and p. 413
 (١١٥) - Yamamoto, p. 116
 (١١٦) شرحه p. 133
 (١١٧) - Mzik, Ibn Batūta, p. 15, والترجمة p. 408-411; التحايل p. 411-413
 (١١٨) شرحه p. 15
 (١١٩) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ ، ص ١٤٣ - ١٤٤
 Voyage — ابن بطوطة I, p. 370-371 والترجمة I, p. 327-328 المتن Prolégomènes
 (الترجمة) p. 466-467 (المتن) p. 464 465 طبعة Defrémery, III,
 cf منتخبات ابن بطوطة ، الروائع ، الكراسة الأولى ، يا - يب
 (١٢٠) - De Goeje, Selections, p. 8 — Devic, Littérature arabe, p. 397-398
 (١٢١) - Gibb, Ibn Battūta, p. 12 — Mzik, Ibn Batūta, p. 14
 (١٢٢) خطاب بوشا من استنبول في مايو ١٨٦٢ ، راجع :
 ZDMG, 16, 1862, p. 756
 (١٢٣) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 366
 (١٢٤) - Gordlevski, Margoliouth, JRAS, 1939, p. 623 - جودت ، الأخرى
 Gos. Selj, p. 106, note 1
 (١٢٥) - Mzik, Ibn Batūta, p. 16 - Brockelmann, GAL, SB II, p. 366
 (١٢٦) - Moura, Viagens, p. V.
 (١٢٧) راجع أيضا الكتاب الذي ظهر أخيراً :
 Mahdi Husain, The Relila of Ibn Battūta, Gaekward's Oriental Series,
 No CXXII, Baroda. 1953 ;
 ففيه توجد أول ترجمة وافية بالانجليزية لرحلة ابن بطوطة في الهند وجزر الملديف وجزيرة سيلان .
 C. Collin Davis, JRAS, parts I, 2, 1957, p. 126 128 : راجع أيضا تقريره
 (١٢٨) Voysge, طبعة Defrémery, IV, p. 449 ابن بطوطة

الفصل السادس عشر

ابن خلدون والجغرافيا في المغرب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر

لعل من المناسب ونحن ننتقل من القرن الرابع عشر إلى القرن الخامس عشر في تحليلنا للأدب الجغرافي العربي أن نقف قليلاً لنلقى نظرة على الآراء الجغرافية لدى ابن خلدون ، ليس ذلك فقط لأن ابن خلدون قد ولد في عام ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ وأكمل مصنفه الأساسي في الربع الأخير من القرن الرابع عشر حوالي عام ٧٨٠ هـ = ١٣٧٨ وظل يضيف إليه إلى وفاته في عام ٨٠٨ هـ - ١٤٠٦ وبهذا يقف على الحد الفاصل بين قرنين ؛ أقول ليس لهذه الأسباب فحسب بل لأن « مقدمة » كتابه في التاريخ تستهدف وضع علم جديد في الحضارة البشرية وتعرض لنا خلاصة لجميع معارف العصور السالفة في مختلف الميادين ؛ وهي تعطى فكرة جلية عن المستوى الذي بلغه العلم في العالم الإسلامي في بداية القرن الخامس عشر وذلك على يد واحد من أبرز علماء الإسلام ، زد على هذا ان ابن خلدون إنما يمثل من ناحية أصله وسيرة حياته مزيجاً طريفاً لحضارة ذلك العصر^(١) .

فأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ينتمى إلى فرع من كندة كان يقيم قبل الإسلام بحضرموت ، وقد دخل أجداده الأندلس مع الفتح واستقروا بقرمونه واشبيلية وظهر من بينهم على ممر القرون عدد من رجال الإدارة والفقهاء ؛ وفي الأندلس اتخذ أول أجداده الاسم المغربي ابن خلدون . وبسقوط إشبيلية في عام ١٢٤٨ انتقل بنو خلدون إلى شمال إفريقيا واستقروا نهائياً بتونس وبها توفي في عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ والده ، الذي كان بدوره فقيهاً وإدارياً ، وذلك بالطاعون الذي اجتاح العالم آنذاك والذي شهده ابن بطوطة في موضع آخر . ولد ابن خلدون بتونس في عام ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ وبدأ وهو في سن مبكرة حياته المستقلة التي أحاط بها الكثير من القلق والاضطراب . وعلى الرغم من ميله الشديد إلى الدراسة فإن هذا لم يحل بينه وبين التقلب في المناصب الحكومية طوال حياته تقريباً فشغل عدداً من الوظائف الإدارية | 432 والكتابية قربته إلى حياة البلاط والدسائس السياسية التي شارك فيها أحياناً بنصيب وافر . وقد عاش ابن خلدون في جميع الإمارات التي تقاسمت المغرب آنذاك فإلى جانب تونس أقام بفاس متمتعاً بعطف السلطان أبي عنان من بني مرين وهو نفس ذلك السلطان الذي عاش في كنفه ابن بطوطة ، وقد مرت بنا قبل قليل إشارة ابن خلدون إلى هذا الأخير . وكان من بين أصدقاء ابن خلدون حين إقامته بغرناطة

* عما ظهر عن ابن خلدون من دراسات وأبحاث راجع كتاب عبد الرحمن بدوي « مؤلفات ابن خلدون » القاهرة ١٩٦٢ ؛ وراجع أيضاً « أعمال مهرجان ابن خلدون » ، القاهرة ١٩٦٢ . (المترجم)

الوزير المشهور والأديب الكبير ابن الخطيب الذي أصبح فيما بعد عدوًّا لدوداً له ؛ وفي عام ٧٦٥ هـ = ١٣٦٣ اختاره أمير غرناطة ليكون سفيره إلى ملك قشتالة . ولم يقدر لابن خلدون أن يستقر طويلاً في موضع ما فعند رجوعه إلى إفريقيا أخذ ينتقل بين عدد من المدن مثل بجاية وبسكرة وتلمسان وفاس ثم رجع إلى الأندلس . وقد استطاع مرة أن يخلو إلى نفسه بضعة أعوام وذلك ابتداء من عام ٧٧٦ هـ = ١٣٧٥ في بقعة شبه بدوية هي قلعة ابن سلامة من أعمال وهران^(٢) انقطع فيها للقراءة والتأليف عاملاً دون كلل في تحضير مقدمة تاريخه . وفي خلال زيارة له إلى تونس بهدف جمع المادة العلمية لتاريخه تبين له أن الإقامة بالمغرب لم تعد في مصلحته بسبب الاضطرابات السياسية فقرر مغادرة تونس إلى المشرق متعللاً بالحج وخرج من المغرب إلى غير رجعة في عام ٧٨٤ هـ = ١٣٨٢ . وبعد أن أقام بعض الوقت بالإسكندرية غادرها إلى القاهرة التي كانت تعد بحق مركز الثقافة الإسلامية في ذلك العصر ؛ وهنا تمتع ابن خلدون برعاية السلطان المملوكي برقوق وشغل في عهده وعهد ابنه السلطان فرج منصب قاضي قضاة المالكية لمرات عديدة ابتداء من عام ٧٨٦ هـ = ١٣٨٤ ؛ وأدى فريضة الحج لأول مرة في عام ٧٨٩ هـ - ١٣٨٧ . وقد لاحظه الدسائس في مصر فأعفى من منصبه القضائي ست مرات وأمضى بضعة أعوام انقضت عام ٧٩٧ هـ - ١٣٩٤ في عزلة بالفيوم كان من أسبابها الحزن العميق الذي أصابه بسبب نكبة أسرته في حادث غرق سفينة ؛ وفي بداية القرن الخامس عشر عرفته الشام أيضاً فقد كان في معية السلطان فرج عام ٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ عند خروجه لصد التتار وكان بدمشق حين حاصرها تيمورلنك ؛ وقد أخذ ابن خلدون طرفاً في الوفد الذي خرج للتفاوض في تسليم المدينة وأغلب الظن أن قصة مقابلته لتيمور وحديثه معه ، تلك القصة التي يرويها بين عدد من المؤرخين ابن عربشاه أيضاً ، قد أخذت نصيبها من المبالغة والتزويق ولو أن ذلك لا ينفي إمكان حدوثها^(٣) . وقد أذن له تيمور في الرجوع إلى مصر في مارس من عام ٨٠٣ هـ = ١٤٠١ فأمضى الأعوام الأخيرة من حياته بالقاهرة تارة يقال من منصبه كقاضٍ وطوراً يعاد إليه ؛ وأمام هذه اللوحة المتعددة الألوان لسيرة حياته لم يكن غريباً أن تحمل بعض مخطوطات ترجمته لسيرة حياته (Autobiography) عنوان « رحلة ابن خلدون في الغرب والمشرق »^(٤) * . وعلى الرغم من هذا فإن الكتاب في الحقيقة لا يمثل مصنفاً جغرافياً من نمط الرحلة المعروف لنا جيداً بل هو ترجمة لسيرة حياته بقلمه بكل ما يحمل هذا اللفظ من معنى ؛ وفيها يعرض ابن خلدون لجميع تنقلاته والحوادث التي مرت به دون أن يحاول إظهار شخصيته في ضوء ملاحظاته لها ، مما يشهد له حقاً بالأمانة وشرف الضمير . وقد عرفت هذه السيرة من وقت طويل في أوروبا بفضل ترجمة دي سلين De Siane^(٥) ؛ وهي توجد في معظم الأحوال ملحقة بمصنفه التاريخي وتساقي في جميع المخطوطات تقريباً إلى عام ٦٩٧ هـ = ١٣٩٤ ، وهذا

* تحمل الطبعة المصرية لهذا الكتاب (١٩٥١) عنواناً مغايراً هو « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » .
(المترجم)

التاريخ يتفق مع فترة انقطاعه بالفيوم . غير أن طه حسين تمكن من الرجوع إلى مخطوطة موجودة بالقاهرة تسوق العرض إلى عام ٨٠٧ هـ = ١٤٠٤ أى إلى العام السابق لعام وفاة ابن خلدون^(٦) * :

من هذا يتضح لنا أن الآراء الجغرافية لابن خلدون يجب استجلاؤها لا اعتماداً على « الرحلة » بل من مؤلفه التاريخي الضخم الذى يحمل عنواناً تغلب عليه الصنعة هو « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر »^(٧) . وقد ظهر حول هذا الكتاب عدد كبير من الأبحاث لا تخص فى الواقع مؤلفه التاريخي نفسه بقدر ما تتعلق بمقدمته المشهورة التى تبلغ فى واقع الأمر ثلث حجم الكتاب . وجميع هذه أبحاث تتفق فى جوهرها على أن ابن خلدون لا يرتفع فى القسم التاريخي من مصنفه إلى مستوى تلك النظريات التى يعرض لها فى المقدمة . أما الأقسام المختلفة لتاريخه فلبست متساوية بالطبع من حيث القيمة فقد لاحظ أمارى مثلاً وذلك فى كلامه عن صقلية أن ابن خلدون يكتفى بنقل المادة التاريخية دون أن يحصها شأنه فى هذا شأن المؤرخين الآخرين ولكنه يقدم لنا فى مقابل هذا مادة وفيرة فى تاريخ البربر لم تكن معروفة قبله^(٨) ، كما أن الفصل الذى أفرده لتاريخ الدويلات النصرانية فى أسبانيا يشرف الأدب العربى بأجمعه كما قال دوزى^(٩) . وإذا كان من المستحيل كما رأينا اتخاذ موقف سلبي تام من مصنفه التاريخي فإن مقدمة كتابه تمثل فى مجموعها أثراً لا مثيل له لا بالنسبة لعصره فحسب بل وبالنسبة للأدب العربى بأجمعه . وفيها يفسر ابن خلدون التاريخ لا على ضوء تطور النظم السياسية كما فعل اليونان بل على ضوء تطور الأوضاع الاقتصادية للمجتمع البشرى فى صوره البدوية والحضرية والمدنية . ولا يخلو من الطرافة من وجهة النظر الجغرافية أن نلاحظ أنه يوزع مادته التاريخية لا على أساس الترتيب الزمني الذى سار عليه المؤرخون بل على أساس الدول الحاكمة فى كل قطر مراعيّاً فى ذلك الترتيب الجغرافي^(١٠) .

أما فيما يتعلق بالجغرافيا خاصة فإن « المقدمة » مخيبة للأمل شيئاً ما ، ففيها نبصر ذلك الانفصام المعهود فى الأدب العربى بين المادة الجغرافية الواقعية من ناحية والاستنتاجات النظرية المبنية عليها من ناحية 434 أخرى ؛ وحتى فى هذا المجال الأخير فإن ابن خلدون يبدو ناقلاً متبعاً بصورة لم تكن متوقعة من شخص فى مثل ذكائه . ولعله مما يسترعى النظر حقاً أن الفصل السادس من المقدمة المكرس للعلوم وتصنيفها والذى يشغل بالتقريب ثلث المقدمة لا يرد فيه أى ذكر للجغرافيا ، بل وأكثر من ذلك لا يرد فيه أى ذكر للتاريخ أو لذلك العلم « الحديد » فى « العمران » الذى وضع ابن خلدون مقدمته قصداً لتفصيل القول فيه^(١١) . وابن خلدون فى تصنيفه للعلوم يفتقر إلى الأصالة^(١٢) فهو تارة يسير على النمط اليونانى فى صورته العربية^(١٣) وطوراً يتبع تصنيف « إخوان الصفاء »^(١٤) : وهو يقسم العلوم إلى مجموعتين

* تناول ابن خلدون النسخة الأولى بالتعديل والتنقيح والزيادة وأضاف إليها تاريخ حياته إلى نهاية ٨٠٧ هـ أى إلى ما قبل وفاته ببضعة أشهر . وقد حفظت لنا من هذه الرواية الأخيرة مخطوطتان قيمتان بمكتبات استنبول ومنهما تفرعت نسخة دار الكتب المصرية التى يشير إليها المؤلف وهى التى طبعت مؤخراً بالقاهرة كما أشرنا فى الملاحظة السابقة لهذه . (المترجم)

كبيرتين هما « العلوم النقلية الوضعية » و « العلوم الحكيمية الفلسفية » ؛ فالمجموعة الثانية تشارك فيها جميع الشعوب وهي تراث البشرية بأجمعها أما الأولى فهي خاصة بالمسلمين وحدهم وأداتها هي اللغة العربية وهو يقصد بها أساساً ما يمكن أن يطلق عليه اسم العلوم الشرعية . ويتفق تقسيمه بوجه عام مع التصنيف الثلاثي Trivium و « الرباعي » quadrivium للعلوم السائد في العصور الوسطى وينطبق في واقع الأمر على نفس ذلك التصنيف الذي نجده في معجم المصطلحات المشهور « مفاتيح العلوم »^(١٥) . وبما أن ابن خلدون يختتم قسم الرياضيات بالكلام على الفلك (« الهيئة ») فهو يضم إلى هذا الأخير « علم الأزياج »^(١٦) الذي يتضمن المعلومات في الجغرافيا الرياضية ؛ وعلى هذا فلا يوجد مجال للكلام على الجغرافيا الطبيعية والوصفية في تصنيف ابن خلدون . وعلى الرغم من ذلك فلم يكن في مقدور ابن خلدون أن يعارض الواقع ومن ثم فقد اضطر إلى أن يفرد قسماً في مقدمته ليعرض فيه المذهب التقليدي عند الجغرافيين العرب .

وهذا القسم بدوره مثار لخصية أمل لا تقل عن سابقتها لأن مادته لا تخرج عن نطاق المعلومات المعروفة لنا جيداً ، وهو يمثل « المقدمة الثانية » من « الفصل الأول » من « الكتاب الأول » من مصنفه في التاريخ^(١٧) . ول هذه « المقدمة الثانية » في الجغرافيا « تكملة »^(١٨) يليها « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا »^(١٩) . والفصل الأول من مقدمة ابن خلدون مكرس برمته لمسائل « العمران » عامة^(٢٠) ؛ وتبحث « المقدمة الأولى » من هذا الفصل « في أن الاجتماع الإنساني ضروري »^(٢١) ، ثم تليها « المقدمة الثانية » في الجغرافيا بعنوان « في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم » . ويبدأ ابن خلدون كلامه عن الجغرافيا بالوصف المعتاد لشكل الأرض ، وهو يعتبرها كرة يمثل اليابس نصف سطحها فقط ويمثل المعمور مقدار الربع من هذا اليابس وينقسم بدوره إلى سبعة أقاليم ؛ وكل واحد من هذه الأقاليم ينقسم بدوره أيضاً إلى عشرة أجزاء . ويبدو من كلامه أن مصدريه الأساسيين هما بطليموس والإدريسي ، وهو يشير بصراحة إلى ذلك^(٢٢) ففي سرده للبحار والأنهار الذي سبق لنا معرفته جيداً نقول ابن خلدون ما نصه : « وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه والشريف في كتابه رجاء وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية واستوفوا من ذلك ما لاحتاجة لنا به لطوله ولأن عنايتنا في الأكثر إنما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر وبالأوطان التي للعرب من المشرق »^(٢٣) .

* ما لا شك فيه أن ابن خلدون لم يطلق اسم « المقدمة » على الكتاب المعروف لدينا تحت هذا الاسم ولم يعتبره مطلقاً كتاباً مستقلاً بل اعتبره دائماً « الكتاب الأول » من مصنفه التاريخي « العبر » . (المترجم)

* لم يلبث ابن خلدون أن عدل عن ذلك وأكمل هذه النبذة بتفصيلات كثيرة تحت عنوان « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا » وكان من الواجب عليه حذف هذه الألفاظ ولكن يلوح أنه غفل عن ذلك فظلت مثبتة في جميع النسخ الخطية . ومن الملاحظ أن ابن خلدون قد تناول المسودة الأولى لمصنفه بالتنقيح والإضافة ، وفاته أحياناً أن يحذف أو يعدل ما يتعارض مع هذه الإضافات في المسودة الأولى فجاءت المسودات التالية مشتملة في بعض المواطن على الأصل والزيادة معاً مع تناقضهما فيما يقرانه . وهذا ما حدث فعلاً عند كلامه في الجغرافيا . (المترجم)

وبلى « المقدمة الثانية » تحميه لهذه المقدمة الثانية » بعنوان « فى أن الربع الشمالى من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبى وذكر السبب فى ذلك » . وفى هذه التكملة^(٢٤) يعرض ابن خلدون للنظرية التى انتشرت فى الأدب الجغرافى العربى ومؤداها خلو البلدان الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء من السكان لإفراط الحر ، فيقف منها موقف المتشكك محاولاً أن يوفق بين تفكيره المتسم بالواقعية والنظريات المتوارثة عن العلم اليونانى فيقول : « ومن هنا أخذ الحكماء بخلاف خط الاستواء وما وراءه . وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة والأخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك ؟ والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية^(٢٥) إنما أدام البرهان إلى أن فساد التكوين فيه قوى بإفراط الحر والعمران فيه إما ممتنع أو ممكن أقل . وهو كذلك فإن خط الاستواء والذى وراءه وإن كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جداً »^(٢٦) . ويختتم ابن خلدون هذه « التكملة » بالألفاظ الآتية : « ولرسم بعد هذا الكلام صورة جغرافياً كما رسمها صاحب كتاب رجار ثم نأخذ فى تفصيل الكلام عليها . . . إلخ »^(٢٧) . 436 ويجب أن نبادر إلى القول بهذه المناسبة أنه لم يتم العثور فى أية واحدة من مخطوطات كتابه على هذه الخارطة المزعومة^{(٢٨)*} .

أما « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا » فيقدم وصف الأرض بتقسيمها إلى سبعة أقاليم وتقسيم كل إقليم إلى عشرة أجزاء . وبعد أن يوضح ابن خلدون القاعدة الفلكية لهذا التقسيم ويصف الأقاليم بإيجاز يشير مرة أخرى إلى مصدره الأساسى وذلك بقوله :

« ونحن الآن نوجز القول فى ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار فى كل جزء منها ونحاذى بذلك ما وقع فى كتاب « نزهة المشتاق » الذى ألفه العلوى الإدريسى الحمودى لملك صقلية من الأفرنج وهو رجار بن رجار عندما كان نازلاً عليه بصقلية بعد خروج صقلية من إمارة مالقة . وكان تأليفه للكتاب فى منتصف المائة السادسة وجمع له كتباً جمّة . »^(٢٩) .

ثم يسرد ابن خلدون عقب هذا مباشرة أسماء الكتب التى أشار إليها الإدريسى بألفاظه محتفظاً بنفس الترتيب الذى وردت به فى « نزهة المشتاق » ؛ ومن العسير القول بأنه عرفها جميعها معرفة مباشرة . أما وصفه للأقاليم فلا يمثل شيئاً جديداً بالنسبة لنا إذ أنه يقدم مقتطفات فقط من مصنف الإدريسى المذكور . وهو قد يغتنم الفرصة أحياناً ليضيف شيئاً ما كمعلوماته عن جزر المحيط الأطلنطى^(٣٠) وعن جوف إفريقيا^(٣١) ، هذا على الرغم من أن مادته كانت دون شك أحفل وأكثر تفصيلاً فى مجالات كثيرة من معلومات الإدريسى . وقد رجع ابن خلدون أحياناً إلى مصادر أخرى غير الإدريسى مثل ابن سعيد^(٣٢) أو « كتاب المشترك » لياقوت^(٣٣) ، غير أن هذا لا يحدث إلا نادراً زد على ذلك أن ما ينقله منهم يرد عادة

* لقد تم العثور عليها وهى موجودة فى مخطوطة واحدة فقط من المخطوطات العديدة لكتاب « العبر » هى المخطوطة رقم ٢١٠٦ طلعت بدار الكتب المصرية (راجع ص ٥٧ من كتاب « مؤلفات ابن خلدون » لعبد الرحمن بدوى ، القاهرة ١٩٦٢) . (المترجم)

عن طريق الإدريسي نفسه . ولإعطاء مثال جيد لهذا نذكر موقفه من قصة رؤيا الواثق التي كانت سبباً في رحلة سلام التبرجمان ، فهو يقول إن هذه الرواية موجودة « في حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا هذا »^(٣٤) .

كل هذا يضطرنا إلى الاعتراف بأن القسم المكرس لتصنيف العلوم ووصفها في « المقدمة » والقسم الخاص بالجغرافيا لا يقدمان شيئاً ذا أهمية بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافي . ولحسن الحظ فإن هذين القسمين لا يستنفدان جميع المادة الجغرافية عند ابن خلدون ذلك أن كتابه يعد مصدراً جغرافياً هاماً^(٣٥) ففي فصول أخرى من « المقدمة » تتناثر أفكار تتميز بالأصالة والجددة حتى بالنسبة للأدب الجغرافي العربي نفسه . وفي هذا المجال فإن « المقدمات » الأخرى التي تلي « المقدمة الثانية » المتضمنة للقسم الجغرافي تمثل أهمية لا ريب فيها . « فالمقدمة الثالثة » مثلاً تبحث « في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر »^(٣٦) وتبحث الرابعة « في أثر الهواء في أخلاق البشر »^(٣٧) والخامسة « في اختلاف أحوال العمران في الحصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم »^(٣٨) . كل هذه المسائل التي تبحث في أثر الإقليم^(٣٩) والوسط الجغرافي^(٤٠) في حياة البشر لم يحدث أن أخضعت قبل ابن خلدون لفحص منظم ، فهو في هذا المضمار يجب أن يعد مجدداً بلاريب ومثل أفكاره هذه لم تظهر في أوروبا إلا بعد مضي عدة قرون وذلك ابتداء من مونتسكيو Montesquieu^(٤١) .

أما بالنسبة للجغرافيا الاقتصادية فإن عدداً من أقسام « المقدمة » يمتاز أيضاً بقيمة لا تجارى وهذا يصدق مثلاً على الفصل الثاني « في العمران البدوي والأهم الوحشية والقبائل »^(٤٢) ، وعلى الفصل الرابع « في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال »^(٤٣) ويصدق كذلك على الفصل الخامس « في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال »^(٤٤) . واهتمام ابن خلدون بالأهم شبه المتحضرة يمثل واقعة نادرة في الأدب الجغرافي العربي ، وبوسع علماء الاثنوغرافيا المعاصرين أن يجدوا مادة قيمة في تصنيفه للأجناس كما وأن القسم المفرد للبربر من تاريخه قد تم الاعتراف به بحق كأقيم ما في مصنفه . ويمكن القول بأنه لا علماء الأجناس ولا علماء الاقتصاد ولا علماء الاجتماع قد فرغوا من دراسة ابن خلدون من وجهات نظرهم المختلفة ، كما أن كلا من المؤرخ وعالم الجغرافيا يستطيع الكشف عن الكثير لإهام لدى ابن خلدون . وعلى الرغم من ذلك فإنه يجب القول مرة ثانية بأن ابن خلدون لا يحتل مكانة ممتازة في التطور العام للأدب الجغرافي العربي كما أنه لم يترك أى أثر في هذا الميدان على الأجيال التالية له .

أما من ناحية أسلوبه الكتابي فإن ابن خلدون أبعد من أن يعد نموذجاً يحتذى ، وكما هو الحال مع جميع معاصريه فإنه تنعكس فيه بوضوح آثار عصر التدهور التي تبدو في غلبة السجع والحسنات البديعية والتشبيهات والاستعارات المبالغ فيها ، بل إن لغة ابن خلدون نفسها لم تسلم أحياناً من الألفاظ

العامية والإفراط في استعمال الألفاظ المحدثه كما أنها لا تخلو من الأخطاء النحوية ؛ وليس من النادر أن يحيط النموذج ببعض ألفاظه من وقت لآخر . وإذا حدث وان عد ابن خلدون يوماً ما مؤلفاً كلاسيكياً بمصر وسوريا فإن مرد هذا إلى التدهور الذي بلغه الأدب العربي حينما ظهرت الطبعة الأولى « للمقدمة » . وقد كفلت له أفكاره الجديدة التي عبر عنها في لغة مغايرة للغة عصره نجاحاً أدبياً دام حيناً من الدهر^(٤٥) ، ولكن هذه المكانة أخذت تهبط منذ بداية القرن العشرين حينما انتق العلماء العرب المعاصرون مع الرأي القديم لدى سلين^(٤٦) وأماري^(٤٧) القائل بعدم اعتباره كاتباً كلاسيكياً وذلك رجعاً من الطرافة الكبرى التي تتمتع بها نظرياته^(٤٨) .

ومن خلال سيرة حياة ابن خلدون نستطيع أن نتيين إلى أي حد ظلت الروابط الثقافية قائمة بين المغرب ومصر في القرن الخامس عشر رجعاً من انقسام العالم الإسلامي إلى عدد من الوحدات السياسية ؛ ويبدو أنه كان باستطاعة العلماء أن ينتقلوا دون أي جهد من بلد إلى آخر وأن يقيموا أمداً طويلاً أو قصيراً في مختلف الأماكن دون الإحساس بتغير كبير في الوسط . وما يصدق على العلماء يصدق أيضاً على الرحالة العاديين فقد ظل الاتصال مع الأندلس مثلاً قائماً طوال القرن الخامس عشر وإلى آخر أيام دولة غرناطة فاتجه عدد من الرحالة من المشرق صوب الأندلس يدفعهم إلى ذلك مجرد حب الاستطلاع أو كما كان عليه الحال من قبل « طلب العلم » الذي كانت مراكزه لا تزال مضيئة هناك* .

ولاحدى تلك الرحلات التي اتجهت من مصر صوب المغرب والأندلس في النصف الثاني من القرن الخامس عشر قام بها عبد الباسط بن خليل الملقب^(٤٩) ، ووالده هو خليل الظاهري^(٥٠) أحد كبار الإداريين بدولة المماليك ومؤلف المدخل الإداري الجغرافي الذي سيأتي الكلام عليه في موضعه . وإذا أمكن أن نستدل من نسبته على أنه ولد بالشام ، وذلك في عام ٨٤٤ هـ - ١٤٤٠^(٥١) ، إلا أنه نال تعليمه بمصر وأحسن وهو في سن مبكرة بميل خاص إلى دراسة الطب . ولما كان المغرب في ذلك العهد لما يزل محتفظاً بشهرته في مجال دراسة الطب فقد عقد عبد الباسط العزم وهو لا يزال في ريعان شبابه على السفر إليه لتوسيع معارفه . وتحت ستار التجارة غادر الإسكندرية على ظهر سفينة جنوية في عام ٨٦٦ هـ = ١٤٦٢ فزار تونس وطرابلس وتلمسان ووهران . ومن وهران أخذ سفينة جنوية أيضاً في ديسمبر من عام ١٤٦٥ فنزل بمالقه وغادرها إلى بلش Veles فالحمّة حتى بلغ غرناطة التي كانت تمثل منذ عهد طويل المركز الوحيد الذي تقي للإسلام بأسبانيا . ويبدو أن الطريق الذي سلكه قد أصبح منذ وقت

* بمناسبة انتهاء كلام المؤلف على ابن خلدون أرى أن ألفت النظر إلى أن ابن خلدون قد ذكر في ترجمته لسيرة حياته « التعريف » أن تيمورلنك كلفه بأن يكتب له وصفاً دقيقاً لبلاد المغرب ففعل ذلك « في مختصر وجيز يكون قدر ثلثي عشرة من الكرايس المنصفة القطع » (ص ٣٧٠) ؛ غير أن هذا الأثر لم يصل إلينا . وعلى أية حال فإن القصة في حد ذاتها تقف دليلاً جديداً على اهتمام ابن خلدون بالجغرافيا . (المترجم)

440 طويل الطريق الوحيد إلى غرناطة فقد سلكه قبله ابن بطوطة منذ أكثر من قرن وذلك في عام ٧٥٢ هـ = ١٣٥١ (٥٢) - ١٣٥٢ ، كما سلكه بعد ثلاثين عاماً من عبد الباسط وذلك في عام ١٤٩٤ - ١٤٩٥ ؛ أى عقب سقوط غرناطة ، الرحالة الألماني هيرونيم مونتسر H. Muntzer ووصفه في كتابه « الرحلة الإسبانية » Iter Hispanicum (٥٣) . ولم يقدر لعبد الباسط أن يحقق حلمه بزيارة قرطبة على الرغم من أن التجار المسيحيين والمسلمين كانوا يتنقلون من منطقة إلى أخرى بحرية تامة ؛ وكان السبب الذى حال دون ذلك هو أن رحالتنا قد أصيب بجراحة بالغة (٥٤) في معركة شخصية وحين برئ من جرحه أخذ طريق العودة فبلغ وهران في فبراير من عام ١٤٦٦ ، ثم مصر في مايو من عام ٨٧١ هـ = ١٤٦٧ ؛ وقد عمر عبد الباسط طويلاً وتوفي قبل وقت قصير من فتح العثمانيين لمصر وذلك في عام ٩٢٠ هـ = ١٥١٤ متمتعاً بتقدير الجميع له كفقيه من فقهاء الحنفية وبسمعة واسعة كمخبر في الطب (٥٥) . ومن بين المؤلفات العديدة التى خلفها لنا يحتل أهمية خاصة كتابه في التاريخ « الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم » الذى يعالج تاريخ الفترة من عام ٨٤٤ هـ = ١٤٤٠ إلى زمن المؤلف ، والذى يولى فيه اهتماماً خاصاً لسير مشاهير الرجال خاصة العلماء الذين التقى بهم (٥٦) . وقد كشف المستشرق ليڤى ديلافيدا Levi della Vida منذ عهد غير بعيد بمكتبة الفاتيكان (٥٧) عن قطعتين من تاريخه هذا احدهما بخط يد المؤلف نفسه ؛ وفيهما يروى المؤلف بعض قصص أسفاره وحوادث المعاصرة له . وقد نشر ليڤى ديلافيدا بعض الشذوذ المتعلقة بالأندلس (٥٨) ومن مراجعتها يستطيع القارئ أن يخرج بنتيجة مؤداها أن مادته ليست بذات قيمة كبيرة بل إنها فقيرة ، كما أن أسلوبه يغلب عليه الجفاف . وعلى الرغم من أن المؤلف كان يشغل أثناء وضعه لمصنفه مركزاً رفيعاً وكان قد نال درجة من الثقافة تفوق المتوسط فيما يبدو إلا أنه لم يكن عالماً كبيراً أو ذا نظرات في تحليل المسائل السياسية ولو أنه تمتع بدرجة فائقة من قوة الملاحظة في شابه ؛ ويبدو من أسلوبه أنه سريع الدهشة سريع التصديق ، مع ميل واضح إلى الغريب والنادر شأنه في هذا شأن معظم معاصريه . وهو يعبر عن نفسه بجمل عامة ؛ ومع أن ملاحظاته تتميز بالحيوية إلا أنها تتصف بالضحالة ولا تنفذ إلى أعماق ما شاهده أو تذكره . أما غرناطة فتذكره قبل كل شيء بدمشق التى عرفها فيما يبدو جيداً ؛ وهو كثيراً ما يعود إلى هذه المقارنة بين المدينتين دون أن يورد أمثلة ملموسة لأوجه الشبه بينهما . وعلى الرغم من كل هذا فإن سرده يتصف بالأمانة وباليساطة بل ويكتسب قيمة كبيرة لأنه يترجم عن أحاسيسه المباشرة ، تلك الأحاسيس التى يستشعرها أى عربى قادم من المشرق حين يجد نفسه أمام جمال الطبيعة في الأنندلس وأمام آثارها الفنية القيمة . ويمكن من خلال عرضه أن يستشف ذلك الشعور بالأسى الذى يستولى على قلب كل مسلم مخلص وهو يبصر تقدم « الكفار » التدريجى نحو الجنوب ويستشعر في دخيلة نفسه أن أيام العرب في تلك البلاد قد أصبحت معدودة (٥٩) . أما ميزة

المصنف الأساسية فتمكن في البساطة الشديدة التي غلبت على لغته ، فعبد الباسط يميل أحياناً إلى التعبيرات العامة ويذكر بوجه عام بمؤرخي مصر المعاصرين له خاصة ابن إياس^(٦٠) .

وقبل قليل من رحلة عبد الباسط وذلك في عام ٨٦٦ هـ - ١٤٦١ وبمدينة جدة^(٦١) أتم مغربي معجماً جغرافياً يكاد يكون الحلقة الأخيرة في تلك السلسلة من المعاجم الجغرافية التي بلغت أوجها في اسم ياقوت ؛ ذلكم هو كتاب « الروض المعطار في خبر الأقطار » لعبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري^(٦٢) الذي كشف عنه منذ فترة غير بعيدة ونشره ليثي بروفنسال Levi-Provençal^(٦٣) . وعلى الرغم من أن اسم الكتاب واسم مؤلفه قد ثبتا بصورة قاطعة إلا أنه يرتبط بالتاريخ الأدبي لهذا الأثر لغز كبير لا يزال ينتظر الحل المقنع الشافي . وتاريخ إتمام هذا الأثر كما يظهر في إحدى مخطوطات الكتاب يوكد تاريخ وفاة المؤلف الذي يرجعه حاجي خليفة إلى عام ٩٠٠ هـ = ١٤٩٤^(٦٤) ؛ غير أن حاجي خليفة يذكر إلى جانب هذا المصنف مصنفاً آخر يحمل نفس العنوان ويكاد يتفق مع المصنف الأول في اسم مؤلفه ، غير أنه خلو من الإشارة إلى أي تاريخ . ومما يزيد في تعقيد المسألة وجود إشارات إلى كتاب يحمل نفس العنوان لدى مؤلفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر مثل القلقشندي والمقرئزي ؛ ومن الملاحظ أن الشذور التي اقتبسوها منه تتفق مع المواضع المعينة في المخطوطات التي كشف عنها ليثي بروفنسال . واعتماداً على أن أسرة الحميري قد تمتعت بنفوذ كبير على ممر قرون طويلة بمدينة سبتة وأن اسم عبد المنعم كان من الأسماء المفضلة إلى الأسرة^(٦٥) فإن ليثي بروفنسال قد جنح إلى افتراض وجود مسودتين للمعجم تملو إحداهما الأخرى من الناحية الزمنية وترجعان إلى شخصين من أسرة واحدة يحملان في ذات الوقت إسماء واحداً . والمسودة الموجودة في متناول الأيدي ترجع إلى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ويمكن من مقارنة الشذور المتبقية منها الحزم بأنها تعيد بلا تغيير يذكر مسودة سابقة عليها ترتفع فيما يغلب على الظن إلى نهاية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ؛ ومما يؤكد صحة هذا الفرض أن مادتها كما يبدو من مراجعة الفهارس المعروفة لنا لا تعالج الحوادث التالية لذلك التاريخ^(٦٦) . أما المؤلف نفسه فلا توجد لدينا عنه أية معلومات ، ويمكن الافتراض بأنه قد ولد بمدينة سبتة كبقية أفراد أسرته وأن وجوده بجدة كان بغرض الحج . وفي إحدى مخطوطات الكتاب أضيف إلى اسم المؤلف نعت 442 « عدل »^(٦٧) مما يشير إلى أنه كان يعمل في توثيق العقود (Notary) ؛

أما هدف الكتاب بل وجميع طابع المعجم فإنه ينعكس بصورة واضحة في مقدمته التي بدأها بالاستهلال البديعي المعهود فيقول :

« قال أبو عبد الله محمد بن أبي محمد عبد الله بن عبد المنعم الحميري : الحمد لله الذي جعل الأرض قراراً ، وفجر خلخالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ألزمتها استقراراً ، ومنعتها اضطراباً وانتثاراً ، جعلها قسمين فياني وبحارا ، وأودع فيها من بدائع الحكم وفنون المنافع ما بهر ظهوراً وانتشاراً ، وأطلع في آفاقها

شموساً وأفجاراً ؛ جعلها ذلولاً ، وأوسعها عرضاً وطولاً ، وأمتع بها شيئاً وشباباً وكهولاً ، وعاقب عليها غيُوثاً وقبولاً ، وأغرى بالمشى في مناكبها تسويغاً للنعمة الطولى ، وتتميماً لإحسانه الذى نرجوه فى الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن صار له قلب وسمع وبصر وفهم منقولاً ومعقولاً ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ؛ أحمله على جزائل آلائه التى والى إمدادها ، وأحصى أعدادها ، وعم بها البرية وبلادها ؛ وصلى الله على نبيه الكريم الذى زُوِيَتْ له الأرض فرأى غايتها ، وأبصر نهايتها ؛ وأخبر أن ملك أمته سيبلغ ما رآه ، وينتهى إلى حيث قدره الخالق وأنهاء .

وبعد فلئن قصدت فى هذا المجموع ذكر المواضع المشهورة عند الناس من العربية والعجمية ، والأصقاع التى تعلقت بها قصة ، أو كان ذكرها فائدة ، أو كلام فيه حكمة ، أو لها خبر طريف ، أو معنى يستملح أو يستغرب ويحسن لإيراده ، أما ما كان غريباً عند الناس ، ولم يتعلق بذكره فائدة ، ولا له خبر يحسن لإيراده ، فلا ألم بذكره ، ولا أتعرض له غالباً استغناءً عنه واشتغالا لذكره ؛ ولو ذهبت إلى إيراد المواضع والبقاع على الاستقصاء لطال الكتاب ، وقلّ إمتاعه ؛ فاقتصرن لذلك على المشهور من البقاع وما فى ذكره فائدة ونكتفى عما سوى ذلك ، ورتبته على حروف المعجم لما فى ذلك من الإحاض المرغوب فيه ، ولما فيه من سرعة هجوم الطالب على اسم الموضع الخاص من غير تكلف عناء ولا [بحشم تعب ؛ فقد صار هذا الكتاب محتويّاً على فنيين مختلفين : أحدهما ذكر الأقطار والجهات ، وما اشتملت عليه من النعوت والصفات ؛ وثانيها الأخبار والوقائع والمعاني المختلفة بها ، الصادرة عن مجتليها ؛ واختلست ذلك ساعات زمانى ، وجعلته فكاهة نفسى ؛ وأنصبت فيه فكرى وبدنى ؛ ورصنته حتى انقاد للعمل ، وجاء حسب الأصل ، فأصبح طارداً للهموم ، ملقياً للغموم ، وشاهداً بقدرة القيوم ؛ مغنياً عن مؤانسة الصَّحْب ، منهاً على حكمة الرب ؛ باعثاً على الاعتبار ، مستحضراً لخصائص الأقطار ؛ مشيراً لآثار الأمم وأحداثها ، مشيراً إلى وقائع الأخبار وأنبأها ؛ ثم إنى قيسته بالكتاب الأخبارى المسمى بنزهة المشتاق فوجدته أعظم فائدة وأكثر أخباراً وأوسع فى فنون التواريخ وصنوف الأحداث مجالا حتى فى وصف البلاد فإنه إنما ذكر نبذةً منها وشيئاً قليلاً فى مواضع مخصوصة معدودة ، بل إنما عظم حجمه بما اشتمل عليه من قوله : « من فلانة إلى فلانة خمسون ميلاً أو عشرون فرسخاً ، ومن فلانة إلى فلانة كذا وكذا » ، أما الخبر عن الأصقاع مما يحسن إيراده ويلدُّ سماعه ، من خبر طريف ، أو وصف يستغرب أو يستملح ، فإنما يوجد فيه فى مواضع قليلة معدودة ، إلى غير ذلك من عسر وجدان الناظر فيه بمطلوبه بأول وهلة بل بعد البحث والتفتيش :

وجعلت الإيجاز فى هذا الكتاب قصدى ، وحرصت على الاختصار جهدي ؛ حتى جاء نسيج وحده ، مليحاً فى فنه ، غريباً فى معناه ، مبهجاً للنفوس المتشوّقة ، ومذهباً للأفكار المحرقة ؛ مؤنساً لمن استولى عليه الانفراد ورغب عن معاشرته الناس ، ومع هذا فقد لُصِمْتُ نفسى على التشاغل بهذا الوضع

الصادق عن الاشتغال بما لا يغنى عن أمر الآخرة والمهم من العلم المزلّف عند الله تعالى وقلت ؛ هذا من شأن البطالين وشغل من لا يهتمه وقته ، ثم رأيت ذلك من قبيل ما فيه ترويح لهذه النفوس ، ومن حسن تعليلها بالمباح لمن ينشط إلى ما هي به أعنى ؛ ثم هو مهتبع يسلكه الناس ، واعتنى به طائفة من العلماء ، وقبده جماعة من أهل التحصيل ، فلا حرج في الاقتداء بهم بل أقول : أعوذ بالله من علم لا ينفع ، وأستغفره وأستقيله وأسأله التجاوز عن الهفوات ، والصّفح عن الاشتغال بما لا يفيد في الآخرة ، فيارب عفواً 444 عن اقتراف ما لا رضى لك فيه فأنت على كل شيء قدير ! » (٦٨) .

ولا يخلو من طرافة أن نلاحظ من سياق عبارة المقدمة كيف أن مؤلفاً من أهل القرن الخامس عشر يجد من الضروري بالنسبة له أن يبرر اشتغاله بالمسائل الجغرافية مستشهداً في ذلك بالآيات القرآنية شأنه في هذا شأن مؤلفي القرنين التاسع والعاشر ، بل وأن نلاحظ كذلك كيف يحاول هذا المؤلف عن طريق الحشية غير المستترة أن يبرر اشتغاله بالعلوم « الدنيوية » شأنه في هذا شأن ياقوت تماماً . ويشبه « الروض المعطار » معجم ياقوت في أنه يمثل مجموعة من التعليقات التي تتفاوت طولاً وقصراً وتعالج الكلام عن المدن والمواضع والجبال والأنهار والأقطار مرتبة وفق حروف المعجم ؛ وهو يمثل في ذات الوقت رسالة في الجغرافيا الوصفية ومجموعة من « العجائب » Mirabilia وتاريخاً سياسياً لفترة معينة من الزمان وخزينة أدبية تحوى مجموعة كبيرة من النثر والشعر . ورواياته عن المشرق العربي مع أنها كبيرة العدد إلا أنها لا تبلغ حجم مادته عن إفريقيا والمغرب والأندلس .

ونظراً لما وجهه من نقد شديد للإدريسي فن العسير الاعتقاد بأنه يعتمد كثيراً على مصنف الأخير ، غير أن الفحص والتحليل أثبتا أن مؤلفنا قد نقل من « نزهة المشتاق » القسم الذي يعالج الكلام على أسبانيا برمته ؛ وهذا أمر له أهميته إذ أننا نجد أنفسنا والحالة هذه أمام متن جديد للإدريسي يمكن أن يمثل أهمية كبرى عند تحقيق كتاب « نزهة المشتاق » وإعداده للنشر . وبنفس القدر نقل الحميري من « كتاب المسالك والممالك » للبكري ، وإذا وضعنا جيداً في اعتبارنا أنه لم يتم حتى الآن الكشف عن القسم الذي يعالج الكلام عن الأندلس من ذلك الكتاب فإن قيمة الشذرات من كتاب الحميري التي تعالج هذا الموضوع ترتفع بشكل ملحوظ . أما المصدر الثالث الذي اعتمد عليه الحميري اعتماداً أساسياً في هذا المجال فهو رسالة مجهولة المؤلف من القرن الثاني عشر معروفة لنا جيداً ، أعنى « كتاب الاستبصار » . هذا وتمثل المادة التاريخية لدى الحميري في كثير من الأحيان أهمية ليست بالضئيلة ، وقد دلل ليثى بروفنسال على أن روايته عن معركة الزلاقة الفاصلة في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى تعتبر من أوفى وأفضل ما دون في هذا الصدد (٦٩) ؛ كما حدث وأن أشرنا في حينه إلى فضل الحميري في حل المشكلة المتعلقة برحلة إبراهيم بن يعقوب الطرطوشى إلى بلاد الصقالبة . والحميري بالطبع كاتب نقالة شأنه في هذا شأن بقية المؤلفين العرب وإليه يرجع فضل كبير في حفظ عدد من الروايات لمؤلفين مختلفين لولاه لكانت في حكم المفقودة ؛

وقد نال مصنف الحميري حظوة كبيرة لدى المؤلفين المتأخرين ولو أن هذا يقف بالطبع عند حد بلاد المغرب وحدها بالتقريب ، فإلى جانب من ذكرناهم في سياق الحديث ممن استعملوا مسودته الأولى نقل عنه أيضاً في القرن السابع عشر المقرئ ، وفي القرن الثامن عشر مقديش^(٧٠) بل وحتى في القرن التاسع عشر⁴⁴⁵ الناصري السلاوي^(٧١) ؛ وكل هذا يقف بالطبع دليلاً على قيمة المادة التي جمعها الحميري . ولا يفوتنا أن نشير في خاتمة كلامنا عنه إلى أن ليثي بروغنسال الذي يدين له العلم بتعريفنا بهذا الأثر قد جمع القسم الخاص بالأندلس ونشره مع ترجمة فرنسية وتعليقات علمية جعلت من هذه الطبعة مرجعاً قيماً لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة الأندلس ، بحيث يلعب بالنسبة لتلك البلاد نفس الدور الذي يلعبه معجم ياقوت بالنسبة للعالم الإسلامي .

وإذا أمكن اعتبار الحميري آخر مؤلف لمعجم جغرافي كبير فإن ثمة مغربياً آخر هو ليون الإفريقي المشهور يكاد يعد بوجه عام آخر المؤلفين الكبار في محيط الجغرافيا العربية ببلاد المغرب . وإذا تناولنا المسألة من الناحية الشكلية فنحسب فلعل الكلام عنه لا يدخل في دائرة موضوع بحثنا ، ذلك أن مصنفه الأساسي معروف فقط في ترجماته الأوروبية في حين أن أصله العربي مفقود تماماً ولكنه في أغلب الظن قد وجد بالفعل ، وهذه الصفة فهو ينتمي إلى الأدب العربي ؛ وقد كشف الآن عن المؤلف مواطنوه المغاربة واعترفوا به بل إن مراكشياً معاصراً أفرد له منذ وقت غير بعيد دراسة خاصة^(٧٢) .

وفي سيرة حياته شبه بعيد بسيرة حياة الإدريسي غير أن انتميه الغريب يشير إلى ما أحاط بها من تعقيد كبير^(٧٣) ؛ فهو معروف في الأقطار العربية باسم الحسن بن محمد الوزان الزياتي ولكن اسمه يرد في مصنفاته التي وضعها بأوروبا على أنه يوحنا الأسد الغرناطي معرباً بهذا الاسم الذي أطلق عليه هناك وهو Iohannes Leo Eliberitanus أو Africanus أى يوحنا ليون (الأسد) الأيبيري أو الإفريقي^(٧٤) . وقد ولد فيما يبدو بغرناطة وذلك قبل أمد قصير من سقوطها في أيدي النصارى عام ١٤٩٢ ؛ وكما هو الحال مع عدد كبير من الأسر المسلمة فقد انتقل أهله عقب ذلك إلى مراکش فشب مؤلفنا بمدينة فاس التي أخذ منها نسبته أى الفاسي . ومنذ نحو عام ١٥١١ صحب عمه في رحلة دبلوماسية ساقته إلى تمبكتو عن طريق دره^(٧٥) .

ومن المؤكد أنه نال حظاً جيداً من التعليم وتمرس في فنون الكتابة الدواوينية ، كما أنه قد اضطلع لا أقل من ثلاث مرات بأعباء سفارات هامة في جنوبي مراکش لأسرة بني وطاس^(٧٦) الحاكمة بفاس ، وهي واحدة من آخر فروع أسرة بني مرين وعرفت بتشجيع الثقافة والارتفاع بمستوى الحضارة في المغرب الأقصى وإلى عصرهم الذي يمكن أن يعد فترة انتقال بين تاريخ مراکش الوسيط وتاريخها الحديث يرجع الوصف الدقيق المفصل لمدينة فاس الذي دونه يراع ليون الإفريقي^(٧٧) . وفيما بعد قام بأعباء مماثلة لهذه⁴⁴⁶ لدى الشريف محمد^(٧٨) ؛ وقد استطاع خلال رحلاته العديدة أن يتعرف بصورة جيدة

على إفريقيا الداخلية والشمالية^(٧٩) ولا تزال الدوافع التي حفزته لمغادرة مراكش في عام ١٥٢١هـ - ١٥١٥ والضرب في نواحي الأرض غير واضحة المعالم ، شأنها في هذا شأن جل التفاصيل المتعلقة بسيرة حياته^(٨٠) . ولعل الدافع الأساسي من بينها كان رغبته في أداء فريضة الحج ، أو ربما ساقه إلى ذلك اعتبارات أخرى . ومهما يكن من شيء فإنه يجب الاعتراف بأن عدم البلاد التي زارها أمر لم يعهد من قبل فهو قد زار على حد قوله مصر وبلاد العرب وإيران والشام وأرمينيا و« بلاد التتار » ؛ والأرجح أنه يقصد بهذه الأخيرة منطقة تبريز . وكان بمكة ومصر في عام ٩٢٣هـ = ١٥١٧ ، وهو عام يمثل لحظة حاسمة في تاريخ تلك الأقطار هي لحظة فتح السلطان سليم العثماني لمصر ؛ ولكن مؤلفنا لا يذكر شيئاً عن ذلك^(٨١) . وقد بلغ الوزن في تجواله استنبول التي أخذت منذ ذلك الحين تجتذب إليها بشكل مطرد أنظار العرب الذين أخذت أوطانهم تدور في فلك الدولة العثمانية بطريق مباشر أو غير مباشر . ومن المستحيل تحديد تواريخ تحركاته بصورة دقيقة ، وهي على أية حال قد انتهت نهاية محزنة فيينا هو في طريق العودة إذ وقع عند جزيرة جربة في أسر قراصنة من جزيرة صقلية ساقوه إلى نابلي في حوالي عام ١٥٢٠ ثم إلى رومه حيث أهدوه مع زرافة إلى البابا ليون العاشر (١٥١٣ = ١٥٢١)^(٨٢) ؛ وكان هذا البابا يحمل في حياته العادية اسم جيوفاني مديتشي Giovanni Medci وهو ابن لورنسو الفاجر أمير فلورنسه وقد عرف لا باعتناقه المذهب النزعة الإنسانية المستنيرة (einlightened humanism) كما فهمته أفضل عقليات إيطاليا لذلك العهد فحسب ، بل عرف أيضاً باطلاعه على المسألة الشرقية (la question d'Orient) حتى أنه بحث مع فرنسوا الأول ملك فرنسا في عام ١٥١٥ مشروع حملة صليبية ضد الترك^(٨٣) ؛ وقد كان من جراء هذا أن زاد الاهتمام بالشرق في إيطاليا بحيث لم يكن في المستطاع ألا يسترعى العلامة المغربي نظر البابا ليون العاشر . وقد اضطّر المغربي إلى أن يعتنق المسيحية ويتخذ لنفسه اسم ولي نعمته وهو جيوفاني ليوني ؛ ويسر له البابا سبل الاشتغال بتدريس اللغة العربية والتفرغ للنشاط العلمي برومه وبولونيا .

وكان لإمامه الحيد باللغة الأسبانية التي كانت أشبه ما تكون بلغته القومية^(٨٤) أن عاونه هذا سريعاً في التعرف على بيئته الجديدة وإجادة الإيطالية واللاتينية بصورة مرضية . ومنذ عام ٩٣٠هـ = ١٥٢٤ نجده يؤلف معجماً عربياً - عبرياً - لاتينياً من أجل طبيب يهودي لا تزال مخطوطته محفوظة بالاسكوريال^(٨٥) . وفي العاشر من مارس عام ١٥٢٦ أتم الترجمة الإيطالية لكتابه الذي وضعه أصلاً باللغة العربية والذي يسترعى اهتمامنا بوجه خاص وهو « وصف إفريقيا »^(٨٦) . وفي عام ١٥٢٧ ألف 447 باللاتينية كتاباً جامعاً في سير ثلاثين من مشاهير العرب في الفلسفة والطب Libellus de viris quibusdam illustribus apud Arabes^(٨٧) نشره هوتينغر Hottinger في عام ١٦٦٤ ، وكان أول سفر من نوعه يقدم معلومات ذات أهمية بالنسبة لأوروبا في تاريخ تطور العلوم عند العرب ؛ وعقب هذا

بقليل ، وربما كان ذلك في عام ١٥٢٨ ، تمكن بطريقة ما من الإفلات راجعاً إلى إفريقيا^(٨٨) وبما لبث أن اطرَح المسيحية إلى دينه القديم ؛ وقد توفى الوزان على ما يبدو بتونس في عهد آخر بنى حفص وذلك في عام ١٥٥٢^(٨٩) .

هذا وقد وجدت مزاعم تقول بأن الأصل العربى « لوصف إفريقيا » كان موجوداً لدى المؤلف عندما وقع في الأسر ، وقيل فيما بعد بأن مخطوطته قد وجدت طريقها إلى أحد محبي الكتب (bibliophile) وهو بنلى V. Pinelli ولكنها فقدت في الطريق إلى نابلى عند هجوم القراصنة^(٩٠) . وعلى الرغم من كل ذلك فإن القول بأنه قد وجد مصنف تام في يد ليون الإفريقى عند وصوله إلى إيطاليا قول ضعيف وأغلب الظن أن الأمر اقتصر على قطع متفرقة وتخطيط ذى طابع عام . وماسينيون Massignon بوجه عام لا يعتقد في وجود مخطوطة عربية للكتاب ويعتبر القول بذلك محض خطأ^(٩١) بل إنه يرى خلافاً لذلك أن ليون الإفريقى لم يدون الكتاب باللغة العربية وإنما صاغ مذكراته وملاحظاته باللغة الإيطالية رأساً^(٩٢) . ولعل هذا أقرب إلى الواقع خاصة وأن المؤلف نفسه يذكر على وجه التحديد في المسودة الإيطالية أنه قد دون مصنفه من الذاكرة وذلك بعد مضى عشرة أعوام لم تقع فيها عينه على مصنف لمؤرخ عربى واحد^(٩٣) . ولم تكن ذاكرته تسعفه دائماً ، وعلى الرغم من أن الوصف الجغرافى عنده يتميز بالدقة الشديدة إلا أن مادته التاريخية وتواريخه ليست في المستوى المرجو^(٩٤) ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه لم يكن بمقدوره أن يراجعها في مظانها .

ولعل إقامة المؤلف بأوروبا قد انعكست في طابع الكتاب نفسه إذ ليس من اليسير ضمه إلى النمط المعروف في « المسالك » كما فعل ماسينيون^(٩٥) أو إلى نمط « الرحلة » الذى نال الخطوة لدى أهل المغرب^(٩٦) ، فهو في الواقع قد كُتب من أجل الأوروبيين ولو أن مؤلفه علامة عربى ويعتمد على مادة عربية^(٩٧) ؛ ولعل معرفة المؤلف بعدد من اللغات قد مكنته من الاطلاع على مؤلفات العالم الكلاسيكى ومؤلفات العصور الوسطى الأوروبية ، وربما عاونه في ذلك علماء النزعة الإنسانية من بين الإيطاليين (Italian Humanists) ؛ وتشير الدلائل إلى أنه قرأ لبعض المؤرخين اللاتينيين^(٩٨) .

ومن الطريف إشارته إلى بلينيوس Plinius في الكتاب التاسع من « وصفه » الذى يتحدث فيه عن المعادن والنبات والحيوان* ؛ فهو يذكر في مطالعه بأنه سيتكلم عما يوجد منها بإفريقيا « باستثناء كثير من الأشياء التى أوردها بلينيوس الذى كان بحق رجلاً ممتازاً ذا مذهب فريد . وهو كثيراً ما وقع في الخطأ عند معالجته الكلام على أشياء بسيطة تتعلق بإفريقيا ، غير أن مرد ذلك ليس لعيب في نفسه بل لما حصل عليه من معلومات خاطئة ولرغبته في أن يقلد من كتبوا قبله . وعلى أية حال فإن

448

* نقل مؤلف الكتاب هذه الفقرة عن كتاب ميلى Mieli ولكن سقط سهواً لفظ « الأنهار » الذى يرد قبل لفظ « المعادن » (راجع ص ٥٣٨ من الترجمة العربية لكتاب الدوميلي « العلم عند العرب ») . (المترجم)

الخطأ في أمر صغير لا يكفي لمحو الصفات الطيبة التي من شأنها أن تضفي رونقاً وبهاءً على ما يتصف به المجموع من جمال وزينة (٩٩) .

أما الأهداف التي وضعها المؤلف نصب عينيه فيمكن استجلاؤها من خاتمة مصنفه حيث يقول : « هذا على وجه العموم ما أبصرته من الأشياء الغربية التي علقت بذهني أنا ، جيوفاني ليوني ، عن جميع إفريقيا التي عبرتها من أقصاها إلى أقصاها . وقد دونت بجد واجتهاد ومن يوم لآخر تلك الأشياء التي رأيتها بعيني رأسي وبدأ لي أنها تستحق الذكر . وما لم أره بنفسى بسبب ضيق الوقت أو صعوبة الطريق فقد جهدت في الحصول عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم . ثم بذلت جهدي في جمع شتات هذه المسادة وصياغتها في شكل كتاب انتهيت من تدوينه أثناء وجودي برومه وذلك في اليوم العاشر من شهر مارس لسنة ١٥٢٦ من ميلاد المسيح » (١٠٠) .

وينقسم المصنف وفقاً للمتن الإيطالي إلى تسعة كتب يعالج الأول منها الكلام على إفريقيا بصورة عامة وعن سكانها من البدو الرحل ؛ أما الثاني فيصف نواحي مراكش ومدنها وجبالها بينما أفرد الثالث للكلام على مدينة فاس والرابع لتلمسان والخامس لبجاية وترنس والسادس لطرابلس ، أما السابع فلدول السودان والثامن لمصر بينما يقدم التاسع وصفاً موجزاً للأثمار والحيوان والأسماك والطيور والمعادن والنباتات الموجودة بإفريقيا (١٠١) . وقبلما يشير ليون الإفريقي إلى مصادره وهو حين يفعل ذلك يوردها في أغلب الظن من الذاكرة ؛ ومن بين المؤلفين المعروفين لنا يرد لديه ذكر المسعودي والبكري والإدريسي وابن الخطيب وابن بشكوال (١٠٢) ؛ ومن الجلي أن معرفته بالمؤلفين المغاربة كانت أقرب وهذا أمر طبيعي . وأكثر نقوله من مؤلف يدعى ابن الرقيق دون سائر المؤرخين والجغرافيين وإليه يدين ليون الإفريقي بتصنيفه الأصيل للقبائل العربية والبربرية وبقدر كبير من المعطيات المختلفة بل بالإطار العام لمصنفه وذلك من الناحيتين التاريخية والاثنوغرافية . ومن المؤسف أن هذا المؤلف لم يتم التعرف عليه حتى الآن 449 على وجه اليقين (١٠٣) ؛ ويفترض ماسينيون أنه عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر (١٠٤) ؛ وعلى كل حال فإن قيمة كتاب ليون الإفريقي لا تكمن في ما ينقله عن الغير بل في ملاحظاته الشخصية التي تشكل القسم الأساسي من مصنفه . وهو قد احتفظ في مصنفه الأوروبي بروحه العربية التي تتمثل في القصص المنحولة التي يسردها ليستخرج منها الموعظة والعبرة شأنه في هذا شأن مؤلفي المجموعات الأدبية التي اشتهر بها الأدب العربي (١٠٥) ؛ أما منهجه في التأليف الذي فصل الكلام عليه في الفقرة الختامية من الكتاب فيؤكد في الواقع جميع من انقطعوا لدراسة مصنفه . وكتاب ليون الإفريقي هو البحث الوحيد في جغرافيا مراكش المتميز بالأصالة والترتيب الذي ظهر بأوروبا في القرن السادس عشر ؛ وكان في الحقيقة فتحاً جديداً بالنسبة لذلك العصر حتى ولو بسبب تقديمه لما يقرب من أربعائة اسم لمواضع جغرافية مع معطيات دقيقة وجديدة (١٠٦)

وقد لقي المصنف انتشاراً واسعاً فقد أعقب صهور الطبعة الإيطالية في عام ١٥٥٠ ظهور الترجمتين اللاتينية والفرنسية في عام ١٥٥٦ ، ثم ترجم في حوالى عام ١٦٠٠ إلى الإنجليزية وتلى هذا ترجمته إلى لغات أخرى وظهور عدد كبير من الطبعات استمر إلى القرن التاسع عشر حين تُوِّج ذلك المجهود بطبعتي شيفير Schefer الفرنسية (١٨٩٦ - ١٨٩٨) وبراون Brown الإنجليزية (١٨٩٦) العلميتين^{(١٠٧)*} . ولا يزال البحث الرئيسى في دراسة ليون الإفريقى هو ذلك البحث الممتاز الذى دونه قلم لويس ماسينيون Louis Massignon منذ عام ١٩٠٦ بعنوان « مراکش في السنوات الأولى من القرن السادس عشر كما وصفها ليون الإفريقى » *Maroc dans les premières années du XVI^e siècle. Tableau Géographique* d'après Léon l'Africain, Alger, 1906 . وقد كان لليون الإفريقى تأثير قوى على العلم الأوروبى^(١٠٨) فنذ بداية النصف الثانى من القرن السادس عشر على وجه التقريب ، وعلى ممر ثلاثة قرون بعد ذلك لم يستطع أن يتجاهله كاتب أو عالم يود الكلام على إفريقيا ولو أنهم كانوا بكل أسف لا يعتمدون دوماً على متن الكتاب الإيطالى بل على الترجمة اللاتينية التى لا يمكن بأية حال الاطمئنان إليها بصورة تامة^(١٠٩) . أما تقديرهم للمؤلف فقد كان على الدوام تقديراً عالياً^(١١٠) ، ففي القرن الثامن عشر كتب عنه مؤلف أول بحث جدى عن الإدريسى وهو المستشرق الألمانى هارتمان Hartmann يقول : « إن ما يتصف به مصنفه من ميزات أمر معروف للجميع ؛ ولن أتردد في تكرار ما قاله الباحث قبل من أن كتابه كنز من الذهب ولولا وجوده بين يدي لحفيت على أشياء كثيرة »^(١١١) . وهذا القول نفسه رده بعد قرنين من ذلك واحد من خيرة العارفين بالجغرافيا التاريخية ومحرر الطبعة العلمية « لوصف إفريقيا » *Description de l'Afrique* المستشرق الفرنسى شيفير Schefer فقال « إن ما يورده ليون الإفريقى من تفاصيل في وصف المغرب يتميز بالدقة الشديدة » ، بل ولقد أثبتت الأبحاث الأخيرة صدق قوله حتى في تلك المواضع التى أثارت بعض الشك فيما مضى^(١١٢)

450

غير أن ما قبل في الثناء عليه لم يمنع العلماء من الوقوف موقف النقد من بعض النقاط المتعلقة إلى حد ما بظروف عمله ؛ فمثلاً يفترض المستشرق الإيطالى أمارى أن ما أملاه ليون الإفريقى قد تم جمعه بعد رجوعه إلى إفريقيا^(١١٣) بحيث لم يستطع تنقيح المسودة النهائية ؛ وإلى جانب هذا اضطر أمارى إلى الاعتراف بأن ليون الإفريقى لم يعرف تاريخ صقلية معرفة جيدة^(١١٤) . أما شيفير فيتفق مع عدد كبير من العلماء في القول بأن ليون الإفريقى « لم ير كل ما وصفه ولم يكن دائماً شاهداً عياناً لما يحكيه »^(١١٥) . ورغم كل هذا فيجب الموافقة على أنه « آخر الجغرافيين العرب المشهورين في تلك البلاد »^(١١٦) . وسنلتقي

* إن أحدث طبعة لمصنف ليون الإفريقى هى الترجمة الفرنسية الحديثة بقلم أبولار Epaulard التى ظهرت بهاريس في جزئين في عام ١٩٥٦ ؛ هذا وتوجد للكتاب ترجمة أسبانية ظهرت في عام ١٩٥٢ . (المترجم)

بالطبع بعدد كبير من المؤلفين المغاربة في محيط الجغرافيا غير أن مصنفاتهم تعالج نقاطاً منفردة أما المصنفات الجامعة من طراز مصنف ليون الإفريقي فإن هذا كان آخر العهد بها .

ومن العسير القول بأن القرن السادس عشر في إفريقيا الشمالية كان فقيراً في مصنفاته ولو أنه يجب الاعتراف بأن مستواها لا يتجاوز الحد الأوسط بأية حال ، ويكفي فقط أن نشير في هذا الصدد إلى ظاهرة في محيط الكارتوغرافيا (فن رسم المصورات الجغرافية) تقف دليلاً على أن مذهب الإدريسي كان لا يزال حياً ومعمولاً به ، على الأقل فيما يتعلق بالاحتياجات العملية .

كان نمط الخارطات السائد إلى القرن العاشر هو النمط الذي غلب عليه توزيع المناطق وفقاً للأقاليم ؛ ثم أعقب هذا ظهور الخارطات البحرية التي كانت تبين عليها أحياناً خطوط الطول والعرض ، مما يثبت وجود تأثير غربي بل ويشير إلى المحاكاة الصرفة . ولقد كانت الخارطات من هذا النوع في الحقيقة أمراً غريباً على العرب^(١١٧) ولا يخلو من مغزى أن تظهر لأول مرة في حوض البحر الأبيض المتوسط وبعض مناطق البحر الأسود ، أى في ذات المنطقة التي وجدت فيها نماذجها الأولى ؛ هذا على حين أنها لا تقابلنا إطلاقاً في الأقطار الساحلية الأخرى التي نفذ إليها العرب كسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج الفارسي على الرغم من أن هذه السواحل الأخيرة كما سنرى قد شهدت في هذا العصر بالذات انتعاشاً غير معهود لنمط جديد في الأدب الجغرافي هو الجغرافيا الملاحية .

وأقدم الخارطات البحرية المعروفة لنا محفوظة بمكتبة الأمبروزيانا Ambrosiana بميلانو^(١١٨) وتمثل قطعة مكونة من ثلاث ورقات لخارطة للبحر الأبيض المتوسط^(١١٩) ؛ ويمكن الحكم من الكتابة المغربية على أنها قد عملت في الجزء الغربي من شمال إفريقيا لعل له سببه أو بجايه حيث وجد الملاحون من مختلف الشعوب . وليست بهذه الخارطة أية إشارات خارجية تبين التاريخ الذي عملت فيه ؛ ومن المحتمل أنها ترجع إلى القرن الرابع عشر . ومما يزيد في تأكيد اختلافها عن بقية الخارطات العربية هو أن أبعادها 451 مقدرة بالأميال مما ينهض دليلاً جديداً على أنها إيطالية الأصل . وتبدو صلابة مقاومة الطابع العربي في الخارطات المغربية في احتفاظها بالأسماء العربية^(١٢٠) ؛ وفيما يتعلق بهذه الخارطة بالذات فيبدو أنها تعتمد في الأصل على خارطة عربية أما الأخطاء الموجودة بها فيمكن إرجاعها إلى طبيعة الكتابة العربية . وبهذا يمكن القول بأن الخارطة تنتمي إلى النمط الإيطالي من حيث الرسم وتخطيط السواحل ولكنها من جهة أخرى تحمل تسميات ذات طابع مستقل فيما يتعلق بساحل إفريقيا وبنجوبى أسبانيا وشرقها^(١٢١) . ولم تكن هذه الخارطة هي النموذج الوحيد الذي قدمه لنا العرب في فن الكارتوغرافيا على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

فابتداء من منتصف القرن السادس عشر ازدهر بتونس اسم أسرة الشرفي الصفاقسي التي قدمت في غضون جيلين عدداً من مصوري الخارطات (Cartographers) ؛ وقد وفق نالينو في أن يتتبع

دراسة ثمانية أو تسعة أجيال من هذه الأسرة إلى نهاية القرن الثامن عشر ولدوا جميعهم بصفافس وعاش معظمهم بها وبالقيروان والقاهرة أحياناً ، مشغولين وفق تقاليد الأسرة بفن رسم المصورات الجغرافية ثم اشتغلوا فيما بعد بدراسة الرياضيات والفلك . وقد أخرج لنا هذا « المصنع » (Workshop) ، إن صح هذا التعبير ، في الفترة ما بين عامي ١٥٥١ و ١٦٠١ أربعة نماذج لخارطة كبيرة للعالم تمثل في جوهرها صورة منقحة لخارطة الإدريسي (وذلك في السنوات ١٥٥١ و ١٥٧٢ و ١٥٧٩ و ١٦٠١) (١٢٣) . وهناك اختلاف بين من بحثوا في النشاط العلمي لهذه الأسرة حول أسماء واضعي هذه الخارطة خاصة وأن بحث نالينو (١٢٣) بقي لمدة طويلة بعيداً عن متناول الأيدي ولم تعرف نتائجه إلا بطريق غير مباشر . وأكبر هؤلاء سناً هو علي بن أحمد بن محمد الذي وضع في عام ٩٥٨ هـ = ١٥٥١ أطلساً في ثمانى ورقات تصور في الغالب سواحل البحر الأبيض المتوسط ولا تزال مخطوطته محفوظة بالمكتبة الأهلية ببافيس ؛ ولعل خارطة العالم للشرقي الموجودة بأكسفورد والتي يرجع تاريخها إلى عام ٩٧٩ هـ = ١٥٧١ - ١٥٧٢ (١٢٤) ذات صلة بهذا الأطلس على نحو ما . هذا وقد اختلف الباحثون في وصف الخارطات المختلفة ولكن تركيب الأطلس العام واضح بالنسبة لنا (١٢٥) فيتلو التقويم الشمسي خارطة للقبلة (١٢٦) مبين عليها مواقع جميع البلدان بالنسبة للكعبة ، ويلى هذا خارطة عامة للعالم (١٢٧) . وفي هذه الخارطة الأخيرة يبصر كرامرس تأثيراً ما لخارطة البيروني (١٢٨) ، غير أن المؤلف نفسه يصرح بأنه قد خضع لتأثير الإدريسي (١٢٩) وهو أمر مفهوم بالنسبة لنا . ثم يتبع هذا خارطات للمناطق المختلفة كسواحل أسبانيا وجزر البليار وجنوبي فرنسا وأجزاء من سواحل إيطاليا تضم قورسिका وسردينيا ، والساحل المقابل لإفريقيا . ويلى هذا مجموعة من الخارطات تبين سواحل البحر الأسود وبحر آزوف ثم الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى فالشام ومصر إلى برقة . وثمة خارطة منفصلة تبين بلاد اليونان وجزر الأرخبيل وكريت وساحل إفريقيا المقابل لها . أما الخارطة الأخيرة فتصور برقة وطرابلس وتونس . وقد أضيف إلى الأطلس كملحق جدول بين التقويم الزراعي (Agricultural Calender) لكل شهر .

إن تركيب هذا الأطلس البورتولان Portulan ليسير بوضوح إلى أنه قد عمل من أجل قبطان كان يشتغل بالملاحة الساحلية في البحرين الأبيض المتوسط والأسود إلى سواحل القريم ؛ ثم إن ذكر الشهور بأسمائها الأوروبية والسريانية إلى جانب العربية يسمح لنا بالافتراض بأن هذا الملايح كان يمر على موانئ أوروبا المسيحية وموانئ الشام على السواء ؛ ومما يؤكد أن الأطلس قد عمل من أجل أهداف التجارة لا من أجل أهداف عسكرية أن التخصيمات الساحلية غير مبينة عليه كما هو الحال مع الخارطات العثمانية لذلك العصر والتي سيمر بنا الكلام عليها في حينه (١٣٠) . هذا وقد تم رسم الأطلس في عام ١٥٥١ أى في العصر الذي كانت تتمخض فيه السفن الأوروبية عباب المحيط في حرية كاملة وهى في طريقها إلى الصين وأمريكا ، وكذلك حين نجح عدد من الملاحين في الدوران حول الأرض ؛ غير أن هذه الحقائق الهامة

لا نجد انعكاساً ما في خارطة العالم الموجودة بهذا الأطلس (١٣١) . والتأثير الغربي الوحيد على مؤلف الأطلس يبدو فقط في إطلاقه لفظ « طبله » على أطلسه ، وهو مأخوذ من اللاتينية الدارجة Tabula أى اللوحة (١٣٢) ؛ ويبدو أنه قد استعاره من اللغة الدارجة المتداولة آنذاك في جميع أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط (lingua franca)

ولعل مؤلفنا هذا هو المسئول عن وضع صورة منقحة لخارطة العالم آنفة الذكر نفسها ، وترجع هذه الأخيرة إلى عام ١٥٧٩ وقد كشف عنها نالينو في مجموعة شخصية برومه ؛ ويرى ميلر K. Miller أن المؤلف قد جهد في هذه الخارطة ليجمع بين الخارطة البحرية القطلونية (Catalonian) وخارطة الإدريسي ويخرج من الاثنين خارطة بحرية عربية جديدة (١٣٣) .

وقد ترسم خطاه على ما يبدو ابنه محمد بن علي الشرقي الصفافسي الذي تنسب إليه خارطة للعالم معروفة في نسخة واحدة ترتفع إلى عام ١٥٠٩ هـ = ١٦٠١ (١٣٤) ، ولكن حدث لسهوما أن صورها ميلر Miller في قطعتين نسب إحداهما إلى عام ١٥٩٢ والأخرى إلى عام ١٦٠١ (١٣٥) . وتكاد أهمية هذه الخارطة تنحصر أساساً في أنها مصورة على قطعة واحدة من جلد شاة تنقصها الأرجل فقط ، وهي نفس الطريقة المتبعة في رسم الخارطات الإيطالية والفرنسية لذلك العهد (١٣٦) . ووصف أماري لهذه الخارطة بأنها « بدیعة » (chiarmante) (١٣٧) لا يقوم على أساس لأن بلوشيه Blochet الذي درسها عن كثب لا يجد فيها ما يستحق الاهتمام ؛ وهي تعتمد على الإدريسي فيما يتعلق بنصفها الشرقي ولو أنها لا تورد جميع أسماء المواضع ، هذا بالإضافة إلى نقصها الفني الملحوظ ؛ وبهذا فهي لا يمكن أن تصلح « كبورتولان » Portulan (١٣٨) . أما فيما يتعلق بنصفها الغربي الذي يبين حوض البحر الأبيض المتوسط مع سواحل الأطلس والبحر الأسود فإنه يبدو عليه بوضوح تأثير الخارطات البحرية القطلونية (١٣٩) 453 مما يقف دليلاً جديداً على أن الخارطة قد نشأت في وسط ملاحي مختلط . ومن دراسته لهذه الخارطة يستنتج كونراد ميلر الخبير الكبير في الكارتوغرافيا العربية أن خارطة الإدريسي الأولى قد وجدت ليس فقط على شكل سفر من سبعين ورقة بل وأيضاً على شكل خارطة حائطية كبرى تم تطبيقها بصورة عملية بعد مرور أربعائة سنة على ظهورها (١٤٠) . وقد يكون هذا الاستنتاج صحيحاً ولكنه يقف دليلاً في رأي بلوشيه على تدهور المدرسة الكارتوغرافية التونسية (١٤١) التي زاولت نشاطها لبعض الوقت بجد كي تستطيع أن تفي بحاجة عملائها من قباطنة السفن المختلفة التي كانت تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط (١٤٢) .

ونشاط فن الكارتوغرافيا بالمغرب حينذاك لم يكن بطبيعة الحال أمراً غريباً ؛ ورغما من الأمثلة التي سقناها فإن التأثير الأوروبي قد وجد طريقه إليها بصورة لا تقبل الشك . ولنقدم مثالا طريفاً لهذا التأثير في شخصية عالم مغربي ، وهو إن لم يمس كثيراً علم الجغرافيا إلا أنه يقف دليلاً صريحاً على نشاط التبادل

الثقافي في ذلك العصر^(١٤٣) ؛ ذلك العالم هو حاجي أحمد التونسي الذي يلدو من نسبته أنه تونسي الأصل ولكنه درس بفاس واهتم منذ صباه بالعلوم خاصة الجغرافيا ، ثم سقط أسيراً في أيدي المسيحيين واشتراه رجل فاضل من أهل البندقية شجع له بالاستمرار في دراساته فتمت في تفهم الجغرافيين الأوروبيين وفحص خارطاتهم بدقة ومن ثم واثته فكرة وضع خارطة للعالم المعروف آنذاك يجمع فيها بين معطيات أبي الفدا وقواعد المساقط الكارتوغرافية (Projection) للرياضي والكوزموغرافي أوروئتيوس فينايوس Orontius Finaeus (١٤٩٤ - ١٥٥٥) التي طبقتها في وضع خارطته للعالم عام ١٥٣٦^(١٤٤) . ونزولا على رغبته مولاه فقد سجل الأسماء الجغرافية باللغة التركية التي لم تكن لغته الأصلية ، غير أن عدداً من الألفاظ العربية وجدت طريقها إليها^(١٤٥) . وقد أتم التونسي عمله في عام ٩٦٦ هـ - ٩٦٧ هـ = ١٥٥٨ - ١٥٦٠ في عصر السلطان سليمان القانوني وكان مهيباً للطبع في عام ١٥٦٨ ، ولكن لظروف معينة لم يتم طبعه^(١٤٦) . ويوجد بمكتبة القديس مرقص بالبندقية كليشه لهذا الرسم محفور على أربع لوحات (أوست على وجه الدقة^(١٤٧)) من خشب التفاح؛ وفقط في عام ١٧٩٥ أنجزت على أساسه أربع وعشرون نسخة (un tirage de vingt-quatre épreuves)^(١٤٨) ظهرت مع رسالة توضيحية موجزة بقلم العالم الماروني الشهير السمعي S. Assemani (١٧٥٢ - ١٨٢١) الأستاذ بجامعة بادوا Padua^(١٤٩) .

459 | ونظرة عاجلة إلى المصور تبين لنا أن التونسي قد استعار من فنايوس ليس فقط طريقة المساقط والشكل الأصل للخرطة على هيئة قلب وكذلك خط الزوال الأساسي الذي يمر بجزر الكناري بل استعار منه أيضاً الجزء الأكبر من تخطيطه لسواحل القارات والجزر . ومع هذا فيجب إقراراً للحق الاعتراف بأن عدد المصطلحات الجغرافية لديه أغنى بكثير كما وأنه أجرى عدداً من التصحيحات على سلفه بعضها هام للغاية مثال ذلك تصحيحه لسواحل أمريكا خاصة الأجزاء الشمالية منها^(١٥٠) ؛ وهكذا يقف التونسي في محيط الكارتوغرافيا العربية نسيج وحده لا سلف له ولا خلف . ويمكن عيه الأساسي في استعماله للأصل الذي اعتمد عليه بصورة آلية تغلب عليها الشكلية ، وسرى عند انتقالنا للكلام على الخارطات التركية المعاصرة له أنه قد قامت لدى الأتراك مدرسة مستقلة استعارت مادتها بصورة أوسع وعرفت كيف تهممها وتمثلها بأصالة واضحة .

وفي القرن السادس عشر اتسعت وقويت صلات المغرب بالدولة العثمانية بصورة نشيطة ؛ وكان من جراء خضوع الجزائر لسلطان العثمانيين (١٥١٩) أن أحست مراکش بخطر مباشر يهدد حريتها خاصة وأن أفراد أسرة الشرفاء قد طلبوا العون من الأتراك منذ أن استولوا على مقاليد الأمور بمراكش ، وذلك لوضع حد للتطاحن من أجل العرش بين أفراد الأسرة نفسها وللقضاء على دسائس البلاط . ونتيجة لهذا فقد دخل الطرفان في علاقات دبلوماسية ونشطت السفارات الذاهبة إلى استنبول حتى أخذت طابعاً منتظماً في بعض الأحيان^(١٥١) ؛ ومن المحتمل جداً أن ليون الإفريقي نفسه قد قام برحلته إلى استنبول

لأغراض سياسية ولو أنه تعوزنا الوقائع لإثبات ذلك ؛ وبعض هذه السفارات تردد صداه في الأدب خلال قرون متتالية حتى القرن التاسع عشر فعرف بهذا نمط الرحلة انتعاشاً كبيراً وظهر إلى جانب وصف الحج ضرب جديد من الرحلة إلى عاصمة « سلطان الأرضين وخاقان البحرين » :

ومن المؤلفات المعروفة لنا من هذا الضرب الأخير مصنف التمجروتي الذي يرجع إلى نهاية القرن السادس عشر ويحمل عنواناً طناناً هو « النفحة المسكية في السفارة التركية » . ومعلوماتنا عن المؤلف نزره (١٥٢) فقد ولد أبو الحسن علي بن محمد التمجروتي* حوالى عام ٩٦٧هـ = ١٥٦٠ (١٥٣) بقرية نمجروت الصغيرة من أعمال وادى درعه بجنوبي مراكش (١٥٤) ونال حظاً من التعليم المعهود لذلك العصر ثم التحق على ما يبدو كاتباً ببلاد الشريف أحمد المنصور السعدى (٩٨٦هـ - ١٠١٢هـ = ١٥٧٨ - ١٦٠٣) بفاس : ونظراً لأن الشريف اعتلى العرش بمعاونة الأتراك فقد دخل في مغامرات دبلوماسية واسعة النطاق حاول أن يقحم فيها بعض دول أوروبا الغربية ؛ وهو وإن لم يخضع خضوعاً رسمياً للأتراك إلا أنه ارتبط معهم بعلاقات وثيقة حتى اتخذت السفارات بين الجانبين صورة منتظمة . وإحدى تلك السفارات بعث بها المنصور في عام ٩٩٨هـ - ١٠٠٠هـ = ١٥٨٩ - ١٥٩١ إلى السلطان مراد الثالث (٩٨٢هـ - ١٠٠٣هـ = ١٥٧٤ - ١٥٩٥) ، وكان على رأسها التمجروتي (١٥٥) الذي ضم إليه الشريف أحد كتاب الدولة وهو الشاعر الفشتالى (توفى في عام ١٠٢١هـ - ١٦١٢) (١٥٦) الذي كثيراً ما نوه به التمجروتي في وصف رحلته هذه بضروب الإستحسان والتجديد لتفوقه في فنون الأدب . واختيار التمجروتي لرئاسة هذه السفارة لم يحدث اعتباطاً فقد ذهب أخوه من قبله إلى استنبول (١٥٧) في مهمة مماثلة على ما يبدو .

والكتاب لا يزال معروفاً إلى الآن في ترجمته الفرنسية التي عملها على أساس مخطوطة واحدة (١٥٨) هنرى دى كاسترى Henri de Castries وظهرت عقب وفاته التي حدثت في عام ١٩٢٧ ؛ وكان على معرفة جيدة بهذا العصر وهذه الموضوعات . ويجب القول بصراحة أن رأيه عن المؤلف يتسم بالتعسف الشديد فهو يقول « فالرحلة في مجموعها ليست سوى سرقة على نطاق واسع مع إضافة مئات من الأبيات الشعرية لا يربطها في أغلب الأحيان أى رباط بمحتويات الكتاب » (١٥٩) « وهو لا يجهد في التعريف بخط سير الرحلة بقدر ما يحاول إظهار علمه ومعرفته » (١٦٠) . وجميع هذه العيوب والمناقص التي يشير إليها دى كاسترى موجودة بالطبع لدى التمجروتي كما وجدت لدى غيره من أدباء « الرحلة » في عصر التدهور ؛ غير أنه لا يمكن موافقته في أن قيمة الرحلة إنما تقتصر على هذا وحده . وتشير قرائن الأحوال إلى أن ثمة تقريراً كان من المفروض أن يرفعه المؤلف إلى الشريف عن هذه الرحلة (١٦١) ، لهذا فلا مناص من أن تجد قصائد المديح مكاناً لها في وصف الرحلة وهو يعبر في هذه القصائد عن شكره وامتنانه لولى نعمته .

* النسبة إلى تمجروت وهى مقر الزاوية الناصرية في جنوبي المغرب قرب وادى درعه ؛ والاسم بربرى والتاء فيه مزيدة لذا فإن النسبة إليها تمجروتي ومجروتي . (المتبرخم) .

وتعظيمه له حتى قارنه بسلطنة آل عثمان وفضله عليهم أحياناً . ورغماً من ذلك فإن تمجيده لسلطانه قد ساق إلى إيراد تفاصيل قيمة عن بلاد مراکش في أواخر القرن السادس عشر (١٦٢) وعن استقبالات ملوك مراکش ومواكبهم واستعراض الجند وعن الدوائر الأدبية بالبلاط ؛ بل إن الرحلة نفسها لا تخلو من معطيات واقعية قيمة خاصة إذا أخذنا في حسابنا أنها كبقية الرحلات المشابهة لها لم يكن الغرض منها وصف تحركاته بل وضع مصنف أدبي قبل كل شيء . ويحفل الكتاب بعدد من القصائد للمؤلف يتعلق بعضها بموضوع الرحلة والبعض الآخر يمدح فيه شخصيات مختلفة من بينها صديقه الشاعر الفشتالي . وإلى جانب هذا فالكتاب لا يخلو من شذوَر عديدة نقلها عن مؤلفين آخرين واستطرادات مختلفة ، مثال ذلك ما نقله من أحد المؤرخين في فتح إفريقيا وعن دولة الأغالية ، أو ذلك الفصل الطويل ذو الطابع الأخرى (eschatological) الذي يورد فيه بصدد الكلام على مدينة المهدية عدداً من الأحاديث في المهدي المنتظر (١٦٣) . أما في صلب الرحلة نفسها فتحتمل مكانة خاصة « الزيارات » العديدة إلى قبور الأولياء والصالحين المنتشرة على طول طريقه ، وزيارة العلماء ومدعى الصلاح (sanctimonious) ؛ وهو يغتنم هذه الفرصة كما فعل السابقون له فيستطرد في الكلام على سير حياتهم . والتجروتي في وصفه للمواضع الجغرافية كثيراً ما يلجأ إلى نقل كلام المؤلفين السابقين (١٦٤) خاصة الأندلسيين ، ويبدو هذا بصورة جلية عندما يقف للكلام على المدن الكبرى المأهولة . وأقرب المؤلفين إلى نفسه ثلاثة هم ابن عبد ربه (من القرنين التاسع والعاشر) والبكري (من القرن الحادي عشر) وأبو البقاء البلوي (من القرن الخامس عشر) (١٦٥) ؛ وهو ينقل عنهم كما فعل الجغرافيون قبله دون أن يعنى بالتتابع الزمني أو يشير إلى أن معلوماتهم تنتمي إلى عصر سابق للعصر الذي يعالج الكلام عليه .

456

والتجروتي لا يتعرض لوصف طريق رحلته داخل مراکش ، ولا ريب أنه قصد بذلك عدم تكرار أشياء مألوفة لبني وطنه (١٦٦) . وقد خرج التجروتي من فاس متجهاً إلى تطوان حيث بقيت السفارة لمدة ثلاثة أشهر في انتظار وصول سفينة من الجزائر . ثم أبحروا على طول الساحل الإفريقي مارين في طريقهم على وهران وتنس والجزائر وبجاية وبون وبزرت وتونس وسوسة ومنستير والمهدية وصفافس وجزيرة جربة إلى أن بلغوا طرابلس . والمؤلف يفصل القول في وصف المراكز المأهولة كتونس وبجاية ويمكن أخذ فكرة عن مدى استعانتة بالمؤلفين السابقين له حين نقرأ وصفه لتونس فهو ينقل عن ابن عبد ربه والبلوي ما يقرب من خمس وعشرين صفحة . وابتداء من طرابلس تظهر شخصية المؤلف بوضوح في القصة (١٦٧) لأنه أعوزته المصادر المكتوبة فاضطر إلى الاعتماد على نفسه وهو أمر لم يخل من الفائدة بالنسبة للكتاب ؛

وقد اضطر التجروتي وصحبه إلى البقاء بطرابلس لمدة شهر واثني عشر يوماً قبل أن يغادروها إلى ستنبول مع الأسطول العثماني الذي كان قد انتهى من إخماد ثورة نشبت بطرابلس ضد سلطان العثمانيين ؛

ويعصف لنا التمجرونى بتفصيل كبير رحلته عبر البحر الأبيض المتوسط وما أحدثته في نفسه من أثر وكانت هذه أول مرة يعبر فيها البحر ومن ثم فقد أحدث البحر تأثيراً كبيراً عليه ، وهو يرجع إلى الكلام على ذلك في مواضع عديدة من كتابه واصفاً الملح الذي استولى عليه من تقاذف الأمواج للسفينة والمخاطر التي تعرض لها أكثر من مرة . وهذه الاستطرادات الأدبية بما يصحبها من عدد كبير من القصائد بعضها له وبعضها لشعراء غيره تشغل جزءاً من كتابه غير يسير . وقد عرفت الرحلات البحرية بالبوصله (Compass) « بيت الإبرة » وبالحارطات الجغرافية ، وهو يقول في صدد هذا « والمصور الجغرافي للبحر مرسوم على جلد بينت عليه أسماء جميع المدن الساحلية والجزر ، وهو يعين اتجاهات الرياح المختلفة كما يبين المسافات التي قطعها السفينة وما » ستقطعه بالأميال . وهم يسمونها القمباس (١٦٨) . والسهو الأخير الذي وقع 457 فيه التمجرونى يبين بصورة جلية كم كان البحر والمصطلحات البحرية أمراً غريباً على مؤلفنا .

وهو يقدم وصفاً مفصلاً لاستنبول (١٦٩) سواء حين الكلام على مقابلته للسلطان أو في وصفه لخطط المدينة التي يولى اهتماماً خاصاً فيما بينها للجامع أياصوفيا ومساجد أخرى أو عند حديثه على التجارة والحرف وحياة أهل المدينة . كما يبدى اهتماماً خاصاً لما أبصره من انتعاش العلوم الإسلامية بها ويعترف بأنها تقف على مستوى واحد مع البلاد العربية ؛ وقد اجتذبت أنظاره بصورة خاصة كمية المخطوطات الهائلة سواء الموجودة بالمساجد أو بالأسواق والتي كانت تجد طريقها إلى استنبول من جميع البلدان بحيث كان بوسع أى قارئ أن يحصل على المراجع في جميع فروع العلوم (١٧٠) .

وفي عودته إلى وطنه أخذ التمجرونى نفس الطريق الذي جاء به إلى استنبول معتمداً في وصفه للمدن الكبرى مثل طرابلس وسوسة إلخ (١٧١) على المؤلفين السابقين له ؛ وهو يتحدث في القسم الأخير من كتابه عن استقبال السلطان لهم بفاس مع وصف مفصل لمراسيم البلاط المراكشي . وفي الخاتمة يوجد عدد من قصائد المؤلف يرتبط بعضها بمناسبات لا علاقة لها بالرحلة . وقد توفي التمجرونى بعد هذا بقليل بمراكش وذلك في عام ١٠٠٣ هـ = ١٥٩٤ - ١٥٩٥ (١٧٢) ؛ وكان كتابه معروفاً جيداً بوطنه ، وفي بداية القرن الثامن عشر أدخل المؤرخ الوفرائي (توفي حوالي عام ١١٥١ هـ = ١٧٣٨) وصفه لمراكش في مصنفه التاريخي المعروف عن سلاطنة السعديين (١٧٣) . هذا وقد استمر التأليف التاريخي (historiography) منتعشاً بالمغرب لمدة أطول مما هو عليه الحال في البلاد العربية الأخرى ، كما وأن نمط الرحلة التقليدي بقي حياً إلى القرن التاسع عشر . وإلى العصر الذي عاش فيه التمجرونى ينتسب مصنف آخر لايسعنا إلا أن نجعله خاتمة لهذا الفصل وإن كان في واقع الأمر غير عربي لأنه مدون باللغة الإسبانية ولكن بحروف عربية . هذا المصنف يمثل نموذجاً لما يعرف بأدب الألميادو* Aljamiado أى أدب الموريسكيين Moriscos وهم العرب المنتصرون الذين تخلفوا بإسبانيا عقب سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢ ومغادرة المسلمين لشبه الجزيرة الأيبيرية نهائياً .

وقد تم العثور على مخطوطة هذا الأثر ضمن مجموعة من المصنفات العربية الأحميادية كشف عنها في عام ١٨٨٤ مسورة داخل جدار منزل عتيق بمدينة المناسد Almonasid ، وأغلب الظن أنه قد أخفاها أحد الموريسكيين عندما اضطروا إلى مغادرة ديارهم فقبعت محفوظة حوالى ثلاثة قرون حتى أصبحت بالتالى كنزاً علمياً لا يقدر .

458

ومن بين هذه المصنفات الأحميادية تحتل مكانة خاصة بالنسبة لنا « قصيدة » في وصف الحج إلى مكة بعنوان Las Coplas del Alichonte de Puey Monzon (« قصيدة الحاج القادم من بوى منسون » . ورعماً من جهلنا بشخص مؤلفها إلا أن موضع إقامته الذى بدأ منه رحلته معروف بوجه التحديد وهو محلة صغيرة على بعد ستة عشر كيلو متراً إلى الجنوب من مدينة منسون الأرغونية في وادى نهر سنكا Sinka ، وكانت هذه المحلة تسمى قديماً بوديوم مونتسونى Podium Montsoni ولكنها عرفت فيما بعد باسم بويو دى موروس Pueyo de Moros ثم أخذت اسم بويو دى سانتا كروز Pueyo de Santa Cruz ؛ وكان جميع سكانها من الموريسكيين ومن ثم تعرضت لاضطهادات شديدة في عام ١٥٩١ . وإلى عهد قريب من هذه الفترة ، أى نهاية القرن السادس عشر أو بداية القرن الذى يليه ، ترتفع رحلة الشاعر المجهول التى تقف شاهداً على ما أبداه الموريسكيون من صلابة في تمسكهم بعقيدتهم الإسلامية حتى إلى ما بعد مائة عام من سقوط غرناطة وذلك بالرغم مما تعرضوا له من ألوان الاضطهاد والتعذيب . خرج مؤلفنا من أراغون إلى بلنسية وأخذ من هناك سفينة لأحد البنادقة وجهتها تونس ؛ وقد وقفت بهم السفينة على موانى تونس الأخرى وجزيرة جربة حتى بلغت الإسكندرية بعد أن تعرضت لأكثر من عاصفة قاسية . وفي القاهرة انضم المؤلف إلى قافلة الحج فأدى فريضة الحج بطريق البر ولكنه لم يوفق أثناء عودته في تحقيق حلمه بزيارة طور سيناء والقدس ولو أنه لا ينسى أن يفرد لها بعض الأبيات في قصيدته معتمداً على المعلومات التى سمعها عن الآخرين ؛ أما عن بقية الطريق إلى أسبانيا فيلتزم الصمت .

هذه القصيدة الوصفية الفريدة في نوعها تضم تسعة وسبعين مقطعاً في ثمانيات (octaves) ؛ وإذا كانت بحسب رأى المتخصصين لا تكشف عن ميزات أدبية ذات بال إلا أنها على أية حال مفعمة بعاطفة صادقة ، وتقدم مادة طريفة قيمة عن ذلك الوسط الغريب الذى عاش فيه المؤلف . وقد لاحظ بعض الباحثات تأثير المسيحية في بعض زوايا القصيدة فمثلاً يوم القيامة قد عرض في صورة شعرية لا يقبلها أهل الورع من المسلمين . والقصيدة بأجمعها سهلة الفهم ويرتفع أسلوبها أحياناً إلى درجة عالية من الحماس والانفعال ؛ أما الوصف فيتميز في معظم الأحوال بالحيوية ؛ فهى في مجموعها نموذج جيد لأدب الموريسكيين . أما بالنسبة لنا فتكتسب أهمية خاصة نقطة معينة فيها وهى أن المؤلف قد زود القصيدة بتعداد نثرى للبلاد الإسلامية موزعة بحسب غلبة كل مذهب من المذاهب الإسلامية الأربعة على سكانها ؛ وهذا نجد أنفسنا أمام ثبت كامل لبلاد الإسلام كما عرفها آخر ممثلى الحضارة العربية في أسبانيا قرب بداية القرن السابع عشر ؛ ومما يبعث على الأسف أن القائمة قد حرقها أيدي النساخ تحريقاً كبيراً يجعلها تحتاج إلى بحث خاص مستقل ؛

حواشي الفصل السادس عشر

- (١) — Brockelmann, GAL, II, p. 242-245 ; SB II, p. 342-344 — Bel, EI, II, p. 419-420 — Arendonk, Ibn Khaldūn, p. 94 — Gibb, EI, EB, p. 257
Pons Boigues, p. 350-362, No 302 — Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 278-293 — Margoliouth, Lectures, p. 156-158 — البستاني، الروائع، ١٣-١٥ — Krachkovski, Arabskia Literatura, p. 30 — Bartold, Mus. mir, p. 63-65 — Bartold, Kult. mus., p. 53-55 — Amari (— Nallino), I, p. 84-85, No 60 — Ferrand, Relations, II, p. 459-461.
- (٢) — Prolégomènes, I, p. LXVII, note 3
- (٣) — المغربي، محمد، ص ٣٨-٨٣ .
- (٤) — Mahmassany, p. 38; cf حاجي خليفة III, p. 350, No 5881
- (٥) — De Slane, Histoire des Berbères — Prolégomènes, I, — ابن خلدون، المقدمة
- (٦) — Étude, p. 15, 21-22 طه حسين
- (٧) — صور رايت قسماً من «كتاب العبر» بخط يد المؤلف يرجع إلى عام ١٤٠١
(W. Wright, Palaeographical Society, No 84)
- (٨) — Amari (— Nallino) I, p. 84
- (٩) — Bartold, Mus. mir, p. 64-65
- (١٠) — شرحه p 63-64
- (١١) — Van den Bergh, p. 13-14
- (١٢) — Cf. : Mahmassany, p. 92-93
- (١٣) — Van den Bergh, p. 13
- (١٤) — Kamil Ayad, p. 43-49
- (١٥) — Van den Bergh, p. 9-12
- (١٦) — شرحه p. 12
- (١٧) — الترجمة p. 73-81 المتن — Prolégomènes, I — ابن خلدون، طبعة بيروت، ص ٣٥ — p. 90-99
- (١٨) — الترجمة p. 82-87; المتن — Preiégomènes, I — ابن خلدون، طبعة بيروت، ص ٣٨ — p. 99-105
- (١٩) — Prolégomènes, I, المتن p. 88-148 — ابن خلدون، طبعة بيروت، ص ٤١-٦٥ — p. 106-168 الترجمة —

- (٢٠) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٣٣
- (٢١) شرحه
- Prolégomènes, I, المتن p. 75; الترجمة p. 92-93 (٢٢)
- (٢٣) شرحه p. 99 الترجمة p. 81 المتن I,
- (٢٤) شرحه p. 99 الترجمة p. 82 المتن I,
- (٢٥) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، تقرأ « يريدوا » بدلا من « يردو »
- Prolégomènes, I, المتن p. 86-87 والترجمة p. 104-105 (٢٦)
- Prolégomènes, I, المتن p. 87 الترجمة p. 105 (٢٧)
- Prolégomènes, I, الترجمة p. 105, note 2 (٢٨)
- (٢٩) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٤١
- (٣٠) شرحه ، ص ٤٢
- (٣١) شرحه ، ص ٤٢ ، ٤٣
- (٣٢) شرحه ، ص ٤٣
- (٣٣) شرحه ، ص ٤٢
- (٣٤) شرحه ، ص ٦٤
- Kramers, El, EB, p. 71 (٣٥)
- (٣٦) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٦٥ – ٦٨ .
- (٣٧) شرحه ، ص ٦٨ – ٦٩
- (٣٨) شرحه ، ص ٦٩ – ٧٣
- Cf. : Étude, p. 85-91 — Mahmassany, p. 169-170 (٣٩)
- Cf. : Étude, p. 92-93 (٤٠)
- Mahmassany, p. 171 (٤١)
- (٤٢) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٩٥
- (٤٣) شرحه ، ص ٢٧٢ – ٣٠١
- (٤٤) شرحه ، ص ٣٠٢ – ٣٠٤
- (٤٥) Étude, p. 28 - 29 طه حسين
- Prolégomènes, I, p. CXII (٤٦)
- Amari (—Nallino), I, p. 84 (٤٧)
- Mahmassany, p. 43 (٤٨) ابن خلدون ، الروائع ، رقم ١٥ ، ص ح – د
- Wüstenfeld, Die Geschichtschreiber, p. 234, No 508 — Brockelmann, (٤٩)
- GAL, II, p. 54, No 17; SB II, p. 52-53 — Mieli, p. 274, No 7 —

- ويعن يخلطون [ببنه] وبين شخص آخر (عاش في الفترة ٧٨٤ هـ - ٨٨٥ هـ - ١٣٨٢ = ١٤٥٠) : السوكاني ،
الجزء الأول ، ص ٣١٥ - ٣١٧ ، رقم ٢٨٢ ؛ Wiet ، المنهل الصافي ، ص ١٩٣ رقم ١٣٤٦
- Lévi della Vida, Al-Andalus, I, p. 308, note 2 (٥٠)
- (٥١) ابن إياس ، الجزء الرابع ، ص ٣٧٤
- Lévi della Vida, Al-Andalus, I; p. 320, note 1 (٥٢)
- (٥٣) شرحه p. 334
- (٥٤) شرحه p. 324, note 2
- (٥٥) ابن إياس ، الجزء الرابع ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤
- Lévi della Vida, Al-Andalus, I, p. 308-309 (٥٦)
- Lévi della Vida, Elenco, p. 69, No 728- 729 (٥٧)
- Lévi della Vida, Al-Andalus, I, p. 307-334 (٥٨)
- (٥٩) شرحه p. 307
- (٦٠) شرحه p. 310
- Lévi - Provençal, La Péninsule, p. XI (٦١)
- Pons Boigues, p. 175, No 139 - Gaudelroy - Demombynes, La Syrie (٦٢)
- p. XI - XII - Brockelmann, GAL, SB II, p. 38, No 11 - Mieli, p. 272 - 273
- Lévi - Provençal, La Péninsule (٦٣)
- (٦٤) III, p. 490, No 6597 حاجي خليفة
- Lévi - Provençal, La Péninsule, XVI (٦٥)
- (٦٦) شرحه p. XV
- (٦٧) شرحه p. XII
- Lévi - Provençal, الجزء الثاني p. XIX - XX . ح - ج . p. المتن (٦٨)
- (٦٩) p. XXIII-XXVI - Lévi Provençal, Al-Zallāka, p. 1304 شرحه
- Nallino, Centenario, I, p. 327 - 328 ; II, p. 640 - 641 (٧٠)
- Lévi - Provençal, Hist. des Chorfa, p. 361, note 2, 396 (٧١)
- Collin, Hespéris, XX, p. 94 - 98 : تقرظه لدى ؛ محمد المهدي الحجوي (٧٢)
- Massignon, Maroc, p. 32-34 (٧٣)
- Brockelmann, GAL, SB II, p. 710, No 1a - Massignon, Leo Africa. (٧٤)
- nus, p. 24 - Mieli, p. 276, 279-280, note 6-9 -- Amari (Nallino)
- I, p. 361 - 363 - Schefer, Description de l'Afrique - Massignon, Maroc.

- Massignon, Maroc, p. 33 — Schefer, Description de l'Afrique, I, p. VI (٧٥)
- Massignon, Leo Africanus, p. 24 (٧٦)
- Lévi - Provençal, Wattäsidén, p. 1228 (٧٧)
- Schefer, Description de l'Afrique, I, p. VII (٧٨)
- I, p. VII — XII ، شرحه (٧٩)
- p. XII ، شرحه (٨٠)
- p. XIII — XIV ، شرحه (٨١)
- Amari (— Nallino), I, p. 361 (٨٢)
- Atiya, The Crusade, p. 477 (٨٣)
- Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XIV (٨٤)
- p. XVI — Massignon, Leo Africanus, p. 24 — Massignon, Maroc, p. 10 شرحه (٨٥)
- Massignon, Leo Africanus, p. 24 (٨٦)
- Giovanni Leone, cf. : Massignon, Leo Africanus, p. 24 (٨٧)
- Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XVI (٨٨)
- Alemany, p. 169 (٨٩)
- Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXIII (٩٠)
- Massignon Maroc, p. 23 (٩١)
- p. 26 ، شرحه (٩٢)
- Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXXVI (٩٣)
- Amari (— Nallino), I, p. 362 (٩٤)
- Massignon, Maroc, p. 43 (٩٥)
- Colin, Hespéris, XX, p. 97 (٩٦)
- Massignon, Maroc, p. 43-45 (٩٧)
- p. 36,40 ، شرحه (٩٨)
- Mieli, p. 279 (في آخرها) — Schefer, Description de l'Afrique, III, p. 428 (٩٩)
- Mieli, p. 279, note 7 at the end — Schefer Description de l'Afrque. III, (١٠٠)
- p. 469
- Cf : Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXIV (١٠١)
- Massignon, Maroc, p. 36-39 — Schefer, Description de l'Afrique, I, p. (١٠٢)
- XXVI — XXVII
- Cf. : Brockelmann, GAL, SB I, p' 252, No 9 (١٠٣)

- Massignon, Maroc, p. 41-42 (١٠٤)
- p. 44 ، شرحه (١٠٥)
- p. 63 ، شرحه (١٠٦)
- p. 4-9 ، شرحه (١٠٧)
- Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXX – XXXV (١٠٨)
- Massignon, Maroc, p. 65 (١٠٩)
- Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXXV (١١٠)
- p. XXXV ، شرحه (١١١)
- II, p. V ، شرحه (١١٢)
- Amari (— Nallino), I, p. 362 (١١٣)
- p. 363 ، شرحه (١١٤)
- Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXXVI (١١٥)
- Kramers, EI, EB, p. 71 (١١٦)
- Miller, V, p. 173 (١١٧)
- Beiheft, V, Taf. 82b : من الصورة راجع p. 173-175 ، شرحه (١١٨)
- p. 173 ، شرحه (١١٩)
- p. 174 ، شرحه (١٢٠)
- p. 175 ، شرحه (١٢١)
- (١٢٢) شرحه
- Nallino, BSGI, IX, p. 721-736 (١٢٣)
- Miller, V, p. 176 (١٢٤)
- Brockelmann, GAL, SB II, p. 710, No 1b — Blochet, L, Étude, p. 19 — Miller, V, p. 176 (١٢٥)
- V, Beilage, No 7 توضيحها ؛ من اليسار Miller, VI, Taf 78 عن الصورة راجع — (١٢٦)
- = V, p. 175 من اليمين VI, Taf. 78 شرحه (١٢٧)
- Kramers, EI, EB, p. 72 (١٢٨)
- Blochet, L'Étude, p. 19 (١٢٩)
- p. 20 ، شرحه (١٣٠)
- Reinaud, Introduction, p. CLXX (١٣١)
- Blochet, L'Étude, p. 18 (١٣٢)

- Miller, V, p. 176 (١٣٣)
- Reinaud, Introduction, p. CLXX (١٣٤)
- (١٣٥) عن الصورة راجع : Miller, VI, Taf. 79-80 : توضيحاتها V, p. 176 شرحه :
ملونة راجع : V, p. 177
- Blochet, L'Étude, p. 21 (١٣٦)
- Amari (—Nallino), I, p. 293, note 1 (١٣٧)
- Blochet, L'Étude, p. 21 (١٣٨)
- Miller, V, p. 177 (١٣٩)
- (١٤٠) شرحه I, 2, p. 52
- Blochet, L'Étude, p. 21 (١٤١)
- Nallino, BSGI; IX, p. 721-736 (١٤٢)
- D'Avezac, cf. : Kramers, EI, EB, p. 72 (١٤٣)
- D'Avezac, p. 77 (١٤٤)
- (١٤٥) شرحه
- p. 72 شرحه (١٤٦)
- p. 63 شرحه (١٤٧)
- (١٤٨) شرحه p. 65 - 66, 75
- Brockelmann, GAL, I, p. 5, 349; SB I, p. 7, 867 (١٤٩)
- D'Avezac, p. 77. (١٥٠)
- De Castries, IV-VI (١٥١)
- Brockelmann, GAL, II, p. 679-680, No 2c. — Lévi-Provençal, Al-Ta- (١٥٢)
mgrüti, p. 696 — Lévi-Provençal, Hist. des Chorfa, p. 98-99 — De
Castries, p. IV
- De Castries, p. IV (١٥٣)
- Lévi-Provençal, Al-Tamgrüti, p. 696 (١٥٤)
- Brockelmann, GAL, SB II, p. 679-680, No 2c. (١٥٥)
- Lévi-Provençal, Hist. des Chorfa, p. 97-98 (١٥٦)
- De Castries, p. 45 (١٥٧)
- p. XVI شرحه (١٥٨)
- p. I شرحه (١٥٩)
- p. II شرحه (١٦٠)

- p. IV شرحه (١٦١)
- Lévi-Provençal, Al-Tamgrüti, p. 696 — De Castries, p. XI (١٦٢)
- De Castries, p. X (١٦٣)
- p. VIII شرحه (١٦٤)
- شرحه (١٦٥)
- شرحه (١٦٦)
- شرحه (١٦٧)
- p. 84 شرحه (١٦٨)
- p. VIII-IX, 47-69 شرحه (١٦٩)
- p. 68 شرحه (١٧٠)
- p. IX شرحه (١٧١)
- Lévi-Provençal, Al-Tamgrüti, p. 696 (١٧٢)
- شرحه (١٧٣)

القاهرة
مطبعة مجنذ النايك والترجمة والنشر
١٩٦٣